



لَا تَكُنُوا شَوْقِي ضَعِيفًا

عصر الرواية والخطابة

مصر

تاريخ
الأدب
العربي



عصر
الدول والإمارات
مصر

عصر
الدول والإمارات
مصر

تأليف
الدكتور شوقي ضيف



shiabooks.net

رابطہ بديل < mktba.net



منشورات ذوی القربی

اسم الكتاب :	تاریخ الادب العربی (ج ۷) □
المؤلف :	شوقی الضیف □
الناشر :	ذوی القربی □
الطبعة :	الأولی □
تاریخ الطبع :	۱۴۲۸ □
الكمية :	۱۰۰۰ نسخة □
المطبعة :	ستاره □
شابك ج ۷ :	۹ - ۱۹۰ - ۵۱۸ - ۹۶۴ - ۹۷۸ □

مركز التوزيع : قم - پاساژ قدس - الطابق الاول - رقم ۵۹ - تليفون : ۷۷۴۴۶۶۳ - ۲۵۱ - ۹۸ +

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بمصر في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، وكان المؤرخون للأدب العربي - كما ذكرنا في مقدمة الجزء الخامس من هذه السلسلة - يُدخلون منه أكثر من ثلاثة قرون في العصر العباسي الثاني تنتهي سنة ٦٥٦ حين أغارت قطعان المغول على بغداد، وقوّضت ما كان بها من مدينة وحضارة، وهو خطأ محض لأن سلطان الخلافة العباسية كان قد تداعت أركانه منذ دخول البويهيين بغداد سنة ٣٣٤ إذ لم يعد لها سلطان حقيقي إلا على بغداد وأعمالها، بل إن سلطانها في بغداد كان سلطاناً منقوصاً، إذ كان السلطان الحقيقي فيها بيد البويهيين ومن خلفهم من السلاجقة. وصحب ذلك توزع العالم العربي إلى دول وإمارات حتى العصر الحديث. وأيضاً كان هؤلاء المؤرخون للأدب العربي يسمّون القرون الثلاثة التالية لغزو المغول ببغداد باسم العصر المغولي، بينما كان سلطان المغول لا يتجاوز العراق وإيران، ومن الخطأ الواضح أن نقول إن ديار مصر كانت تعيش في العصر المغولي، بينما لم يكن لسلطان المغول في تلك الديار أي ظل، والصحيح أن عصر الدول والإمارات كان يظللها، وامتد جناحاه زمنياً حتى شمل ما سواه المؤرخون باسم العصر العثماني.

وينبغي أن نعرف أن الطول الزمني لعصر الدول والإمارات لا يعني أن تاريخ الأدب العربي ظل في كل دولة من دوله أو إمارة من إماراته متسماً بسببات أدبية واحدة في أزمنته المتغايرة عبر قرونيه المتطاولة، مهما مرّ بالدولة أو الإمارة من أحداث ومهما ألمّ بها من خطوب فإن ذلك يخالف طبائع الشعوب المتطورة دائماً من زمن إلى زمن. وهو ما جعلني أقسم تاريخ الأدب في كل بلد تقسيماً زمنياً يحيط بأطواره الأدبية المتعاقبة وصورة مجتمعه وحياته العلمية. ودعاني ذلك إلى أن أرجع في كل قطر إلى الحقب السالفة لعصر الدول والإمارات منذ الفتح العربي لها لا سياسياً فحسب، بل أيضاً اجتماعياً وأدبياً وعلمياً، حتى تتضح شخصية القطر بكل ما يتميز به في حياته السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية منذ فجر تاريخه العربي إلى العصر الحديث.

وقد يُظَنُّ أن طول هذا العصر دفع إلى شيء من التقاطع الأدبي أو العلمي بين دولة وإماراته، وهو ظن محطّئ، فقد كان بين شعوبها جميعا تواصل لا ينقطع أشبه بتواصل ذوى الأرحام: تواصل في العادات والتقاليد والمعيشة والدين والأدب والعلم، واستشعر ذلك أسلافنا إلى أقصى حد، فكانوا إذا ألفوا كتابا عن الشعراء مثلا ساقوا فيه شعراء العالم العربي جميعا كما في اليتيمة للشمالي والخريدة للعماد الأصمهباني، وبالمثل إذا ألفوا كتابا عن القراء أو المفسرين أو المحدثين أو عن صنف من الفقهاء كالشافعية أو عن النحاة. ودأبوا منذ القرن الثامن الهجري يجمعون في القرن علماء العالم العربي وأدباءه جميعاً في كتب مرتبين فيها ترتيبها أبجديا بحيث نستطيع أن نؤرخ في كل قرن للحركتين الأدبية والعلمية في أى قطر عربي، ومعنى ذلك أنه ظلت تربط بين الأقطار العربية طوال عصر الدول والإمارات والأزمنة قبله وحدة أدبية وجدانية، وعلمية عقلية.

وقد بدأت في هذا الجزء بعرض تاريخ مصر السياسي، وأقدم الأزمنة التي خطها التاريخ بها زمنُ الخلفاء الراشدين وماتلاه سريماً من زمن الأمويين، وفيها أخذ الدين الحنيف ينتشر في مصر ويعتقه كثيرون من سكانها القبط. وبحكمها ولاية من قبل العباسيين ويدخلها مع جنودهم كثير من العناصر الفارسية. وتستشعر مصر استقلالها السياسي منذ أواسط القرن الثالث الهجري في عهد الطولونيين، وبالمثل في عهد الإخشيديين. وتستولى عليها الدولة الفاطمية وتنشئ فيها خلافة شيعية مستقلة عن خلافة العباسيين ببغداد، وتبوء جميع محاولاتها بنشر عقيدتها الإسماعيلية الشيعية بين المصريين بإخفاق ذريع. ويمتد حكمها أكثر من مائتي عام، وتأخذ في الضعف بعد نحو قرن وينزل حملة الصليب الشام في أواخر القرن الخامس الهجري ويستولون على بيت المقدس. ويحطّ خلفاؤها في نوم عميق إلى أن قبض الله لمصر صلاح الدين الأيوبي، فأسس بها الدولة الأيوبية، وأخذ يسحق ضلوع حملة الصليب في حطّين وغير حطّين، وتبوء خلفاؤه الأيوبيون ينزلون بهم ضربات قاصمة. ويغلفهم المباليك، وينازلون المغول في عين جالوت ويمزقون جموعهم، وتفرّ قلوبهم على وجوها إلى الشمال، ويظهرون الشام من تلك الفلول ومن بقايا حملة الصليب ورجسهم. ويدور الزمن دورات، وينزل العثمانيون مصر، وتتحول من دولة ذات سلطان عظيم إلى ولاية عثمانية.

ويُحِيل النِيلُ مصر من قديم إلى جنات وزروع وغروس شقي، وأهلها ذلك لرخاء

واسع - على مرُّ الزمن - لمن يسعون في مناكبها. ودائماً كان بها - في العهد الإسلامية - ثلاث طبقات: عليا، ووسطى، ودنيا. وفي الطبقة العليا الوالى وصاحب الخراج، والقاضى، وقواد الجند، وكبار الإقطاعيين، وكبار التجار ومعهم الأشراف من البيتين العباسى والعلوى. وفي الطبقة الوسطى العلماء والجند وأوساط الزراع والصناع والتجار، وفي الطبقة الدنيا أهل الريف وعامة الصناع والتجار والرقيق من أواسط إفريقيا ومن أرمينية وشعوب البحر المتوسط. وترك الحكام للكنيسة وكبار الإقطاعيين من القبط ما لهم من الأرض وحقوقها نظير الخراج، وأدى المقتدرون من القبط الجزية، وهى في حقيقتها ضريبة دفاع، إذ لم يكونوا يشتركون في الحرب وحماية وطنهم. وكانت الزراعة تدرّ كثيراً من طيبات الرزق، وكانت الصناعة رابحة: صناعة الورق والنسيج واستخراج بعض المعادن كالنطرون. وتلقى مصر بكنوزها في حجر أحمد بن طولون فيبنى قصره العظيم، وجامعه الكبير وبياراتها ضخماً، ويفرق ابنه خوارويه في ترف بالغ. وتنعّم الدولة الإخشيدية ببراء مصر، ويتضخم في عهد الفاطميين، ويكثر من القصور والبذخ والترف وأدواته، ويتسعون في الاحتفال بالأعياد الإسلامية، وأعياد القبط والفرس. وأصبحت مصر في عهد صلاح الدين وخلفائه الأيوبيين ثكنة حربية تُعدُّ لضرب حملة الصليب الضربات القاضية، ومع ذلك اتسمت مصر في العمران وبناء المدارس الكثيرة والخانقاهات. وبخلفهم المماليك، وتميش مصر طوال زمنهم في رغد من العيش، وتزدهر بها الحياة والعمران ازدهاراً واسعاً وكانت قد أصبحت ملاذاً لعلماء العالم العربى النازحين من وجه النورمان والإسبان غرباً ومن وجه المغول شرقاً. وتدور بها الدوائر فيحتلها العثمانيون، وفزائلها غير قليل من الرخاء ومن منزلتها الكبرى في العالم العربى.

وتحدثت عقب ذلك عن الدعوة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية المتطرفة ومبادئها وتسلّم المصريين بعقيدتهم السنية وكأنما كانت تلك الدعوة بمصر صحبات ذهبت أدراج الرياح وبالمثل تحدثت عن الزهد وكيف أن مصر عرفت الضربين من التصوف الفلسفى والتصوف السنى مع بيان أهم طرقه وأعلامه وخانقاهاته.

ومعروف ما لمصر من دور عظيم في نشأة الحضارة الإنسانية ونشأة العلم بمعناه العالمى وظلت ترعاه طويلاً. وكانت قد خدعت جذوته قبيل نزول الإسلام بها، وعاد إليها الانتقاد تدريجياً بحيث لا تصل إلى أواسط القرن الثانى الهجرى حتى يصبح لعلمائها حظ واضح من المساهمة في الدراسات الدينية ونشرها في العالم العربى، فهى

تنشر قراءة ورش، ومذهب مالك في بلاد المغرب والأندلس، وتنتشر مذهب الشافعي في الشام وبغداد وخراسان. وسرعان ما تكتب تاريخ الفتوح لإفريقيا والأندلس لأول مرة، وتكتب رواية للسيرة النبوية الزكية، تصبح إماماً لكتب السيرة الشريفة، ويضع أحد أبنائها وهو ذو النون أسس التصوف الإسلامي. وتزداد حركتها العلمية نشاطاً في عهد الفاطميين ويؤسسون بها جامعة سموها دار العلم، ألحقوا بها مكتبة ضخمة. وتأخذ الحركة العلمية بمصر في ازدهار واسع لعهد الأيوبيين وما أسسوا بها من عشرات المدارس، ويزداد عددها في عهد المماليك ازدياداً مفرطاً حتى يقول ابن بطوطة حين زار مصر لأيامهم إن أحداً لا يستطيع أن يحيط بها لكثرتها. ولم تكن المدارس وحدها دور العلم فقد كانت تشاركها في ذلك المساجد والمجموع مثل الجامع الأزهر. ومع خلود تلك الحركة العلمية في عهد العثمانيين ظلت مصر حامية للتراث العربي، وموتلاً لعلماء المغرب والشرق، وظلت تضيء في جامعة الأزهر مصابيح العلم والعرافان.

وعرضت نهضة العلوم المختلفة بمصر عرضاً تفصيلياً تاريخياً على مر الأزمنة، وبدأت بعلوم الأوائل، وأملت بما كان لمصر فيها من نشاط قبل الفتح العربي سواء في الهندسة أو الرياضة أو الفلك أو الطب أو الكيمياء أو الفلسفة. وانتفعت مصر الإسلامية بما كان فيها من هذا التراث، وضمت إليه ما نقل ببغداد من الفلسفة وعلوم الأوائل عن اليونانية وغير اليونانية. وقد تحدثت عن النشاط العلمي والفلسفي لمصر منذ أيام الفاطميين وأعلامه على مر الحقب، وتحدثت عن جغرافيتها منذ ابن سليم مكتشف المجرى الأعلى للنيل في أواسط القرن الرابع الهجري. وبالمثل تحدثت عن النشاط في علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد وأعلام مصر فيها جميعاً على مر التاريخ ومع كل علم مصنفاة القيمة. وأيضاً عرضت علوم القراءات والتفسير والحديث النبوي والمذاهب الفقهية وعلم الكلام والتاريخ وعلمائها جميعاً على تعاقب الحقب، وما لهم من مصنفاة بالغة القيمة، وذكر في كل علم من العلوم الدينية واللغوية وعلوم الأوائل من نهخوا فيه أيام العثمانيين. وبذلك أصبح التاريخ العلمي لمصر وعلمائها الأقداد في كل علم وفن مرسومًا رسماً دقيقاً منذ القرن الثاني الهجري حتى العصر الحديث.

وقد أخذت مصر - بعد الفتح العربي - تتعرب سرّياً لاعتناق كثير من سكانها القوط الإسلام لما استقرّ في نفوسهم من أن منّ مسلم منهم يصبح له جميع حقوق

العربي الفاتح، ويدلُّ بوضوح على كثرة من أسلم منهم أن الجزية التي كانت تؤخذ من القبط في عهد عمر بن الخطاب هبطت إلى أقل من النصف في عهد معاوية. وعملت على السرعة في تعرب مصر هجرات كثير من القبائل إليها حين سمعوا بزروعها ونهارها وطيبات الرزق فيها، وامتزجوا بسكانها عن طريق المعيشة والمصاهرة، مما أعدَّ لتعرب من لم يدخل من القبط في الدين الحنيف، حتى إذا كنا في القرن الثالث الهجري ثم تعرب القبط برهبانهم وبطاركتهم وإن ظلت القبطية حية في بعض الأديرة.

وكان نشاط الشعر العربي بمصر محدوداً زمن الأمويين لأن كثرة الجيش العربي الفاتح كانت من اليمنية، والشعر إنفاً يكثر على لسان القبائل المضربة والقيسية، وربما نظمت بها أشعار لم يسجلها الرواة، حتى إذا كنا في زمن ولاتها العباسيين رأينا الشعر يأخذ في النشاط بها، ونزها أبو نواس وأبو تمام، وازداد نشاطه فيها لعهد الدولتين الطولونية والإخشيدية ونزها المتنبى وأحدث نزوله بها حركة أدبية خصبة.

وتتحول مقاليد الحكم فيها إلى الدولة الفاطمية. ويترجم التعالي في كتابه «التيمة» لكثيرين من شعراء مصر، ويفرد لها العهد الأصهباني مجلدين في كتابه «الحريفة» ترجم فيها مائة وأربعين شاعراً، ويطرد هذا الازدهار للشعر في مصر طوال زمن الأيوبيين والمماليك، وتظل منه بقية أيام العثمانيين.

ويكثر في مصر الشعر الدوري منذ ابن وكيع التنيسي في القرن الرابع الهجري، وتكثر الرباعيات حتى إذا ازدهرت الموشحات في الأندلس درسها ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين الأيوبي ووضع لها عروضها ورسومها كما وضع الخليل بن أحمد في القرن الثاني الهجري عروض الشعر العربي ورسومه. وابن سناء الملك فيها موشحات تشيع فيها حلاوة الجرس والسلاسة والعذوبة، وبذلك كتب لها الذيوع الواسع بعده في مصر على ألسنة الشعراء مثل الغزالي، وأكثر المتصوفة في زمن المماليك من النظم فيها وتلحينها في أذكاهم. ويستظهر الشعراء - منذ القاضي الفاضل - ألوان البديع ومحسناته، ويصبح التفنن فيها مقياس إبداعهم.

وأخذت - بعد ذلك - أترجم لأعلام الشعر في مصر طوال عصر الدول والإمارات محلاً لشخصياتهم الأدبية وموزعاً لهم على أغراض الشعر وموضوعاته الأساسية، فللمديح أعلام مبدعون من مثل ابن سناء الملك واضع عروض الموشحات، وللرثاء والشكوى أعلامها النابهن مثل علي بن النضر بلكته الشعرية

الخصبة، وللدعوة الإسماعيلية أعلام مختلفون مثل ابن هانيّ الشاعر الفاطمي، وللنزل أعلام وجدانيون مرهفون مثل البهاء زهير، وللشعر والمجاء أعلام مبرزون مثل تميم بن الحرّ وابن النّزوى المقتدع في هجائه، وللطبيعة وبجاس اللهو أعلامها مثل الشريف العقيلي وله في الطبيعة المصرية ديوان كبير بديع، وللزهد والتصوف والمدائح النبوية أعلام يتفنون بالحب الإلهي مثل ابن الفارض وبالحب النبوي مثل البوصيري، وللشكاهة أعلام توجّج أشعارهم بالتندير والدعابات والتوريات والمزل مثل ابن دانيال وله مسرحيات هزلية بديعة. وعرضت شعراء الشعر الشعبي العامي وطرائف مما نظم أعلامه من فنونه في الأزجال والتوريات والفكاهات المستملحة. وبلغ عدد من ترجمت لهم من شعراء مصر الألفاظ في عصر الدول والإمارات اثنين وأربعين شاعرًا، ومع كل شاعر تصوير شخصيته الأدبية وخصائصه الفنية وروائع شعره. وقد ذكرت مع كل غرض من أغراض الشعر شاعرًا ناهيا من الشعراء أيام العثمانيين. ولم أترجم لعشرات من شعراء مصر تكتظ بهم كتب الطبقات والتراجم لأنه لم يكن لأحدهم دور بارز في تطور الشعر بمصر. وأنا لا أكتب دائرة معارف لشعرائها على مرّ الأزمنة، وإنما أكتب تاريخها الأدبي في الشعر، ومن كان لهم دور في التطور به أتاح لهم مجداً أدبياً كبيراً أو قليلاً.

ومضيت أعرض النثر وكتابه بمصر بادئاً بالرسائل الديوانية منذ أنشأ أحمد بن طولون ديوان الإنشاء واتخذ له كتاباً مجيدين. ومعنى الفاطميون بهذا الديوان ويشتهر فيه غير كاتب بحسن بيانه، وخاصة في الحقبة الأخيرة من أيامهم. وتبلغ الرسائل الديوانية الذروة الأدبية على يد القاضي الفاضل وزير صلاح الدين، ويتألق نجمه وتصيح له مدرسة كبيرة، ويتكاثر تلاميذها في بقية أيام الدولة الأيوبية ودولة المماليك، وترجمت لأربعة من أعلام الكتابة الديوانية. وأخذت الرسائل الشخصية تزدهر بدورها منذ زمن الفاطميين، واتسع ازدهارها بعدهم، وترجمت لثلاثة من أعلامها النابيين. ومعنى بعض الكتاب - منذ أيام الفاطميين - بكتابة المقامات، وقلّما تقوم على الشحادة الأدبية مثل مقامات الحريري، إنما تقوم على بعض مسائل علمية، أو على وصف الطبيعة، أو على قصص فكاهية، أو على وعظ، أو على مفاخرات بين الأزهار، أو بين السيف والقلم، وما إلى ذلك من موضوعات أدبية، وترجمت لأربعة من كتابها البارعين. وتكثر المواعظ والانتهالات والمناجيات الربانية على نحو ما صوّرت ذلك عند ثلاثة من أعلامها المهمين. وعرضت - بعد ذلك - أربعة من كتب النوادر

هى: كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف، وهو حكايات قصيرة لطيفة تحض على عمل الخير، وكتاب أخبار سبويه فى نقد الحكام والناس ممزوجاً بالتأله، وكتاب الفاشوش فى حكم قراقوش وكان صلاح الدين ينيبه عنه أحياناً فى حكم القاهرة، وصورة ابن ممانى فى طائفة من الأحكام الطائشة تحكى غفلته وحمقه وبلهه، وكتاب هز القحوف ويكتظ بنوادير لاذعة على لسان أهل الريف المصرى تصور يؤسهم أيام العثمانيين. وتلا ذلك أربع سير شعبية: سيرة عنترة، والسيرة الهلالية، وسيرة الظاهر بيبرس، وسيرة سيف بن ذى يزن، وجميعها تصور البطولة المربية وفضائلها الرفيعة. وعرضت أخيراً كتاب ألف ليلة وليلة وتاريخ نقله إلى العربية وما أضيف إلى قصصه الهندية من قصص بغدادية وقصص مصرية مع بيان ما يتميز به كل نوع من أنواع هذه القصص. وقد صاغت مصر الكتاب بلغتها العامية وانتشر بها فى العالم العربى منذ عصر المماليك. وبنفس العامية انتشر فى البلاد العربية من قديم ما ألفته مصر من كتب السير الشعبية المذكورة آنفاً: سيرة عنترة وأخواتها. وكان لذلك أثره الكبير فى تعرف تلك البلاد على العامية المصرية قبل العصر الحديث بئات السنين.

وهذه الدراسة المتشعبة لتاريخ الأدب العربى فى مصر أثناء حقب طويلة تمتد من فجر تاريخها العربى إلى العصر الحديث جعلتنى أرجع إلى كل ما استطعت من المصادر والمراجع المتصلة بتاريخ مصر ودولها المتعاقبة، وبمجتمعاتها وطبقاتها وشؤونها المعيشية والعقيدية، وبالحركة العلمية فيها ونموها وازدهارها، مع العرض التاريخى لعلبانها الأفاضل فى علوم الأوائل والعلوم اللغوية والدينية والكتابة التاريخية. ورجعت أيضاً إلى كل ما استطعت الاطلاع عليه من الشعر ودواوينه، وما اتصل به من الرباعيات والموشحات، كما رجعت إلى الكتابات النثرية المتنوعة من مثل الرسائل والمقامات والمواظع والسير والقصص الشعبية، مع رسم الشخصيات الأدبية للشعراء والكتاب التاييين وعرض خصائصهم الفنية عرضاً نقدياً تحليلياً. ولا أزعم أنى صورت تاريخ الأدب العربى فى مصر قبل العصر الحديث تصويراً كاملاً، إنما حاولت، وأرجو ألا أكون قصرت. واقه أسأل أن يلهمنى السداد فى الفكر، والإخلاص فى القول والعمل. وهو حسبى ونعم الوكيل.

القاهرة فى ٢٠ من مارس سنة ١٩٩٠م.

شوقى ضيف

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

فتح العرب لمصر والحقب الأولى^(١)

(١) فتح العرب لمصر

معروف أن مصر نهضت بأقدم دور في تاريخ الحضارة الإنسانية ، فعنها تلتقت الأمم القديمة هتمة البناء كما تشهد بذلك أهراماتها الشاهقة . كما تلتقت عنها فكرة الكتابة ونقش الحروف ، وبذلك كان لها فضل كبير في بث المعرفة ، وأعلّتها النيل لتكون أستاذة الأمم في العناية بالزراعة وتنظيم الترع والجسور . وهي أول من حاول تأليف أمم الشرق الأوسط في وحدة امتدت من الفرات إلى النيل ومن آسيا الصغرى إلى بلاد البُنت والثوبة . ودار بها الزمن دورات ، فدخلها الرعاة المحكوس والأشوريون ، وسرعان مازابلوها ، وغزاها الفرس في عهد قبيز عام ٥٢٥ ق . م ونزلها الإسكندر المقدوني عام ٣٣٣ ق . م وأسس بها مدينة الإسكندرية ، وأقام بها قائده بطليموس هو وأبناؤه دولة البطلمة الإغريقية متخذين الإسكندرية عاصمة لهم . وفي عام ٣١ للميلاد استولى عليها الرومان ، واثارت عليهم مصر مراراً ، ودخلها الفرس وقاومتهم مصر والرومان ، فخارقوها سريعاً ، وتسوء أحوالها سوءاً شديداً ، فإن هرقل إمبراطور بيزنطة كان يضطهد مَنْ لايعتقون مذهبه الملكاني المسيحي ، وكان المصريون يعاقبة ، يقولون بأن الله والمسيح

للمسعودي وحسن المحاضرة السوطي (طبعة عيسى البابي الحلبي) ١٠٦ / ١ وضع العرب لمصر لبطر (الترجمة العربية) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الترجمة العربية) طبع بيروت ١ / ٩٩ .

(١) أنظر في فتح مصر فتح مصر لابن عبد الحكم وفتح البلدان للبلاذري وتاريخ الطبري وابن الأثير والمغرب لابن سعد قسم القسطنطين (طبع جامعة القاهرة) وخطط المقرئ (طبعة دار التحرير) ١ / ٥٥١ والنجوم الزاهرة لابن تيمر بردى : فواتح الجزء الأول ومروج الذهب

اتحدا في طبيعة واحدة بينما كان الملكانية يرون أن للمسيح طبيعتين طبيعة لاهوتية روحية وطبيعة ناسوتية جسدية ، وعارض المصريون المذهب الملكاني البيزنطي معارضة شديدة ، ويعين هرقل قيرس (المقوقس) بطريقا للإسكندرية جامعا إلى سلطته الدينية السلطة الزمنية ، ويأخذ في حمل المصريين على مذهب الملكاني فيقاومونه مقاومة حادة ، ويعنف بهم وبرهبانهم ويقتل عليهم في الضرائب . وبذلك يضيف إلى القَلْب الديني غلًا اقتصاديا .

وتقاوم مصر بكل ما استطاعت ، إذ كانت تعدّ الدين مظهر استقلالها وحريتها وشخصيتها ولذلك اشتد سخطها على ييزنطة ، وبينما هي في هذا السخط الحاد إذا العرب بقيادة عمرو بن العاص يقبلون من الشرق عام ١٩هـ / ٦٤٠ م ويستمرّون في زحفهم حتى حصن بابليون (بالقرب من ممفيس القديمة) ويطول حصارهم له ، فيغزو عمرو إقليم القيوم ويشدد الحصار على حصن بابليون ، ويضطر قيرس (المقوقس) إلى التسليم . ويتجه عمرو إلى الشمال الغربي ويستولى على الإسكندرية . ولم يكن يقاومه في حصن بابليون والإسكندرية جميعا سوى الروم . وكان المصريين وجدوا فيه وفي العرب مخلصا لهم ، إذ سرعان ما عرفوا أن الإسلام يكفل لهم حريتهم الدينية ولايمس كنائسهم ومعابدهم ، ولذلك لم يقاوموا هؤلاء الفاتحين إذ وجدوهم يردون لهم استقلالهم الديني .

ودالما الدين في مصر يوضع فوق السياسة والحكم وفوق كل شيء . وما كان ليحقل أن يحمل المصريون السلاح ويدافعوا عن الروم الذين يعتقدون على مذهبهم الديني وحرّيتهم الدينية ، حتى لقد قرّ البطريق القبطي بنيامين وظل محتبّا حتى دخل العرب مصر وكفّلوا للقبط معتقداتهم الدينية ، ورفضوا عن كواهلهم ما أبهظها من ضرائب الروم الفادحة . فكان طبعيا أن يتعاون قبط مصر مع العرب وأن ينفضوا أيديهم من الروم ، ولذلك حين عاد أسطولهم إلى الإسكندرية واستولوا عليها لم يلقوا تأييدا منهم ، وهزمهم العرب بقيادة عمرو بن العاص هزيمة ساحقة عام ٦٤٦ م / ٢٥هـ ومن بقى منهم ولّى في البحر المتوسط إلى غير مآب . وبدأت من حيثذ مصر دورتها العربية الجديدة .

(ب) زمن الولاية^(١)

أصبحت مصر ولاية تتبع الخلافة ، وكان أول ولايتها عمرو بن العاص الفاتح لها ، ولا يزال باقيا من آثاره في القاهرة مسجد الذي يحمل اسمه والذي بناه في القسطنطينية : موضع معسكره في حصاره لحصن بابلون وتسمى منطقته الآن باسم مصر القديمة . وحين تم له طرد الروم من الإسكندرية بنى بها مسجد الرحمة . وكان ذلك إزدانا باستيلاء الإسلام عليها كما استولى على مصر من جميع أطرافها . وبنى مصر في عهد عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان عمرو بن العاص قد تغلغل في إفريقيا الشمالية فتبعه يتغلغل فيها ، وفي سنة ٣٤ حاول الروم غزو الإسكندرية ، فزاهم في البحر ودمر سفنهم ، وتسمى الغزوة « ذات الصواري » لكثرة ما اجتمع فيها من السفن . ثم كانت الفتنة أيام عثمان رضوان الله عليه ، واختلف عليها ولاية لعل رضى الله عنه ، ووليها عمرو بن العاص لمعاوية حتى توفي سنة ٤٣ وفي أيامه أرسل عقبة بن نافع فتغلغل في إفريقية ، وكانت له فيها أيام ولاية عمرو بن العاص الأولى جولات بعيدة ، وستصبح له فيما بعد حين يوليّه معاوية قيادة الفتوح في المغرب جولات أكثر عمقا ، يخطط فيها مدينة القيروان بالقرب من تونس الحالية .

وتولى مصر بعد عمرو بن العاص ابنه عبد الله أشهرها ، ثم عزله معاوية وولى عليها عقبة بن عامر الجهني ، وأخذ الولاية في أيام بنى أمية بتعاقبون عليها حتى بلغوا في نحو تسعين عاما ثمانية وعشرين واليا ، إذ أُلحِق الأمويون في ولاية مصر سنة تغيير الولاية ، وهى سنة سيئة ، إذ كان الوالى يقدّم وهو يعلم أنه موزول عما قليل ، فكانت لانهمة شئون مصر بمقدار ماتهمة شئون نفسه والعمل على اكتناز الثروة الضخمة قبل أن يسلم كتاب الغزل . وربما كان خير وال أموى تولى مصر حينئذ عبد العزيز بن مروان ، وقد امتدت ولايته من سنة ٦٥ حتى سنة ٨٦ واشتهر بما بنى في حلوان من قصور وغرس من جنات وزروع وكان جوادا ممدحا ، وإليه شُدَّ الشعراء الرحال من الحجاز ونجد والعراق ، ويقال إنه كان له ألف جَنَّة (قَنْر) تُنصَّب كل يوم حول داره للإطعام

خلدون وخطط للمقرئى ٥٦١/١ وما بعدها وحسن المحاضرة
٥٧٨/١ ما بعدها .

(١) انظر في ولاية مصر زمن الأمويين والعباسيين كتاب
الولاية والقضاة للكندي (طبعة جيست) والجزء الأول
وأثنان من النجوم الزاهرة وتاريخ الطبرى وابن الأثير وابن

الناس ، وكان له بجانبها مائة جنة يطاف بها على القبائل . ولاريب في أن هذا الجود الفياض إنما كان على حساب الشعب ، وما يؤدى من ضرائب باهظة . وكان للولاة الأمويين في فرض الضرائب الاستثنائية أفانين كثيرة ، وكانت الرعية تضج منها في كل أقاليم الدولة .

ويظل هذا الظلم يزداد عسفا إلى أن يتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩ فيأمر برفع الظلم عن رعيته وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية . وقد وجد الولاة يلزمون كل من أسلم من القبط وغيرهم من الموالي بالجزية ، كأنهم لا يزالون على دينهم القديم ولم يدخلوا في الإسلام ، معطلين بذلك أحكام الدين الخفيف ، فوقف كل هذا الظلم وما يجترأه من فساد ومن تعطيل أوامر الدين ، من ذلك ما كتب به إلى حيان بن شريح صاحب ديوان الجند والخراج في مصر : « ضِع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فإن الله تبارك وتعالى يقول : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) ويقول (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجزية عن يدهم صاغرون) . ويبدو أن حيان بن شريح تلكأ في تنفيذ أمر عمر بن عبد العزيز ، فكتب إليه غاضبا : « قد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا ﷺ هاديا ولم يعنه جايا » (١) .

واضطر حيان بن شريح أن يصدع لأمر عمر ، غير أن مدة خلافته كانت قصيرة ، إذ سرعان ماتوفى لأول سنة في المائة الثانية ، فعاد ولاية بنى أمية إلى سيرتهم الأولى في مصر وغير مصر ، ومضوا يعصرون القبط ، سواء منهم من أسلم ومن ظل على دينه . وبذلك نفهم انتفاض القبط على الولاة سنة ١٠٧ وكذلك بأخرة من أيام الأمويين ، فإن الولاة لم يكونوا يرعون فيهم ما فرضه الإسلام من العدل وحرمة من الظلم والصف . وظلت الفسطاط حاضرة الولاة الأموي منذ اختط عمرو بن العاص للناس منازلهم فيها ، ولاتزال آثارها باقية إلى اليوم . ويقول المؤرخون إن الدور فيها كانت تتألف أحيانا من ست طبقات أوسع . ولما قدم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر منهزما وتبعه الجيش العباسى إلى الصحراء أمام مدينة الفسطاط أذن القواد للعسكر بالبناء حيث نزلوا ، فقامت ضاحية أو مدينة العسكر بجوار الفسطاط ، وكان يترها ولاية بنى العباس ، وتلقانا بعض انتفاضات للقبط حتى سنة ١٥٠ ثم لانعود نسمع عنها ، إنما تلقانا انتفاضات

(١) انظر في هذه الرسالة وسابقتها خطط القرى ١/ ١٤٢

للعرب . وفي رأينا أن في ذلك إشارة واضحة إلى ماتم فعلا من امتزاج بين الأقباط والعرب ، فإن كثيرين من القبط دخلوا في الإسلام وكثيرين من العرب سكنوا القرى وزرعوا الأرض وامتزجوا بالقبط وأصبحوا يؤلفون أمة واحدة . وأول انتفاض يلقانا - للعرب - انتفاض دجبة حفيد عبد العزيز بن مروان بالصعيد لسنة ١٦٥ وكان قد تولى موسى بن مصعب الموصل فشدد في استخراج أموال الخراج وضاعف ما يُطلب من كل قدان وجعل خراجا على الأسواق والدواب وارتشى في الأحكام فتارت عليه قيس والجمانية ، وانتهى أمره بقتله . وقضى سريعا على ثورة دجبة سنة ١٦٩ . ونظّل نسمع عن انتفاضات في الحوف الشرق ، ويستغل الفرصة الجوى في تئيس وبنو السري الذين استولوا حيناً على مقاليد الأمور ، مما اضطر المأمون أن يسند إليهم الولاية على مصر من حين إلى حين . وتحدث في هذه الأثناء ثورة الفقهاء في قرطبة على الحكم الرضى الأمير الأموى ويأمرهم بمغادرة البلاد ، فيترلون الإسكندرية ويستولون عليها . ويرسل المأمون قائده عبد الله بن طاهر ، فيعيد الأمن إلى مصر لسنة ٢١٠ ويُخرج منها الأندلسيين إلى جزيرة كريت ويستولون عليها . ويعود ابن طاهر في سنة ٢١٢ وينتفض أهل الحوف مراراً ، ويثور القبط ، ويضطر المأمون إلى القدوم بمسكركه إلى مصر سنة ٢١٧ فيقضى على ماها من فن . ويأمر واليه على مصر في سنة ٢١٨ أن يأخذ الناس بمحنة خلق القرآن المشهورة . ويتولى بعد المأمون أخوه المعتصم في نفس السنة المذكورة ويأمر بإسقاط العرب من الدواوين بمصر وغير مصر ، ومنذ هذا التاريخ يتدججون نهائياً في أهل مصر من القبط ومن أسلم منهم . ويغزو الروم دمياط سنة ٢٣٨ وسرعان مايرحلون عنها إلى غير رجعة .

وربما كان أهم ماخلفه زمنُ الولاة أيام الدولة العباسية كثرة العناصر الفارسية التي دخلت مصر ، فقد كان الجيش الذى تعقب مروان بن محمد ، وبنى له «العسكر» ، أكثره إن لم يكن كله من الفرس ، وظلت الجنود التي ترسل مع بعض الولاة أو للقضاء على بعض الانتفاضات والفن فارسية في جملتها ، وكان كثير ممن يسند إليهم الولاية بمصر قُرُصاً ، وبالمثل من كان يُسند إليهم القضاء . وكل ذلك معناه أن العناصر الفارسية تكاثرت بمصر في زمن العباسيين ، وكان لهم أسلاف قدماء جاءوا مع اليمنيين في فتح مصر ، إذ كانت اليمن في الجاهلية تابعة جينا للفرس فكان بها عناصر فارسية ، وقد دخلت في الإسلام وشاركت اليمنيين في رحلتهم للفتح . وبذلك كله نستطيع أن نفسر وجود نفر غير قليل يرجعون إلى أصول فارسية بين علماء مصر وقضاة مثل الليث ابن سعد الفقيه المشهور وكذلك بين كتابها في الدواوين .

(ج) الطولونيون^(١)

هم أول أسرة حكمت مصر حكما مستقلا ، وحقا كانت تتبع الخلافة العباسية ، غير أن تبعيتها لها كانت اسمية ، وزعم هذه الأسرة ومؤسس دولتها أحمد بن طولون ، وهو تركي الأصل ، كان أبوه طولون من موالى المأمون والمقرين منه ، ورزق بابنه أحمد سنة ٢٢٠ هـ فنى بتريته ، وبدأ بحفظ القرآن الكريم حتى أتقنه ، وأكسب على حلقات العلماء وخاصة فقهاء الأحناف يتروء منها . ومازال أبوه يخدم الخلفاء حتى توفى في عهد للتوكل ، فقوض لأحمد ما كان لأبيه من الأحمال ، وولى بعض الشغور ، وكان شديد الإزراء على الترك في معاملتهم السيئة للخلفاء ، ونال الحظوة عند الخليفة المستعين ، وحاول الأتراك أن يدفعوه إلى المشاركة معهم في مقتله فأبى ذلك ، ولم تلبث مصر أن أقطعت لزواج أمه بإيكباك ، فأتابه عنه في حكمها سنة ٢٥٤ هـ وسرعان ما أخذ يعمل على الاستقلال بها . وبدأ ذلك بأن جمع في يده شئوننا المالية بجانب شئوننا الإدارية ، واتخذ جيشا ضخما بلغ عداده مائة ألف ، وفي أثناء ذلك ضمت إلى حكمه الإسكندرية وبرقة ، ولانصل إلى سنة ٢٦٤ هـ حتى تضم إليه الشام . وبلغ خراج مصر في زمنه أربعة ملايين وثلاثمائة ألف دينار ، مما جعله يتسع في إقامة المباني والمؤسسات . وكان قد سكن العسكر في أول أمره شأن الولاة من قبله ، ثم أخذ في بناء مدينته القطائع ، بادئا بقصره الكبير ثم بقطائع لجنده من الترك والنوبة والروم ولحواشييه من القواد وكبار الموظفين . وعنى ببناء مسجده الكبير ، وبُنيّت مساجد كثيرة وطواحين وحمامات وأفران وحوانيت . وجعل أمام قصره ميدانا كبيرا يُلقب فيه بالكرة ، ولما عظم أمره كان يطعم الفقراء وللساكين كل يوم ، ويقال إن صدقاته كانت تبلغ في السنة أكثر من مليون دينار ، وبني مارستانا ضخما ، واتخذ لنفسه ديوانا كبيرا على شاكلة دواوين الخلافة . وحدثت خصومة بينه وبين الموفق ولى عهد الخليفة المعتمد وقائده ، مما أدى إلى اشتباك جيوشهما . وعنى في دولته بأن ينقل إليها الأنظمة الفارسية التي كانت متبعة في بغداد وسامراء . وأخذ البيعة من بعده لابنه خمساوييه . ولم يلبث ابن طولون أن توفى سنة ٢٧٠ هـ .

المقريزي ١ / ٥٨٩ وسيرة أحمد بن طولون للبليدي (طبعة محمد كرد علي) وراجع أحمد بن طولون وخمساوييه والطولونيين في دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٠ .

(١) انظر في الطولونيين تاريخ الطبى واليحقوى وابن الأثير وابن خلدون والجزء الثالث من النجوم الزاهرة والمغرب لابن سيد (طبعة القاهرة) ص ٧٣ وما بعدها والولاة للكندي (طبعة صادر) ص ٢٣٩ وما بعدها وخطط

وتبلغ دولة الطولونيين في عهد خمارويه كل ما كان يؤمل لها من ازدهار . وتحدث في أوائل حكمه تناوشات بين جيشه وعسكر الموفق ، وسرعان ما يتخذ بينها صلح وثيق . ويقال إن رواتب الجيش المصرى بلغت في أيامه تسعمائة ألف دينار ، مما يدل على ضخمة الجيش ومدى عنايته به . وفرغ بعد صلحه مع الموفق للعناية بشئون دولته ، وزاد في قصر أبيه وحول الميدان الذى كان أمامه بحوار مسجد أبيه إلى بستان رائع حمل إليه كل صنف من الشجر وأنواع الورود والرياحين والزعفران ، غير ما اتخذ فيه من الفساق والنافورات ، وسنعرض لذلك في غير هذا الموضع ، ووسع اصطبلاته لكثرة دوابه وحيواناته الأليفة والوحشية . ويقول المؤرخون : كان من عجائب الدنيا في زمنه عرض الخيل بمصر . وبلغ من مجده وعظم شأنه أن طلب الخليفة المعتضد منه في سنة ٢٧٩ أن يزوجه ابنته قطر الندى ، وبنوه المؤرخون بمجهازها وما كان فيه من تحف وهدايا نفيسة ، ويقولون إن خمارويه بنى لها على رأس كل منزلة بين القطائع وبغداد قصرًا قرشًا أروع قرش . ومع كل ما انتهى إليه من ملك مصر والشام ومع ما اشتهر به من الشجاعة والبأس قُدِّر له أن يقتل بأيدى غلمانة في دمشق سنة ٢٨٢ . وأقام قواده بعده ابنين صغيرين له بادئين بأكبرهما ، أبى الجيش ، ولايدور العام حتى يخلعوه ، ويولوا أخاه هرون وكان ضعيفًا ، فلم يستطع لاهو ولا جيشه الصمود أمام القرامطة وشجَّ جيوشهم في الشام ، مما جعل للمعتشقين يلتصمون من الخليفة المكفى أن يفشيهم بجنده ويلبى استغاثتهم . ويُقتل هرون سنة ٢٩٢ ويتولى بعده عمه شيان الحكم اثني عشر يوما إذ سرعان ما يُقدَّم إلى مصر جيش الخلافة بقيادة محمد بن سليمان ، فيزيل حكم الطولونيين ، ويبكيهم الشعراء طويلا . وتعود مصر ثانية ولاية عباسية ، ويتعاقب عليها ولادة مختلفون من بغداد ، وتكثر في عهدهم غارات الفاطميين من عاصمتهم المهدية بحوار القيروان على حدود مصر السفلى والعليا ، ويُذخرون مرارًا ، ويحجزهم إلى حين الإخشيد وأبناؤه .

(د) الإخشيدون ^(١)

الإخشيد هو محمد بن طُشج بن جُفَّ الفرغاني التركي خدم أبوه وجده الخلفاء العباسيين ، كما خدمهم بدوره ، ويقال إنه وُلِد سنة ٢٦٨ وما زال يعمل في خدمة الخلفاء وقوادهم حتى وُتِرَه

ترجم الإخشيد وكافور وخطط المقرئى ٦١٧/١ ومروج
اللعب للمسعودى ومصر في عصر الإخشيديين للدكتورة
سيدة كاشف ، وراجع مادة إخشيد في دائرة المعارف
الإسلامية .

(١) انظر في الإخشيديين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون
والرولة للكندي ص ٣٠٤ وما بعدها والجزئين الثالث
والرابع من التجرم الزاهرة والمغرب (قسم المصطط)
ص ١٤٨ وما بعدها وابن خلدون (طبعة دار صادر) في

الثغور ، ويلمع اسمه حين تولى مدينة الرملة بفلسطين سنة ٣١٦ ولم يلبث أن تولى دمشق سنة ٣١٨ وجاءته الكعب في سنة ٣٢١ بولاية مصر غير أنه لم يدخلها ، وظل على دمشق حتى ولاء الخليفة الراضى مصر سنة ٣٢٣ وضم إليه البلاد الشامية والجزيرة والحرمين . وفى سنة ٣٢٧ خلع عليه الراضى لقب الإخشيد ، وهو لقب ملوك فرغانة موطن أجداده ، وغلب اللقب على اسمه . وولى ابن رائق أمر دمشق ، فجمع جنده لحرب الإخشيد ، وتنشب الحرب ، وينتقد بينها الصلح على أن يترك ابن رائق مدينة الرملة للإخشيد وتظل معه بقية الشام ، وسرعان ما يتوفى وتعود ديار الشام جميعها إلى الإخشيد . وتقع وحشة بينه وبين سيف الدولة الحمداني صاحب حلب ويصطلحان على أن تكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص ، أما باقى بلاد الشام فتكون للإخشيد . ويأخذ البيعة من بعده لابنه أنوجور ويتوفى لآخر سنة ٣٣٤ . وكان حازما يقظا فى حروبه وتدير شئون دولته مكرما لجنوده . ويقال إن جيشه كان يبلغ أربعمائة ألف ، وكان له ثمانية آلاف مملوك وكان يحرسه منهم فى كل ليلة ألفان . وكان أنوجور ابنه فى الرابعة عشرة من عمره حين ولى مصر وكانت ولايته اسمية ، أما الولاية الحقيقية فكانت لكافور كبير حاشية أبيه الذى اختاره وصيا عليه ، وكان عبداً أسود خصباً ، واختطف - فيما يبدو - إلى حلقات العلماء ، واشتراه الإخشيد وأعجب به فأعتقه ومازال يرق به فى المناصب حتى أصبح من قواده . ولما توفى سيده نهض يشئون ابنه أنوجور على خير وجه ، وساس مملكته خير سياسة ، وكان الحاكم الحقيقى صاحب الأمر والنهى فى إقليسى الدولة الكبيرين : مصر والشام . وكان بدلى الشعراء ويكثر من عطائهم ، وزار مصر حيثئذ للتبى ، وله فيه مدائح وأهاج مشهورة .

ومازال كافور يدير أمور الدولة لأنوجور حتى توفى سنة ٣٤٩ وأخذ البيعة من بعده لأخيه على وقام على دولته خير قيام حتى توفى سنة ٣٥٥ فاستقل بالأمر من هذا التاريخ واتخذ جعفر بن الفضل ابن الفرات وزيراً له . وكان يُدعى له على المنابر فى مصر والشام ومكة والحجاز . وكانت تُقرأ عنده ليلا السير وأخبار الدولتين الأموية والعباسية ، وكان سيوسا ماهراً ، من ذلك أنه كان يذعن بالطاعة للعباسيين وفى الوقت نفسه يهادى المزعزعات الفاطمية صاحب المهديّة والمغرب ويظهر ميله إليه خداعاً . وكان على علم بالعربية ، وكان كريماً معطاء . وكانت أيامه أيام هناءة ورخاء ، ولم يلبث أن توفى سنة ٣٥٧ ففقد أولياء الدولة الولاية لأحمد بن على بن الإخشيد ، وكان صيباً فى الحادية عشرة من عمره ، واضطربت الأموال فى الشام اضطراباً شديداً لغارات القرامطة هناك ، وعيّنهم

في الأرض فسادًا ، ولم تلبث جيوش المعز الفاطمي أن زحفت من الغرب بقيادة جوهر الصقل سنة ٣٥٨ واستولت على البلاد وانقرضت الدولة الإخشيدية .

٢

الفاطميون - الأيوبيون

(١) الفاطميون^(١)

تتسب هذه الأسرة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وقد تكونت حوله فرقة الإسماعيلية بينما تكونت حول أخيه موسى الكاظم الفرقة الاثنا عشرية ، وكانت الفرقتان تعيشان على التقية والدعوة سرًا لأئمتها العلويين من سلالة موسى وإسماعيل . وأتيح للإسماعيلية داع خطير هو عبد الله بن ميمون القداح ، وهو فارسي من الأهواز ، وكان ملأ بالفلسفة والملل والأديان ، فنظم الدعوة الإسماعيلية ووضع مبادئها الشيعة الغالية . وبارح موطنه إلى البصرة ثم إلى سكتية بالقرب من اللاذقية في الشام ، ومن هناك اتخذ دعاء للنحلة الإسماعيلية في العراق وغير العراق ، مما هيأ لظهور القرامطة في البحرين وجنوبي العراق ، كما هيأ لظهور داع إسماعيل من جنوبي الجزيرة يسمى أبا عبد الله ، وتصادف أن التقى في أثناء الحج بنفر من قبيلة كتامة المغربية ، فارتضوا دعوته الإسماعيلية وأمرؤه عليهم وسار معهم إلى موطنهم ، فجمع حوله منهم جيشاً قضى به على الأغلبية حكام تونس سنة ٢٩٦ ومضى إليه من سكتية عبيد الله الفاطمي ويسلمه مقاليد الأمر ، وتدين له البلاد ، فيتلقب بالمهدي ويعلم نفسه خليفة شرعياً ، ويبني عاصمة جديدة له بجوار القيروان يسميها المهديّة نسبة إليه .

وكان القداح قد جعل أئمة الدعوة الإسماعيلية قسمين : أئمة حقيقيين مستورين أو مستقرّين ، وأئمة بجانبهم مستودعين هم رموس الدعاة المسمون بالحجج ، وبذلك كان هو نفسه إماماً

الزاهرة لابن تفرّج بزيّ وابن خلّكان في تراجم الخلفاء وجوهر الصقل والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصفي والنكت المصرية لعارة اليمن وصبح الأعمش في مواضع مغرقة والفاطميون في مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم ميتز.

(١) انظر في الفاطميين المتظم لابن المجرى وتاريخ مصر لابن ميسر وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) طبع دار الكتب واتعاه الحضا بأخبار الخلفاء للمقرئ وكاتبه الخطوط ٢١/٢ وما بعدها وكتاب حسن الحضارة والأجزاء الثالث والرابع والخامس من النجوم

مستودعا ، ومن هنا جاء الشك في نسب عبيد الله وأبنائه الفاطميين إلى السيدة فاطمة الزهراء ، فقيل إنه فاطمي حقيقة وأنه ابن أئمة مستورين هم على الترتيب التقى والوفى والرضى بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وإنما استروا خوفا على أنفسهم من العباسيين ، وأسماء الأولين على الترتيب الحسين وأحمد وعبيد الله ، وقيل بل هو غير فاطمي من أبناء القداح الإمام المستودع أو أحفاده . وما شكك في هذا النسب المحض الذى كتبه الخليفة القادر العباسى سنة ٤٠٢ بشهادة القضاة والأشراف العلويين بالطن في نسب الفاطميين . وقد رفض ابن خلدون في تاريخه هذا الطعن ومايطوى فيه من شك في نسب عبيد الله وأسرته الفاطمية وجزم بصحة نسبه إلى على رضوان الله عليه والسيدة فاطمة الزهراء .

ويتبع سلطان عبيد الله في المغرب ، ويضم إلى سلطانه ليبيا والجزائر ، وتشن عساكره غارات على مصر ، ويتوفى سنة ٣٢٢ فيخلفه ابنه القائم وتستولى جنوده على المغرب ، ويثور عليه الحوارج في جبل أوراس ثورة عنيفة ، ويتوفى سنة ٣٣٤ ويخلفه ابنه المنصور فيقضى نهائيا على ثورة الحوارج ، ويتوفى سنة ٣٤١ فيعتلى ابنه المعز عرش الخلافة الفاطمية ، وتدين له المغرب بالولاء ماعدا سجلماسة وفاس ويفتحهما قائده جوهر الصقل ويمهد له البلدان المغربية حتى المحيط الأطلسى ماعدا مدينة سبتة ، فلما ظلت لبني أمية أصحاب الأندلس .

وكانت عين المعز على مصر ، فلما وصله الخبر بموت كافور وشعر كأنما انهار السد الذى كان يحول بينه وبين الاستيلاء عليها أمر قائده جوهر بالاستعداد لفتحها ، وجهزه بأكثر من مائة ألف فارس وبكل مايلزمه من المال والسلاح . ولم يكد يشرف على الإسكندرية حتى لقبته جماعة من المصريين برسالة من الوزير جعفر بن القرات بطلب الصلح والأمان . وتقدم جوهر حتى وصل بعسكره إلى الجزيرة ودخل القسطنطينية والبر الشرق بجيشه دون مقاومة تذكر من الإخشيدية والكافورية . ونزل بالقرب من الجامع الأزهر ، وأخذ ثوبا يخطط مدينة القاهرة . وكتب جوهر إلى المعز يبشره بالفتح ، وقطع الخطبة لبني العباس ولبس السواد شعارهم ، وأمر أن يلبس الخطباء البياض وأن يقال في الخطبة : « اللهم صل على محمد المصطفى وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سيلى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وصل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » . وأخذ جوهر في بناء الجامع الأزهر واستغرق ذلك ثلاث سنين . واختط قصر الخلافة ، وحفر أساسه في أول ليلة نزل فيها بالقاهرة ، واختطت

كل قبيلة - رُحطة عُرفت بها وبُنيت حاراتها من يومئذ ، من مثل حارة الروم والحسنية والحُرشتف . ولم يلبث أن ضم الشام إلى مصر سنة ٣٥٩ وخُطب للمعز فيها وفي الحرمين . وفي نفس السنة = ٣٥٩ أمر المؤذنون أن يؤذّنوا بحدّث على خير العمل . وظل جوهر مستقلا بتدبير مصر والشام أربع سنين وعشرين يوما إلى أن وصل المعز سنة ٣٦٢ وكان عاقلا حازما أدبيا ، وتروى له بعض أشعار ، وهو يعلّم المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية ، ولم تبق بلد من الشام إلى فاس والمحيط الأطلسي إلا أقبعت فيه دعوته وخُطب له في جمعته وجماعته إلا سنة واحدة فإنها كانت مع الأمويين أصحاب قرطبة كما ذكرنا . ولما استقرت له الأمور بمصر استخلف على إفريقية يوسف بُلكين بن زيري الصنهاجي . واستمر جوهر في علو منزلته إلى سنة ٣٦٤ إذ رأى المعز أن يعزله عن دواوين مصر وجباية أموالها ، ورد إليه العزيز مكانته حتى وفاته سنة ٣٨١ .

وتوفى المعز سنة ٣٦٥ بعد أن وطّد الملك العظيم لأبنائه وأحفاده يتوارثونه نحو مائتي عام ، وخلفه ابنه العزيز نزار ، وكان كريما شجاعا ، يفضو عند المقدرة محبا للصيد وخاصة صيد السباع ، وكان ينظم الشعر لكن لا يبلغ فيه مبلغ أخيه تميم . واتسعت مملكته بالقياس إلى مملكة أبيه فتحت له بقية بلاد الشام : حمص وحماة وشييز وحلب ، وخُطب له بالموصل وبالحمن . وعهد إلى غير وزير بتدبير مملكته ، منهم يعقوب بن كُلس وكان يهوديا وأسلم . وبني قصر البحر ، ولم يكن له مثل شرقا ولا غربا ، وقصر الذهب . وقال ابن الجوزي إنه ولّى عيسى بن نسطوروس النصراني ومنشا اليهودي فكبت إليه سيدة مصرية بالذي أعزّ اليهود بمنشا والنصارى بآبن نسطوروس وأذلّ المسلمين بك إلا نظرت في أمري ، فقبض عليهما وأخذ من آبن نسطوروس ثلاثمائة ألف دينار . ويروى أنه كان يقول : « أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندي » .

وما زال العزيز رفيقا برعيته حتى توفى سنة ٣٨٦ وخلفه ابنه الحاكم ، وكان في الحادية عشرة من عمره ولم يكن سوى العقل ولا النفس ، فاضطرب سلوكه واضطرب حكمه بين جبن وشجاعة وبخل وسخاء ، وتارة يجلس في الشمع ليلا ونهارا ، وتارة يجلس في الظلام الدامس ، وحينما يحب العلماء والصلحاء ، وحينما يفتك بهم في غير رحمة ، وقتل كثيرين من قادة دولته وأصحاب مناصبها الرفيعة . وتارة يأمر بأن يُكُتَب على المساجد والجوامع سبّ أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمر بن العاص وتارة ينهى عن ذلك . وتارة يمنع من صلاة التراويح

ونارة يبيعها ، وكان ينهى عن بعض المأكولات مثل الملوخيا والتمرس والجرجير والسلك لاقتسر له والزيب . وحُرِّم الخمر وشدَّد في تحريمها ، ورأى لذلك منع بيع العنب وقطع كرومها ، وأراق في النيل خمسة آلاف جُرَّة عمل خشية أن تصير نبيذا . وفي سنة ٤٠٤ منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلا ونهارا ، ومنع لذلك الأساكفة من صنع الأسذبة والخفاف لمن وظل ذلك حتى نهاية حكمه . وحُرِّم - فيما حُرِّم - الفناء ولعب الشطرنج والتره على ضفاف النيل ، إلى غير ذلك مما يصور خبله وشذوذه وفساد عقله . وكان دعاة عقيدته الإسماعيلية لايزالون يُشيعون - مستضيين بنظرية الفيض الأغلاطونية - أن للإمام الفاطمي نسبتين نسبة إلى عالم القدس ونسبة إلى عالم الطبيعة ، مما أدى بالحاكم إلى أن يظن أنه تجسد للذات الإلهية وأغراه بذلك دعائه ، وفي مقدمتهم داع دُرُزى من جبال لبنان ، ويقال بل هو أعجمي دَعَا في تلك الجبال بربوبيته وتبعه الناس هناك . وانسابت من هذه العقيدة عقيدة التجسد للذات الإلهية شعبة إلى التَّصَوُّف في سوريا ، إذ يؤمنون بربوبية علي بن أبي طالب . ولما لم يعد في قوس الصبر مترع حيكت مؤامرة لقتله وتخليص البلاد من شره وخبله ، فقتل في شوال من سنة ٤١١ ويقال إن أخته ست الملك هي التي دبرَّت قتله .

وولى الخلافة الفاطمية بعد الحاكم ابنه الظاهر ، وله ست عشرة سنة ، وقامت عمنه ست الملك بتدبير دولته أحسن قيام وبذلت الأموال الكثيرة في الجند وصامت الناس سيامة حسنة ، واستقام الأمر للظاهر ، وعدل في الرعية ، وأعلن البراءة من عقيدة التَّصَوُّف والتَّزَوُّف جميعا . وحوالى سنة ٤٢٠ خرج عليه صالح بن مرداس الكلبي واستولى على حلب ، كما خرج حسان بن المفرج البدوي إلى مدينة الرملة وتغلب على أكثر الشام ، وجمع هو وصالح بن مرداس الجموع لحرب الظاهر ولقيتهما جيوشه عند غزة ، فانهزم حسان وقتل صالح ، وعادت الشام إلى الطاعة . وبني الظاهر قصر الزوَّرة وكان جوادا سمحا حلما محبا للرعية .

وتوفى الظاهر سنة ٤٢٧ وخلفه ابنه المستنصر وهو في السابعة من عمره ، وظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر ، واستوزر كبيرين كان من بينهم صدقة بن يوسف الفلاحى استوزره سنة ٤٣٦ ، وكان يدبِّر له الدولة أبو سعد التستري اليهودى ، وقُتِلَا في سنة ٤٣٩ . ويؤسس محمد بن علي الصليحي دولته الصليحية في اليمن ويعلن ولاءه للمستنصر ، ويدعوه على المنابر هناك ، وتقدم حتى سنة ٤٤٣ وإذا المبرز بن باديس يعلن المصيان في المغرب ، ويقطع الخطبة للمستنصر ويخطب لبني العباس ، وبذلك تخرج المغرب من طاعة الفاطميين . وما توافى سنة ٤٥٠ حتى يعظم شأن

أرسلان الباسيرى فى بغداد فيقطع خطبة الخليفة العباسى فى عاصمته ويخطب للمستنصر ويدعوه له على المناير نحو عام إلى أن قَصَى عليه وعلى فخته أو دعوته السلطان طُرْكُوكُ السلجوق . ويحدث فى أيام المستنصر غلاء عظيم تظل مصر تعانيه سبع سنوات كسفى يوسف المهلكة ، بدأت فى سنة ٤٥٧ وظلت حتى سنة ٤٦٤ وفيها اشتد القحط بالبلاد واستولى عليها الخراب والوباء وكان الناس إذا مشوا تساقطوا فى الطرقات من الجوع ، ويقال إن الرغيف بيع بخمسين دينارا وإن البيضة بيعت بدينار وتوجهت أم المستنصر وبناتها فى سنة ٤٦٢ إلى بغداد من فرط الجوع . وزاد طين هذا الغلاء بَلَّةٌ نشوب حرب فى الجيش بين الترك والسودان ، وكادت لاتبى فى قصر الخليفة تحفة نفيسة إلا بيعت بأرخص الأثمان . وبدا من الصعب إنقاذ مصر من كل هذا البلاء لولا أن استنجد المستنصر فى سنة ٤٦٨ بيدى الجبالى ، وكان قد تولى الشام والسواحل للمستنصر ، فاستدعاه وفُرض الأمور إليه ، فاستقامت بحسن تدبيره وهذأت الفتى وأصبح الحكم والأمر كله له وليس للمستنصر إلا الاسم ومات قبله بأشهر ، فعهد إلى ابنه الأفضل بالقيام مكانه ، ويتلقب شاهنشاه أو ملك الملوك ولا يلبث المستنصر أن يتوفى سنة ٤٨٧. ويقال إنه قد عهد من بعده إلى ابنه الأكبر نزار ، غير أن الأفضل الجبالى كان يكرهه ، فلما اجتمع الأمراء والخوفاص بعد وفاة المستنصر حُبِّبهم فى أن يخلفه ابنه أحمد ، فبايعوه بالخلافة وجعلوا أو جعل الأفضل لقبه المستعلى . وأحدث ذلك انقساماً بين إسماعيلية مصر وإسماعيلية إيران فبينما كان الأولون يعترفون بإمامة المستعلى كان الآخرون لا يعترفون بإمامته إنما يعترفون بإمامة نزار ويرون أن سلالة هم الأئمة الحقيقيون ، وحاول نزار أن يسترد الخلافة فثار بالإسكندرية وقضى الأفضل على ثورته . ولا يزال هذا الخلاف قائماً بين الإسماعيلية فى الهند إلى اليوم ، فالْبُهْرَة مستعلية وشيعة أغاخان نزارية . ولم يكن للمستعلى مع الأفضل حكم ، كما كان حال آبيه المستنصر مع بدر الجبالى ، وظل ذلك حال الخلفاء مع الوزراء إلى نهاية دولتهم الفاطمية ، فقد أصبح الخلفاء الفاطميون وراء الحجاب ولا أمر لهم ولا نهى إلا أن يخرجوا فى مواعيد أول العام الهجرى ولصلاة الجمعة فى رمضان وصلاة العيدين .

ولعل الحكم الوراثى لم يتضح شره ولا عواقبه الوخيمة كما اتضح فى عهد الفاطميين بمصر ، فقد كان الخليفة الثالث وهو الحاكم - مجنوناً أو مجنولاً ، وتولى المستنصر وهو فى السابعة من عمره كما مرُّ بنا ، وكأنما جيء بالخلافة أرجوحة للصبي ، وتوفى المستعلى سريعاً سنة ٤٩٥ فأقام الأفضل ابنه الأمر مقامه وهو فى الخامسة من عمره ، والبلاد فى أشد الحاجة إلى حاكم حازم ، فالسلاجقة

يستولون على كثير من مدن الشام وماتلبث طائفة الصليبيين أن تجتمع على ديار الشام والموصل ، وتتعاقب الكوارث والخطوب منذ سنة ٤٩٠ إذ تقدم جموعهم من آسيا الصغرى ، ويتسلل بلديون إلى الرها بالموصل ويستول علىها ويكون بها أولى إماراتهم واستولت جموع أخرى على أنطاكية وكُونوا بها إمارتهم الصليبية الثانية . ويأخذون المعرة في سنة ٤٩٢ ويستول جودفرى في نفس السنة على بيت المقدس وتكون بها إمارتهم الصليبية الثالثة ويستول ريموند على طرابلس سنة ٥٠٢ وتكون بها إمارتهم الصليبية الرابعة ، ويستولون على مدن لبنان وكثير من مدن فلسطين مثل الرملة وعكا ، ولا يبقى لمصر في الشام سوى عسقلان . وكل ذلك يحدث والأفضل ساد في غفلة والجيش المصرى غائب عن حماه إلا بعض تجريدات برية وبحرية لا تنفى شيئا . ويُقتل الأفضل سنة ٥١٥ ويُقتل الخليفة الأمر سنة ٥٢٤ ويتولى عرش الخلافة الحافظ ، ويستورز أحمد بن الأفضل الجبالى وكان هو وأبوه وجده سنيين ، فيأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا في خطبهم للحافظ كما يأمر المؤذنين أن يسقطوا من أذانهم « حى على خير العمل » أحد شعارات الفاطميين ، وكأنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر ، غير أن أنصارها من حواشيا وشيعتها أسرعوا فقتلوه . ويتولى الخلافة بعدالحافظ ابنه الظاهر سنة ٥٤٤ ولا يلبث أن يتوفى فيخلفه ابنه الفاتر وهو فى الخامسة من عمره سنة ٥٤٩ ويتولى سنة ٥٥٥ فيخلفه العاضد آخر خلفائهم وهو فى الحادية عشرة من عمره . وكان الخلافة أصبحت أرجوحة حقيقية للصليبي والغلمان ، ونظل نرى مع كل خليفة وزراء ، وغالبا يسقطون مقتولين . ولم يكن لكل منهم من شاغل سوى أن يجمع أكثر ما يمكن من الأموال لنفسه ، مُثْقَلًا فى أثناء ذلك على المصريين بالضرائب الفادحة ، بينما يعيش هو ومن وراءه من الخلفاء للهو والقصف .

وتتسدد فى أثناء ذلك التدهور والانحلال أداة الحكم فى مصر فسادا شديدا . ومع ذلك لا تزال ترسل إلى الشام بعض تجريدات ذرا للرماد فى العيون ، وحتى عسقلان يحتلها الصليبيون ويطمحون إلى احتلال وادى النيل . وبأخرة من أيام هذه الدولة يقتل ضرغام وشاور على الوزارة ويفزع شاور إلى البطل المغوار نور الدين صاحب حلب مستنجدا به ويهجم حينئذ أمليرك الصليبي صاحب بيت المقدس على مصر ويتقدم حتى بليس ، ويقطع المصريون عليه الجسور والسدود فيضطر إلى العودة . ويقدم سنة ٥٥٩ شاور ومعه عساكر نور الدين بقيادة شريكوه وابن أخيه صلاح الدين ، ويمكثان لشاور فى الوزارة ، وسرعان مايقبض ظهر الهن لشريكوه وجنوده .

ويدفعه شيطانه إلى الاستعانة ضده بأمريك والصليبيين ، ومحاصرون شيركوه في بلبس يضطرون إلى رفع الحصار عائدتين إلى بيت المقدس . ويخرج شيركوه من مصر ، فيعظم بنى شاور وطغايانه ، فيستنجد العاضد بنور الدين سنة ٥٦٢ ، ويرسل ثانية شيركوه وصلاح الدين ، فيستنجد شاور بأمريك ، ويلييه ، وتدور عليه الدوائر ، ويخرج على وجهه هو وجنوده من القاهرة ، ويخرج أيضا شيركوه وصلاح الدين إلى الشام . ولا يلبث الصليبيون أن يعودوا لامتلاك مصر ويقدم أسطول صليبي إلى تبتس ويعظم الخطب . ويستصرخ العاضد وشاور نور الدين ، فيرسل إليهما عسكريا بقيادة شيركوه وصلاح الدين سنة ٥٦٤ ويستنقذان مصر من الصليبيين وشاور جميعا . ويتولى شيركوه الوزارة للعاضد شهورا ، ويتوفى فيخلفه صلاح الدين ، ويكتب إليه نور الدين مرارا يأمره بتحويل الخلافة في مصر من الفاطميين إلى العباسيين . وتصادف أن مرض العاضد مرض الوفاة ، وفى أثناء ذلك صدع صلاح الدين بمشيئة نور الدين ، فأقام الخطبة لبني العباس في أول المحرم سنة ٥٦٧ ولم تمض إلا أيام حتى توفى العاضد في يوم عاشوراء . وبذلك انتهى أمر الفاطميين وحكمهم للديار المصرية .

(ب) الأيوبيون^(١) (صلاح الدين)

اتفق المؤرخون على أن الأيوبيين أسرة كردية أصلها من بلدة دُوين في آخر إقليم أذربيجان وبها ولد شافى جد صلاح الدين وأبوه أيوب وعمه شيركوه ، وقد هاجروا منها إلى بغداد ، ولم يلبث أيوب أن أصبح حافظا لقلمة تكريت ، والتحق شيركوه بهاد الدين زنكى ، وتحول أيوب إلى العمل مع حاكم دمشق ، بينما ظل شيركوه عند زنكى ولما توفى عمل مع ابنه نور الدين وحدث أن حاصر عسكر نور الدين دمشق بقيادة شيركوه بينما كان أخوه أيوب على رأس حاميتها ، واتفق الأخوان على تسليمها لنور الدين ، فعين أيوب حاكما عليها ، وأقطع شيركوه حمصا ، وقربه منه . فلما استنجد شاور والعاضد بنور الدين أرسل إليهما عسكريا بقيادة شيركوه

الدين لابن شداد والفتح القسوى في الفتح القلبي والبقى الشافى لهامد الأصبهانى وابن خلكان في تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ما كتب عن صلاح الدين والحروب الصليبية حديثا في العرية واللغات الأجنبية .

(١) انظر في الأيوبيين وصلاح الدين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون وفتح الكروب لابن واصل والروضتين وذييل الروضتين لأبى شامة وخطب المقرئ والسلوك الجزء الأول ومرة الزمان لسبط ابن الجوزى والجزءين السادس والسابع من التحريم للزاهرة وديالى الزهرى لابن لياس وسيرة صلاح

وابن أخيه صلاح الدين بن أيوب، وتطورت الظروف كما مررنا، ففضى صلاح الدين نهائياً على الدولة الفاطمية، ورد مصر إلى الخلافة العباسية، واستولى على قصر الفاطميين وما كان به من أموال وكنوز. وجد في إصلاح أحوال مصر، فحط عن كواهل المصريين أثقال الضرائب الباهظة التي كان يتنافس وزراء الفاطميين في فرضها، وبذل الأموال، وملك قلوب الرجال، وطمحت نفسه إلى أن يصبح والياً للخلافة العباسية بمصر، إذ نراه يلُمع في الرسالة التي كتب بها إلى وزير بغداد، يثب فيها بإزالة الدعوة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية، إلى ما يدور بخله قائلا عن نفسه: «إنه مفتقر إلى أن... يقلد ما فتح، ويبلغ ما اقترح، ويقدم حقه ولا يُطرح، ويقرب مكانه وإن نزح، وتأتيه التشريفات الشريفة». ويأخذ في إعداد جيش قوى للقاء الصليبيين وينحى منه العناصر الزنجية والأرمينية التي كانت تعمل في جيش الفاطميين.

ويطعم إلى الاستيلاء على فلسطين باب مصر الشرق، ويحاصر الشوك في سنة ٥٦٧ ويرفع الحصار عنها حين علم أن نور الدين يجهز الجيوش لحرب الصليبيين وكأنه خشي لقاءه، ومع ذلك كان يعلو نفسه تابعاً له، وكان الخطباء في مصر يدعون في آخر خطبهم لنور الدين. وعاد صلاح الدين في السنة التالية إلى حصار الشوك والكرك، ثم رفع الحصار، وإن كان قد استولى على أيلة (العبة). وفي سنة ٥٦٩ يستأذن نور الدين في إنفاذ أخيه توران شاه على رأس جيش إلى اليمن للقضاء على خارجي هناك استغل شأنه وكذلك على بقية الدعاة للفاطميين، وينهب إليها ويستولى عليها. وفي هذه السنة قبض على جماعة من شيعة الفاطميين كانوا يدبرون مؤامرة لقتله وكان من بينهم داعي دعاة الفاطميين وعارة اليمن الشاعر، وقتل داعي الدعاة وصلب عمارة.

وفي هذه السنة توفي نور الدين، وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل، وكان في الحادية عشرة من عمره، وبدا في وضوح أنه لا يصلح للتهوض بأعباء الحكم وجهاد الصليبيين. وأعترف صلاح الدين بسلطانه، وأمر بالدعاء له في خطبة الجمعة وصلّى النقود باسمه. ولم يادر بالتهجير إلى الشام لانشغاله بأسطول لنورماندي صقلية هاجم الإسكندرية وهاقت بالأسطول الهزيمة، وأيضاً لانشغاله بثورة في جنوبي بلاد الصعيد أشعلها موالو للفاطميين يسمى الكتر ودارت عليه الدوائر. ومر بنا آنفاً أنه أرسل أخاه توران شاه للاستيلاء على اليمن ومفاتيح البحر الأحمر، ونراه يسير عسكرياً بعد عسكر إلى بلاد المغرب الأفريق ودانت له بالطاعة برقة وقسطنطية وقضعة وتوزر مما يدل على أنه فكر مبكراً في وحدة البلاد العربية التي أرادها نور الدين. وها هو مبكراً قد أصبح

يضم سلطانه جزءاً من الشمال الإفريقى المغربى والحجاز واليمن . وجاءته الأخبار بأن نواب الملك الصالح إسماعيل يستقلون بالحكم ويتنازعون تنازعا مريراً مستعينين بالصليبيين ، فاستقر في نفسه أنه لا بد أن يفرض سلطانه على ديار الشام والموصل قبل أن يسدد للصليبيين ضرباته . وخرج من مصر في سنة ٥٧٠ بجيش كثيف ، وقصد دمشق واستولى عليها ، كما استولى على كثير من المدن الشامية . وتقاومه جنود الملك الصالح إسماعيل وابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل ويكتبُ له النصر ، ويعقد صلحاً مع الملك الصالح يتيق له فيها حلب وحدها ، بينما تدخل الديار الشامية جميعها في سلطانه . ويعود إلى مصر سنة ٥٧٢ ويأمر قراقوش ببناء سور ضخيم حول القاهرة والفسطاط حماية لها ، ويطلب المكوس التى كانت تؤخذ من الحجاج بمجدة ويعرض صاحب مكة عنها آلاف الأرباب لئلا تفرق في أهل الحرمين ، ويأخذ في إنشاء المدارس والرباطات بالقاهرة منذ هذا التاريخ . ويعود إلى الشام في سنة ٥٧٣ ويواقع الصليبيين في غير معركة وترجع كفته رجحانا واضحا ، ويمضى إلى الشمال وديار الموصل ويستولى على كثير منها : ويعود إلى مصر ويضبط الأمور فيها ويأمر ببناء قلعة الجبل . ويأتيه الخبر بموت الملك الصالح إسماعيل ، فيخرج في أول سنة ٥٧٨ ويتم له الاستيلاء على حلب وبعض بلدان الجزيرة والموصل . وتسول لرايخنالد نفسه أن يهاجم مكة والمدينة من حصنه الكرك واستولى على أيلة وشحن سفنا بالرجال وآلات الحرب ، وعاثوا في البحر الأحمر وموانيه الحجازية والمصرية ، وتعبه العادل نائب أخيه صلاح الدين في مصر بأسطول مصرى فتك بسفنه ورجاله .

ونصل إلى سنة ٥٨٣ فبعد صلاح الدين جيشا ضخما لمنازلة الصليبيين الجنوبيين وينفخ في نفير الحرب فيأتيه المجاهدون من كل حنَب ، ويتجه نحو طبرية ، وتلتقى إحدى سراياه في شرق حيفا بجاعة من الداوية والإسماعيلية اللتين نذرتا أنفسهما لحرب المسلمين ، وتسحقهما السرية ويقتل قائد الطائفة الثانية . ويتجمع الصليبيون من كل مكان بقيادة جاي لوزيجنان صاحب بيت المقدس ، وتنشب بينهم وبين صلاح الدين موقعة جطّين المشهورة في غربي طبرية ، ويُنحَقُ جيشهم محقا ، ويولى هاربا ريموند صاحب طرابلس وريئال صاحب صيدا ، ويأخذ المسلمون الصليب الأعظم صليب الصليبوت ، ويقع في الأسر قادتهم وزعماؤهم جاي لوزيجنان صاحب بيت المقدس وهو صاحب جبل شالى ببيروت وهغرى صاحب يثنين إلى الجنوب الشرقى من صور وجيرار مقدم الداوية ورايخنالد صاحب الكرك ، وبلغ من كثرة القتل والأسرى أن قال

أبوشامة في كتابه الروضتين : « من شاهد القتل قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتل » . واستعرض صلاح الدين كبار الأسرى ، ولم يكن هم إلا رايحالد صاحب الكرك لما مر من محاولته غزو مكة والمدينة ، ولما مثل بين يديه قال له : ها أنا أنتصر منك لمحمد عليه السلام ، وعرض عليه الإسلام ، فلم يسلم ، فسلّ خنجره وضربه ضربة قاتلة ورُميت جثته على باب الحنية . وطمان بقية زعامتهم ، غير أنه أمر بقتل من أسروا من الداوئة والإمبارية لحبسهم أنفسهم على قتال المسلمين . وغصّت حينئذ أسواق دمشق بأسرى الصليبيين المسترقين ، وبلغ من كثرتهم أن كان يباع الأسير منهم بثلاثة دنانير .

وعلى أثر هذه الموقعة العظيمة فُتحت القلاع والمدن في فلسطين وجنوى لبنان أبوابا لصلاح الدين الأيوبي ، فاستولى على عكا وحيفا ونابلس وبيت جبريل (بترس) وغزة والرملة وبيروت وصيدا . ولم يبق في الجنوب سوى الكرك والشوك ، وبقيت صور التي لجأت إليها فلول الصليبيين . وعزم صلاح الدين على فتح بيت المقدس ، فحاصرها وضايقها بالزحف والقتال والمنجنيقات ، حتى أسلمها من كان بها من الصليبيين راغبين خاضعين في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ . وتكسّ الصليب الضخم الذي كانوا قد أقاموه على قمة الصخرة ، وأزيلت كل آثار الصليبيين من المسجد الأقصى وأقيمت به صلاة الجمعة بين التهليل والتكبير والفصيح بالدعاء ، وأمر صلاح الدين أن يزيّن المسجد بالفستيفساء والرخام ، ونقل إليه متبرافخا من حلب لا يزال به إلى اليوم . وظن أنه لم يعد في حاجة إلى جيوش ضخمة بعد انزواء الصليبيين في صور وطرابلس وأنطاكية ، فتخفف من جيوشه وعاد كثير من عساكره إلى بلادهم ، وظلت البلاد المتبقية من فلسطين تسخل في حوزته ، مثل صفد والكرك والشوك وحصن كوكب . واستولت عساكره على بعض الحصون في لبنان وشمال أنطاكية ، كما استولت على اللاذقية .

وأشعل سقوط القدس الحرب الصليبية من جديد ، إذ أخذ البابا يصرخ في الملوك ، وحمل الصليب لحرب المسلمين في فلسطين سنة ٥٨٧ فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفليب ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، ومُنيت حملة فردريك في أثناء اجتيازها آسيا الصغرى بحسائر لا تكاد تحصى في الأرواح ، ولم يبق منها إلا فلول ، أما حملتا فليب وريتشارد فقلعتا من البحر . وحاصرنا عكا وسقطت في أيدي الصليبيين بعد دفاع مستميت من حاميتها ، وعاد فليب إلى فرنسا ، وظل ريتشارد حتى سنة ٥٨٨ يقود الجيوش الصليبية وينازل صلاح الدين . واستولى على

بعض البلاد الساحلية ، واضطرَّ إلى الصلح مع صلاح الدين على أن تظل للصليبيين المدن الساحلية من صور إلى يافا ، وسمح صلاح الدين للتصاري أن يزوروا القدس حُجَّاجاً عزلاً من السلاح . وسار صلاح الدين إلى دمشق ولم يلبث أن لبَّى بها نداء ربه في صفر سنة ٥٨٩ هـ فكاه الناس وذرفوا عليه الدموع الغزار . وسقط في غير هذا الموضع عند عنايته بالعارة والبارستات والمدارس ، وقد أشاع الرخاء في مصر بما أسقط عن كواهل الناس من المكوس والضرائب الباهظة . وكان محبا للعدل ، وكانت سماحته في معاملة الصليبيين مضرب الأمثال بينهم ، ولا يزال مؤلفو الغرب يتوهمون بها إلى اليوم ، وكان رفيقا برعبته عطوفا على أهل العبادة والصلاح . وكان قد قسم في سنة ٥٨٢ هـ البلاد بين أبنائه وأهله ، فأعطى ابنه العزيز عثمان مصر وجعل أخاه العادل أتابكاً له (مدبراً للدولة) وأعطى ابنه الأفضل دمشق وأعطى ابنه الظاهر حلب ، وأعطى ابن أخيه تقي الدين عمر بلدانا في شام وميفارقين بديار بكر ، وعاد صلاح الدين قبل وفاته فجعل للعادل الموصل وديار بكر والكرك والشوبك . وتوفى فخلفه على مصر العزيز عثمان سنة ٥٨٩ هـ وكان باراً بالرجة عادلا منصفاً ، بينما كان أخوه الأفضل في دمشق يسير في الناس هو ووزيره ضياء الدين بن الأثير سيرة سيئة ، فرأى أن يأخذها منه ، وجعل لذلك جيشا ساربه إلى دمشق ، غير أن أخاه الأفضل استنجد بعمه العادل فأصلح بين الأخوين ، وانصرف العزيز عثمان إلى مصر ، وظل الأفضل ووزيره سادرين في غيبتها ، مما جعل العادل يكذب إلى العزيز بوجوب أخذ دمشق ، والتقى بها سنة ٥٩٢ هـ وأرغما الأفضل على تركها إلى صرخند سنة ٥٩٤ هـ واستخلف العزيز عثمان على دمشق المعظم عيسى ابن عمه العادل . وعاد إلى مصر يحكمها حكما رشيدا حتى توفى سنة ٥٩٥ هـ . وخلفه ابنه المنصور وكان صبيا في العاشرة من عمره ، فاستقدم الجند الأفضل ليدبر له الحكم ، وما إن وضع قدمه في مصر حتى كاتب أخاه الظاهر في حلب ، مزينا له الهجوم معه على دمشق وأخذها من ابن عمهما المعظم عيسى ، والتقى جيشاهما هناك ، ولكن العادل عرف كيف يوقع بينهما ، وعاد الأفضل بمنوده إلى مصر ، فتبعه عمه العادل ، وعرض عليه أن يترك القاهرة ويأخذ ميفارقين وديار بكر ، ولم يجد بداً من القبول ، وسرعان ما أخذ العادل قوى من الفقهاء بأنه لا يجوز ولاية الصغير على الكبير ، وعند ذلك قطع في سنة ٥٩٦ هـ الدعاء في خطبة الجمعة للمنصور ، وأمر بالدعاء له ولابنه الكامل من بعده .

وأصبح العادل منذ هذا التاريخ حتى سنة ٦١٥ سلطانا لمصر ، مع ما كان يده من فلسطين ودمشق والجزيرة وديار بكر والموصل . ولما استقامت له الأمور في كل تلك الدولة قسمها بين

أولاده ، فأعطى ابنه الكامل محمدًا الديار المصرية . وأعطى ابنه موسى البلاد الشرقية وراء الشام وشركه فيها إلى وفاته أخوه الأوحـد . وأعطى ابنه المعظم عيسى دمشق . وسير السلطان الكامل من مصر ابنه المسعود إلى اليمن سنة ٦١٢ فلـكـها . وبذلك دخلت في حوزة العادل الحجاز واليمن وكل البلاد التي أظلمها الواء صلاح الدين ، وكان محكمًا بحسنات تدبير الحكم وسياسة الملك ، وكان فارسًا مجاهدًا أبلى بلاء حسنًا مع أخيه صلاح الدين في الحروب الصليبية ، وكان تقيا وقد طهر ولاياته من الخمر وكل ما يجر إلى الفسق والاثم . وسار سيرة أخيه في رفع المكوس والمظالم ، وله صنف فخر الدين الرازي كتابه « تأسيس التقديس » وسيره إليه من خراسان . وتضاءلت في أيامه الحروب الصليبية ، وفي سنة ٦٠٩ يغزو الصليبيون دمياط ويردون على أعقابهم . ويعيدون الكرة في سنة ٦١٥ ويتفق أن يتوفى العادل ويخلفه الكامل في مصر نهائيًا ويشغل من بعض الوجوه بتدبير الحكم ، ويظل الصليبيون بدمياط نحو ثلاث سنوات يعيشون فسادًا ، وتسول لهم شياطينهم أن يتقدموا في البلاد مع فرع دمياط نحو المنصورة ، وكان النيل في قمة فيضانه ، فسلط المصريون مياهه عليهم ، وأبقوا الهلاك فراسلوا السلطان الكامل طالبين منه الأمان حتى يرحلوا عن دمياط مدحورين ، وتسلم منهم دمياط في رجب سنة ٦١٨ وكان يومًا مشهودًا ، كثني به الشعراء طويلا . ودانت للكامل دمشق سنة ٦٢٦ وكذلك البلاد الشامية والشرقية وكان ابنه المسعود قد استولى على الحجاز واليمن . ويروي بعض من حضروا الحج بمكة سنة ٦٢٠ أن الخليفة هناك دعا للملك الكامل ، قال : « صاحب مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والجزيرة ووليدها » . وما زال نجمه متألقا حتى توفي سنة ٦٣٥ .

وكان الكامل قد جعل ابنه الأكبر نجم الدين أيوب على الشرق وإقليم ديار بكر ، وجعل ابنه الأصغر العادل على مصر والديار الشامية ، وكان في الثامنة عشرة من عمره ، فلم ير الأمراء بدءًا من توليته حسب رغبة أبيه ، وعظم ذلك على نجم الدين أيوب ، فزحف بجيشه إلى دمشق واستولى عليها ، ثم سار متجها إلى الديار المصرية ، وحفلت رحلته بأحداث كثيرة ، حتى إذا وصل إلى مصر قبض على أخيه العادل وأعلن نفسه سلطانا على مصر سنة ٦٣٧ . وكان قد أكثر من شراء المالك . وبنى لهم قلعة الروضة في سنة ٦٣٨ وأنشأ فيها دورًا وقصورًا كثيرة وعمل لها ستين برجًا وبنى بها مسجدًا واتخذها دار ملكه وسكنها بأهله وأسكن معه فيها مماليكه البحرية . وكان أبناء عمومته وإخوته قد خرجوا عليه في الشام واستولى عمه الصالح إسماعيل على دمشق واستعان بالصليبيين وسلم إليهم القدس وطبرية وعسقلان . فزحف السلطان نجم الدين أيوب بجيش كثيف

إلى الشام في سنة ٦٤٢ واستول على بيت المقدس من الصليبيين وأفناهم قتلاً وأسرًا ، واسترد دمشق ، وعادت له مملكة جده العادل بكاملها حتى حلب والموصل والجزيرة . وبينما كان في دمشق سنة ٦٤٧ مرض في أولها ، وبينما هو مريض علم بغزو الصليبيين لدِمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقدّيس ، وأنهم أحاطوا بدِمياط من جميع جوانبها وسقطت في أيديهم وأنهم خرجوا منها في اتجاه مدينة المنصورة ، فصمم على لقائهم والمرض ينقل عليه وحُمِلَ إلى مصر في محفّة ، وزحف بجيشه مسرعاً إلى تلك المدينة ولم يمضِ على المرض بها ، فمات ميتة الشهداء مجاهدًا في سبيل الله . وأخذت زوجته شجرة الدر وفاته حتى يحضر ابنه الملك المعظم توران شاه من الجزيرة شرق الشام ، وأخذت له البيعة بالسلطنة وهو غائب ، وقدم إلى المنصورة وأدار بمجرد قدومه في أول المحرم لسنة ٦٤٨ معركة حاسمة مع الصليبيين مرّقهم فيها شرمزق ، وكانوا بوسط الطريق بين دِمياط والمنصورة ، فقتل منهم بضعة آلاف وأسر أكثر من عشرين ألفاً بينهم لويس التاسع ، وحملته إلى المنصورة مركب في النيل تضرب فيها الصنوج والطبول بينما الأسرى يُجرّون بالحبال على ضفتي النهر والمصريون يهللون ويكبرون من حولهم . ويسجن لويس في المنصورة بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء . ومن عجب أن يكافأ توران شاه على هذه الموقعة الباسلة التي قضى فيها قضاء مبرما على أكبر حملة صليبية وُجّهت إلى مصر باغتيال ممالك أيه له ، وكان لويس لا يزال في الاعتقال فاقدى نفسه وظول حملته بأموال وفيرة ، وعاد إلى بلاده خاسراً ذليلاً .

واجتمع رأى الممالك على تولية شجرة الدر الملكَ بعد توران شاه ، وكانت جارية تركية اشتراها السلطان نجم الدين أيوب وأعتقها وتزوجها ، وكانت راجحة العقل حسنة السيرة جيدة التدبير ، فاتفق الممالك على أن تلى شؤون السلطنة ، وتم أمرها ، غير أن الأيوبيين في الشام سرعان ما خرجوا عليها ، فانتقضت الوحدة التي انعقدت بين الشام ومصر منذ انقراض الحكم الفاطمي ولم يمضِ على سلطنتها نحو ثمانين يوماً ، وأحسّت بمرح الموقف ، فرأت التزوج من عز الدين أيك أنابك السكر وأن تحول مقاليد السلطنة إليه . وحاول - خلافاً للأيوبيين في الشام - أن يشرك معه في الحكم صيماً أيوياً هو الملك الأشرف موسى ، وكان في السادسة من عمره ، ولكنه عاد فتخلص منه . وعلى هذا النحو تحول ملك الديار المصرية في سنة ٦٤٨ من الأيوبيين إلى الممالك وقائدهم أيك ، ولا ريب في أن عهد الأيوبيين كان من أعظم العهود بمصر ، فقد نهضوا بها نهضة عظيمة واستطاعوا بجنودها أن يقهروا الصليبيين ويزجحهم عن صدر الشام ، ويردوهم عن ترأّسها وجماها إلى البحر المتوسط وما وراءه .

الممالك - العثمانيون

(١) الممالك^(١)

أخذ خلفاء صلاح الدين يستكثرون من شراء الممالك الترك وجليلهم من أواسط آسيا وتكوين فرق عسكرية منهم في جيوشهم ، وأكثر منهم خاصة السلطان نجم الدين أيوب ، وكان الأيوبيون لم يتعطلوا بما كان من هؤلاء الترك في العصر العباسي الثاني واستيلائهم على مقاليد الحكم في بعض الولايات الكبرى كما حدث في مصر نفسها لعهد أحمد بن طولون والإخشيد التركيين . وما إن توفى السلطان نجم الدين أيوب وخلفه ابنه توران شاه حتى استولى الممالك على صولجان السلطان باسم شجرة الدر التركية ، وسرعان ما أسلمت الحكم والسلطان - كما مر بنا آنفاً - إلى عز الدين أيلك قائدهم . وظل الممالك من هذا التاريخ وهو سنة ٦٤٨ بمحكون مصر إلى الفتح العثماني سنة ٩٢٢ في مجموعتين كبيرتين تسمى أولاهما الممالك البحرية نسبة إلى نهر النيل الذي كان يحيط بجزيرة الروضة مسكنهم الذي أنزلهم فيه السلطان نجم الدين أيوب . وكانوا يستكثرون من شراء الممالك ويبتزلونها في أبراج القلعة حيث يرتبون تربية عسكرية جيدة ، ويسمون نسبة إلى مسكنهم الممالك البرجية ، وهم المجموعة الثانية التي خلفت الممالك البحرية في حكم مصر منذ سنة ٧٨٤ . تولى عز الدين أيلك شئون مصر سنة ٦٤٨ ورأى كما أسلفنا أن يشرك معه في الحكم الملك الأشرف موسى محاولة لكسب رضا الأيوبيين في الشام ولكنهم ظلوا مغاضبين له ، وأخذوا في حربه ، حيثئذ رأى أن يتخلص من الأشرف موسى. وحدثت حروب ومناوشات بينه وبين الأيوبيين ، وارتضوا أخيراً أن تكون له مصر وفلسطين حتى نهر الأردن ، غير أن شجرة الدر زوجته

القاهرة) وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات (طبع بيروت) وغزوات قبرص ورودس للسيوطي (طبع قنا) والدرر الكاشفة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوي ودولة الظاهر ودولة بني قلاوون لجسمال الدين سرور والمصر المسالكي لسعيد عبد الفتاح عاشور وبروكلمان ص ٣٦٥ وما بعده .

(١) انظر في الممالك السلوك والخطط للمقريزي والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والبداءة والنهاية لابن كثير وتاريخ ابن خلدون والنجوم الزاهرة الجزء السابع وما بعده من أجزاء وبدائع الزهور لابن إياس والتبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي ومجالس السلطان الغوري وآخرة الممالك لابن زنبيل وتشريف الأيام والمصور في سيرة الملك المنصور (طبع

شُكِّت في إخلاصه لها ، فدبرت مؤامرة ضده سنة ٦٥٥ فأت مقتولا ولم تلبث أن لقيت نفس المصير ، وتولى زمام الحكم السلطان المنصور على بن أيك حتى سنة ٦٥٧ وكان قُطز أتابكاً له قبض عليه واستولى على مقاليد الحكم . وكان التار قد استولوا في العام السابق على بغداد ونكلوا بها تنكيلا فظيما ومضت زحوفهم بل سيولهم تتقدم إلى الشام وأخذت تهبط إلى الجنوب فعمد قُطز إلى مملوك عظيم من ممالك السلطان نجم الدين أيوب هو يبرس في قيادة طليعة الجيش حتى إذا انتهى إلى عين جالوت بين بيسان وناבלس سنة ٦٥٨ أصدر أمره إلى يبرس أن يتابع سيره تجاه التار وأنقى بقية الجيش بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت . والتحم يبرس بالتار وأظهر بسالة نادرة في حربهم ، وتبعه الجيش يستبسل بقيادة قُطز ، منزلا بالتار ضربات قاصمة حتى اضطروا إلى الفرار مولين وجوههم إلى الشمال لا يلوون ، تاركين وراءهم ما لا يكاد يحصى من الغنائم والأسرى . وتعدت هذه المعركة من المعارك الفاصلة في التاريخ ، إذ صدمت التار نهائيا عن مصر والشام ، وقد ثبتت أقدام الممالك لافي حكم مصر وحدها ، بل لقد انضوت الشام جميعها تحت لوائهم ، ويقتسم شرفها بحق قُطز ويبرس . وليبرس فيها الشرف الأكبر ، إذ كان على طليعة الجيش ، واستطاع أن يقتحم بطليعته صفوف التار ، ويزلزل أقدامهم ويحدث الفوضى في عساكرهم . حتى إذا تم هذا النصر المبين ظن أن قُطز سيكافئه عليه مكافأة كبيرة ولم يلبث أن طلب منه نيابة حلب ، ولكن قُطز لقصر نظره بجمل عليه بها ، فكان طيعيا أن يدير مؤامرة ضده في أثناء قفوله إلى مصر ، وواتته الفرصة فقتله ، وانتخبه أمراء الممالك وقوادهم سلطانا على الديار المصرية والشامية ، وتلقب باسم الملك الظاهر .

وكان يبرس سلطانا حازما على الهمة شديد البأس بعيد النظر يحسن تدبير الملك وسياسة ، فرأى أن انتصار عين جالوت وحده لا يكفي في تثبيت سلطانه ، وانتبه لظهور أمير عباسي بدمشق فر من التار فاستدعاه إلى القاهرة ، حتى إذا تأكد نسه إلى بني العباس بايعه هو والناس بالخلافة في حفاوة بالغة ، ولم يلبث هذا الخليفة العباسي أن قلده سلطنة مصر والبلاد الشامية وغيرها مما يظله سلطانه . وبذلك ثبت عرشه ووطد سلطانه ضد أي محاولة قد يحاولها أحد الأيوبيين لاستعادة ملك آباؤه . وظلت الخلافة العباسية قائمة بمصر طوال حكم الممالك إلى أن أخذ السلطان سليم الأول العثماني آخر خلفائها معه إلى القسطنطينية ، وأخذ سلاطين آل عثمان يقتلون الخلافة على المسلمين إلى أن أزالها مصطفى كمال أتاتورك كما هو معروف . وأتاح وجود هذه الخلافة العباسية الاسمية بالقاهرة للظاهر يبرس ومن خلفه من الممالك أن يعدوا أنفسهم حماة الخلافة والإسلام ، وأفادوا

من ذلك سيطرتهم على الحجاز والحرمين ، ووضع يبرس تقليدًا أن يسافر محملًا إلى مكة سنويا يحمل الكسوة الشريفة ، وهو تقليد لا يزال قائمًا إلى اليوم . وعُني بوضع نظام دقيق للإدارة في مصر والشام كما عني بالبريد ، فكان الخبر يصل من دمشق إلى القاهرة في ثلاثة أيام . وظل طوال حكمه يُمدد جيوشه ويزحف بها لحرب الصليبيين والتار وغزو أرمينية والسلاجقة بأسيا الصغرى وغزو النوبة في الجنوب . أما الصليبيون فاستولوا على كثير من قلاعهم وحصونهم ومدنهم مثل قيسارية وأرسوف وصفد وبتين والرملة ويافا وحصن الأكراد والقرين القريبة من عكا وصافيتا وصفاء والشقيف . ولم يلبث أن استولى على أنطاكية سنة ٦٦٧ فأنهت المملكة الشمالية التي كان قد أقامها الصليبيون ، ومعروف أن زنكي استولى من قديم على مملكتهم القديمة الرها واستولى بعده صلاح الدين على مملكتهم في بيت المقدس . ومازال الظاهر يبرس ذاهبا آيبا من الفرات لحرب التار وسحقهم ، وغزا السلاجقة في آسيا الصغرى ، وفتح أرمينية الصغرى مرتين واستعصى فتح حصون الإسماعيلية بالقرب من اللاذقية ، وفتح دنقلة كرسى بلاد النوبة ، ودانت له بالطاعة . ومن أهم أعماله أنه أقام في سنة ٦٦٣ لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة ، المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي قاضيا ، وظل العمل بذلك جاريا في عصر المماليك ، وفي أيامه سنة ٦٧٥ طافوا بالمحمل ويكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وكان يوما مشهودًا ، وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية . وشيد مسجدًا كبيرًا بالقاهرة لاحتفال أطلاله قائمًا إلى اليوم . وهو يُعدُّ من أبطال مصر والعرب العظام أمثال صلاح الدين ، ويعد عصره من العصور الإسلامية الذهبية ، وظلت بطولته في حروب التار والصليبيين عالقة بالأذهان أزمنة طويلة ، وألفت حولها قصة مشهورة ، ومازالت الأجيال تريد فيها إيمانًا بفروسيته الحارقة . وقد توفي سنة ٦٧٦ بدمشق ودُفن بها ، وتولى بعده ابنه الملك السعيد ، ولم يكد يدور به في الحكم عامان حتى ثار عليه أمراء المماليك وخلعوه وولوا أخاه بدر الدين سلامش وكانت سنة لا تتجاوز السابعة ، وجعلوا قلاوون أتابعًا له .

وسرعان ما استغل قلاوون الفرصة ، فاستخلص الملك لنفسه ، وتلقب باسم السلطان المنصور ، وهو من أعظم سلاطين المماليك حزمًا وعزمًا وتدييرًا وبأسًا ، وقد اتبع سياسة الظاهر يبرس في الإيقاع بالتار والصليبيين أما التار فنازلهم مرارًا وأنزل بهم خسائر فادحة حتى رضخوا وطلبوا منه الصلح مدحورين ، وأما الصليبيون فقد صمم على إزالة مملكتهم الرابعة والأخيرة في طرابلس ، ونازلها سنة ٦٨٨ وضحقها قهرًا بالسيف ، وملك ما جاورها من القلاع والبلدان مثل

جبل وبيروت . وكان قد حدث شغب في بلاد النوبة ، فذهب إليها بعض قواده ورم ما بها من شغب . وتوفى سنة ٦٨٩ وظل الملك في أبنائه وأحفاده نحو مائة عام ، وخلفه ابنه الأشرف خليل ، وكان شجاعا وبطلا مغوارا ، فصمم على طرد الصليبيين من الشام ، فجمع عساكره وتوجه إلى عكا فوصلها في يوم واحد ويسر الله له فتحها في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ وكان الصليبيون استولوا عليها بأخرة من أيام صلاح الدين في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ وقتلوا المسلمين بها ، فثار لهم السلطان خليل وقتل من كان بها من الصليبيين حين فتحها . وانحلت عزائم الفرنج بعد عكا وأخذ السلطان خليل صور وصيدا وحيفا واستسلمت قلاع الصليبيين الأخرى ، وتطهرت البلاد من رجسهم وإثمهم ، فلم تبق لهم في الشام بلد ولا قلعة ولا قرية ولا جزيرة .

والعجب أن يكافئ المالك السلطان خبلا على هذا العمل الباسل العظيم جزاء للسلطان العظيم توران شاه بعد واقعة للنصورة ، فيآمرؤا على قتله ، وتنجح مؤامرتهم سنة ٦٩٣ ويخلفه أخوه الناصر محمد ، وهو لا يجاوز التاسعة من عمره ، ويعين كنيثا نائبا له ، وما يكاد يدور العام حتى يستولى على السلطة ، ويقتصبها منه بعد عامين لاجين ، وتعود بعد عامين آخرين إلى الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٨ . وتنب حروب بينه وبين تار العراق ، وترجع كفتهم ويستولون على دمشق وغيرها من مدن الشام ويعيثون فيها فسادا . ولا يلبث الناصر محمد أن يجمع لهم جيشا كنيثا سنة ٧٠١ وينازلهم في مرج الصفر بالقرب من دمشق ويسحق جموعهم سحقا ، وتولى فلهم الأوبار نحو العراق ويغداد لا تلوى على شيء . ويأخذ كبار المالك في التنافس حول السلطة ويخشى الناصر محمد أن يفتكوا به فيذهب إلى الحج ويعتزلهم في الكرك جنوى الأردن ، ويرسل إليهم بكتاب يعلن فيه تنازله عن الحكم ، ويتفق المالك على تولية ركن الدين يبرس سنة ٧٠٨ ولا يدور العام حتى يعود الناصر محمد إلى سلطته ويتولى الحكم في مصر والشام للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ . وكان المصريون يحبونه حبا شديدا ، وكان عهده عهد رخاء عظيم ويتضح في كثرة المنشآت التي أسسها من مدارس ومساجد وحقايقها . وبلغت الدولة في عهده أوج مجدها ، فقد قضى أبوه وأخوه ، كما قلعتنا ، على الصليبيين نهائيا ، ولم تبق منهم باقية ، وانتصر هو على التار في ولايته الثانية على مصر انتصارا حاسما ، وعقدوا معه صلحا سنة ٧١٩ ولم يعودوا يفكرون في الغارة على الشام .

ويظل الناصر في الحكم حتى سنة ٧٤١ ويخلفه أباؤه وأحفاده حتى سنة ٧٨٤ وتعود مصر

أويعود الحكم في مصر ثانية إلى ما حدث في الدولة الفاطمية من عواقب وخيمة لأن يصبح الحكم وراثيا . ويكنى أن نعرف أن ثمانية من أبناء الناصر تولوا الحكم إحدى وعشرين سنة مما يعنى عدم الاستقرار ، وكان منهم من يعيش للهو وسماع المغنيات مثل السلطان الصالح إسماعيل والسلطان شعبان ، ومثل السلطان زين الدين ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، وفي نفس السن تولى أخوه السلطان حسن وفي عهده انتشر وباء الطاعون بالقاهرة . وتخلفه فترة يحكم فيها أحفاد الناصر لمدة عشرين عاما ، وكثير منهم كان صبيًا ، كما ذكرنا ، فكان طبيعيا أن يفسد الحكم في عهدهم فسادا شديدا . وفي سنة ٧٦٦ سُوِّلت لحاكم قبرص بطرس لوزينجان شياطينه أن يغير على الإسكندرية ، فأغار عليها لمدة ثلاثة أيام ، ثم ولى بمن معه هاربا حين علم باقتراب الجيش المملوكي .

وطبيعي وقد فسد حكم آل قلاوون فسادا لاصلاح له بعده ، أن يحاول المالك التخلص من هذا الحكم ، وكانت مجموعة المالك البرجية قد أخذت تظهر على مسرح الحوادث ، وأخذوا يسيطرون على أداة الحكم منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون ، وأخذ نجم برقوق من بينهم يعلو في سماء مصر ، ومازال يدبر للأمر هو وأعوانه حتى أطاحوا بأحفاد قلاوون وتسلم مقاليد الحكم سنة ٧٨٤ وظل في أيدي المالك البرجية إلى نهاية الدولة المملوكية ، وكان أدبيا يهتم بمجالس الأدب والعلم ، وخلفته طائفة من المالك البرجية مثل شيخ ورسباى وجقق وقايتباى والغورى . وظل برقوق على رأس الدولة حتى توفي سنة ٨٠١ إلا ما كان من سنة واحدة أبعد فيها عن الحكم وهي سنة ٧٩١ وسرعان ما عاد إليه . وتكرر في زمن هذه الدولة البرجية المناфسات بين الأمراء ، كما يكثر فرض الضرائب على الشعب . وذهب بأخرة من حكم برقوق إعصار تبارى جديد ، يقوده تيمورلنك ، ويتزل الإعصار بالعراق والموصل ويستصرخ الحكام هناك برقوق ، ويشغل تيمورلنك بغزو الهند حيناً ، فيعلن أحمد بن أويس حاكم بغداد تبعته لبرقوق رجاء أن يحميه من الطاغية المغول ، ويكسب له برقوق تقليداً أو مرسوماً بنياته عنه في بغداد ويزوده بالمال والعتاد والرجال ، ويعود تيمور سريعا ويستولى على بغداد . وفي هذه الأثناء يتوفى برقوق بينما يتجه تيمور بجيشه إلى الشمال يريد الاستيلاء على الشام ، ويستولى على حماة وحمص وبيعلبك ، وكان ممالك برقوق قد ولوا عليهم ابنه فرجا ، فخرج على رأس جيش للقائه ولكنه هزم بالقرب من دمشق سنة ٨٠٢ ودخل تيمور دمشق وظل جنوده فيها مدة يهبون ويسلبون ويأتون من الفطائع ما صورته ابن عربشاه في كتابه عجائب المقدور في نواب تيمور ، مما اضطر السلطان فرجا إلى قبول الصلح

معه ، وبارج تيمور الشام سريعاً إلى آسيا الصغرى وأنزل بالسلطان بايزيد العثماني ضربة قاصمة ، وعاد إلى بلاده . وسرعان ماتوفى وتمزقت دولته بين ورثته ، وكفى الله الممالك وديار مصر والشام شره وخطره .

ويستخدم التنافس بين أمراء الممالك البرجية ويستخلص الحكم لنفسه المؤيد شيخ سنة ٨١٥ وله عمائر كثيرة أشهرها جامع المؤيدى ، ويقال إنه لم يُبْنِ في الإسلام أكثر زخرفة منه بعد الجامع الأموى بدمشق ، وتوفى سنة ٨٢٤ . وبوبع ابنه المظفر أحمد وله سنة واحدة وثمانية أشهر ، فكان طبعياً أن يستولى على الحكم بعض الأمراء ، ويتولى سلطانان ، ويخلفهما السلطان برسباى سنة ٨٢٥ ومربنا غزو حاكم قبرص بطرس لوزنجمان للإسكندرية سنة ٧٦٦ وكان القبارصة كثيراً ما يتعرضون في البحر المتوسط للسفن المصرية والشامية . فصمم برسباى على أخذ قبرص وأرسل لها ثلاث حملات ، استطاعت ثالثها أن تستولى عليها من جميع أنحائها ، وعادت الحملة بغنائم وأسرى كثيرين ومحاكم قبرص مقيداً في الأغلال ، وقبّل الأرض بين يدي برسباى ، وتعهّد أن تظل جزيرته موابية لمصر وأن يكون نائباً فيها للسلطان ، وعاد إلى جزيرته عقب ذلك سنة ٨٣٠ بعد أن دفع دية كبيرة وبعد أن التزم بأن يؤدي لمصر سنوياً ألف دينار جزية . وخلف برسباى ابنه العزيز سنة ٨٤١ لمدة عام ، ولم يلبث الأمير جقمق أن عزله ، وتولى الحكم سنة ٨٤١ وحاول أن يكتسب مجدداً حرياً كمجد برسباى ، فوجه ثلاث حملات إلى جزيرة رودس ، ولكنها لم توفق جميعاً إلى الاستيلاء عليها ، ويتوفى سنة ٨٥٧ . وتكثر المنازعات بين أمراء الممالك البرجية . ويستخلص الحكم لنفسه قايتباى سنة ٨٧٢ وكان سديد الرأى شجاعاً ساهراً على دولته المترامية الأطراف ، منتقلاً فيها من القاهرة إلى مدن القرات إلى مكة والمدينة ، ويبدو أنه كان يعنف في جمع الأموال والضرائب ، وكان يهتم ببناء المدارس والمساجد وترميم المنشآت . وظل حاكماً للدولة تسعة وعشرين عاماً إذ توفى سنة ٩٠١ . وخلفه أربعة سلاطين حكموا مدداً قصيرة ، واختار أمراء الممالك بعدهم قانصوه الغورى سنة ٩٠٦ ، وهو من خيرة سلاطين الممالك البرجية ، وكان شاعراً واشتهر بمجالسه الأدبية . وكان طاعناً في السن ، بينما كان يترامى في الأفق شبح عدوين كبيرين يهددان مصر والممالك بالخطر الجسيم ، أولهما خطر البرتغال واكتشاف فاسكودى جاما طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند منذ سنة ٩٠٣ مما آذن بنحو زمام تجارة توابل الهند من أبدي المصريين إلى أبدي البرتغاليين ، وضياح ماكانت تأخذها مصر من ضرائب ورسوم على هذه التجارة في طريقها إلى أوروبا وتغور البحر المتوسط . وأخذ البرتغاليون بناوشون

العرب في جنوب الجزيرة العربية ، أو قل إن العرب هم الذين بدعوا بهذه المناوشات ، ووقف الغوري معهم وانتصروا في موقعة بحرية عليهم . غير أن البرتغاليين مضوا يبعيدون الكرة ، وهاجموا مدينة عدن ونزلوا في بعض الجزر الواقعة بالقرب من باب المندب وأصبحوا يهددون مدينة عدن واليمن جميعها ، فأرسل إليهم سريعا قانسوه الغوري نجدة طردت البرتغاليين من هذه الأنحاء ، واستدارت تحتل اليمن حتى تظل مصر حارسة لها .

وتهدد مصر خطرًا أكثر جسامة ، فإن العثمانيين كانوا قد استولوا على القسطنطينية وأخذ نجمهم في الصعود ، وسمعوا بما أنزله إسماعيل الصفوى بأهل السنة في بغداد من سفك لدمائهم وقسوة متناهية فأعلكه سليم الأول بالحرب وانتصر عليه في سنة ٩١٤ واستولى منه على الجزيرة والوصل وديار بكر وأعاد سليم الكرة فهزم إسماعيل الصفوى سنة ٩٢٠ . وعرف أن قانسوه الغوري كان قد عقد معه حلفا ، فصمم على منازلته ولم يكن ذلك غائبا عن قانسوه فجدد جيشا كفيفا ومضى به إلى شمالي سوريا لرد العدوان ، إن حدث ، في حينه ، وأرسل إلى سليم يطلب إليه عقد معاهدة صلح بينهما فرد رسله ردا سيئا ، ولم تلبث أن نشبت بينهما معركة مرج دابق شمالي حلب سنة ٩٢٢ ودارت اللوثر على قانسوه وجيشه ، وقُتل وهو يلوذ بالفرار ، ولم تكن تنقص جيش المالك الشجاعة ، إنما كان ينقصه سلاح مهم استخدمه العثمانيون في المعركة هو سلاح المدفعية ، فكان طبيعيا أن تكون لهم الغلبة ، وقمحت مدن الشام أبوابها لسليم ، ودخل دمشق . ويبدو أنه كان يريد أن يدع للمالك مصر ويكتفى بممتلكاتهم في آسيا ، فكاتب خليفة قانسوه في مصر طومان باى بعرض عليه أن يترك مصر له وللمالك على أن يعترفوا له بالسيادة ، فيخطب له ، وتضرب السكة باسمه . ولكن طومان باى أبى ذلك وأخذ يستعد لحربه ، وأحسن بتخاذل المالك من حوله ، بينما كان سليم يتقدم نحو مصر ودخل حدودها واتجه إلى القاهرة ، والتقى بجيش طومان باى بالقرب من العباسية على أبواب القاهرة وأنزلت مدفعيته به هزيمة ساحقة ، وفر طومان باى . ودخل سليم القاهرة في اليوم التالي وكان أول يوم جمعة في شهر المحرم لسنة ٩٢٣ فدعى له في الخطبة ، وسلم قصر طومان باى بعد قتال عنيف أما هو ففر إلى الصعيد ثم إلى الدلتا واشتبك مع العثمانيين في بعض مناوشات خاسرة ، ولم يلبث أن سلم غلرا إليهم ، فأمر السلطان بشقه على باب زويلة . وبذلك انتهى حكم للمالك لمصر وتقوضت دولتهم .

(ب) العثمانيون^(١)

مكث السلطان سليم في مصر بعد فتحه لها نحو ثمانية أشهر ، ذاق فيها المصريون ألوانا كثيرة من الظلم والمحن ومصادرة الأموال وأيضًا مصادرة العلماء ورجال المهن والفنون والصناعات ونقلهم في السفن إلى القسطنطينية ، وقد نُقل كثير من التحف والآثار الرائعة من المساجد ومن قصور المالكين حتى الرخام كانوا يترعون . وكأنما وضع سليم خطة أن يحرم مصر من كل ما كان بها من تراث فني غير ما حمله من كتب لاتزال تزخر بها مكتبات القسطنطينية إلى اليوم . وهكذا جردت مصر من علمائها وقائديها وتراثها الفكري والفني ، وعاشت حقبة سوداء امتدت إلى نحو مائتين وتسعين عاما ، وحتى الخلافة الإسلامية التي كانت تتبع لها زعامة أو شيئا من الزعامة في العالم الإسلامي سلبها منها سليم ، إذ دفع المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس في مصر إلى أن يتنازل له عن الخلافة ، ويقال إنه تقلدها في مصر ، ويقال بل بعد ذهابه معه إلى القسطنطينية .

وجعل سليم على مصر نائباً له أو والياً ، كان يلقب بالباشا ، ويتخذ القلعة مقراً له طوال حكم العثمانيين لمصر ، ولم ينفرد بالحكم ، فقد أشرك معه سليم - وظل ذلك سارياً بعده - قادة الجند العثمانيين الذين تركهم بعده في مصر ، وأيضاً أشرك معه حكام مديريات القطر أو أقاليمه ، وقد اختارهم سليم جميعاً من المالكين ، وكأنه رأى أن يشركهم في الحكم ، للإشراف على شئون الأقاليم . ولم يلبث أن توفي سليم ، وخلفه أخوه سليمان سنة ٩٢٦ وفي أيامه استقر نظام حكم العثمانيين السياسي لمصر بحيث كان بها وال له الإشراف العام على شئونها المختلفة ، ومعه ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار ورئيس الفرق العسكرية والدفتدار (مدير الخزانة) والروزنامجي (حافظ السجلات) وأمير الحج وقاضي القضاة ورئيسهم ونيقب الأشراف ورؤساء المذاهب الأربعة وبعض رؤساء المالكين أو كبيرهم . وبجانب هذا الديوان ديوان صغير كان يتألف من الكتبخدا (نائب الوالي) والدفتدار والروزنامجي ومندوب عن كل فرقة من الفرق العسكرية .

(١) القومية في مصر وظهور محمد علي لعبد الرحمن الرازي
وقسمة تاريخ العرب الحديث لعبد الكريم غرابية والمخطط
التوثيقية لعل مبارك (طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب)
١٤٦/١ وما بعدها وتاريخ النحوب الإسلامية لبروكلمان
ص ٤٤٨ .

(١) انظر في العثمانيين آخره المالك لاين زنبل وديانج
الزهور لاين لباس وأخبار الأول فحين تصرف في مصر من
الدول للإسحاق وتاريخ الجبرق والبلاء العربية والدولة
العثمانية لاسطع المصري . والحسنة الفرنسية وظهور محمد
علي لمحمد فؤاد شكرى والجزء الأول من تاريخ الحركة

وكان الديوان الصغير يتخذ كل يوم ويبلغ قراراته إلى الوالى ، وبالمثل كانت قرارات الديوان الكبير تبلغ إلى الوالى ويعمل على تنفيذها جميعاً .

وظل المالك - منذ سليم - يمثلون في البلاد سلطة ثالثة بجانب سلطى الجند والوالى ، إذ جعلوا حكاما للأقاليم ، وكان كل منهم يسمى سنجقا : اسما تركيا . كان فى الأصل يعنى البيرق ، إذ كان السنجق عادة يتسلم بيرقا فسى باسمه وسميت مديريته باسم السنجقية ، وأعطوا أيضا لقب بك ، فكان هناك الوالى الباشا والسنجقة المالك البكوات ، وكانوا يشرفون على مديرياتهم من الناحيتين الإدارية والمالية ، وكان لهم نواب يسمون الكشاف جمع كاشف . وكان يتبع الكشاف الملتزمون وهم من الترموا بدفع ضرائب معينة عن قرية أو قرى ، وكانت للملتزمين سلطة واسعة على الفلاحين فهم يتصرفونهم اعتصارا دون شفقة أو رحمة ، والفلاحون يتصبون عرقا لكى ينعم الملتزم والكاشف والسنجق ، وما يزالون يشقون عليهم بالضرائب والإتاوات ويرهبونهم من أمرهم عسرا ، حتى أصبحوا يعانون ما لا يطاق من البؤس والفاقة . وبذلك كسدت الزراعة ، كما كسدت التجارة منذ استولى العثمانيون على مصر وكشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت تجارة أوروبا والهند إليه . وزاد الأمور سوءا أن العثمانيين اتبعوا سياسة مستمرة أن لا يظل الوالى فى مصر إلا مدة قليلة قد تكون عاما وقد تكون أقل من عام ، فلم يشعر الولاة بشئ من الاستقرار ، وكأنهم كانوا يجيئون ليدخروا لأنفسهم شيئا من ماله، وكانوا يذهبون دون أن يفكروا فى أى إصلاح ، ويكنى أن نعرف أنه حكم مصر حتى مجئ نابليون مائة وخمسون واليا عثانيا .

وكانت الدولة العثمانية قد أخذت تضعف منذ القرن الثانى عشر الهجرى أو السابع عشر الميلادى ضعفا شديداً فأخذ سلطان السناجق المالك بقوى ، وخاصة أنه كانت يدهم أزمته الشئون الإدارية والمالية فى البلاد ، وأيضا فإن العثمانيين كانوا يتخذون منهم فى القاهرة زعيما لهم يسمونه شيخ البلد ، فأخذت مشيخته أو سلطته تقوى ، حتى غدا مناظرا أو مائلا للوالى العثمانى . وبلغ من سلطان شيخ البلد ومالكه أن كانوا أحيانا يعزلون الولاة ، وربما جاءهم وال لا يرضونه ، فكانوا يمتنعون عن تهنته ، ولا يحضرون قراءة المرسوم بتوليته ، حينئذ لا يجد بدا من حمل حقائبه والعودة إلى القسطنطينية فكان طبيعيا أن يفكر بعض شيوخ البلد من زعماء المالك فى الاستقلال بمصر ، وتولى على بك الكبير مشيخة البلد ، وصمم على الاستقلال ، ولم يلبث أن خلع الوالى التركى سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وضرب السكة

باسمه ، وفتحت جيوشه معظم جزيرة العرب ونادى به شريف مكة : سلطان مصر وخاقان البحرين . وأرسل قائداً من قواده وهو محمد بك أبو الذهب لفتح سوريا ، وفتحت له دمشق وغيرها من مدن الشام أبوابها . غير أن الباب العالي العثماني لم يلبث أن استغواه بما وعده به من الولاية على مصر فانقلب على سلطانه على بك الكبير ، ونشبت بينها الحرب وسقط في ميدانها على بك سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م . وبذلك أضاع محمد بك أبو الذهب على مصر فرصة ذهبية : أن يرد لها استقلالها وحريتها ، وظل شيخا للبلد ، يؤمى عليها من العثمانيين من يختاره إلى أن توفى بعد ستين في عام ١١٨٩ هـ . وخلفه على مشيخة البلد إبراهيم بك ومراد بك شريكين فيها ، وخرجت المشيخة من أيديهما فترة إلى إسماعيل بك ، وتوفى فصادت إليهما لإبراهيم الرياسة ، وأصبح شيخا للبلد إلى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م . وتنزل الحملة مصر وتظل تجاهدها جهاداً عنيفاً مريراً ثلاث سنوات ، ولم ينفع نابليون قائدها ما أنشأه من مجالس شورى ألفها من بعض شيوخ الأزهر ومن كبار التجار والأعيان ، وجعل لها النظر في الضرائب وشئون الحكم .

لم يَقر هذا الخلداع المصريين فقد عرفوا أنها مجالس صورية لتنفيذ مظاممه الاستعمارية ، ومازالوا يقاومون الحملة مقاومة باسلة ، حتى اضطروها إلى مبارحة البلاد سريعا . وأولى أن تدرس هذه الحملة وآثارها بمصر مع عصرها الحديث ، إذ أذكت في المصريين الشعور القومي . فلما خرجت إلى البحر المتوسط وما وراءه وعاد المصريون إلى الحكم العثماني رأوا أن من واجهم التخلص من نيره الظالم البغيض وأن يختاروا حاكمهم واختاروا محمد على سنة ١٢١٩ هـ / ١٨٠٥ م وبدعوا بقوة نهضتهم الحديثة .

المجمع^(١)

مصر - كما وصفها الذكر الحكيم - جنات وعيون وزروع ومقام كريم. وفي جنات هذه الزروع وجناتها عاش سكانها من القبط ومن نزل بها من العرب ، ومع الزمن يزداد اختلاط العرب بسكانها وخاصة منذ أسقطهم الخليفة العباسي المتصم من دواوين الجيش في نهاية الربع الأول من القرن الثالث الهجري ، فقد مضوا بمخالطون سكانها لا في مدنها فحسب ، بل أيضا في قراهم وزروعهم مؤلفين جميعا شعبا مصرى . وكانت تتوزعه - كغيره من الشعوب العربية - ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا . وتشمل الطبقة الأولى الوالى وصاحب الخراج والقاضى وكبار أصحاب المناصب وقواد الجند ومعهم الأشراف من يبقى العباسيين والعلويين وكبار التجار والإقطاعيين من المماليك . والطبقة الوسطى تشمل العلماء والجند وأوساط الزراع أصحاب الملكيات الصغيرة والقائمين على الصناعات . أما الطبقة الدنيا فتشمل الفلاحين والصناع وصغار التجار . وبحوار هذه الطبقات كان هناك رقيق يجلب من أواسط إفريقيا ومن بيزنطة وأرمينية وثغور البحر المتوسط ، وكان كثير منه يجرى ويصل إلى أرفع المناصب على نحو ما هو معروف عن فائق الرومى وكافور الحبشى القائدين في زمن الإخشيد . وكان هناك أهل الذمة من الأقباط .

وبعد النيل مصر من قديم برحاء لا مقطوع ولا ممنوع ، ومعروف أن أرضها قبيل الفتح العربى كانت موزعة بين الدولة والكنيسة وكبار الإقطاعيين ، وقد ترك العرب الفاطميون للكنيسة وللإقطاعيين ما لهم من الأراضى على أن يؤدوا عنها الخراج أوكما نقول الآن الضرائب ، وبالمثل كان يؤدونها أصحاب الملكيات الصغيرة من الأرض وكل فالح لها أو زارع . وترك للقبط الإشراف

شداد ورحلة ابن جبر ومعيد النعم ومعيد النعم للسبكى والمسلح لابن الحاج ونظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين لسطية مصطفى مشرفة والمجمع المصرى في عصر السلطين المالك لمسيد عبد الفتاح عشيد والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى لأدم ميتز وقصة القاهرة وتاريخ مصر في المصدر الوسطى لستانلى لين بول وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان .

(١) انظر في المجمع الرواة والقضاة للكندى والمغرب لابن سجد بحسبه عن القسطنطين والقاهرة ومروج الذهب للسعودى ومصر عند المقدسى وابن حوقل وتاصر عسرو والإشارة إلى من تال الوزارة لابن مبرور وترجمة يعقوب ابن كلس والأفضل بن بدر الجبالى في ابن حلكان والمخطط للفريرى والجزيين الثالث والرابع من صبح الأعشى والنجوم الزاهرة لابن تيمى بردى ويصالح الزهراء لابن لياس وكتاب قوانين الدولوين لابن عماد وسيرة صلاح الدين لابن

المال على شئون الخراج أو ضرائب الأرض ، وظل لهم ذلك وحدهم طوال الأزمنة الإسلامية حتى الثلاثينيات من القرن الحاضر . وكان أهل الذمة من القبط وغيرهم يؤدون الجزية ، وهي تتراوح بين دينار ودينارين سنويا ، يؤديها القادر بمقدار قدرته ، ولم يكن يؤذيها راهب ولا شيخ ولا امرأة ولا صبي ، وهي في واقعها ضريبة دفاع لأنهم لم يكونوا يشتركون في الحرب .

وكانت تؤخذ بجانب ذلك مكوس على الصناعات ، ومن أهمها صناعة القراطيس من ورق البردي ، وكانت هذه الصناعة رائجة جداً حتى أواخر القرن الثاني الهجري حين نقلت في عهد الرشيد من الصين صناعة الورق وأنشئ لها مصنع ببغداد . وأهم من هذه الصناعة صناعة النسيج واللباب ، وقد ظلت مزدهرة طوال الحقب ، وكان النساء والغلمان في الوجه البحري يشتركون فيها ، واشتهرت بها المدن الشمالية : دمياط وشطا وتيس وديق والإسكندرية ، وكان من نسيج الأخيرة ما يباع بما يعادل وزنه من الدراهم ، وكان ثمن الثوب اللين مائة دينار وقد يبلغ مائتين ، واشتهرت تيس بثوب كانت تصنعه للخليفة منسوجا بالذهب وليس فيه من الغزل سوى أوقيتين ، وكان يقدر بألف دينار . وكانت السجاجيد والأبسطة والستور تصنع بالقيوم والصعيد ، وكانت تصنع المحصر في أمكنة كثيرة ، كما كانت تصنع بعض أنواع الجلود . وعلى كل هذه الصناعات كانت تؤخذ المكوس كما كانت تؤخذ على استخراج بعض المعادن وخاصة الشب والنظرون ، وأيضاً على بناء السفن . وكانت التجارة رائجة ، وكان يتجر فيها كثير من الفرس والروم واليهود . وبما يدل بوضوح على رخاء مصر في عصر الولاة ومدى ما كان يتمتع به القبط من حسن المعاملة خبر رواه المقرئ في وقع في أثناء زيارة المأمون لمصر سنة ٢١٧ إذ مر بقريه يقال لها « طاه الخلل » وكانت إقطاعية لقبطية عجوز تسمى مارية ، فعرضت له تسأله أن يتزل في ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده ، وعجب لكثرة ما قلعت من أطعمة ، فلما أصبح جاءته ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق ، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصري ، فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب ، فشكرها وأمرها برده ، فأبت إياه شديداً ، وتأمل الذهب أو اللنانير فإذا بها من ضرب عام واحد ، مما يدل على أنه ربحها من عام ، فقال : هذا والله أعجب . وتوسلت إليه أن يقبلها ، فتمنع وقال لها : رُدِّي مالك بارك الله لك فيه ، فأعذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التي تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندي من هذا الذهب شيء كثير . فأخذته المأمون ليبت المال وأقطعها عدة ضياع وأعطاه من قريتها مائتي فدان بغير خراج . ومارية إنما هي

إقطاعية واحدة وكان وراءها إقطاعيون كثيرون من القبط والعرب ، فإن الدولة كانت قد دأبت على أن تمنح بعض الموظفين الكبار بمصر وبعض الشخصيات العربية إقطاعيات مختلفة في القرى المصرية . وبما يدل على الرخاء حيث ارتفع رواتب الولاة وأصحاب الخراج وكبار الموظفين وحتى القاضي موضع الزهد والتشفيء إذ يذكر الكندي في كتابه الولاة والقضاة أن عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون في سنة ٢١١ رسم لقاضي القضاة سبعة دنائير كل يوم . وحقا كان يحدث أحيانا قحط أو أوبئة أو تضرعات من كثرة الضرائب الاستثنائية التي يفرضها بعض عمال الخراج ، حتى ليأخذ ذلك في الحين الطويل بعد الحين شكل ثورة ، ولكن هذا كله سرعان ما يزول ، كأنه سحابة صيف سرعان ما تنقشع ، ويعود إلى مصر الأمن والرخاء ، فبينما مصر - كما يقول عمرو بن العاص في رسالته المشهورة إلى عمر بن الخطاب - لؤلؤة يبيض إذا هي غبرة سوداء . فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة رقتاء .

وكانت أسواق القضاة تعكس صور الرخاء في مصر ، فهي تتجوز بالأطعمة والحلوى والفواكه وبالطيب والملك والعنبر وماء الورد ومختلف الأقاوية . ويبدو أن المساكن بها والفرف والحوانيت كانت توجر ، ويؤجر معها الأثاث . وعرفت مصر حينئذ ضروب الملاهي من الصيد وأدواته ومن سباق الحمام وسباق الخيل ، ويروى الكندي أن والي عليها يزيد بن عبد الله منع من حلبات السباق سنة ٢٤٢ وسرعان ما عادت سنة ٢٤٩ . وكان الناس يحارثون أحيانا بين الكباش والكلاب . ويبدو أنه كانت هناك بعض دور للخمر ، ولابد أنها كانت قليلة ، وبذكر ابن سعيد - إن صح ما يذكره - أن محمد بن أبي الليث الخوارزمي قاضي المتصم بمصر كان يشرب النبيذ وله عليه ندماء . وكان الناس يهتمون بالغناء وما يصحبه من آلات الموسيقى والطرب ، ويذكر ابن سعيد أيضا أنه لم يكن بمصر مغنية إلا ركب إليها القاضي لعهد الرشيد المسمى بالعمرى كى يسمع غناها ، وربما قوم لها ما انكسر من غنائها وما دخل عليه من تحريف في لحنه . وكان الناس يخرجون للترفة في جزيرة الروضة أمام القضاة وعلى شاطئ النيل . وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة بفتح الخليج (وفاة النيل) وبالأعياد الإسلامية وأيضا بالأعياد القبطية وبعيد النيروز الفارسي لأول الربيع .

ويؤثر مصر - كما مر بنا - أحمد بن طولون مكوّنا بها الدولة الطولونية ، وتلق مصر في حجره وحجر ابنه خوارويه بكنوزها ، وكان حازما بعيد النظر رهوفا بالرعية ، فأتى عن كواهلها كثيرا من الضرائب التي كان قد فرضها عليها ابن المدبر عامل الخراج ، وكان قد زاد عليها الضرائب ،

وفرض ضريبة على النطرون وعلى المراعى وعلى المصايد فأسقط ابن طولون ذلك كله . واستغل بمصر ، وفتح له كنوزها ، وأغدقت عليه من طياتها ، فكُون جيشه الضخم ، وأخذ فى بناء قصره خارج الفسطاط وقطائع لمساكره من الترك والسودان والروم وغيرهم وأيضاً لقواده ، وعمرت مدينته القطائع وتفرقت فيها الحارات والشوارع والأزقة والحوانيت والسُكك وُبُنيت المساجد والطواحين والحمامات والأفران . وبنى جامعته الكبير وأنفق عليه مائة وعشرين ألفاً من الدنانير ، وبنى بهارستاناً وأنفق عليه ستين ألف دينار ، وجعل أمام قصره ميداناً كبيراً للعب كرة الصولجان ، أنفق عليه خمسين ألف دينار . وكان ينفق على مطبخه فى كل يوم ألف دينار ، وكان يُعَمَلُ سَمَاطٌ عَظِيمٌ ، وينادى : من أحب أن يحضر سَمَاطُ الأمير فليحضر ، وكان الناس يأكلون ويعملون ما يشاءون . وكان ما يدخل إلى خزائنه فى كل سنة بعد نفقاته مليون دينار ، وخُلف فى خزائنه من الذهب حين موته عشرة ملايين من الدنانير .

واستقر السلطان بعده لابنه خمارويه وعظم دخل الدولة ، وأخذ خمارويه يفرق إلى أذنيه فى النعيم ، فزاد فى عمارة قصر أبيه ، وجعل الميدان الذى أمامه بستاناً وزرع فيه أنواع الرياحين والورود وأصناف الشجر وكسا النخل نحاساً تخرج من عيونهِ المياه وتندحر إلى فسائى يفيض الماء منها إلى مجار تَتَقَّى سائر البستان ، وسرَّح فيه طيوراً حسنة الصوت وطواويس مختلفة . وجعل لنفسه مجلساً سماه دار الذهب طَلاً حيطانه بالذهب واللازورد وجعل فيه تماثيل أو صوراً بارزة لحظاياهِ ومغنياته وعلى رءوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة . وجُعِلت فى هذا البستان بين يدي القصر فسقاية من الزئبق طولها خمسون ذراعاً وكذلك عرضها ، كان يُرى لها فى اللبالي المقمرة منظر عجيب حين يتألف نور القمر بنور الزئبق . واتخذ خمارويه بيوتاً للسباع وغيرها من الوحوش سوى الإصطبلات الواسعة للخيل . وكانت حلبات السباق فى أيامه تقوم مقام الأعياد ، ويقال إن عرض الخيل حينئذ كان من عجائب دار الإسلام . وبما يدل على ما وصلت إليه الدولة من ثراء جهاز ابنته قَطْرُ الثَدْيِ حين زَوَّجها الخليفة العباسى للمعتضد ، وكان من جملة ذكّة تتألف من أربع قطع من الذهب عليها قبة من الذهب مشبكة بها أقراط فى كل قرط حبة من جواهر لا يعرف لها قيمة ، وكان فى الجهاز مائة هاون من الذهب ، وبنى خمارويه - كما مرَّ بنا - قصر فى كل منزل تنزل به ابنته من مصر إلى بغداد .

وبما يدل على ثراء مصر لعهد الطولونيين ثراء واسعاً أن أباً بكر محمد بن المافزاني عامل الحراج ووزير خمارويه تملك من الضياع ما بلغ دخله أربعائة ألف دينار فى كل سنة سوى ما كان يؤديه من

الضرائب ، ويقال إنه حج إحدى وعشرين حجة وكان ينفق في كل حجة مائة ألف دينار . وكانت مصر تحتفل بالأعياد احتفالات كبيرة : الإسلامية منها والقبطية ، بل لكأنما كانت أيامها كلها في عهد الطولونيين أعيادا . ولذلك بكت دولتهم بدموع غزار . وتحلفهم فترة تعود فيها مصر إلى عهد الولاة ، وسرعان ما يتولاها الإخشيد ، فيعيد إليها بهجتها ورخاءها ، ويفضل نراتها استطاع أن يعد لنفسه جيشا ضخما مكونا من ٤٠٠ ألف مقاتل سوى ثمانية آلاف من ممالكه الأرقاء ، ومازال بعده يحكم مصر بعلو إلى أن صار له حكم الشام والثغور وخطب له بالحجاز واليمن . وأصبحت مصر بعده لأبنائه ووصيهم كافور الإخشيدى . وكانت مصر تتم بثراتها ، ويبدو أنه تكونت فيها طبقة من كبار الإقطاعيين من العمال والصناع والتجار والزراع لفت بقوة الإخشيد ، فإذا هو يكثر من مصادرة عماله وكتابه ، ويقول ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتاب المغرب إنه « كان إذا توفى قائد من قواده أو كاتب تعرض لورثته وأخذ منهم وصادهم وكذلك كان يفعل مع التجار المياسرة » ويقول ابن سعيد أيضا إنه لما توفى التاجر عفان بن سليمان أخذ من ميراثه مائة ألف دينار . وكان سباق الخيل في أيامه - كما كان في أيام خنارويه - يقوم مقام الأعياد . وكانت لوزيره ومدير الدولة زمن أولاده جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنّابة دار للأفاعى والحيات والعقارب لما قِيمَ وحارٍ من الحواة ومعه مستخدمون .

وظلت مصر طوال زمن الإخشيديين تعنى ببعض اللهو والفناء ، وفي ترجمة الإخشيد بكتاب المغرب أن أبا بكر الماذناني دعاه إلى طعام وجمع له الغنين من الرجال والنساء . وكان يحاكي ابن طولون في احتفاله بعرض الجيش ليلة عيد الفطر وفيما كان يتخذ عقب العرض من يُصَب السباط للناس . وكان المصريون يحتفلون بعيد الفطر وغيره من الأعياد الإسلامية احتفالات كبيرة ، وبالمثل كانوا يحتفلون بالأعياد القبطية . وشهد المسعودى لعهد الإخشيد سنة ٣٣٠ أحد هذه الأعياد وهو عيد الغطاس المسمى ، ويكون عادة ليلا ، ويقول إن الإخشيد كان بقصره في جزيرة الروضة ، وأمر فأسرج من شاطئ القسطاط وشاطئ الجزيرة ألف مشعل غير ما أسرجه أهل مصر من المشاعل والشمع . ومئات الآلاف من الناس على الشواطئ وفي الزوارق وقد أحضروا المأكّل والمشارب وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والقصف . ونجد بعض الشعراء يذكرون الأديرة وما فيها من خمر ، كما نجدهم يذكرون الطرد والصيد ويقول ابن سعيد إنه كانت بالقسطاط بعض دور للقمار .

وثُلّثى مصر بكنوزها للفاطمين ، ويؤسسون بها أو يقيمون الدولة الفاطمية ويمتد سلطانها من

شواطئ إفريقيا الشمالية إلى بلاد الموصل ، وتدخّل في حوزتهم اليمن والحجاز في أغلب أيامهم .
وينتم الفاطميون بالخراج الذي أخذت يزيد من نحو مليون ومائتي ألف دينار حين نزل جوهر الصقل
القاهرة إلى خمسة ملايين ونصف من الدنانير لعهد الخليفة المستعل . وكانت المكوس تُفرضُ على
كل شيء حتى قال المقرئى إنه لم يسلم منها حيثئذ إلا الهواء . ويذكر المقدسى أنه كان يُجبى من
تنيس يومياً ألف دينار على ما تنسج من الثياب ، ويقول المقرئى إنه بلغ المتأخر على تنيس في
ثلاث سنوات مليون دينار ومليون درهم ، وبالمثل كانت تجبى مكوس كثيرة على ما ينسج من
الثياب في شطا ودمياط وديق والإسكندرية ، ويقال إنه جُبى من تنيس ودمياط والأشمونين في
يوم واحد ٢٢٠ ألف دينار . ومما كانت تجبى عليه المكوس الشبُّ والتطرون . وكانت تُفرضُ
مكوس على الحمامات ، وكانت تُعَدُّ بالثلاث في القسائط والقاهرة ، وعلى الحوانيت ، ويذكر
ناصر خسرو أنها كانت تبلغ فيها نحو عشرين ألفاً ، وكان إيجار الحانوت يتراوح بين دينارين
وعشرة دنانير شهرياً . وبجانب هذه المكوس كانت هناك الجوالى التى بدفعها أهل الذمة .
وكانت - كما يقول ابن ممان في كتابه قوانين الدواوين - تُفرضُ مكوس على المتاجر الصادرة
والواردة تبلغ نحو عشرين في المائة من العروض أو البضائع . وكانت هناك جبوس كثيرة أو بعبارة
أخرى أوقاف محبوسة على وجوه البر ، أخذت تتزايد منذ نهض الليث بن سعد فقيه القسائط في
القرن الثانى - لأول مرة - بهذا الصنيع . وكل ذلك كان يصبُّ في خزائن الدولة الفاطمية ، حتى
لتصبح مصر وكأنها فردوس العالم العربى ، وفيها يقول المقدسى : « هى الإقليم الذى اخترع به
فرعون على الورى .. أحد جناحي الدنيا ، ومفاخره لا تحصى ، مصره (يريد القسائط) قبة
الإسلام ونهره أجل الأنهار ، وغيراته تُعَمَّرُ الحجاز ، وبأهله يهبج موسم الحاج ، وبِرّه يعمّ الشرق
والغرب ، قد وضعه الله بين البحرين (الأحمر والمتوسط) وأعلى ذكره في الخافقين ، حبسك أن
الشام - على جلالتها - رُستاقه (قَرَاه) والحجاز - مع أهلها - عياله » .

وطبى أن تتضخم - مع هذا الثراء الهائل في مصر - الطبقة العليا : طبقة الأسرة الفاطمية
وزراتها وقوادها وكبار موظفيها وأشراف العلويين وكبار إقطاعيها ونجارها . وقد أكثر الفاطميون
من الإقطاع للوزراء والقواد ، وكان عندهم نظامان للإقطاع : إقطاع تمليك يورث وإقطاع
استغلال يمنح حق الانتفاع لشخص بعينه ولا يورث . ويؤرّى أن يعقوب بن كلس أول وزرائهم
بمصر كان راتبه في العام مائة ألف دينار ، وقالوا إنه لما توفى ترك من الجواهر ما قيمته أربعمائة ألف
دينار ومن المصوغات ما قيمته نصف مليون دينار . وذكر ابن خلكان أن وزيرهم في أوائل القرن

السادس الهجرى الأفضل بن بدر الجمالى ترك ستائة مليون دينار ومائتين وخمسين إردبا دراهم وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج وثلاثين راحلة حفاق ذهب ، ودواة ذهب محلاة بجوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال فى عشرة محابس فى كل محبس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان وخمسمائة صندوق كسوة لخاصته من نسج تنيس ودمياط ، وخلف من الرقيق والحليل والبغال والجواميس والبقر ما لا يعلم قدره إلا الله . وكأنما حول كل أموال مصر فى عهده إلى خزائنه ، وأى خزائن إن أكبر مليونير أمريكى فى عصرنا لا يبلغ من الثراء مبلغه . وحيثما كانت تحدث بمصر أحيانا مجاعات بسبب نقص النيل والقحط ، كما مر بنا فى عهد المستنصر ، وقد تحدث أوبئة ، ولكن مصر كانت تنفض عنها ذلك دائما وتعود سريعا إلى رخائها الذى أتاح للوزيرين السابقين كل هذا الثراء .

وإذا كان هذا حال وزيرين فما بالنا بأحوال الخلفاء وما كانوا يفرقون فيه من ثراء وترف ، ويكنى لبيان ذلك أن نعرف أنه بعد أن تقوّضت الدولة واستولى صلاح الدين على مقاليد الحكم كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر الفاطمى ، فإذا به من الكنوز ما لا يكاد يخطر ببال ، حتى ليقول المقرئى : « خرج من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ما لا يبق به ملك الأكاسرة ولا تصوره الخواطر الحاضرة ولا يشتمل على مثله المالك العامة ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حسابات الخلق فى الآخرة » .

ولعل فى كل ذلك ما يدل على الثراء والترف والبدخ فى أيام الدولة الفاطمية ، وبزخر حديث المقرئى وغيره بملابس الخلفاء وعما تمهم المرصعة بالجواهر وما كانوا يتخذون من زينة فى أثاثهم وأواني طعامهم وفى قصورهم وبساتينها وأروقها وأفنيها وأعمدتها وأرضها المفروشة بالرخام المتعدد الألوان ، مما بهر ناصر خسرو فى القرن الخامس ، كما بهر غليوم رئيس أساقفة صور فى نهاية أيام الفاطميين سنة ٥٦٢هـ على نحو ما يلقان فى كتاب كنوز الفاطميين . ويقول ناصر خسرو إن أهل القاهرة كانوا يعنون بزراعة الأزهار فى سطوح منازلهم حتى لثرى كأنها حدائق ، وما يدل على سعة الرخاء لعهد ما ذكره عن سيدة بمصر كانت تملك خمسة آلاف قدير ، تؤجر كل قدر منها بدرهم . ولعل فيما ذكرنا من هذا الرخاء والترف ما يدل على أن الصناعة كانت مزدهرة بمصر ، وكان العائد منها على الصناع عظيما وبالمثل كانت التجارة وأيضا الزراعة . وكل شىء يؤكد أن الفلاحين كانوا يتعاملون مع الملاك بنظام المزارعة الموجود حتى الآن ، فللمالك نصف المحصول وللزارع أو الفلاح النصف الآخر ، وتلقانا فى النصوص كلمات الخولى والسائس والحراث والجناينى

والأجبر والأعوان وعاصر النبيذ .

ويدو أن مصر أخذت تعنى عناية واسعة بالقضاء منذ هذا العصر ، حتى لنجد ابن الطحان يؤلف فى القضاء والمغنين كتابا . وشاع النبيذ والشراب بأكثر مما كانا يشيعان فى الأزمنة السابقة لكثرة الوافدين على مصر من الشرق للدعوة الفاطمية ، وكأنما حملوا إلى مصر شغف بيئاتهم - وخاصة إيران - به .

واتسع الفاطميون بالأعياد الإسلامية ، وهى - كما يقول المقرئى - موسم رأس السنة ، ويوم عاشوراء ، ومولد الرسول ﷺ ، ومولد على ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد فاطمة الزهراء ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وموسم ليلة رمضان أو غرة رمضان ، وسماط رمضان من اليوم الرابع حتى اليوم السادس والعشرين ، وليلة الحتم ، وموسم عيد الفطر ، وموسم عيد الأضحى ، وعيد الغدير (الذى يؤمن الشيعة بأن الرسول عهد فيه بالخلافة إلى على بن أبى طالب) وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج (وفاة النيل) وعيد النيروز (أول الربيع) وهو عيد فارسي كان الناس يوقدون فيه النار ويرشون الماء . ومن أعياد النصارى عيد الفطاس وعيد ميلاد المسيح وخميس العدس قبل عيد الفصح بثلاثة أيام وفيه يأكل القبط العدس ، وعيد الزيتونة وهو يوم أحد الشعانين ، وكانت الكنائس تزيّن فيه بأغصان الزيتون وقلوب النخل . وبعض هذه الأعياد كانت تتحول كرنفالات كبيرة ، إذ يقول المقرئى : « كان الناس بمصر يخرجون فى بعض الأعياد ويطوفون الشوارع بالخيال والتمثيل والسماجات ، والخيال هو لعبة خيال الظل المضحكة التى تحولت مع الزمن إلى لعبة الأراجوز المعروفة ، ولعل التماثيل هى نفس أشباح الأراجوز ، أما السماجات فأشخاص يترامون فى صور منكّرة مضحكة ، وقد يحاكي نفر منهم شعوبا أجنبية وكأن ظاهرة ضحك المصريين من أصحاب الرطانات فى العرية وغيرها قديمة . وكانوا يتسلّون بنطاح الكباش ومهارشة الكلاب والديكة . وبينما كان الفاطميون وأهل القاهرة مقلّين على هذه الملامى كان الصليبيون - كما مر بنا - قد نزلوا بالشام واحتلوا بيت المقدس وأنطاكية وأكثر ثغورها ، وكان لابد من منقذ مصر والبلاد الشامية مما أصابها من فساد شديد فى أداة الحكم .

وانتقل الحكم والسلطان إلى صلاح الدين وأسرته الأيوبية ، وفى عهده وعهد الأسرة جميعا تحولت مصر إلى ثكنة عسكرية ضخمة ، وسرعان ما أخذت تباشر النصر على الصليبيين تلوح ، بل سرعان ما تهاوت قلاعهم تحت أقدام المصريين ، وتهاوى معها بيت المقدس ، وردّت الديار

إلى أصحابها إلا قليلا . وكان المفروض أن يتقل صلاح الدين كواهل المصريين بالضرائب الباهظة من أجل السلاح والإفلاق على جيوشه ، غير أن الذى حدث كان عكس ذلك تماما ، فقد خُفِّفَ الضرائب عن المصريين ورفع عنهم أكثر المكوس إن لم يكن كلها ، حتى يقول المقرئى إنه أسقط منها ما يزيد عن مليون دينار ومليون أردب وبالمثل أسقط عن أهل الذمة ضرائب كثيرة حتى قالوا إن كل ما كانوا يدفعونه للدولة لم يكن يزيد عن مائة وثلاثين ألف دينار . ولعل مما يدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن يمتنع شيئا من أموال الناس وأن كل ما كان يتحول إليه من الجواهر والضرائب يتفق في الحرب دون أن يمتحن منه أى شيء لنفسه ما ذكره ابن تغرى بردى وغيره من المؤرخين مثل ابن شداد في سيرته من أنه حين لجى نداء ربه لم يوجد في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصريا ودينارا واحدا ذهبا صوريا ، ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا ضيعة ولا مزرعة . ويروى ابن تغرى بردى أن ابنه العزيز كان يسير سيرته في الرعية ، ويقول إنه وهب لصياد دينارين ، وتطهر عليه أن يدفع له هذا المبلغ البسيط . وبالمثل كانت سيرة خلفائه سيرة عادلة ، وكانوا دائما كأنهم مرابطون لحرب الصليبيين ، وقد مات السلطان نجم الدين أيوب وهو يجاهد لويس التاسع وخطفه ابنه توران شاه - كما مر بنا في غير هذا الموضع - فأُزيل به زمرة ساحقة ، وهو آخر سلاطين هذه الدولة بمصر الذين ظلموا يجاهدون الصليبيين حتى الألفاس الأخيرة من حياتهم .

وعنى صلاح الدين ببناء القلعة وبناء كثير من المدارس والرباطات ، وظل خلفاؤه يمتنون بالعمران ، مما أُنشئت الصناعات في القاهرة ، وكانت صناعة الثياب مزدهرة بتبئس وغيرها . وقد عنى الأيوبيون بالتجارة ، وعقدوا - كما يقول بروكلمان - سلسلة من الاتفاقات التجارية مع الدول الأوربية مما عاد بفوائد كثيرة على التجار المصريين ، وكانوا يمتنون بالزراعة ونظم الري عناية فائقة . ويصف ابن جبير في رحلته لعهد صلاح الدين ريف مصر وقراه التي لا تحصى كثرة ، ويقول إن العمارة فيها متصلة ، وفيها الأسواق وجميع المرافق . ولحقته صلاة الجمعة بإحدى هذه القرى فصلَّى بها الإمام في مجمع حافل وخطب خطبة بليغة جامعة . ويشيد بالمارستان الذى بناه صلاح الدين بالقاهرة وما فيه من عناية بالمرضى ، ويذكر موضعا فيه مقتطعا للنساء ومقاصير عليها نوافذ من حديد أُخذت محابس للمجانين ، كما يذكر مارستانا آخر بالقسطاط على ذلك الرسم بعينه . ويذكر جزيرة الروضة ومبانيها المشرفة الحسان ويقول إنها مجتمتع اللؤلؤ والزينة ، فأهل القسطاط والقاهرة لم ينسوا حتى في عهد صلاح الدين وحروبه وجهاده لهوهم ومرحهم ، وحقا لم يُن

الأيوبيون بالأعباد الكثيرة التي كان يعنى بها الفاطميون والتي بلغت في تقدير المقرئ نحو ثلاثين عبداً ، ولكن على كل حال بقيت منها بقية إسلامية كانت تُمدّ فيها الأسطة للشعب وكذلك بقيت بقية من الأعباد النصرانية . وطبيعي أن يُشغل الأيوبيون عن الأعباد المصرية مجرّوسهم مع الصليبيين وما كانت تُستفيد منهم من أموال ضخمة . ويدعو أن فنون اللهو وما يتبعها من القمار والخمر مما حُرّف في عهد الفاطميين ظلت في أيام الأيوبيين وإن خفت حدتها ، ويقول ابن تغري بردي عن السلطان العادل الأيوبي إنه طهر جميع ولاياته - في مصر وغير مصر - من الخمر والخواريق والقمار . وطبيعي أن لا تفارق البسمة شفاء المصريين في أيام انتصارات سلاطينهم الأيوبيين على الصليبيين وأن لا يفارق المرح نفوسهم ، ومن خيراً ما يصور ذلك كتاب الفاشوش في حكم قراقوش لابن مماتي صاحب ديوان الجيش والمال لمهد صلاح الدين ، وكان قد عين قراقوش محافظاً للقاهرة وأمره ببناء القلعة ، والكتاب مجموعة من النواذر المضحكة على قراقوش وأحكامه الحمقاء . وسرعان ما أصبح قراقوش شخصية خيالية لكل حاكم مجبول فيه بله وغفلة وحمق ، وسُمّي في تركيا قراقوز ، وعاد إلينا باسم أراجوز وببروضه المضحكة .

ويتحول صَوْلجان الحكم وأزمته إلى أيدي سلاطين المالك ، ويكسبون لمصر مجد الانتصار على التتار ، وتنحصر موجتهم إلى العراق وماوراءه ، ويَطْرُدون نهائياً الصليبيين من ديار الشام . ويعود التتار مع تيمورلنك إلى الشام وتنسحب جموعه إلى آسيا الصغرى ، ويتوفى فتمزق دولته . وتُعَدّ أيام المالك من أزهى أيام مصر الإسلامية إن لم تكن أزهاها ، فقد ورثت عن بغداد الخلافة العباسية ، كما مربنا ، وتوافد عليها العلماء والأدباء من العراق وما وراءه فآرؤن من وجوه التتار ، وكانت الأندلس تمر بأيامها الأخيرة فوفد عليها أدباؤها وعلمائها ، كما وفد من قبل علماء صقلية وأدباؤها حين احتلها النورمان . وبذلك كله كانت مصر منذ عصر الأيوبيين موئلاً العروبة والإسلام . وظلت بها ثلاث طبقات متقابلة طوال زمن المالك : طبقة الحكام ، وطبقة وسطى من كبار التجار ، وطبقة دنيا من الفلاحين والعامّة . وكانت الطبقة العليا الأولى تمشي منفصلة عن الشعب : في جزيرة الروضة أولاً ثم في الجبل ، على نحو ما هو معروف عن المالك البحرية والبرّجية ، وقد ظلوا محافظين على طبقتهم فهم لا يختلطون بالشعب ، ودالحا كانوا يعملون على تنمية أنفسهم بمناصر جديدة منهم ، كان يستوردها لهم النحاسون من أحداث الرقيق المجلوب غالباً من القوقاز وجنوبي روسيا ويزنطة ، وكانوا يدربونهم في القلعة على الفروسية ، ويُمِلُّون لهم أساتذة يعطونهم الكتابة والحساب وشيئا من القرآن الكريم والحديث النبوي ، حتى إذا شُربوا

توزعهم أمراء المالك ، مكُونين منهم فرقا عسكرية . وما يلبث جنود هذه الفرق أن يقتنوا الإقطاعات ، وكانت أحيانا إقطاعات تملك كما مربنا في العصر الفاطمي فهي تورث ، وأحيانا كانت إقطاعات استغلال . وبمرور الزمن تكاثرت هذه الإقطاعات في أيام المالك تكاثرا شديدا ، حتى اضطر بعض السلاطين إلى فكها ولكن سرعان ما كانت تعود .

وبذلك كان من أهم ما يميز عصر المالك أنه عصر إقطاع ، وكان الفلاح لا يزال إقطاعه وكأنه - حياته - قن كما يقول المقرئ . ويعجب السبكي في كتابه معيد النعم من هذا الرق للفلاح ، ويقول : من حق الفلاح أن يكون حرا لا يلد لآدمي عليه . وكأنما حُرِّم أصحاب الأرض الحقيقيون من تملك الأرض ، وتملكها المالك الأرقاء ، وكانوا كثيرا ما يفرضون عليهم - كما يقول ابن إياس - ضرائب استثنائية غير الضرائب العادية . ومع ذلك ففي النصوص أن نظام الزراعة المعروف كان - كما أسلفنا - مستمرا في هذه الحقب ، وهو النظام الذي يجعل للفلاح نصف المحصول وللمالك نصفه الآخر ، ويبدو أن أصحاب الإقطاعات كثيرا ما كانوا يظلمون الفلاحين . على أن تسلط المالك على الأرض والزراعة جعلهم يعنون بالجسور ونظام الري وبالثروة الزراعية عامة وكذلك بالثروة الحيوانية . وكانت الدولة تشتري كثيرا من المحاصيل وتبيد توزيعها على تجار التجزئة ، حتى تمنع المضاربات التجارية .

وكانت الصناعة مزدهرة ، فقد كانت أيام المالك أيام ترف في بناء القصور الباذخة وفي كل شئون الزينة ، وكانت للدولة مصانع خاصة للخلع السنية التي يخلعها السلاطين على الأمراء وكبار رجال الدولة . وكانت تزدهر صناعة الملابس والفرش والأثاث والجلود والحلى والمعادن والزجاج الملون . وكانت الدولة تهتم بصناعة الأسلحة وسفن الأساطيل . وكل ذلك عمل على ازدهار الصناعات ، وما يدل على هذا ازدهار بوضوح أن نجد لكل فئة من الصناع نقابة خاصة تنظر في شئونهم فيما بينهم وبين أنفسهم كذلك فيما بينهم وبين الشعب من جهة والحكومة من جهة ثانية . وكانت التجارة بالمثل مزدهرة ، بل كانت أكثر ازدهارا ونشاطا ، فإن مصر حينئذ كانت تملك بالسطر الأكبر من أزمة التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وبعبارة أخرى بين الهند وشرق آسيا وبين أوروبا ، مما جعلها تعقد شبكة من المعاهدات بينها وبين جمهوريات إيطاليا التجارية مثل جنوا والبندقية فضلا عن بقية ثغور البحر المتوسط وجزره . وكانت الدولة تحصل على دخل ضخم من مكوس التجارة ، حتى إذا سقطت أهمية طريق مصر إلى الشرق باكتشاف فاسكودي جاما طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٣ كان ذلك إيذانا بانتهاء دولة المالك في مصر واستيلاء العثمانيين عليها .

ولعل في هذا كله ما يدل على مبلغ الثراء ، الذى كانت تحياه هذه الدولة ، عن طرق مختلفة من التجارة والصناعة وخراج الأرض والجوالى ، وأيضا فإن الجبوس أو أراضى الأوقاف التى أشرنا إليها في غير هذا الموضع مضت تتزايد زيادات كبيرة ، بحيث كانت مصدرا أساسيا من مصادر دخل الدولة ، وكانت تُصمَّم إليها ضريبة أخرى من مصادرة أموال التجار أحيانا وفاء بما قد تتطلبه الحروب ، وكانت مصادرة الإقطاعات مستمرة بمجرد أن يموت أصحابها . وكل هذا معناه أن دولة المالك كانت ثرية ثراء طائلا ، وهو ثراء أعدها لتنهض نهضة كبيرة بالحركة العلمية ويفن العارة ، وتكتظ القاهرة بمساجد سلاطينها وقبابها الشائعة الرائعة .

وعادت إلى مصر في أيام هذه الدولة أعيادها الكثيرة في العصر الفاطمى : الإسلامية والقبطية عدا الأعياد الشيعية . وأضاف المالك عيد محمل الحج . وعادت الكرنفالات والاحتفالات الكبيرة في هذه الأعياد ومن يتنكرون بها من أصحاب المساهر والساجات . واتسعت فنون اللهو والتسلية ، وكان الناس يخرجون للترهة في أمكنة كثيرة على شاطئ النيل مثل الأربكية وكان يمر بها قديما ، ومثل بولاق وجزيرة الروضة . وكانوا يستأجرون القوارب والسفن الشراعية للترهة بها في النيل ومعهم بعض المغنين والمغنيات ، واشتهر بينهم كثيرون ، ويذكر ابن حجر منهم في كتابه « الدرر الكامنة » عبد العزيز الحنفى أعجوبة زمانه في فن الغناء وهوى ، أعجوبة أيامها في الضرب على العود ومحمد بن على الدهان وكان يتقن الغناء على القانون . ويذكر السخاوى منهم في كتابه « الضوء اللامع » خديجة الرحاية . وكان هناك من يتعاطون الخمر أحيانا وكذلك الحشيش ، وقد يكثرون من يتورطون في تعاطيها فيضطر السلطان إلى الأمر بإحراق الحشيش وإراقه دنان الخمر في كل مكان كما صنع الظاهر بيبرس . ومن ملاهيم حينئذ النرد والشطرنج وتطير الحمام وتهارش الديكة والصيد ورمى الطير بالبندق . وارتق حينذاك خيال الظل وأصبح مسرحا شعبيا تاما ، ويؤلف له ابن دانيال ثلاث مسرحيات ألفها في عهد الظاهر بيبرس ، وجميعها تصور مواقف ومشاهد فكاهية تثير الضحك في المتفرجين . ويقول السخاوى إنه كان من ملاهيم سماع سيرة عترة وذات الحمة وأبى زيد الهلالي والظاهر بيبرس . وكأنما كُتب على الشعب المصرى أن يؤدي ثمنا باهظا لمرحه ولهوه في زمن المالك ، فإذا العثمانيون يمتاحون دياره . وثُمَّم سماء مصر فقد كسنتها سحبهم المظلمة نحو ثلاثة قرون إلا قليلا ، إذ تحولت من إمبراطورية ذات سلطان وصولجان إلى ولاية عثمانية ، وليس ذلك فحسب ، فقد جُردَها فاتحها سليم من علمائها ورجال الفنون بها ومهرة صناعتها . وتراثها الفنى وكل ما كان بها من مخف نفيسة ، ويقال إنه أبطل بمصر خمسين

صناعة . وبذلك كان فتح العثمانيين لمصر كارثة من كل وجه ، لم تكن كارثة سياسية فحسب ، بل كانت أيضا كارثة علمية وفنية وصناعية ، وحتى مسرح خيال الظل شاهده سليم فأقيم على صاحبه بطائفة من الدنانير ، كما يقول ابن إياس ، وخطع عليه ققطانا مذهبها ، واصطحبه معه إلى القسطنطينية . وعلى هذا النحو انتكست مصر انتكاسة لم تستطع أن تفيق منها إلا بعد فترة طويلة . وقد ضاعت منها حيثز موارد التجارة وما كان لها من مكانة في التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وضاعت مواردها الصناعية ، فقد غادرها مهرة المصناعات إلى القسطنطينية ، ولم يبق لها إلا الزراعة ، والعماليك والماليك يعتبرون خيراتها وطياتها من الرزق ، حتى لا يبقى للفلاح سوى البؤس والفنك وشظف الحياة . وربما كان خير ما يصور تعاسة الفلاحين للمصريين في هذه الفترة كتاب « هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف » ليوסף الشريفي وهي قصيدة عامية هزلية ومثلها شرحها ، وهما يحملان سخرية لاذعة بالحكم العثماني للمصريين وما أرقق به العثمانيون والماليك الفلاح المصري من عسف وظلم لا يدانيه ظلم ، ظلم جبر أظفح ما يمكن من الجهل والبؤس ، حتى ليصبح أفقر طعام الفلاح خبز الشعير والجبن القريش (الحلال من الدهن) والبصل والعدس والبيسار ومن وزاته سيات السخرة . وهو يسوق ذلك في أسلوب فكاهي يحمل كثيرا من السمو .

٥

التشيع : الدعوة ^(١) الفاطمية الإسماعيلية

مر بنا - في غير هذا الموضع - أن مصر دخلت في يعة علي بن أبي طالب بالخلافة وأنه اختلف عليها ولاية من قبله ، غير أن ذلك لا يعنى أنها اتخذت التشيع عقيدة ، وحقا كان يحدث فيها أحيانا تحركات لبعض العلويين وبعض شيعتهم وأنصارهم ، غير أنها لم تكن تحركات مذهبية ، إذ لم تكن تعد أن تكون نصره لعلوى بعينه . وتمضى مصر معتنقة لمذهب أهل السنة بعيدة عن العقيدة الشيعية . وبرز لها دعاة الدولة الفاطمية حين تأسست بالمغرب ، ولم يفلح أحد منهم

الإسلام لجولدنبير (الطبعة العربية) ص ٢١١ وما به من مراجع وكتاب أصول الإسماعيلية لبناورد لويس (من منشورات مكتبة الخلق) وكتاب في أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسن وما به من مراجع وخاصة للمستشرق ليفانوف .

(١) انظر في هذه الدعوة رسالة المطاح الدعوة للفاطمي النعمان بن محمد (طبع بيروت) وكذلك دعائم الإسلام له (طبع دار المعارف) وروضة العطل للكرمانى (طبع القاهرة) والمجالس المستمعية (طبع دار الفكر العربي) وكذلك المسة في آداب اتباع الأئمة . وانظر كتاب الطبقة والشرعية في

في حملها على الثورة ضد العباسيين، وكأن دعوتهم لم تكن تلبث أن ترد معهم إلى المغرب.

وما نصل إلى سنة ٣٥٨ حتى يفتحها جوهر الصقلي وينشئ بها القاهرة ويتخذها الفاطميون حاضرة لهم، ويقومون بها دولة شيعية إسماعيلية وتظل مصر متسكة بعقيدتها السنية. ومرُّ بنا أن فرقة الشيعة الإمامية انقسمت في زمن مبكر إلى اثني عشرية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق سادس الأئمة إلى ابنه موسى الكاظم وتوالت بعده في خمسة من الأئمة آخرهم محمد المهدي المنتظر المختفي منذ سنة ٢٦٠ للهجرة. وإلى إسماعيلية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل المتوفى في حياته لأن الإمامة عندهم تنتقل إلى الابن الأكبر حتى لو مات في عهد أبيه. ومرُّ بنا كيف أن عبد الله بن ميمون القذاح نظم الدعوة الإسماعيلية، وأن أحد دعائها هيا لعبده الله الفاطمي حكم تونس فنزلها وأعلن دعوته سنة ٢٩٧، وخلفه القائم فالنصور فالعز الذي اتسع بالدولة ومدَّ حدودها شرقا إلى الشام.

ويؤمن شيعة الفاطميين الإسماعيلية بمجموعة من المبادئ أولها فكرة أن إمامة المسلمين الشرعية إنما هي لعل وأبنائه من أئمتهم المنحدرين من السيدة فاطمة الزهراء، وكل إمام منهم وصيُّ لسلفه طبقا للترتيب الإلهي في خلافة أولادته الربانية على أمور الأمة. وقد بدأ الرسول ﷺ - في اعتقادهم - فأوصى بخلافة علي وإمامته من بعده، ورووا في ذلك أحاديث حملوها هذا المعنى مثل: «علي مني بمنزلة هرون من موسى» كما رووا أحاديث خاصة بهم تشير إلى تابع الإمامة في آل البيت، ووجهوا بعض الآيات القرآنية نفس الوجهة مثل قوله تعالى: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا).

ومبدأ ثانٍ قرروه هو طاعة الإمام سواء دعا لنفسه سرا أو علانية وجهرا، فطاعته جزء لا يتجزأ من إيمان الإسماعيلية، فهم كما يؤمنون بالله ورسوله يؤمنون بإمام العصر ويفوضون أمورهم إليه ويلبسون أنفسهم من دونه. فريضة مقدسة، يتضرعون تحت لوائه ويبرهون من أعدائه ويوالونه أصداق الولاء.

ومبدأ ثالث هو عصمة أئمتهم، إذ يرفضونهم فوق المستوى الإنساني بفصائل نظرية فيهم يجعلهم مبشرين من الذنوب مطهرين من الآثام، لا يتورطون في معصية، ولا يقعون في أي خطيئة مها كانت صغيرة، لما يتقل في أصلاهم - حسب اعتقادهم - من نور إلهي يتنقأ أرواحهم

وَيُخْلِطُهَا مِنْ دَوَاعِي الشَّرِّ وَأَتَانَهُ . وَهُوَ نُورٌ ظَلَّ يَنْحَدِرُ مِنْ آدَمَ وَأَبْنَانَهُ الطَّاهِرِينَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَحَفِيدِهِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَأَنَّمَا أَصَابَ عَلِيًّا حَفِيدَهُ الْآخِرَ مِنْهُ شِعَاعٌ مَا يَزَالُ يَنْتَقِلُ فِي الْأُتَمَّةِ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ .

وَمَبْدَأُ رَابِعٍ هُوَ الْإِتْسَاعُ بِالتَّأْوِيلِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَآيَاتِهِ ، مُسْتَدْلِينَ بِمَثَلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) زَاعِمِينَ أَنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرًا وَوَرَاءَ ظَاهِرِهِ بَاطِنًا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا أُنْتَمَتُهُمْ ، خُصُّوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ . وَاشْتَقَّ الدُّكُورُ مُحَمَّدًا كَامِلَ حَسَنِ مِنْ هَذَا الْمَبْدَأِ عِنْدَهُمْ نَظَرِيَّةُ الْمَثَلِ وَالْمَثُولِ ، فَظَاهَرُ الْقُرْآنِ مِثْلُ وَبَاطِنُهُ فِي رَأْيِهِمْ مُمَثَّلٌ ، وَجِسْمُ الْإِنْسَانِ مِثْلُ وَنَفْسُهُ مُمَثَّلٌ . وَعَلَى الْإِسْمَاعِيلِيِّ أَنْ يَنْحَى عَنْ بَصَرِهِ الظَّاهِرِ الْمُتَبَادِرِ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رُؤْيَا الشَّرِيعَةِ عَلَى حَقِيقَتِهَا وَفِي بَاطِنِهَا . وَهُمْ بِذَلِكَ يَقْتَرِبُونَ مِنْ نَظَرِيَّةِ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي تَدْعُو إِلَى نَبْذِ الْأَسْتَارِ وَالْحَجْبِ الْمَادِيَةِ حَتَّى يَفْضِيَ الْإِنْسَانُ إِلَى وَطْنِهِ الْمَجَاوِي . وَقَدْ أَوْغَلُوا فِي التَّأْوِيلَاتِ الْبَاطِنَةِ ، لَأَيِّ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ نَاسِبِينَ ذَلِكَ إِلَى أُنْتَمَتِهِمْ ، مِمَّا لَا يَحْتَمِلُهُ ظَاهَرُ الْقُرْآنِ أَيْ أَحْتِمَالٌ ، وَلِذَلِكَ يَسْمِيهِمْ أَهْلُ السَّنَةِ الْبَاطِنِيَّةِ .

وَنَصِلُ إِلَى الْمَبْدَأِ الْخَامِسِ الَّذِي يَفْصِلُ الْعَقِيدَةَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةَ عَنِ النَّظَرِيَّةِ الْعَامَةِ لِأَهْلِ السَّنَةِ وَالشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَصَلًا تَامًا . وَهُوَ مَبْدَأُ تَدَاخُلِ فِيهِ نَظَرِيَّةُ الْفَيْضِ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ ، إِذْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْأُتَمَّةَ مِنْذُ آدَمَ يَتَوَلَّوْنَ فِي أَدْوَارٍ كُلِّ دَوْرٍ يَتَكُونُ مِنْ سَبْعَةٍ ، وَالسَّابِعُ هُوَ الْإِمَامُ النَّاطِقُ الْمُمَثِّلُ لِلْعَقْلِ الْكُلِّيِّ الْفِعَالِ الَّذِي انْتَقَلَتْ إِلَيْهِ قُدْرَةُ اللَّهِ ، وَعَنْهُ تَصْدُرُ النُّفُوسُ الْكُلِّيَّةُ الَّتِي يُمَثِّلُهَا الْأُتَمَّةُ السَّنَةُ فِي الدَّوْرِ كَمَا تَصْدُرُ جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ . وَيَأْخُذُ تَارِيخُ الْبَشَرِيَّةِ مِنْذُ آدَمَ هَذَا النِّظَامَ الدَّوْرِيَّ السَّبْعِيَّ الْكُوفِيَّ ، وَكُلُّ دَوْرٍ يَدْعُمُ عَمَلَ النَّاطِقِ السَّابِقِ لَهُ وَيَمْهَدُ لِنَاطِقِ الدَّوْرِ الْجَدِيدِ . وَيَتَجَلَّى النُّورُ الْإِلَهِيُّ فِي كُلِّ دَوْرٍ مِنْ هَذِهِ الْأَدْوَارِ وَيَبْلُغُ كَمَالَهُ فِي الْإِمَامِ النَّاطِقِ الْحَامِلِ لِرِسَالَةِ نُورَانِيَّةٍ بَاهِرَةٍ . وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الرَّسُولَ كَانَ عَقْلًا فَعَالًا وَأَنَّ عَلِيًّا وَصِيَّهُ - فِي اعْتِقَادِهِمْ - كَانَ نَفْسًا كُلِّيَّةً ، فَلَمَّا رَفَعَ الرَّسُولُ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى أَصْبَحَ عَلَى عَقْلٍ فَعَالًا . وَمَا زَعَمُوهُ أَنَّ نَفُوسَ الْأُتَمَّةِ السَّنَةِ قَبْلَ الْعَقْلِ النَّاطِقِ تَعُودُ بَعْدَ الْوَفَاةِ إِلَى عَالَمِ الْعُقُولِ وَتَصْبِحُ بِمِثْلِهِ عَقُولًا كَلِّيَّةً مُدِيرَةً لِلْكُونِ .

وَمَبْدَأُ سَادِسٍ هُوَ إِطْلَاقُهُمْ كُلَّ صِفَاتِ الذَّاتِ الْعَلِيَّةِ عَلَى أُنْتَمَتِهِمْ ، وَهُمْ يَزْعُمُونَ يَقُولُونَ أَنَّ لِكُلِّ إِمَامٍ نَسَبَتَيْنِ : نَسَبَةٌ إِلَى عَالَمِ الطَّبِيعَةِ وَنَسَبَةٌ إِلَى عَالَمِ الْقُدْسِ ، بِالضَّبْطِ كَمَا يَعْتَقِدُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ . وَزَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ - جَلَّ جَلَالُهُ - يَنْبَغِي أَنْ يَنْزِعَهُ عَنْ كُلِّ الصِّفَاتِ وَالْأَسْمَاءِ ، وَقَالُوا : يَزْعُمُهُمْ - إِنَّ أَسْمَاءَهُ الْحَسَنَى إِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءُ الْعَقْلِ الْأَوَّلِ الْفِعَالِ أَوِ الْعَقْلِ الْكُلِّيِّ وَأَنَّ اللَّهَ أَعْلَى مِنْ أَنْ

يسمى باسم أويوصف بصفة . ومضوا فأضفوا صفاته وأسماءه على أنتمهم ، وبذلك رفعوه إلى مرتبة التأليه ، بل لقد حسبوهم تجسداً للذات العلية ، حتى ليقول الداعي شهاب الدين أبو فراس في كتابه « مطالع الشموس في معرفة النفوس » : « اعلم أن الإمام الموجود للأنام لا يخلو منه زمان ولا يحوزه مكان ، لأنه إلهي الذات ، سرمدي الحياة ، ولو لم يثبتنس إلى معرفته بالحدود والصفات لما كان للخلق إلى معرفته وصول » . وكان أبا فراس لا يصف الإمام الفاطمي وإنما يصف الله سرمدي الوجود الذي لا يحده الزمان ولا يحصره المكان والذي لا يعرف إلا بأسمائه وصفاته . ولا ريب في أن الدعاة من أمثاله هم الذين سولوا للحاكم بأمر الله أن يظن أو يتوهم أنه التجسد الإلهي للذات العلية ، فدعا له بعض دعائه إلى عبادته . ولما طفع الكيل قُتل في ضواحي القاهرة ، وأنشأ أنصاره أنه اختفى وسيرجع يوما إلى الدنيا وعالمها المحسوس .

ومبدأ سابع وهو مبدأ سلبى ، إذ كانوا يُلغون الاجتهاد والأخذ بالقياس في الشريعة على نحو ما هو معروف عند أهل السنة ، إذ جعلوا المرجع إلى الإمام ، وهو معصوم من الخطأ ، والحكم إذن حكمه والفتوى فتواه دون منازع . وبذلك ألغوا حرية الفكر والرأى وما يتبعها من الاجتهاد العقل في أمور الأمة والجماعة . وثبت عندهم ذلك واستقرت بسببه طاعتهم للإمام ووجوب الخضوع لأحكامه ، إذ هو الوارث لعلوم أهل البيت .

وهذه هي أهم المبادئ في العقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ولهم في الفقه بعض آراء خالفوا فيها الجماعة مثل المنادة في الأذان بحمى على خبر العمل ومثل ميراث البنت لكل مال أيها إذا لم يكن لها أخ ، ومثل مسح القدمين في الوضوء بالماء لا غسلها . ولعل دولة عرية لم تُعَن بالدعاية كما عُنِي الفاطميون ، فقد كان لهم في كل بلد دعاة ، وكانوا يقسمون العالم العربي والإسلامي إلى أقسام سموها جزائر وعينوا لكل جزيرة دعائها ، وللدعاة جميعا رئيس أعلى يسمى داعي الدعاة وباب الأبواب ، ويليّه الحجة وهو كبير الدعاة في الإقليم ، وصاحب التأويل الذى يعقد مجالس الحكمة ويتلو على الناس علوم أهل البيت ويأتى وراء ذلك الدعاة والنقاء من كل صنف .

ومن يحاول التعرف على دعاة هذه الدولة سيلاحظ توا أنهم كانوا غير مصريين وأنه كان بينهم المغربى والشامى والإيراني ، وكان مصر لم تقبل على الدعوة الفاطمية ، بل ظلت سُنِيّة ومبتعدة عنها ، وكأنها دخلتها من باب وخرجت من باب آخر ، كريح مرت ولم تترك وراءها أثرا . ومعنى ذلك أن مصر لم تعتنق المذهب الإسماعيلي الفاطمي ، ربما اعتنقه بعض أفراد . أما مصر الأمة والشعب فقد ظلت منصرفة عنه في إصرار لسبب طبيعي وهو أن مصر بلد معتدل

المزاج لا يتطرف يمينا ولا يساراً، بل إن التطرف يخالف طبيعته ويهاينها أشد المهاينة. وحاول بعض الباحثين أن يجد شيئاً من أثر التشيع الفاطمي، فعثر على أساءه أفراد كانوا ينتشعون أو ينسب لهم التشيع هنا وهناك، ونجزم بأنهم لم يكونوا إسماعيليين يؤمنون بالمهادئ السابقة، إنما كانوا سُنيين محبين لأهل البيت، وكانت مصر قبل الفاطميين وإلى اليوم تحبهم، ولكن دون أن تعتنق مذهباً من مذاهب الشيعة، فضلاً عن المذهب الإسماعيلي وما في مبادئه من غلو مفرط.

٦

الزهد^(١) والتصوف

مصر - من قديم - بلد دين ، تعيش به وتعيش له ، وما أهراماتها إلا رموز ضخمة لدينها الوثني في عصر الفراعنة ، حتى إذا اعتنقت المسيحية توغلت فيها وفيها تحملته من زهد في حطام الدنيا ومتاعها الفاني ، نافذة خلال ذلك إلى الرهبة التي أشاعتها في هذا الدين ، حتى غدت من خصائصه ، فإذا أناس من معتقيه يعزلون العالم وكل ما فيه من شهوات ومآرب إلى الأديرة ينفقون فيها حياتهم ناسكين متعبدين . وتدخل مصر في الإسلام وسرعان ما تقبل على تعاليمه الزاهدة التي تحض على التقوى والنسك ، ترفدها في ذلك نوازعها الدينية الموروثة ، وهي نوازع ظلت تنبض بقوة في المجتمع المصري الإسلامي . وحقا قد نجد أحيانا أفرادا من الشعب أو من الأمراء الحكام يمجنون ، وقد نجد أسراباً من الهجون في بعض الأزمنة المتأخرة ، ولكن ذلك لم يكن يعدو زبناً أو قشورا تبدو أحيانا فوق السطح ، أما الأحماق فترفض المتاع الدنيوي المادي وتعلق بما عند الله من المتاع الأخروي الروحي .

وابن خلكان وابن شاذلي في تراجم بعض المصوفين والزهاد
وابن تغري بردي وديان الزهري لابن أبي شاذلي وتاريخ الجبل
وكتاب في التصوف الإسلامي لنيكلسون والحركة الفكرية في
مصر في القرنين الأولين والملوكي للدكتور عبد اللطيف
حمزة وإبراهيم السوقي وأحمد البسوي في دائرة المعارف
الإسلامية، والتصوف في مصر إبان العصر العائلي والشرافي
للدكتور توفيق الطويل .

(١) انظر في الزهد والتصوف الولاء والقضاء للكندي ،
والغريب ، وحسن الماضرة للسيوطي ، وطبقات الصوفية
لأبي عبد الرحمن السلمي ، والطبقات الكبرى للشمري .
وكنزك كتاب لوائح الألوام ، والخطط للمقرئ في
الخطافات والرباطات والأروا ، والرسالة القشيرية ،
وكشف المحجوب للهجويزي ترجمة الدكتور إسماعيل عبد
الحادي قنديل وأخبار الحكماء للقفطي وتهذيب ابن حاكم

ومنذ الفتح الإسلامي تنشأ في مصر وتنمو جماعات من النساك العباد تجرد عن متاع الدنيا وتبذ طبائتها ، وأقرأ في تراجم القصاص الوعاظ والفقهاء والمحدثين والقراء والقضاة ، فتجد عشرات من هذه الفئات يزهدون في متاع الدنيا ، بل يفرطون في الزهد متحملين في ذلك مشقات عنية من الجوع وغير الجوع . نذكر منهم سليمان التجيبي ، وهو أول من قصّ ووعظ الناس بمصر في زمن معاوية فإن السيوطي يذكر عنه في كتابه حسن المحاضرة أنه كان يسمى الناسك لشدة جادته ، وكان يختم القرآن في كل ليلة زلنى وتعباً لربه . ومنهم المزنى صاحب الشافى وأكثر تلاميذه تصنيفاً في مذهبه ، وفيه يقول ابن خلكان في ترجمته : « كان في غاية الورع ، وبلغ من احتياطه أنه كان يشرب في جميع فصول السنة من كوز نحاس ، قيل له في ذلك ؟ قال : بلغنى أنهم يستعملون السرجين (روث البهائم) في الكيزان والنار لا تطهرها . وذكر أنه كان إذا فاتته الصلاة في جماعة صلى منفرداً خمسا وعشرين مرة أو صلاة استدراكاً لفصيلة الجماعة ، مستنداً في ذلك إلى قوله ﷺ : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بنحس وعشرين درجة » . وكان من الزهد على طريقة صعبة شديدة . » ومنهم بكار بن قتيبة القاضى في عصر ابن طولون ، وفيه يقول ابن سعيد في كتابه المغرب : قسم الفسطاط : « كان أحد البكّائين والتالين لكتاب الله ، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها قضايا جميع من تقدموا إليه وما حكم به ويكى خشية خطه ، وكان يكثر الوعظ للخصوم » . ويورد السيوطي ثبناً طويلاً بمن كان بمصر من الصلحاء والزهاد والصوفية في كتابه حسن المحاضرة ، ويذكر بينهم سيدات عابدات ناسكات في مقلمتين السيدة نفيسة حبيدة الحسن بن على بن أبى طالب للتوفاة سنة ٢٠٨ ، وكانت مقيمة في موضع مسجدنا اليوم بالقاهرة ، وكان الناس يجتمعون إليها لسماع الحديث ، ولما دخل الإمام الشافى القاهرة حضر إليها وسمع الحديث عنها . ومن هؤلاء للمتعبات الناسكات فاطمة بنت عبد الرحمن بن أبى صالح للتوفاة سنة ٣١٢ وقد عاشت طويلاً ، ويقال إنها ظلت ستين سنة لا تنام إلا وهى في مُصلّاهَا بغير فراش .

وطبيعى ومصر دار كبيرة من دور الزهد والعبادة والنسك أن ينشأ فيها سريعا التصوف ، ويذكر الكندى أنه ظهرت في ولاية السرى بن الحكم سنة ٢٠٠ للهجرة بالإسكندرية طائفة يسمون الصوفية يأمرؤن بالمعروف ويعارضون السلطان في امره ترأس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى . ويمكن أن نتخذ هذه السنة تاريخاً تقريبا لظهور التصوف في مصر . ويروى الكندى أنه كان في القاهرة جماعة مماثلة لعهد المأمون كانت تحيط بقاضيه عيسى بن المنكر

تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وكان التصوف عُرف في مصر بقوة منذ أوائل القرن الثالث الهجري . وقد أورد القشيري في رسالته آراء مختلفة في اشتقاق كلمة صوفى ، وهل هي من الصفاء أو من الصوف لأن الصوفية كانوا يلبسونه ويتخذونه شعاراً لتقشفهم ، أو هي من الصُّفَّة وأهلها الذين كانوا ينقطعون للعبادة في المسجد زمن الرسول ﷺ ، ولا يرجع القشيري رأياً هل آخر ، وذهب البيروني إلى أن كلمة التصوف مشتقة أو مأخوذة من كلمة صوفياً بمعنى الحكمة عند اليونان ، ونظن طناً أنها مشتقة من الصوف لأن لبسه شاع مبكراً بين المتصوفة .

وما نغضى طويلاً في القرن الثالث الهجري حتى نسمع بأبي حاتم العطار المصرى أستاذ أبى تراب النخشبى المتوفى سنة ٢٤٥ وأهم منه ذو النون المصرى المتوفى مع أبى تراب في نفس السنة ، واسمه ثوبان بن إبراهيم ، وقيل الفيض بن أحمد الإخيمى . كان أواحد وقته زهداً وورعاً وعبادة ونسكاً ، طلب الفقه في أول حياته فتعلم للثب بن سعد فقيه الفسطاط ، ثم رحل إلى الإمام مالك في المدينة المتوفى سنة ١٧٩ فروى عنه الموطأ ، ثم نزع إلى التصوف والنسك فتعلم لشقران العابد . ويذهب نيكلسون إلى أنه المؤسس الحقيقي للتصوف الإسلامى مستنداً في ذلك إلى قول ابن تغرى بردى « إنه أول من تكلم ببلده في ترتيب الأحوال والمقامات ، وبذلك يجعله نيكلسون أستاذ المتصوفة جميعاً - غير متأرع - في العالم الإسلامى . وينقل عن تذكرة الأولياء للجامى أنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع ، وأنه ذكر كاس المحبة الذى يسقى به الله المحبين وأنه كان يقسم المعرفة ثلاثة أقسام : قسماً عاماً للمسلمين جميعاً وقسماً خاصاً بالفلاسفة والعلماء وقسماً خاصاً بالصوفية الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك ميّز المعرفة الصوفية من المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية تعتمد على البصيرة والحدس ، والثانية عقلية تعتمد على التفكير والمنطق ، ومعنى ذلك أن التصوف ليس فلسفة ولا علماً ولا فكراً وإنما هو أحوال ومقامات وهو - بذلك - إن صح أن يسمى علماً ، علم باطن مقصور على الخواص . ودانما كان يفسرُ بين الخواص وهم المتصوفة وبين العوام أو عامة المسلمين بمثل قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » وكان يقول : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عن الله بالغفلة » . وكان يقول أيضاً : « الصوفى من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكث نطقته عنه الجوارح بقطع العلائق » . وكان يكثر من الحديث عن مبدأ التوكل الصوفى على الله قائلاً : علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات الحب لله متابعة حبيب الله (أى رسوله) في أخلاقه وأفعاله وأوامره ومسته » . وفي هذا القول ما يدل

بوضوح على أن التصوف عنده لم يحدث بينه وبين الشريعة أى انفصام وأن ما ذكره المجبورى فى كشف المحجوب من أنه كان من الملامية الذين يتظاهرون بالاستخفاف بأمور الشريعة عار عن الصحة ، فالتصوف عنده لا يقوم بدون الشريعة ، والحياة الصوفية لا تتحقق بدون الفرائض والسنة الشرعية . واستحضره الخليفة المتوكل من مصر ، فلما دخل عليه وعظه ، فبكى المتوكل ورده مكروما ، وكان المتوكل إذا ذكر أهل الورع يبكى ويقول : حَيَّ هَلَا بَذَى النون . ويقال إنه كان على معرفة بعلم الكيمياء .

ويذكر القشيرى فى رسالته والمجورى فى كتابه كشف المحجوب وغيرهما طائفة من تلاميذه الصوفية من أعلام القرن الثالث ، منهم ابن الجلاء شيخ مشايخ الشام ويوسف بن الحسين الرازى شيخ مشايخ إيران والجنيد شيخ مشايخ بغداد وزميله الخزاز وهو أول صوفى تكلم فى الفناء وسهل بن عبد الله الشترى شيخ الحلاج الصوفى المشهور . وفى ذلك ما يشهد بأن أثر ذى النون ومصر فى التصوف وتاريخه كان أثرا بعيدا وعميقا إلى أقصى حد . ويشتهر بعده غير صوفى بمصر ، ويفد عليهم كثيرون من متصوفة البلدان الأخرى طوال القرن الثالث ، ونذكر من متصوفتها حيثك أبا بكر الدقاق المتوفى سنة ٢٩٠ واشتهر أحد صوفيتها وهو بنان الحمّال المتوفى سنة ٣١٦ بكثرة كراماته ، ومن صوفيتها أبو على الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢ . ويقول ابن سعيد فى المغرب قسم الفسطاط : كان الانشيد يحب الصالحين ويركب إليهم ويطلب دعاءهم ، وأنه ركب إلى رجل صالح بالقرافة يسمى ابن الميِّب وسأله الدعاء ، وأنه كثيرا ما كان يلم بأبى سهل بن يونس ويطلب منه الدعاء فى خشوع مثيرا به .

وتدخل مصر فى أيام الفاطميين ، ويبدو أنهم لم يكونوا يهتمون بالصوفية لسبب مهم وهو أن كلامهم كان يزعم لنفسه علم الباطن ، وكان الصوفية يقولون بحق إن علمهم ينبع من القلب ومن التأمل الباطنى ، وزعم الفاطميون لأنتمهم أنهم أصحاب علم لا يشركهم أحد فيه ، فأدى ذلك إلى شيء من التعارض بين الطرفين ، وبذلك انصرف الفاطميون عن الاهتمام بالتصوف وأهله . وفى هذه الأثناء حدث صدع كبير بين الفقهاء والمتصوفة وخاصة فى المشرق : فى العراق وإيران إذ رفع المتصوفة أنفسهم فوق الفقهاء درجات ، وقالوا إن الأهم فى الحياة الدينية عمل القلب لا عمل الجوارح والنهوض بالفرائض الدينية ، بل إن منهم من أهمل هذه الفرائض ، مما جعل الفقهاء يحملون عليهم حملات عنيفة . وتنبه القشيرى والغزالي إلى خطورة هذا الصدع فى ببناء الحياة الدينية وحياة الأمة ، فعلا بقوة على رأيه ، بحيث لا يكون المتصوف متصوفا حقا إلا إذا

أدّى الفرائض والسنن الدينية ، ولابد للفقهاء في هذه السنن والفرائض من الإخلاص وصفاء القلب وصدق الشعور الباطني .

وبذلك عادت إلى صفوف المتصوفة والفقهاء - بل إلى صفوف الأمة - الوحدة ، ودعمها ووثقها حدث خطير هو اجتياح حملة الصليب لديار الإسلام في الشام والموصل منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، فوقفت الأمة جميعها بتيار مرصود ضد أعداء الإسلام ، حتى يذيقوهم وبال عدوانهم ويسحقوا جموعهم سحقاً . وحمل المتصوفة والفقهاء السلاح وتقدموا صفوف المجاهدين ، وبذلك نفهم عناية صلاح الدين بهم جميعاً ، فقد أخذ يقيم المدارس للفقهاء ، كما أخذ يُعنى بإقامة الزوايا للمتصوفة ، واتخذ لهم في القاهرة داراً كبيرة من دور الفاطميين كانت تسمى دار سعيد السعداء ، جعلها لهم «خانقاه» ومعناها بالفارسية دار عبادة ، يبدون فيها الله وينسكون . وفتح أبواباً للصوفية الواردين على القاهرة من العالم الإسلامي منذ أنشأها في سنة ٥٦٩ هـ وهي أول خانقاه أقيمت للصوفية بمصر ، ووقف عليها بستاً وعقارات تكفل نفقاتها عن سعة ، وجعل لها شيخاً سُمي شيخ الشيوخ ، ورُتب للصوفية فيها كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً ، وبني لهم حماماً وأجرى عليهم الجرايات ، ورسم لهم رسماً : أن من ترك منهم عشرين ديناراً لما دونها كانت لمتصوفتها وأن من أراد منهم السفر يُعطى ما يكفل له سفره . وكانوا يخرجون منها كل يوم جمعة للصلاة في الجامع الحاكمي في مشهد مهيب ، فشيخهم يتقدمهم وبين يديه خدام المصحف الشريف ، وقد حُمل المصحف على رأس أكبرهم والصوفية وراءه ماشون بسكون وخفر ، حتى إذا صلوا الجمعة عادوا إلى الخانقاه بنفس المشهد الرائع .

وأخذ التصوف من حيث يزدهر في مصر ، وانتضح فيه المجاهدان : اتجاه فردى فلسفي ، واتجاه جماهي سني ، ويمثل الاتجاه الأول ابن الفارض سلطان العاشقين للذات الإلهية ، وهو يصور في شعره وجده وهيامه بربه وأحواله فيه ومقاماته ومدى مانم به في شهوده ، مع مدحه للرسول الكريم ، وقد رَفَعَ حقيقته المحمدية لواء يتجمع حوله المسلمون ليسدوا للصليبيين الفرية القاضية . وكان يقابل هذا المترع الصوفي الفلسفي الفردى المترع الصوفي الجمعي ، وقد هيأت له خانقاه صلاح الدين السالفة الذكر ، وكان كثيرون منهم قد أقبلوا من العراق والشرق يحملون مبادئ طريقتين من طرق التصوف السني ، هما الطريقة القادرية للشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي المتوفى سنة ٥٦١ هـ والطريقة الرفاعية لمواطنه ومعاصره الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ، وأخذت الطريقتان نشيعان بين المتصوفة المصريين ، وما نغص في القرن السابع طويلاً حتى يتزل

بالإسكندرية من شاذلة في الجزائر الشيخ أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ ويؤسس بها الطريقة الشاذلية ، ويتبعه خلق كثير في الإسكندرية والقاهرة ، ونراه هو وأتباعه ومريديه في مقدمة الصفوف التي تُمَتُّرُ في موقعة المنصورة سنة ٦٤٧ حملة لؤي التاسع ، بفضل ما أذكوه في المجاهدين لأعداء الله من حاسة ملتبة .

وتدول دولة الأيوبيين بمصر وتختلفهم دولة المماليك ، وتعظم رعايتها للمتصوفة ، فخبى لهم كثيراً من الخوارج والرباطات والزوايا ، ويُعَدُّ المقرئ من الخوارج اثنين وعشرين كان من أهمها الخانقاه البيسية ، ويقول المقرئ : بناها ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٧ وهى أجمل خانقاه بالقاهرة بنيانا ، وكان بها أربعمائة صوفي ، وكانت فيها دروس منظمة للحديث النبوى وقراءة الذكر الحكيم . ثم خانقاه سرياقوس بناها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ وكان بها مائة خلوّة لمائة صوفى وبنى لها مسجدا وحاما ومطبخا ، وأيضا كان ملحقا بها حمام للنساء مما يدل على أنه كان لبعض المتصوفات فيها خلوات خاصة . وخانقاه شيخون بناها سنة ٧٥٧ ورتب فيها دروسا لفقهائ المذاهب الأربعة ودرسا للقراءات ودرسا للحديث ومشيخة لسامع صحيح البخارى وصحيح مسلم . وبجانب الخانقاهاات بنى أمراء المماليك للمتصوفة اثني عشر رباطا ، وكانت تُرتَّب لها الجرايات وبجالس الوعظ . وأصل الرباط الثغر في دار الحرب ، ولعل في إطلاقه على زوايا المتصوفة حيثئذ ما يدل على صلته المستمرة بالجهاد . ومن الطريف أن أحد الرباطات كان مخصصا للمتصوفات والأرامل ممن لا يجدن من يعولهن ، وكانت شيختهن صوفية وعادة تكون واعظة . وبنى المماليك ستا وعشرين زاوية للعباد والناسك وكانت تُرتَّب لكل هذه الزوايا والرباطات والخانقاهاات الأطعمة والحلوى والكسوة والزيت والصابون ، ومن أجل ذلك جُبست عليها أوقاف كثيرة .

وكان طبيعيا أن تكثر الطرق الصوفية في زمن هذه الدولة التي اتسمت في رعاية المتصوفة وتلتقى في أوائلها بأبى الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية - كما قدمنا - وقد تعددت فروعها حتى بلغت أحد عشر فرعا أهمها الطريقتان : الوفائية والخلوتية . وقد تفرعت الأخيرة بدورها إلى أربعة فروع . وتلتقى إبراهيم الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٢ مؤسس الطريقة البرهامية . وبأحمد البدوي المتوفى بطنطا سنة ٦٩٥ مؤسس الطريقة الأحمدية وقد تعددت فروعها حتى بلغت ستة عشر فرعا .

ودخلت مصر في أوائل أيام الأيوبيين - كما قدمنا - الطريقتان القادرية الجبلانية والرفاعية ،

ودخلتها فروع من المولوية أتباع جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٣ ، ومن القنڤيريّة وهم أتباع قلندر يوسف ، وكانوا يخلقون لحاهم وحواجيمهم، وقُلت أفعالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض وكانوا لا يتشّفون ولا ينتسكون ، وكان لهم زاوية خارج باب النصر بالقاهرة بالقرب من القرافة ، ويقول المقيزي إن أول ظهورهم كان بدمشق سنة ٦١٩ للهجرة . وعُرفت بمصر بأخوة من أيام المالك الطريقة النقشبندية أتباع محمد النقشبندی المتوفى سنة ٧٩١ وكذلك الطريقة البكاشية . وشاعت أيام العثمانيين الطريقة الخلوتية المتفرعة - كما أسلفنا - من الطريقة الشاذلية ، وفي مقدمة أعلامها بمصر مصطفى كمال الدين البكري المتوفى سنة ١١٦٢ للهجرة ، والشيخ الحنفى ، وعنه أخذ الطريقة الشيخ أحمد الدردير ، وسنعرض له في غير هذا الموضع .

وتتميز هذه الطرق بعضها عن بعض بالأوراد ، فكل كل منها ورد خاص وهو مجموعة من المناجيات لله والأدعية والابتهالات ، وتتميز أيضا بالأزياء ، فهناك الدسوقية وبيارقهم وأعلامهم خضراء ، وعظام القادرية بيضاء ، وهى عند الأحمدية حمراء ، وعند الرفاعية سوداء . وكانت لهذه الطرق تنظيمات دقيقة منتهى الدقة ، فتابع الشيخ يلزمه مدة تقصر أو تطول حتى يتلقن عنه طريقته ، وحتى يثبت إخلاصه الشديد له ، فليحقه بمرديه أو تلاميذه ويلبسه خرقة التصوف : شعار الطريقة ، ويصبح ظلّا له ، إذ تلاشى إرادته في شيخه تلاشيا تاما وفي ذلك يقول الشعراني في كتابه : « لوائح الأنوار » نقلا عن الشيخ إبراهيم الدسوقي : « المريد مع شيخه على صورة الميت ، لا حركة ولا كلام ، ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه ، ولا يعمل شيئا إلا بإذنه من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة الزاوية أو غير ذلك » . ونمضى الأيام ويصبح للمريد شيئا ، وكانوا يرسلون بالمريدين إلى البلدان والقرى ، وبذلك يصبح للشيخ صاحب الطريقة أتباع كثيرون في وطنه وفي الوطن الإسلامى الكبير ، وإذا هو صاحب طريقة كبرى ، ولكل طريقة شيوخها الكبار .

وكان مما أتاح لهذه الطرق مكانة كبيرة في نفوس العامة أنهم كانوا يتمثلون على أوقاف محبوسة على زواياهم ورباطاتهم ونفاقهااتهم ، فلم يكونوا يأخذون من الدولة رواتب مثل الفقهاء المدرسين والقضاة والهدّيين والقراء ، ممن كانوا يتمثلون في معاشاتهم على الهيئات الحاكمة ، أما هم فلم يكونوا يتمثلون عليها . وبذلك كان لهم استقلال روحى واضح ، جعلهم يقفون أحيانا في وجوه الحكام ، ويقاومونهم حين يتطلب الشعب هذه المقاومة بسبب ظلم أوطيان أو زيادة في الضرائب أو غير ذلك . وهو ما جعل العامة في كافة البلاد الإسلامية تتعلق بهم تعلقا

شديداً ، كما جعل الحكام من الماليك وغيرهم ينجسهم ومحسبون حسابهم . ولعلنا لم ننس ما مر بنا في نشأة جماعة من المتصوفة بالإسكندرية والفسطاط وأنهم كانوا يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر ويعارضون الحكام أحيانا . ونرى المتصوفة يستظهرون هذا كله في أيام الماليك ، فإذا ثارت العامة لفساد أو طغيان أو انحلال في الأخلاق كان المتصوفة من وراء ثورتها ، وكان سلاطين الماليك يرهبونهم ويتقنون لهم ما يريدون . وما يدل على مكانتهم لزمانهم أن نجد طومان باي بأخرة من سلاطين الماليك لا يقبل السلطنة إلا بعد أن يأخذ له الشيخ أبو السعود الجارحي العهد على الأمراء جميعا ، فقد لجأ إلى صوف ولم يلجأ إلى شيخ الإسلام والفقهاء والقضاة في عصره . وقد أفضنا في الحديث عن التصوف السني وطرقه في أيام الماليك ، ولم نعرض للتصوف الفلسفي إلا عند ابن الفارض ، وكان مصر انصرفت عنه إلا ما قد يفد عليها مع بعض أصحابه مثل الششتري الأندلسي ، وعفيف الدين التلمساني نزير دمشق وساكنها المتوفى سنة ٦٩٠ . وربما كان المصري الوحيد الذي اعتنق التصوف الفلسفي ومذهب ابن عربي فيه عبد العزيز بن عبد الفتى الحسني من الأسرة الحسنية ببنيع ، نزل أبوه مصر ، وسكن هو الصعيد وشغف بالتصوف . وينقل ابن حجر في ترجمة له بكتابه الدرر الكامنة أنه من أتباع ابن عربي ، وربما لقيه حين زار مصر ، أوله رحل إليه في دمشق ، إذ عاش نحو مائة سنة وتوفى سنة ٧٠٣ وكان مذهب ابن عربي في الحلول والاتحاد بالذات الإلهية وجد له عن طريقه مَسَرِّبًا إلى مصر .

على أنه ينبغي أن نذكر أن التصوف بأخرة من أيام الماليك وفي أيام العثمانيين أخذ ينحرف عن طريقه السوي القديم ، بسبب تحول خاتقاهاته ورباطاته وزواياه الى تكايا وبيعت كتبرين من الدجالين والمشعوذين ومن سموا بالمهاذيب وال دراویش . وكان منهم من يخلق رأسه ولحيته وشعر حاجبيه ورموش عينيه ، ومن يدعى الكرامات وأنه من أولياء الله ، والله براء منه ، لانحرافه عن جادة الدين . على أنه ينبغي ان لا يبالغ الباحثون في الحملة على المتصوفة في الأزمنة المتأخرة ، إذ مما لا شك فيه أنهم هم وأسلافهم السابقين استطاعوا دراویش وغير دراویش أن يحافظوا للإسلام طوال الأزمنة الماضية على وحدته السنية حتى في زمن العثمانيين : أكثر الأزمنة تدهورا وتأخرا . ولعل أكبر صوف مصري ظهر في زمنهم هو الشمراني المتوفى سنة ٩٧٣ وكان واسع المعرفة عميقها بالعلوم الإسلامية وكذلك بالتصوف واتجاهيه الفلسفي والسني ، إذ قرأ ابن العربي وابن الفارض كما قرأ القرطبي والقشيري وغيرهما من أصحاب الطرق الصوفية ، وآثر التصوف السني وانتظم في سلك الطريقة الشاذلية ، وحاول أن يكون لنفسه طريقة متفرعة منها سماها الطريقة

الشعرانية . وله مصنفات كثيرة تُعدُّ بالعشرات ، أكثرها في التصوف ، أشاع فيها إيمانه بالكرامات والخوارق لا لغيره من المتصوفة فحسب ، بل أيضا لنفسه وما حدث له مع الجن والملائكة . وكان مثل كبار المتصوفة قبل زمنه يعتر بكرامته إزاء الحكام إلى أقصى حد ، فهو لا يقبل منهم مالا ولا هدية . وسأله أحد الحكام العثمانيين وهو راحل إلى الآستانة ألك حاجة عند السلطان ، فأجابه ثورا : ألك أنت حاجة عند الله ؟ فوجم الحاكم ولم ينبس ببنت شفة . ويقول الجبرقى في الجزء الأول من تاريخه : « كان الإمام العلامة الحفي قطب رضى الديار المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه وإيادنه » . ومعنى ذلك أن الصوفية ظلوا في أيام العثمانيين الحالكة - كما كانوا في الأيام السالفة - يستشعرون استقلالهم الروحي والمادى إزاء الحكام ، كما ظلوا يستشعرون إرادة الشعب وماله من قوة وسلطان .

الفصل الثمانى

الثقافة

١

الحركة العلمية

تميزت مصر بتأثيرها الواسع فى الحضارة الإنسانية من قديم ، وهو تأثير لا يتوقف عند الرق بغير الزراعة وشتى الثرى وتدير القنوات ، إذ يمتد إلى فن المعمار وبناء الأهرامات وفن الملاحة وبناء السفن وصناعات المعادن والحرف والنسيج وورق البردى . وليس هذا فحسب فإنها نسجت لأول مرة حلل الحروف الهيروغليفية التى اشتقت منها الحروف الفينيقية ، وأيضا ليس هذا فحسب ، فإنها أسهمت بقوة فى نشأة العلم بمعناه العالمى ، سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى . وعلى الرغم من اقترام الجيوش المغيرة لأسوارها وحصونها فى الحين بعد الحين ظلت فيها الروح العلمية كالجنوة المتقدة لا تخمد مها تراكم عليها من التراب . ونستطيع أن نتبين شرا كبيرا من هذه الجنوة فى عهد البطالة الذين انحلوا الإسكندرية عاصمة لهم ، فقد بنوا فيها متحفا ضخما ضم بين جناحيه جامعة كبرى كان بها مدرسة للطب ، وثانية للرياضيات والفلك ، وثالثة للقانون والفلسفة ، وضم أيضا مكتبة كبيرة يقال إنه كان بها أربعمائة ألف كتاب أو أكثر . وطبيعى أن تكون اليونانية لغة الدولة هى نفسها لغة العلم فى تلك الدورة من تاريخ مصر ، ويغزو الإسكندرية يوليوس قيصر وتُحرَق المكتبة فى أثناء غزوه . وتتطور الظروف سريعا وتصبح مصر ولاية رومانية ، وينشئ المصريون مكتبة صغرى بمعبد السرايوم على قلعة الأكروبوليس . ولا نصل إلى سنة ٣٩١ للميلاد حتى يثور القبط بالإسكندرية على ورثة الوثنية الإغريقية ومعبدهم السرايوم ويهدموه ويُتَمَرَّوا معه المكتبة . ولا يُعْنَى الرومان بالحركة العلمية فى مصر أى عناية ، فقد عُدُّوها مَحَرَّنًا يدمم بالقمع ، ومع ذلك ظلت فيها بقايا كثيرة من حركتها العلمية لعهد البطالة . وظلت الإغريقية سائدة فى لغة

العلم ، وشاركتها القبطية وخاصة في الطقوس الدينية والكتابات التاريخية ، وأخذت تشاركها قبل الفتح العربي اللغة السريانية التي كانت منتشرة في الأديرة وخاصة في مجال الطب ، وفي ذلك يقول بترل : « قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب وأنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب في القرنين السادس والسابع (للميلاد) كانت باللغة السريانية ، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذاتة بين الناس وأن آدابها كانت دائما تدرس في الإسكندرية »^(١) .

ومر بنا في الفصل الماضي أن الحكم الروماني في مصر قَبِل الفتح العربي كان لا يطاق لاضطهاد القبط دينيا ولإرهاقهم بالضرائب الباهظة ، ولذلك عُدَّ القبط العرب مخلصين لهم من نير هذا الحكم الجائر الظالم . وكل شيء يؤكد أن مصر استبقت حينئذ كل ما كانت قد حصلت عليه من علوم ومعارف ، ولا سيما في الطب . وليس بصحيح ما قيل من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية حين انتحها ، فقد دحضَ هذا القول بترل وأثبت بالدليل القاطع بطلانه لما مر من أن مكتبة الإسكندرية الكبرى إنما أُحْرِقَت تاريخيا في عهد بوليوس قيصر قبل دخول العرب مصر بنحو ستة قرون ، بينما أُحْرِقَت مكتبتها الصغرى قبل أن تخفق رايات العرب في ربوع مصر بنحو قرنين ونصف^(٢) ، وإذن فالقول بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية افتراء ليس له أى أساس تاريخي .

ومعروف أن الإسلام دفع أمتة في كل مكان إلى العلم والتعلم ، وليس بين أيدينا ما يكشف كشفا تاما الحركة العلمية بمصر في عصر الولاة ولكن هناك دلائل كثيرة تدل على أنه انبعث فيها حركة علمية إسلامية عربية قوية ، فبمجرد أن فُتحت مصر أخذ بعض الصحابة يتجردون لإقراء المسلمين القرآن وعرض بعض الأحاديث النبوية عليهم ليفقهوا على تعاليم دينهم ، وكانوا يفتونهم في بعض المسائل حتى يميزوا الحلال من الحرام ، ويعظونهم مذكرين لهم باليوم الآخر وما عند الله من الثواب الآجل . ونهض بهذا الجهد العلمي طبقات من الصحابة الفاتحين لمصر ومن التابعين ومن جماعوا في إثرهم . وفي كتاب حسن المحاضرة للسيوطي أثبات طويلة بأسماء القراء والمحدثين والفقهاء

(١) انظر في هذا النص وما تقدمه من حديث كتاب فتح العرب لمصر تأليف بترل (الترجمة القرية) ص ٨٣ وما بعدها وراجع مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد في كتاب التراث اليوناني لعبد الرحمن بدوي ، وقد فصل القول في نشاط هذه المدرسة

العلمى حتى الفتح العربى .

(٢) بترل ص ٣٤٨ وما بعدها وقارن بصفحة ٨٣ وما كتبه في الفصل الثامن ومقال ماكس مايرهوف في التراث اليوناني .

والوعاظ ممن اضطلموا في الحقب الإسلامية الأولى بمختلف الدراسات الدينية .

وكانت هذه الحركة العلمية تحظى - منذ أول الأمر - برعاية الدولة وولائها ، فقد كانت ترسل إلى مصر من يفقه الناس في أمور دينهم ، وبدأ ذلك منذ زمن عمر^(١) بن الخطاب . وكان هناك دائما القضاة للحكم بين الناس في خصوماتهم وللفتوى فيما يجد لهم من الشئون ، وكانوا عادة من الفقهاء وكثيرون منهم كانوا محدثين ، وكان يُستدُّ إليهم الوعظ . ودائما تلقانا نصوص هنا وهناك تدل على أن الدولة كانت تعنى بإرسال بعض المحدثين والفقهاء إلى مصر لتعليم الناس ، من ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١) أرسل إلى مصر نافعاً^(٢) مولى ابن عمر يعلم الناس السنن ، كما أرسل ثلاثة من الفقهاء للفتيا كان من بينهم يزيد^(٣) بن أبي حبيب وقد أقام بها حتى توفي وكوّن بها مدرسة فقهية كان لها أثرها البعيد بعده . ولم تكن مصر تكتفى بمن يرسلهم إليها الخلفاء الأمويون ، فقد أخذت تتكون فيها أجيال من القراء والفقهاء المحدثين نجد أسماءهم مرتبة حسب وفائهم في حسن المحاضرة . وكلما خطونا خطوة في العصر العباسي الأول أحسنا بازدياد هذا النشاط ، ومن المؤكد أنه كان مما يُدْركه الأعطيات والرواتب التي كانت تفرضها الدولة وولائها للعلماء ، كما كان الشأن في بغداد والبصرة والكوفة .

وظاهرة مهمة نلاحظ على القضاة والعلماء في مصر ، فإن منهم من كان ذاسعة في الثراء ويبدو أن القضاة كانوا يتقاضون أعلى الرواتب ، فقد كان عبد العزيز مروان والي أخيه عبد الملك على مصر يفرض لعبد الرحمن بن حجيبة الحولاني القاضي ألف^(٤) دينار كل عام ، ومربنا في الفصل الماضي أن عبد الله بن طاهر حين ولي مصر لعهد المأمون فرض لقاضي القسطنطين سبعة دنانير كل يوم . وكان الليث بن سعد الفقيه ثريا ثراء طائلا ، ويقال إن هرون الرشيد أقطعهم إقطاعات كثيرة كانت تدرّ عليه آلاف الدنانير ، وكان يرسل إلى مالك إمام أهل المدينة سنويا مائة دينار . وكان ينثر أمواله نثرًا على تلاميذه ومن يهاجر إلى مصر من المحدثين والفقهاء^(٥) . وكان عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكي المتوفى سنة ٢١٤ من ذوى الأموال والرياح ويقال إنه أهدى إلى الشافعي حين نزل مصر ألف دينار وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألفا ثانية ومن رنجلين آخرين ألفا ثالثة^(٦) . وفي ذلك ما يدل على أن كبار التجار والأثرياء في مصر كانوا يرفضون العلماء

(٤) حسن المحاضرة ١/ ١٣٧ .

(٥) ابن خلكان ٤/ ١٣٠ .

(٦) ابن خلكان ٣/ ٣٤ .

(١) حسن المحاضرة ١/ ١٩٠ .

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٢٩٧ .

(٣) حسن المحاضرة ١/ ٢٩٩ .

بأموالهم . ويقال إنه كان ليونس بن عبد الأعلى أعباس^(١) (أوقاف) . وكان طيبات مصر وغيرها صبت في حجب العلماء . فكان منهم كثيرون في بسار ونعمة ، وكانوا يصلون زملاءهم وتصلهم الدولة وكبار التجار والموسرين ، مما هيا للعلماء أن يخلصوا للعلم وينبغوا فيه .

وظاهرة ثانية تلاحظ بجانب الظاهرة السابقة وهي أننا لا نكاد نتقدم إلى أواسط القرن الثاني للهجرة حتى يصبح لعلماء مصر حظ واضح من المساهمة في الفكر الإسلامي العربي ، وقد ظلت أكثر من قرن تلقى آثار هذا الفكر وتحاول أن ترعاها وأن تضيف إليها من شخصيتها ما ينميها ، وغلب عليها حينئذ التلقى والتلمذة ، فهي تلقى قراءات الذكر الحكيم والحديث النبوي والفقه واللغة والأخبار والتاريخ العربي الإسلامي ، وتُسخ ذلك كله وتمثله حتى إذا توسطت القرن الثاني للهجرة أخذت تسهم بحظ قوى فيما تلقاه . ولعل من الطريف حقا أنها أخذت تترعم بقوة المغرب والأندلس جميعا ، فإذا هي تعدّهما لقراءة ورّش ولاستقبال مذهب مالك إمام المدينة والحجاز . وليس ذلك فحسب ، فإنها هي التي كتبت لأول مرة تاريخ الفتوح لإفريقيا والأندلس ، وأذاعت رواية للسيرة النبوية ، ستحدث عنها فيما بعد ، كانت إماما لكعب السيرة العطرة ، ونفذ أحد أبنائها وهو ذو النون المصري إلى وضع أسس التصوف ، كما مرّ بنا في الفصل الماضي . ومعروف أنها استقبلت على رأس المائتين الإمام الشافعي وحملت عنه مذهبه ونشرته في بلدان العالم الإسلامي ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة ذيوغا وانتشارا .

وعلى هذا النحو أصبحت مصر في زمن الولاة مركزا مهما من مراكز العلم وقصدها الطلاب من أطراف المغرب والأندلس لحمل العلم عن علمائها المختلفين . ونغضى إلى زمن الدولة الطولونية فنرى الحركة العلمية نامية ناشطة على نحو ما تصور ذلك أسماء العلماء المصريين والوافدين المثلثة حسب تاريخ الوفيات والتخصصات العلمية في كتاب حسن المحاضرة . ويتّى أحمد بن طولون جامعهم المشهور ويرتب لإملاء الحديث النبوي فيه الرّبع بن سليمان المرادى ومحمل إليه صناديق المصاحف وينقل إليه القراء والفقهاء^(٢) . وليس بين أيدينا نصوص توضح أعطياته للعلماء ، ويبدو أنها كانت كبيرة إذ يروى أنه كان يعطى القاضى بكّار بن قتيبة كل سنة ألف دينار خارجا عن المقر له وأنه ظل على ذلك أعواما كثيرة^(٣) . ولا بد أن عطايها مقاربة كانت تُعطى للقراء والفقهاء والمحدثين والقائمين على دراسة التاريخ واللغة والأدب . وأخذت مصر منذ زمن ابن طولون (٢٥٤ -

(٣) ابن خلّكان ١/ ٢٧٩

(١) ابن خلّكان ٣/ ٢٥٠

(٢) خطط القرينى ٣/ ١٤٦ وما بعدها

٢٧٠ هـ) بل قبل زمنه بعشرات السنين تصبح مقصدا للعلماء وطلاب العلم لا من المغرب والأندلس فحسب ، بل أيضا من الشام والعراق وإيران وخراسان . وقد نزلها خمسة من أصحاب الصحاح يكتبون الحديث النبوي عن علمائها ، وهم البخاري وأبو داود ومسلم وابن ماجة والنسائي^(١) وأقام فيها الأنصار واتخذوها مسكنا ودارا له ، وكان يتزل في زقاق القناديل ، وأمل بها سنته ، وأخذها عنه الناس من المصريين وغيرهم .

وكان ابن طولون وغيره من ولاة مصر وحكامها يترؤن من يتزل بها من العلماء وطلاب العلم ، يدلُّ على ذلك من بعض الوجوه ما يترؤى من أن ابن جرير الطبري المؤرخ والمفسر المشهور المتوفى سنة ٣١٠ نزلها وهو في نحو الثلاثين من عمره سنة ٢٥٣ وتركها قليلا إلى الشام ثم عاد إليها سنة ٢٥٦ ليتزود مما لدى علمائها من الحديث والفقه . وكان شافعيًا ، وجمعت الرحلة بينه وبين أبي بكر محمد بن إسحق بن خزيمة النيسابوري المتوفى سنة ٣١١ حامل قراءة ورش عن يونس بن عبد الأعلى وفقه الشافعي عن تلميذه : المزني والريبع بن سليمان المرادي إلى موطنه : نيسابور بخراسان ، وأيضا محمد بن نصر المروزي المتوفى سنة ٢٩٤ حامل فقه الشافعي إلى سمرقند عن المزني وغيره من تلاميذه ، وكذلك محمد بن هرون الروياني المحدث وله مستند . جاءوا جميعا إلى الفسطاط يدرسون على شيوخه ، ويقال إنهم اجتمعوا يوما ولم يبق عندهم ما يجرهم ، وكان والي مصر قد علم بأمرهم - وأكبر الظن أنه ابن طولون - فأرسل إلى كل منهم مائة دينار ، ويقال إنه أرسل إليهم ألف دينار^(٢) . وإذا كان طلاب العلم يُعَلِّقُ عليهم الأموال بمصر فما بالنا بما كان يُعَلِّقُ على علمائها .

وما نصل إلى أواخر القرن الثالث حتى تكون مصر قد نشرت مذهب الشافعي في خراسان عن طريق أبي بكر بن إسحق النيسابوري ومحمد بن نصر وأيضا عن طريق عبدان المروزي الذي تفقه على المزني والريبع بن سليمان ، ويقول السيوطي إنه هو الذي أظهر مذهب الشافعي في خراسان^(٣) ، وظلت مصر منذ هذا التاريخ من أهم بيئاته . ومن أهم تلاميذ أصحاب الشافعي المصريين أبو القاسم الأنطاقي عثمان بن سعيد المتوفى سنة ٢٨٨ وفيه يقول السبكي : هو الذي اشتهرت به كتب الشافعي ببغداد ، وعليه تفقه شيخ المذهب هناك وحامل لوائه في بغداد والعراق

(١) حنن الحضارة ١/ ٣٠٦ ، ٣٠٩ وطبقات الشافعية (٢) معجم الأدباء ١٨/ ٤٦ وحسن الحضارة للسبكي (طبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة) ٢/ ٧ ، ٣١٠/١ .

(٣) حنن الحضارة ١/ ٣٤٩ .

أبو العباس بن سريج^(١) . أما الشام فحمل إليها المذهب عن تلاميذ الشافعي أبو زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ إذ أدخله إلى دمشق وولى قضاها ، ولم يتوله بعده لا في الشام ولا مصر إلا شافعي المذهب حتى عصر الظاهر بيبرس^(٢) . وأما الحجاز فيقول السبكي عنها إنها لم تخرج منذ ظهور مذهب الشافعي وإلى يومنا هذا في أبدى الشافعية : القضاء والخطابة والإمامة بمكة والمدينة^(٣) . وعمضى السبكي قائلًا إن أهل اليمن شافعية إلا أن يكونوا زيديين ، ويذكر أن مذهب الشافعي شاع في فارس ، وأما أفريجان فلا تعرف سواه . وكل ذلك بفضل تلاميذ الشافعي المصريين الذين قاموا على مذهبه غير قيام واستطاعوا نشره في القرن الثالث عن طريق تلاميذهم حتى أقصى المشرق .

ونمضى مصر في العتبة بالدراسات الدينية لعهد الإخشيديين في القرن الرابع ويصور ذلك من بعض الوجوه ما رواه ابن سعيد من أنه كان في جامع عمرو للمالكيين خمس عشرة حلقة وللشافعيين مثلها ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات^(٤) . ومعروف أن مصر كانت مالكية حتى قدوم الشافعي ، فاقسم مصر مذهبه والمذهب المالكي ، ولم يكن للمذهب الحنفي أتباع إلا بعض من كان يتولى القضاء بها لعهد بني العباس ، ولا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة . أما جمهور القضاة فكان من المالكية ، حتى إذا كنا في أواخر القرن الثالث الهجري انتقل القضاء من أيديهم نهائيًا إلى الشافعية كما مر بنا آنفاً في حديث السبكي . وأتيح للمذهب الحنفي إمام مصري كبير من أئمة هو أبو جعفر الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١ فهياً له بمصر حياة لم تكن له من قبل ، وهي التي أتاحت لقيام الحلقات الثلاث التي يُدرّس فيها الفقه الحنفي كما ذكر ابن سعيد . وتأخذ الدراسات اللغوية والنحوية في النمو بمصر منذ عهد الدولة الطولونية ويؤمها الأخفش الصغير تلميذ المبرد ، ويظل هذا النمو مطردًا في زمن الدولة الإخشيدية ، ويقصدها الطلاب المغاربة والأندلسيون ويحملون عنها المعاجم وكتاب سيويه وغير ذلك من كتب اللغة والنحو .

وعملت الدولة الإخشيدية على إنعاش الحركة العلمية وساعدها على ذلك أنه كان يسطع بالوزارة لها مدة متطاولة جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف باسم ابن حنّابة وكان يُقدّق على العلماء ويحزل صلاتهم ، قصده الأفاضل - كما يقول ابن خلكان - من البلدان الشاسعة ، وكان من حفاظ الحديث النبوي وكان له مجلس في المسجد يملّيه فيه على الناس ، وعُني بتأليف مسند

(٣) السبكي ١/٣٢٢ .

(١) السبكي ٢/٣٠١ وانظر ٣/٢١ .

(٤) المغرب لابن سعيد (قسم النسطاط) ص ١٧٣ .

(٢) السبكي ٣/١٩٧ وحسن الحاضرة ١/٣٩٩ .

خاص به ، وإليه رجع الدارقطني على بن عمر أكبر محدث العراق في عصره ، وأعانه في تأليف مسنده مع من كان يُعِينه فيه من المصريين وأقام لديه مدة ، وبالف ابن حنابلة في إكرامه ، وأنفق عليه نفقة واسعة وأعطاه شيئا كثيرا وحصل له بسببه مال وفير^(١) .

وظل ابن حنابلة يقود الحركة العلمية بمصر طوال وزارته وقد امتدت نحو عشرين عاما من أيام كافور إلى قرب انتهاء الدولة الإخشيدية ، وطبيعي ومثله يقوم على ذلك أن تغطي في النثر والنشاط . ومن نزل مصر حيثئذ المسعودي على بن الحسين المؤرخ المشهور . ومنها ذاعت كُتبه التاريخية وفي مقدمتها كتابه مروج الذهب ، وظل مقبلا بها حتى لبى نداء ربه سنة ٣٤٥ وقيل بل سنة ٣٤٦ .

وترداد الحركة العلمية نموا ونشاطا في زمن الدولة الفاطمية ، إذ عمل الخلفاء الفاطميون ووزرائهم على دَفْع هذه الحركة دفعا قويا ، وما تكاد تخطى سنوات في عهد هذه الدولة حتى نجد الخليفة العزيز (٣٦٦ - ٣٨٦ هـ) يرسم راتبا لسبعة وثلاثين من الفقهاء ويبنى لهم دارا بجوار الجامع الأزهر^(٢) الذي كانوا يتخذونه مقرا لدعوتهم الإسماعيلية . ولا نعرف هل كان الفقهاء جميعا إسماعيلية أو كان بينهم نفر من أهل السنة ، على أننا نجد ابنه الحاكم يسند إلى قتيبين مالكيين التدريس في هذا الجامع^(٣) ، مما يدل على أنه تحول سريعا إلى جامعة كبرى للدراسات الدينية واللغوية . وفي أخبار وزير العزيز ابن كلّس أنه كان يُجْرَى بأمره ألف دينار شهريا على جماعة من أهل العلم والورّاقين والمُهلّدين^(٤) ، مما يدل على أنه نشأت حركة علمية كبرى لا للدراسات العلمية فحسب ، بل أيضا لنسخ المخطوطات في مختلف العلوم والآداب . وأكثر دلالة على ذلك ما يُروى من أن العزيز عُني بإنشاء مكتبة في القصر ، كان بها ما يزيد على مائة ألف مجلد ، وفي رواية على مائتي ألف^(٥) ، وكان أمينه القائم عليها الشاشي^(٦) على بن محمد صاحب كتاب الديارات ، ويقال إنه كان بها أكثر من ثلاثين نسخة من معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد ، وأكثر من عشرين نسخة من تاريخ الطبري ، ومائة نسخة من معجم الجهمرة لابن دريد . وما زال العزيز يُعَسّي بهذه المكتبة هو ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، حتى قيل

(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم مير

٢٥٠ / ١ نقلا عن يحيى بن سعيد الأنطاكي .

(٥) النجوم الزاهرة ١٠١ / ٤ والمخطوط ١٢٨ / ٢ .

(٦) ابن خلكان ٣١٩ / ٣ .

(١) ابن خلكان ١ / ٣٤٧ ، ٣ / ٢٩٨ .

(٢) صبح الأعشى ٣ / ٣٦٣ والمخطوط ١٥٧ / ٢ ،

٢٧٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ٤ / ١٧٨ .

إنها أصبحت أربعين خزانة مملأة بنفائس المجلدات في الحديث النبوي والفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والتاريخ وعلوم الأوائل ، ويقال إنه لم يكن في العالم دار كتب تماثلها وأنها كانت من عجائب الدنيا . وعلى الرغم من بيع بعض مصاحفها وكتبها في أيام المجاعة المائلة لزم من المستنصر فإنها ظلت زاخرة بالكتب ، حتى يقال إن صلاح الدين أهدى وزيره القاضي الفاضل منها مائة ألف مجلد أودعها مدرسته الفاضلية ، وظل ابن صورة دلال الكتب يبيع منها للناس مدة من السنين^(١) . وكانت هذه المكتبة الضخمة تعد أماً لمكتبات القاهرة والفسطاط جميعاً ، فقد كانت تُلحق بكل جامع خزانة للكتب ، وكان الفاطميون يمدونها من حين إلى حين بما يلزمها من المصنفات ، يدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما يروى عن الحاكم من أنه أنزل من القصر إلى الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ١٢٩٨ مصحفاً وإلى جامع ابن طولون ٨٠٠ مصحف كان منها ما هو مكتوب بالذهب^(٢) . وإنما نصّبوا على إزال المصاحف لجلالها ، ولابد أنهم أنزلوا معها كثيراً من الكتب . ونفس مكتبة القصر كان يختلف إلى خزائنها الخارجية العلماء والطلاب للقراءة والنسخ منها والاطلاع .

وتأسس في سنة ٣٩٥ جامعة كبرى تسمى دار العلم ، حُمل إليها من خزائن القصر كتب كثيرة تحتوي على سائر العلوم الإسلامية والآداب والفلسفات وعلوم الأوائل ، يقول المقرئى : « حضرها الناس على اختلاف طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعليم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والورق والأقلام والمحابر . وكانت بها دروس للمحدثين والقراء والفقهاء وأصحاب النحو واللغة والمنجمين والأطباء والمتفلسفة ، وكل هؤلاء كانت تجرى عليهم وعلى الطلاب الرواتب . وما تدخل سنة ٤٠٠ حتى يكتب الحاكم وثيقة كبيرة للاتفاق منها على دار العلم وعلى الجوامع الكبرى ، وخصّ القراشين والحضر والحبر والورق والأقلام في دار العلم بمائتين وسبعين ديناراً سنوياً . ومن المؤكد أن الحاكم كان يفتنى بهذه الجامعة أن تكون مركزاً للدعوة للعقيدة الإسماعيلية بدليل أنه جعل رئيساً لها أحد دعائها من بيت النعمان وهو عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، ويبدو أنه وجد في ذلك ما يهدد بثورة أهل السنة المصريين ، فأضاف إلى علائها الإسماعيليين من أصحاب نخلة طائفة من قتها أهل السنة ومحدثيها وعلى رأسهم عبد الغنى بن سعيد الفقيه الشافعى المشهور وأكبر حفاظ

(١) انظر في هذه المكتبة وكل ما ذكرت عنها الخطط (٢) الخطط ١٤٦/٣ ، ١٦٣ .

الحديث المصريين في زمنه . وما زالت هذه الجامعة ناهضة بالحركة العلمية في القاهرة حتى عهد الأفضل بن بدر الجبالى إذ رأى إغلاقها ، لنشوب جدل عنيف بها فيما صنع من جمل المستعل بالله الخليفة الفاطمى بعد أبيه المستنصر دون أخيه نزار الذى كان يكبره ، وخشى من ذلك حدوث ثورة ، غير أن التزارية لم يلبثوا أن قتلوه ، وقيل بل قتله الأمرين المستعل . غير أن الجامعة أو دار العلم لم تلبث أن أعيدت سنة ٥١٧ هـ بعد نقلها إلى دار جديدة ظلت فيها حتى نهاية الدولة الفاطمية ^(١) .

وإذا كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية استغلوا الجامع الأزهر ودار العلم في أول تأسيسها لنشر الدعوة الإسماعيلية فإن الجامع العتيق جامع عمرو بن العاص في القسطنطينية ظل مركزا للدراسات أهل السنة . ولابد أن نلاحظ أن القاهرة حين أسست إنما كانت مسكنا للخلفاء الفاطميين وحواشيها من رجال الدولة وجنود الجيش القادم معها من المغرب ، بينما كانت القسطنطينية مسكن المصريين ، كما كان شأنها قبل دخول الفاطميين ، وكان مسجدها جامعة كبرى للدراسات السنية . ويذكر المقدسى الذى زارها سنة ٣٧٥ أنه رأى في جامع عمرو بها بين العشائين مائة مجلس وعشرة ^(٢) للقراء والدراسات السنية . ومع ذلك كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية يتراءون فيه ويفتون الناس أحيانا ^(٣) ، كما أخذ أهل السنة بدورهم يحاولون الإملاء وإلقاء المحاضرات في الجامع الأزهر ، ولم يجد الحاكم بدءا - كما مر بنا - من أن يعين في الأزهر وفي دار العلم بعض أهل السنة من المحدثين والفقهاء .

ولعل في ذلك ما يخفف حدة القول بأن الفاطميين كانوا يضطهدون فقهاء أهل السنة ويحاربونهم ، ويذكرون في هذا الصدد الاعتداء في سنة ٣٨١ أى لعهد العزيز على رجل وُجد عنده موطأ الإمام مالك ^(٤) ، وقد يكون السبب أن الرجل تعرض للدعوة الإسماعيلية بالسبب والطلب . ويذكرون أن الحاكم أراق دماء نفر من فقهاء أهل السنة ، وكان فيه سفه وغبل ، فلم يرق دماهم وحدهم ، بل أراق أيضا دماء كثيرين من الدعاة الإسماعيليين ورجال الدولة . وكان ييت النعمان أهم البيوت المغرية في نصرتهم والتأليف في عقيدتهم الفاسدة ، ومع ذلك قتل الحسين بن علي بن النعمان كبير قضاته ، ووُلَّى بعده ابن عمه عبد العزيز الذى أقامه رئيسا لدار العلم ،

(١) انظر في دار العلم القديمة والجديدة المخطوط

ص ٢٠٥

(٣) ابن خلكان ٣٠/٧ وانظر المخطوط ٣١/٣ .

(٤) المخطوط ٢٧٥/٣ .

(٢) أحسن التلخيص في معرفة الأعلام (طبع لندن)

كما مر بنا ، ولم يلبث أن قتلته سنة ٤٠١ وولّى بعده مالك بن سعيد الفارق ، ولم يلبث أن سفك دمه ^(١) . وإذن قتل الحاكم لجباة من أهل السنة ليس دليلاً كافياً على اضطهاد الفاطميين لهم إذ كان لا يتيق ولا يذر من كبار دعائه وقضائه ورجال دولته الإسماعيليين .

ومما يذكر من اضطهاد الفاطميين لفقهاء أهل السنة أن الخليفة الظاهر (٤١١-٤٢٧ هـ) أمر بطرد ^(٢) الفقهاء المالكية من مصر أى الفسطاط سنة ٤١٦ . وينقص هذا الخبر كتاب رواه عنه صاحب النجوم الزاهرة حمل فيه حملة شعواء على من يؤلهون علياً وأباه الحاكم ، وفيه يقول : « قالوا في آبائنا وأجدادنا منكر من القول وزورا ، ونسبونا بخلوهم الأفسح ، وجهلهم المستظفح إلى ما لا يلبس بنا ذكره ، وإنا لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضلال » ^(٣) . ومثله لا يضطهد المالكية ولا يفهم من البلاد . وكان لا يزال بمصر في عهده عبد الوهاب بن علي البغدادي المالكي أحد الأئمة المالكية المجتهدين في المذهب ، نزل مصر لضيق حاله ببغداد وتوفي بها سنة ٤٢٢ يقول السيوطي : « أكرم بمصر وتمول وسعد جداً ، ومرض فكان يقول في مرضه : لا إله إلا الله عندما عشنا متنا » ^(٤) . فصر في عهد الخليفة الظاهر وقبله وبعده كانت لاتزال مركزاً كبيراً للإشعاع العلمي والدراسات الدينية ، يترها العلماء ليشاركوا في نهضتها العلمية ، ويترها طلاب العلم ليتزودوا منها خير زاد . ونضرب مثلاً بمكي بن أبي طالب القيسي القيرواني المتبحر في القراءات المتوفى سنة ٤٣٧ والمولود سنة ٣٥٤ فقد جاءها يطلب العلم فيها سنة ٣٦٧ ثم عاد إليها سنة ٣٧٤ ورجع إلى بلده ثم عاد سنة ٣٧٧ لأخذ القراءات عن شيوخها ورجع إلى القيروان سنة ٣٨٠ ثم عاد سنة ٣٨٢ لاستكمال القراءات ، ومضى بعد سنوات إلى جامع قرطبة بالأندلس يقرئ فيه الناس ^(٥) . ومثله أبو عمر والداني الأندلسي نزل مصر سنة ٣٩٧ وحمل القراءات عن أساتذتها وهو في الخامسة والعشرين من عمره ^(٦) . فهذان عالمان سنيان جليلان نزلا مصر لعهد العزيز والحاكم على الترتيب ووجدا فيها ما يكفل لهما الإقامة بها والعيش فيها .

ومن نزل مصر من كبار المحدثين النقاش الحافظ المتوفى سنة ٣٦٩ وأبو سعيد الماليني المتوفى سنة ٤١٢ وأبو نصر السجزي المتوفى سنة ٤٤٤ ونزلا في العقد الثاني من القرن السادس أكبر حفاظ

(١) الغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٦ .

(٥) ابن خلكان ٢٧٤/٥ .

(٢) الحطط ٣١/٣ .

(٦) معجم الأدياء ١٢٦/١٢ وكان أستاذ الداني في

(٣) النجوم الزاهرة ٢٤٩/٤ .

القراءات هو نفسه أستاذ مكي : عبد المنعم بن غليون الحلبي

(٤) حسن المحاضرة ٣١٤/١ .

نزىل مصر .

الحديث في عصره. الإمام السُّنِّي . ونزلها من كبار فقهاء الشافعية أبو العباس الذَّيْل المتوفى سنة ٣٧٣ وأبو الحسن الحلبي المتوفى سنة ٣٩٦ وأبو الفضل البغدادى المتوفى سنة ٤٤١ وأبو القاسم العراقي المتوفى سنة ٤٧٧ وأبو الفتح المقدسى المتوفى سنة ٥١٨ ، ونزلها من فقهاء المالكية الأبهري الصغير وعبد الله بن الوليد الأندلسي المتوفى سنة ٤٤٨ وعبد الجليل بن مخلوف الصقل المتوفى سنة ٤٥٩ وأبو بكر الطرطوشي الأندلسي المتوفى سنة ٥٢٥ وأبو العباس القاسي^(١) المتوفى سنة ٥٦٠ .

وإذا كان هؤلاء العلماء والطلاب الوافدون وجدوا في مصر مستقراً لهم ومقاماً فأول أن يجد ذلك أنبأها ، وأيضاً فإن وراءهم كثيرين من محدثي مصر وقضاة الشافعيين والمالكيين والقراء يُعَدُّون بالمشرات على طول السنوات في عهد الدولة الفاطمية ، مما يؤكد أن الفاطميين لم يعلنوا معارضة هذه الدراسات ، بل لعلهم كانوا يشجعون كثيرين من أهلها ومن الوافدين عليهم ، حتى يقول نزيلها الإمام عبد الوهاب المالكي قوله السالفة : « عندما عشنا متنا . » ولعلنا لنا في حاجة إلى كل هذه الأدلة لنبرهن على أن الفاطميين لم يقفوا حجر عثرة ضد نشاط أهل السنة ومنهجي الفقه الشافعي حينئذ في مصر: المذهب الشافعي والمذهب المالكي فإن القلقشندي يشهد لهم بذلك شهادة بيّنة إذ يقول عنهم: « كانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويكثرونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، ولا يمنعون من إقامة صلاة الذوايح في الجوامع والمساجد على خلاف معتقدهم .. ومذاهب مالك والشافعي وأحمد (بن حنبل) ظاهرة الشعار في مملكتهم بخلاف مذهب أبي حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه^(٢) . » وهو محق في مذهب أبي حنيفة إذ لم يكن له نشاط بمصر في عهد الفاطميين ، أما مذهب ابن حنبل فغير محق في إثبات نشاط له حيث إن كان نشاطه مثل نشاط مذهب أبي حنيفة يكاد يكون معدوماً .

على كل حال هذه شهادة صريحة للفاطميين بأنهم كانوا يترصّون أهل السنة ، وحقاً حين دخلوا مصر أسندوا وظيفة قاضي القضاة إلى النعمان فقيهم وتوارثها بعده بعض أبنائه وأحفاده ، ثم ولوها بعض شيعتهم . ويبدو أنهم أخذوا في عصر المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) يتركون هذه السياسة ، إذ عُيِّنوا على رأس القضاة فقيها شافعي هو أبو عبد الله محمد^(٣) بن سلامة القضاعي أحد أئمة زمنه المتوفى سنة ٤٥٤ . ويبدو أن كثيرين من القضاة الفرعيين في الإسكندرية وغيرها كانوا

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٧ وانظر حديث السيوطي في كتابه حسن الحضارة عن فقهاء الشافعية في زمن الفاطميين ٤٠٤/١ وما بعده .

(١) راجع في هؤلاء الفقهاء والمحدثين حسن الحضارة للسيوطي وما به من أنبات خاصة بهم في جزئه الأول .
(٢) صبح الأمتى للقلقشندي ٣/٥٢٠ .

شافعيين أو مالكيين. ويتولى الوزارة بدر الجمالى (٤٦٨ - ٤٨٧ هـ) ثم ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥) ويصبحان ولي الأمر ويحجران على الخلفاء وكانا لا يعارضان أهل^(١) السنة ولا يتصعبان ضدهم. وحين يتولى أحمد الأفضل خفيد بدر الوزارة يعين أربعة قضاة: شيعيا إسماعيليا وشيعيا إماميا ومالكيًا وشافعيًا^(٢). ويظهر أن هذا أصبح تقليدا منذ صنع أحمد الأفضل هذا الصنيع سنة ٥٢٥.

ويتول في الإسكندرية السلفى أكبر حفاظ الحديث في العصر ويأخذ في إملائه، ويتوافد عليه الطلاب من مصر وغير مصر، ويتولى الإسكندرية العادل بن السار في عهد الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) وكان شافعى المذهب مثل السلفى فاحتل به وزاد في إكرامه وبني له مدرسة فؤد تدرسها إليه، يقول ابن خلكان: وهى معروفة باسمه إلى الآن أى في زمنه^(٣). وفى صبح الأعشى سجل^٤ بإسناد هذه المدرسة إلى الفقيه السلفى والقيام على نفقة من فيها من القراء والفقهاء والمرابطين والصلحاء وطلبة العلم من أهل الإسكندرية ومن الواردين إليها والطائنين عليها سواء كانت النفقة نقدا أو غلة، مع بيان أنه أعد لهم جميعا فيها المئوى والمسكن. وبذلك يكون ما ذكره المقرئى وغيره من أن المدارس لم تعرف في مصر إلا في عهد صلاح الدين غير صحيح^(٥)، فقد كانت بها مدرسة السلفى المذكورة، وكانت مدرسة سنية شافعية. ونفس دار العلم يمكن أن نعدّها مدرسة بالمعنى الكبير الذى كان لنظامية بغداد، إذ كانت مؤسسة علمية كبرى.

وكانت الدولة الفاطمية قد انتهت إلى انحلال وفساد شديد وأخذ الظلام يعم ديارها في مصر والشام وفى غفلة من الزمن يستولى حملة الصليب على بيت المقدس وساحل الشام على نحو ما مر بنا في الفصل الماضى، ويستغيث الفاطميون بنور الدين صاحب حلب، ويرسل إليهم بجنود على رأسها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وتتطور الظروف سريعا، وينهى صلاح الدين حكم الفاطميين ويقبض على صولجان الحكم، ويكاد يقضى على الصليبيين في الشام إلا قليلا ويستولى على بيت المقدس وتتكاثر فزوحاته، ويحقق للعرب والمصريين الزعيم المتظر لتخليص البلاد من حملة الصليب. وعلى نحو ما قاد هذه الفتوح قاد نهضة علمية رائدة، إذ كان محبا للدراسات الإسلامية شغوقا بها وخاصة بالحديث النبوى مما جعله يتزل الإسكندرية ليلتقاء على

(١) المغرب ص ٢١٦.

(٢) ابن خلكان ١/ ١٠٥.

(٣) أخبار مصر لابن ميسر ص ٧٥.

(٤) المخطوط ٣/ ٣١٥ وانظر حسن الحاضرة ٢/ ٢٥٦.

السلفي أكبر حفاظه في عصره . وكان يستمع إلى الفقهاء ويُرَوَّى أنه تلقى على بعض الشيوخ موطأ مالك برواية فقيه الإسكندرية الطرطوشي المالكي^(١) ، بينما كان السلفي شافعيًا ، وكان صلاح الدين نفسه شافعي المذهب . ولعل في ذلك ما يفسر اهتمامه بفقهاء المذنبين ، بل لقد ضم إليهم أيضًا فقهاء المذهب الحنفي ، فإذا هوينشئ خمس مدارس بالقاهرة والفسطاط ، أنشأ اثنتين منها في أثناء وزارته للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٦٦ : مدرسة لفقهاء الشافعية بجوار جامع عمرو سميت مدرسة ابن زين التجار باسم الشيخ الذي قُوض إليه تدريس الفقه الشافعي بها ثم عُرفت باسم المدرسة الشريفة ، ومدرسة لفقهاء المالكية بالقرب منها سميت المدرسة القمحجية للقمح الذي كان يأتيها من ضيعة بالقوم وقفها عليها صلاح الدين ، حتى إذا استولى على مقاليد الحكم بمصر أنشأ ثلاث مدارس اثنتين للشافعية إحداهما بجوار مسجد الشافعي والثانية بجوار مشهد الحسين ، أما الثالثة فجعلها للحنفية وسميت السيفية^(٢) . والمهم أنه رُتب لكل هذه المدارس الأساتذة والمدرسين والمعيدين ، فقد كان نظام الإعادة معروفًا حيث ، ورُتب لها أيضًا الأئمة والمؤذنين والقومة والطلاب ، وجعل لكل مدرسة أوقافها الخاصة للإنفاق المستمر عليها في حياته وبعد وفاته ، وألحق بكل مدرسة مساكن للمعلمين والطلبة . وكأن كل مدرسة كانت تشبه كلية من كليات الجامعات في عصرنا ، فمع كل مدرسة مساكنها وميزانيتها للإنفاق اليومي والشهري عليها .

وبذلك بدأ مصر دورة علمية كبيرة في عهد الدولة الأيوبية لا في عهد صلاح الدين وحده ، بل أيضًا في عهد من خلفوه من الأيوبيين ، إذ كانوا في جملتهم علماء ، وكذلك كان وزراءهم وأمراؤهم منذ عهد صلاح الدين نفسه ، ولكثيرين منهم مدارس أنشأوها في الفسطاط والقاهرة عددها المقرري - والطريف أنه اشترك معهم في إنشائها بعض التجار - وقد بلغ بها خمسا وعشرين مدرسة^(٣) . ويبدو أن إحصائيته غير كاملة ، فإنه لم يقف عند مشهد الحسين وقفًا توضح أنه كان مدرسة كبقية المدارس . ونستطيع أن نميز بين هذه المدارس ثلاث مدارس للفقهاء الشافعي وراء المدارس التي أنشأها صلاح الدين ، إحداهما أنشأها ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه وسميت مدرسة منازل العز وهو اسم المنازل التي أقيمت فيها ، وكان مما وقفه عليها

(٢) ابن خلكان ٢٠٦/٧ وقارن بحديث المقرري من المدارس في الجزء الثالث من المخطوط .

(٣) انظر حديث المقرري في ذلك بالمخطوط ٣١٣/٣ وما بعدها .

(١) انظر في ذلك ابن واصل في كتاب مفرج الكروب في تاريخ بني أيوب ١/ ١٩٥ وما بعدها وكان يرسل بولده : العزيز والأفضل سلطان مصر ودمشق بعده للساح من السلف وفقهاء الإسكندرية . انظر حسن المحاضرة ١٩/٢ .

جزيرة الروضة المعروفة الآن بالقاهرة والثانية المدرسة الشريفة بناها أحد أمراء الدولة الأيوبية سنة ٦١٢ . والثالثة المدرسة الفاترية بناها الوزير الفاتري سنة ٦٣٦ . وبالمثل نستطيع أن نميز للفقه المالكي بجانب المدرسة الفصحية التي أنشأها له صلاح الدين المدرسة الصاحبية التي بناها له الصاحب ابن شكر وزير السلطان العادل . وأيضا نستطيع أن نميز للفقه الحنفي بجانب المدرسة السوفية التي أنشأها صلاح الدين مدرسين إحداهما سميت الأركشية بناها أحد الأمراء ، والثانية سميت العاشورية أنشأتها إحدى كرمات الأمراء . وهناك مدارس بنيت لأصحاب الفقه الشافعي والمالكي مثل مدرسة القاضي الفاضل ، وأخرى بنيت للفقه الشافعي والحنفي مثل المدرسة القطبية التي أنشأتها السيدة مؤمنة ابنة السلطان العادل . ويبنى السلطان نجم الدين أيوب بأخرة من زمن هذه الدولة سنة ٦٤١ مدرسة كبرى للمذاهب الأربعة : مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ، وهي أول مرة أو أول مدرسة تُعنى فيها بمصر بدراسة الفقه الحنبلي . وينشئ السلطان الكامل سنة ٦٢٢ أول مدرسة تُعنى بالحديث النبوي تسمى دار الحديث الكاملية نسبة إليه . ويلاحظ ابن خلكان ومن بعده ابن تقي يردى أن جميع المدارس التي أنشأها صلاح الدين لم تُسم منها مدرسة باسمه ، مع ما رُغب لها من الأوقاف العظيمة ، ومع ما كان له من الفتوحات الكبيرة^(١) .

وهذه المدارس جميعا كانت تُعنى بالدراسات الإسلامية من الحديث والتفسير والقراءات ، وبالدراسات اللغوية من النحو وغير النحو وكذلك الدراسات البلاغية ، لأن الفقيه في أى مذهب لا يتم تكونه إلا مع إتقانه هذه الدراسات . وأهمل صلاح الدين وخلفاؤه الجامع الأزهر لأنه كان مركز الدعوة الإسماعيلية ، غير أن الجوامع الأخرى والمساجد الكبرى ظل بها بعض النشاط العلمى ، وكان صلاح الدين يفتى عليها وعلى علمائها وطلابها كما كان يفتى على مدارسه السالفة ، وفى ذلك يقول ابن جبير الذى زار القاهرة والفسطاط لعهد سنة ٥٧٨ : « ما من جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان (صلاح الدين) يعم جميع من يأوى إليها ويلزم السكنى فيها ، تهون عليه فى ذلك نفقات بيوت الأموال^(٢) » .

وكانت الإسكندرية فى عهد الفاطميين مثل الفسطاط مركزا لدراسات أهل السنة ، وقد بنى فيها ابن السار - كما أسلفنا - مدرسة فوض الإشراف عليها للحافظ السلفى الشافعي ، ويبدو أن

(١) ابن خلكان ٢٠٧/٧ والنجوم الزاهرة ٥٥/٦ . (٢) رحلة ابن جبير (طبع ليد) ص ٥٢ .

صلاح الدين أنشأ في الإسكندرية مدارس جديدة كما يفهم من كلام ابن جبير إذ يقول : « ومن مناقب هذا البلد (الإسكندرية) ومفاخرة العائدة في الحقيقة إلى سلطانه (صلاح الدين) المدارس والمهارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعب ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه ومدرساً يعلمه الفن الذى يريد تعلمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله ^(١) . وأخذت المدارس تعم مدن مصر الكبرى بينها ولاية صلاح الدين عليها ومن جاءوا بعده ، وأيضاً أمراء بيته ، من ذلك أن تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخيه بنى في الفيوم مدرستين إحداها للشافعية والثانية للمالكية ^(٢) ، وتأسست بأسوان مدرسة مبكرة ^(٣) ، وأنشأ ابن هبة الله حاكم قوص سنة ٦٠٧ المدرسة النجبية ^(٤) بها . ويبدو أنه لم تكن تخطو بلدة كبيرة في مصر لعهد الأيوبيين من مدرسة . وكانت بها جميعا الجوامع والمساجد ، واشتهرت الإسكندرية منذ العصر الفاطمي بمجامع العطارين الذى بناه بدر الجبالى ، وظل به نشاط علمى وافر زمن الأيوبيين ، وبالمثل كانت الجوامع الكبرى في دمياط والمحلة وطنطا والمنيا وأسيوط وقوص وإسنا ، إذ نقرأ في كتب التراجم من حين لآخر عن علماء كانوا يعنون في هذه البلدان بدراسات الفقه والحديث والقراءات .

وتنشأ - بجانب المدارس السالفة - مدارس كثيرة في عهد المماليك ، ويعدها المقريزى ويذكر تاريخ إنشائها والأوقاف التى رُصدت لها ، وتبلغ عنده نحو خمس وأربعين مدرسة ، بناها سلاطين المماليك وأمراؤهم وأحياناً بعض نسايتهم وأمهاتهم ، وقد عدَّ للشافعية منها أربعة : المدرسة ^(٥) الطبرسية والحسامية والسابقية والمهدية الخليلية ، وللحنفية ثلاثاً : الغزنوية والجمايلة والمهندادية . ومدارس مختلفة بنيت للمذاهب مثل المدرسة الأقباقية والجماي ومدرسة أم السلطان وكذلك المدرسة الظاهرية وجميعها للشافعية والحنفية ومثل المدرسة الحجازية والمسلمية وهما للشافعية والمالكية ، ومثل المنكوتنمية للمالكية والحنفية . وبنيت للمذاهب الأربعة مدارس مختلفة مثل المدرسة المنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه محمد الناصر .

ويقول ابن بطوطة الذى زار القاهرة والفسطاط سنة ٧٢٦ لعهد محمد الناصر بن قلاوون :

(١) ابن جبير ص ٤١ وما بعدها .

(٢) ابن خلكان ٤٥٦/٣ .

(٣) الطالع السعيد للإدغوى (طبع مطبعة الجاهلية)

ص ٨٥ .

(٤) الطالع السعيد ص ٢٢٠ .

(٥) انظر لها على من حديث عن هذه المدارس خطط

المقريزى ٣٤٠/٣ وما بعدها .

أما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بمصرها لكثرتها . وظلت المدارس تتكاثر بعد زيارته لمدة نحو قرنين من الزمان طوال عصر المماليك . ولن نستطيع الوقوف عند جميع هذه المدارس لمعرفة نشاطها العلمي ونكتفي منها بثلاث هي المدرسة الظاهرية للظاهر بيبرس والمنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه الناصر . أما الظاهرية ^(١) فتم إنشاؤها لأوائل عهد المماليك سنة ٦٦٢ وقد جعلها الظاهر لتدريس الفقه الشافعي والحنفى وتدريس القراءات والحديث النبوى ، وأجرى الرواتب على أساتذتها وطلابها وألحق بها مساكن لهم كما ألحق بها مكتبة تشتمل على أهميات الكتب فى سائر العلوم وبني بجانبها مكتبة لتحفيظ أيتام المسلمين كتاب الله وأجرى لمن به من الأطفال الجرايات والكسوة ، وأوقف عليها الرُّبْع أو الحلى المعروف اليوم باسم تحت الربع ، وكان ربعا كبيرا مملوئا بالدور والخوانيت . أما المدرسة المنصورية ^(٢) فأنشأها السلطان المنصور قلاوون لأصحاب المذاهب الفقهية الأربعة سنة ٦٨٤ وجعل لكل مذهب مدرسا وثلاثة من المعيدى ومقرنا للذكر الحكيم وخمسين طالبا ، وأجرى عليهم جميعا وعلى قومتها وفراشيها الرواتب ، وبني بجوارها مكتبة لتحفيظ ستين من أيتام المسلمين القرآن الكريم ، وأسند لفقهاء القيام على ذلك مع إجراء الجرايات على الأيتام والكسوة فى الشتاء والصيف . وبني تجاه المدرسة قبة عظيمة جعل فيها خمسين مقرا ودرسا للحديث ودرسا للتفسير ومع المدرسين الطلاب وكذلك مع المقرئين . وجعل فيها مكتبة كبيرة تشتمل على شتى أنواع العلوم والآداب ، وجعل لها أميناً ومساعدين له وفراشين وبوابين . وحاكى الناصر أباه قلاوون فبنى مدرسة للمذاهب ^(٣) الأربعة سنة ٧٠٣ وجعل بها مكتبة جليلة ورصد لها أوقافا كثيرة . وبالمثل كان كل من بنى مدرسة يقف عليها ما يحفظ لعلمائها وطلابها نفقاتهم وكثيرا ما كانوا يلحقون بها مساكن لهم .

ولم تكن المدارس وحدها ساحات العلم لعهد المماليك ، فقد كان يَشْرُكها الجوامع والمساجد . وفى مقدمتها الجامع الأزهر ، وكانت قد تعطلت فيه الدراسة طوال عهد الأيوبيين كما تعطلت فيه أحيانا صلاة الجمعة إلى أن أعادها عز الدين الحلى نائب الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ فصلى فيه الجمعة ورتب فيه مدرسا للفقه الشافعى ومحدثا لإملاء الحديث النبوى وسبعة لقراءة الذكر الحكيم ورصد لذلك أوقافا وافرة ^(٤) . وسرعان ما أخذ الأزهر دوره التاريخى العظيم ، فبدأ أكبر جامعة

(١) انظر فى هذه المدرسة المخطوط ٣/ ٣٤٠ .

وما بعدها .

(٢) انظر فى هذه المدرسة المخطوط ٣/ ٣٤٢ والسلوك

(٣) المخطوط ٣/ ٣٤٦ .

(٤) المخطوط ٣/ ١٦٠ والسلوك ١/ ٥٥٦ وما بعدها

للمقريزى (طبعة القاهرة) ١/ ٧١٦ وما بعدها و ١٠٠٠

للدراستات الإسلامية واللغوية . وبشيد المقرئى المتوفى سنة ٨٤٥ بالدراسات فى هذا الجامع أو الجامعة قائلا : « لا يزال جامع الأزهر عامرا بتلاوة القرآن ودراسه وتلقيه والاشتغال بأنواع العلوم : الفقه (على المذاهب الأربعة) والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر ، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجد فى غيره ^(١) » . واهتم به السلاطين والأمراء وأرباب الأموال ، فرُصدت له أوقاف كثيرة على مرالسنين . وزخر جامع ابن طولون بنشاط علمى جم منذ عهد السلطان المنصور لاجين ^(٢) سنة ٦٩٤ قد رتب فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للتفسير ودرسا للحديث النبوى ، وألحق به مكتبا لتحفيظ القرآن الكريم . وبالمثل عُنى بـيـرس الجاشنكير بعارة جامع الحاكم سنة ٧٠٣ ورتب ^(٣) فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة والحديث النبوى والقراءات ، وألحق به خزانة كتب نفيسة .

وهذا النشاط العلمى فى مساجد القاهرة والفسطاط ومدارسها كان يلقى به نشاط مماثل فى الإسكندرية ومدن مصر الكبرى . وهو نشاط كان يَشْرِك علماء مصر فيه كثير من علماء البلاد العربية الأخرى التى أخذت تفسح لهم فى مدارسها ، بل أخذت تضمهم إلى صدرها ، إذ شعرت بقوة أنها حاملة لواء العلم والفكر العربيين وأنه ينبغى أن تعمل بقوة لتحبيما إزاء غارات أعداء الإسلام على صقلية والأندلس وغارات حملة الصليب على الشام وأخيرا غارات التار على إيران والعراق وديار الشام ، بحيث أصبحت مصر منذ عهد صلاح الدين ملاذ الحضارة العربية وموئل علومها وفكرها وآدابها ، وكأنما انتدبت نفسها لهذه المهمة الخطيرة ، فهى تعنى عناية واسعة بإنشاء المدارس ، وهى تستقبل علماء الأقطار العربية المذكورة وتسد إليهم كثيرا من المناصب العلمية ، وأحيانا المناصب الوزارية ، فقد كان على سبيل المثال لصلاح الدين وزيران : القاضى الفاضل والعماد الأصبهانى ، والأول شامى والثانى عراقى الثقافة أصبهانى المولد . وأيضا فقد نزها كثيرون من علماء المغرب بسبب اختلال الحكم وضعف الحكومات . ومن يرجع إلى كتاب مثل حسن المحاضرة للسيوطى وما يذكر فيه - على الترتيب الزمنى - من أسماء الأئمة المجتهدين وحفاظ الحديث النبوى وفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة وأئمة القراء وعلماء النحو واللغة والتاريخ والصوفية والوعاظ وأصحاب علوم الأوائل من الطب وغيره يمثّل إليه أنه لم تبق بلدة فى العالم

(١) الخطط ٣/ ١٦٣ .

(٢) الخطط ٣/ ١٦٥ ويقول المقرئى إنه رصد له أوقاف

كبيرة فى الجزيرة والعبيد والإسكندرية .

(٣) الخطط ٣/ ١٤٨ وحسن المحاضرة ٢/ ٢٤٩ .

الإسلامى العربى إلا بعثت إلى القاهرة والإسكندرية بشيوخها وبطلاب العلم فى هذه الحقب التى امتدت من الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧ إلى نهاية عصر المماليك سنة ٩٢٢ ، بل ظلت من ذلك بقية فى أيام العثمانيين .

ونَهَضَ مصر بدور مهم فى حماية العلوم ، فقد رأت من واجبها أن تعنى بتدوين كل ما خلفه السلف خوفاً من ضياعه ، وخاصة أمهات التراث العربى وأصوله ، وانتهجت لذلك نهجا سديداً فى توثيق روايتها وأخذها عن حررروا صياغتها وضبطوها أدق ضبط ، فهى لا تؤخذ من الصحف المكتوبة مباشرة بل تؤخذ سماحا عن الشيوخ الثقات ويروىها جيل عن جيل بمتنى الدقة ولا يروىها إلا من شهد له شيخ بأنه جدير بروايتها ، على نحو ما هو معروف فى نظام الإجازات . ووضعت مصر لطلاب كل علم مثونا ، ووضعت عليها شروحا ، وشرحت الشروح أحيانا ، ونحن لا نقروها الآن حتى يروى أن علماءها كانوا فى هذه الشروح لا يتركون لعالم سالف منذ القرن الثانى للهجرة حتى زمنهم رأيا إلا دُونَهُ ، وبذلك تستحيل بعض الشروح وحواشيا إلى ما يشبه دوائر معارف فى العلم الذى تتناوله ، إذ تُعَرِّضُ فيها آراء العلماء على اختلاف الأزمنة واختلاف البلدان العربية . وامتازت الحركة العلمية لمعهد المماليك بكتابة دوائر معارف كبرى تجمع مواد فنون كثيرة ، من ذلك كتاب نهاية الأرب للنورى المتوفى سنة ٧٣٣ وهو يتناول علوم الفلك والجغرافيا والتاريخ الطبيعى والحيوانات والزواحف والطيور والصيد والنباتات والثمار والأزهار والإنسان وعاداته وطرق الحكم ووظائف الدولة وشئون السياسة وتاريخ الدولة العربية من أقدم الأزمنة حتى زمن النورى . ويُشبه هذه الدائرة كتاب مسالك الأبصار لأبن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ وهو فى جغرافية العالم العربى والعلوم الطبيعية والحيوانية والنباتية وتاريخ الدولة العربية وأعلامها فى الشعر والنثر على مر السنين . ومن كتب دوائر المعارف الأدبية كتاب « المستطرف فى كل فن مستظرف » لمحمد بن أحمد الأبهى^(١) المتوفى سنة ٨٩٨ والكتاب موزع على ٤٨ بابا فى القرآن وفضله والعقل والعلم والأدب والحكم والأمثال والبيان والبلاغة وسياسة الملك والعدل والشرف والجلود والبخل والشجاعة والعمل والكسب والحيوانات والحشرات والبحار والأنهار والجبال وعجائب المخلوقات وغير ذلك .

ولعل فى ذلك ما يصور خطأ الأحكام الجائرة التى حُبِّت على مصر وخاصة أيام المماليك . إذ نعت المؤرخون للأدب العربى هذه الحقب المتطاولة بأنها كانت زمن المحطّات وركود فى جميع

(١) انظر فى الأبهى الضمير اللاصق ١٠٩/٧ .

جوانب الحياة العقلية ، وهو ما تنقسه الحقائق السابقة نقضا ، وسيوضح هذا النقض بصورة أدق حين نعرض في الفصول التالية لوجوه النشاط العلمى ، فسرى أن مصر لم تشهد حقبا علمية مزدهرة بمقدار ما شهدت في زمن المالك ، وكان كثير منهم مثقفين مثل الأيوبيين ، وعملوا على إذكاء النهضة العلمية بما أنشأوا من المدارس وما ألحقوا بها وبالمساجد من المكتبات وما رصدها لها من أوقاف كثيرة تكفل للعلماء والطلاب حياة علمية خصبة .

ويكتب لهذه الحركة العلمية العظيمة أن تتوقف ويعيبها غير قليل من الخمود إذ احتلت جحافل العثمانيين مصر ، وجردوها السلطان العثماني الفاتح سليم من كثير من علمائها وقضاتها وحشدتهم في السفن إلى عاصمته إستانبول . وجرّد بعض المدارس من أعمدتها ورخامها الملون وكتبها النفيسة ، وما توفى سنة ٩٢٨ حتى تلى وظائف قضاة المذاهب الأربعة التي كانت قائمة بالقاهرة منذ عهد الظاهر بيبرس ويحل محلهم قاضى العسكر . وكل ذلك عمل على انتكاس الحركة العلمية بمصر ، ومع ذلك ظلت جذوات منها تتقد في الجامع الأزهر وفي بعض المدارس ، إذ نسمع في ترجمة هذا العالم أوداك أنه كان يدرس في المدرسة السيوفية الحنفية التي أنشأها صلاح الدين أوفى المدرسة الصالحية التي أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب أوفى المدرسة الأقباقوية التي أنشئت في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، ويذكر الجبرتي مدارس لم يذكرها القرينى في خططه مثل المدرسة الغورية التي أنشأها السلطان الغورى ، ومثل المدرسة السنانية ^(١) ، ويردد ذكر القطبانية والجنبلانية والأصفرية ^(٢) ، وأكبر الظن أنها كانت مدارس ناشطة هي الأخرى .

ومع ما أصاب مصر وحركتها العلمية من الفتح العثماني الذي جثم على صدر البلاد وكان عاملا مهما في خمود الدراسات العلمية بها ، فإن مصر ظلت ملاذاً للعلماء من جميع الأقطار العربية من الخليج إلى المحيط ، وظلت القاهرة موئلهم جميعا يفدون عليها للتعلم في الجامع الأزهر والاختلاف أحيانا إلى بعض المدارس ، حتى إذا نضج أحدهم علميا أصبح شيخا يتخلق حوله التلاميذ في الجامع الأزهر أوفى أحد جوامع القاهرة ومدارسها ، وقد يرجع إلى بلده يعلم فيها ما تلقن على شيوخه في الأزهر ، وكان قد أصبح منذ عصر المالك أكبر جامعة إسلامية . ونذكر من مشهورهم ابن طولون اللمشقي المؤرخ وعبد القادر البغدادى صاحب الموسوعة الأدبية المعروفة

(١) تاريخ الجبتي (طبعة بولاق) ١٦٢/١ و ٢٢٠ . (٢) الجبتي ١/٧٥ ، ٨٦ ، ٢٢٠ .

باسم خزانة الأدب والمقرى التلمساني أكبر مؤرخى الأندلس ، وبهاء الدين العالمى صاحب الكشكول . وعُرِبَت مصر بعض الولاة العثمانيين وأحاثته مؤلفاً أديباً مثل راغب باشا وبها سنة ١١٦٠ وموسوعة « سفينة الراغب » مشهورة . وقد ألف بالقاهرة الزبيدى البنى تاج العروس : شرحه على القاموس المحيط للفيروزابادى . وبذلك ظلت مصر فى العهد العثمانى المظلم حامية للتراث العربى المتبقى بها ورعاية لعلماء العالم العربى ، بفضل مصاييح العلم التى كانت تضىء بها خاصة فى الجامع الأزهر . وما زالت شهرته تدوى فى العالم الإسلامى إلى اليوم ، وجعل العثمانيون له رئيساً من كبار علمائه كانوا يسمونه شيخ الأزهر ، ويعتدّ الجبرئى شيوعه منذ سنة ١١٠٠ للهجرة إلى أن ينتهى إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى معاصر الحملة الفرنسية .

٢

علوم الأوائل - علم الجغرافيا

(١) علوم الأوائل

مر بنا فى أول هذا الفصل أن مصر أسهمت فى نشأة العلم بمعناه العالمى سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى ، وتشهد لها الأهرامات بما كان فيها من علم هندسى ، وتشهد لعلمها الرياضى^(١) برديات رياضية فرعونية مختلفة ، وبالمثل تشهد للعلم الطبى برديات فرعونية تدل على أن الطب والتشريح بمعناهما العلمى العالمى نشأ فى ديارها ورقيا رقيقاً بعيداً^(٢) .

وكان من الممكن أن تستمر مصر فى حركتها العلمية لولاما دهمها من الغزو الأجنبى ، واستطاعت أن تنصر البطالة وأن تستعيد - كما أسلفنا - حركتها العلمية وإن اتخذت اليونانية لساناً لها ، فنهضت بالإسكندرية عاصمتها حيثند دراسات الهندسة والرياضة والفلك والطب ، أما الهندسة فشاد صرحها إقليدس فى القرن الثالث قبل الميلاد ، مكونا بالإسكندرية مدرسة هندسية كان لها شأن عظيم ، وقد ظلت تُدرّسُ كعبة فى العربية وفى أوروبا حتى القرن الماضى^(٣) ، وأما الطب فشهدت الإسكندرية فيه نهضة كبيرة على يد هيروفيلوس وأضرابه ، وقد اشتهر بشرح

(١) انظر العلم عند العرب لألدوميل (ترجمة الدكتور

عبد الحليم النجار - نشر الجامعة العربية - دار القلم

ص ٣٣ وما بعدها .

(٢) ألدوميل ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) ألدوميل ص ٤٣ وقصة الحضارة لودجيرات

(نشر جامعة الدول العربية) ١٣٧/٨ .

العين ووصفه للشبكية وأعصاب النظر وتشريح المخ وتحديد وظيفة الشرايين وغير ذلك من مباحث طبية^(١). وغزا مصر الرومان ، كما أسلفنا ، وظلت حركتها العلمية والفلسفية في النحر ، كما ظلت الإسكندرية زعيمة العالم اهليني في العلوم . ومن أكبر علمائها حيثنذ بطليموس المولود بالصعيد ، غير أنه بارح مسقط رأسه مبكراً إلى الإسكندرية ، حيث ظل يرصد الأجرام السماوية حتى منتصف القرن الثاني الميلادي ، ولم يلبث أن سجل معلوماته الفلكية والرياضية والجغرافية في كتابه « النظام الرياضي للنجوم » وقد سماه العرب « المجسطي » أي الأعظم بنفس اللقب الذي وضعه له اليونان . وله كتب أخرى منها موجز جغرافي ، وكان لبحوث المجسطي وغيره تأثير عظيم في علم الهيئة والفلك والرياضيات عند العرب^(٢) . ويلقانا هيرون ، وهو أرشميدس صغير كما يقال ، وله رسائل في الرياضة والطبيعة والميكانيكا ترجمت إلى العربية ، وتاريخه غير معروف لمن العلماء المعاصرين من يرجع به إلى القرن الثاني قبل الميلاد ، ومنهم من يجعله في القرن الثالث بعد الميلاد^(٣) . ونفذت مصر في هذا القرن عند أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد إلى مذهب فلسفي كان تجديداً لفلسفة أفلاطون ، ولذلك يسمى الأفلاطونية الجديدة . وظل نشاط مصر في الطب عظيماً ، وقد نزلها جالينوس (١٣١ - ٢٠١ م) ولم يكف بمقامه فيها بالإسكندرية ، فقد جاس خلال ديارها حتى وصل جنوبها والنوبة وبواديها^(٤) ، ومما لارب فيه أنه انتفع أكبر انتفاع بنهضة علم الطب والتشريح في مصر ، وترك في الإسكندرية بعده مدرسة عنت بدراسة كتبه وتلخيصها ، وقد عقد ابن أبي أصيبعة لأعلامها فصلاً مستقلاً^(٥) . وظلت الإسكندرية كما كانت طوال عهد البطالمة نحو ستة قرون يُهرعُ إليها جميع طلاب الطب من ولايات الإمبراطورية الرومانية ، وكان حَسْبُ الطبيب للدلالة على براعته أن يقال إنه تعلم الطب في الإسكندرية^(٦) . ومن تعلم الطب بها في القرن السادس سرجيوس من « رأس عين » بالموصل وإيتيوس من آمد بالموصل أيضاً ، ومن أطبائها في أوائل القرن السابع أهرن القس السرياني الذي أمر

(١) تاريخ الحكاء (مختصر الزوزني) للقنطري (طبع

لندن) ص ١٣٢ .

(٥) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة

الحياة ببيروت) ص ١٥١ والقنطري ص ٧١ .

(٦) ماكس مايرهوف ص ٤٥ ومابعدها وقصة الحضارة

. ١١٠ / ١١

(١) قصة الحضارة ١٥٦ / ٨ وماكس مايرهوف في

كتاب التراث اليوناني للدكتور عبد الرحمن بدوي ص ٤٥ .

(٢) قصة الحضارة ١٠٦ / ١١ وألدوسيل ص ٤٥

ومابعدها .

(٣) ألدوسيل ص ٤٥ ، ٤٧ وقصة الحضارة

. ١٠٨ / ١١

عمر بن عبدالعزيز بنقل كتابه من السريانية إلى العربية . وظل بالإسكندرية نشاط فلسفى بعد أفلوطين يمثل في القرن السادس للميلاد يحيى النحوى شارح أرسطو والفيلسوف المسيحي يوحنا الأبايمى^(١) . وما لا شك فيه أن القبطية شَرِكت اليونانية لُزمن الرومان في الدراسات العلمية والفلسفية ، وانفردت بمباحث فقهية في الدراسات الدينية . ومُرُّ بنا أن السريانية - وكانت منتشرة قبل الفتح العربى بأديرة مصر - دخلتها مع بعض القساوسة والرهبان في القرنين السادس والسابع للميلاد .

ويُظَلِّمُ مصر وكل ما كان بها من تراث علمى وفلسفى لواء الإسلام ، ومعروف أن الإسلام لم يحارب في أى بلد فتحه ما به من علم وفلسفة ، ومُرُّ بنا كذب الأسطورة القائلة بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية ، فقد أحرقها الرومان قبل نزوله مصر بنحو ستة قرون ، وإنما أطلنا في بيان هذا التراث لندل على أنه ظل طويلا ، أما ما يقال من أن عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) نقل نشاط علماء الإسكندرية إلى أنطاكية وحران^(٢) فقله من باب المبالغة ، وكل ما يمكن أن نتصوره أنه ربما انتقل بعض أطباؤها وعلمائها من الإسكندرية إلى أنطاكية ليقتربوا من بيزنطة كما يقول ما يرهوف . أما ما ذكره ابن أبى أصيبعة من انتقال التراث اليونانى ومعلميه إلى أنطاكية وحران فيعتوره الشك لسبب بسيط وهو أن المفروض أن ينقل عمر بن عبد العزيز أصحاب التراث اليونانى من الإسكندرية إلى عاصمته دمشق لا إلى أنطاكية . ولعل ابن أبى أصيبعة بالغ في هذا رأى . ويشهد لما نقوله ما يذكره ابن النديم من أن خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٩٢ هـ اهتم بعلم الكيمياء ، أو كما يسميه الصنعة فأحضر إلى دمشق جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا يتزلون بمصر وتفصصوا بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة (الكيمياء) من اللسان اليونانى والقبطى إلى اللسان العربى^(٣) . فكان الطبيعى أن يصنع عمر بن عبد العزيز صنيعه فينقل علماء الإسكندرية إلى عاصمته لا إلى أنطاكية وخاصة أنه اهتم فعلا بنقل كتاب أهرون القس الإسكندرى في الطب وكلف بذلك ما سرجويه البصرى كما هو معروف ، ولو أنه نقل حقا علماء الإسكندرية إلى أنطاكية كما يقول ابن أبى أصيبعة لكلف أحدهم بنقله . وربما كان أكثر من هذا التصور منطقا أن يقال إن كثيرين من علماء

ص ١٧١ .

(٢) الفهرست ص ٣٥٢ .

(١) انظر مقالة مايرهوف في كتاب التراث اليونانى

ص ٣٧ وما بعدها .

(٢) راجع مقالة مايرهوف السالفة وابن أبى أصيبعة

الإسكندرية اليونانيين بارحوما مع اقترام عمرو بن العاص لها ، ويطلب أن يكونوا قد حملوا معهم كتباً كثيرة من التراث اليوناني خاصة . ومع ذلك فقد بقي منه ومن علمائه ما أتاح لحركة الإسكندرية العلمية أن تظل مستمرة ، وإن فقدت كثيراً من نشاطها . يدل على ذلك العلماء الإسكندريون المستربون المذكورون آنفاً والذين استدعاهم خالد بن يزيد بن معاوية لترجمة كتب الصنعة ، كما يدل على ذلك ابن أبي طيب عمر بن عبد العزيز الذي كان يتولى التدريس بالإسكندرية واستدعاه ولزمه في خلافته ، ويدلوا أنه تعرف عليه حين كان أبوه والياً على مصر (٦٥ - ٨٦ هـ) ويقال إنه أسلم على يده ^(١) .

ومن المؤكد أن أديرة مصر ظلت منذ العهد الروماني تحفظ بكثير من التراث اليوناني وخاصة في الطب والكيمياء ، كما ظلت الإسكندرية تحفظ بشهرتها بالطب أجيالاً .. يدل على ذلك أن نجد هرون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) يستدعى منها طبيباً مشهوراً لعلاج إحدى جواربه هو بليطيان ^(٢) بطريرك الإسكندرية . وبالمثل ظلت مصر تحفظ بشهرتها في علم الكيمياء ، ويذكر ألدوميل كتابين في الكيمياء ألفهما بمصر في أوائل القرن الثالث الهجري عالم أو علماء - كما يقول - من القبط ^(٣) . ومن اشتهر بمعرفة الكيمياء من المصريين ذو النون المتوفى سنة ٢٤٥ واضع أسس التصوف كما مر بنا في الفصل الماضي .

وبدأ مصر في زمن الخليفة المتوكل (١٣٢ - ١٤٧ هـ) باتخاذ المارستانات ^(٤) ، ومعروف أنها كانت مستشفيات من جهة ومدارس لتعليم الطب من جهة ثانية . وسرعان ما يتولى مصر أحمد بن طولون ، وينشئ مارستاناً جديداً أنفق عليه ستم ألف دينار ، وكان به قسم للمجانين وحمامان : حمام للرجال وحمام للنساء ، وكان يركب لزيارته في كل يوم جمعة وتفقد أطبائه وخزائن الدواء فيه ^(٥) . ويذكر ابن أبي أصيبعة من الأطباء لزمه إبراهيم بن عيسى والحسن بن زيرك وسعيد بن توفيل النصراني وطبيب العيون خلف ^(٦) الطولوني ، وله كتاب النهاية والكفاية في تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وأدويتهما ظل يؤلفه في نحو أربعين عاماً من سنة

(٤) خطط القرطبي : مارستان المنافر ٣ / ٣٨٦ .

(٥) الخطط ٣ / ٣٨٦ .

(٦) انظر في خلف ومن قبله ابن أبي أصيبعة ص ٥٤١ وما بعدها .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ١٧١ وقد خطط بين ابن أبي

الإسكندري وابن أبي آخر . انظر مقالة مايرهوف ص ٦٤ وما بعدها .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٠ .

(٣) ألدوميل ص ٢٦٩ .

٢٦٤ إلى سنة ٣٠٢ . وتظل مصر تعنى بالطب بعد الطولونيين ، وترعاه الدولة الإخشيدية ويلمع اسم الطبيب سعيد بن البطريق بطريق الإسكندرية المتوفى سنة ٣٢٨ وله فيه مؤلفات ^(١) مختلفة . ومن الأطباء لعهد الإخشيد نسطاس ^(٢) بن جريج ، وينشئ كافر الإخشيدى مارستانا يرعاه غير طبيب ، ومن الأطباء لعهد عيسى بن البطريق أخو سعيد ، والبالى وكان طبيا متميزا فى معرفة الأدوية المفردة ، وله فيها كتاب ألفه لكافر ^(٣) .

وفى ذلك كله ما يدل على أن دراسة الطب ظلت ناشطة فى مصر ، وبالمثل ظلت الكيمياء كما أسلفنا ، وأيضا ظلت الرياضيات ، ولعل خير من يصور ذلك أبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، عالم زمنه الرياضى ، والمظنون أنه كان يعيش فى أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، واشتهر بأنه نقح علم الجبر الذى اكتشفه الخوارزمى . ويذكر الدوميل أن له رسالة فى المصلحة ذوى الزوايا الخمس ترجمت إلى الإيطالية والألمانية وكتاب الطرائف فى الحساب وقد ترجم بدوره إلى الألمانية ، ويذكر أيضا أن لكارينسكى كتابا عن علم الجبر باسم الجبر عند أبى كامل ^(٤) . ويقول القفطى إنه صاحب مدرسة وإن له تلاميذ تخرجوا فى علمه ، لعل منهم على بن أحمد العمرانى الموصلى العالم بالحساب والهندسة الذى توفى سنة ٣٤٤ إذ يقول القفطى عنه إنه شرح كتاب الجبر والمقابلة لأبى كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، وله عدة كتب فى التنجيم . على كل حال تدل تصانيف أبى كامل شجاع أنه كان عالما حاذقا فى الرياضيات والهندسة . وكان مصر ظلت طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة تهتم بهذا الجانب من تراثها العلمى حتى أنتجت فيه أبا كامل شجاعا .

وحقا نهضت بغداد كما مربنا فى كتابى العصر العباسى الأول والثانى بترجمة التراث اليونانى فى العلوم والفلسفة وأضافت إليه التراث الفارسى والهندي فنقلتها إلى العربية ، وكل ذلك تحول سريعا إلى تراث عربى عام للأمة فى بغداد والقاهرة وغيرهما من بلدان العالم العربى الكبيرة ، وقد بلغ من تمثل بغداد للرياضيات أن ابتكر الخوارزمى علم الجبر ، وبلغ من تمثل القاهرة لما كان بها من مصنفات تتصل بالرياضيات أن تجرد أبو كامل شجاع بن أسلم الرياضى المصرى لتفجير جبر الخوارزمى . واهتمت البيئات العربية بتفجيحه ، فإذا على بن أحمد العمرانى الموصلى يعنى بشرحه

(٤) انظر فى شجاع بن أسلم الدوميل ٢١١ ، ٢١٦

وبروكيان ١٩٣ / ٤ والقفطى ٢١١ ، ٢٣٣ .

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٤ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .

وتفسيره لهذا التنقيح في كتاب مستقل نوه به وبأصله القدماء .

وظل النشاط محمداً في الرياضيات وعلوم الفلك والتنجيم طوال زمن الفاطميين ، ومن المنجمين لمعهد المعز وابنه العزيز محمد^(١) بن عبد الله العتق وأبى^(٢) عبد الله بن القلانسي ، ومن أعظم الفلكيين بمصر وعند العرب قاطبة أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفى المصرى ، وقد بدأ بعمل زيج كبير أو بعبارة أخرى بعمل لوحات فلكية مفصلة لمعهد العزيز وأخذ في تنقيح زيجه لمعهد الحاكم ابنه وقد أقام له مرصداً ضخماً كان قسماً من دار العلم ويقال إنه أتم زيجه سنة ٣٩٧ وأنه كان يشغل أربع مجلدات ضخام ، ويقول ابن خلكان إنه لم ير في الأرياج على كثرتها أطول^(٣) منه ، وقد سماه الزيج الحاكمى الكبير ولم يلبث أن توفى سنة ٣٩٩ .

ونزل مصر لمعهد الحاكم أكبر علماء الرياضة والطبيعة العراقيين لزمه أبو علي الحسن بن الهيثم البصرى^(٤) ، وفرح الحاكم بقدمه وخرج للقاءه على باب القاهرة . ولما وقف على خجل الحاكم سكن قبة على باب الجامع الأزهر ، ويقال إنه كان يكتب الجسطى في الفلك والهيئة لبطليموس ومصنفات إقليدس في الهندسة وبيعهما جميعاً بمائة وخمسين ديناراً . ويدو أن نبوغه الفلسفى والرياضى والفيزيقي إنما تحقق في مصر التى اتخذها سكناً له ومقاماً لأكثر من ثلاثين عاماً ، وبها ألف كتابه « المناظير » فى العدسات وانعكاسات الضوء ، وقد تُرجم قديماً إلى اللاتينية ، وله تأثير علمى عالمى بعيد . وعليه تتلمذ كثير من المصريين وأخذوا منه كل ما عنده فى الطبيعيات والرياضيات والفلك والطب والفلسفة . والمظنون أن دار العلم كانت تعنى فيما تعنى بدروس الرياضيات والطبيعيات والفلك والفلسفة ، إذ كان الخلفاء الفاطميون يعنون بالعلماء فى كل هذه الجوانب . وظلت هذه العناية متصلة فى عهد الظاهر بن الحاكم وعهد ابنه المستنصر . ومما يدل على النشاط فى الدراسات الفلكية والهندسية والفلسفية ما يرويه ابن السكيتى من أنه رأى^(٥) فى خزانة القصر الفاطمى سنة ٤٣٥ لمعهد المستنصر من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة سنة

(١) القفطى ص ٢٨٥ .

٢٨١ .

(٢) القفطى ص ٤١٠ .

(٤) تقلدت مصادر ابن الهيثم فى الجزء الخامس من

تاريخ الأدب العربى ، وراجع ابن أبى أصيبعة ص ٥٥٠

والدميلى ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٥) القفطى ص ٤٤٠ .

(٣) انظر فى حل بن عبد الرحمن الصدفى ألفدميلى

٢١٩ و٢٢٠ و٢٢٤/٤ وابن خلكان ٤٢٩/٣

والقفطى ٢٣٠ وتاريخ الفلك عند العرب للبليو ١٨٦ ،

آلاف وخمسمائة جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس الجغرافي وكرة أخرى من فضة من عمل أبي الحسين الصوفي لعقد الدولة البويهية .

ويشتهر من تلاميذ ابن الهيثم رياضي متفلس هو مبشر^(١) بن فاتك ، ويقول القفطي قرأ عليه فضلاء زمانه . ويتكاثر الفلكيون والمنجمون والرياضيون بأخرة من القرن الخامس الهجري لعهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) يقول المقرئزي : « وكان منجمو الحضرة سنة ٥٠٠ سهلون وابن الحلبي وابن الهيثمي وغيرهم يُطْلَقُ لهم الجارى في كل شهر والرسوم والكسوة لعمل التقويم في كل سنة^(٢) » ثم يذكر أنه فكر في عمل مرصد ضخم فنشط في إقامته ، ويذكر المقرئزي أنه كان يعمل به من المهندسين أبو جعفر بن حسداى والقاضى ابن أبي الميثم والخطيب أبو الحسن على بن سليمان بن أيوب والشيخ أبو النجا بن سند الساعاتى الإسكندراني المهندس وأبو محمد عبد الكريم الصقلي المهندس إلى غيرهم من الحساب الرياضيين والمنجمين . ويعدّد من ذكرناهم أولا ويضيف إليهم ابن دياب والقلمى وأبا نصر تلميذ سهلون . ويتزل مصر لعهد الأفضل أمية بن أبي الصلت المتفلس والأديب الأندلسي ، ويكتب عن مصر وأدبائها وعلمائها رسالة مشهورة باسم الرسالة المصرية ، ومن يذكرهم من الفلكيين المصريين رزق الله النحاس المصري وعلى بن النصر ، وقد ترجم لها القفطي^(٣) ، وذكر من المهندسين المصريين أبا على المهندس ، وله أيضا ترجمة في القفطي^(٤) .

وتعوج القاهرة بالأطباء منذ عصر المرز أول الخلفاء الفاطميين بمصر ، ومن أطبائه موسى^(٥) بن العازار الجراح اليهودي ، ومن أطبائه وأطباء ابنه العزيز أبو عبد الله النجيمي المقدسي^(٦) وأحمد^(٧) بن محمد البلدي وأبوسهل كيسان^(٨) بن عثمان وأعين^(٩) بن أعين ومنصور^(١٠) بن مقشّر . ويخلف العزيز ابنه الحاكم ويتكاثر الأطباء في عهده من مثل إسحق^(١١) بن إبراهيم بن نسطاس وما سويه^(١٢) وكان طيبيا وصيدلانيا وطبيب العيون أبي القاسم

ويروكلمان . ٢٩٠/٤

(١) القفطي ص ٢٦٩ وابن أبي أصيبعة ص ٥٦٠ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٣٣٢ ويروكلمان ٢٩١/٤ .

(٣) خطط المقرئزي في ذكر الرصد ٢٣٣/١ وما بعدها .

(٤) القفطي ص ٢٦٧ وانظر ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٨ .

(٥) القفطي ص ١٨٦ و ٢٣٧ على الترتيب .

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٦ .

(٧) القفطي ص ٤١٠ .

(٨) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٩ .

(٩) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٥ .

(١٠) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٤ .

(١١) ألفوسيل ص ٢٤٠ .

(١٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٦ والقفطي ص ١٠٥ .

عمار^(١) بن علي وله المنتخب في علاج أمراض العين . ومن أهم الأطباء حيثث ابن^(٢) رضوان المتوفى سنة ٤٥٣ هـ ، وجعله الحاكم رئيسا على جميع الأطباء ، وظل في هذه الوظيفة نحو خمسين عاما ، ودوت شهرته في العالم العربي مما جعل علماء يكتاتونه ويرحل بعضهم إليه لمناظرته في مسائل الطب ، ومن رحل إليه من بغداد طيبيا ابن بطلان كما مر بنا في حديثنا عنه في الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ويقول ابن أبي أصيبعة موازنا بينهما : « كان ابن بطلان أعذب لفظا وأكثر ظرفا وأميز في الأدب وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكيمية وما يتعلق بها » . وقد ترجم شرحه لكتاب جالينوس في الطب إلى اللاتينية ، ونشر مرارا شرحه للمقالات الأربع لبطليموس في علم الهيئة والفلك .

وتنشط صناعة الطب في مصر بفضل ابن رضوان وتلاميذه ، وأيضا بفضل دار العلم ، فقد كان الطب يدرس فيها ، إذ يذكر المقرئ في حديثه عنها أن الحاكم أحضر منها في سنة ٤٠٣ جماعة من الأطباء وكذلك من أهل المنطق للمناظرة بين يديه^(٣) . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن المنطق كان يدرس بها هو وما يتصل به من الفلسفة . ومن الأطباء الذين عاصروا ابن رضوان علي^(٤) بن سليمان ، وكان في أيام العزيز والحاكم والظاهر ، وكان متقنا للطب والفلسفة والعلوم الرياضية ، وله في الفلسفة والطب كتب مختلفة . ومن خلفوا ابن رضوان تلميذه إفرائيم^(٥) بن الحسن اليهودي ، وقد حصل من المستنصر وأبناؤه على أموال كثيرة ، وكان شغوقا بالكتب الطبية والفلسفية وغيرها ، وكانت لديه منها خزانة كبيرة ، واشتهر بأنه كان عنده دائما نساخ يكتبون له ما يريد من الكتب ، ويذكر ابن أبي أصيبعة أن تاجرا عراقيا من تجار الكتب اشترى منه عشرة آلاف مجلد ، وهم بمحملها إلى العراق ، وبلغ ذلك الأفضل بن بدر الجمالي في أيام وزارته ، فبعث إليه بالمال الذي اتفق مع العراقي عليه حتى لا تخرج هذه الكتب من مصر ، ويقولون إنه حولها إلى مكتبته الخاصة وكانت تشتمل على خمسمائة ألف مجلد . ومن تلاميذ إفرائيم سلامة^(٦) بن رحمون الطبيب ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه نصب نفسه لتدريس كتب المنطق والفلسفة الطبيعية والهيئة . ونظّل نسع عن أطباء في العهد الفاطمي لا في القاهرة

(٣) خطط المقرئ ٢ / ٢١٨ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٥٠ .

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٧ .

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٨ والتفتي ص ٢٠٩ .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٩ وألدوميل ص ٥٤٨

وبروكلان ٤ / ٣٠٣ .

(٢) التفتي ٤٤٣ وابن أبي أصيبعة ص ٥٦١ وألدوميل

ص ٢٤١ و ٢٥١ وما بعدها .

فحسب ، بل أيضا في المدن مثل الحسين^(١) بن منصور طيب إسا بالصعيد المتوفى في أوائل المائة السادسة . ومن أهم الأطباء بالقاهرة ابن^(٢) العين زرى وله كتاب الكافي في الطب بدأ في تأليفه سنة ٥١٠ وانهى منه سنة ٥٤٧ قبل وفاته بعام واحد ، ويقول ابن أبى أصيعة : « كان له تلاميذ عدة يشتغلون عليه » وترجم منهم لطبيب يسمى بلمظفر^(٣) بن المعروف . ولحق طائفة من تلاميذه العصر الأيوبي .

ولعل فيما قدمنا ما يوضح نشاط الأطباء وأصحاب الرياضيات والطبيعات والفلك بمصر طوال زمن الفاطميين ، ولم نحاول أن نحيل في بيان صلة المصريين حيثذ بالفلسفة على الدعوة الإسماعيلية ، كما يصنع بعض الباحثين المعاصرين ، لأن المصريين لم يعتنقوا هذه الدعوة ، وكان دعائهم يلقنون تلاميذهم الفلسفة في مراحل الدعوة حتى إذا وصلوا بهم إلى المرحلة التاسعة أحالوهم - كما يقول المقرئى - على ما يقرر في كتب الفلاسفة من علم الطبيعات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهي وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية . ومن المؤكد أن المصريين لم يقبلوا على هذه الدعوة بدليل أن دعائهم كانوا دائما من المغرب أو من الشام أو من إيران . ويبدو أنه كان للمصريين نشاطهم المستقل في دراساتهم للفلسفة عن طريق دراساتهم للطب والرياضيات والطبيعات ، ومن يرجع إلى تراجم من عرضنا لهم في ابن أبى أصيعة والقفطى سيجد لهم مصنفات فلسفية متنوعة كثيرة .

وإذا تقدمنا إلى العصر الأيوبي وجدنا مصر تحمل بقوة مسئوليتها في طرد الصليبيين من ديار الشام ، ومع ذلك تظل الحركة العلمية نامية بها بفضل ما أنشأ فيها صلاح الدين وخلفاؤه الأيوبيون من المدارس . وتظل العناية متصلة بعلوم الأوائل ، يدل على ذلك أنه بلغنا بعض البارعين في الدراسات الفلسفية مثل السيف الأمدى المتوفى سنة ٦٣١ وأفضل^(٤) الدين الخرنجى المتغلب المتوفى سنة ٦٤٢ وكان يتقن العلوم الفلسفية والدراسات الإسلامية وله تصانيف في المنطق والطبيعات ، ويقول ابن أبى أصيعة إنه قرأ عليه بعض الكليات من كتاب القانون في الطب لابن سينا ، وقد ولاه السلطان الصالح نجم الدين أيوب قضاء مصر سنة ٦٣٨ بعد عزل شيخ الإسلام وإمام الأئمة شرقا وغربا - كما يقول السيوطى - عز الدين بن عبد السلام . ولعل

(١) حن الحضرة ٥٤٠/١ والطالع السعيد للإفريقى

(٢) ابن أبى أصيعة ص ٥٧١ .

١٢٠ .

(٤) ابن أبى أصيعة ص ٥٨٦ وحسن الحضرة ٥٤١/١

وطبقات الشافعية للسبكي ١٠٥/٨ .

(٢) ابن أبى أصيعة ص ٥٧٠ .

في ذلك ما ينقص كل ما قيل عن الأيوبيين من أنهم وقفوا الدراسات في علوم الأوائل ولم يشجعوا عليها . فقد قدم السلطان الصالح نجم الدين أيوب أحد علمائها المتعمقين في مباحثها على جميع فقهاء زمنه الشافعية . ويبرع في عهد الأيوبيين مهندس رياضي كبير هو قيصر^(١) بن أبي القاسم المتوفى سنة ٦٤٩ وهو من أصفون بالصعيد ، كان فقيها حنفيا عالما بالقراءات وتعلق بالرياضيات والموسيقى وأنواع الحكمة ، وهو الذي أقام لأمر حجة نواخير نهر العاصي البديعة التي لا تزال تنحدر المياه فيها من علوشا حتى إلى اليوم ، مؤلفة بذلك منظرا بالغ الروعة . وكان فلكيا مبدعا ، فأنشأ كرة سماوية عظيمة لا تزال محفوظة إلى الآن في المتحف الوطني لمدينة نابولي بإيطاليا .

وكان الأيوبيون يهتمون بالطب والأطباء منذ صلاح الدين ، وقد بدأ هذا الاهتمام باغناذه مارستانا ضخما في القاهرة وفيه يقول ابن جبير : « مما شاهدناه بالقاهرة من مفاخر السلطان صلاح الدين المارستان وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا »^(٢) ، ويذكر أنه عين له قِيَمًا وضع لديه خزائن العقاقير . ويقول إنه وُضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسوة ، وبين يدي القيم خدّمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكثرة وعشا ويقدمون لهم ما يلزمهم من الأغذية والأدوية ، ويذكر أن المارستان قسما خاصا بالمرضى من النساء ومعهن من الخدم من يتكفل بحاجتهن ، وقسما خاصا بالهنائين على مقاصيره شبابيك الحديد . ويقول ابن جبير إن بالفسطاط مارستانا آخر على مثال ذلك الرسم بعينه . وطبيعي أن يحتاج المارستانان إلى كثير من الأطباء . ولابد أن نلاحظ أن المارستان في القاهرة وبغداد جميعا كان دائما مدرسة للطب . كما كان مستشفى . بالضبط شأن القصر العيني بالقاهرة حديثا كما أسلفنا . وأول من يلقانا منهم الشيخ السديد^(٣) أبو المنصور عبد الله الذي خدم الخلفاء الفاطميين ثم صلاح الدين وطالت حياته حتى سنة ٥٩٢ وكان رئيسا على سائر المتطببين بمصر حتى وفاته ، وعاصرته طائفة من الأطباء اليهود مثل ابن^(٤) جميع وكان له مجلس لمن يشتغلون عليه بصناعة الطب ، ومثل الموفق بن شوعة المتوفى سنة ٥٧٩ وأبي البيان بن المدور المتوفى سنة ٥٨٠ وأبي الناقد الكحلّ طبيب العمون المتوفى سنة ٥٨٤ وموسى بن ميمون المتوفى سنة ٦٠١ . وتكاثر الأطباء المصريون في عهد صلاح الدين وبعده

(١) انظر في قيصر حسن الحضارة ٥٤٢/١ والطالع

السعيد ص ٢٥٩ وأندوسيل ص ٣٠٥ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٥١ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٧٢ وحسن الحضارة

٥٤٠/١ .

(٤) انظر في ابن جميع ومن تلاه من أطباء اليهود ابن أبي

أصيبعة ص ٥٧٦ وما بعدها وأندوسيل ص ٣٢٠ وما بعدها

وص ٥٦٦ .

مثل أبي^(١) البركات بن القضاى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ وجال^(٢) الدين ابن أبي الحوافر القيسى وقد ولاه السلطان عثمان بن صلاح الدين رئاسة الأطباء بعد الشيخ السديد وظل في هذه الوظيفة حتى عهد الكامل . وكان ابنه فتح^(٣) الدين أحمد ماهراً في الرمد وطب العيون ، ويقول الأندلسي إنه ألف كتاباً يحتوي على ١٥ فصلاً في علم الرمد . وتكلم في أحد الفصول عن عملية الكتاراكت . وعاش إلى عصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وولى أحياناً رئاسة الأطباء . ومن رؤساء الأطباء لعهد الكامل نفيس^(٤) الدين بن الزبير المتوفى سنة ٦٣٦ هـ ويقول ابن أبي أصيبعة إن أولاده مقيمون في القاهرة ومشهورون بصناعة الكحل ومنتزبون في علمها وعملها .

ويستمر ابن أبي أصيبعة في ذكر الأطباء المصريين لعهد الأيوبيين . ويختم تراجمهم بترجمة لابن^(٥) البيطار المالقي الأندلسي المولد المتوفى سنة ٦٤٦ هـ وقد بارح موطنه في العشرين من عمره وجاب بلاد المغرب دارساً لما فيها من نباتات ، وألقى عصاه بمصر فجعله السلطان الكامل رئيساً على جميع العشائين ، وهو بحق إمام النباتيين لزمه ، وقد سافر إلى بلاد الروم والإغريق والشام دارساً لأنواع النبات ، وقرأ ما كتبه ديسقوريدس وغيره من النباتيين . وهو بحق يعد أعظم الصيدلانيين قاطبة قبل العصر الحديث ، وله كتابان : كتاب الجامع في الأدوية المفردة وبه أكثر من ١٤٠٠ دواء منها ثلاثمائة لم يتناولها صيدل قبله ، وله في نفس الموضوع كتاب ثان هو المعنى في الأدوية المفردة ، وقد قدم الكتابين للسلطان الصالح نجم الدين أيوب . وإذا كانت مصر أتاحَت لابن البيطار المالقي الأندلسي مجاًها العلمي الخصب أن يؤلف فيها كتابيه السالفين في الأدوية فلها أتاحَت لأحمد بن يوسف التيفاشي المغربي المتوفى سنة ٦٥١ هـ أن ينزل بها في أواخر القرن السادس الهجري ، وهو لا يزال يافعاً صغير السن ويتكوّن فيها علمياً ، ويعود إلى بلده ، ولا يلبث أن يعود إلى مصر ويتولى بها القضاء ، وقد بدأ مبكراً بدراسة التاريخ الطبيعي واختار علم المعادن مع عنايته بالصيدلة والطب ، ويؤلف كتابه «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار» وفيه يتناول خمسة وعشرين حجراً في خمسة وعشرين فصلاً^(٦) ، ويسوق في كل حجر كالماس والياقوت

(٥) انظر فيه ابن أبي أصيبعة ص ٦٠١ وحسن المذاكرة

٥٤٧/١ وأندلسي ص ٤١٤ وما بعدها .

(٦) نشر كتابه «أزهار الأفكار» في القاهرة الدكتوران

محمد يوسف ومحمود بسوي خاضعي بالمهية المصرية العامة

للكتاب ، وراجع فيه مقدمتها وما بها من مراجع .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٨٤ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٥ وأندلسي ص ٣٢٢ ،

٣٢٦ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٦ .

مثلا ما ذكره جالينوس أو غيره من فلاحفة الإغريق ، ويتحدث عن معدنه وتكونه وخواصه ومناضه ، مما قد يدخل في المعارف الطبية ، ويتصل بهذه المعارف كتابه « المنقذ من التهلكة في دفع مضار السمائم المهلكة » . ويلقانا في عهد السلطان الكامل المنصور^(١) بن بركة الذهبي الكامل وكتابه « كشف الأسرار العملية لضرب النقود المصرية » وفيه يتحدث عن إعداد المعادن وتصفيها وطرق استعمالها في سك النقود ، ويتناول دار سك النقود وواجبات مَنْ بها من الموظفين .

وتظل لمصر قيادتها العلمية في زمن المماليك ، ويظل يترها العلماء من الشرق والغرب ، وتظل تنعى بالفلسفة^(٢) ، ويذكر السيوطي حشدا^(٣) من متفلسفيها وعلماء المعقولات بها مثل شمس الدين محمد بن حمود الأصمباني المتوفى سنة ٦٨٨ وتلميذه تاج الدين البارنباري المتوفى سنة ٧١١ وشمس الدين أبي التثاء محمود بن عبد الرحمن الأصمباني المتوفى سنة ٧٤٩ وعلاء الدين علي بن أحمد المدرس بمدرسة برقوق المتوفى سنة ٧٩٠ وابن جماعة عز الدين محمد بن شرف المتوفى سنة ٨١٩ والكاتبي محيى الدين محمد بن سليمان المتوفى سنة ٨٧٩ .

وظل كثير من المصريين يشتغلون بالطبيعات والرياضيات ، ومن اهتم بالتاريخ الطبيعي يملك القبحي الذي صنف حوالى سنة ٦٨٠ كتابه « كثر التجار في معرفة الأحجار » ويقول الدوميل : « لهذا الكتاب أهمية خاصة إذ نجد فيه توضيحا لاستعمال البوصلة عند الملاحين وطرق استعمالها^(٤) » . ويظن أن معرفة المصريين والعرب بها ترجع إلى تاريخ أقدم من ذلك ، ربما إلى القرن السادس الهجرى المقابل للثاني عشر الميلادى ، بل ربما إلى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى المقابل للقرن الخامس الهجرى . والمهم أن مصر هى التى سجلت اكتشافها عند عالمها يملك . وأكبر الظن أنها هى التى أعدت لصنعها ، وصنفتها بفضل اشتغالها بالملاحه في البحرين المتوسط والأحمر من قديم . وكان ملاحوها في عصر المماليك يغدون ويروحون في البحرين للتجارة والغزو أحيانا على نحو ما هو معروف عن تجارهم مع موانئ إيطاليا وغزوههم لقبرص وطردهم للبرتغاليين من شواطئ اليمن بأخرة من أيام المماليك . على كل حال يرمز اكتشاف

(٣) انظر حسن المحاضرة للسيوطي ١/ ٥٣٩ وما بعدها .

(١) انظر فيه الدوميل ص ٣٠٨ ، ٣١٠ .

(٤) الدوميل ص ٣١٤ وما بعدها .

(٢) راجع الجبر المحيط لأبي حيان ٥/ ١٤٨ - ١٥٠

تفسير سورة يونس آية ٢٧ .

مصر للوصول إلى نشاط المعارف العلمية فيها طبيعة ورياضية . ويلقانا بها محمد^(١) بن موسى النعماني المتوفى سنة ٨٠٨ وموسوعته في علم الحيوان التي سماها « حياة الحيوان الكبرى » معجم للحيوان مرتب أبجديا حسب أنحائه وأنواعه ، ومع كل حيوان خصائصه العلمية والطبية وطرف من الحديث النبوي والأمثال والأشعار وتراجم لبعض العلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء ، وهو مطبوع في مجلدين ومترجم إلى الإنجليزية .

وارتقى حيثذ فنّ المعمار وما يتبعه من الهندسة رقبا بعيدا ، لكثرة الأبنية التي شادها سلاطين المالك منذ الظاهريين ، وفي مبانیه يقول ابن تقي بردي : « بُني في أيامه بالديار المصرية ما لم يُبْنَ في أيام الخلفاء المصريين (الفاطميين) ولا ملوك بني أيوب من الأبنية والرُّباع والخانات والقواسم والدور والمساجد والحمامات^(٢) » . وتوالى السلاطين بعده وخاصة قلاوون يكتثرون من الأبنية الرائعة ، وكل ذلك كان يقوم عليه مهندسون مصريون بارعون مما لا تزال نرى آثاره في مساجدهم الباقية . وينتوّه السخاوي بمهندس مصري بارع لعهد السلطان برقوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ) هو شمس الدين الطولوني ، ويقول : « كان المول عليه وعلى أبيه في العائر السلطانية^(٣) » . وظل العلماء المصريون يعنون بالرياضيات والفلك ، ويشهر منهم رياضي كبير هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الهائم^(٤) الفرضي من علماء القرن التاسع الهجري ، وله كتب كثيرة في الحساب والجبر ذكر مخطوطاتها بروكلمان ، منها في الحساب مرشد الطالب إلى أسس المطالب ، كان واسع الانتشار . وفي دار الكتب المصرية بعض شروح له وبعض مخطوطات مختلفة من كتب ابن الهائم الرياضية .

وظل لمصر نشاطها زمن المالك في دراسة الطب والتأليف فيه ، وكان مارستان القاهرة الذي أنشأه صلاح الدين يُعَدُّ أكبر معهد لتدريس الطب ، وقد تخرّج فيه كثيرون مثل ابن أبي أصيبعة^(٥) المتوفى سنة ٦٦٨ صاحب كتاب طبقات الأطباء ، وهو كتاب نفيس إذ يشتمل

(٤) انظر ابن الهائم في الشلوات ١٠٩/٧ والفضو اللاع ٢ رقم ٤٤٩ وألموسيل ٥٠٦ ، ٥١٣ وبروكلمان (الطبعة الألمانية) ١٢٥/٢ .

(٥) راجع ابن أبي أصيبعة في النجوم الزاهرة ٢٢٩/٧ والشلوات ٣٢٧/٥ وأيضا ألموسيل (انظر الفهرس) ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) راجع في النعماني حسن الماضرة ٤٣٩/١ والفضو اللاع .. رقم ٢٠٤ وشلوات الذهب ٧٩/٧ واليدر الطالع ٢٧٢/٢ وألموسيل ص ٥٠٧ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) النجوم الزاهرة ١٩٦/٧ .

(٣) الفضو اللاع ٢٢١/١ .

على ترجمة نحو أربعمائة طبيب عربى ، ويمكن أن نضم إليه الأطباء الذين كانوا مُلتفِئِينَ بالظاهر يبرس مثل شهاب^(١) الدين بن فتح الدين القيسى ورشيد^(٢) الدين أبى حليقة النصرانى . وما يلبث أن يلى السلطنة بعد يبرس المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) فينشئ بإستانا ضخما يقول فيه ابن تغرى بردى : « وهذا الجارستان وأوقافه وما شرطه قلاوون فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديما ولا حديثا شرقا ولا غربا^(٣) » ، وقد جعله أقساما كبيرة : قسما للمرضى بالحميات ، وقسما للرمم ومرضاه ، وقسما للجرحى ، وقسما لمن به إسهال ، وجعل فيه قسما للنساء ، وأمكنة للأدوية وتركيبها ، وأمكنة لإعداد الطعام وأخرى للمحاصيل ، وجعل فيه فراشين لخدمة الرجال وفراشات لخدمة النساء ونصب فيه الأسرة للمرضى وأمدّها بكل ما تحتاج إليه من فُرش . وأهم من ذلك كله أنه جعل فيه قاعة لرئيس أطبائه ، كى يلقى فيها دروسه على طلاب الطب^(٤) . وبذلك كان المارستان مستشفى وكلية طب معا ، وقد شاهده ابن بطوطة بعد وفاة قلاوون بنحو أربعين عاما سنة ٧٢٧ للهجرة فقال : « أما المارستان عند قبر قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أعيد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصره . ويُذكر أن مجبّاه (نفقاته) كان ألف دينار كل يوم^(٥) » . وتلقانا في عهد قلاوون بجانب كلية الطب التى كانت ملحقة بمارستانه كما ذكرنا مدرسة للطب سميت المدرسة^(٦) المذهبية نسبة إلى منشئها الطبيب مذهب الدين محمد بن أبى حليقة المار ذكره في عهد يبرس ، وكان قد خدمه مع أبيه وأسلم في أيامه وسمى محمدا ، ويقول ابن أبى أصيبعة : مولده سنة ٦٢٠ وإنه قرأ على أبيه الصناعة الطيبة وصور أقسامها الكلية والجزئية وحصل معانيها العلمية والعملية^(٧) .. وبلغ من ازدهار دراسة الطب حيثئذ أنه كان يدرس في المساجد الجامعة ، إذ نجد السلطان لاجين (٦٩٦ - ٦٩٧ هـ) يعمر جامع ابن طولون ، ويرتب فيه دروسا - كما مر بنا - للفقهاء على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث النبوى ، وبجانب ذلك يرتّب فيه درسا للطب^(٨) ، ومن درسوا فيه بعد زمنه في القرن الثامن الطبيب شمس^(٩) الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى المتوفى سنة ٧٧٦ .

٢٠/١ .

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٨٥ .

(٢) خطط المقرئى ٣/٣٧١ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٩٠ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٩٨ .

(٣) النجوم الزاهرة ٧/٣٢٧ .

(٤) خطط المقرئى ٣/١٤٨ .

(٤) راجع في هذا المارستان خطط المقرئى ٣/٣٨٦ .

(٥) حسن المحاضرة ١/٥٤٦ .

وما يملأها .

(٥) رحلة ابن بطوطة (طبع المطبعة الأزهرية)

ويكنى ليان ازدهار دراسة الطب حيث أن تنتج مصر شيخ الأطباء لزمه علاء الدين على بن أبي الحزم المعروف باسم ابن النفيس^(١) العلامة في فنه الذي لم يكن في زمنه من يضاهيه في الطب والملاج والعلم ، كما يقول ابن تغرى بردى ، ويكفيه فخراً ما ذكره ألدوميل وغيره من الغربيين من أنه اكتشف لأول مرة الدورة الدموية الثانية ، مسجلاً بذلك كشفاً طلياً خطيراً لم يستطع الأطباء منذ جالينوس إلى زمنه اكتشافه . ومن كتبه « الشامل في الطب » و« المذهب في الكحل » و« شرح القانون في الطب لابن سينا . وقد توفى سنة ٦٨٧ بعد أن أوقف داره وأملاكه وجميع ما يتعلق به على مارستان قلاوون الذي كان يعمل به رئيساً لأطبائه . وولى رئاسة الأطباء بعده مذهب الدين بن أبي حليقة المار ذكره ، ويسرد السيوطي في حسن^(٢) المحاضرة أسماء طائفة من الأطباء في القرن الثامن الهجرى . ومن الأطباء الذين لم يذكرهم محمد^(٣) بن الألفاني المتوفى سنة ٧٤٨ ويبدو أن تخصصه الأكبر كان في طب العيون ، ومن مصنفاته في الرمد « كشف الغين في أحوال العين » وله كتاب في الطب المترلى سماه « غية اليب » وكتاب في الفصد سماه « نهاية القصد » وكتاب في الأحجار النفيسة سماه « نخب الذخائر » ومن كتبه : « إرشاد القاصد إلى أقصى المقاصد » وهو مختصر جامع لفنون شتى تبلغ ستين فناً نشره شبرنجى في المكتبة الهندية . واشتهر بعده في طب العيون صدقة^(٤) بن إبراهيم الشاذلى ، ويطلب أن يكون تلميذه إذ هو من أطباء النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى المقابل للقرن الرابع عشر الميلادى . ومما يدل على شهرة مصر لأبام الماليك في الطب والأطباء ما يذكره ابن إياس في كتابه بدائع الزهور من أن السلطان بايزيد العثمانى أرسل في سنة ٧٩٥ رسولا إلى السلطان برقوق يسأله أن يبعث إليه بطبيب مختص بأمراض المفاصل فأرسل إليه رئيس الأطباء ابن صغير ومعه أدوية كثيرة لعلاج^(٥) . ويظل هذا النشاط الطبى في مصر حتى نهاية زمن الماليك إذ تلتقى في زمن قانصوه الغورى (٩٠٦ - ٩٢١ هـ) بالطبيب محمد القوصى ، وإليه قُسم كتابه « كمال الفرحة في دفع السموم وحفظ الصحة » ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٥٤٣ وما بعدها .

(٣) البدر الطالع للشوكافى ٧٩/ ٢ وانتظر ألدوميل ص ٥٠٥ ، ٥١٠ .

(٤) ألدوميل ص ٥١٠ .

(٥) راجع بدائع الزهور في السنة المذكورة .

(١) انظر في ابن النفيس النجوم الزاهرة ٧/ ٣٧٧

والسبكي ٨/ ٣٠٥ وحسن المحاضرة ١/ ٥٤٢ والشذرات

٥/ ٤٠١ وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٣٤ وروضات الجنات

٤٩٤ والدارس في أخبار المدارس ٢/ ١٣١ وألدوميل

ص ٣٢٣ ، ٣٢٦ وكتاب بول غليونجى ع .

ومعروف أن عناية العرب بالبيطرة ومداواة الخيل قديمة ، وكان طبيعيا والطب ينشط في مصر النشاط السالف في أيام المماليك أن يُعنى بعض أطبائها بالطب البيطرى ، ومن خير ما ألف فيه كتاب لطبيب بيطرى كان المشرف على خيل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، هو أبو بكر^(١) بن المنذر بن بدر المتوفى سنة ٧٤١ واسم الكتاب «كامل الصناعتين: الزردقة والبيطرة» والزردقة دراسة الخيل والبيطرة : علم أمراض الخيل وأدويتها وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية الدكتور بيرون ، وترجمه إلى الألمانية حديثا فروزر . ولأبدمر^(٢) الجلودكى المتوفى سنة ٧٤٣ (وقبل بل سنة ٧٦٣) كتب في المعادن منها ، الصباح في علم المفتاح وهو مطبوع في بومباي ، وكتاب نتائج الفكر في أحوال الحجر وهو مطبوع في القاهرة .

وتكاد تتوقف هذه الحركة العلمية الدائبة في زمن العثمانيين . ولكن تظل منها بقايا غير قليلة في الجامع الأزهر وفي بعض المدارس . وتظل مصر ترعى العلوم الإسلامية واللغوية وبعض ما تبقى فيها من علوم الأوائل ، ومن يرجع إلى كتاب الكواكب السائرة في علماء المائة العاشرة لنجم الدين الغزى المتوفى سنة ١٠١٦ وكتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر للمعفى المتوفى سنة ١١١١ سجد فيها كتيرين يعنون بالرياضيات والفلك مثل عبد القادر المتوفى الفلكى بالمدرسة الغورية المتوفى سنة ٩٨٠ ومصطفى بن شمس الدين الدماطى المتوفى سنة ١٠٣٨ وعبد الله المقدسى الأزهرى المتوفى سنة ١٠٧٠ . ويسوق الجبرقى في تاريخه تفاصيل كثيرة عن الرياضيين والفلكيين في القرن الثانى عشر الهجرى ويذكر في طليعهم رضوان^(٣) الفلكى المتوفى سنة ١١٢٢ صاحب الزيج الرضوانى ، ويقول الجبرقى إنه حرره على أصول الرصد السمرقندى وزججه المشهور الذى صنعه أوليغ بك سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٧م . وبنوه الجبرقى بأن أباه كان يملك نسخة من هذا الزيج النفيس ، وكذلك كان يملك نسخة منه حسن^(٤) أفندى قطه . فكان بالقاهرة منه نسختان غير النسخة التى كان يملكها - فيما نظن - رضوان الفلكى . ويشيد الجبرقى بأبيه في الرياضيات والفلك ، ويتلمذ من تلاميذ رضوان هو جمال الدين يوسف^(٥) الكلارجى المتوفى سنة ١١٥٣ ويقول إنه اخترع ما لم يسبق به ، ويذكر أنه ألف كتابا في الغلال ورسم المنحرفات والبساط والمزاويل والأسطحة ، وأن له في منازل القمر كتابا أسماه «كتر الدرر في أحوال منازل القمر» .

(١) التوسيل ص ٥٠٥ .

(٤) الجبى ٧٠/٢ .

(٢) التوسيل ص ٥٠٦ ، ٥١٣ .

(٥) الجبى ١٦٨/١ .

(٣) تاريخ الجبى (طبعة بولاق) ٧٤/١ .

وبنوه طويلا بحسب^(١) المجلد المتوفى سنة ١١٧٠ هـ ومعارفه في الجبر والمقابلة والحساب ومصنفاته ، كما ينوه بتلميذه محمد^(٢) بن موسى الجناحي المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ/ ١٧٨٦ م ومؤلفاته في الرياضيات . ويذكر الجبري في القرن المذكور أسماء رياضيين آخرين مما يدل على أن مصر ظلت تعنى بالرياضيات والمهنة والفلك طوال أيام العثمانيين . ويبدو أن الجبري وغيره ممن ترجموا لعلماء القرنين السابقين لتاريخه العاشر والحادي عشر لم يعنوا بالترجمة للأطباء . إلا ما قد يذكرونه عفا مثل شهاب الدين بن سلامة^(٣) القليوبي المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ وله عدة كتب طبية كانت رائجة في زمنه ، وأهم من هذه الكتب وكان أكثر منها رواجاً كتاب التذكرة الطبية للأنطاكسي^(٤) داود بن عمر المتوفى سنة ١٠٠٨ . ومن يقرأ الجبري وتراجمه في القرن الثاني عشر الهجري يراه يذكر طبييا يسمى قاسم^(٥) بن محمد المتوفى سنة ١١٩٣ وكان عناية مصر بالطب ظلت إلى أواخر العهد العثماني ، وليس ذلك فحسب ، فإن الجبري يذكر أنه عُهد إليه تدريس الطب بالمارستان المنصوري ، ومعنى ذلك أن مارستان المنصور قلاوون الذي مر بنا ذكره وإشادة ابن بطوطة وغيره به ظل قائما طوال أيام العثمانيين ، وظل قائما معه تدريس الطب لطلابه فيه ، بالضبط كما كان الشأن أيام المنصور قلاوون ومن تلاه من المماليك .

(ب) علم الجغرافيا

ولم نتحدث حتى الآن عن علم الجغرافيا ونشاط مصر فيه والمصريين . ولعل أول ما يلقانا من ذلك ما نقرؤه في القسم الثالث من كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ للهجرة وفيه يتحدث عن خطط القسطنطينية والإسكندرية . ولما عاصره محمد بن يوسف الكندي المتوفى سنة ٢٥٠ كتاب بعنوان الخطط^(١) سقط من يد الزمن . ونزل مصر واستقر بها في سنة ٣٣٤ المسعودي على بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ ويشتهر بكتاباتة التاريخية وحشده فيها كثيرا من المعارف الجغرافية عن الأرض وجبالها وأغوارها وبحارها وأنهارها وسكانها وأحوالهم

(٥) الجبري ٥٤/٢ .

(١) الجبري ٢١٩/١ .

(٦) تاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي ترجمة

(٢) الجبري ١٢٥/٢ .

صلاح الدين عثمان هاشم (نشر لجنة التأليف والترجمة

(٣) علامة الأثر ١٧٥/١ .

والنشر) ١٦٨/١ .

(٤) انظر مصادر ترجمة داود الأنطاكسي في قسم الشام

الاجتماعية . وفي مصر أو بعبارة أدق في الفسطاط نُقِّح كتابه « مروج الذهب » سنة ٣٣٦ وهو في التاريخ العام للأمم والدول وبه معلومات جغرافية كثيرة . وفي الفسطاط ألف كتابه « التنبيه والإشراف » وهو ملء بالمعارف الجغرافية الفلكية والطبيعية والوصفية ، وبه معلومات قيمة عن مصر وما بها من محصولات وتجارات وصناعات . وتدخل مصر في العهد الفاطمي وسرعان ما ترسل الدولة الفاطمية بابتين سليم^(١) الأسواني في سنة ٣٦٥ إلى النوبة في مهمة دبلوماسية ويتغلغل في السودان ويؤلف كتابه « أخبار النوبة والمُقرّة وعلوّة والبجّة والنيل » يصف فيه تلك البلاد وسكانها ، وينقل عنه المقرئى وابن إياس مرارا ، وهو أول كتاب يصور المجرى الأهل للنيل . ويكتب عن السودان بعده بفترة قليلة رحالة مصرى هو الحسن المهلبى في كتابه « المسالك والممالك » الذى أهداه إلى العزيز الفاطمي سنة ٣٧٥ ولذلك قد يسمى بالعزيزى وهو - كما يقول آدم ميتز - يصف بلاد السودان وصفا دقيقا . وهو أكبر مصدر اعتمد عليه ياقوت في كلامه عن السودان^(٢) .

وتعود مصر في القرن التالى إلى الكتابة عن الخطط أو تخطيط المدن ويؤلف القضاى^(٣) كتابه خطط مصر . ويخلفه في القرن السادس المجرى جغرافى مصرى كبير هو أبو الفتح نصر^(٤) بن عبد الرحمن الإسكندراني المتوفى سنة ٥٦١ ويشيد ياقوت في مقدمته لمعجم البلدان بكتاب جغرافى له سماه « ما اختلف واختلف من أسماء البقاع » وله كتاب ثان أهم منه ألفه توضيحا له سماه « كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار المذكورة في الأخبار والأشعار » ومنه نسخة محفوظة في مكتبة المتحف البريطانى تضم ٢٩٣٨ سما ولاحظ وستفلد ناشر معجم البلدان أن ياقوت ضمن معجمه مادة هذا الكتاب^(٥) . ويترى مصر في أواخر القرن السادس المجرى عبد^(٦) اللطيف البغدادى ويُعنى بتأليف كُتُب عنها يسميه : « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » . والكيب موزع على مقالتين تحدث مؤلفه في أولاهما عن طبيعة مصر وسكانها ونباتها وحيوانها وآثارها وعمرانها ، وفي الثانية تحدث عن النيل وعما أصاب مصر في مقامه بها من قحط ووباء مروعين .

للعماد الأسيافى (قسم مصر) ٢٢٥/٧ ونية الرواة

للنوطى ص ٤٠٣ وكراشكوفسكى ١/٣٢٢ .

(٥) انظر كراشكوفسكى ١/٣٢٣ ومقدمة وستفلد

للجزء الخامس من معجم البلدان .

(٦) ابن أبى أصيبعة ١٨٣ وكراشكوفسكى ١/٣٤٥

(١) كراشكوفسكى ١/١٩٢ وريوكلمان ٤/٢٥٣ .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع المجرى لآدم ميتز

ترجمة د. أبى ريدة ٢/٧-٨ .

(٣) كراشكوفسكى ١/١٦٩ وابن خلكان ٤/٢١٢ .

(٤) انظر مقدمة كتاب معجم البلدان وخريدة القصر

ولا يلقانا بمصر جغرافيون مهمون في القرن السابع الهجرى وينكاثرون في القرن الثامن ، وفيه نلتقى بـابن^(١) المتوج محمد بن عبد الوهاب الزبيرى المتوفى سنة ٧٣٠ وكتاب له عن خطط مصر إلى أعوام بصح وعشرين وسبجاة . وكان في زمنه التورى^(٢) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٣٣ صاحب الموسوعة الكبرى : « نهاية الأرب » التى مر ذكرها في الحركة العلمية والتى أهداها إلى السلطان محمد الناصر بن قلاوون ، وهى مقسمة إلى خمسة فنون ، والفن الأول عن السماء والأرض ، وهو مكتظ بالمعلومات الجغرافية عن الأرض وتكوينها الطبيعى وبلدانها وسكانها . وكان يعاصره ابن فضل^(٣) الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ رئيس ديوان الإنشاء للسلطان الناصر وله أيضا موسوعة كبرى مر ذكرها في الحركة العلمية سماها « مسالك الأبصار » وفيها عرض جغرافى عام للبلدان والأم الإسلامية والأجنبية في الغرب والشرق . وتهم الدولة في هذا القرن الثامن بعمل روكلات أو عبارة أخرى بعمل سجلات لمسح الأراضي المصرية ، ومن أهمها الروك^(٤) الناصرى سنة ٧١٥ في عهد السلطان الناصر بن قلاوون . ويظل النشاط الجغرافى بمصر في القرن التاسع الهجرى ، ونلتقى في أوائله بـابن دلقاق^(٥) والى دمياط وبعض بلدان الشام المتوفى سنة ٨٠٩ وهو يعنى بخطط مصر في كتابه « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » وتحفظ دار الكتب المصرية منه بالجزءين الرابع والخامس وفيها يصور خطط القاهرة والإسكندرية . ويعنى معاصره القلقشندى^(٦) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على الكاتب بديوان الإنشاء المتوفى عام ٨٢١ بوصف جغرافى متفرق لمصر والبلاد العربية وبلاد التار والهند والسودان والحشة وبعض البلدان الأوربية الغربية والشرقية .

ولا نلبث أن نلتقى بالمقرئى^(٧) تقى الدين بن علاء الدين المتوفى سنة ٨٤٥ وكتابه « المواعظ والاحتبار بذكر الخطط والآثار » المشهور باسم الخطط موسوعة كبرى لمصر وجغرافيتها وخططها

(٥) الثلثات ٨٠/٧ وكراشكوفسكى ٤٧١/٢ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٦) انظر مراجع القلقشندى في ترجمته بالتفصيل المخلص .

(٧) الضوء اللامع للسقاوى ج ٢ رقم ٦٦ والنيل الصافى لابن تقي بردى (طبع دار الكتب المصرية) ٣٩٤/١ والسيوطى ٥٥٧/١ والشوكانى ٧٩/١ والمؤرخون في مصر لزيادة ص ٣ .

(١) الدرد الكائن لابن حجر (نشر دار الكتب الحيتية) ١٥٥/٤ وحسن الحضارة للسيوطى ٥٥٥/١ وكراشكوفسكى ٣٨٥/١ .

(٢) ابن حجر ٢٠٩/١ والسيوطى ٥٥٦/١ والخطط الجديدة لعل مبارك ١٥/١٧ وكراشكوفسكى ٤٠٨/١ .

(٣) انظر مراجع ابن فضل الله في ترجمته بالتفصيل المخلص .

(٤) كراشكوفسكى ٣٨٥/١ .

وتاريخها وحضارتها وآثارها ومساجدها وكنائسها وأديرتها ومنشأتها وأعيادها وأحوالها الاجتماعية .
ويعى خليل ^(١) بن شاهين الظاهري المتوفى سنة ٨٧٢ في كتابه « زبدة الممالك في كشف الطرق
والممالك » برسم الجغرافية الإدارية لأراضى دولة المالك في مصر والشام . ويختم القرن التاسع
المجربى بابن الجيعان ^(٢) المتوفى سنة ٩٠٢ وله « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » ووصف
لرحلة السلطان قايتباي في سنة ٨٨٣ إلى بلاد الشام سماه « القول المستطرف في سفر مولانا
الألف » . وينتهى الجغرافيون في العهد للمملوكى بابن ^(٣) إياس محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٣٠
وله كتاب « نشق الأهرار في عجائب الأقطار » ولا يزال غير مطبوع ، وفيه يتحدث عن الجغرافية
الفلكية والطبيعة لمصر والعالم ، ومن أهم ما يشتمل عليه ثبت بمقاييس النيل وفيضانه على مر
السنين .

ويكاد يتوقف هذا النشاط الجغرافي بمصر في عهد العثمانيين ، إذ تحولت ولاية تابعة لهم ، ولم
بعد أنبأوها يشعرون بمكانتهم التي كانت لهم زمن المالك ، إذ كان يدين جزء كبير لهم من البلاد
العربية بالطاعة وفي مقدمته الشام والحجاز . ومع ذلك لا ينعدم هذا النشاط ، بل تظل منه بقايا
إذ نجد ابن ^(٤) زنبيل المتوفى سنة ٩٦٠ يصنف في الجغرافيا كتابا أسماه « تحفة الملوك والرخائب لما في
البر والبحر من العجائب » ولا يزال مخطوطا لم ينشر . ونلتقى في القرن الحادى عشر بالسنهورى ^(٥)
محمد بن أحمد وله كتاب في منازل البريد بين القاهرة ومكة . وكان بعاصره شهاب الدين القليوبى
المر ذكره بين أطباء الحقبة العثمانية وله كتاب جغرافى في مناسك الحج ومنازله ورسالة في معرفة
أسماء البلاد : أطوالها وانحرافاتا ، وتبدو الرسالة كأنها زيج صغير ، وهى بذلك تدخل في الجغرافية
الفلكية ، كما يدخل النشاط في الفلك والمهنة الذى عرضنا له مع الرياضيات عند الفلكى والرياضى
الكبير رضوان وأمثلة من الفلكيين . وبذلك ظلت الجغرافية الفلكية ناشطة وخاصة فيما يتصل
بالزيجات ، ونشطت معها كتب الرحلات ، ومن أهمها رحلة لمصطفى ^(٦) أسعد اللقبسى الدماطى
المتوفى سنة ١١٧٣ جعل عنوانها : « موانع الأنس برحلى لوادى القدس » وقد استغرقت الرحلة

-
- (١) الضوء اللامع ج ٣ رقم ٧٤٨ وزيادة ص ٢٣ .
(٢) كراتشكوفسكى ١٧٢/٢ .
(٣) الكواكب السائرة ١٢٠/١ وكراتشكوفسكى
(٤) زيادة ص ٤٦ وكراتشكوفسكى ٤٩٠/٢ ودائرة
(٥) زيادة ص ٧٥ وتاريخ الأدب الجغرافى العربى
(٦) كراتشكوفسكى ٦٨٣/٢ .
(٧) كراتشكوفسكى ٦٩٢/٢ .
(٨) انظر فيه تاريخ الجغرافى ٢٢١/١ - ٢٤٢ وراجع
كراتشكوفسكى ٧٥٥/٢ .
المعارف الإسلامية .

سنة أشهر في سنة ١١٤٩ بدأها من موطنه دمياط إلى القدس ، وعُني باختصار كتاب الأنس الجليل في زيارة بيت المقدس والخليل لأبي اليمن مجير الدين الحبلى ، وسمى مختصره « لطائف أنس الخليل في تحايف القدس والخليل » . وواضح أن الجغرافيين المصريين أخذوا يعتنون في العصر العثماني بجغرافية الأراضى المقدسة في فلسطين والحجاز .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والتحد

أخذت مصر تُعنى بدراسات اللغة والنحو مع عناية مدرستى البصرة والكوفة بها . مما دفع فيها إلى نشوء طبقة من المؤدبين ، وأخذت هذه الطبقة تتكاثر منذ القرن الثانى للهجرة ، فكانت تلقن الشباب في القساط والإسكندرية مبادئ العربية ، وانضم إليهم في هذا التلقين بعض العلماء الذين هاجروا إلى الديار المصرية مثل عبد^(١) الرحمن بن هرْمَز الأعرج تلميذ أبى الأسود الدؤلى . نزىل الإسكندرية المتوفى بها سنة ١١٧ للهجرة . وطبيعى أن يظل نشاط هؤلاء المؤدبين مطرداً طوال القرن الثانى للهجرة ، لسبب واضح هو عناية المصريين بقراءات القرآن الكريم وضبط ألفاظه لغوياً ونحوياً . ولدارستهم لتفسير القرآن الكريم وللفقه ، وسرى فيما بعد نشاطهم الجم في هذه الميادين . ولم تُنمَّ كُتب التراجم بأسماء هؤلاء المؤدبين وإحصائهم ، ولكن لاشك في أنهم كانوا كثيرين . وقد ترجم السيوطى في كتابه البغية لواحد منهم هو سرج الغول الذى لحق زمن الإمام الشافعى حين نزل القسقاط سنة ١٩٩ وكان عالماً باللغة ولم يكن أحد بالقسقاط يظهر شعره إلا بعد عرضه عليه ورضاه عنه ، ويقال إنه كان يذاكر الشافعى في اللغة والشعر ، وإنه كان يعجب بمعارفه ، وروى أنه كان يقول عنه حين يقوم من مجلسه : نحتاج إلى أن نستأنف طلب العلم ، وحسبه تلك الشهادة الرفيعة من الإمام الشافعى . ومن كان يتمتع به الشافعى في القسقاط من اللغويين عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية المشهورة ، ويقول السيوطى عنه إنه كان إماماً في اللغة والنحو والعربية ويذكر أنه كان يتناشد هو والشافعى كثيراً من أشعار العرب^(٢) .

(٢) له كتاب سماه « ما وقع في أشعار الجرم من الغريب » وانظر مصادر ترجمت في ص ١٥١ .

(١) راجع ابن هرْمَز في أخبار النحويين البصريين للسياق ص ٢١ وتذكرة الحفاظ ٩١/١ وطبقات القراء لابن الجزرى ٣٨١/٤ وإنباء الرواة ١٧٢/٢ وما به من مراجع .

وزير محمد بن يحيى اليزيدى مصر فى العقد الثانى من القرن الثالث فى صحبة المتصم سنة ٢١٤ ويتخذها دار مقام له حتى وفاته ^(١) ويُحدث بها ضرباً من الثراء فى حياتها اللغوية إذ كان لغويا كبيرا مثل أبيه وأخيه إبراهيم ، وله كتاب المقصور والممدود ، وأغلب الظن أنه روى للمصريين كتاب أبيه : « النواذر فى اللغة » وأيضاً كتاب أخيه إبراهيم فى اللغة الذى سماه « ما اتفق لفظه وافترق معناه » جمع فيه كل الألفاظ المشتركة فى الاسم - كما يقول ابن علكان - المفترقة أو المختلفة فى المعنى ، وهو من الكتب اللغوية الجيدة . وزير مصر ابن جرير الطبرى فى العقد السادس من القرن الثالث ، وكان يحفظ ديوان الطرماح فطلب إليه للمصريون أن يأخذوه عنه ، فرواه لهم مفسراً غريبه ^(٢) .

ونلتقى فى الفسطاط لأواسط القرن الثالث بعالم مصرى لغوى ونحوى كبير هو ولاد ^(٣) التميمى المتوفى سنة ٢٦٣ لهمد الدولة الطولونية ، وكان قد رحل إلى العراق وسمع بها العلماء وأخذ ما عندهم ، ويقال إنه لم يكن بمصر شيئاً كبير من كتب اللغة والنحو قبله ، ويذكر حفيده أحمد أنه توارث هو وأبوه عنه ديوان رؤبة . مما يدل على عنايته برواية دواوين الشعر القديم ، وخاصة الدواوين التى تكتظ بالغريب مثل ديوان رؤبة . ونلتقى بعده بلغوى مصرى معجمى أو من أصحاب المعاجم هو أبو الحسن على ^(٤) بن الحسن الهنأى الأزدي المعروف باسم كراع القل لقصره ودمامته ، وهو وإن كان دميماً قصيراً فقد كان عالماً لغوياً لا يُشَقُّ غباره ، ألف أربعة معاجم ، ويقول القفطى فى ترجمته إنباه الرواة إنه يملكها جميعاً ، وهى المنضد فى اللغة ، وهو معجم كبير رتبته على الحروف الهجائية ، ومعجم مختصر له سماه المجرّد ، جرده من الشواهد ، ومعجم ثالث لأمثلة الغريب على أوزان الأفعال سماه الأوزان . والمعاجم الثلاثة مفقودة . أما المعجم الرابع فسماه المنجد، قصره على ما اتفق لفظه واختلف معناه أو بعبارة أخرى على المشترك اللفظى ، وهو معجم نفيس ، وقد نشر فى القاهرة . والألفاظ المشتركة فيه مرتبة حسب الحروف الهجائية لا حسب مخارج الحروف كما فى معجم العين للخليل . ولم تُردّ فى ترتيبها إلى أصولها الثلاثية والرابعة كما هو معروف فى المعاجم العربية ، بل ترتب حسب صورها اللفظية . وكأنه أراد بذلك اليسر والسهولة ، وتابعه أصحاب المعاجم - باستثناء الأزهرى فى معجمه تهذيب اللغة - فى

(١) انظر إنباه الرواة ٢٣٦/٣ وتاريخ بغداد ٤١٢/٣ . (٤) راجع ترجمة الهنأى فى إنباه الرواة ٢٤٠/٢ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٥٣/١٨ . ومعجم الأدباء ١٢/١٣ .

(٣) انظر ترجمة ولاد فى إنباه الرواة ٣٥٤/٣ .

ترتيب الألفاظ حسب الحروف الهجائية مثل الجوهري في الصحاح والزخشي في أساس البلاغة ، غير أن الجوهري رأى أن يكون الترتيب الهجائي للألفاظ بحسب أواخرها ورأى الزخشي أن يكون الترتيب بحسب أوائلها مثل كراع النمل .

وتلتحم مباحث اللغة بمباحث النحو أو بعبارة أدق نظل ملتحمة في القرن الرابع على نحو ما يتضح عند أبي العباس أحمد^(١) بن محمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢ وأبي جعفر أحمد^(٢) بن محمد النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ . أما ابن ولاد فقد خرج أبوه محمد نحويًا ولنحويًا ماهرًا ، ولم يكف بما أخذه عن أبيه وبعض العراقيين النازلين بمصر فرحل إلى بغداد ودرس على كبار اللغويين والنحاة بها ، وتسامع به وبزميله أبي جعفر النحاس أهل المغرب والأندلس فرحلا إليهما بأخلاقهم عنهما ويدرسون . وكان ابن ولاد يضيف إلى دراسته لكتاب سيويه عرضه دواوين الشعراء القدماء وكان يقول لطلابه : ديوان رؤية رواية لى عن أبي عن جدى . ونشر مجمع اللغة العربية بدمشق ديوان ذى الرمة ، وسرى عما قليل أن ابن ولاد كان الطريق إلى إحدى روايته ، وبذلك كان يدرس لطلابه في القسطاط أصعب ديوانين عريين لغويًا ، واشتهر في زمنه بروايته لمعجم العين المنسوب إلى الخليل ، وعنه حملة منذر بن سعيد قاضي الجامعة بالأندلس المشهور . ومن مصنفاته اللغوية كتاب المقصور والمملود ، وهو معجم لها مرتب على الحروف الهجائية مثل كتاب المنجد لكراع النمل ، وكأنه تابعه في ترتيب معجمه تيسيرًا للانتفاع به . أما أبو جعفر النحاس فكان واسع العلم في اللغة والنحو والدراسات القرآنية ، وقد رحل إلى العراق مثل ابن ولاد وحمل عن علمائها علماء كثيرًا ، وكان يعنى في دروسه بشرح الشعر القديم ، إذ فسر عشرة دواوين منه كان يملئها على طلابه . ومن أهم مصنفاته اللغوية « شرح القصائد التسع المشهورات وتشتمل على المعلقات السبع ، وهى منشورة ببغداد ، ونشر له كتاب « شرح أبيات سيويه » وهى أبيات كتابه المشهور . وعلى هذا النحو أخذت مصر تنشط في الدراسات اللغوية ، ونشر بهذا النشاط واضحا حين نزلها المتنبي ، فقد انعدت له حلقة كبيرة لساج شعره ، وسرعان ما تكوَّنت له بطانة من علماء مصر اللغويين وأدائها تروى شعره . مثل عبيد الله بن محمد بن أبي الجهم وفيه يقول الثعالبي : « أحد رواة المتنبي الأدباء وأصحابه العلماء ومن تمهر في لغات العرب^(٣) » ومثل صالح بن

(١) انظر في ترجمة ابن ولاد معجم الأدباء ٢٠١/٤ و ٢٢٤/٤ وابن خلكان ١/٩٩ .

(٣) البهجة ١/٣٩٥ .

وإنهاء الرواة ٩٩/١ وما به من مراجع .

(٢) راجع في ترجمة أبي جعفر النحاس إنباء الرواة

رُشدِين ، وفيه يقول التتالبي أيضا : « أحد أئمة الكتاب للمهرة في سائر الآداب ، صاحب المتنبي وروى شعره ^(١) » . وكانت تلور المناقشات أحيانا بين المتنبي وبعض اللغويين ، ولعل ذلك ما جعله يعقد حلقة علمية لقراءة كتاب المقصور والمملود لابن ولاد سنة ٣٤٧ وقد مضى يعلق عليه موضعا ما فيه من الغلط ، وكب ذلك عنه أبو الحسين على ^(٢) بن أحمد المهلبى اللغوى المتوفى سنة ٣٨٥ وأضاف إلى ذلك زيادات ونسب الجميع إليه ، على نحو ما بصور ذلك على بن حمزة البصرى في كتابه « الرد على ما فى المقصور والمملود لابن ولاد » .

ويقول ياقوت فى ترجمة المهلبى إنه كان إماما فى النحو واللغة ورواية الأخبار وتفسير الأشعار كما يقول إنه تلميذ إبراهيم الشجرى كاتب كافور المتوفى سنة ٣٥٥ وكان راوية كبيرا للدواوين والأشعار ، وحملها عنه أبو الحسن المهلبى المذكور آنفاً ، وتلميذ ثان له يسمى جنادة ^(٣) اللغوى ، وسنرى عما قليل أنه كان الطريق إلى إحدى روايات ديوان ذى الرمة ، ولعل فى ذلك ما يدل على أنه شارك بقوة فى رواية الدواوين القديمة ، وبالمثل تلميذه أبو الحسين المهلبى ، وفى المهلبى يقول الفطى : أحد علماء الأدب واللغة والشعر ، روى عنه المصريون وأكثروا .. والرواية عنه إلى زماننا هذا (أى فى القرن السابع الهجرى) ووصل للمصريين رواية كتب كثيرة من كتب الأدب . وحوالى منتصف القرن الخامس الهجرى نزل بمصر التبريزى ^(٤) تلميذ أى العلاء وأقام بها مدة ولعله روى فيها أشعار المعرى كما روى كثيرا من معارفه اللغوية وشروحه على الدواوين والأشعار ، مثل شرحه على الطلقات والمفضليات وديوان الحامسة وديوان أبى تمام ، وقد مرّ بنا فى الجزء الخامس من هذه السلسلة نشاطه اللغوى الجمّ . ومن نزلاء القاهرة المغاربة اللغويين القزاز القيروانى المتوفى سنة ٤١٢ خدم للمز الفاطمى وابنه العزيز وصنف لها كتابا ، وعاد بعد خلافتها إلى بلده ، ومن تصانيفه كتاب الجامع فى اللغة رتبّه على حروف المعجم وهو - كما يقول ياقوت - كان يقارب معجم التهذيب للأزهري ، وله كتاب الضاد والطاء وكتاب معان فى شعر المتنبي وكتاب فى المآخذ عليه .

تلميذ للأزهري صاحب معجم التهذيب وروى عن أبى أحمد العسكري كبه ، ونزل مصر وأقام بها حتى توفى سنة ٣٩٩ .

(٤) انظر فى نزول التبريزى مصر ابن خلكان ٦ / ١٩٣ .

(١) البيهية ١ / ٣٩٩ وأخبار مصر فى سنة ٤١٤ ، ٤١٥ للمبسى (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب) ص ٩٦ .

(٢) انظر فى أبى الحسين المهلبى معجم الأدباء ١٢ / ٢٢٤ وإنهاء الرواة ٧ / ٢٣٢ .

(٣) انظر ترجمة جنادة فى معجم الأدباء ٧ / ٢٠٩ وكان

وأكبر لغوى بالقاهرة في أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس يوسف^(١) النجيمى المتوفى سنة ٤٢٣ وهو تلميذ أبى الحسين المهلبى وقد حمل عنه كل ما كان يرويه من كتب الأدب واللغة ودواوين الشعر ، وروى عنه المصريون عامة ما كان يرويه محتضين به لما كان يمتاز به من الدقة فى الضبط اللغوى غاية الضبط إلى أقصى حد ممكن ، وفى ذلك يقول ابن خلكان : « أكثر ما تروى الكتب القديمة فى اللغة والأشعار العربية وأيام العرب فى الديار المصرية من طريقه » . وكان ما يزال يراجع الروايات المختلفة للكتاب أو للدويان ويقابل بينها حتى يخرجها فى أوثق صورة ممكنة . ومن خير ما يصور هذا العمل العقد الشاق ديوان ذى الرمة الذى نشره الدكتور عبد القدوس أبو صالح فى مجمع اللغة العربية بدسحق نشرة علمية محققة اعتمد فيها على صنته فيه ، إذ أخرجه فى صورة محكمة على أساس روايتين علميتين ، ولكل رواية طريقان . أما الرواية الأولى فمن ثعلب عالم الكوفة المشهور وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى أستاذة عن ابن ولاد ، وطريقها الثانى جعفر^(٢) بن شاذان اللغوى البصرى نزىل القاهرة عن أبى عمر الزاهد غلام ثعلب . والرواية الثانية عن إبراهيم بن المنذر المتوفى سنة ٢٣٦ عن أسود بن ضُبَّان عن ذى الرمة ، وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى عن إبراهيم النجيمى ، وطريقها الثانى أبو عمران بن رباح أستاذ أبى يعقوب النجيمى عن إبراهيم النجيمى . ولعل فى ذلك ما يوضح مدى عناية أبى يعقوب يوسف النجيمى بإخراج الدواوين للمصريين وإحكام صنتها إحصاء لا يكاد يفوقه إحصاء ، وكان يعمم هذا الإحكام فى كل مارواه من الدواوين وكتب اللغة .

ويعمل أصحاب يوسف النجيمى عنه كتب اللغة ودواوين الشعراء . ويخلفهم عليها تلاميذهم فى القرن الخامس ومن تعهدوهم من علماء القرن السادس ، ويطرد هذا النشاط اللغوى بمصر . ويזורها غير عالم لغوى من البلاد العربية ويستقرون بها ، وفى مقدمتهم على^(٣) بن جعفر السعدى الصقلى المعروف باسم ابن القطاع ، نشأ بصقلية وقرأ الأدب واللغة على علمائها وخاصة ابن البر اللغوى ، ورحل عن صقلية لما أشرف النورمان على تملكها فى حدود سنة ٥٠٠ ونزل القاهرة

٢٦٥/١

(١) راجع فى ترجمة يوسف النجيمى ابن خلكان

(٣) انظر فى ابن القطاع معجم الأدياء ١٢/ ٢٧٩ وابن

٧٥/٧ وبغية الرواة والأنساب للسماطى فى النجيمى

خلكان ٣٢٧/٣ وإنباء الرواة ٢/ ٢٣٦ وما به من مراجع .

والشوات ٣/ ٧٥ - وهو اللغوى ٢/ ٣٥٨ .

(٢) انظر فى ترجمة جعفر بن شاذان إنباء الرواة

وانتخذا دار مقام له وتصدر فيها للإفادة حتى توفي سنة ٥١٥ هـ وأكرمه المصريون غاية الإكرام وانتخذه الأفضل بن بدر الجبالى وزير الخليفة الأمر الفاطمى معلما لولده ، ومن طريقه اشتهرت فى الآفاق رواية معجم الصحاح للجوهرى ، كان قد أخذها عن أستاذه ابن البر فى صقلية ، وله عدة تصانيف لغوية ، منها كتاب الأسماء فى اللغة ، وكتاب الأفعال عن بشره بجمع اللغة العربية فى القاهرة .

ويتكاثر اللغويون بمصر من علمائها والعلماء النازلين بها بعد ابن القطاع ، وأشهرهم غير مدافع ابن برى^(١) عبد الله المصرى المولد والمنشأ المولود سنة ٤٩٩ هـ وفيه يقول ابن خلكان : « الإمام المشهور فى علم النحو واللغة والرواية والدرابة كان علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره » . ويذكر ابن خلكان أنه رأى له « حواشى على درة الغواص فى أوهام الخواص » للحريرى ، وأن له كتابا لطيفا فى أغاليط الفقهاء . وقد كتب ردًا على أبى محمد بن الحشاب ، رد فيه على كتابه الذى عدّد فيه غلط الحريرى فى المقامات ، وطبع هذا الرد ملحقا بمقامات الحريرى مع نقد ابن الحشاب بالمطبعة الحسينية بالقاهرة . ومن أهم مصنفاته حواشى على معجم الصحاح للجوهرى سماها « التنبيه والإفصاح عما وقع فى كتاب الصحاح » يقول ابن خلكان : « وهى حواشى فائقة أتى فيها بالفرائب ، واستدرك عليه فيها مواضع كثيرة ، وهى دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه » وهى من الكتب الخمسة التى ذكر ابن منظور فى مقدمة لسان العرب أنه اعتمد عليها فى تأليف معجمه اللسان . وتوجد منه مخطوطات تعين على نشره حتى مادة وقش ، وقد نُشر هذا القسم منه فى جزءين بجمع اللغة العربية بالقاهرة ويمكن استخراج بقيته من لسان العرب . ولا ينرى أيضا حواشى على كتاب العرب من الكلام الأعجمى للجوابلى ، ومن آرائه الطريقة أنه ينبغى المحافظة على نطق الكلمات الأعجمية حين تعريبها وإدخالها فى العربية بجميع حروفها وحركاتها الخاصة . وقد عاش حقبة طويلة فى زمن الدولة الأيوبية إذ توفى سنة ٥٨٢ هـ . ومن أهم تلاميذه اللغويين سليمان^(٢) بن بنين الدقيقى المتوفى سنة ٦١٤ وله مصنفات لغوية مختلفة ، منها كتاب الوضاح فى شرح آيات الإيضاح لأبى على الفارسى وكتاب إغراب العمل فى شرح آيات كتاب الجمل للزجاجى ، وأهم من هذين الكتابين كتابه : « اتفاق المباني واقتراق المعانى فى اللغة »

(٢) انظر ابن بنين فى معجم الأديباء ١١ / ٢٤٤ وفى بنية الرواة ٢٩١ .

(١) راجع فى ابن برى معجم الأديباء ٥٦/١٢ وابن خلكان ١٠٨/٣ وإنباء الرواة ١١٠/٢ وشذرات الذهب ٢٧٣/٤ وبنية الرواة ص ٢٧٨ .

ومنه مخطوطتان بدار الكتب المصرية . وله كتب عدة في العروض ، منها كتاب الروض الأريض في أوزان القريض ، والكتاب الوافي في علم القوافي .

وظل هذا النشاط اللغوي ينمو بمصر ويتسع نموه طوال القرن السابع الهجري وضمن الأيوبيين والمماليك إلى أن تَوَجَّح بكتاب لسان العرب لابن^(١) منظور المتوفى سنة ٧١١ وهو مطبوع في عشرين مجلدا ، وهو أكبر معجم لغوي عرني ظهر في الأزمنة الماضية ، وقد أتم مؤلفه تصنيفه سنة ٦٨٩ للهجرة ، وذكر في مقدمته أنه جمع فيه بين معجم التهذيب للأزهري ومعجم الصحاح للجوهري والمعجم المعروف باسم المحكم لابن سيده وحواشي الصحاح لابن برى والنهاية في غريب الحديث النبوي لابن الأثير ، وهو معجم تنوء به الجماعة أولو القوة ، ولابن منظور بجانبه مصنفات كثيرة من أهمها مختصر الأغاني .

ويظل لمصر نشاط لغوي غزير بعد ابن منظور ، وتظل لها مشاركة في وضع المعاجم لا المعاجم اللغوية فقد كفها ابن منظور المثونة في ذلك فحسبها معجمه ، بل في وضع المعاجم المتخصصة مثل المصباح المنير في غريب الشرح الفقهي الكبير للرافعي صنفه أحمد^(٢) بن محمد الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠ وهو ليس في ألفاظ الإمام الرافعي الشافعي فحسب ، بل هو يتضمنها ويتضمن بصفة مختصرة ألفاظ العربية في عرض حسن ، وألحق به خاتمة كثيرة الفوائد اللغوية .

وما يزال النشاط اللغوي الخالص في مصر يزداد حتى يبلغ ذروة رفيعة عند جلال الدين عبد الرحمن^(٣) السيوطي المتوفى سنة ٩١١ للهجرة وهو أغزر العلماء المصريين زمن المماليك بعامة تأليفا وتصنيفا في جميع الميادين الإسلامية واللغوية ، ومن خير مصنفاته اللغوية بل من خير المصنفات اللغوية في جميع الحقب بمصر وغير مصر كتابه « الزهر في علوم اللغة وأنواعها » وهو مطبوع مراراً بالقاهرة ، وفيه يعرض كل ما اتصل باللغة من علوم وضعت لمعرفة الصحيح وغير الصحيح والعرب والمولد والاشتقاق والمشارك والأضداد والمترادف والقلب والنحت والإتباع والإبدال وغير ذلك من علوم اللغة ومسائلها الدقيقة . وأهم من ذلك كله أنه حاول محاولة خصبة

الكتب الحديثة (١ / ٣٣٤ .

(٣) انظر مصادر ترجمة السيوطي مع الحديث عنه ص

٤٥٥ .

(١) راجع ابن منظور في نكت الحسان ص ٢٧٥ والدرر

الكاملة ٣١ / ٥ وحسن المحاضرة ١ / ٥٣٤ والبلية ص ١٠٦

ونوات الرقيات ٢ / ٢٤٤ والواق ٥ / ٥٤ والشذرات ٦ / ٢٦ .

(٢) انظر الفيومي في الدرر الكاملة لابن حجر (نشر دار

أن يطبق علم مصطلح الحديث وما وضع فيه لروايته من أصول على اللغة وروايتها ، ويفض في ذلك إفاضة واسعة ، ففي ألفاظ اللغة - كالحديث النبوي - متواتر وآحاد ومرسل ومنقطع وضعيف ومنكر ومتروك ومطرد وشاذ . ويتحدث عن نُقُبل روايته ومن تُرُدُّ ، وعن معرفة طرق أخذ اللغة وتحملها وعن المتحلل المصنوع في اللغة وأشهر من نحل الشعر وأفسده . والكتاب فريد في بابهِ ومباحثه . ونغضى بعد السيوطي في زمن العثمانيين ، ويظل لعلماء اللغة في مصر نشاطهم ، ومن خير من يمثلهم شهاب^(١) الدين الحفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ ومن مؤلفاته الرائعة كتابه « شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل » وقد صدره بمقدمة تحدث فيها عن التعريب وشروطه ، وله شرح على درة الغواص في أوهام الخواص للحريزي . وتظل مصر مع ما أصابها زمن الاحتلال العثماني حاملة مشاعل الثقافة العربية في اللغة وغير اللغة ، ويتزها كثيرون من علماء الديار العربية ، ومن نزها - كما مر بنا في الجزء الخامس من هذه السلسلة - السيد مرتضى الزبيدي اليمني المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م إذ اتخذها دار مقام له سنة ١١٦٧ حتى لبى نداء ربه ، وأكرمه المصريون وعلاؤها ، وعكف منذ نزوله على شرح القاموس المحيط للفيروز آبادي . وما زال عاكفا على عمله حتى أتمه سنة ١١٨١ وهو مطبوع في عشر مجلدات ، وقد سماه باسم « تاج العروس » . وهو يتلو لسان العرب في كبر حجمه ، وفي الجبرتي تقاريط كثيرة للمصريين فيه . وكأنه أتبع لمصر أن تضع أكبر معجمين للعربية : اللسان في زمن الماليك وتاج العروس في زمن العثمانيين ، كما أتبع لها أن تضع أكبر دائرة معارف في المباحث اللغوية وتقصد كتاب المزهر للسيوطي .

ومرُّنا في صدر هذا الحديث أنه كانت بمصر طبقة من المؤيدين أخذت تتكاثر في القرنين الثاني والثالث ، وكانت تعلم الناشئة اللغة والنحو ، ومنذ أواسط القرن الثالث يصبح لمصر نخاتها من أبنائها ونزلائها في مقدمتهم ولاد الخيمى الذى مر ذكره في اللغويين ، وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وكان يعاصره أحمد^(٢) بن جعفر الدينوري نزيل الفسطاط المتوفى سنة ٢٨٩ وقد درس على المازني بالبصرة كتاب سيبويه ولما استوطن مصر واستقر بها صنف لطلابه كتابا في النحو سماه للهدب ، وعنه حملة المصريون . ويلقانا في زمنه محمد^(٣) بن ولاد آنف الذكر المتوفى سنة ٢٩٨

(٣) راجع محمد بن ولاد في تاريخ بغداد ٣/ ٣٢٢
ومعجم الأدباء ١٩/ ١٠٥ وإنباه الرواة ٣/ ٢٢٤ وما به من مراجع .

(١) انظر مصادر ترجمة الحفاجي ص ٤٥٩ .
(٢) انظر الدينوري في معجم الأدباء ٢/ ٢٣٩ وإنباه الرواة ١/ ٣٣ وما به من مراجع .

وقد أخذ كل ما عند أبيه وعند أبي جعفر الدينوري ، ورحل إلى بغداد وقرأ على المبرد كتاب سيبويه وعاد إلى القسطنطينية ليدرس النحو ، وصنف لطلابه كتاباً سماه المنقح . ونزل القسطنطينية في سنة ٢٨٧ الأنخس^(١) الصغير على بن سلمان ، وظل بها حتى سنة ٣٠٠ للهجرة ، يعلم الطلاب النحو واللغة ، وله شرح على كتاب سيبويه ، لهله أملاء بمصر . ونحى في القرن الرابع الهجري فيلقانا أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد المار ذكره ، وكان نحويًا كبيرًا كما كان لغويًا كبيرًا وإليه صارت نسخة أبيه من كتاب سيبويه التي قرأها على المبرد ، وله كتاب « الانتصار لسيبويه من المبرد » وفيه يرد على المبرد ما نقده سيبويه في كتابه الذي سماه « مسائل الغلط » . وله آراء^(٢) نحوية طريفة . وكان يعاصره كما مر بنا أبو جعفر النحاس اللغوي والنحوي الكبير . وكان يمزج في كتبه النحوية بين آراء البصريين والكوفيين وأحياناً ينفذ إلى آراء اجتهدية جديدة مما يجعله بحق طليعة^(٣) المدرسة البغدادية في مصر كما يتضح من كتابه الصغير « التفاحة في النحو » وكتابه الكبير الرائع النفيس : « إعراب القرآن » . ويبدو أن اسمه واسم معاصره ابن ولاد طار إلى المغرب والأندلس فرحل إليها كثيرون من الطلاب يأخذون عنها ، ومرينا أن منذرين سعيد قاضي الجماعة بالأندلس حمل عن ابن ولاد كتاب العين للخليل بن أحمد ، فصره في أذاعته في الأندلس والمغرب . وحمل محمد بن يحيى الزباجي عن أبي جعفر النحاس كتاب سيبويه رواية ودراسة ودرسه^(٤) لطلابه بقرطبة ، وشاعت رواية هذه النسخة بحيث أصبحت أم الدراسات النحوية في الأندلس وما رافقها هناك من نهضة في النحو ومباحثه .

وأول نحوي كبير يلقانا في زمن الفاطميين الحثوثي^(٥) على بن إبراهيم المتوفى سنة ٤٣٠ تصلّى لإقرائه النحو وصنف فيه كتاباً كبيراً استوفى فيه - كما قال من ترجموا له - العلل والأصول . وله مصنفات أصغر منه في النحو اشتغل بها المصريون ، وله في إعراب القرآن كتاب في عشرة مجلدات ، ويبدو مما قلناه عنه ابن هشام من آراء نحوية أنه كان بغدادي^(٦) التزعة يختار بعض آراء البصريين والكوفيين ويحاول التوفيق إلى بعض آراء جديدة . وكان يعاصره المذكر^(٧) النحوي

(٥) انظر الحروف في الأسباب للسماني الورقة ١٨١

ومعجم الأدباء ٢٢١/١٢ وابن علكان ٣٠٠/٣ وإنباه

الرواة ٢٧٦/٢ والفتاوى ٢٤٧/٣ .

(٦) للفتاوى النحوية ص ٣٣٤ .

(٧) إنباه الرواة ٨/٢ .

(١) انظر الأنخس الصغير في تاريخ بغداد ٤٣٣/١٢

وابن علكان ٣٠١/٣ ومعجم الأدباء ٤٦١/١٣ وإنباه

الرواة ٢٧٦/٢ .

(٢) انظر كتابه للفتاوى النحوية ص ٣٣٠ .

(٣) المذاهب النحوية ص ٣٣٧ .

(٤) إنباه الرواة ٢٣٠/٣ .

المصري تلميذ ابن جني المتوفى سنة ٤٤٠ وكان يتصدر لإقراء العربية ، وأغلب الظن أنه حمل إلى المصريين كتب أستاذه ابن جني فأخذوا يدرسونها مبكرين . وأنجبت مصر حينئذ نحويا كبيرا هو ابن بابشاذ^(١) طاهر بن أحمد المتوفى سنة ٤٦٩ وكان قد رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها ونحاتها وعاد فتصدر للإقراء بجامع عمرو بن العاص في الفسطاط . وكان يُشَدُّ إليه الإشراف على تحرير الكتب الصادرة عن ديوان الإنشاء الفاطمي إلى الأطراف ، وله في النحو كتب سارت - كما يقول القفطي - سِيرَ الشمس ، منها المقلدة في النحو وشرحها ، وهو منشور بالكويت نشرة جيدة . ومن مصنفات ابن بابشاذ شرح كتاب الجمل للزجاجي أحد أئمة النحو البغدادى ، وله كتاب سماه المحتسب في النحو وشرح على كتاب الأصول لابن السراج ، وكانت له تعلية كبيرة في النحو في خمسة عشر مجلدا . وكان يتزعم متزعم البغداديين^(٢) في الانتخاب من آراء الكوفيين والبصريين ومحاولة الإدلاء بآراء جديدة . وخلفه على التصدر لإقراء النحو تلميذه محمد^(٣) بن بركات المتوفى سنة ٥٢٠ وكانت له في النحو تصانيف مختلفة كما كان إليه التصفح في ديوان الإنشاء الفاطمي . وأكبر نحاة مصر في أواخر زمن الفاطميين وأوائل زمن الأيوبيين ابن بَرَى الذي أسلفنا الحديث عنه بين اللغويين ، وكان يتصدر لإقراء النحو واللغة بجامع عمرو ، وطارت شهرته في الآفاق ، فقصده الطلاب من كل بلد وفي مقدمتهم عيسى الجزولي نحوي المغرب والأندلس ، وقد دُون عنه في أثناء شرحه لكتاب الجمل للزجاجي مقدمته المعروفة بالجزولية ، وكان يقول إنها من نتائج خواطر ابن برى وتلاميذه ، واهتم بها النحاة وشرحوها مرارا ، وهو بغدادى^(٤) التزعة في النحو مثل أستاذه ابن برى وغيره من نحاة المصريين لزمه . وخلف ابن برى في إقراء النحو تلميذه سليمان بن بنين ، ومرتبنا بين اللغويين ، وله في النحو شرح على سيبويه سماه « باب الألباب في شرح الكتاب » . ونزل مصريجي^(٥) بن مُطْعَى المغربي اللمشقي المتوفى سنة ٦٢٨ واستقر بها وتصدر بجامع عمرو لإقراء الطلاب النحو ، وله مصنفات مختلفة في النحو منها ألفية كألفية ابن مالك وكتاب العقود والقوانين في النحو ، وكتاب الفصول ، وحواش على أصول ابن السراج ، وشرح

وإنباء الرواة ٧٨/٣ والشُّلُرات ٦٢/٤ ومروءة الحنا
٢٢٥/٣ والبنية ص ٢٤ .

(٤) المدارس النحوية ص ٣٠١ ، ٣٢٨ .

(٥) انظر ابن سطل في معجم الأدباء ٣٥/٢٠
والبنية ٤١٦ والشُّلُرات ٢٩/٥ وتاج التراجم ٨٣ .

(١) انظر ابن بابشاذ في معجم الأدباء ١٧/١٢ وإنباء

الرواة ٩٥/٢ وابن خلكان ٥١٥/٢ والشُّلُرات ٣٣٣/٣

ومروءة الحنا ٩٨/٣ والبنية ص ٢٤ .

(٢) المدارس النحوية ص ٣٣٦ .

(٣) راجع محمد بن بركات في معجم الأدباء ٣٩/١٨

على الجمل . وكان يعاصره ابن الرواح على ^(١) بن عبد الصمد المتوفى سنة ٦٣٣ تصدّر لإقراء النحو وله فيه مجموع يتردد ذكره في كتاب الأشباه والنظائر للسيوطي . وولتقى يعلى ^(٢) بن محمد السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ وله شرحان على كتاب الفصل للزحشرى ، واسمه يتكرر في كتاب الأشباه والنظائر . وأهم النحاة المصريين حيثنذ بلا منازع ابن الحاجب ^(٣) عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ كان أبوه حاجبا لبعض الأمراء فغلبت عليه النسبة إلى وظيفته . وله كتب كثيرة في الفقه المالكي والأصول والعروض ، وله في النحو كتاب الأمالي ، وكتابه الكافية في النحو والتأني في الصرف طارت شهرتها في العالم الإسلامي ، وتعلق العلماء بدرسها للطلاب في كل مكان ، وكثرت عليها الحواشي والشروح كثرة مفرطة ، ومن أهم شروحها شرح الرضى الإسزبادي . وبتز ابن الحاجب في كتاباته النحوية منزع المدرسة البغدادية ^(٤) ، فهو ينتخب من آراء المدرستين البصرية والكوفية ويفيغ إليهما آراء اجتهدية تدل على حسن بصره وبإلغ دقته وحدة ذكائه .

وتزدهر الدراسات النحوية في زمن الماليك ، وولتقى في أوائله بأمين الدين المحلى ^(٥) محمد بن على المتوفى سنة ٦٧٣ تصدّر لإقراء النحو وانتفع به الناس ، وله تصانيف مختلفة في النحو والعروض . وكان يعاصره بهاء الدين ^(٦) بن النحاس الحلبى الأصل المتوفى سنة ٦٩٨ ، نزل مصر وأخذ عن شيوخها ولم يلبث أن تصدّر لإقراء العربية ، وعليه تلمذ أبو حيان الأندلسى المتوفى سنة ٧٤٥ حين نزوله مصر سنة ٦٧٩ وله مصنفات مختلفة ، من أهمها شرح على المقرب لابن عصفور . وأبو حيان ^(٧) هو أهم تلاميذه ، فقد لزمه وأخذ عنه كتبه ، وتصدّر لتدريس النحو في جامع الحاكم بالقاهرة وله شروح كثيرة على أمهات الكتب النحوية مثل الكتاب لسيويه والمقرب والمتن لابن عصفور والتسهيل لابن مالك وأيضا له شرح على ألفيته ، وبجانب ذلك له مصنفات نحوية مستقلة أهمها ارتشاف الضرب أى عمل النحو ، ويغلب عليه متابعة البصريين ^(٨) ويتصدى

(١) راجع ابن الرواح في البنية ص ٣٤١ .

(٢) انظر العلم السخاوى في معجم الأدباء ٦٥/١٥ وابن خلكان ٣٤٠/٣ وإنباء الرواة ٣١١/٢ والبنية ص ٣٤٩ وطبقات القراء ٥٦٨/١ والسبكى ٢٩٧/٨ وحسن المحاضرة ٤١٢/١ .

(٣) راجع ترجمة ابن الحاجب في ابن خلكان ٢٤٨/٣ وطبقات القراء ٥٠٨/١ وطبقات اللحيى ٢٠١/٢ والديجاج لابن فرحون ص ٣٧٧ والشرحات ٢٣٤/٥ والبنية ص ٣٢٣ وير وكان ٣٠٨/٥ .

(٤) المدارس النحوية ص ٣٤٣ وما بعدها .

(٥) حسن المحاضرة ٥٣٣/١ .

(٦) بنية الرواة ص ٦ .

(٧) انظر أباحيان في الدرر الكائنة لابن حجر ٣٠٢/٤ والبنية ص ١٢٦ ونكت المبيان ص ٢٨٠ وطبقات التأني للبيكى ٢٧٦/٩ وطبقات القراء ٢٨٥/٢ ونوافذ الوفيات ٥٥٥/٢ والشرحات ١٤٥/٦ ونفع الطيب (طبعة دوزى) ٨٢٣/١ .

(٨) المدارس النحوية ص ٣٢١ وما بعدها .

كثيرا في مؤلفاته لابن مالك وآرائه ، وقد تخرج به جيل من النحاة المصريين لزمه . ومن أهم تلاميذه ابن أم قاسم^(١) الحسن بن قاسم المتوفى سنة ٧٤٩ وأم قاسم جدته لأبيه نُسب إليها . وله شروح على مفصل الزمخشري ونسهيل ابن مالك والفيته . وخرجت مصر حيثذ أكبر نحاتها ابن هشام^(٢) جمال الدين عبد الله بن يوسف المتوفى سنة ٧٦١ وقد طارت شهرته في العربية وقصده الطلاب من كل فج ، وبلغ من إعجاب معاصريه به أن قالوا إنه أنحى من سيبويه ، وله مصنفات نحوية كثيرة من أهمها « مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب » وهو في جزئه ين : جزء خاص بالحروف والأدوات وجزء خاص بالجميل ، بث فيه كثيرا من القواعد الكلية والملاحظات الدقيقة . وله كتاب « أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك » وكتاب « شذور الذهب » وكتاب « قطر الندى » وكل هذه الكتب مطبوعة مرارا وتكرارا . وهو يهيج في النحو منهج المدرسة البغدادية . وكان يعاصره ابن^(٣) عقيل عبد الله بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٦٩ ومن أهم مصنفاته شرحه على الألفية . وهو مشهور . وتلقى في القرن التاسع الهجري بالدمامي^(٤) الإسكندري المتوفى بالهند سنة ٨٣٧ تصدّر لإقراء النحو بالإسكندرية ثم بالجامع الأزهر ، وله حاشية على المغنى لابن هشام . وفيها يتحمل عليه تحاملا شديدا مما جعل الشئى الإسكندري المتوفى سنة ٨٧٢ يتعقبه في حاشية له على المغنى ، والحاشيتان مطبوعتان معا . وتلقى بعدها^(٥) بالكاييجي محمد بن سليمان الرومي المتوفى سنة ٨٧٩ وله مختصرات نحوية مختلفة . ومن أهم النحاة حيثذ الشيخ خالد^(٦) الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥ تصدر لإقراء الطلاب في الأزهر فُتسب إليه ، وله مصنفات نحوية مختلفة منها « المقدمة الأزهرية في علم العربية » وشرح عليها ، وهما مطبوعان ، وله شروح على مصنفات نحوية متعددة أهمها شرحه : « التصريح على التوضيح » لابن هشام . وكان يعاصره السيوطي وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وله في كليات النحو كتاب « الأشباه والنظائر » في أربعة مجلدات . وفيه طبق

(١) البنية ص ٢٢٦ .

(٢) انظر ابن هشام في الدرر الكامنة ٣٠٨/٧

والشعرات ١٩١/٦ والبنية ص ٢٩٣ والبر الطالع ٤٠١/١

وكتابتها « المدارس النحوية » ص ٣٤٦ .

(٣) راجع ابن عقيل في الدرر الكامنة ٣٧٢/٢

والبنية ص ٢٨٤ والشعرات ٢٠٤/٦ والبر الطالع ٣٨٦/١

وكتابتها « المدارس النحوية » ص ٣٥٥ .

(٤) انظر الدمايى في الضوء اللامع ج ٧ رقم ٤٤٥

والشعرات ١٨١/٧ والبنية ص ٣٧ والبر الطالع

١٥٠/٢ .

(٥) انظر الكاييجي في الضوء اللامع ج ٧ رقم ٦٥٥

والبنية ص ٤٨ والشعرات الذهب ٣٢٦/٧ .

(٦) راجع الشيخ خالد في الضوء اللامع ج ٢ رقم

٦٦١ والشعرات الذهب ٢٦/٨ والكواكب السائرة

١٨٨/١ والمخطوطات الجديدة لعل مبارك ٥٣/١٠ .

على قواعد النحو الكلية منهج الفقهاء في كتاباتهم عن الأشباه والنظائر في الفقه ، وهو كتاب نفيس ، وقد طبع بميدراة آباد . وله كتاب الاقتراح وهو مختصر لطيف في أصول النحو ألفه على هدى كتاب الخصائص لابن جني كما يقول في مقدمته . وله في النحو والتصريف كتاب مهم الموضع في مجلدين ضخمين ضمَّ فيه خلافاً للنحاة وآراءهم . وهو دائرة معارف نحوية وصرفية بديعة .

ويلقانا في أوائل زمن العثمانيين الأشموني^(١) على بن محمد المتوفى سنة ٩٢٩ للهجرة ومن أهم مصنفاته النحوية شرحه على ألفية ابن مالك . وهو يعرض فيه بدقة آراء النحاة المختلفين ، وهو مثل شرح ابن عقيل على الألفية من أشهر كتب النحو المتداولة . ويسير نشاط علماء النحو طوال أيام العثمانيين . ومن أشهرهم في القرن الحادي عشر الشنوافي المتوفى سنة ١٠١٩ والدنوشري المتوفى سنة ١٠٢٥ ، وينزل القاهرة عبدالقادر^(٢) البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ ومن مؤلفاته : « خزنة الأدب » وهي شرح لشواهد شرح الكافية في أربعة مجلدات ، وعادة يذكر مع الشواهد شعراءها ويترجم لهم ، وبذلك أحال خزائنه إلى دائرة معارف لشعراء العربية في الجاهلية وصدور الإسلام ، ونعصى إلى القرن الثاني عشر فيلقانا الحنفي المتوفى سنة ١١٨١ ومحمد الأمير المتوفى سنة ١١٨٨ وله حاشية على المغني . وهي مطبوعة . ولانلبث أن نلتقي بالشيخ حسن الكفراوي^(٣) المتوفى سنة ١٢٠٢ صاحب شرح الأجرومية المشهور . ونلتقي بالصبان^(٤) محمد بن علي المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م صاحب حاشيته المشهورة على شرح الأشموني ، وهي أشبه بدائرة معارف نحوية ، وترمز بقوة إلى استمرار النشاط النحوي بمصر حتى نهاية أيام العثمانيين .

وإذا تركنا علمي النحو واللغة إلى علوم البلاغة والنقد . رأينا مصر تتأخر في أفراد العلوم البلاغية بمصنفات خاصة بها . وأول كتاب مجده يعني بمباحث البلاغة كتاب لابن وكيع التنيسي . المتوفى سنة ٣٩٣ هـ / ١٠٠٣ م . وهو بذلك أدخل في مباحث النقد .

(٣) تاريخ الجليل ١٦٥/٢ .

(٤) تاريخ الجليل ٢٢٧/٢ والمخطوط التوفيقية ٣٠٧٣ .

(٥) انظر في هذا الكتاب تاريخ النقد الأدبي عند العرب لإحسان جابر ص ٢٩٤ . وقد نشره يمشق الدكتور محمد رضوان الداية .

(١) انظر الأشموني في الضوء اللامع ٥/٦ وشلوات اللهب ١٦٥/٨ والبرق الطالع ٤٩١/١ وفي أنه توفي سنة ٩١٨ .

(٢) انظر في عبدالقادر البغدادي خلاصة الأثر ٤٥١/٢ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

غير أنه جعل بين يديه مبحثين : مبحثاً في السرقات الشعرية عامة ، ومبحثاً في فنون البديع ، وهو فيه يذكر أولاً مصطلحاته التي دونها ابن المعتز في كتاب البديع ثم يذكر ما أضافه قدامة في نقد الشعر ، ويستمد من كتاب ثالث لا يسمى صاحبه ، وربما كان كتاب حلبة المحاضرة للحاتمي . والكعب الثلاثة فعلاً أهم كتب ألفت في البديع قبله . وكان مصر إن كانت قد تأخرت في وضع المباحث البلاغية فإنها لم تقصر في الاطلاع على ما وضعت العراق منها حتى زمن ابن وكيع ، وظلت تُعنى بعده بالاطلاع على مباحث العراقيين وغير العراقيين حتى نهاية زمن الفاطميين ، تدل على ذلك كتابات علي بن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٤٢ هـ وإذ نراه في كتابه : قانون ديوان الرسائل يتحدث عن البلاغة حديثاً سريعاً وعرض في بعض رسائله لفنى الجنس والتورية من فنون البديع .

ولعل أول كتاب بلاغي ألف في مصر بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة كتاب غرائب التشبيهات على عجائب التشبيهات لعل^(١) بن ظافر الأزدي المصري المتوفى سنة ٦٢٣ . وسبقته في نفس الموضوع كتب أخرى من أهمها كتاب التشبيهات لابن أبي عون وقد عرضنا له في الجزء السابق من هذه السلسلة ، وقد توفي سنة ٣٢٣ . ويذكر ابن ظافر في مقدمة كتابه أنه قلمه للملك الأفضل علي بن صلاح الدين سنة ٥٨٧ في حياة أبيه ، وهو منشور بالقاهرة . وجعله ابن ظافر في سنة أبواب : أولها في تشبيه الأجرام العلوية والثاني في تشبيه المياه والأنهار والثالث في تشبيه الأنوار والأثمار والنبات والرابع في التشبيه الواقع في الحمريات والخامس في التشبيه الواقع في الغزل والسادس في تشبيهات مختلفة . والكتاب يجمع طرف التشبيه في هذه الموضوعات المتنوعة ، وخاصة تلك التي دارت على ألسنة المحدثين من شعراء مصر والشام والعراق والمغرب والأندلس ، واستعان في ذلك بكتب الأدب العامة مثل البيضة للثعالبي والخريدة للعماد الأصبهاني . ونعجب إذ نرى شعراء العالم العربي معروضين في الكتاب مع فرائدهم في التشبيه ، غير أن العجب يزول إذا عرفنا ما أكدناه مراراً من أن العالم العربي كانت تسوده وحدة جعلت آثاره الأدبية والعلمية وكأنها آثار كل بلد من بلدانه ، مما جعل دواوين الشعراء تُداول في أوسع نطاق ، بحيث لم يكن يظهر شاعر في بلدة وينال شيئاً من الشهرة حتى تتناقل ديوانه وأشعاره البلدان العربية المختلفة . وبلغنا

(١) انظر على بن ظافر في معجم الأدياء ١٣ / ٢٦٤

وفوات الوفيات ١٠٦ / ٢ .

بعد ابن ظافر عبد الرحيم^(١) بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ ونراه في كتابه « معالم الكتابة ومغامم الإصابة » يعقد فصلا للبلاغة يعرض فيه للإيجاز والمساواة واختيار الألفاظ والسجع وبعض فنون البديع . ويتلوه العزيز عبد السلام الإمام الشافعي المشهور نزيل القاهرة سنة ٦٤٠ وقد ظل فيها علما كبيرا في الفقه الشافعي وغيره ، وله كتاب منشور سماه الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، وهو بذلك كتاب في علم البيان ، وقد قصره على إحصاء دقيق لأمثلة المجاز في الذكر الحكيم ، عُنى فيه بالأمثلة أكثر مما عنى بالقواعد وتفاريحها الكثيرة المعروفة في علم البيان . وأهم من العزيز عبد السلام في ميدان التأليف بمصر في البلاغة وفنون البديع معاصران له هما أحمد بن يوسف التيفاشي المغربي الجزائري نزيل مصر المتوفى سنة ٦٥١ وابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ . أما التيفاشي فذكرنا عنه في غير هذا الموضع أنه نزل مصر في باكورة شبابه وأنها تمهدته حتى أصبح عالما لا يُشَقُّ غباره في التاريخ الطبيعي والجيولوجيا وكان أدبيا وعُنى بالتأليف في البديع وألف فيه كتابا أحصى فيه سبعين محسنا من المحسنات البديعية ، وسقط الكتاب من أيدي الزمن . أما ابن أبي الإصبع فيَعَدُّ أكبر بلاغي ظفرت به مصر في القرن السابع الهجري ، وله كتابان : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، وكتاب بديع القرآن . والكتابان جميعا في دراسة البديع وألوانه في الشعر والنثر وآتى القرآن الكريم ، وواضح من عنوان ثانيهما أنه خاص ببديع الذكر الحكيم ، والكتابان منشوران بالقاهرة . ويذكر ابن أبي الإصبع في تقديمه للكتابين مصادره ومنها نتيين أنه لم يكد يترك كتابا ألف في البلاغة وفنون البديع وإعجاز القرآن الكريم إلا رجع إليه ، من ذلك نظم القرآن للجاحظ وبديع ابن المعتز ونقد الشعر لقدامة وحلبة المحاضرة للحاتمي والنصف لابن وكيع المصري والصناعتين لأبي هلال العسكري والنكت في إعجاز القرآن للرمانى وإعجاز القرآن للباقلاني والمجاز للشريف الرضى والموازنة للآمدى والوساطة لعل بن عبد العزيز الجرجاني والعمدة لابن رشيق وسرُّ الفصاحة لابن سنان الحفاجي ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني والكشاف للزمخشري ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي والمثل السائر لابن الأثير وبديع شرف الدين التيفاشي إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . وإنما ذكرنا الأمهات لندل على أن كتب البلاغة والبديع كانت تدرس في مصر ، وكان المصريون يعكفون على قراءتها فيها وقها ودراسة واستنباطا . ويعرض ابن أبي الإصبع في كتابه

وكتابه : « معالم الكتابة » طبع ببيروت سنة ١٩١٣ .

(١) انظر ترجمة ابن شيث في فوات الوفيات ١/ ٦٠٠

وشذرات الذهب ٥/ ١١٧ والطالع السعيد للإدغرى ١٦٠

تحرير التعبير الألوان البديعة التي اختص بها ابن المعتز ، ثم يعرض الألوان العشرة التي انفرد بها قدامة وقد بلغت جميعا ثلاثين لونا ، ويسمى هذه الألوان الأصول ، حتى إذا انتهى من عرضها أتبعها بالفروع التي ذكرها المؤلفون حتى زمه وقد بلغت ستين محسنا ، ويتلوها بثلاثة محسنات نقلها عن بديع الإجداد ، وبذلك تبلغ الألوان البديعة ثلاثة وتسعين لونا ، ويتلوها بثلاثين لونا من عمله واكتشافه ، سلم له البلاغيون منها نحو عشرين محسنا ، وقالوا إن الباقي إما مسبوق إليه أو مدخول عليه ^(١) . وصنف بعد هذا الكتاب كتابه الثاني « بديع القرآن » ذكر فيه أولا - كما قلنا آنفا - أصول المحسنات البديعة عند ابن المعتز وقدامة ، ثم مضى في ذكر المحسنات الفرعية حتى بلغ بها مائة محسن وتسعة . ويلاحظ أنه أدخل في تلك المحسنات الصور البيانية وطائفة من أبواب علم المعاني كالتكرار والتفصيل والإيضاح والبسط أو الإطناب والإيجاز وبذلك وسع مدلول المحسنات البديعة وظل ذلك عند أصحاب البديع من بعده .

وتُشغَلُ مصر طويلا بكتابي ابن أبي الإصبع ، حتى إذا كنا في منتصف القرن الثامن الهجري وجدناها تُسهم في العناية بمباحث المشاركة في البلاغة وعلومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، وكان الخطيب القزويني قد لخص القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي ، وهو القسم الخاص بعلوم البلاغة ، وأحسن في هذا التلخيص إلى حد بعيد . مما جعل الشراح يعنون بتفسيره والتعليق عليه ، ويُعنى بذلك شارح مصري هو أحمد ^(٢) بن علي بن عبد الكافي السبكي المتوفى سنة ٧٧٣ و يسمى شرحه « عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح » ونراه في فوائده يشيد بالمصريين وما طُبعوا عليه من الذوق السليم الذي أغناهم عن التعمق في مباحث السكاكي البلاغية وشراحه الإيرانيين لاهتمامهم جميعا بالعلوم العقلية والفلسفية ، وبصور عمله في شرحه قائلا : « اعلم أي مزجت قواعد هذا العلم (علم البلاغة) بقواعد الأصول والعربية .. وضمت شيئا من القواعد المنطقية والمعاقد الكلامية والحكمة الرياضية أو الطبيعية » . وكأنما أعدته في شرحه طريقة المشرقيين أو المشاركة ، فعاد يصل في شرحه بين البلاغة وعلوم المنطق والكلام والفلسفة الطبيعية والرياضية ، مما أصاب البلاغة ومباحثها بالجناس في مصر كغيرها من بلدان المشرق . وكانت قد أخذت تظهر بديعيات مختلفة وهي مدائح نبوية تشتمل المدحة منها على محسنات البديع ، بحيث

الشافية ١٠/١٣٩ راجعه في الدرر الكاشفة ١/٢١٠

وشرحات للذهب ٦/٢٢٦ والنجم الزاهرة ١١/٢٢١

وإنباء الضر بآباء مصر لابن حجر ١/٢١٠ .

(١) نضجات الأزهار على نبات الأسرار (طبع)

دمشق ص ٣ .

(٢) انظر في ترجمة السبكي ترجمة أبيه في طبقات

يضم كل بيت محسناً من تلك المحسنات . وصُنعت لتلك البديعيات شروح تفسرها وتعرض أمثلتها . ولم تنارع مصر إلى المشاركة في هذه البديعيات التي أخذت تظهر منذ القرن السابع الهجري ، حتى إذا كنا بأخرة من زمن المالك وجدنا السيوطي ينظم بديعة بسميها ، نظم البديع في مدح خير شفيح ، وله عليها شرح . وتليها بديعة لعائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٣٠ . وتعني مصر زمن العثمانيين بتلخيص الخطيب القزويني وشروحه وخاصة شرح السبكي والسعد الشاذلي .

وإذا كانت المباحث البلاغية تأخرت في مصر لهذا العصر فإن المباحث النقدية شاركتها في هذا التأخر ، ويلقانا في أوائل العصر - كما مرّنا آنفاً - كتاب المنصف لابن وكيع في بيان سرقات المتنبي ومشكل شعره ، وقد ذكرنا أنه احتوى على مقدمة في فنون البديع ، وذهب بلاشير إلى أنه ألفه انتصاراً لابن حنّابة وزير كافور إذ ترفع المتنبي عن مدحه فأغرى ابن وكيع بنقده ^(١) . وهو يذكر في تقديمه لكتابه أن جماعة بالغوا في مديح المتنبي حتى فضلوه على جميع الشعراء بنتائج فكره وبدائع معانيه ، فأراد أن يكشف عن مدى تقليده ومحاكاته لمن تقدموه ، ويقدم لكلامه بمبحث عن السرقات يصنفها فيه عشرين صفاً . وتحدث حديثاً بجملاً - عرضاً له - عن فنون البديع ، ثم أخذ يفيض في سرقات المتنبي متعباً لها في قصائدهم مع ترتيبها ترتيباً تاريخياً . وهو بحث قيم بالقياس إلى غيره من بحوث معاصريه ومن جاء بعدهم ممن عزا ببيان سرقات المتنبي ، إذ يدل على كثرة محفوظه وفطنته ودقته في الفهم . وقدما قلنا إن نقادنا القدماء كان ينبغي ألا يتوسعوا في بحث سرقات الشعر هذا التوسع كما كان ينبغي أن ينحروا عنه كلمة السرقة ويسموا التحوير الفنى ، ومحاولوا أن يبينوا مدى قدرة الشاعر على هذا التحوير . ونعجب أن يحاول ابن وكيع بيان الإصناف عند المتنبي وضعفه اللغوى ليت وقع عليه عفاً هنا أو هناك ، والشاعر لا يقاس ببعض عثرات له نَدْتُ عنه ، وإنما يقاس بروائع أبياته وفرائدها البديعة . وهذا وأشباهه عند ابن وكيع جعل ابن جنى يؤلف كتاباً في النقض على ابن وكيع في شعر المتنبي ونمطته ^(٢) كما جعل ابن رشيق يقول عنه : « ما أبعد الإصناف منه » ^(٣) . وربما جرّ ابن وكيع إلى ذلك كله أنه كان شاعراً من ذوق غير ذوق المتنبي فأسرف في التحامل عليه . ولم يؤدّ كتاب المنصف غايته من الهبوط في مصر بمزلة المتنبي فقد مضى كثيرون يبالغون في تشييعهم له ، كما جعل العميدى ^(٤) محمد بن أحمد كاتب

(١) انظر أبو الطيب المتنبي لبلاشير ترجمة الدكتور إبراهيم

(٢) الصلة لابن رشيق ٢١٦/٢ .

(٣) انظر العميدى في معجم الأدباء ٢١٢/ ١٧ وإنباه

الكلاني (طبع دمشق) ص ٤٨٧ .

الرواة ٢٤٦/٣ وبغية الوعاة للسيوطي ١٩ .

(٤) معجم الأدباء ١٢/ ١٣٣

الإنشاء في دواوين الفاطميين المتوفى سنة ٤٣٣ يكتب بحثا ثانيا في سرقاته باسم «الإبانة عن سرقات المتنبي» وهو يطيل في عرض هذه السرقات - كما تنزاهى له - مع كثير من الغمز واللمز والتجريح للشاعر الكبير، ويعرض - كما عرض ابن وكيع - لبعض عيوبه اللغوية.

وماتزال مصر معنية بالبحث في السرقات ويقف عندها مرارا ابن منجب الصيرفي في رسائله، ووماتزال معنية بالمتنبي، بل إنها لقد عنايتها إلى جميع شعراء العالم العربي. ونرى أضواء من ذلك كثيرة في كتاب فصوص الفصول^(١) لابن سناء الملك شاعر صلاح الدين، إذ نراه يجمع فيه بعض الرسائل المتبادلة بينه وبين القاضي الفاضل، وفيها يعرضان كثيرا لشعراء العالم العربي. ومن طريف ما ذكره ابن سناء الملك فيها أنه سأل القاضي الفاضل لماذا يدور شعر المتنبي على كل لسان، فقال لأنه يشتمل على ما يدور بخواطر الناس من أفكار، يقصد حكمه البديعة. وسأله القاضي الفاضل أن ينتخب مختارات من شعر ابن الرومي فاعتذر عن ذلك بأنه «ليس من أهل اختياره، ولا من الفواصين الذين يستخرجون الدر من بحاره، لأن بحاره زخّارة، وأسوده زّارة، ومعدن يثّره مردوم بالحجارة، وعلى كل عقيلة ألف نقاب بل ألف ستارة، يطمع ويونس، ويوحش ويؤنس، وينير ويظلم، ويصبح ويعتم، شذرة وبذرة، ودرّة وآجره، وقبلة بجانبها لسعة»، وابن سناء الملك بذلك عبر في وضوح عن مدى التفاوت بين أشعار ابن الرومي، وهو نقد دقيق، وسأله القاضي الفاضل مرة أخرى صنّع منتخب لشعر ابن رشيق، فصنعه، وذكر له في إحدى رسائله ذلك كما ذكر له أن شعره مسروق من شعر ابن المعتز والمتنبي، يقول: «ولولم يخلق الله ابن المعتز والمتنبي لما كان ابن رشيق يعرف الشعر فضلا عن أن ينظمه أو يعلمه، وهوينب أشعار هذين الرجلين نها قبيحا ولاسيما ابن المعتز». وينوّه ابن سناء الملك مرارا في الرسائل بآبن المعتز والبحترى. وقد حملت فيما حملت نظرات نقدية للقاضي الفاضل أحيانا في بعض أبيات لابن سناء الملك، وأورد القلقشندي في صبحه نموذجا^(٢) من هذه الرسائل المتبادلة بين الأدبيين الكبيرين، إذ أورد رسالة نقد فيها القاضي الفاضل يت ابن سناء الملك:

صلينى وهذا الحسنُ باقى فرما يُعزّل يثّ الحسن منه ويُكسّ

لذكره فيه كلمة «يكس» المتبدلة، وردّ عليه ابن سناء الملك بأنه إنما تابع في ذلك ابن المعتز

في قوله:

وَقَوَامِي مِثْلُ الْقَنَاءِ مِنَ الْخَطِّ وَخَدَّيْ مِنْ لِحْيَتِي مَكْنُوسُ
وَكأنه يريد أن يقول للفاضل إن الكلمة استعملها ابن المعتز من قبله وأصبحت بذلك كلمة
شعرية ولا بأس على شاعر من استعمالها .

وابن سناء الملك أكبر رمز مصرى فى العصر لانتقال شعراء مصر ونقادها بالأدب الأندلسى ،
فقد درس موشحات الأندلسيين ، ولم يكونوا قد وضعوا عروضها فوضعه لها ، وكأنه يحلّ من
عروض الموشحات الأندلسية محلّ الحليل بن أحمد من عروض الشعر العربى ، وستحدث بشيء
من التفصيل عن ذلك فى الفصل التالى .

وقد شغل ابن سناء الملك النقاد فى زمنه وبعد زمنه . لا بما وضعه من عروض الموشحات
فحسب ، بل أيضا بشعره ، فقد كان أنه شاعر أنجبته مصر حتى أيامه ، فشغل النقاد طويلا
بأشعاره ، وفيه وضع ابن جبارة ^(١) على بن إسماعيل موطنه المتوفى سنة ٦٣٢ كآبه « نظم الدرر فى
نقد الشعر » وهو فى نقد أشعار ابن سناء الملك ، والكتاب مفقود ، غير أن الصفدى فى كتابه
« الفيت المسجّم » الذى وضعه فى شرح لامية العجم نقل عنه أطرافا من نقده لبعض أبيات ابن
سناء الملك ، ونراه فيها متحاملا عليه تحاملا شديدا أو كما قال الصفدى فى نكت المهيان « متعتا .
تعتا زائدا » . من ذلك قول ابن سناء الملك :

يَشْكُوكَ الْقَنَا يَحْمُونَ شَهْدَ رُضَائِهَا وَلَا يُبْذُونَ الشَّهْدَ مِنْ إِبْرِ الثَّحْلِ

يصف فى البيت منعة صاحبه وأن أحدا لا يستطيع أن يقترب من حياها لبأس قومها وخشية
من رماحهم أن تسفك دمه . وتوقف ابن جبارة بإزاء البيت ^(٢) وقال إنه أراد أن يمدح قوم
صاحبه فهجاهم بالمثل للمضمن آخر بيته الذى جعله كفن ميثه لأله جعل طعن رماحهم كابر
النحل ، يقول ابن جبارة : وإبرة النحل لا أثر لها ولا ألم يحصل منها . ويرد عليه الصفدى قائلا :
أما كونه يدعى أنه لا ألم فى إبر النحل ولا ضرر فى الزناير فهذا مما لم يسمع ، وهو تحامل ألبس فى
إبر النحل والزناير سُمّ يمنع القرب منه والدنوا إليه . وغالب الناس يهاب ذلك ولا يقدم عليه ،
وربما لسع الزنبرور بعض الناس فخورم منه ومات . ورد عليه أيضا ما قاله من أنه شبه طعن رماح
القوم بإبر النحل فهو لم يعقد فى البيت تشبيها ، وإنما جاء بمثل ليدل على أن حلاوة ريق صاحبه

(١) انظر فى ابن جبارة نكت المهيان ص ٢٠٨ وبقيّة
(٢) الفيت المسجّم شرح لامية العجم (طبع مطبعة
بولاق) ١ / ٢٢٤ .

لا تُثَال إلا بعد مشقة . وأنكر ابن جبارة في البيت أيضا كلمة « بشوك القنا » وقال الصفدى ردا عليه إنها استعارة حسنة ، وأنشد بيتين للأرجاني وابن خفاجة شبا فيهما القنا بالشوك . وتوقف ابن جبارة بإزاء^(١) بيت نظم ابن سناء الملك قصيدته في مديح القاضي الفاضل ، إذ يقول :

يَقْرِى الضيَوفَ شِعَاعٌ يَثِرُ أَحْمَرُ فَشِعَاعُ ذَاكَ الثَّبَرِ نَبْرَانُ الْقَرَى

وحاول في أول نقده أن يثبت سرقه ابن سناء الملك للبيت من بيت لابن عمار وآخر للمتنبي . وقال الصفدى : إن هذا تعنت زائد إذ ليس للبيت علاقة بما قاله الشاعران . ويترسل ابن جبارة في نقده للبيت فيقول : قوله : « يقرى الضيوف شعاع ثبر أحمر » . الثبر لا يكون إلا كذاك (أى أحمر) وإنما قصد المبالغة وشبه ذلك بشعاع النار التى توقد على البفاع ليتهدى بها الحيران . وتهتدى إلى مواضعها الضيفان ، وقد جعله يدفع إلى الضيوف صلة الإنعام ويمنعمهم من الطعام . يقول الصفدى : وهذا تعنت لأن الثبر منه ما يكون أصفر أو أخضر ومنه ما يكون أحمر وهو المضروب وإنما سماه ابن سناء الملك ثبرا مجازا ، ولولا أن هذا لازم لما قيل في بعض المواطن الذهب الأحمر كما يقال الثلج الأبيض . وعلى هذا النحو لا يزال الصفدى يرد على ابن جبارة بعض نعتة وتحامله على ابن سناء الملك . ويفهم من كلام الصفدى أن ابن جبارة كان يستعرض بعض قصائد الشاعر . وما يزال يعلق على طائفة من أبياتها بتحامل شديد .

ولاشك في أن النقد الأدبي المصرى في هذا العصر خسر كثيرا بسقوط هذا الكتاب النقدي من يد الزمن . ومن المؤكد أننا لا نستطيع الحكم عليه بدقة من خلال ما نقله عنه الصفدى . وهو فعلا لم يتوسع في نقله . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن أهم كتاب ظهر بعد كتاب ابن جبارة هو كتاب خبز الشعير لابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ وهو أهم شعراء مصر في زمن المماليك ، وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين تلميذه الصفدى بسبب بحث كبه عن سرقاته من الشعراء السابقين فألف هذا الكتاب موضحا فيه سركات الصفدى لأشعاره ومعارضته لبعض قصائده . وفي مقدمته^(٢) يقول : إنه ليس للصفدى من جيد الأشعار لمعة إلا ومن لفظه يشكاتها . ومضى يذكر الأصل^(٣) من أبياته أو الأصول ، ثم الفرع أو الفروع من أبيات الصفدى . وفي صبح الأعشى دراسة^(٤) نقدية

(٢) في الحزنة جملة كبيرة من هذا الكتاب انظر

الصفحات ٢٨٥ - ٢٨٩ .

(٤) انظر صبح الأعشى ١٩٢ / ٢ - ٣٣٨ .

(٢) الفهرست للمسجم ١ / ٢٦٤ وانظر ١ / ١٢٨ ، ٢٤٣ .

(٢) الكتاب مفقود غير أن ابن حجة الحموى احتفظ في

خزائنه (طبعة المطبعة الخيرية بالقاهرة) بمقدمة الكتاب

طريقة للمعانى والألفاظ وقبحها وما بداخلها من الغرابة والابتذال والإيجاز والإطناب ، وقد امتدت عنده إلى نحو مائة وأربعين صحيفة . وولتقى في أيام العثمانيين بشهاب الدين الخجاسي وكتابه « ربحانة الألبا » الذى ترجم فيه لشراء زمنه في الشام والمغرب والحجاز واليمن ومصر ، وقد بث فيه ملاحظات نقدية كثيرة .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المصريون يعنون بقراءات الذكر الحكيم منذ أخذ الصحابة الذين تزلوها يعلمونه لهم . وأسهم معهم في هذا الصنيع التابعون من مثل عبد^(١) الرحمن بن هرمز تلميذ أبى الأسود الدؤلى نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ١١٧ للهجرة . ورحل كثير من المصريين إلى المدينة في القرن الثانى لحمل قراءة إمامها نافع الذى طبقت شهرته في القراءات العالم الإسلامى حتى وفاته سنة ١٦٩ . وأشهر تلاميذه بمصر من حملة قراءته ورش^(٢) عثمان بن سعيد المتوفى سنة ١٩٧ وكان ماهرا في العربية ، وإليه انتهت رئاسة الإقراء بالديار المصرية ، وحمل عنه قراءته أهل المغرب كما مر بنا في غير هذا الموضع ، ولا يزالون يقرءون بها إلى اليوم . ومن أهم تلاميذه المصريين عبد^(٣) الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم أبو الأزهر المتوفى سنة ٢٣١ ويقول السيوطى : وعنه انتشرت قراءة ورش في الأندلس فقد حملها إليه تلاميذه . ويبدو أن مصر مضت طوال القرن الثالث الهجرى تعنى بالقراءات وحملها عن كبار القراء ، كما تعنى بما يؤلف فيها من مصنفات ، يدل على ذلك أقوى الدلالة أنه بمجرد أن صنف أبو بكر بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ كتابه السبعة في القراءات الذى جمع فيه قراءات نافع إمام أهل المدينة وابن كثير إمام أهل مكة وأبى عمرو بن العلاء إمام أهل البصرة وعاصم وحزمة والكسافى أئمة أهل الكوفة وابن عامر إمام أهل الشام نجد عالما مصريا معاصرا له من علماء القراءات هو أبو غانم المتوفى سنة ٣٣٣ يؤلف كتابا في اختلاف السبعة^(٤)

(١) سبقت مصادر ترجمته ص ١٠٨ .

(٢) انظر في ورش . حسن المحاضرة ٢٨٥ / ١ وطيقات

وطيقات القراء ٣٨٩ / ١ .

(٤) حسن المحاضرة ٤٨٨ / ١ وانظر طبقات القراء

٣٠١ / ٢ حيث يذكر تلميذه لأحد تلاميذ ابن مجاهد .

(٣) انظر في عبد الصمد حسن المحاضرة ٤٨٦ / ١

المذكورين ، وقد أحصى السيوطي ١٣٥ قارئاً ممن تصدروا للقراءات بمصر حتى زمنه . ولا ريب في أنه كان وراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة ، ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعاً إنما نكتفي منهم بمن تركوا في القراءات مصنفات طارت شهرتها في العالم الإسلامي . وأول من نقف عنده عبد^(١) النعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد ثم ابنه طاهر^(٢) المتوفى سنة ٣٩٩ صاحب كتاب التذكرة في القراءات الثمان ، وعليه تخرج أبو عمرو الداني أكبر قراء الأندلس في زمنه صاحب كتاب التيسير وغيره كما تخرج عليه وعلى أبيه مكى بن أبي طالب القيرواني نزيل قرطبة صاحب كتاب التبصرة وغيره . ونغضى في القرن الخامس فلتقى بعد^(٣) الجبار الطرسوسي المتوفى سنة ٤٢٠ صاحب كتاب المجتبى ، كما تلتقى بالحسن^(٤) بن محمد البغدادى المالكي نزيل مصر للمتوفى سنة ٤٣٨ صاحب كتاب الروضة ، وتلتقى بإسماعيل^(٥) بن خلف المتوفى سنة ٤٥٥ وكتابه «العنوان» . وتلتقى بعده بموسى بن الحسين المعروف باسم المعدل المصري وكتابه الروضة في اختلاف الأئمة القراء الخمسة عشر^(٦) ، وتلتقى في القرن السادس بآبن الفحام^(٧) شيخ الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٠ وكتابه التجريد ، كما تلتقى بآبن^(٨) بليمة القيرواني نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٤ وكتابه تلخيص العبارات .

ويلقانا أيام الأيوبيين علم كبير من أعلام القراءات هو الإمام الشاطبي^(٩) الضرير المتوفى بالإسكندرية سنة ٥٩٠ وقصيدته «جزر الأمان» المعروفة باسم الشاطبية نسبة إليه ، وقد عني بشرحها كثيرون من أئمة القراء وفي مقدمتهم تلميذه العلم^(١٠) السخاوي المتوفى - كما مر بنا - سنة

(٦) انظر في المعدل للمصري طبقات القراء ٣١٨/٢ والنشر في القراءات العشر ٦٦/١ .

(٧) راجع في ابن الفحام حسن المحاضرة ٤٩٥/١ وطبقات القراء ٣٧٤/١ والنشر ٧٥/١ .

(٨) انظر في ابن بليمة حسن المحاضرة ٤٩٤/١ وطبقات القراء ٢١١/١ والنشر ٧٢/١ .

(٩) راجع في الشاطبي حسن المحاضرة ٤٩٦/١ وطبقات القراء ٢٠/٢ وطبقات الشافعية ٢٧٠/٧ ونكت الحصان ص ٢٢٨ ومعجم الأدياء ٢٩٤/١٦ والنشر ٦١/١ .

(١٠) راجع مصادر ترجمته في ص ١١٨

(١) راجع في عبد النعم بن غلبون حسن المحاضرة ٤٩٠/١ وطبقات القراء ٤٧٠/١ والنشر في القراءات العشر ٧٩/١ .

(٢) انظر في طاهر حسن المحاضرة ٤٩١/١ وطبقات القراء ٣٥٦/١ والنشر في القراءات العشر ٧٣/١ .

(٣) انظر في الطرسوسي حسن المحاضرة ٤٩٢/١ وطبقات القراء ٣٥٧/١ والنشر ٧١/١ .

(٤) راجع في الحسن بن محمد حسن المحاضرة ٤٩٣/١ وطبقات القراء ١٣٠/١ والنشر ٧٤/١ .

(٥) انظر في آبن خلف حسن المحاضرة ٤٩٤/١ وطبقات القراء ١٦٤/١ والنشر ٦٤/١ .

٦٤٣ وله في القراءات كتاب جبال القراء وكال الإقراء . وكان يعاصره عبد الرحمن^(١) بن إسماعيل الصفراوى الإسكندرى المتوفى سنة ٦٣٦ صاحب كتاب الإحلاق . ويتوالى التأليف في القراءات ونلتقى بابن الجندى المتوفى سنة ٧٦٠ وكتابه البستان ، وشرح للسيوطى على الشاطبية . ويختم الإمام شهاب^(٢) اللاتين القسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣ زمن للمالك بكتابه الرائع : ولطائف الإشارات لفنون القراءات ، وفيه يجمع طرق القراءات الأربع عشرة ، بإضافة قراءات أبى جعفر يزيد بن القعقاع اللدنى ويعقوب بن إسحق البصرى وخلف بن هشام الكوفى المكلين للعشرة ، وإضافة قراءات ابن عيصن المكى واليزيدى البصرى والحسن البصرى والأحمش الكوفى إلى ما ذكرناه آنفاً من قراءات السبعة الذين صنف فيهم ابن مجاهد كتابه . ويظل التأليف في القراءات لزمن العثمانيين ناشطاً ومن أهم ما ألف في زمنهم كتاب إتحاف البشر وهو يُعنى بعرض أقراءات الأربع عشرة ألفه البناء أحمد بن محمد الدمياطى المتوفى سنة ١١١٧ .

ومعروف أنه تكوَّنت علوم كثيرة حول القرآن الكريم ، ونجد مصر تشاطر فيها مشاطرة واضحة منذ القرن الثالث الهجرى ، ولا يلبث أبو جعفر النحاس الذى مر ذكره أن يؤلف في جوانب منها ، فقد ألف كتاباً في الناسخ والمنسوخ وكتاباً في الوقف والابتداء وألف كتاباً - كما مر بنا - في إعراب القرآن وهو أحد الأصول المهمة في هذا الموضوع . وظلت مصر تُعنى بعلوم القرآن من بعده وتصنّف فيها مصنفات مختلفة تتصل بتجويده وبناسخه ومنسوخه ولغاته وغريبه وأسباب نزوله وما فيه من الوقف والابتداء والصور البلاغية إلى غير ذلك من علومه المتنوعة . ويطول الحديث لو أننا تتبعنا ما كتبه مصر بهذا العصر من تلك العلوم ، ولكن نكتفى بالإشارة إلى كتابين هما البرهان في علوم القرآن لبدر^(٣) الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ والإتقان في علوم القرآن للسيوطى ، وهما يعرضان مادة هذه العلوم وما ألف فيها حتى نهاية القرن التاسع إذ توفى السيوطى كما مر بنا سنة ٩١١ .

ومن أهم هذه العلوم علم التفسير . وطبيعى أن تُعنى به مصر منذ دخلت في الإسلام حتى تفهم

(١) انظر في الصفراوى حسن المحاضرة ١/ ٤٥٦ (٣) انظر في الزركشى الدرر الكامنة ١٧/ ٤ وشنبرات والشرحات الذهب ١٨/ ٥ .

(٢) راجع في القسطلاني الضوء اللامع ج ٢ رقم ٣١٣ والشرحات ١٢١/ ٨ واليدر الطالع ١٠٢/ ١ .

الذهب ٣٣٥/ ٦ وحسن المحاضرة ١/ ٤٣٧ وإنباء الغرر بأبناء العصر ١/ ٤٤٦ .

آى الذكر الحكيم ، وكان حُفاظها يروون خلفاً عن سلف ما قيل فى معانى آى الذكر الحكيم ، واشتهر بها فى القرن الثانى طريق وثيق عن ابن عباس المشهور بتفسير القرآن الكريم ، هو طريق على بن أبى طلحة الهاشمى وفيه يقول أحمد بن حنبل : « إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة الهاشمى لورحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا » . ويذكر السيوطى أن البخارى اعتمد على هذه الرواية كثيرا فى صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس ^(١) . وكأنها بعض ما حملة البخارى عن مصر فى رحلته إليها لتدوين الحديث عن جلة رواته فيها . وتظل مصر معتبة بالقرآن وتفسيره وأحكامه ، ويؤلف أبو جعفر الطحاوى الفقيه الحنفى المتوفى سنة ٣٢١ كتابا فى أحكام القرآن . ويعنى أبو جعفر النحاس بعلوم القرآن ، ولا يلبث أحد تلاميذه ، وهو أبو بكر الإدوفى ^(٢) محمد بن على المصرى المرقى المتوفى سنة ٣٨٨ أن يؤلف فى التفسير كتابا ضخما يقول المترجمون له إنه كان فى مائة وعشرين مجلدا ، وسماه كتاب الاستفتاء فى علوم القرآن ، وأهم تلاميذه الحوفى المار ذكره بين النحاة ، وله كتاب البرهان فى تفسير القرآن فى ثلاثين مجلدا ويقول القفطى : صُفَّ كتابا كبيرا فى إعراب القرآن فى عشرة مجلدات . وهو وأستاذه أهم المفسرين فى زمن الفاطميين ، ومن تلقى به فى زمن الأيوبيين المرسى ^(٣) السلى محمد بن عبد الله نزل مصر واستقر بها سنة ٦٢٤ وتوفى سنة ٦٥٥ وله تفسير كبير فى أكثر من عشرين جزءا سماه « رى الظمان فى تفسير القرآن » . وكان يعاصره العزيز عبد السلام الفقيه الشافعى المشهور وله تفسير ، منه مخطوطة بدار الكتب المصرية ، بناء على الوجوه البيانية والبلاغية فى آى الذكر الحكيم .

ونمضى فى زمن الماليك وتلقى بالقرطبى ^(٤) محمد بن أحمد نزيل مصر والمستقر بمدينة المنيا (منية الحصب فى الصعيد) المتوفى سنة ٦٧١ وله التفسير المشهور المسمى « جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن » . ويلقبنا بعده ابن ^(٥) المنبر أحمد بن محمد الإسكندرى المتوفى سنة ٦٨٣ وله تفسير سماه « البحر الكبير فى نُخب التفسير » وكتاب ثان تيج فيه

(١) قاسم ص ٢٧٩ وطبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٨
وشلوات الذهب ٣٣٥/٥ .
(٢) راجع ابن المنبر فى الديباج المذهب ص ٧٨
وشلوات الذهب ٣٨١/٥ والنجوم الزاهرة ٣٦١/٧
وفوات الوفيات ١٣٢/١ .

(١) الاثنان فى علوم القرآن للسيوطى ٢/٢٢٣ .
(٢) انظر الإدوفى فى طبقات المفسرين للسيوطى وحسن
الحاضرة ١/٤٩٠ وطبقات الفراء ٢/١٩٨ .
(٣) راجع فى المرسى السلى طبقات المفسرين ص ٣٥
ومصمم الأدباء ١٨/٢٠٩ وشلوات الذهب ٥/٢٦٩ .
(٤) انظر القرطبى فى الديباج للمذهب لابن فرحون (طبع)

آراء الزمخشري الاعتزالية التي بثها في تفسيره وحاول نقضها بما يتفق وآراء أهل السنة ، سماه الانتصاف من الكشاف وهو مطبوع على هوامشه . ويتلوه ابن^(١) النقيب محمد بن سليمان المتوفى سنة ٦٩٨ وله تفسير كبير الحجم سماه التحرير والتحجير لأقوال أئمة التفسير ، وجعل له مقدمة كبيرة تحدث فيها عن الوجوه البلاغية فيه . وقد سقط الكتاب من يد الزمن ، ربما لضخامة حجمه . وكان يعاصره عبد^(٢) العزيز الديري المتوفى سنة ٦٩٤ وله المصباح المنير في علم التفسير ، وأيضاً كان يعاصره العلم^(٣) العراقي المصري المتوفى سنة ٧٠٤ وسمى العراق نسبة إلى جده لأمه ، وكان هذا الجد مصرياً غير أنه دخل العراق فلقب بهذا الاسم الذي انتقل إلى حفيده ، وله كتاب في الانتصار للزمخشري من ابن المنير وله مختصر في التفسير .

وأكبر المفسرين في القرن الثامن أبو حيان الأندلسي وتفسيره البحر المحيط مشهور ، وكان قد اتخذ القاهرة دار مقام له غير أن عداؤه في الأندلسيين . وأهم المفسرين بعده جلال الدين السيوطي وله تفسير كبير يسمى الدر المنثور في التفسير بالمأثور مطبوع في ستة مجلدات . وكان جلال الدين المحلى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٤ فسر نحو نصف القرآن من أول سورة الكهف إلى آخره فأكمل تفسيره جلال الدين السيوطي من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء ، وتفسيرهما مطبوع في جزءين بأسم تفسير الجلالين . ويدخل زمن العثمانيين ، وأهم المفسرين فيه شمس الدين الخطيب^(٤) الشريفي المتوفى سنة ٩٧٧ وله تفسير مطبوع يسمى السراج المنير .

وتنوع مصر بحفاظ الحديث النبوي منذ نزله الصحابة وفي مقدمتهم أبو ذر الذي سكنها مدة وعقبة بن عامر الجهني وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وظل يتزلفا كثير من حفاظ التابعين وفي مقدمتهم نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب والأعرج عبد الرحمن بن هرمز صاحب أبي هريرة ويزيد بن أبي حبيب . وكثر حفاظ الحديث ورواته في القرن الثاني الهجري ، ومن أهمهم أبو زرعة

(٣) انظر في العلم العراقي حسن الحاضرة ١/ ٤٢١ ونكت الهيدان ص ١٩٥ والدرر المكنة ١٣/ ٣ .

(٤) راجع في الخطيب الشريفي فترات اللعب ٣٨٤/ ٨ .

(١) انظر ابن النقيب في طبقات المفسرين ص ٣٢ وشذرات الذهب ٤٢٧/ ٥ وفوات الوفيات ٤٣٠/ ٢ .

(٢) راجع الديري في حسن الحاضرة ١/ ٤٢١ .

المتوفى سنة ١٥٨ وابن لمبة المتوفى سنة ١٧٤ والليث بن سعد الفقيه المشهور ، وعبدالله^(١) بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم تلميذا مالك والإمام الشافعي وتلاميذه : أبو يعلى وحرمله والمزني والربيع . ومن كبار الحفاظ حنيفة أسد السنة المتوفى سنة ٢١٢ وأحمد بن صالح المتوفى سنة ٢٤٨ والحارث بن مسكين المتوفى سنة ٢٥٠ ويونس بن عبد الأعلى المتوفى سنة ٢٦٤ ومحمد بن عبدالله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ . ولاشهر مصر بحفاظ الحديث نزها في طلبه من أصحاب الصحاح الستة البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائي وقد اتخذها دار مقام له حتى توفى سنة ٣٠٣ ومن مصنفاته : السنن الكبرى والصغرى وهى إحدى الصحاح الستة ، وله مسند على مسند مالك . ويلقبنا الطحاوى الفقيه الحنفى وله فى الحديث كتاب السنن ومعانى الآثار ومشكل الآثار ، وابن حنابلة وزير كافور المتوفى سنة ٣٩١ وكان له مجلس لإملاء الحديث فى وزارته ، وسمع الدارقطنى حافظ العراق فى زمنه وصاحب كتاب السنن الكبرى وغيره المتوفى سنة ٣٨٥ أنه يؤلف مسنداً فجاء مصر ليعينه ، تمول ، وكان فيها يروى الحديث ويعلمه ، ويأخذه عن حفاظه المصريين ويأخذه المصريون عنه . ومن أهم تلاميذه بمصر عبد^(٢) الغنى بن سعيد الحافظ المتوفى سنة ٤٠٩ وله فى الحديث المختلف والمؤتلف فى أسماء الرجال وكتاب مشبه النسبة . وأشهر المحدثين بمصر فى القرن الخامس تلميذه الجبال^(٣) الإمام الحافظ المتوفى سنة ٤٨٢ وله مصنفات مختلفة ، وجمع عوالى سفيان بن عيينة .

ويتزل الإسكندرية سنة ٥٢١ السلفى^(٤) أكبر الحفاظ فى القرن السادس الهجرى ، وقد قصداه طلاب الحديث النبوى من كل فج ، على نحو ما يصور ذلك معجمه ، وهو مطبوع ، وبني له العادل بن السلار وزير الظافر الفاطمى مدرسة سنة ٥٤٦ . كما مر بنا ، وفوض أمرها إليه ، وسمع عليه الحديث صلاح الدين الأيوبي حين صارت مصر إليه وبعض أبنائه وأهل بيته ، وظلت إليه

١٨٨/٢ .

(٣) راجع فى الجبال حسن المحاضرة ١/ ٣٥٣ .

(٤) انظر فى السلفى طبقات القسرين للسيوطى ص ٥٦ وطبقات الحفاظ له ٢/ ٣٩ وابن خلكان ١/ ١٠٥ وتذكرة الحفاظ وأزهار الرياض ٣/ ١٦٧ - ٢٨٣ وتهذيب ابن عساكر ١/ ٤٤٩ والسبكي ٦/ ٣٢ والأسباب ٣٠٢ وشلوات اللب ٤/ ٢٥٥ وطبقات القراء ١/ ١٠٢ وميزان الاعتدال ١/ ١٥٥ .

(١) هو من أوائل من جمعوا الحديث بمصر ، وقد عثر على كتابه أخيراً فى ورق بردى بمدينة إدفو فى جنوب مصر واسمه الجامع فى الحديث ، وهو مكتوب فى القرن الثالث الهجرى ، وقد نشر هذا الكتاب فى المعهد الفرنسى بالقاهرة . وانظر فى ابن وهب حسن المحاضرة ١/ ٣٠٢ ، ٣٤٦ والديباج للذهب ١٨٧ وتهذيب التهذيب ١٠/ ٣٧٢ وميزان الاعتدال للذهبي ٢/ ٨٦ وبروكلمان ٣/ ١٥٥ .

(٢) انظر فى عبد الغنى المنتظم ٧/ ٢٩٠ وابن خلكان ٢٢٣/ ٣ وتذكرة الحفاظ ٣/ ٢٥٠ وشلوات اللب

الرحلة في الحديث حتى توفي سنة ٥٧٦ هـ . ومن أهم تلاميذه أبو الحسن علي ^(١) بن المفضل المالكي المقدسي ثم السكندري المتوفى سنة ٦١١ تولى القضاء بالإسكندرية ودرّس بمدرسة ابن شكر في القاهرة ، وله كتاب الأربعين ، وهو أربعون حديثاً عن أربعين شيخاً .

ونزل مصر الحافظ ابن دحية الأندلسي واستوطنها وتولى بها دار الحديث ^(٢) الكاملية حتى توفي في سنة ٦٣٣ هـ . وولى مشيخة هذه الدار بعده زكي الدين المنري الحافظ الكبير الإمام شيخ الإسلام عبد ^(٣) العظيم بن عبد القوي المصري الشافعي المتوفى سنة ٦٥٦ يقول السيوطي إنه انقطع لمشيخة المدرسة الكاملية عشرين سنة ، وكان عديم النظر في معرفة علم الحديث على اختلاف فنونه متبحراً في معرفة أحكامه ومعانيه ومشكله فكما بمعرفة غريبه ، إماما حجة بارعا في الفقه والعربية والقراءات . وله كتاب الترغيب والترهيب وهو أحاديث مرتبة حسب الموضوعات للترغيب في الخير والحق والترهيب من الشر والباطل ، طبع مرارا . وله في الفقه شرح على كتاب التنبيه . وأهم تلاميذه الديلمطي ^(٤) شرف الدين عبد المؤمن بن خلف المتوفى سنة ٧٠٥ لازم الحافظ المنري واتخذه معيدا له ، وقد ولى مشيخة الظاهرية ودرّس الحديث في المدرسة المنصورية : مدرسة المنصور قلاوون ، وتحتفظ دار الكتب المصرية بكثير من مصنفاته في الحديث .

ومن كبار المحدثين في القرن الثامن عز الدين بن ^(٥) جماعة الشافعي المتوفى سنة ٧٦٧ ولى القضاء ، واشتهر بكثرة من سماع الحديث ودرس في المدرسة الخشابية ، صنّف تخريج أحاديث الإمام الرافعي الشافعي وغير ذلك . ويعني بشرح البخاري غير حافظ في هذا القرن ويكثر التأليف في الحديث ومصطلحه على نحو ما يلقانا عند مغلطاي ^(٦) المتوفى سنة ٧٦٢ يقول السيوطي له أكثر

وطبقات الحفاظ ٦٥/٢ والسبكي ١٠٢/١٠ وطبقات

القراء ٤٧٢/١ وتذكرة الحفاظ ٢٦٨/٤ والدرر الكامنة

٣٠/٣ وفوات الوفيات ٣٧/٢ والبداء والنهاية

٤٠/١٤ والبدور الطالع ٤٠٣/١ .

(٥) انظر في ابن جماعة حسن المحاضرة ٣٥٩/١

وشذرات الذهب ٢٠٨/٦ والسبكي ٧٩/١٠ والدرر الكامنة

٤٨٩/٢ .

(٦) راجع في مغلطاي حسن المحاضرة ٣٥٩/١ والدرر

الكامنة ١٢٢/٥ .

(١) راجع في ابن الفضل حسن المحاضرة ٣٥٤/١

وشذرات الذهب ٤٧/٥ .

(٢) ذكر السيوطي في حسن المحاضرة ٢٦٢/٢ ثبتا بن

تولوا هذه الدار من كبار المحدثين .

(٣) انظر في حد العظيم طبقات الحفاظ للسيوطي

٥٩/٢ والسبكي ٣٥٩/٨ وحسن المحاضرة ٣٥٥/١

وشذرات الذهب ٢٧٧/٥ وتذكرة الحفاظ للذهبي

٢٢٨/٤ وفوات الوفيات ٦١٠/١ .

(٤) راجع في الحافظ الديلمطي حسن المحاضرة ٣٥٧/١

من مائة تصنيف كشرح البخارى وشرح ابن ماجة ، وولى مشيخة الظاهرية للمحدثين . ويلقانا بعده الحافظ ^(١) العراقى المولود بالقاهرة والمتوفى بها سنة ٨٠٦ وله فى الحديث مصنفات مختلفة ، منها منظومة فى ألف بيت اشتهرت مع شرحها فى الآفاق ، ومنها تخريج أحاديث كتاب الإحياء للغزالي . وأهم تلاميذه ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ يقول السيوطى عنه : « انتهت إليه الرحلة والرياسة فى الحديث فى الدنيا بأسرها ، فلم يكن فى عصره حافظ سواء ، وألف كتباً كثيرة » مثل فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ، وهو مطبوع ، وله غير كتاب فى تراجم المحدثين . وأهم الحفاظ بعده السيوطى ، وله شروح على الموطأ لمالك وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وابن ماجة إلى شروح أخرى كثيرة وإلى كتب فى الحديث ومصطلحه وتخرجاته تمت بالعشرات ^(٢) . من أهمها جمع الجوامع وهو دائرة معارف كبرى فى الحديث مع رواياته وأسانيده . ومربنا فى القراء ذكر معاصره شهاب الدين القسطلانى وله إرشاد السارى إلى صحيح البخارى ، وهو مطبوع . وتلقى فى أيام العثمانيين بعبد الرؤوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله « كنوز الحفاظ فى حديث خير الخلائق » وهو معجم يشتمل على عشرة آلاف حديث اختارها من أربعة وأربعين كتاباً ، وهو مطبوع مراراً . ويوجد كتاب تاريخ الجبرتي بأسماء حفاظ الحديث وتلاميذهم وما كانوا يحملون من كتبه ، ونكتفى بذكر أحد أعلامهم ، وهو الحنفى محمد بن سالم المتوفى سنة ١١٨١ فقد ذكر الجبرتي أنه كان من جلة شيوخه الشيخ محمد البديرى الدمياطى ، يقول : « أخذ عنه التفسير والحديث والمستندات والمسلسلات والإحياء للإمام الغزالي وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وسنن النسائى وسنن ابن ماجة وكتاب الموطأ لمالك ومسنند الشافعى والمعجم الكبير للطبرانى والمعجم الأوسط والصغير له أيضاً وصحيح ابن حبان والمستدرک للنيسابورى وحلية الأولياء للحافظ أبى نعيم وغير ذلك ^(٣) » . ولعل فى هذا ما يدل بوضوح على نشاط مصر فى دراسة الحديث النبوى وروايته حتى نهاية هذا العصر ، فقد ظلَّ حفاظه النابهون يُعَيِّنُون بالعشرات .

وكان لخصر نشاط خصب فى الفقه ، ومعروف أن أقدم المذاهب فى النشأة المذهب الحنفى ، وتبعه المذهب المالكى فالمذهب الشافعى فالمذهب الحنبلى ، وتأخرت مصر فى التعرف على مذهب

(١) انظر فى العراقى الضو اللامع للشاوى ٤ رقم ٤٥٢

وحسن المحاضرة ١/ ٣٦٠ والشعرات ٧/ ٥٥ .

(٢) انظر فى مؤلفات السيوطى فى الحديث كتابه حسن

المحاضرة ١/ ٣٤٠ .

(٣) تاريخ الجبرتي ١/ ٢٨٩ .

أبي حنيفة ، إلى أن نزلها بعض قضاة بغداد الأحناف عملاً بقرار أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة ، وكان مقرَّباً لهارون الرشيد : أن يكون القضاء في الدولة العباسية أحنافاً . وأهم هؤلاء القضاة الأحناف بكار^(١) بن قتيبة الذي تولى قضاء مصر لعهد المتوكل سنة ٢٤٦ وظل بها حتى وفاته سنة ٢٧٠ وله تصانيف فقهية مختلفة . ولم تلبث مصر أن أنجبت إماماً حنفياً كبيراً هو الطحاوي^(٢) أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المتوفى سنة ٣٢١ وإليه انتهت رئاسة الحنفية بمصر ، وكتبه تُعدّ مراجع أساسية في المذهب الحنفي ، ومن أهمها الجامع الكبير في الشروط وكتاب اختلاف الفقهاء والمختصر في الفقه وله شروح كثيرة ورسالة في أصول الدين أو عقيدة أهل السنة والجماعة . وذكرنا آنفاً أن له في الحديث كتاب السنن ومعاني الآثار ومشكل الآثار . ومن أهم تلاميذه إسحق^(٣) بن إبراهيم الشافعي السمرقندي المتوفى سنة ٣٢٥ وقد استوطن مصر ، وتولى القضاء بها . ويذكر السيوطي من فقهاء المذهب زمن الفاطميين عبد المعطى^(٤) بن مسافر الذي فقه المذهب بموطنه في الإسكندرية على يد أبي بكر محمد بن إبراهيم الرازي ، وكان ابن مسافر من حملة الحديث النبوي ، ومنه سمع السلفي حين نزل الإسكندرية .

ويأخذ المذهب في النشاط بمصر منذ أنشأ فيها صلاح الدين المدرسة السيوفية لتدريسه . وقد عين بها عبد^(٥) الله الجريري وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٤ . وخلفه فيها - على ما يبدو - عبد^(٦) الوهاب بن النحاس الحنفي المعروف بالبدري بن الجمن ، وقد ظل يدرس بالسيوفية حتى توفي سنة ٥٩٩ . ومن درسوا المذهب الحنفي بها أبو الحسن^(٧) الغزنوي المتوفى سنة ٦٣٢ . ومن كبار فقهاء الأحناف في العهد الأيوبي يحيى بن معطى المغربي المتوفى سنة ٦٢٨ وأبو^(٨) القاسم القوصي المتوفى سنة ٦٤٣ . وينشط المذهب الحنفي بمصر منذ زمن الماليك إذ جعل الظاهر يدرس القضاء شركة بين أصحاب المذاهب الأربعة : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، فكان لكل مذهب

(٤) راجع في ابن مسافر حسن المحاضرة ١/ ٤٦٤ والجواهر المصنبة ١/ ٣٣٠ .

(٥) انظر في الجريري حسن المحاضرة ١/ ٤٦٤ .

(٦) راجع في ابن النحاس حسن المحاضرة ١/ ٤٦٤ وشذرات الذهب ٤/ ٣٤١ .

(٧) انظر في الغزنوي حسن المحاضرة ١/ ٤٦٥ والجواهر المصنبة ١/ ٣٥٢ .

(٨) انظر القوصي في حسن المحاضرة ١/ ٤٦٥ والجواهر المصنبة ١/ ٣٠٤ .

(١) انظر في بكار حسن المحاضرة ١/ ٤٦٣ وابن خلكان ١/ ٢٧٩ والجواهر المصنبة في طبقات الحنفية ١/ ١٦٨ .

وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطولونا ص ١٩ .

(٢) راجع في الطحاوي تهذيب ابن حاکر ٢/ ٥٤ وللتنظيم ٢٥٠/ ١ وحسن المحاضرة ١/ ٣٥٠ وابن خلكان ١/ ٧١ وطبقات القراء ١/ ١١٦ والجواهر المصنبة ١/ ١٠٢ .

وتاج التراجم ص ٨ والشذرات ٢/ ٢٨٨ .

(٣) انظر في إسحق الجواهر المصنبة ١/ ١٣٩ وقفاؤد البية ٢٢ .

قاضيه ، وأيضا فإنه جعل للحنفية نصيبا في مدرسته الظاهرية وأول حتى درّس المذهب بها لأيامه عبد الرحمن بن عمر بن العديم المتوفى سنة ٦٧٧ . ومن درس المذهب بالسيفية لؤلؤ^(١) بن أحمد وأبو بكر^(٢) بن محمد الإسوي . ومن قضاهم النعمان^(٣) بن الحسن المتوفى سنة ٦٩٢ وعلى بن نصر المتوفى سنة ٦٩٥ وله كتاب زوائد الهداية على القدوري . ويختمُ القرن السابع بآبن القتيب الذي مر ذكره بين المفسرين . ومن فقهاء القرن الثامن النابيهن أحمد^(٤) بن إبراهيم السروجي المدرس بالسيفية المتوفى سنة ٧١٠ وقد ولي القضاء ، وله شرح في كتاب الهداية للمرغيناني . وابن^(٥) يلبان المتوفى سنة ٧٣١ وله شرح على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني ورتب صحيح ابن حبان على الأبواب وكذلك معجم الطبراني . وكان يعاصره ابن^(٦) التركماني المتوفى سنة ٧٣١ وكان يدرس المذهب بمدرسة المنصور قلاوون ، وألقى بها شرحا له على الجامع الكبير أملاه دروسا على الطلاب . وأنجب فقيهي : أحمد^(٧) المتوفى سنة ٧٤٤ ومن تصانيفه شرح الهداية وشرح الجامع الكبير . وعلى^(٨) المتوفى سنة ٧٤٥ وله مختصر الهداية ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح ، وتولى قضاء الديار المصرية . وكان يعاصرها فخر الدين الزيلعي^(٩) المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح على كتاب كثر الدقائق في الفروع للمحافظ النسفي سماه تبين الحقائق على كثر الدقائق طبع بمصر في ستة أجزاء . ويلقبنا السراج^(١٠) الهندي قاضي القضاء بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٧٣ وله شرح الهداية والشامل في الفروع وشرح البديع ، وكان يعاصره ابن^(١١) أبي الوفا عبد القادر بن محمد المتوفى سنة ٧٧٥ وهو صاحب كتاب الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية

(٧) راجع أحمد في حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضيئة ٧٧/١ .

(٨) انظر في علي حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضيئة ٣٦٦/١ .

(٩) راجع في الزيلعي حسن المحاضرة ٤٧٠/١ والجواهر المضيئة ٣٤٥/١ والدرر الكاتبة ٦١/٣ .

(١٠) انظر في السراج حسن المحاضرة ٤٧٠/١ والدرر الكاتبة لابن حجر ٢٣٠/٣ والقوائد البية ١٤٩ وإتياه الفهر ٢٧/١ .

(١١) راجع في ابن أبي الوفا حسن المحاضرة ٤٧١/١ والدرر الكاتبة ٦/٣ والقوائد البية ٩٩ وإتياه الفهر ٦٦/١ .

(١) انظر في لؤلؤ حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضيئة ٤١٦/١ .

(٢) انظر في أبي بكر حسن المحاضرة ٤٦٧/١ .

(٣) راجع في النعمان حسن المحاضرة ٤٦٧/١ والجواهر المضيئة ٢٠١/٢ .

(٤) انظر في السروجي حسن المحاضرة ٤٦٨/١ والجواهر المضيئة ٥٣/١ وتاج التراجم ص ١١ .

(٥) راجع في ابن يلبان حسن المحاضرة ٤٦٨/١ والجواهر المضيئة ٣٥٤/١ وتاج التراجم ص ٤٣ ،

(٦) انظر في ابن التركماني حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضيئة ٣٤٥/١ وتاج التراجم ص ٤٠ والدرر الكاتبة ٤٩/٣ .

المثبت في الهوامش . و نلتقى بأكمل^(١) الدين البابرقي المتوفى سنة ٧٨٦ وله شروح كثيرة على أمهات كتب الفقه الحنفي منها شرح الهداية وشرح البزدوى .

وما يزال السيوطي في حسن المحاضرة يعدد فقهاء الحنفية وقضاتهم بالديار المصرية ، حتى نصل ، إلى^(٢) ابن الهمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٨٦١ وله مصنفات مختلفة في مذهبه أهمها فتح القدير ، وهو شرح على كتاب الهداية للمرغيناني ، طبع بمصر في ثمانية أجزاء . و نلتقى بالقاسم^(٣) بن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ وهو صاحب كتاب تاج التراجم في طبقات الحنفية المذكور في الهوامش وله مصنفات فقهية مختلفة . ونمضي إلى زمن العثمانيين . وينشط منذ هذا التاريخ بمصر الفقه الحنفي وأصحابه ، إذ كان القضاء في الدولة العثمانية للأحناف وحدهم . ومن كبار فقهاء الأحناف في أيامهم زين العابدين^(٤) بن نجم المصري المتوفى سنة ٩٧٠ وله كتاب الأشباه والنظائر في الفقه الحنفي ، وهو مطبوع ، وكتاب البحر الرائق على كثر الدقائق وهو مطبوع أيضا في عدة أجزاء . ومنهم شمس الدين التمرناشي الغزي المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٠٤ وله في الفقه الحنفي تنوير الأبصار وجامع البحار . ومنهم أبو الإخلاص الشرنبلالي المتوفى سنة ١٠٦٩ وهو من علماء الأزهر ، وله مصنفات مختلفة في فقه الأحناف لا تزال مخطوطة ومحفوظة بدار الكتب المصرية . ومنهم السيد أحمد الحموي وله تصانيف عدة ، منها شرح الكتر وحاشية الدرر والغرر ، توفي سنة ١١٤٢ . ويحصى الجبرقي في تاريخه أسماء كثيرين منهم إلى نهاية الأيام العثمانية .

وكان انتشار المذهب المالكي في مصر مبكراً ، وكان بعاصر مالكا فقيه مصري كبير هو الليث^(٥) بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ وفيه يقول الشافعي : « الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به » يريد أن أصحابه وتلاميذه المصريين لم يحملوا عنه مذهبه . ولو أنهم حملوه

(٤) انظر في ابن نجم خلاصة الأثر للمحبي ودائرة المعارف الإسلامية .

(٥) راجع في الليث تاريخ بندا ١٣ / ٣ وابن خلكان

٤ / ١٢٧ والنجوم الزاهرة ٢ / ٨٢ وصفة الصفوة ٤ / ٢٨١

وتذكرة الحفاظ ٢٢٥ وميزان الاعتصاف ٣ / ٤٢٣ وتبليغ

التبليغ ٨ / ٤٥٩ وصبر الذهبي ١ / ٢٦٦ .

(١) انظر في البابرقي حسن المحاضرة ١ / ٤٧١ والفتاوى البيية ١٩٥ وإتباع الشرح ١ / ٢٩٨ .

(٢) انظر في ابن الهمام الفصول اللاح ٨ رقم ٣٠١

والفتاوى ٧ / ٢٩٨ والدرر الطالع ٢ / ٢٠١ وحسن

المحاضرة ١ / ٤٧٤ .

(٣) راجع في ابن قطلوبغا الفصول اللاح ٦ / ٦٣٥

والفتاوى ٨ / ٣٢٦ والدرر الطالع ٢ / ٤٥ .

لأصبح مذهبا مستقلاً بجانب المذاهب الأربعة ، غير أنهم آثروا عليه مذهب مالك إمام المدينة (دار الهجرة) . وكان من أهم تلاميذ مالك الذين حملوا مذهبه عنه عبد الله بن وهب لما جامع أول كتاب بمصر في الحديث كما مر بنا آنفاً ، وعبد^(١) الرحمن بن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وقد فرغ على أصول مذهبه فروعا كثيرة سجلها في مؤلفه المشهور باسم المدونة ، وعنه حملها سحنون القيرواني إلى تونس موطنه ، ونشر المذهب المالكي هناك ولا يزال غالبا على بلاد المغرب إلى اليوم . ومن تلمذ عليه وعلى عبد الله بن وهب يحيى بن يحيى اللبكي ناشر مذهب مالك في الأندلس ، وكان قد حضر دروس مالك في كتابه الموطأ وتفقه بهذين المصريين^(٢) ثم عاد إلى موطنه ينشر المذهب حتى غلب على أهل الأندلس كما غلب على أهل المغرب . ومن كبار تلاميذ مالك المصريين أيضا عبد^(٣) الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ وإليه أفضت رئاسة المالكية في مصر بعد ابن القاسم وابن وهب ، وخلفه على رياسته ابنه محمد^(٤) المتوفى سنة ٢٦٨ . وكان يعاصره الحارث^(٥) بن مسكين ، وقد حمله المأمون إلى بغداد في أيام محنة خلق القرآن ، وسجنه لأنه لم يجب إلى القول بخلقه ، ورد إليه حريته المتوكل وولاه قضاء مصر سنة سبع وثلاثين ومائتين ، وظل يتولى قضاءها ثمانى سنوات ، وتوفى سنة ٢٥٠ . ويعد السيوطي في حسن المحاضرة من تلامذة ابن وهب وابن القاسم وعبد الله بن عبد الحكم خمسة عشر فقها مالكيًا مشهورًا بمصر . ومن تلقى به في أوائل القرن الرابع أحمد^(٦) بن الحارث بن مسكين ، جلس مجلس أبيه بعده بجامع عمرو بدرس للناس الفقه المالكي حتى توفى سنة ٣١١ . وكثير من الفقهاء حيثئذ ينسبون إلى الإسكندرية والصعيد ، إذ كان المذهب منتشرًا بهما . ومن فقهاء الإسكندرية أبو الحسن^(٧) المعافري قاضيا

للذهب ٢٣١ والسبكي ٩٧/٢ والوفاء بالوفيات ٣٣٨/٣ والشواهد ١٥٤/٢ وميزان الاعتصاف ٦١١/٣ .

(٥) انظر في الحارث ربح الأصر عن قضاء مصر ١٦٧/١ والسبكي ١١٣/٢ وتذكرة الحفاظ ٥١٤ وتاريخ بغداد ٢١٦/٨ وابن خلكان ٥٦/٢ .

(٦) راجع أحمد في حسن المحاضرة ٤٤٩/١ واللبياح للذهب ٣٧ .

(٧) انظر في المعافري حسن المحاضرة ٤٤٩/١ والتبر ٢٥٠/٢ .

(١) انظر في ابن القاسم اللبياح للذهب ١٤٦ وابن خلكان ١٢٩/٣ وتذكرة الحفاظ ٣٥٦ والتلخيص لابن حجر ٢٥٢/٦ والشواهد ٣٢٩/١ وحسن المحاضرة ٣٠٣/١ .

(٢) للمغرب لابن سعيد (نشر دار المعارف) ١٦٣/١ . (٣) انظر في عبد الله بن عبد الحكم حسن المحاضرة ٣٠٥/١ واللبياح للذهب ٩٨ وعبر اللبكي ٣٦٦/١ وابن خلكان ٣٤/٣ وتلخيص التلخيص ٢٨٩/٥ والشواهد ٣٤/٢ .

(٤) راجع في محمد حسن المحاضرة ٣٠٩/١ واللبياح

المتوفى سنة ٣٣٩ وكان يعاصره أبو الذكر^(١) الأسواني قاضى مصر المتوفى سنة ٣٤٠. ونمضى إلى زمن الفاطميين، وقد عدَّ السيوطى من الفقهاء المالكيين لعدهم سنة عشر فقيها، منهم أبو^(٢) بكر النعالى إمام المالكية بمصر فى وقته. وإليه كانت الرحلة والإمامة بمصر، وكانت حلقة فى الجامع تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها. توفى سنة ٣٨٠. ومنهم أبو القاسم^(٣) الجوهري المتوفى سنة ٣٨١ مصنف مسند الموطأ للإمام المذهب مالك. ونزل بالقاهرة القاضى عبد^(٤) الوهاب فقيه بغداد المالكى وكان شاعراً بارعاً، ويقال إنه يوم فصل عن بلده شيعه من أكابرها وأصحاب محابرها جملة وافرة وأنه قال لهم: لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت بيلدكم بلوغ أمنية، واجتاز بمجرة النعمان بلدة أبى العلاء فأضافه، وله فى الإشادة بفقهه وبشعره:

إذا تفقَّه أحبا مالكا جدلا ويشرُّ الملك الضَّليل إن شعرا

والملك الضليل: امرؤ القيس. وتوجه إلى مصر فحمل لواء المالكية بها وانثالت فى يديه الرغائب. ولم يلبث أن ألم به مرض الموت سنة ٤٢٢ فكان يقول - كما مر بنا - لا إله إلا الله عندما عشنا متنا. ومن كبار فقهاء المالكية حيثنَّد أبو^(٥) بكر الطرطوشى نزىل الإسكندرية المتوفى سنة ٥٢٥ واشتهر بكتابين له فى السياسة ألفها أو ألَّف أحدهما لوزير الفاطميين المأمون البطائنى هما سراج الملوك وسراج الهدى. ومن تلاميذه سند^(٦) بن عنان الأزدي المتوفى سنة ٥٤١ خلفه فى حلقة وانتمى به الناس وله شرح المدونة. وكان يعاصره أبو القاسم^(٧) بن مخلوف الإسكندري أحد الأئمة الكبار فى المالكية، تفقه به أهل الشرف زمانا.

ونمضى إلى زمن الدولة الأيوبية، ويلقانا صدر الإسلام أبو الطاهر^(٨) إسماعيل بن مكى تلميذ

الطرطوشى المتوفى سنة ٥٨١ وقد طارت شهرته فى المذهب، وقصده صلاح الدين الأيوبي وسمع

- | | |
|---|---|
| (١) راجع فى أبى الذكر حسن الحاضرة ٤٤٩/١ | (٥) راجع فى الطرطوشى حسن الحاضرة ٤٥٢/١ |
| والطالع السعيد للإمدادى ٣٦٤. | والصلة لابن بشكوال: ٤٥٥ والغرب ٢٤٢/٢ وابن |
| (٢) انظر فى النعال حسن الحاضرة ٤٥٠/١ والدياج | خطكان ٢٦٢/٤ والعبر ٤٨/٤ وأزهار الرياض |
| للمذهب ٢٥٨. | ١٦٢/٣. |
| (٣) راجع فى الجوهري حسن الحاضرة ٤٥١/١ والعبر | (٦) انظر فى سند حسن الحاضرة ٤٥٢/١ والدياج |
| ١٧/٣. | للمذهب ١٢٦. |
| (٤) انظر فى عبد الوهاب حسن الحاضرة ٣١٤/١ والعبر | (٧) راجع فى ابن مخلوف حسن الحاضرة ٤٥٣/١. |
| ١٤٩/٣ وابن خطكان ٢١٩/٣ والدياج للمذهب ونغات | (٨) انظر فى أبى الطاهر حسن الحاضرة ٤٥٢/١ |
| الوفيات ٤٤/٢ والشرحات ٢٢٣/٣. | والدياج للمذهب ٩٥. |

منه الموطأ ، وله مصنفات ، قال فيه ابن فرحون : كان إمام عصره في المذهب وعليه مدار الفتوى . ومُرِّبنا أن صلاح الدين أنشأ مدرسة للمالكية هي المدرسة القمحية ، وتبعه ابن شكر ووزير أخيه العادل ، فأنشأ لهم مدرسة ثانية هي المدرسة الصاحبية ، وأنشأ لهم وللشافعية القاضي الفاضل مدرسة مشتركة هي المدرسة الفاضلية ، وجعل الصالح أيوب مدرسته للمذاهب الأربعة . وأتاح ذلك كله للفقه المالكي بمصر نشاطا واسعا منذ زمن الأيوبيين ، ومن كبار فقهاءه حيثذا ابن شاس^(١) عبد الله بن محمد شيخ المالكية وصاحب كتاب الجواهر المينة في المذهب ، درس بالمدرسة القمحية ، استشهد مجاهدًا القرنج بدمياط حين حاصروها سنة ٦١٦ - ٦١٨ . ومن مدرسى هذه المدرسة الحسين^(٢) بن عتيق ابن رشيق شيخ المالكية وصاحب الفُتيا في وقته ، توفي سنة ٦٣٢ . واشتهر بالإسكندرية من فقهاء المالكية ابن الصفراوى الذى مر ذكره بين القراء . ومن كبار فقهاء المذهب ابن الحاجب الذى مر ذكره بين النحاة ، وله مختصر الفروع في الفقه المالكي اعتمد فيه على جواهر الفقيه ابن شاس وأضاف إليه زيادات من كتب مختلفة ، وله شروح لا تزال مخطوطة ومحفوظة بدور الكتب . وكان يعاصره رفيقه عبد الكريم^(٣) بن عطاء الله الإسكندراني ، كان إماما في الفقه والأصول والعربية ، ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر المفصل . ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر المفصل .

ونمضى في زمن الماليك ، وولتقى بابي حفص عمر^(٤) بن عبد الله السبكي المتوفى سنة ٦٦٩ وهو أول من ولى قضاء المالكية حين جعل الظاهر بيبرس من كل مذهب قاضيا . وولى قضاء المالكية بعده نفيس^(٥) الدين محمد بن هبة الله بن شكر المتوفى سنة ٦٨٠ . وكان يعاصره القرافي^(٦) شهاب الدين أحمد بن إدريس المتوفى سنة ٦٨٢ ولى التدريس في مدرسة الصالح نجم الدين أيوب المعروفة بالصاحبية وقد صنف في الفقه المالكي وفي الأصول الكتب المفيدة مثل الذخيرة في مذهب مالك وكتاب الفروق في الفقه المالكي وهو مطبوع . وكان يعاصره هو ونفيس الدين ابن

(٤) راجع في عمر السبكي حسن المحاضرة ١/ ٤٥٧ والديباج للمذهب ١٥٩ .

(٥) انظر في نفيس الدين حسن المحاضرة ١/ ٤٥٨ .

(٦) راجع في القرافي حسن المحاضرة ١/ ٣١٦ والديباج للمذهب ٦٢ والنبل الصافي لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب) ١/ ٢١٥ .

(١) انظر في ابن شاس البداية والنهاية ١٣/ ٨٦ وحسن المحاضرة ١/ ٤٥٤ .

(٢) راجع في ابن عتيق حسن المحاضرة ١/ ٤٥٥ والديباج للمذهب ١٠٥ .

(٣) انظر في عبد الكريم حسن المحاضرة ١/ ٤٥٦ والديباج للمذهب ١٦٧ .

النير أحمد بن محمد قاضي الإسكندرية الذي مر ذكره بين المفسرين ، وكان إماماً فاضلاً متبحراً ، وله في الفقه مختصر التهذيب .

ويلقانا في القرن الثامن تاج^(١) الدين بن عطاء الله الإسكندري المتصوف المشهور المتوفى سنة ٧٠٩ وله في الفقه تهذيب المدونة غير ككب كثيرة في التصوف . وكان يعاصره قاضي القضاة علي^(٢) بن مخلوف النويري المتوفى سنة ٧١٣ ولى قضاء الديار المصرية ثلاثاً وثلاثين سنة . ومن كبار فقهاء المالكية ابن^(٣) الحاج محمد بن محمد العبدري المتوفى سنة ٧٣٧ وله كتاب المدخل وهو كتاب نفيس في أربعة أجزاء يصف فيه أحوال البلاد الخلقية والاجتماعية وما يتصل بذلك من العادات عند العامة وغيرها ، مع نقد نزيه ومع بيان للعلاج الشرعى للمآثم . وكان يعاصره الزواوى^(٤) عيسى بن مسعود المتوفى سنة ٧٤٣ وإليه انتهت رئاسة المالكية ، وله مصنفات مختلفة ، منها شرح صحيح مسلم وشرح مختصر ابن الحاجب في الفقه وشرح المدونة ، وتاريخ ومناقب مالك . وأكثر فقهاء المالكية في القرن الثامن شهرة خليل^(٥) بن إسحق المتوفى سنة ٧٦٧ وله كتاب المختصر في الفقه المالكي ، ويعنى بتدريسه المالكية منذ ظهوره وخاصة في المغرب ويعرف هناك باسم مختصر سيدى خليل . وأهم تلاميذه^(٦) بهرام بن عبد الله المتوفى سنة ٨٠٥ وله الشامل في الفقه وشرح مختصر أستاذه خليل . ونزل مصر في زمنه عبد الرحمن بن خلدون وعداده في فقهاء المغرب . وتلقى بالبساطى^(٧) محمد بن أحمد شيخ الإسلام المتوفى سنة ٨٤٢ ولى القضاء ، وكانت إليه الفتيا .

ويظل لفقهاء المالكية نشاطهم في بقية زمن المالك وفي أيام العثمانيين . ومن أعلامهم في القرن الحادى عشر أبو الإمداد برهان الدين اللقاني المتوفى سنة ١٠٤١ وله مصنفات في علمي الكلام والفقه ، وكان يعاصره نور الدين الأجهورى ، وهو من شيوخ الأزهر المالكية

(٤) راجع في الزواوى حسن المحاضرة ١/ ٤٥٩ والدرر الكانة .

(٥) انظر في خليل حسن المحاضرة ١/ ٤٦٠ والدياج للكتب ١١٧ ونيل الأبتاج ص ٩٥ والدرر الكانة ١٢٠/ ٢ .

(٦) راجع في بهرام حسن المحاضرة ١/ ٤٦١ والفضو اللاع ٢٠/ ٣ .

(٧) انظر في البساطى حسن المحاضرة ١/ ٤٦٢ والفضو اللاع ٥/ ٧ .

(١) انظر في ابن عطاء الله حسن المحاضرة ١/ ٤٢٤ وطبقات الشرحاني ١٩/ ٢ والسبكي ٢٣/ ٩ والمخطط الجريدة للى مبارك ٧٠/ ٧ والدرر الطالع ١٠٧/ ١ والدياج للكتب ٧٠ وفتاوى الذهب ١٩/ ٦ والدرر الكانة .

(٢) راجع في ابن مخلوف النويرى حسن المحاضرة ١/ ٤٥٨ والدرر الكانة .

(٣) انظر في ابن الحاج حسن المحاضرة ١/ ٤٥٩ والدياج للكتب ٣٢٧ والدرر الكانة ٤/ ٣٥٥ .

وله مصنفات مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية . وتلقى بكثيرين من فقهاء المالكية في تاريخ الجبرقي ومن أهمهم الزرقاني^(١) أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي المتوفى سنة ١١٢٢ خاتمة المحدثين . وشرحه على موطأ مالك مشهور ، وأيضاً من أهمهم على^(٢) بن أحمد بن مكرم العلوي الصعدي إمام المحققين وعمدة المدققين المتوفى سنة ١١٨٩ يقول الجبرقي عنه : « قبل ظهوره لم نكن المالكية نعرف الحواشي على شروح كتبهم الفقهية ، فهو أول من خدم تلك الكتب بها » . ويعدّد حواشيه ومن أهمها حاشية له على شرح الزرقاني على موطأ مالك .

وعلى شاكلة ازدهار مذهب مالك الفقهي بمصر كذلك كان مذهب الشافعي^(٣) مزدهراً ، بل ربما كان أكثر ازدهاراً ، إذ نزل الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ مصر ، واكمل له فيها مذهبه الفقهي . وحمله عنه تلاميذه من أبنائها ونشروه في العالم الإسلامي ، كما مربنا في غير هذا الموضوع ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة أتباعاً . ويتميز مذهبه بإحكامه التوفيق بين المذهب الحنفي مذهب أهل الرأي ، والمذهب المالكي مذهب أهل الحديث ، وهو الذي أسس علم أصول الفقه بمبحثه الرائع الذي سماه الرسالة وفيها يبحث أدلة الأحكام الدينية وما يتصل بها من طرق الاستنباط والاجتهاد . وله في الفقه مصنفه المشهور : الأم ، وهو مطبوع في القاهرة مثل الرسالة ، وعُني به فقهاء الشافعية طوال هذا العصر فاختره وشرحه مرارا ، ومثلها كتاب السنن المأثورة والسند . وطبع له على هامش الأم كتاب اختلاف الحديث . وأهم تلاميذه بمصر البونيطي والمزني ، أما البونيطي فهو يوسف^(٤) بن يحيى القرشي الإمام الجليل المتوفى سنة ٢٣١ يقول السيوطي عنه : أحد أئمة الإسلام وأركانها ، كان خليفة الشافعي في حلقة بعده ، وله في الفقه المختصر المشهور الذي اختصره من كلام الشافعي ، وحُمل إلى بغداد في منة القول بخلق القرآن ، فأصر على رأيه هناك وظل سجيناً حتى توفي . والمزني^(٥) هو إسماعيل بن يحيى المتوفى سنة ٢٦٤ وقد

(٤) راجع في البونيطي السبكي ١٦٢/٢ وتاريخ بغداد

٢٩٩/١٤ وصبر اللحي ٤١١/١ وتبليغ التبليغ

١١/٤٢٣ وابن خلكان ٦١/٧ وحسن المحاضرة للسيوطي

٣٠٦/١ .

(٥) انظر في المزني السبكي ٩٣/٢ والمير ٢٨/٢

واللياب ١٣٣/٣ وابن خلكان ٢١٧/١ والنجوم الزاهرة

٣٩/٣ والسيوطي ٣٠٧/١ وشرحات الذهب ١٤٨/٢ .

(١) راجع الزرقاني في تاريخ الجبرقي ٦٩/١ .

(٢) انظر ابن مكرم في تاريخ الجبرقي ١/٤١٤ .

(٣) انظر الإمام الشافعي في الجزء الأول من طبقات

الشافعية للسبكي وتاريخ بغداد ٥٦/٢ ومجموع الأدباء

١٧/٢٨١ وابن خلكان ٤/١٦٣ وتذكرة الحفاظ ٣٦١

تبليغ التبليغ ٩/٢٥ وصفة الصفرة ٢/١٤٠ وحلقة

الأولياء ٩/٦٣ وألف كتبون في سبته ومذهبه لدينا

وحديثنا .

أخذ عنه خلافت من علماء خراسان والعراق والشام ، ومضوا فنشروا المذهب في بلدانهم ، وله في الفقه الشافعي : الجامع الكبير والجامع الصغير والمختصر والمشور والمسائل المعتمدة وكتاب الوثائق وكتاب المقارب ، سمي بذلك لصعوبته وفي كتاب طبقات الشافعية للسبكي غرائب منه . ومن كبار فقهاء الشافعية بمصر في القرن الثالث أبو زرعة^(١) محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ ولى قضاء مصر سنة ٢٨٤ ثمانى سنين ، ثم ولى قضاء دمشق ، فأدخل فيها مذهب الشافعي وحكم به القضاة هناك ، ولم يزل القضاء بعده للشافعية بمصر والشام إلى أن ضم الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ القضاة الثلاثة من مذاهب أبي حنيفة ومالك وابن حنبل إلى الشافعية . وكان يعاصره النسائي وقد مر ذكره بين أهل الحديث ومنصور^(٢) بن إسماعيل الفقيه المتوفى سنة ٣٠٦ وله مصنفات عدة في المذهب من أهمها كتاب الهداية والواجب والمستعمل والمسافر .

ويلقانا في القرن الرابع أبو إسحق^(٣) الروزى إبراهيم بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٠ نزيل القسطنطين وكانت قد انتهت إليه رئاسة المذهب في بغداد وانتشر عنه في البلاد ، وشرح مختصر المزني ، وانتقل إلى القسطنطين وجلس في مجلس الشافعي واجتمع الناس عليه وضرخوا إليه أكباد الإبل . وكان يعاصره أبو بكر^(٤) بن الحداد محمد بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٤ قاضى القسطنطين ، وله كتاب الباهر في الفقه يقال إنه كان في مائة جزء ، وله أيضا كتاب جامع الفقه وكتاب الفروع الموليدات الذى شرحه كثيرون . ونغضى إلى زمن الفاطميين ، وقد أحصى السيوطى عشرة من الفقهاء في المائة سنة الأولى من أيامهم ، أهمهم القضاعى^(٥) أبو عبد الله محمد بن سلامة المتوفى سنة ٤٥٤ مصنف كتاب الشهاب ، ولى قضاء الديار المصرية وأرسل به الخليفة المستنصر إلى الروم رسولا . وأحصى السيوطى في المائة الثانية من أيام الفاطميين تسعة من فقهاء الشافعية أهمهم الحلبي^(٦) على بن الحسين المتوفى سنة ٤٩٢ وله في الفقه كتاب المغنى بين البسط والاختصار .

١/ ٣١٣ وتذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٨ والعبر ٢/ ٢٦٤ وابن

خلكان ٤/ ١٩٧ والوالى ٢/ ٦٩ والشرحات ٢/ ٣١٧ .

(٥) راجع في القضاى السبكي ٤/ ١٥٠ وابن خلكان

٤/ ٢١٢ والرواق ٣/ ١١٦ والسيوطى ١/ ٤٠٣ والشرحات

٣/ ٢٩٣ .

(٦) انظر في الحلبي السبكي ٥/ ٢٥٣ والعبر ٣/ ٣٣٤

والسيوطى ١/ ٤٠٤ والشرحات ٣/ ٣٩٨ وابن خلكان

٣/ ٣١٧ .

(١) راجع في أبى زرعة السبكي ٣/ ١٩٦ والسيوطى

١/ ٣٩٩ والعبر ٢/ ١٢٣ والشرحات ٢/ ٢٣٩ .

(٢) انظر في منصور السبكي ٣/ ٤٧٨ والسيوطى

١/ ٤٠٠ والمغرب في حل المغرب (قسم القسطنطين)

ص ٢٦٢ وابن خلكان ٥/ ٢٨٩ ونكت المبيان ٢٩٧

ومعجم الأدباء ١٩/ ١٨٥ وللتعظيم ٦/ ١٥٢ .

(٣) راجع في الروزى تاريخ بغداد ١١/ ١١٦ وابن خلكان

١/ ٣١٢ والسيوطى ١/ ٣١٧ .

(٤) انظر في ابن الحداد السبكي ٣/ ٧٩ والسيوطى

وربما كان أهم منه مجل^(١) بن جميع قاضي القضاة المتوفى سنة ٥٥٠ كان من أئمة الفقهاء وكبارهم وله في الفقه مصنفات أهمها كتابه الذخائر . وكان يعاصره الفقيه الشافعي ابن رفاعة المتوفى سنة ٥٦١ . وبمجرد أن يظل مصر لواء صلاح الدين الأيوبي يؤسس مدرسة للشافعية وثانية للمالكية وثالثة للحنفية كما أسلفنا . وفُرض القضاء بمصر للشافعية ، فاتسع نشاطهم ، وقد أسند صلاح الدين مدرستهم للخبوشاني^(٢) محمد بن الموفق المتوفى سنة ٥٨٧ وله في الفقه كتاب تحقيق المحيط . ومن كبار فقهاء الشافعية في عهد الأيوبيين إبراهيم بن منصور العراقي المصري المتوفى سنة ٥٩٦ رحل إلى العراق وأقام به مدة ثم عاد إلى موطنه فعرف باسم العراقي ، وله شرح على كتاب المذهب لأبي إسحق الشيرازي أول مدرس للمدرسة النظامية ببغداد وكان شرحا كبيرا في عشرة مجلدات . وكان يعاصره عبد^(٣) الملك بن عيسى بن درباس المتوفى سنة ٦٠٥ قاضي قضاة الشافعية في عهد صلاح الدين ، وأتاب عنه أخاه عثمان^(٤) في قضاء القاهرة وله شرح على المذهب سماه الاستقصاء ، وشرح ثان على كتاب اللمع لأبي إسحق الشيرازي ، توفي سنة ٦٢٢ . وبلغنا محمد^(٥) بن عين الدولة المتوفى سنة ٦٣٩ قاضي القضاة بالقاهرة والوجه البحري ، واشتهر لزمه بأنه رد شهادة السلطان الكامل ، وقال له : أنت تحكم ولا تشهد . وأهم الفقهاء بعده في زمن الأيوبيين العز^(٦) بن عبد السلام وقد مررنا في الفصل السابق حديث عنه مع الماليك ، ولى خطابة جامع عمرو بن العاص بالفسطاط والقضاء بها وبالوجه القبلي . ولما بنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحية فُوض تدريس الشافعية بها إليه ، وطالت أيامه إلى زمن الماليك إذ توفي سنة ٦٦٠ وله في الفقه كتاب القواعد الكبرى ومصنفات مختلفة ومربنا أن له تفسيرا وكتابا في مجاز القرآن .

وقد أحصى السيوطي من فقهاء الشافعية زمن الماليك أكثر من مائة فقيه ، لأكثرهم مصنفات

(٤) انظر في عثمان السبكي ٣٣٧/٨ والسيوطي

٤٠٨/١ والشفرات ٧/٥ وابن خلكان ٢/٢٤٢ .

(٥) راجع في ابن عين الدولة السبكي ٦٣/٨ والسيوطي

٤١٢/١ والعبر ١٦٢/٥ والشفرات ٢٠٥/٥ .

(٦) انظر في العز السبكي ٢٠٩/٨ والسيوطي ٣١٤/١

والشفرات ٣٠١/٥ والعبر ٢٦٠/٥ ورسالة الجنان

١٥٣/٤ وروايات الوفيات ٥٩٤/١ والنجوم الزاهرة

٢٠٨/٧ .

(١) راجع في مجل السبكي ٢٧٧/٧ والسيوطي

٤٠٥/١ والعبر ١٤١/٤ والشفرات ١٥٧/٤ وابن

خلكان ١٥٤/٤ .

(٢) انظر في الخبوشاني السبكي ١٤/٧ والسيوطي

٤٠٦/١ وابن خلكان ٢٣٩/٤ والعبر ٢٦٢/٤

والشفرات ٢٨٨/٤ والنجوم الزاهرة ١١٥/٦ .

(٣) راجع في ابن درباس السيوطي ٤٠٨/١ ورض

الإصر : ٣٦٧ .

وشروح على أمهات كتب الفقه الشافعي ، ومن أهمهم ابن ^(١) دقيق العبد المتوفى سنة ٧٠٢ وهو تلميذ العزيز عبد السلام وله مصنفات كثيرة في الفقه والحديث ومصطلحه . وكان يعاصره ابن الرضة أحمد ^(٢) بن محمد المتوفى سنة ٧١٠ وهو ثالث الشيخين : الرافعي القزويني والنووي الدمشقي في الاعتماد عليه في ترجيح الآراء الفقهية في مذهب الشافعي ، درس بالمدسة المعزية وتولى الحسبة ، وصنف تصنيفين عظيمين هما الكفاية في عشرين مجلدا والمطلب في ستين مجلدا . ومن كبار الفقهاء الشافعية القمُولي ^(٣) أحمد بن محمد المتوفى سنة ٧٢٧ صاحب البحر المحيط في شرح الوسيط للغزالي وكتاب جوامع البحر جمع فيه فروع . وكان يعاصره بدر ^(٤) الدين بن جماعة قاضي القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٣٣ وله تصنيفات في فنون كثيرة . وولتقى بالزركلي ^(٥) أبي بكر بن إسماعيل المتوفى سنة ٧٤٠ وله شرح على التنبيه لأبي إسحق الشيرازي عم النفع به وشرح ثان على المناهج للنووي . وكان يعاصره سليمان ^(٦) بن جعفر الإسدي المتوفى سنة ٧٥٦ صنف طبقات الشافعية وهو مطبوع . وولتقى بتق ^(٧) الدين السبكي على بن عبد الكافي المتوفى في نفس السنة المذكورة تلميذ ابن الرضة وله مصنفات كثيرة في الفقه وشروح كتبه الكبرى . ومن تلاميذه ابنه بهاء الدين السبكي الذي مر ذكره بين البلاغين ، وله في الفقه شرح على كتاب الحاوي للشيخ نجم الدين القزويني المتوفى سنة ٦٦٥ . وكان يعاصره عبد ^(٨) الرحيم بن الحسن الإسدي المتوفى سنة ٧٧٧ صاحب التصانيف السائرة ، منها المهات والجواهر وشرح المناهج والفروع وإليه انتهت رئاسة الشافعية في زمانه .

١/ ٤٢٥ والدرر الكامة ٣/ ٣٦٧ وفوات الوفيات

٢/ ٣٥٣ ونكت المباني ٢٣٥ ورواة الجاني ٤/ ٢٨٧

والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٩٨ .

(٥) انظر في الزركلي السبوي ١/ ٤٢٦ والفترات

١٢٥/٦ .

(٦) راجع في سليمان السبوي ١/ ٤٢٩ .

(٧) السبكي ترجم له ابنه بهاء الدين في طبقات الشافعية

١٠/ ١٣٩ وانظر في ترجمته السبوي ١/ ٣٢١ والدرر

الكامة ٣/ ١٣٤ .

(٨) انظر في الإسدي السبوي ١/ ٤٢٩ والدرر الكامة

٢/ ٤٦٣ .

(١) راجع في ابن دقيق العبد السبكي ٩/ ٢٠٧

والسبوي ١/ ٣١٧ والفترات ٦/ ٥ والدرر الطالع

٢/ ٢٢٩ ورواة الجاني ٤/ ٣٣٦ والوافي ٤/ ١٩٣ والطالع

السيد للإندلسي ٣١٧ وفوات الوفيات ٢/ ٤٨٤ والدرر

الكامة ٤/ ٣١٠ وتذكرة الحفاظ ١٤٨١ .

(٢) انظر في ابن الرضة السبكي ٩/ ٢٤ والسبوي

١/ ٣٢٠ والفترات ٦/ ٢٢ ورواة الجاني ٤/ ٢٤٩ والدرر

الطالع ١/ ١١٥ والدرر الكامة ١/ ٣٠٣ .

(٣) راجع في القمُولي السبكي ٩/ ٣٠ والسبوي

١/ ٤٢٤ والدرر الكامة ١/ ٣٢٤ والفترات ٦/ ٧٥

والطالع السيد ١٢٥ والنجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٩ .

(٤) راجع في ابن جماعة السبكي ٩/ ١٣٩ والسبوي

ويلقانا ابن^(١) الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ وهو أكثر أهل زمنه تصنيفاً ، ومن تصانيفه شرح التنبية وشرح الحاوى وشرح المنهاج وشرح كتاب العمدة وما به من أحاديث موزعة على أبواب الفقه . وتوفى بعده بعام شيخ الإسلام البلقيني^(٢) عمر بن رسلان وله في الفقه والحديث والتفسير تصانيف مختلفة ، وحمل عنه فقهه وعلمه ابنه علم الدين صالح المتوفى سنة ٨٦٨ وهو شيخ السيوطي . وكان يعاصره فقهاءان هما المحلى والمتاوى وبها ختم السيوطي حديثه عن فقهاء الشافعية . وبعد السيوطي نفسه خاتمهم الحقيقى إذ توفى سنة ٩١١ كما مر بنا في الحديث عن اللغويين وله في الفقه مصنفات كثيرة منها مختصر الروضة للنووى وحاشية عليها ومختصر لكتاب التنبية وشرح عليه وكتاب الأشباه والنظائر ، واللوامع والبارق في الجوامع والفوارق ، غير رسائل كثيرة أحصاها في ترجمته لنفسه بحسن المحاضرة . ونلقى بالشيخ زكريا^(٣) الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ وله في الفقه مختصر مشهور هو المنهج وله شروح مختلفة .

ونغضى إلى زمن العثمانيين ويظل التصنيف في الفقه الشافعى ناشطاً . ومن كبار الفقهاء في القرن العاشر ابن حجر^(٤) الميشتى المتوفى سنة ٩٧٣ وله الفتاوى الميشتية طبعت بمصر في أربعة مجلدات . وكان يعاصره شمس الدين الشربى الخطيب الذى مر ذكره بين المفسرين ، وله في الفقه شرح منهاج النووى ، وهو مطبوع ، وله شرح على متن أبى شجاع ، ولسلمان البجيرمى حاشية عليه . ويكتظ كتاب تاريخ الجبرى بأسماء فقهاء الشافعية وأشهر أئمتهم حيثئذ الرمل^(٥) المتوفى سنة ٩٥٧ وفتاويه تكتظ بها كتب الفقه الشافعى بعده .

وظلت مصر لا تعرق المذهب الحنبلى طويلاً ، ويعطل السيوطى ذلك بأن المذهب لم يبرز خارج العراق إلا في القرن الرابع ، وكان الفاطميون بمصر وكانوا لا يهتمون بغير عقيدتهم الشيعة الغالية ، ويقال إنهم اضطهدوا في أول أمرهم المذاهب الثلاثة التى كانت قائمة بمصر ، وهى مذاهب الشافعية والمالكية والحنفية ، فتأخر ظهور المذهب الحنبلى ، وأول إمام لهم نزل مصر الحافظ عبد الفنى^(٦) الجماعى المقدسى المتوفى سنة ٦٠٠ صاحب كتاب عمدة الأحكام في معالم

(٤) راجع في ابن حجر الميشتى مقدمة فتاويه وفتاوياته
٣٧٠ / ٨ والنور السافر ص ٢٨٧ والبدر الطالع ١ / ١٠٩ .

(٥) انظر في الرمل الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة
للزنى ١١٩ / ٢ والمخطوط التوفيقية (طبعة بولاق) ٤ / ١١٩ .

(٦) انظر مصادر ترجمة عبد الفنى المقدسى في قسم الشام
ص ٥٨٤ .

(١) راجع في ابن الملقن السيوطى ٤٣٨ / ١ والفضو
اللامع ١٠٠ / ٦ وفتاويات الذهب ٤٤ / ٧ .

(٢) انظر في البلقينى السيوطى ٣٢٩ / ١ والفضو اللاح
٦ رقم ٢٨٦ وفتاوياته ٥١ / ٧ .

(٣) انظر في الشيخ زكريا الفضو اللاح ج ٣ رقم ٨٩٢
والكواكب السائرة ١٩٦ / ١ والبدر الطالع ٢٥٢ / ١ والنور
السافر ص ١٢٥ .

الحلال والحرام عن خير الأنام ، وله شروح كثيرة . ولؤلف العمدة كتاب الكمال في معرفة أسماء الرجال ، وصنع له تهذيباً المزى جبال الدين يوسف بن الزكى وأكمل التهذيب مُغلطاًى الذى مر ذكره . وأخذ المذهب الحنبلى يشيع في مصر منذ أنشأ السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحة سنة ٦٤١ إذ جعل للمذهب الحنبلى ودرسته فيها إيواء بجانب أوأوين المذاهب الثلاثة السابقة ، ودعم ذلك الظاهر يبرس بضم قضاء للحنابلة والمالكية والحنفية بجانب قاضى الشافعية . وتوالى اهتمام الماليك ، في تأسيس مدارسهم ، بالفقه الحنبلى وقهاته بجانب فقهاء المذاهب الثلاثة الأخرى على نحو ما مر بنا في صدر هذا الفصل . ويترجم السيوطى في حسن المحاضرة لعشرين من فقهاء المذهب وقضاته في مصر مثل نجم^(١) الدين أحمد بن حمدان الحرافى المتوفى سنة ٦٩٥ مؤلف الرعاية الكبيرة وعمر^(٢) بن عبدالله المقدسى قاضى الديار المصرية المتوفى سنة ٦٩٦ وموفق^(٣) الدين عبدالله بن عبد الملك المقدسى قاضى الديار المصرية لنحو ثلاثين سنة توفى سنة ٧٦٩ ، وناصر^(٤) الدين نصر الله بن أحمد الكتافى المتوفى سنة ٧٩٥ ناب عن موفق الدين في قضاء الحنابلة ثم استقل به ستاً وعشرين سنة ، وعاد^(٥) الدين الحنبلى أبو بكر بن أبى المجد المتوفى سنة ٨٥٤ صنف تجريد الأولمر والنواهى من كتب الصحاح الستة ، واختصر تهذيب الكمال للمزى . ويختم السيوطى فقهاء الحنابلة زمن الماليك بأستاذه أحمد^(٦) بن إبراهيم الكتافى الصقلانى الأصل المصرى المولد ، وفيه يقول : ولى قضاء الحنابلة بالديار المصرية ، ودُرُس للحنابلة بغالب مدارس القاهرة ، وله تعليقات وتصانيف ومسودات كثيرة في الفقه وأصوله والحديث والعربية ، ومنها مختصر كتاب المحرر للرافعى توفى سنة ٨٧٦ . وبطل الفقه الحنبلى ناشطاً بمصر زمن العثمانيين ، وفى كتاب تاريخ الجبرى أسماء كثيرين من فقهاء الحنابلة ومن أكبر أئمتهم مرعى^(٧) بن يوسف المتوفى سنة ١٠٣٣ وله مؤلفات كثيرة في المذهب ، منها غاية المنتهى . ويبدو أن المذهب الظاهرى ظل معروفاً بمصر وظل علماء يعنون به ويتدارسونه ، وولتقى في كتب التراجم من حين إلى آخر

١/٣٤٣ والدرر الكاسنة ٥/١٦٣ وإنباء العمر ١/٤٦٦ .

(٥) راجع في عماد الدين السيوطى ١/٤٨٢ والضوء

اللامع ١١/٦٦ والشفرات ٧/٤٢ .

(٦) انظر في الكتافى السيوطى ١/٤٨٤ والضوء اللامع

١/٢٠٥ والشفرات ٧/٣٢١ .

(٧) خلاصة الأثر ٤/٣٥٨ .

(١) انظر في نجم الدين السيوطى ١/٤٨٠ والشفرات

٥/٤٢٨ والنبل الصافى ١/٢٧٢ .

(٢) انظر في عمر المقدسى السيوطى ١/٤٨٠ والشفرات

٥/٤٣٦ والنجوم الزاهرة ٨/١١١ .

(٣) راجع في موفق الدين السيوطى ١/٤٨١ والشفرات

٦/٢١٥ .

(٤) انظر في ناصر الدين السيوطى ١/٤٨١ والشفرات

بأسماء من كانوا يعتقدون هذا المذهب مثل بدر الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالبشتكى المتوفى سنة ٨٣١ .

ومعروف أنه حين حكم الفاطميون مصر كانوا يولون على القضاء فقهاء من عقيدتهم ، ومربنا في الفصل الأول بيان لمبادئ عقيدتهم الأساسية وإشارة إلى بعض آرائهم الفقهية التي خالفوا فيها الجماعة ، وأول قضائهم بمصر النعمان ^(١) بن منصور النحيسي الملقب بأبي حنيفة الشيعة ، كان في أول أمره مالكيا ، ثم تحول إلى مذهب الإمامية الشيعي ، ثم انتقل إلى عقيدة الإسماعيلية في خدمة المعز لدين الله بإفريقية ، وقدم معه إلى مصر فأسند إليه القضاء ، ولم يلبث أن توفي سنة ٣٦٣ . وله مصنفات فقهية شيعية مختلفة أهمها كتابه « دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله » وهو المصدر الأساسي في الفقه وعلم الكلام عند الشيعة الإسماعيلية . ونشره المرحوم الدكتور محمد كامل حسين كتاب المهمة في آداب اتباع الأئمة ، وذكر في مقدمته له كثيرا من الكتب الفقهية الإسماعيلية .

وظل القضاء الفاطمي بعده في بيته إلى نهاية القرن الرابع الهجري . ويتزل مصر سنة ٤٠٧ كبير دعاة الفاطميين وفقهائهم في الشرق حميد ^(٢) الدين الكرمانى ولا يلبث أن يتوفى سنة ٤٠٨ ومن أهم مصنفاته كتاب «راحة العقل» الذى حققه ونشره المرحومان : الدكتور محمد مصطفى حلمي والدكتور محمد كامل حسين ، وهو يزخر بمسائل فلسفية وعقيدية متشابكة . ويتزل مصر بعده المؤيد ^(٣) في الدين هبة الله الشيرازي أكبر دعاة الفاطميين وفقهائهم في القرن الخامس ، وقد ظل بها نحو ٣٠ عاما حتى توفي سنة ٤٧٠ وأهم مصنفاته المجالس المؤيدية ، وهى ثمانمائة مجلس في العقيدة الفاطمية وتشتمل على كثير من المسائل العقيدية والفقهية ، ونشر الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر في القاهرة ملخصا لهذه المجالس من صنعة حاتم بن إبراهيم . ونعيد هنا ما قلناه في الفصل الأول من أن هذه العقيدة وكل ما اتصل بها من فقه وغير فقه ، ظلت غريبة في مصر ، وظل المصريون مبتغدين عنها حتى انتهت تلك الدولة الشيعية المتطرفة .

كتابه راحة العقل .

(٣) راجع في المؤيد في الدين السيرة المؤيدية بتحقيق د. محمد كامل حسين وكتابه في آداب مصر الفاطمية ص ٥٩ ، ١١٦ .

(١) راجع في النعمان ابن خلكان ١١٥/٥ ولسان الميزان ١٦٧/٦ والثلثات ٤٧/٣ ورواة الجان ٣٧٩/٢ والنجوم الزاهرة ١٠٦/٤ ومقدمة كتاب المهمة في آداب اتباع الأئمة وكتاب دعائم الإسلام .

(٢) انظر في حميد الدين بر وكلسان ٣٥٥/٣ ومقدمة

ومرّبنا أن الشافعي هو الذي أسس علم أصول الفقه ورفع أركانه وشاد بنيانه ، فكان طبيعياً أن تظل مصر بعده عاكفة على هذا العلم وأن يلقانا كثيرون من فقهاء الشافعية متكئين عليه ، وسرى ذلك منهم إلى فقهاء الحنفية ، بل أيضاً إلى فقهاء المالكية والحنابلة . ولن نستطيع أن نلم بما كتب في هذا الميدان لكثرة ، ولذلك سنكتفي بذكر بعض كتبه المهمة ، من ذلك كتاب الإحكام في أصول الأحكام لسيف^(١) الدين الآمدي نزيل مصر سنة ٥٩٢ المتوفى سنة ٦٣١ وهو من أجمع وأروع ما وضع في هذا العلم . ولابن الحاجب الذي مر ذكره بين النحاة مختصر له شرح مراراً وتكراراً ، ولشمس^(٢) الدين الأصفهاني بعده المتوفى سنة ٦٨٨ شرح كبير لكتاب المحصول في علم الأصول لفخر الدين الرازي . ولبهاء الدين السبكي المذكور في فقهاء الشافعية كتاب بديع في الأصول سماه جمع الجوامع .

ولم ينشأ في مصر مذهب مستقل في علم الكلام ، فقد كانت تعتمد دائماً على ما يأتيها من الخارج ، غير أنه يلاحظ أنه منذ عهد صلاح الدين غلب مذهب الأشعرى الذي يقف بين المعتزلة وأهل السنة ، يقول المقرئ في الحديث عن مذاهب أهل مصر : « وأما العقائد فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعرى .. وشرط ذلك في أوقافه التي بديار مصر كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعي من القرافة والمدرسة التي عُرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص والمدرسة المعروفة بالقمحية وخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، فاستمر الحال على عقيدة الأشعرى بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن وبلاد المغرب أيضاً لإدخال ابن تومرت رأى الأشعرى إليها^(٣) . ولعل أكبر كتاب أشعرى ألف في مصر كتاب أبقار الأفكار لسيف الدين الآمدي المذكور آنفاً وفيه مباحث كبرى عن العلم والنظر وأقسام العلوم والنبوت والمعاد . ويظل التأليف في علم الكلام على مذهب الأشعرى ناشطاً حتى نهاية زمن العثمانيين .

٨/ ١٠٠ والبيروني ١/ ٥٤٢ والعبير ٥/ ٣٥٩ والشرحات
٥/ ٤٠٦ ونوات الوفيات ٢/ ٥٢٣ ورمّة الجنان
٤/ ٢٠٨ .

(٣) خطط للمقرئ ٣/ ٢٧٩ .

(١) انظر في الآمدي ابن خلكان ٣/ ٢٩٣ والسبكي
٨/ ٣٠٦ والبيروني ١/ ٥٤١ والعبير ٥/ ١٢٤ والشرحات
٥/ ١٤٤ ولسان الميزان ٣/ ١٣٤ وميزان الاعتدال
٢/ ٢٥٩ والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٨٥ .

(٢) راجع في شمس الدين الأصفهاني السبكي

التاريخ

نشطت مصر في كتابة التاريخ منذ مطلع القرن الثالث للهجرة ، وقد كُتبت في جميع ألوانه : في التاريخ العام أو تاريخ الدول العربية ، وفي التاريخ الخاص بتاريخ دولها وحكامها المختلفين . وفي تاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية ، وتاريخ الرجال وتاريخ العلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء . وبجانب ذلك عُتيت بكتابة السيرة . ولها في كل ذلك نشاط واسع ، ولعل من الخير أن نتعقبه على مر القرون .

وأول ما يلقانا من ذلك في القرن الثالث للهجرة ، السيرة النبوية لعبد^(١) الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ وقد طبقت شهرتها العالم الإسلامي ، ولمصر فضل إهدائها إلى هذا العالم وتداولها فيه إلى اليوم ، وإنها لتعد أوثق مصدر يرجع إليه مؤرخو السيرة المحمدية . ويلقانا بعدها كتاب فتوح مصر والمغرب لعبد^(٢) الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ . ويكتب محمد بن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ سيرة لعمر بن عبد العزيز ، وهي مطبوعة بالقاهرة .

ويلقانا من المؤرخين المصريين في القرن الرابع الهجري مؤرخ قبلي هو سعيد^(٣) بن البطريق الذي تقلد منصب بطريق الإسكندرية سنة ٣٢١ وظل يشغله حتى توفي سنة ٣٢٨ وله تاريخ سماه نظم الجواهر ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه ثلاث مقالات أو ثلاثة أبواب : باب عن النصارى وصومهم وإفطارهم وتاريخهم وأعيادهم ، وباب أو مقالة عن تواريخ الخلفاء والملوك المتخلفين ، ومقالة أو باب عن تاريخ البطارقة وأحوالهم وما جرى في ولاياتهم . وكتاب سعيد

للنهي ٨٦/٣ .

(٣) انظر ابن البطريق في ابن أبي أصيبعة ص ٤٥٠ ودائرة المعارف الإسلامية وبيروكلمان (الطبعة العربية) ٧٧/٣ وما بها من مراجع وقد طبع كتاب ابن البطريق في أكسفورد ونشره اليسوعيون في بيروت ونشر فيه روزن في لتجراد في القرن الماضي .

(١) انظر عبد الملك بن هشام في ابن خلكان ١٧٧/٣ وشرح سيرة النبي للمسي الروض الأث : مقدمة ، وعبير النهي ٣٧٤/١ والسيوطي ٥٣١/١ وإنباء الرواة ٢١١/٢ .

(٢) راجع عبد الرحمن في ابن خلكان ٣٥/٣ والسيوطي ٤٤٦/١ ، ٥٥٤ والدياج لابن فرحون والميزان

إشارة قوية إلى تعرب القبط حينئذ واستيعابهم العربية . وذُبل على هذا الكتاب يحيى بن سعيد الأنطاكي بتكلمة أرخ فيها من سنة ٣٢٦ حتى سنة ٤٢٥ وكان قد نزل أنطاكية سنة ٤٠٣ ووجد بها من الوثائق عن الدولة البيزنطية وبطاركة أنطاكية والقسطنطينية في تلك الحقبة ما ضمه إلى أخبار بطاركة الإسكندرية وأخبار الدولتين العباسية والفاطمية . وكان يعاصر سعيد بن البطريق أحمد^(١) بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب سيرة أحمد بن طولون ، وضمن ابن سعيد في كتابه المغرب - القسم الخاص بالقسطاط - أكثر هذه السيرة ، وعليه اعتمد البلوى فيما كتبه عن ابن طولون وآله . ولابن الداية أيضا كتاب في أخبار الأطباء مفقود ، وكتاب في السياسة نشر في بيروت ، وسنعرض في حديثنا عن النثر لكتابه « المكافأة » . وكان يعاصره عبد الرحمن^(٢) بن أحمد بن يونس الصدفي المتوفى سنة ٣٤٧ وقد وضع في التراجم كتابين : كتابا عن علماء مصر وكتابا عن الغرباء الواردين على مصر ، وهما مفقودان مثل كتاب ثالث له ذكره صاحب كشف الظنون ، وهو في تاريخ الصعيد . وثلثي بمحمد^(٣) بن يوسف الكندي المتوفى سنة ٣٥٠ وله كتابان : ولاية مصر أو أمراؤها حتى سنة ٣٣٥ وكذلك قضائها ، نشرهما جيست ، وهما كتابان نفيسان . وثلثي في أوائل زمن الفاطميين بابن^(٤) زولاقي الحسن بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب سيرة محمد بن طنج الإخشيد ، احتفظ بأكثره ابن سعيد في كتاب المغرب : قسم القسطاط ، وكانت له أيضا - وفقدت - سيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز وتاريخ السنين ، وتكلمة لكتاب الولاية وكتاب القضاة للكندي وطبع له كتاب أخبار سبيويه المصري . وبلغا بعده الطحان أبو القاسم يحيى^(٥) بن علي الحضرمي المتوفى سنة ٤١٦ وله ذيل على تاريخ ابن يونس الصدفي ، كما بلغا الروذ بارى أحمد^(٦) بن الحسين معاصره وله كتاب في تاريخ خلفاء مصر حتى زمن الحاكم سماء ، بلشكر الأدباء ، وينقل ابن سعيد عنه في قسم القاهرة من كتابه المغرب مرارا ،

(٤) انظر ابن زولاقي في السيوطي ٥٥٣/١ وابن خلكان ٩١/٢ ولسان الميزان ١٩١/٢ .

(٥) انظر الطحان في ابن خلكان ٢٢٣/٣ وانظر بروكلمان ٨٤/٦ .

(٦) راجع الروذباري في المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٣ .

(١) انظر مصادر ابن الداية في كتابه المكافأة في الفصل الخامس من هذا الكتاب .

(٢) راجع ابن يونس في السيوطي ٣٥١/١ ، ٥٥٣ وابن خلكان ١٣٧/٣ وفيات الوفيات ٥٢٦/١ والشملات ٣٧٥/٢ وعبر اللهي ٢٧٦/٢ .

(٣) انظر في الكندي السيوطي ٥٥٣/١ وديرة المعارف الإسلامية . وروكلمان ٨٢/٣ .

وعليه اعتمد فيما ذكره من أخبار الحاكم . وكان يعاصره هو والطحان المسبحي^(١) الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله المتوفى سنة ٤٢٠ ، وقد ترجم له ابن سعيد في المغرب ترجمة ضافية ذكر فيها مصنفاته الكثيرة . وأهمها تاريخه الكبير عن مصر وولاتها وخلفائها الفاطميين ، سماه « كتاب أخبار مصر وفضائلها وعجائبها وطرائفها وغرائبها وما بها من البقاع والآثار وسير من حلها من الولاة والأمراء والأئمة الخلفاء آباء أمير المؤمنين » وقد نشرت منه هيئة الكتاب قطعة صغيرة تؤرخ سنى ٤١٤ و ٤١٥ للهجرة . وتلقانا سيران إمام الفاطميين : سيرة جوذر الصقل أحد رجال الدولة الفاطمية قبل استيلائها على مصر ، وهي منشورة ، وأهم منها السيرة المؤيدية للمؤيد الشيرازي داعى دعاة الفاطميين المار ذكره ، وفيها يتحدث عن حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ . ويذكر بعض رسائله ومناظراته العلمية .

ومن أهم المؤرخين في زمن الفاطميين على^(٢) بن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٥٠ وله كتاب في وزراء الفاطميين سماه الإشارة إلى من نال الوزارة ألفه للوزير الفاطمي البطائحي . وللرشيد^(٣) بن الزبير أحمد بن علي المتوفى سنة ٥٦٣ كتاب في شعراء مصر سماه « جنان الجنان ورياض الأفهام » ألفه سنة ٥٥٨ . وهو أهم كتاب ألف عن الشعر الفاطمي وعليه اعتمد ابن سعيد في جزأى القسطاط والقاهرة من مصنفه « المغرب » في كثير من تراجمه . ويحاذب ذلك نجد في أواخر زمن الفاطميين مصنفات فرعية مثل « الرسالة المصرية » لأمية بن عبد العزيز الأمدلسي المعروف باسم أبي الصلت ، وعداده في الأمدلسيين . ومن ذلك مصنف للقاضي المجلسي في شعراء طلائع ابن رزيك ، ورسالة لابن جبريحي بن حسن ألفها في مدائح بنى أسامة سنة ٥٢٥ . وتلقى بالقرطبي محمد^(٤) بن سعد الذى ألف لشاور وزير الخليفة العاضد (٥٥٥-٥٦٧ هـ) كتابا في تاريخ مصر ، وتاريخ وفاته غير معروف . وعنه نقل ابن سعيد مقتطفات كثيرة في قسمي القسطاط والقاهرة من كتابه المغرب . وكان يعاصره على بن أبي السرور الرؤحى وله نحة الظرفاء في أخبار الأفياء والخلفاء إلى الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي المتوفى سنة ٤٢٧ ويُنظَرُ أنه ألفه بالإسكندرية

(٣) انظر في الرشيد ابن خلكان ١٦٠/١ ومعجم الأدباء ٥١/٤ والطالع الحيد ٥٢ والحريدة قسم مصر ٢٠٠/١ والشفرات ١٩٧/٤ . والسيرى ٥٤٠/١ .
(٤) انظر في القرطبي للمغرب قسم القسطاط ص ٢٦٧ .

(١) انظر في المسبحى المغرب (قسم القسطاط) ص ٢٦٤ وابن خلكان ٣٧٧/٤ والسيرى ٥٤٤/١ والواق للصقدي ٧/٤ والعبر ١٣٩/٣ والشفرات ٢١٥/٣ والنجوم الزاهرة ٢٧١/٤ .

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن منجب في ص ٤٠٥ .

سنة ٥٦٧ وطُبع في القاهرة مع تكملة إلى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وتكملة ثانية إلى المستنصر سنة ٦٤٠ .

وفي أواخر زمن الفاطميين وأوائل عهد الأيوبيين نلتقى بأبي صالح الأومى ، وله كتاب عن الكنائس والأديرة بمصر وما يجاورهما من البلاد ابتداء تأليفه سنة ٥٦٤ نُشر الجزء الأول منه في أكسفورد سنة ١٨٩٥ . ويلقانا في زمن الأيوبيين أبو طاهر السُّلّى المار ذكره وله معجم السفر لشيخه ومن لقيهم . وتتكاثر هذه المعاجم فيما بعد ، إذ تكثر ترجمة العلماء لشيخهم ، مما يُلقي أضواء كثيرة على الحركة الثقافية لعهودهم . وكان يعاصره الشريف النسابة محمد^(١) بن أسعد الجوائى الحسنى ، المتوفى سنة ٥٨٨ وله كتاب طبقات الطالبيين وتاج الأنساب .

وكتب إبراهيم بن وصيف شاه قبل سنة ٦٠٦ كتاب جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور وأخبار الديار المصرية . ولعل بن ظافر الأزدي المتوفى سنة ٦٢٣ كتاب الدول المتقطعة في أربعة مجلدات وفيه يذكر تاريخ الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والعباسيين حتى سنة ٦٢٢ . ومرونا ذكر الحافظ عبد الغنى بين الختابة وأن له كتاب الإكمال في معرفة أسماء الرجال . وأكبر مؤرخ للرجال زمن الأيوبيين القفطى^(٢) على بن يوسف المتوفى سنة ٦٤٦ وله كتاب إنباه الرواة على أنباه النحاة وكتاب المحدثين من الشعراء . وهما مطبوعان وله أيضا كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء . اختصره الزوزنى محمد بن على المعاصر له وسمى مختصره « تاريخ الحكماء » طبع في ليبزج وأقاهرة ، وهو مبثوث في هوامش هذا الجزء .

ونغضى إلى زمن الماليك وفي عهدهم تزدهر كتابة التاريخ العام والخاص وتاريخ التراجم والسير ، ويلقانا المكين^(٣) بن العميد ، وهو جرجيس (أوعبدالله) بن أبى اليسيرين أبى المكارم المولود بالقاهرة سنة ٦٠٢ والمتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وله كتاب المجموع المبارك وهو تاريخ عام للعالم في قسمين : القسم الأول من بداية الخلق إلى الرسول ﷺ والقسم الثانى من الرسول إلى سنة ٦٥٨ وقد نُقل إلى اللاتينية وطبع مع الأصل العربى في ليدن سنة ١٦٢٥ للميلاد وترجم إلى الإنجليزية وطبع في لندن ثم إلى الفرنسية وطُبع في باريس . وكان يعاصره ابن ميسر^(٤) تاج الدين محمد بن على بن يوسف المتوفى سنة ٦٧٧ مصنف تاريخ مصر وهو ذليل أو تكملة لكتاب المسبّحى

(١) ١٩١/٢ والسيوطى ٥٥٤/١ .

(٢) انظر في الجوائى الحريدة (قسم مصر) ١١٧/١
ولسان الميزان ٧٤/٥ .

(٣) انظر المكين في بروكلمان ١٤٤/٦ ومائة المعارف
الإسلامية .

(٤) انظر القفطى في معجم الأدباء ١٧٥/١٥ والطالع
السيد ص ٢٣٧ والشفرات ٢٣٧/٥ وفوات الوفيات

(٤) انظر ابن ميسر في بروكلمان ٩٠/٦ .

آنف الذكر . وللشاعر المعروف باسم الجزار المتوفى سنة ٦٧٩ قصيدة تاريخية سماها العقود الدرية في الأمراء المصرية حتى الملك الظاهر بيبرس احتفظ بها السيوطي في كتابه حسن المحاضرة . ولاين^(١) الراهب القبطي أبي شكر بطرس المتوفى سنة ٦٨١ كتاب في التاريخ العام يشتمل على تاريخ ملوك الروم والبطاركة والخلفاء والأمراء إلى سنة ٦٥٧ تُرجم إلى اللاتينية سنة ١٦٥١ وعُني به اليسوعيون ببيوت ونشروه سنة ١٩٠٣ . وحرى بنا أن نذكر هنا ابن^(٢) خلكان أكبر كتاب التراجم وأوثقهم المتوفى سنة ٦٨١ وحقا نشأ بالموصل ، ولكنه أقام فترات طويلة بالقاهرة وفيها بدأ تأليف كتابه النفيس : وفيات الأعيان سنة ٦٥٤ وأتمه بها سنة ٦٧٢ . ويلقانا محي^(٣) الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وله سيرة نفيسة في السلطان قلاوون ، باسم : تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون وهي منشورة ، وله أيضا سيرة في السلطان الظاهر بيبرس وسيرة ثالثة في الأشرف خليل بن قلاوون ، وأيضا له خطط القاهرة .

ونلتقي في القرن الثامن بالدوادار^(٤) ركن الدين بيبرس المنصوري المتوفى سنة ٧٢٥ وله زيادة الفكرة من تاريخ الهجرة ، وهو تاريخ عام للدولة الإسلامية حتى سنة ٧٢٤ مرتب على السنين في أحد عشر مجلدا ، وفي مكتبة جامعة القاهرة مصورات لبعض أجزائه . وكان يعاصره النويري الذي تحدثنا عنه بين الجغرافيين مشيرين إلى موسوعته الكبرى نهاية الأرب . وبها سيرة نبوية مطولة وتاريخ عام للدولة الإسلامية ، وأشرنا هناك أيضا إلى ابن فضل الله العمري وموسوعته مسائل الأبصار ، وبها مجلدات ضخمة لتراجم الأطباء والفقهاء والطماء من كل صنف والشعراء والكتاب لا في مصر وحدها بل في العالم العربي جميعه . ونلتقي بالحافظ ابن^(٥) سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ وسيرته النبوية : « عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير » . وبها إضافة مهمة إذ لا تكتفي بما في كتب السيرة كسيرة ابن هشام ، بل تضيف إلى ذلك المراجعة على كتب الحديث مثل صحيح البخاري . ويلقانا الإدقوي^(٦) جعفر بن ثعلب المتوفى سنة ٧٤٨ مصنف الطالع

(٥) راجع في ابن سيد الناس السيوطي ٣٥٨/١ ،

٤٢٥ والبلد الطالع ٢٤٩/٢ والنجم ٣٥٦/٧ وطبقات

القراء ٣٨٦/١ والدرر الكائنة ٣٣٠/٤ والبكي

٤٦٨/٩ .

(٦) راجع في الإدقوي السيوطي ٥٥٦/١ والشرحات

١٥٣/٦ والدرر الكائنة ٧٢/٢ والبلد الطالع ١٨٧/١

(١) انظر ابن الرواح في بروكلمان ١٤٦/٦ .

(٢) انظر مصادر ترجمة ابن خلكان وأخباره في الجزء

الخامس من هذه السلسلة بقسم العراق .

(٣) راجع مصادر ترجمة محي الدين بن عبد الظاهر في

ص ٤١٥ .

(٤) انظر في الدوادار الدرر الكائنة ٤٣/٢ والشرحات

٦٦/٦ ودائرة المعارف الإسلامية .

السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد . وكان يعاصره المفضل بن أبي الفضائل القبطي وله ذيل على تاريخ المكين بن العميد باسم « النج السديد والدر الفريد فيما يعد تاريخ ابن العميد » ويشمل تاريخ سلاطين المماليك من الظاهر بيبرس إلى الناصر بن قلاوون وتاريخ بطارقة الإسكندرية والمسلمين في اليمن والمند وتاريخ التتار ، نُشر منه القسم الخاص بسلاطين^(١) المماليك . وتلقى بالحافظ مُططاي المار ذكره بين المحدثين ، وله سيرة نبوية باسم « الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم » ومنها مخطوطة في دار الكتب المصرية .

ويلقانا بهاء الدين السبكي الذي ذكرناه بين فقهاء الشافعية ، وله كتابه النفيس « طبقات الشافعية » . ونراه يصل التاريخ بالمجتمع في كتابه « معيد النعم » وهو يلتقي بكتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي ، والكتابان إنما يعرضان للحياة السياسية والاجتماعية في المدينة عرضا مثاليا ، والسبكي يتجه في « معيد النعم » نفس الوجهة في المجتمع المصري ، فيصور المثالية ، ولا يكتفى بذلك ، بل يعتمد إلى تصوير الواقع مقابلا بينه وبين المثال ، ولكي يصل إلى ذلك استعرض عناصر المجتمع ، وهي تبلغ عنده مائة واثني عشر عنصرا : من السلطان ونوابه وموظفي الدولة وقواد الجيش والقائمين على الضرائب والأسواق والقضاة والعلماء والوعاظ والصوفية وخزنة الكتب ومعلمي الكتاتيب والوراقين وأصحاب الصيد والزراعة والصناعة والتجارة وأصحاب الحرف المختلفة ، وحتى البوابين والقائمين على إصطبلات الخيول والشحاذين . كل هؤلاء يستعرض حياتهم بواقعها وما ينبغي أن تكون عليه من صورة مثالية . وبذلك رسم المجتمع المصري بكل معانيه وما ينبغي أن يكون عليه من هيئة فاضلة .

ويلقانا في مطالع القرن التاسع ابن^(٢) الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المتوفى سنة ٨٠٧ وله كتاب « تاريخ الدول والملوك » بلغ فيه نهاية سنة ٨٠٣ وكان في عشرين مجلدا . وكان يعاصره ابن دقاق^(٣) صارم الدين إبراهيم بن محمد المذكور بين الجغرافيين والمتوفى سنة ٨٠٩ وله كتاب الانتصار لواسطات عقد الأمصار ، خص كل جزء منه بمدينة ، وقد نشر فولر من الجزء من الحاصين بالقاهرة والإسكندرية ، وله كتاب في تراجم الصوفية ، وله في تاريخ مصر كتاب نزهة الأنام في اثني عشر مجلدا وتاريخ لحكام مصر حتى سنة ٨٠٥ صنفه للسلطان بقوق وله فيه سيرة

(٣) انظر ابن دقاق في السيوطي ٥٥٦/١ والشنرات

٨٠/٧ والفضو اللاع ١١٥/١ .

(٢) انظر ابن الفرات في السيوطي ٥٥٦/١ والفضو

اللاع ٥١/٨ .

سماها « عقد الجواهر في سيرة الملك الظاهر برفوق » ، وتكرر في هذا العصر كتابة سير السلاطين . وقد ذكرنا بين الجغرافيين القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ وكتابه « صبح الأعشى » ، وهو سجل تاريخي حافل بمعلومات نفيسة عن مكاتبات الحكام في العالم العربي على مر العصور بجانب أنه معلمة جغرافية رائعة . وله مصنفات مختلفة .

ونلق بالمقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ وقد مر ذكره بين الجغرافيين مع الإشارة إلى كتابه « الخطط » ، وفيه يتحدث عن البيئة الطبيعية - كما أسلفنا - لمصر ، ويفيض في الحديث عن القاهرة وآثارها وأحيائها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ومارستاناتها ومصانعها وخزائنها وما كان بها من حركة علمية ، ويتحدث عن الدول التي أظلمت ، وبذلك يلقى في الكتاب تاريخ مصر الفكرى بتاريخها السياسى والاجتماعى والروحي والحضارى ، إذ حوّل المقريزي التاريخ إلى دراسة اجتماعية وعقلية ومياسية مع تصوير عادات السكان وتقاليدهم ومستوى معيشتهم ونزعتهم الصوفية وكل ما اختلف على أهل مصر والقاهرة من صور الحياة . وله سيرة نبوية في ستة مجلدات باسم « إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع » ، وله انعاظ الخنقا بأخبار الفاطميين الخلفاء في تاريخ الدولة الفاطمية وهو مطبوع وكتاب الملقى في تراجم أمراء مصر وأعيانها رتبته على الحروف الأبجدية ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك في تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ - ٨٤٤ وكتاب درر العصور الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، وكتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب إلى غير ذلك من كتب تاريخية نفيسة . وكان يعاصره ابن حجر^(١) الذي مر ذكره بين المحدثين ، وعنى بالتأليف في التراجم ، وله كتاب الإصابة في تراجم الصحابة وكتاب رفع الإصر عن قضاة مصر وكتاب تهذيب التهذيب في اثني عشر مجلدا وكتاب لسان الميزان وكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، وكل هذه الكتب مطبوعة . وله أنباء الغمر بأبناء العمر ، وعنى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بطبعه .

ويلقانا أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تقي^(٢) برّدى المتوفى سنة ٨٧٤ ، وله كتابه النفيس « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » يؤرخ فيه لمصر منذ دخلها عمرو بن العاص وأضاءت فيها

(٢) انظر ابن تقي برّدى في الضمير اللاص ج ١٠ رقم ١٧٨ والشفرات ٣١٧/٧ والبدر الطالع ٣٥١/٢ ومقدمة كتابه النجوم الزاهرة طبع دار الكتب المصرية ودائرة المعارف الإسلامية في أبي المحاسن ، وزيادة ص ٢٦ .

(١) انظر ابن حجر في السيلوى ٣٦٣/١ والشفرات ٢٧٠/٧ والضمير اللاص ج ٢ رقم ١٠٤ والقوائد البية للكنزى ص ١٠٠ والبدر الطالع ٨٧/١ والمؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر لليلادى محمد مصطفى زيادة

أنوار الدين الحنيف حتى سنة ٨٧٢ وهو تاريخ على السنوات . وعادة يقدم لسنوات كل وال أو خليفة أو حاكم أو سلطان بكلمة عامة عن حكمه وما وقع فيه من أحداث مهمة وما يداخل زمنه من بعض الشئون الاجتماعية مع الاهتمام بالنواحي العلمية . وهو فيه لا يدرج لمصر وحدها ، بل يذكر مع سنواتها دائما تاريخ الدول العربية ، ومع كل سنة وفيات الأمراء والعلماء والأدباء في العالم العربي ، وأيضا مع تصوير الحياة العربية في جميع مناحيها . وكانت له عقلية فذة استطاع بها أن يبرز الأحداث السياسية في وطنه والأوطان العربية مع سق كثر من الطوائف الأدبية والاجتماعية . والكتاب مطبوع في سنة عشر مجلدا . وله مصنفات تاريخية مختلفة بجانبه أهمها كتابه المنهل الصافي وهو معجم نفيس لمشاهير الرجال الذين توفوا من سنة ٦٤٨ حتى أيامه ، ويشمل نحو ثلاثة آلاف ترجمة لمن عاشوا في مصر والشام في تلك المدة ومن عاصروهم من أهل العراق والحجاز واليمن والتار وبلاد المغرب والأندلس من الملوك والولاة والأمراء والوزراء والقواد والعلماء والكتاب والشعراء والمؤرخين والأطباء والمهندسين والتجار وأرباب المهن وغيرهم ، وصنع له مختصرا باسم الدليل الشافي على المنهل الصافي وهو منشور في مجلدين .

وكان يعاصره ابن قطلوبغا الذي مر ذكره بين الأحناف ، وقد أشرنا هناك إلى أن له كتابا في تراجم الحنفية سماه « تاج التراجم » وهو ميثوث في هوامش هذا الجزء . ونلتقى بشمس^(١) الدين السخاوي محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٠٢ وله كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع وهو معجم بديع لتراجم هذا القرن ، وقد عدنا إليه مرارا فيما أسلفنا من حديث ، وله ذيل على كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأستاذة المقرئى ، وذيل آخر لكتاب أستاذة الثاني ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، وقد خصه بترجمة حياته .

وينوج السخاوي هذا النشاط التاريخي العظيم بكتابه : « الإعلان بالتبويخ لمن ذم التاريخ » وهو محاولة رائعة لوضع علم التاريخ الإسلامى العربى . واسم الكتاب يوحى بأنه دفاع عن التاريخ ، وقد بدأ ببيان معنى كلمة التاريخ لغة واصطلاحا وبيان موضوعه وأنه الزمان والإنسان ، وأخذ يصور فوائده في التربية الدينية والحلقية والشئون الاقتصادية وأيضا الشئون السياسية بما يدفع إليه الحكام من العدل في الرعية والقواد من تدبير شئون الجيش ، وبالمثل الشئون الاجتماعية وما يتصل بها من الكالات والنواقص في المجتمعات . ويعرض بالتفصيل لما ينبغي أن يتوفر في

والشعرات ١٥/٨ والبدر الطالع ١٨٤/٢ والنور السافر
للبروسى ص ١٦ والمؤرخون في مصر زيادة ص ٣٩ .

(١) انظر في السخاوي مقدمة كتابه الضوء اللامع
وكذلك ج ٨ رقم ١ والكواكب السائرة للنزى ٥٣/١

المؤرخ من شروط العدالة والتحرى والتدقيق في الأخبار مما ينبغي معه رفض الإسرائيليات والأساطير. ويطلق في بيان أنه ينبغي على المؤرخ أن لا يستشر عداوة من يعاديهم لأسباب عقيدية أو مذهبية أو شخصية ، ويصور الاختلاف العنيف بين المتصوفة وأهل السنة وكذلك بين الشيعة وعصرهم . ويُنتجى باللائمة على الذهبي في تراجمه لاستطالته على المتصوفة وكثيرين من أئمة الشافعية والحنفية والأشاعرة لمخالفتهم له في العقيدة الحنبلية . وينقل عن السبكي أنه ينبغي أن لا يؤخذ بكلامه في ذم أشعري والثناء على حنبلي . ويفيض في بيان التحرى في الروايات والرواة ويسط الحديث في نقد المؤرخين وكتاباتهم التاريخية . والكتاب بالغ الروعة والنفاسة .

وكان يعاصره السيوطي الذي مر ذكره بين اللغويين والنحاة والمحدثين وقهاء الشافعية ، وله طبقات الحفاظ وهو مختصر من طبقات الحفاظ للذهبي ، وطبقات المفسرين وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، وحسن المحاضرة وهو ميثوث في الهوامش ، وتاريخ الخلفاء والسلاطين من عهد أبي بكر الصديق إلى زمن السلطان قايتباي ، وممالك الحفا والدى المصطفى ، ولب اللباب هذب فيه اللباب لابن الأثير ويشتمل على نحو تسعة آلاف اسم وكل هذه الكتب منشورة . وله وراءها مصنفات أخرى منها سيرة للإمام مالك وسيرة للنووى . ويُحتملُ زمن الماليك بابتن إياس محمد بن أحمد الذى عرضنا له بين الجغرافيين ، وله تاريخ مفصل عن مصر سماه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » وهو يتناول فيه باختصار تاريخ مصر ، حتى إذا وصل إلى زمن قايتباي . (٨٧٤ - ٩٠٣ هـ) أفاض في التاريخ إفاضة واسعة ، حتى لذكر وفيات كل شهر ، ومن أهم ماكتبه وصفه لاحتلال العثمانيين مصر مبينا ما ألحقوه بها من دمار ونهب لكنوزها وصناعاتها وعلمائها وصناعاتها المهرة ، حتى ليقول إنهم أبطلوا من مصر خمسين صنعة .

وتظل للتاريخ بقية من النشاط في زمن العثمانيين ، وأول مؤرخ نلتقى به في عهدهم ابن زنبيل الرمال أحمد بن علي المتوفى سنة ٩٦٠ وقد مر ذكره بين الجغرافيين وكان موظفا في ديوان الجيش العثماني ، وله كتاب فتح مصر أو أخذها من الجراكسة على يد السلطان سليم . ويصف معاركه مع الجراكسة في شبلى الشام وفي القاهرة وعودته إلى عاصمته إستانبول . ويلقانا عبد الوهاب الشعراني المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألمنا به في حديثنا عن المتصوفة في الفصل الماضي ، وله طبقاته الكبرى في تراجم الصوفية على مر السنين حتى زمنه ، وهي مطبوعة مرارا . ويلقانا في القرن الحادى عشر الهجرى زين الدين بن أبى السرور البكرى محمد الصديقى وابنه شمس الدين محمد ولها كتب

مختلفة في العثمانيين ، وأهم منها عبد ^(١) الرؤف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ، وصنف كتابا في الأحكام السلطانية وكتابا في معجم الحديث سماه كنوز الحقائق. وكان يعاصره الإسحاق محمد بن عبد المعطى المتوفى سنة ١٠٣٢ وله لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ، وهو مطبوع . وثلث بنور ^(٢) الدين الحلبي على بن إبراهيم المولود بمصر المتوفى سنة ١٠٤٤ وله السيرة النبوية الحلبيه المشهورة ، وهى مطبوعة مراراً. ويلقبنا شهاب ^(٣) الدين الخفاجى أحمد بن محمد المتوفى سنة ١٠٦٩ وله رحمة الألباء ترجم فيها لشعراء الشام والمغرب والحجاز ومصر أيام العثمانيين وهو مطبوع مرارا . وألفت كتب كثيرة في السيرة النبوية ، منها سيرة خير البرية للصبان المذكور بين النحاة والمتوفى بأخرة من زمن العثمانيين سنة ١٢٠٦ . وظلت مصر موئلا للعلماء - مؤرخين وغير مؤرخين - في زمنهم كما كانت في الأزمنة السابقة . ومن كبار المؤرخين الذين نزلوها حينئذ المقرئ المتوفى سنة ١٠٤١ مؤلف كتابي نفع الطيب وأزهار الرياض الموسوعتين الأندلسيتين المشهورتين .

١٢٢/٣ .

(١) راجع المناوى في خلاصة الأثر ٤١٢/٢ واليدر

(٢) انظر مصادر ترجمة الخفاجى في ص ٤٥٩

الطالع ٣٥٧/١ .

(٢) راجع نود الدين الحلبي في خلاصة الأثر

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

٩

عرب مصر

كان بمصر قبل الفتح العربى الإسلامى لغات وعناصر جنسية مختلفة ، فقد كان بها إغريق منذ عهد البطلمة ، وكانت اللغة الإغريقية - منذ زمانهم وفى عهد الرومان - اللغة الرسمية للدولة . وكان بها بعض السريان فى الإسكندرية وبعض الأديرة ، وكانوا يهتمون بالطب ، ونُقل من لغتهم السريانية فيما بعد لعمر بن عبد العزيز كتاب فى الطب لأهرون القس . وكان بها رومان ، وكثرتهم كانت من جنود الاحتلال الرومانى . وطبيعى أن يتكلموا لغتهم اللاتينية . وكان بها بعض اليهود وخاصة فى الإسكندرية وكانوا يتكلمون العبرية . وأهم من تلك العناصر جميعا جماهير مصر من القبط ، وهم عامة الشعب وسواده ، وكانوا يتكلمون القبطية ، وكانت لها لهجات تتفاوت بتفاوت الأقاليم والبلدان المصرية البحرية والقبلية .

وبمجرد أن نزل العرب مصر لم يعد للاتينية أى شأن ، فقد طردت بقايا الرومان مع الجيش البيزنطى الذى غادر البلاد مدحورا مهزوما . وانحازت السريانية إلى الأديرة وأخذت فى الزوال . واضمحلت العبرية . أما اللغة الإغريقية فظلت حية فى الدواوين على ألسنة الموظفين بها وفى كتاباتهم حتى سنة ٨٧ للهجرة إذ أمر الوليد بن عبد الملك أخاه عبد الله والى مصر بنقل الدواوين من اليونانية إلى العربية^(١) ، وسرعان ما هُجرت وبُذت الإكلمات قليلة سقطت فى العربية إما من الإغريقية مباشرة وإما منها عن طريق القبطية .

أما اللغة القبطية فظلت بعد اللغة الإغريقية منتشرة على كل لسان فى البلاد ، إذ كانت لغة

باللغتين اليونانية والعربية ، وانظر أدب مصر الإسلامية
(عصر الولاة - نشر دار الفكر العربى) للدكتور محمد كامل
حسين ص ٣٠ .

(١) خط المقيزى ١٨١ / ١ فيه أن نقل الدواوين
بمصر كان من القبطية إلى العربية وهو خطأ فقد كان من
الإغريقية إلى العربية ، كما تشهد بذلك أوراق البردى التى
نشرها جرومان فى مواضع مفرقة وهى صادرة عن الولى

التخاطب اليومي ، غير أنها كانت متخلقة ، إذ لم تحتفظ لنفسها بشيء من التراث الأدبي الفرعوني عند أمثال حوتب الكاتب وبتنامور الشاعر ، واستحالت لغة فقيرة مجدبة في معجمها اللغوي وفي أساليبها البيانية ، وكل ما كانت تحمله حين الفتح كتابات دينية جافة^(١) ، ليس فيها شيء من روعة البيان ، كُتبت في العهد الروماني أو قبل الفتح وبعده . وحق من كان لديه حينئذ ملكة شعرية خضبة من القبط أثر أن ينظم شعره باليونانية محاكيًا لهوميروس أولغيره من شعراء اليونان^(٢) . ومعنى ذلك أنه لم يكن للقبطية تراث أدبي تستطيع أن تثبت به أمام العربية وتراثها الأدبي البديع . فأخذت تكسحها وتظفر بألسنة القبط عاما بعد عام .

وعاملان قويان أخذتا يعملان بسرعة على تعرب مصر . أما أولهما فدخل كثيرين من القبط في الإسلام لما رأوا من تعاليمه السامية ، ولما استقر في نفوسهم من أن من يسلم منهم يصبح له جميع حقوق العربي الفاتح فله مالمسلمين وعليه ماعليهم ، يقول بتر : « كان في ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول في الإسلام لاسيما وقد طحن المقوقس الحاكم الروماني أو البيزنطي عقيدتهم (الأرثوذكسية) طحنا »^(٣) . ومعروف أن الرومان أو قبل البيزنطيين ساموا القبط خسفا لا يطاق ، وكانوا يهجون طيات مصر نهبًا ، ويعتصرون خيراتها اعتصارًا ، فكان الإسلام للقبط ملاذًا وملجأ . وعُدُّوا العرب مخلصين لهم من ظلم لا يطاق ، وأنحفوا يدخلون في دين الله الخفيف ، ويمضون بتر قائلًا : « وكذلك دخل في الإسلام كثير من الروم بعضهم من الجنود وبعضهم ممن حلَّ منهم في مصر » . وكلما قطعنا شوطًا زمنيًا بعد الفتح ترايد عدد الداخلين من القبط في الإسلام ، بدل على ذلك تناقص ضريبة الدفاع المسماة بالجزية التي كانت تؤخذ من القبط ، وكانت لا تؤخذ إلا من القادرين على حمل السلاح ، فلا تؤخذ من شيخ ولا صبي ولا امرأة ولا راهب ، وقبلما كانت تزيد على دينار ، وربما أصبحت نصف دينار ، وكان مقدارها زمن عمر بن الخطاب اثني عشر ألف ألف دينار ، فنقصت في عهد معاوية إلى خمسة آلاف ألف^(٤) ، مما يدل بوضوح على دخول كثيرين من القبط في الإسلام في الفترة الأولى من الفتح العربي ، بحيث لو قلنا إنه دخل نحو نصف السكان في الإسلام لم نكن مغالين . وظل عدد من

(٢) راجع أدب مصر الإسلامية ص ٤

(٣) بطرس ٢٤٢ .

(٤) بتر ص ٤٠٣ وانظر البلدان للبهرقي ص ٣٣٩ .

(١) انظر فتح العرب لمصر لبتر ترجمة محمد فريد

أي حديد ص ٨٥ وموجز تاريخ القبط للمحق رسالة
ماريتا الرابعة (مراجعة مراد كامل) ص ١٥٥ وأدب مصر

الإسلامية ص ٦ .

يسلمون في ازدياد مع السنين حتى إذا ولي حبان بن شريح لعمر بن عبد العزيز بعد نحو ثمانين عاما من الفتح رأيتاه يكتب إلى عمر : إن الإسلام قد أضرَّ بالجزية ، حتى اضطرت إلى اقراض عشرين ألف دينار أتممتُ بها عطاء أهل الديوان ، وكأنه كان يريد أن يبق الجزية على من يسلمون من القبط ، فكتب إليه عمر كتابا شديد اللهجة قائلا : « أما بعد فقد بلغني كتابك ، وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد أمرت رسول بضر بك عشرين سوطا على رأسك . فضع الجزية عن أسلم قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعث جاليا يجمع الأموال ^(١) . » وكان كل هؤلاء المسلمين من القبط منذ عهد عمر بن الخطاب يُقبلون على حفظ بعض آيات القرآن الكريم واستظهار بعض الحديث النبوي وتعلم العربية مما عمل بوضوح على تعرب مصر .

وعامل ثان لا يقل عن هذا العامل خطرا في تعرب مصر ، هو هجرات القبائل العربية إليها بعد الفتح حين سمعت بنحسبها وزروعها وثمارها . وعادة يقف المؤرخون عند هجرات كبيرة لتلك القبائل مثل هجرة القبائل القيسية في عهد هشام بن عبد الملك ومثل هجرة بني سليم والقبائل المالكية في عهد الدولة الفاطمية . غير أنه كان وراء هذه الهجرات سيل متدفق من هجرة القبائل وعشائرها إلى مصر . وكان كل وال في العهد الأموي يصحبه كثير من الجند . وكانت مصر قرية من الجزيرة العربية فترها كثيرون من قبائل الشمال وقبائل الجنوب والغرب والشرق . وتُغنى كتبُ بيان هذه القبائل المهاجرة ومنازلها بمصر مثل كتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقرئزي . وطبيعي أن تختلط هذه القبائل بسكان مصر لاق مدتهم فحسب . بل أيضا في ريفهم . فقد سنَّ لهم عمرو بن العاص أو قل سنَّ لجنده أن يرتبوا أو يقضوا الربيع في ريف مصر ثم يعودوا إلى القساط . ونشأ عن هذا الاختلاط سريعا ضروب من المصاهرة بين بعض العرب والقبط عقب الفتح إذ يسمى ابن عبد الحكم طائفة من أبناء السلطانيات القبطيات ^(٢) . من بينهم عون بن خارجة القرشي وعبد الرحمن بن معاوية بن حذَّيج . وخارجة معاوية جميعا ممن حضروا الفتح . ولا بد أن اتسع ذلك فيما بعد . مع كثرة هجرة العرب . ومع اختلاطهم بالقبط . مما جعلهم يتعلمون لسانهم لكي يحسنوا التفاهم معهم . وكانت حاجتهم من وجهات كثيرة تدعو إلى ذلك ، فقد كان منهم من يقوم على جمع خراج الأرض للعرب وجمع الجزية . وكانت

تصلهم رسائل من الدواوين ويُضطرون للرد عليها ، فاضطروا لتعلم العربية ، واضطروهم إلى ذلك أيضا النظام القضائي ، فكان القبطي المدعى في قضية أو المتهم في حجة إلى معرفة شيء من العربية . وكل ذلك عمل على ذبول القبطية ، ولكن غير صحيح أنها أخذت في الزوال من لسان القبط بعد نحو قرن من الفتح العربي كما زعم رونودوبعض الباحثين فقد ظلت حية ، يدل على ذلك أكبر الدلالة مارواه المؤرخون من أن المأمون حين زار مصر لسنة ٢١٧ بعد الفتح بنحو قرنين كان يتزل في قرى مصر وضياعاها ويستمع إلى القبط وماقد يكون لديهم من شكوى ، والتراجمة بين يديه يترجمون له مايقولونه بالقبطية^(١) . ويدور العام ويتولى الخلافة أخوه المعتصم ، فيأمر كيدر واليه على مصر أن يقطع عطاء العرب من الديوان^(٢) . وكان ذلك بدءا حقيقيا لعرب مصر ، فإن كل من كان بها من العرب حتى جند الدولة اضطروا إلى أن يزاووا مع القبط حياتهم ابتغاء الكسب ، فأخلوا يشاركونهم في الزراعة ، وهي مشاركة أقدم من ذلك منذ هجرة القبائل العربية الكبيرة إلى الحواف الشرقى في أواخر العصر الأموي ، غير أنهم جميعا الآن لم يعد لهم بُدٌ من هذه المشاركة لا في الزراعة وحدها بل أيضا في التجارة والصناعة . وبذلك أصبح العرب في مصر جميعا مصريين ، يشاركون القبط في حياتهم المصرية وألوان الكسب فيها مشاركة تامة ، وكان ذلك إيذانا بأن يتم تعرب مصر نهائيا ، وأن تأخذ القبطية في الزوال والامحاء من السنة القبط في الريف والقرى وتُحل محلها العربية في جميع الألسنة .

والحق أن موجة التعرب كانت حادة وقوية منذ زمن الفتح بسبب كثرة من اعتنقوا الإسلام من القبط حتى ليقول بتر : « إن التاريخ لم يذكر في حوادثه أمر أعجب من أن القبط انقسموا قسمين : قسم منهم امتزج كل الامتزاج بالإسلام ، والقسم الآخر بقي على دينه »^(٣) . وهو يريد بامتزاج القسم الأول بالإسلام اعتناقه له ويعجب من ذلك ، ولا عجب ، لأنه يعرف السبب ، كما مر بنا ، وهو سماحة الإسلام والمساواة في الحقوق بين من يسلم وبين الفاتحين وما يفرضه الدين الخفيف بين الطرفين من أخوة وثيقة . والمهم أن هذه الآلاف ممن أسلموا بل ربما الملايين ، كما يدل على ذلك نقص ضريبة الجزية مما أشرنا إليه ، أقبلوا على تعلم العربية ، حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام . ولم يلبث أن نبغ منهم كثيرون يُترجمُ لهم كتبُ التاريخ في الفقه والشريعة من مثل

(١) خطط الفريزي ١٨١/١ .

. الفريزي ١٧٣/١ .

(٢) الولاة والقضاة الكندي (طبعة جيست) ص ١٩٣ .

(٣) بتر ص ٤٢٥ .

يزيد بن أبي حبيب الذى أقامه عمير بن عبد العزيز بأخرة من القرن الأول الهجرى للفُتيا بين الناس ، وقد ذكرناه فى الفصل الماضى . كما ذكرنا من كبار القراء بمصر ورثا . وهو أيضا من سلالة القبط ، وتقرأ البلاد المغربية إلى اليوم بقراءته . ولا نلث أن تلقى بعد ورش بنى التون المصرى الإخيمى وله فضل تأسيس التصوف فى العالم الإسلامى . وهذه الأسماء المنحدرة من سلالة من أسلم من القبط إنما هى رموز فقط . ووراءهم من لا يكاد يحصى من أفذاذ العلماء فى كل فن .

وهذه الموجة الحادة من التعرب لم تقف عند من دخلوا فى الإسلام من القبط . فقد أخذت العربية تشيع على ألسنة كثيرين من القبط أنفسهم ، ويبدو أن كثيرين من الرهبان غنوا بتعلمها إذ نجد شماسا يسمى بنيامين كان يلزم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان فى أثناء ولاية أبيه على مصر يترجم له فصولا من الإنجيل ويشرحها^(١) . وحتى علماء الإسكندرية نراهم يقبلون على تعلم العربية ، حتى ليرسل خالد بن يزيد بن معاوية - كما مر بنا فى الفصل الماضى - بطلب جماعة منهم لينقلوا له بعض كتب الكيمياء والطب ، وذكرنا هناك أن عمر بن عبد العزيز استقدم من الإسكندرية الطبيب ابن أبجر ، وأسلم على يده . وربما ألف أو نقل له بعض رسائل طيبة . ومر بنا أيضا أن الدوميلي ذكر كتابين فى الكيمياء ألفها عالم مصرى أو علماء لأوائل القرن الثالث الهجرى ، وكان سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون يتقن العربية ، كما تدل على ذلك ترجمته^(٢) فى طبقات ابن أبى أصيبعة . ونلقى بعده بسعيد بن البطريق بطريرك الإسكندرية (٣٢١ - ٣٢٨ هـ) وقد ذكرنا فى الفصل الماضى له كتابا بالعربية فى تاريخ البطارقة والخلفاء . وذكر له ابن أبى أصيبعة كتابا فى الطب بالعربية . وكل تلك شواهد تؤكد أن مصر بقبطها ورهبانها وبطاركتها تعربت أو كادت فى القرن الثالث الهجرى ، يدل على ذلك أننا نجد ساويرس ابن اللقفع أسقف الأسمنين المتوفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى يشكو شكوى مرة من ندرة اللسانين القبطى واليونانى فى مصر . وليس معنى ذلك أن القبطية طردت نهائيا من مصر ومن كنائسها وأنه لم يعد بين القبط ورهبانهم من يعرفها . بل معناه أنها أخذت فى الزوال وحلت محلها فى ألسنة القبط العربية وخاصة فى لغة التخاطب اليومى ، أما هى فاعجازت إلى الأديرة والصوامع البعيدة فى الصحراء والصعيد . من ذلك ما يذكره المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ للهجرة عن نصارى

(١) انظر سير الآباء البطارقة لأسقف الأسمنين ساويرس (٢) راجع عين الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٥٤١ . ابن اللقفع (بعض أجزاء من طبع باريس) ص ٢٤ .

أديرة درنكة^(١) بالقرب من أنسيوط من أنهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية ، وأن لهم معرفة تامة بالرومية يريد اليونانية . على كل حال هذه أسراب قليلة حافظ عليها نصارى الأديرة النائية ، أما الكتلة القبطية فإنها تعربت - كما قلنا - مبكرة منذ القرن الثالث الهجري .

٢

كثرة الشعراء

كان نشاط الشعر بمصر محدودا زمن الأمويين . وقد يرجع ذلك إلى أن أكثر الفاتحين لمصر كانوا يمنية ، والشعر لا ينشط على ألسنة البغين نشاطه على ألسنة المضربين والقيسين . على أن القبائل القيسية والمضربة أخذت جموعها تنزل في مصر طوال الحقب الأموية . ولذلك ربما كان أولى من هذا التحليل لضعف الشعر بمصر حينئذ أن ما نُنظم منه لم يسجله الرواة ولا اهتم أصحابه بتسجيله ، ولولا ما سجله منه الكندي في كتاب الولاة والقضاة وابن عبد الحكم في كتابه فوج مصر والمقريزي في الحفظ لظل مجهولا لنا تماما . على أن ما سجلوه قليل ، وأكثره يتصل ببعض الأحداث التاريخية . وهو شعر في جملة متوسط ، وربما كان خير شعراته أيام الأمويين ابن أبي زمزما ، والشعر المنسوب إليه قليل ولا يوضح شخصيته . وحقا نشط الشعر بمصر زمن ولاية عبد العزيز بن مروان عليها (٦٥ - ٨٦ هـ) فقد كان جوادا ممدحا فانتجته وقدم إليه مدائحه شعراء كثيرون حجازيون ونجديون وعراقيون ، منهم جميل صاحب بشية وكثير صاحب عزة وعبد الله بن الحجاج التغلبي وأمين بن خرم . ومن جذبه جوده ابن قيس الرقيات وله فيه مدائح بدیعة^(٢) ويصف في إحدى مدائحه لعبد العزيز رحلة نبيلة من القسطنطينية إلى حلوان وأهم شاعر حجازي امتدحه ولزمه نصيب وكان مسترقا لكتاني ، وحين وفد عليه واستمع إلى مديحه أعجب به إعجابا شديدا ، ورد إليه حريته مما أثر في نفسه أثارا عميقة ، وأخذ يوالى نائلة القمر عليه ، وهو يوالى مديحه مديحا رائعا ، وله ترجمة في كتابنا العصر^(٣) الإسلامي . وفي كتاب الأغاني تفاصيل كثيرة بتراجم هؤلاء الشعراء الوافدين على عبد العزيز ، وما أضفى عليهم من النوال وأضفوا عليه من المديح .

كتابنا العصر الإسلامي (الطبعة الثانية) ص ٢٩٩ .

(٣) العصر الإسلامي ص ٢٢٣ .

(١) الخطط ٥٦١ / ٣ .

(٢) انظر ترجمته في كتابنا الشعر والغناء في المدينة ومكة

لمصر بنى أمية (طبع دار الحارف) ص ٢٧٥ وكذلك في

ونعنى إلى زمن العباسيين وولاتهم وقضائهم المتعاقبين على مصر . وتلقانا في كتاب الولاية والقضاء أشعار كثيرة تتصل بالأحداث أو بهجاء بعض القضاة أو بمدحهم ، وبصور ذلك إسحاق بن معاذ في مدحه للمفضل بن فضالة الذى ول قضاء مصر سنة ١٦٨ للهجرة ، وعاد فهجاء^(١) . كما يصوره يحيى الخولاني في هجائه لعبد الرحمن العمري الذى ول قضاء مصر في أيام هرون الرشيد سنة ١٨٥ لكثرة ما اتخذ من الشهود ورضاء بانتساب بعض المصريين من سلالة الأقباط في العرب ، وهجاء أيضا بشغفه بالفناء وقبوله - فيما زعم - للرشوة^(٢) . وفي هذه الأثناء نزل مصر أبو نواس الشاعر البغدادي المعروف قاصداً الخصب بن عبد الحميد متولى الخراج^(٣) بها حوالى سنة ١٨٠ وأخذ ينثر عليه مدائح رائعة ، ومدحته الرائية له : (أجارة بيتا أبوك عيود) مشهورة . وأهم شعراء مصر حين زارها أبو نواس سعيد بن عفير والمعلّى الطائي ، ولسعيد أشعار في الولاية والقضاء للكندى تتصل بالأحداث والأشخاص بين سنتي ١٦٨ و ٢٠٩ . والمعلّى الطائي - بدون ريب - أشعر منه ، وأشعاره عند الكندى تردّد بين سنتي ١٩٠ و ٢١٤ وروى له ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتاب المغرب أبياتا في هجاء القاضي العمري يصفه فيها بالظلم وأنه يتردد إلى المغنيات لساع الفناء ، وله مرثية رائعة لجارية له اختطفها منه القدر كانت تسمى « وَصْفاً » وفيها يقول^(٤) :

ياموت كيف سلبني وَصْفاً قدُمْتُها وتركتني خَلْفاً

وأخذت شِقْ النفس من بلدي فقَبَرْتُه وتركت لي الثُصْفا

ونراه يتصل بالولاية ومدحهم واحداً تلو الآخر ، ومن اتصل بهم ومدحهم عبد الله بن طاهر حين ول مصر سنة ٢١١ وله يقول من مدحة طويلة^(٥)

يا أعظم الناس عَفْواً عند مقدرة وأظلمَ الناس عند الجود للالو

لو أصبح النيلُ يجرى ماؤه ذهاباً لا أشرتَ إلى خَزْنٍ بمثالي

ونزل مصر أبو تمام في بواكير حياته ، ويبدو أنه نزلها مرتين : مرة قاصداً عباس بن هبة الحضرمي القائم على الشرطة والخراج لواليتها للمطلب الخراسي بأخرة من القرن الثاني ، ومرة ثانية

الصدر العباسي الأول (الطبعة الثامنة) ص ٢٢٤ ، ٢٢٨

(١) الولاية والقضاء للكندى ص ٣٧٩ - ٣٨٦ .

(٤) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف) ٢٧٩/٣ .

(٢) الكندى ص ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ - ٤٠٣ .

(٥) الأغاني (طبع دار الكتب) ١٠٢/١٢ .

٤١٤ ، ٤١٣ .

(٣) خطط للقرنيزي ٢٨٥/١ وانظر ترجمته في كتابنا

حين وليها عبد الله بن طاهر قاصداً له بالمدح ، وظل بها حتى سنة ٢١٤ كما تدل على ذلك أشعاره التي أنشدها الكندي في مديح عبد الله بن طاهر وكذلك أشعاره في رثاء عمير بن الوليد الوالي بعده . ويبدو أن صداقة انعقدت بينه وبين المثل الطائي وابنه جطآن . إذ نجله ينشد في ديوان الحماسة قطعة بديعة لجطآن يصور فيها عاطفة الأميرة الرحيمة الشفيقة إزاء البنات والأولاد بمثل قوله ^(١) :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأضر

وهو بجانب من التعاطف الحميم في الأسرة المصرية ستلقى به مرارا عند الشعراء المصريين . وأهم شاعرين مصريين في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ذو النون المصري الإحيى مؤسس التصوف الإسلامي المتوفى سنة ٢٤٥ وهو ينحدر من سلالة مصرية خالصة ، والشاعر الثاني الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام المتوفى سنة ٢٥٨ للهجرة ، وفيه يقول ياقوت : « كان شاعراً مفلحاً مدح الخلفاء والأمراء » ولحق أحمد بن طولون ولكن القدر لم يمهله .

ومرّبنا أن أحمد بن طولون ولي إمارة مصر سنة ٢٥٤ وأسس بها الدولة الطولونية ، وقد أخذ ينهض بعمرانها فأنشأ قصراً ضخماً . كما مرّبنا في غير هذا الموضع ، وألحق به ميداناً فسيحاً للعب الكرة . وأنشأ خاروبه ابنه بعده بستانا كان من عجائب الدنيا لما فيه من الزهر من كل لون وشكل . ومرّبنا حديث مفصل عن كل هذه المنشآت . وعنى أحمد بن طولون ومثله ابنه خاروبه بالشعر والشعراء فأسبغاً عليهم العطايا وأسبغ عليها الشعراء مدائح كثيرة . ولعل ذلك ما جعل كثيرين من الشعراء يتدبّون دولتهم حين أزالها العباسيون سنة ٢٩٢ للهجرة ، ويذكر ابن نغرى بردى منهم إسماعيل بن أبي هاشم وسعيد القاضي الملقب بقاضي البقر ومحمد بن طشوبه وأحمد بن إسحق ^(٢) ، ويقول المقرئى : رأيت كتاباً قدر اثني عشرة كراسة مضمّنة فهرساً بأسماء الشعراء الذين بكوا الدولة الطولونية ، ويطلق على ذلك بقوله : « فإذا كانت أسماء الشعراء في اثني عشرة كراسة فكم يكون شعرهم ؟ مع أنه لا يوجد من ذلك الآن ديوان واحد » ^(٣) . وفي هذا ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء بمصر حينئذ ، وما يدل على ذلك أيضاً أن نرى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ يؤلف كتاباً في أخبار شعراء مصر ^(٤) . فالشعراء تكاثروا بمصر منذ زمن الدولة الطولونية ، ومنذ

(١) الحماسة لأبي تمام بشرح الرزوقي (طبع لجنة
التأليف) ٢٨٥/١ .

(٢) المخطوط ١/١١٢
(٣) معجم الأدباء ٤١٥/٢

(٤) النجوم الزاهرة ١٤٠/٣ وما بعده

أخذ تعريب مصر يتكامل كما أسلفنا . ومن أهم شعراء هذه الدولة القاسم بن يحيى المزمي شاعر خاراويه ، وله مدائح فيه وأشعار في وصف السفن والخيول والصيد . وللبحتري مدائح مختلفة في خاراويه وأبيه أحمد بن طولون ، ويذكر ابن تغري بردي أنه زار مصر لمديح خاراويه ^(١) وأغلب الظن أن مديحه له ولأبيه إنما كان حين لقبها في الشام ، فقد كانت تتبعها ، وكانا يتزلان بها كثيرا ، ومر بنا في الفصل الماضي أن خاراويه قُتل بدمشق على يد غلانه . ونزل مصر لعهد تلك الدولة الناشئ الأكبر أبو العباس المعروف بابن شرشير المتوفى بها سنة ٢٩٣ وكان من الشعراء المجيدين ، ويقول ابن خلكان إنه بُعِدَ في طبقة ابن الرومي والبحري ونظرائها ^(٢) ، وقد ترجمنا له في كتابنا العصر العباسي الثاني ، وأنشدنا له بعض أشعاره في جوارح الصيد وآلاته ، وله فيها أشعار بديعة كثيرة ، وأنشدنا أيضا أشعارا له رائحة في الغزل تملأ النفس إعجابا . وكانت له قصيدة من الشعر التعليمي تتناول فنونا من العلم في نحو أربعة آلاف بيت ، وقصيدة تاريخية في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم تبلغ نحو ألف بيت وكان له كتاب نقدي في الشعر وفضله . وبدون شك التفت حوله كثير من المصريين وأقادوا من شعره وعلمه ونقده بدليل أنه أثر المقام بينهم إلى مماته . ونزل مصر مثله منصور ^(٣) بن إسماعيل الفقيه المشهور بمقطعاته في الزهد . ويدور بنا الزمن دورة وتُظَلَّ مصر الدولة الإخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) ويظَلُّ الشعر ناشطا في أيامها ، ويرجم الثعالبي في كتابه البتية لطائفة كبيرة من شعرائها مثل صالح بن مؤنس ومحمد بن هرون الأكنسي وعبد الله بن أبي الجعوف والحسن بن محمد الشهاجي وصالح بن رشدين وابن أبي العصام وابن طباطبا الحسني الرُسي ^(٤) . ونزل مصر في عهد كافور المتنبئ ، كما مر بنا في الفصل الماضي ، فأحدث نزوله حركة أدبية واسعة ، وكان ابن رشدين وابن أبي الجعوف من كبار المصجيين به فُتِنَا برواية شعره ، وظلا يدرسانه للطلاب بعد مبارحته مصر . ومن نزلها زمن كافور كشاجم شاعر الشام المتوفى سنة ٣٦٠ وله في أديرتها شعر كثير . ونزلها أيضا في زمنه الناشئ الأصغر وامتدحه وامتدح وزيره ابن جُرْزَابَة ^(٥) .

ويؤسس الفاطميون دولتهم بمصر وتظل نحو قرنين من الزمان ، تتحول فيها مصر إلى ما يشبه إمبراطورية ضخمة ، إذ يمتد سلطانها من شواطئ إفريقيا الشمالية إلى الفرات شرقا واليمن جنوبا ،

وقد جاءها المزم أول خلفائها الفاطميين وبرفته شاعره المؤمن بعقيدته الإسماعيلية ابن هاني الأندلسي ، ومعه ابنه نجم الشاعر الشاب الفذ ، وكان المزم نفسه شاعراً ، روى ابن تغري بردى بعض شعره ^(١) ، وكان ابنه العزيز نزار الذي ول الحلافة الفاطمية بعده أيضاً شاعراً ^(٢) وكذلك كان الحاكم ^(٣) والمستنصر ^(٤) ، فليجي أن يبعثوا نهضة شعرية في البلاد ، خاصة أنهم كانوا يعنون بالدعاية لعقيدتهم الإسماعيلية ، وقصدهم الشعراء فأغدقوا عليهم الأموال والعلطاء . وكان يصنع صنيعهم وزير المزم والعزيز : يعقوب بن كلس ، وكان يهوديا وأسلم . ودبر دولتها تديراً جيداً ومهد لها قواعد الدولة ، وكان الشعراء يترددون عليه يشدون المدايح . ولعل مما يدل على كثرتهم حيث أننا نجد الذهبى وغيره من المؤرخين يقولون إنه لما توفي سنة ٣٨٠ رثاه مائة شاعر ^(٥) . ولا بد أن من رثوا المزم وابنه العزيز كانوا أيضاً كثيرين ، فضلاً عن كانوا يثنون عليهما أشعار المديح . غير أنه ينبغي أن نعود فنقيد هذا الكلام بعض التقيد لأن أهل مصر لم يكونوا راضين عن الفاطميين لعقيدتهم الإسماعيلية المفرطة في التشيع المنحرف ، كما مر بنا في غير هذا الموضع . فلا يصح أن نتخذ من مديح الخلفاء الفاطميين مقياساً لمدى نشاط الشعر في مصر ، فقد كان أوسع من ذلك وأكبر .

وإذا مضينا بعد المستنصر إلى عهد الخليفة الفاطمي الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) وجدنا خبراً مهماً يسوقه المقرئ عنه إذ يذكر أنه بنى بركة الحبش منظرة بها طاقات صور فيها جميع الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده ، وعلى جانب كل طاقة قطعة قماش كُتب عليها عند رأس كل شاعر قطعة من مدحه ، وبجانب صورة كل شاعر رتبة مذهب . فلما دخل المنظرة وقرأ الأشعار أمر أن يوضع على كل رتبة صرة ممتومة فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته يده ^(٦) وكان وزيره الأفضل بن بدر الجمالي شاعراً ، وروى ابن مسير في أخبار مصر بعض شعره ، وكان يجزل العطاء للشعراء . فلده كثير من شعرائهم . ويعرض أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية أسماء طائفة من مدائحه وبعض مدائحهم ولم يبعث من هجوه وهجائهم . ويسمى الهاد الأصبهاني في القسم المصري من كتابه الحريدة أسماء طائفة من شعرائه . وكان الوزير طلائع بن رزك بك بأخرة من العصر الفاطمي شاعراً ، والتف حوله كثير من الشعراء ، وخصهم شاعره الجليل بن الحجاب بمصنف

(٤) المصدر نفسه ٨١/٥

(٥) النجوم الزاهرة ١٥٨/٤

(٦) المخطوط ٢٦٨/٢

(١) النجوم الزاهرة ٧٩/٤

(٢) النجوم الزاهرة ١١٣/٤

(٣) النجوم الزاهرة ١٩٦/٤

نقل منه العمد الأصماني تراجم طائفة منهم ، ومن أهم شعرائه الرشيد بن الزبير وله كتاب في شعراء مصر في العهد الفاطمي سماه « جَنَّانُ الْجَنَانِ وَرِياضُ الْأَفْهَانِ » وهو مفقود ، غير أن العمد الأصماني انتفع بتراجمه ، وبالمثل ابن سعيد في كتاب المغرب . ووفد على مصر زمان الفاطميين كثيرون من الشعراء النابيين في البلاد العربية أمثال أبي الرقمقي الأعطاسي وصرريح الدلاء البغدادى والتهايمي المكي وابن حتيوس الدمشقي وأمية بن أبي الصلت الأندلسي المار ذكره آنفا .

ويظل نشاط الشعر المصري في زمن الأيوبيين بل يزداد نشاطا على نحو ما يصور ذلك كتاب بدائع البدائع لعل بن ظافر الأزدي ، وهو يسجلُ الأشعار التي كان ينظمها الشعراء في مجالسهم على البديهة . وتلقى هذه المجالس في كل مكان إذ يجتمع الشعراء ويتخذون موضوعا طريفا لنظم أشعار على البديهة دون بَطء ودون أناة كأن ينظموا في بعض الأزهار إذا كان مجلسهم في حديقة أو ينظموا في فانوس السحور يرمضان إذا كان مجلسهم في ليلة من لياليه ، ونحس في هذا الكتاب كأن الشعر كان على لسان . ومن الأدلة على ازدهار الشعر في أوائل زمن الأيوبيين وأواخر زمن الفاطميين أننا نجد العمد في خريدته ينحصر مصر بمجلدين ترجم فيها لمائة وأربعين شاعرا . وكان القاضي الفاضل في الدولة الأيوبية مثل طلائع بن رزّيك والأفضل بن بدر الجبالي في الدولة الفاطمية ممثلا ، والتف حوله عشرات من الشعراء ، وكان بدوره شاعرا كبيرا . وأطلقت فتوح صلاح الدين وانتصاراته المدوية على الصليبيين ألسنة الشعراء في مصر وجميع البلدان العربية حتى لم يكذب شاعرنا به إلا قصده مادحا كما يقول ابن خلكان^(١) . ونرى فاضل بن راجي الله العطار المصري يقدم لابنه سلطان مصر بعده العزيز (٥٨٩ - ٥٩٥ هـ) كتابا في شعراء مصر لزمته سماه « الشعراء المصرية بالديار المصرية »^(٢) . ويفد على مصر بأخرة من زمن الأيوبيين على بن سعيد الأندلسي كما يفد عليها ابن العديم علم حلب لزمته ويصحبه معه إلى بلدته ، وفيها يكتب له بين سنة ٦٤٤ و ٦٤٧ نسخة من كتابه المغرب ، وفيه قسم كبير خاص بمصر وبلداتها في الوجهين البحري والقبلي . وقد اشتركت في نشر القسم الخاص منه بالفسطاط وبه طائفة كبيرة من شعرائها ، ونشر القسم الخاص بالقاهرة وبه أيضا شعراء أيوبيون كثيرون .

وتنحى كتب التاريخ والتراجم بشعراء مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، وفي مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفيات الوفيات لابن شاكر الكشي والوفاء بالوفيات للصفدي وكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر . وكتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع

للسخاوى وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وكتاى السلوك والخطط للمقرىزى وكتاب بدائع الزهور لابن إياس . ولا يكاد يوجد شاعر نابه زمن الأيوبيين والمماليك إلا وله ديوان مطبوع فقد طبعت دواوين القاضى الفاضل وابن سناء الملك وابن التيه والبهاء زهير وابن مطروح وابن الفارض والبوصيرى والقيراطى وابن نباتة وغيرهم ، بل طبعت دواوين لبعض الشعراء الفاطميين مثل نعيم بن المعز وابن وكيع والشريف العقيل والمؤيد الشيرازى وظافر الحداد وطلان بن رزيك وابن قلاقس .

ويظل لمصر نشاطها الشعرى زمن العثمانيين . ويؤلف شهاب الدين الحفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ كتابا فى شعراء زمنه سماه «ريحانة الألباء» ، خص مصر بالقسم الثالث منه ويذيل على الريحانة المسمى المتوفى سنة ١١١١ بكتاب سماه «نفحة الريحانة» جعل لشعراء مصر قسما كبيرا منه ، وبالمثل يذيل على نفحة الريحانة ابن معصوم المتوفى سنة ١١١٧ بكتاب سماه «سلافة العصر» ترجم فيه لطائفة من شعراء مصر لزمنه . وتلقانا تراجم مختلفة للشعراء المصريين فى شذرات الذهب للعقاد وهو لا يتجاوز بتراجمه القرن العاشر . ونلقى بطائفة منهم عند المسمى فى كتابه خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر وكذلك عند المرادى المتوفى سنة ١٢٠٦ فى كتابه «سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر» وأهم منه ومن العقاد تاريخ الجبرى ، وهو يعنى فى الجزءين الأولين بتراجم شعراء مصر حتى نهاية القرن الثانى عشر أى حتى نهاية أيام العثمانيين .

٣

شعر دورى ورباعيات وموشحات وبنديقيات

(١) الشعر الدورى

ذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول ما نفذ إليه الشعراء العباسيون من تجديد فى الأوزان ، وأهم من ذلك ما نفذوا إليه من تجديد فى القوافى أتاح لهم أن يستحدثوا اللون الشعرى المعروف باسم المزدوج . وقد خصّصوا به منظومات الشعر التعليمى ، وفيه تتحد القافية فى كل شطرين متقابلين وتتغير من بيت إلى بيت ، وكأن الوحدة فيه لم تعد البيت ، وإنما أصبحت الشطر . ويكثر بمصر كما يكثر بغيرها من الأقاليم العربية نظم المزدوجات التعليمية ، وكادوا لا يتركون علما دون أن ينظموا فيه الأراجيز المزدوجة ، وأكثروا من ذلك فى النحو واللغة والقراءات ، حتى الطب تلقانا فيه مزدوجات كثيرة . ومن أوائل ما يلقانا بمصر مزدوجة لابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٣

للهجرة في وصف فصول السنة ، وأهم من ذلك أن له مزدوجة مربعة بناها من أدوار ، كل دور بيتان متحد شطورهما في القافية افتتحها بهذا الدور^(١) :

رسالة من كَلِّفُو عَمِيدَ حَيَاتُهُ فِي قَبْضَةِ الصَّلَوْدِ
بُلْفُهُ الشَّوْقُ مَدَى الْمَجْهُودِ مَا فَوْقَ مَا يَلْقَاهُ مِنْ مَزِيدِ

وتلاه بأربعة وأربعين دوراً . وقد كثر هذا النظام الدورى المكون من بيتين بيتين ، ولطاع خاصة في العصر الحديث إلى اليوم .

ونظام دورى ثان هو المسمطات شاع مبكراً وعرضنا له في كتاب العصر العباسى الاول واستشهدنا له بمسطين لأبى نواس ، أحدهما من أربعة شطور والثانى من خمسة . والمسط مشتق من السَطَ وهو قلادة تلتقى فيها عدة سلوك عند جوهرة كبيرة ، وكل دور في المسط كأنه سلك يلتقى مع الأحوار أو الأملاك الأخرى في قافية الشطر الأخير من الدور ، وكأنها الجوهرة التى تتجمع عندها الأملاك . وتتحده الشطور السابقة للشطر الأخير في قافيتها وتتغير من دور إلى دور . ومن كان يشغف من المصريين بصنع المسمطات نعيم ابن الخليفة للمز الفاطمى وكان شاعراً مجيداً . ومن مسمطاته مخمس مدح به أخاه العزيز استلهم على هذا النمط^(٢) :

دَمُ الْعُشَّاقِ مَطْلُولُ وَدَيْنُ الصَّبِّ مَحْطُولُ^(٣)
وَسَيْفُ اللَّحْظِ مَسْلُولُ وَمُبْدَى الْحَبِّ مَعْدُولُ

وإن لم يُصْنَعْ لِلانم

ويتوالى بعد هذا الدور ثلاثون دوراً على هذه الشاكلة ، فالشطور الأربعة الأولى تُحد قافيتها ، وقافية الشطر الخامس دائماً ميمية ، وهى عمود المسط وقطبه الذى يدور عليه . وقد تدور المسمطات على شطر رابع أو على شطر سادس أو سابع ، وتسمى مربعات وسداسيات وسباعيات . وأشدّ الهامد الأصهبانى مسطاً سباعياً^(٤) لشاعر إسكندرى يسمى موسى بن على وأخذ الشعراء المصريون في العصور المتأخرة يكتنون من هذه المسمطات وأولعوا بتسبيط بعض القصائد المشهورة مثل بردة البوصيرى وهزيمته في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم . ونعصى بروكلمان من تخميسات البردة وتسبعياتها وتسبعياتها عشرات أكثرها لمصريين^(٥) .

(٣) مطلول : مظهر ولامية له .

(١) البيتة ٣٥٩/١

(٤) الحريدة (قسم شعراء مصر) ١١٣/٢

(٢) ديوان نعيم بن للمز لدين الله الفاطمى (طبع ونشر

(٥) بروكلمان (طبع دار المعارف) ٩١/٥

دار الكتب المصرية) ص ٣٦٨

وتظل المسطحات وخاصة الخمسات تلقانا أيام العُمانيين في كتب الزاجم من مثل ربحانة الألبا ونفحة الربحانة وتاريخ الحيرى . ولأبى السعود الشمرانى المتوفى سنة ١٠٨٨ من مَحْسُ نَبْوِي^(١) :

يا حادى العيس إن حَفْتُ بك الكَرْبُ الْحَقْ - هُدَيْتَ - بركبٍ ساقه الطَّرَبُ
وَقُلْ لَصَبٌ غدا بالشوق يَتَحَبُّ لمهبط الوحي حَقًا تَرَحَّلُ الثَّجَبُ
وعند هذا المرجى ينتهى الطلبُ

وتستمر في الخمس قافية الشطر الخامس في الشطور الخامسة من الأدوار التالية بآية على نحو ما قدمنا في قاعدة نظمه .

(ب) الرباعيات

مرَّبَّنَا في كتاب العصر العباسي الأول كثرة الرباعيات عند أبى نواس وأبى العتاهية . والرباعية أربعة شطور من الشعر تؤلف بيتين ، متحد شطورهما الأولى والثانية والرابعة في القافية ، أما الشطر الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور في قافيته وقد لا يتحد . ولم يكن شعراء العصرين : العباسي الأول والثاني يقصرون الرباعية على وزن معين . حتى إذا مضينا في هذا العصر : عصر الدول والإمارات وجدنا الفرس يكتفون من استخدامها مع تسميتها باسم دوبيت ، أى بيتين . ويشركهم شعراء العرب في ذلك ، واستحدثوا جميعا لها وزنين هما : « فَعْلُنْ فَعْلُنْ مُسْتَعْلِنْ » و « فَعْلُنْ مَتَّعْلِنْ فَعْلُنْ فَعْلُنْ » على نحو ما صورنا ذلك في حديثنا عن الرباعيات في قسم العراق بالجزء الخامس من هذه السلسلة ، وما نخفى في زمن الدولة الأيوبية حتى نجد الشعراء يكتفون من الرباعيات ، من مثل قول ابن مَمَّانِي^(٢) :

يا غَضْنُ أراك حاملا عود أراك حاشاك إلى السَّوَاكِ يحتاج سيَّوَالُكِ
قُلْ لى أَنهَاكِ عَن مجيئك نُهَاكِ لو تَمَّ وَفَاكِ بُسْتُ خَدَّيكِ وَفَاكِ

ومن نظموا فيها ابن النيه وابن مطروح وابن قَزَل وغيرهم ، ويقول ابن سعيد الأندلسي الذي زار القاهرة بأخرة من تلك الدولة كما مر بنا : « كثير من أهل القاهرة من يقول التَّوَيْتِ »

(١) نفحة الربحانة للمحبي (طبعة الحلبي - تحقيق
عبد الفتاح الحلبي) ٥٣٨/٤

(٢) مجمع الأدباء ١٢٤/٦ والأولك شعر يتخذ من

السواك ، وفاك أى فك ، وسمى صاحبه فضا لامتواء
قاسما . والنهى : العقل .

أو الرباعيات . . ولم أسمع بها من شعرائها أحسن مما أنشدني لنفسه ابن أبي الإصبع :

قُبِلْتُ ثَنَاءَ كُجَّانِ الْعَقْدِ مِنْهُ وَعَدَلْتُ عَنْ نُضَارِ الْخَدِّ
نَادَى مَاذَا ؟ قُلْتُ : طَبَعُ عَرَى يَشْتَاقُ أَقَاخَ الرُّوْضِ دُونَ الْوُدِّ (١)

ويُتهم في نظم الرباعيات أصحاب الشعر الصوفي وفي مقدمتهم ابن الفارض ، وله رباعيات تفوح بوجود مبرِّح من مثل قوله :

رَوْحِي لَكَ يَا زَائِرُ فِي اللَّيْلِ فِدَاً يَا مُؤَنَسَ وَحْشِي إِذَا اللَّيْلُ هَدَا
إِنْ كَانَ فِرَاقُنَا مَعَ الصَّبْحِ بَدَا لَا أَسْفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ صُبْحٌ أَبَدَا

فهو يبذل روحه لمحبوبه الرباني مخلصاً صادقاً ، ويتمنى أن يظل نوره بضياء دُجاء وأن لا يسفر عليه صباح ولا تفتت أضواؤه من الأفتق إن كانت لحظات التجلي تنقطع مع النهار وأنواره . وتظل الرباعيات حية في أيام العثمانيين ، وكانت تستخدم أحياناً في المديح النبوية كقول الشهاب الخفاجي صاحب ربحانة الألباء (٢) :

مَا جَرَّ لَظْلُ أَحْمَدٍ أَذْيَالُ فِي الْأَرْضِ كَرَامَةً كَمَا قَدِ قَالُوا
هَذَا عَجَبٌ وَيَا لَهُ مِنْ عَجَبٍ وَالنَّاسُ بِظُلْمِهِ جَمِيعًا قَالُوا

وهو يشير في الرباعية إلى ما قبل من أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يقع ظله على الأرض لأنه نور روحاني ، والنور لا ظل له . وفي البيتين تورية واضحة في كلمة قالوا ، فالأولى في البيتين من القول والثانية من القبلولة بمعنى استظلوا ونعموا .

(ج) الموشحات

في أثناء ظهور الرباعيات والمسمطات أخذ يظهر شكل جديد من أشكال المنظومات الشعرية الدورية هو الموشحات ، ويذهب بعض الباحثين وخاصة من المشرقين الإسبان إلى أنها فن أندلسي خالص نشأ من أغان إسبانية أعجمية . ويذهب باحثون آخرون من المشرقين غير

(١) المغرب لابن سبيل (قسم القاهرة) ص ٣٧١ وبه : (٢) ربحانة الألباء (نشر مكتبة الحلبي - تحقيق عبد الفتاح نادافى) .

الإسبان إلى أنها فن تطور عن الشعر العربي المشرق^(١) وفي رأي أنها فعلا تطورت عن شعرنا المشرق وبالذات عن المسططات والمخمسات ، أليست تتكون من أدوار مثلها وغاية ما في الأمر أن الشطر الأخير في دور المسط يتعدد مع اتحاده في جميع الأدوار ، فقد يصبح شطرين متقابلين أو عدة شطور ، ويسمى قفلا . ويشهد لذلك نفوذ ديك الجين المتوفى سنة ٢٣٥ إلى صنع منظومة موشحة^(٢) ، وكأنما اطلع عليها بعده بعض شعراء الأندلس ، وأخذوا في محاكاتها واتسعوا في هذه المحاكاة ، بحيث أخذت الموشحة عندهم صوراً كثيرة ، حتى لقد ينظمونها من أوزان مهملة ، بل حتى أصبحت كأنها محتكرة لهم ، وكأنهم هم الذين صاغوها وأهلوها إلى الشعر العربي وشعراته في أقاليمه المختلفة . ومعروف أن الموشحة تتكون من أدوار أو أغصان كما أشرنا إلى ذلك ، ومن شطور تسمى قُفلاً ، ومن خُرْجة وتطلق على القفل الأخير . وتتحد شطور الأفعال دائماً في قوافيها المتقابلة في الموشح كله ، بينما تختلف قوافي الشطور في الأغصان من غصن إلى غصن مثلها في ذلك مثل أدوار المسططات .

وقد أخذ شعراء المشرق العربي في محاكاة نماذجها الأندلسية منذ القرن السادس الهجري على الأقل ، ومن أقدم صور هذه المحاكاة بمصر موشحة تقف بين النمط الأندلسي وبين المسط المشرق المشرق ، وهي لعل بن عياد الإسكندري المتوفى سنة ٥٢٦ ، فقد روى له العباد موشحة على هذا النمط^(٣) :

يا مَنْ أَلُوذُ بِظِلِّهِ فِي كُلِّ خَطْبٍ مَعْضِلٍ
لَاوِلْتُ مِنْ أَصْحَابِهِ مَتَمَسِّكاً يَدَ السَّلَامِ
أَمَّا مِنْ كُلِّ بَاسٍ فِي الْحَوَادِثِ وَالصَّرُوفِ

وتتردد قافية الشطرين الأخيرين مع كل شطرين يعقبان الأدوار التالية ، وبذلك اتخذ منها ابن عياد قفلا لموشحة على شاكلة الأندلسيين إذ يوحّدون قوافي الشطور في الأفعال ، بينما ينوعون في قوافي الأدوار كما ينوع أصحاب المسططات . وعادة يتدبى الوشاح الأندلسي بالقفل ويتلوه بالدور ، وقد يتدبى بالدور ويتلوه بالقفل كما في هذه الموشحة . ولظافر الحداد مواطن ابن عياد

الأول ص ١٩٩ وقسم الثامن من هذا الكتاب ص ٦١٤ .

(٣) الحريدة للعباد (قسم شعراء مصر - طبع لجنة

التأليف والترجمة والنشر) ٤٤/٢

(١) فن التوشيح للدكتور مصطفى حوضي الكريم (طبع

ونشر دار الثقافة - بيروت) ص ١٠٨ وما بعدها .

(٢) انظر في هذه الموشحة للبكرة كتابنا العصر العباسي

الموتى سنة ٥٢٩ موشحة طريقة يحتفظ بها ديوانه^(١).

وكان طبيعياً أن يتعرف المشاركة على الموشحات الأندلسية لكثرة الوافدين عليهم في الإسكندرية والقاهرة من الأندلس، إما للحج وإما لطلب العلم فكانوا يشدونهم موشحات مختلفة، ومن لا نشك في أنه كان يكثر من إنشادها للمصريين: إسكندريين وقاهريين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز، وفيه يقول ابن سعيد: «كان منشأ للمتور والمنظوم» وأقام بمصر عشرين سنة، وصنف في الأطلان وعنه أخذها أهل إفريقية^(٢)، ولابد أنها كانت مصحوبة بموشحات أنشدها لهم، وقد توفي سنة ٥٢٩ م. ونزل مصر البيع بن عيسى بن البيع بعده في عهد صلاح الدين وألف باسمه كتابه المغرب في أخبار محاسن المغرب^(٣)، ولابد أن يكون قد ضمنه بعض الموشحات. ونزلها أيضاً حكيم الزمان عبد المنعم الجلباني الأندلسي^(٤)، ومدح صلاح الدين الأيوبي مدائح كثيرة، وكان له عشرة دواوين ثمانية يشتمل على موشحاته. ومرونا ذكر معجم السلفي محدث الإسكندرية وقد سجل فيه لبعض من تلمذوا عليه من الأندلسيين بعض ما أنشده من الموشحات الأندلسية.

وهذه كلها إنما هي إشارات قاصرة إلى ما حدث في القرن السادس الهجري بمصر من انتشار الموشحات بها انتشاراً هياً لظهور وشاح كبير فيها هو ابن سناء الملك المولود سنة ٥٥٠ م ومحدثنا العباد الأصبهاني عن لقائه به سنة ٥٧١ م ويشيد بشاعريته وينشد موشحة مبكرة له^(٥). وكأنما اختارت المقادير ابن سناء الملك لا ليكون وشاحاً مصرياً ممتازاً، بل لما هو أبعد من ذلك: ليضع عروض الموشحات ونظامها كما وضع الخليل بن أحمد عروض الشعر العربي ونظامه، على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس: «دار الطراز» الذي ألفه في عهد السلطان الأفضل^(٦) بن صلاح الدين (٥٩٥-٥٩٦ هـ) وقد استهله بمبحث واسع في الموشحات وأفضالها وعدد شطورها وأنها ترد في الموشح ست مرات في التام وخمس مرات في الأفرع^(٧) وقد تصل الأقفال إلى أحد عشر جزءاً^(٨). ويقول عن الخرجة، وهي القفل الأخير في الموشحة، هي «أبراز الموشح وملحه وسكره

(١) ديوان طاهر الحداد ابن الإسكندرية (طبع مكتبة

مصر) ص ٣٣٧.

(٢) المغرب (القسم الأندلسي - طبع دار المعارف)

٢٦١/١ وما بعدها.

(٣) نفى المصدر ٨٨/٢.

(٤) فوات الوفيات ٣٥/٢ وطبقات الأطباء لابن

أبي أصبهمة ص ٦٣٠.

(٥) الخرجة (قسم شعراء مصر) ٦٧/١ وما بعدها.

(٦) راجع مجلة الثقافة العدد ٦٢٨ سنة ١٩٥١.

(٧) دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك

تحقيق الدكتور جودة الركابي (طبع دمشق) ص ٢٦.

(٨) انظر دار الطراز ص ٩٧.

ومسكه وعنبره» ويقول إنه ينبغي أن يسبق إليها خاطر الوشاح قبل أن يتقيد بوزن وقافية معينة^(١)، ويقول أيضًا إن اللحن يستحسن فيها كما يستحسن أن تكون ماجة. ويلاحظ أن الموشحات من حيث الوزن قسان: قسم يجرى على أوزان العرب وأشعارهم، وقسم لا وزن له^(٢)، إنما يزنه الإيقاع. والقسم الأول هو الأكثر وهو الذى دار على ألسنة العلماء والشعراء. واختار ابن سناء الملك في كتابه للأندلسيين أربعة وثلاثين موشحة، واختار لنفسه خمسًا وثلاثين، وله زواها موشحات كثيرة إذ أنشد له أحمد السخاوى في كتابه: «سجع الوزق المنتجة في جمع الموشحات المنتجة» أربعة وثلاثين موشحة سوى ما أنشده النواجى في كتابه: «عقود اللآل في الموشحات والأزجال».

ومعروف مدى ما وفره الوشاحون الأندلسيون لموشحاتهم من جمال الجرس والإيقاع متخذين لذلك وسيلتين مهمتين هما صفاء الألفاظ وعذوبتها ورشاقتها، وقصر الشطور، حتى تصبح نفا خالصة يلدّ الأسجاع والقلوب، وعرف ابن سناء الملك كيف يمتلك هاتين الوسيلتين، فإذا موشحاته لا تنقل روعة موسيقية عن موشحات الأندلسيين من مثل قوله في مطلع موشحة رواها ابن سعيد^(٣):

البَصْدُرُ يَحْكِيكَ	لولا تَشْنِيكَ
وأنت جُنَّةُ ^(٤) الصديق	لولا تَجْنِيكَ
	لم يلقُ نَعْمَى ونعيم
	حملتى كلَّ عظيم
	وإن لى ذنبًا قديم
بالضَّمِّ أجْنَبِكَ	لِلصَّدْرِ أَدْنَبِكَ
لأن لى قلبًا رقيقًا ^(٥)	عساه يُعْجَبِكَ
	مَنْ لَمْ يَلَاقِكَ
	يوم فراقِكَ
	على عِناقِكَ

والكلمات تطير بخفة عن الفم لحلاوة جرسها وعذوبتها في النطق والسمع وجمال وقعها في النفوس والأفئدة، وموشحاته في دار الطراز أنغام حلوة وصور بدیعة، على غط هذا الدور أو الفصن في إحدى موشحاته:

وَجْهْكَ يا أَحْسَنَ الْبَرِيَّةِ قد جمع الْجِلْحَ والمَلَاخَةَ

(١) جُنَّة: وقاية

(٥) فى الأصل رفقا

(١) دار الطراز ص ٣٢

(٢) دار الطراز ص ٣٣

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٩

نرجسةً فيه مستحيه ووردةً نحتها أفاعه
والحال في الوجنة المغيبه في الماء لا يُخس السباحه

وقد جمع في الدور أروع صورة للملاحه ، فالعين ملأى بالخمر والحياه ، والوجنة ورد ناضر ، نحتها أقحوان الثغر المتلألئ والحال في الوجنة غارق في ماء النضارة والحسن لا يرم . وبذلك أهدأ ابن سناء الملك المصريين بعده لكي يبرعوا براعة فائقة في نظم الموشحات ، ويتوفى سنة ٦٠٨ وكان يعاصره مظفر ^(١) الأحمى العيلاني المتوفى سنة ٦٢٣ صاحب الموشحة المشهورة :

كَلَّلَ بِسُحْبُ نِجَانِ الرَّئِى بِالْحُلَى
وَأَجْمَلَى سِوَارَهَا مُنْعَطَفَ الْجَدُولِ

والموشحة تفيض بكتوس الفرحة بالخمر والحديث عن ليلة الوصل والبهجة بالمحبيب، بهجة ما بعدها بهجة. وكان يعاصره ابن التبيه المتوفى سنة ٦١٩ وفي ديوانه موشحة بديعة يقول فيها ^(٢) :

قُلْ لِمَنْ يَلُومُ فِي مَهْفَهْمٍ أَسْرَ
نُغْرِهِ النُّظِيمُ مُنْكَرٌ وَسُكْرٌ

آوِ لَوْ سَقَانِي أَطْفَانُ نِيرَانِي دُرَّةٌ نَمِيَّةٌ فِي الْبَاقُوتِ مَكُونَةٌ

وواضح تعبيره عن رضاب الثغر بأنه يطفئ نيران قلبه وأن باقوت الشفتين يحمل درة بل درراً ثمينة وهى كناية بديعة. ونمضى إلى زمن المماليك فتلقتى بكثير من الوشاحين، وفى مقدمتهم العزازى وابن الوكيل. وظلت الموشحات مزدهرة فى أيام المماليك على لسان ابن نباتة وغيره ^(٣) وشاع استخدامها على لسان المتصوفة فى أذكاءهم، ولعلى بن محمد بن وفا شيخ الطريقة الوفاية فى زمنه المتوفى سنة ٨٠٧ ديوان موشحات صوفية لا يزال مخطوطاً. وأُنشد منه السخاوى فى سجع الورق المذكور آنفاً خمساً وخمسين موشحة ونخص كلاً من العزازى وابن الوكيل بكلمة.

العزازى ^(١)

هو شهاب الدين العزازى أحمد بن عبد الملك وكان تاجراً بقيصرية جهار كس فى القاهرة

والأرجال للتواجي بتحقيق عبد اللطيف الشهاى ولابن نباتة فيه تسع موشحات وللمجد الدين بن مكانس أربع موشحات.

(٢) انظر فى العزازى المثل الصافي ٣٤٠/١ وما بعدها

والنجم الزاهرة ٢١٤/٩ وفوات الوفيات لابن شاكرو الكبى

٨٨/١ والواق ١٥٢/٧ والدرر لابن حجر ٢٠٥/١ .

(١) انظر فى مظفر وموشحه للغرب (قسم القاهرة) ص

٣٧٠ ، ٣٤٨ دوايج فيه معجم الادباء ١٤٨/١٩ وفوات

الوفيات ١١١/٢ ونكت المصان ٢٩٠ والفهارات ١١٠/٥

(٢) ديوان ابن التبيه (طبعة عبد الله فكرى) ص ٥٤ .

(٣) انظر فهرس كتاب عقود اللآل فى الموشحات

قرب حى الغردية الحالى ويقول ابن تغرى بردى : كان أديباً مطبوعاً طريفاً له النظم الرائق الفائق ولا سيما نظمه للموشحات فإنه غاية فى ذلك . ويقول ابن حجر : له فى الموشحات يد طويلة توفى سنة ٧١٠ وله ثلاث وثمانون سنة . وفى دار الكتب المصرية نسختان من ديوانه غير تامين ، والديوان فى خمسة أقسام : فى مدائح الرسول وأهل بيته وفى مدائح الأمراء والوزراء والكتاب والقضاة ، وفى النكت والملح والألغاز والأحاجى ، وفى الغزل والتهانى والتعازى ، وفيها وقع بين أدباء عصره وشعراء زمانه ، وفى غرائب الأوزان من الخمسات والموشحات . وفى مكتبة جامعة القاهرة مصورة متخبة من ديوانه بخط الصفدى . ويذكر ابن تغرى بردى بعض موشحاته ، وبالمثل يذكر طائفة منها ابن شاعر فى فوات الوفيات والنواجى فى عقود اللآل فى الموشحات والأزجال ، ومن أطرفها موشحة موزعة بين النشوة بالخمر وبالحب ويحال الطبيعة استهلها بقوله :

يا ليلة الوصل وكأسى العقار دون استار علمتاني كيف خلعت العذار^(١)

اغتمم للذات قبل الذهاب

وجر أذبال الصبا والشباب

واشرب فقد طابت كثوس الشراب

واختتمها بقوله :

يا ليلة أنعم فيها وزار شمس النهار حيث من بين اللبالي القصار

وله فى مطلع موشحة بديعة :

ماسلت الأصبين الفوانير من غمد أجفانها الصفاح^(٢)

إلا أسالت دما المحاجر من غير حرب ولا كفاح^(٣)

ومن طريف موشحاته موشحة بناها من رباعيات ، كما يقول ابن شاعر ، وهى فى الحقيقة خميس رباعى ، وهو يدل كما تدل موشحاته على غزارة ينبوع الشعر عنده ، وأنه كان يتدفق على لسانه تدفقاً ، مع الحلاوة وحسن الألفاظ وجمال النظم والإيقاع .

(٣) المحاجر : ما استثار حول العيون وأراد بها العيون نفسها .

(١) خلعت العذار : كتابة عن الانهالك فى الجون
(٢) الصفاح : السيوف

ابن الوكيل^(١)

هو محمد بن عمر بن المرحل المعروف بابن الوكيل الدمياطي ، ولد بدمياط سنة ٦٦٥ وانتقل مع أبيه إلى دمشق ، ونشأ بها ، وتولى التدريس في غير مدرسة هناك ، ثم انتقل إلى القاهرة ، وأُسند إليه التدريس بها في زاوية الشافعي والشهد الحسيني والمدرسة الناصرية إلى أن توفى سنة ٧١٦ . ويقول السبكي : كان إماما كبيرا بارعا في مشهد الشافعي يضرب به المثل في البحث نظاراً مفرط الذكاء عجيب الحافظة . ويجانب ما كان يحفظ من كتب الفقه والحديث النبوي كان يحفظ مقامات الحريري وديوان المتنبي ، ويشيد مترجموه بما كان له من شعر ورباعيات وموشحات . وكانت له مشاركة في الشعر الشعبي : الزجل والبلايق التي تلور في الهزل . ومن قوله في إحدى موشحاته :

ما أَعْجَلَ قَدَّه غَصُونُ الْبَانِ بَيْنَ الْوَرَقِ
إِلَّا وَسَبَّ الْمَهَا مَعَ الْبِزْلَانِ حُسْنُ الْحَقِ
الصَّحَّةُ وَالسَّقَامُ فِي مَقْلَتِهِ
وَالْجَلَّةُ وَالْجَحِيمُ فِي وَجْهِهِ
مَا أَبْدَعَ مَعْنَى لَاحَ فِي صُورَتِهِ
كَالْوَرْدِ حَوَاهِ نَاعِمِ الرِّيحَانِ بِالطَّلُ سُمِّيَ
وَالْقَدْ يَمِيلُ مِيلَةً الْأَخْصَانِ لِلْمَحْمَتَيْنِ
أَحْيَا وَأَمُوتَ فِي هَوَاهُ كَمَدَا
مَنْ مَاتَ جَوَى فِي حَبِّهِ قَدْ سَعِدَا
بِأَعَاذِلُ لَا أَتْرُكُ وَبَجْدَى أَبَدَا

وقد استخدم ابن الوكيل في هذه الموشحة وزن الرباعيات ، لبدل على قدرته في ضبط النظم واللحن ، وأنه لا يقل عن المحارر الحلبي معاصره الذي حاكاه فيها وفي وزنها إبداعاً واختياراً .

المحاضرة ٤١٩/١ والبداءة والنهاية ٨٠/١٤ وطبقات الشافعية
للسبكي ٢٥٣/٩ والبرر الطالع ٢٣٣/٢ وعقود اللآل في
الموشحات والأزجال للتواحي (انظر الفهرس) .

(١) راجع ترجمة ابن الوكيل في الفوات ٥٠٠/٢ والوفاء
بالوفيات ٢٦٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٩ وشمس
الذهب ٤٠/٦ والدرر الكاشفة لابن حجر ٢٣٤/٤ وحسن

وله موشحة جعل الشطور الثانية من نونية ابن زيدون المشهورة مضمنة في مطلعها وأقفاها كقوله في المطلع :

غدا مُتَادِينَا مَحْكَمَا فِينَا يَفْضِي عَلَيْنَا الْأَمْسَى لَوْلَا تَأْسِينَا
ويسرى التكلف إلى الموشحات بعد ابن الوكيل والعزازی ، غير أنها تظل حية وناشطة حتى أيام العثمانيين على نحو ما يلاحظ في كتب التراجم عند الشهاب الخفاجي وغيره ، وتلقانا عند المحبي موشحة بديعة لزين العابدين البكري المتوفى سنة ١١٠٧ للهجرة عارض بها موشحة لابن سناء الملك ، ومن قوله فيها ^(١) :

اعجبوا من حُسْنِ تلوَيْنِ العيونِ تَلَكُمُ حَانَةَ
بِأَنِي مَرَّ الْجَفَا بِالذَّرِّ حَالِي
قَدَرُهُ قَدْ حَطَّ مِنْ قَدْرِ الْعَوَالِي
مَطْلَبِي مِنْ نَفَرِهِ كَثُرَ اللَّالِي

والموشح يسيل غدوبة ، وأنشد الجبرقي لقاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ موشحاً ^(٢) عارض به موشحاً مشهوراً للسان الدين بن الخطيب .

البديعيات

إذا تركنا الموشحات إلى البديعيات وجدناها قديمة في الشعر المصري ، على الأقل منذ زار مصر أبو نواس وأبو تمام ، واستمع شعراؤها إلى ما في أشعارهما من طرائف البديع ومحسناته ، ولم يكن الشعراء المصريون يكتفون من استخدام تلك المحسنات والطرائف ، إذ كانوا يستخدمونها من حين إلى حين دون إفراط ، وظل ذلك دأبهم في الحقب الأولى من زمن الدولة الفاطمية على نحو ما يلاحظ في شعر ابن وكيع التنيسي المتوفى سنة ٣٩٢ . وإذا مضينا إلى القرن الخامس لبقينا أهم شعرائه الشريف العقيلي شاعر الخمر والطبيعة ، وشعره زاخر بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق والمشاكلة ، ويتصنع في قلة لاستظهار بعض المصطلحات العلمية ، ولكن

(١) نسخة الرقعة ٥١٩/٤ والكتانة : جية السهام أشار بها إلى سهام العيون . والعوال : الرماح وتنسب بها لعود

النساء في الاسماء والاحوال .
(٢) تاريخ الجبل ١/١٩٨

ذلك كله لا يتقل عنه ولا نحس فيه بتكلف ، ونجد عنده التورية التي اشتهر بها المصريون في مثل قوله ^(١) :

وشاعِرٍ شِعْرِهِ فَنُونُ لِكُلِّ يَتَرٍ لَهُ طَنِينُ
تُشْنِ عَيْنَ الْعَدُوِّ مِنْهُ قَصَائِدُ كُلِّهَا عَيُونُ

فقد ورى في كلمة عيون المقابلة لعين العدو وهو إنما يقصد بها آيات الشاعر النفيسة .
والتورية أمثلة أخرى في شعره ذكرناها في كتابنا ه الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ، ونجدها
كثيرة عند الشعراء بعده ، مما يدل على أن ظهورها بمصر لم يتأخر حتى زمن القاضي الفاضل وأيام
الدولة الأيوبية كما ظن ذلك صاحب الخزانة ^(٢) . ومن يرجع إلى القسم المصري من كتاب الخريدة
للعماد الأصبهاني وما ترجم فيه من شعراء مصر في القرن السادس الهجري يلاحظ شيوع محسنات
البديع على ألسنة شعراء القاهرة والإسكندرية ، كقول ابن قلاؤس في وصف من ^(٣) :

لَا أَشْرَبُ الرِّاحَ إِلَّا مَسَائِينَ شَادٍ وَشَادُنُ
قَسَمٌ بَانْدِيمِي فَأَنْصَتُ وَاللَّيْلَ دَاجٍ لِدَاجِنُ
طَاوَعٌ عَلَى الْقَصْفِ وَالْعَزَّ فِي كُلِّ حَاسِرٍ مُحَاكِنُ

والقطعة جميعها على هذا النمط من الجناس بين القافية والكلمة السابقة لها ، فشادٍ أى من
تسبق كلمة شادن أى غزال ، وكلمة داج أى مظلم تسبق كلمة داجن أى من ، وكلمة حاسرٍ أى
للشراب تسبق كلمة محاسن . وهو بذلك يصعب المرور إلى جناسه . وكانوا يكثرون في أشعارهم من
العباق ولهم فيه صور كثيرة طريفة كقول ابن هانئ الصغير في وصف سيف ^(٤) :

وَمَهْدِي سَحِ الْفِرْنَدُ بِصَفْحِهِ وَطَفَا كَيْحَسَبُ مُعْتَدًا مَلُولًا

والفرند ما يرى في صفحة السيف مما يشبه ديب الحمل أو الغبار . ومن حين إلى حين نرى
عندهم الاقتباس من الذكر الحكيم وتضمن بعض الشطور للجاهليين والإسلاميين والعباسيين كما

١٦١/١

(١) للفرد (لم القسط) ص ٢١٤

(٢) الخريدة ٢٧٨/١

(٣) الخريدة للصدي (طبعة بولاق) ص ٣٣٧ وما بعدها

(٤) الخريدة للعماد الأصبهاني (لم شعره مصر)

نرى التورية معانقة لجناس تام في قول ابن قادوس^(١) :

لام الحواذل مغرماً في حب مُلهِبَةٍ وَقِيَّةٍ
ولو أَنَّهُ رَأَيْنَا نِيرَ الغرام به وَقِيَّةٍ

والتورية والجناس واضحان في كلمة « وقينه » المكررة في نهاية البيتين ، والواو في الأولى عاطفة وفي الثانية من أصل الفعل : « وقى » وهى موضع التورية . وبجانب ذلك نجد عند الشعراء لعهد الفاطميين عناية بمراعاة النظر في الصور والكلمات ، واستخدموا في قلة شديدة مصطلحات العلوم وتسمى باسم التوجيه ، وحتى الألفاظ نجد بها مبثوثة في أشعارهم . ويذكر العمد شاعرا من بينهم تسمى ابن مجهر كان يعنى بصنع الألفاظ فيما يبدو عناية شديدة^(٢) .

ويحمل لواء هذه البديعيات في زمن الدولة الأيوبية القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الذى نشأ وترشى في الدواوين الفاطمية على أمثال ابن قادوس وغيره من الشعراء والكتاب الفاطميين . ويحمله ابن حجة الحموى والصفدى إمام الشعراء في زمنه وبعد زمنه^(٣) في استخدام المحسنات البديعية من تورية وغير تورية ، ويقولان إنه سار في دربه على منواله ونهجه ابن سناء الملك ومن خلفوه من شعراء الدولتين الأيوبية والمملوكية أمثال الجزار المتوفى سنة ٦٧٢ وناصر الدين ابن النقيب المتوفى سنة ٦٨٧ وعجى الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ والوراق المتوفى سنة ٦٩٥ وابن دانيال المتوفى سنة ٧١٠ ونصير الدين الحامى المتوفى سنة ٧١٢ . ونستطيع أن نضم إلى من سبقناهم من شعراء القرن السابع من جاءوا بعدهم طوال هذا العصر من أمثال ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ والقيراطى المتوفى سنة ٧٨١ وابن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ . وحتى شعراء الصوفية من أمثال ابن الفارض نجدهم يستخدمون هذه المحسنات بكثرة . وجعلها النقاد القطب الذى تدور عليه كتاباتهم في فن الشعر ، يتقدمهم في ذلك ابن أبى الإصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ على نحو ما هو معروف عنه في كتابه « تحرير التجبير » .

وتصبح البديعيات المقياس أو المقاييس الدقيقة لإبداع الشعراء . وتتضمنها قصائد في مديح الرسول ﷺ تسمى البديعيات وتشرح شروحا مطولة ، ومن أهم هذه القصائد قصيدة للسيوطى أو بديعية سماها « نظم البديع في مدح خير شفيح » وله عليها شرح ، وكانت تعاصره عائشة

(٣) انظر خزنة الأدب للمصوى (طبع مطبعة بولاق)
ص ٢٩٨ و٢٩٩

(١) المخرمة ٢٣١/١

(٢) المخرمة ٢٣٠/٢

الباغونية المتوفاة سنة ٩٢٢ وقد جعلت بديعيتها في مائة وثلاثين بيتا . ويلاحظ أن استخدام الشعراء المصريين طوال هذا العصر للمحسسات لم يسمح ولم يتحول إلى صور من التكلف المقيت حتى أيام العثمانيين ، وكأنما حالت العذوبة التي تنطوى عليها نفوسهم وأمزجتهم والتي تجري بها مياه النيل في أرضهم ، بين كل ذلك وبين ما استخدموه من محسسات البديع وتلاوينه . وقد يما لاحظ ذلك ابن سعيد صاحب كتاب المغرب حين نزل الفسطاط والقاهرة واختلط بشعرائها ، إذ لم يلبث أن أنشد^(١) :

أيا ساكني مصر عَدَا الثُّبُلُ جَارَكُمْ فَأَكْسِبُكُمْ تِلْكَ الحَلَاوَةَ فِي الشَّعْرِ
وكان بتلك الأرض سحرًا وما بقي سوى أثر يبدو على النظم والأثر

وسنذكر نفثات من آثار هذا السحر وما طوى فيه من حلاوة وعذوبة في تراجم الشعراء لتلك الأزمنة

٤

شعراء المديح

يكثف الشعر العربي في مصر بالمديح منذ زمن الولاة للبكر أيام الدولة الأموية ، وخاصة في ولاية عبد العزيز بن مروان إذ كان جوادا ممدحا ، فانتجعه شعراء الحجاز ونجد والعراق ، وبظل شعر المديح يجري على ألسنة الشعراء أيام الدولة العباسية ، ويزور أبو نواس مصر لملاح والى الخراج بها : الخصب ، ويضئ عليه مدائح رائعة ، ولا يلبث أن يزورها أبو تمام ، ويمدح عباس بن لهيعة الحضرمي القائم على الشرطة والخراج كما مر بنا ، كما يمدح واليا عبد الله بن طاهر . ومن أهم شعراء مصر حينئذ المعلّى الطائي ، وأنشدنا في غير هذا الموضع بعض مديحه في عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون . ويُظَلِّها عهد الدولة الطولونية ويتبارى شعراؤها في مديح أحمد بن طولون . وأهمهم في بواكير حكمه لمصر الحسن^(٢) بن عبد السلام المشهور بلقبه الجمل الأكبر المتوفى سنة ٢٥٨ ، وله من قصيدة في مديحه :

والنجم الزاهرة ٣٠/٢ وله في كتاب الولاة والقضاة للكتدي
أشعار مفرقة .

(١) نوات الرويات ٢٣٦/١
(٢) تنظر في ترجمة الجمل الأكبر معجم الأديباء لياقوت
١٢١/١٠ والمغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٧٠

له يَدُكم خَلَلْتُ من يَدِ سَحَابَةٍ عَمَّتْ بِأَنْوَانِهَا
انظُرْ إِلَى مِصْرَ بِلْطَانِهِ تَرَى الْهُدَى فَاضِرَ بَارِجَاتِهَا

ومن شعراء الطولونيين المرمي^(١) القاسم بن يحيى المنسوب إلى جده أبي مريم السلولى أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو شاعر أبي الجيوش خوارويه اختص به وأصبح عليه كثيرًا من نواله ، وفيه يقول :

يقولون لى ما بال رَحْلِكَ دائما بمِصْرٍ وَأَنَا لَسْتُ عَنْ غَيْرِهَا أَرْضَى
وكيف رحيلى عن بلادٍ غدا بها أَبُو الْجِيْشِ وَالثِيْلُ الَّذِى مَلَأَ الْأَوْصَا

وتوفى المرمي سنة ٣١٦ .

وكان الشعراء قد أخذوا يتكاثرون بالفسطاط منذ الدولة الطولونية كما مر بنا . وأطرد تكاثرهم في عهد الدولة الإخشيدية ، وفي أيامها بدأ عصر الدول والإمارات الذى تؤرخ له في هذا الجزء وكان الإخشيد قد ملك مصر والشام ونغور الروم وخطب له بالحجاز واليمن . ولذلك يقول شاعره سعيد^(٢) بن فاختر من قصيدة يمدحه بها :

بِامْلَكِ الشَّامِ وَمِصْرَ إِلَى أَقْصَى نَغُورِ الرُّومِ وَالشَّامِ
وَالْيَمَنِ الْأَجْمَدِ لَاوَالِ [مَنْدُ كُكُكُمْ] رَفِيعًا قَادِرًا حَامِي

ويتوفى الإخشيد سنة ٣٣٤ بعد أن أوصى لمولاه أبي المسك كافور الجيشى بتدبير الدولة لابنيه : أو نوحور وعلى ، ويتوفى أولها سنة ٣٤٩ ويخلفه أخوه على ويتوفى سنة ٣٥٤ وقبل سنة ٣٥٥ . ويستقل كافور بالملك حتى وفاته سنة ٣٥٧ وكان ساعده الأيمن في حكمه وزيره جعفر بن الفرات المعروف باسم ابن حنّزلة . وكان كافور مملّحا ، فقصده الشعراء من كل فجّ وفي مقدماتهم كشاحم شاعر الشام ، والتبى إمام الشعراء لزمته وبعد زمنه وكان أول ما أنشده ياتيه ، وفيها يقول :

(٢) انظر سعيد (قاضي البقر) في اللرب (قسم الفسطاط) ص ١٩٧ و٢٧٢ ولعله هو نفسه سعيد القاسم المذكور في التبرج المزاهرة ١٤١/٢ بين من رثوا للدولة الطولونية

(١) راجع في المرمي للرب (قسم الفسطاط) ص ١٣٦، ٢٧١ وانظر أضرًا مفرقة له في الولاية والقضاء لكندى في أخبار خوارويه وفي مقالاته من مجلة الحلة : العدد ١٨٢ ومجلة الكتب العراقية سنة ١٩٧٤ في حدى آب وتشرين الثاني

قواصدُ كافورٍ نواركُ غيره وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَ السَّوَابِغَا
وغيرَ كثيرٍ أَنْ يَزِدَّكَ رَاجِلٌ فَمِجَّ مَلَكًا لِلْعِرَاقِينَ وَالْيَا

وظل المتنبي نحو أربع سنوات يتظر أن يوليه كافور على بعض بلدان الشام التابعة لمصر . حتى إذا نفذ صبره ارتحل إلى العراق بليلٍ وهجاء هجاء مرا .

وتستقبل مصر سريعاً عهد الدولة الفاطمية ، إذ يتزها جوهر الصقل ويؤسس بها القاهرة ومسجدها العظيم الأزهر ويتبعه المعز الخليفة الفاطمي ، وتصبح القاهرة حاضرة لولته الضخمة ودولة أبنائه وأحفاده من بعده ولا يلبث المعز أن يتوفى سنة ٣٦٥ ويخلفه ابنه العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) ويتخذ يعقوب بن كلس وزيراً له ، وكانا يميزان العطاء للشراء ، مما جعل ألسنتهم تلهج بمدحها ، على شاكلة قول عبيد الله بن أبي الجرج في إحدى مدائحه ^(١) :

لولا العزيزُ وآراءُ الوزيرِ معا نَحْنُفُتُنَا خُطوبُ نُسُفُ الأُمَا

ولم يمِضْ في المعز في أبيه وأخيه العزيز مدائح طنانة ، ونزل القاهرة في عهد المعز أبو الرُّقْمَقِ الْأَفْطَاكِي : أحمد بن محمد ، وأقام بها زماناً طويلاً حتى توفى سنة ٣٩٩ ويقول ابن خلكان : « معظم شعره في ملوك مصر ورؤسائها : مدح بها المعز وولده العزيز والحاكم بن العزيز والقائد جوهر والوزير يعقوب بن كلس وغيرهم من أعيانها » ^(٢) وينشد له قصيدة في مديح ابن كلس . وكان محمد بن القاسم بن عاصم الملقب بصنّاجة الدوح شاعر الحاكم ، وأنشده في زلزلة حدثت بمصر من قصيدة في مديحه ^(٣) :

بالحاكم العدلِ أضحى الدينُ معتبلاً نَجَلُ الثُّلَا وسليلُ السادةِ الصَّلَحا
مازُلُّنَا مِصرُ من كَيْدٍ يُرادُ بها لَكِنَّا رَقِصْنَا من عَذْلِهِ قَرَحَا

ويلي الحاكم ابنه الظاهر ، ويتزل مصر في أول عهده صريع ^(٤) الدلاء البغدادي ، ويمدحه

١٥٥/٣ .

(٣) للمغرب (قسم القاهرة) ص ٣٢٨ وانظر في صنّاجة الدوح حسن المحاضرة ٥٦٢/١

(٤) انظر صريح الدلاء في تمة اليثيمة ١٤/١ وفي ابن خلكان ٣٨٢/٣ والبر ١١٠/٣ والفتوحات ١٩٧/٣

(١) راجع خطط القريزي ٢٩٦/٢ وانظر في ابن أبي الجرج اليثيمة ٣٩٥/١ ومر بها حديثه . تشب : تحرق ويقتل .

(٢) ابن خلكان ١٣١/١ وما بعدها وانظر في أبي الرقْمَقِ اليثيمة ٣٢٦/١ والبر ٧٠/٣ والفتوحات

ويخلفه المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧). ويعتلى الوزارة بدر الجمالي سنة ٤٦٨ ويصبح الأمر والسلطان منذ هذا التاريخ بيد الوزراء. ويخلفه على الوزارة ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥ هـ). وكان شاعرا كما كان ملحا، فبعث نهضة قوية في الشعر، وصفها - كما مر بنا - أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية، معددا فيها أسماء الشعراء في زمنه ممن مدحوه وهجوه جميعا. ومن كبار مدّاحه ظاهر الحداد وسترجم له بين شعراء التشيع، وحسن بن زيد الأنصاري وسترجم له بين الكتاب، وله فيه مدائح رائعة من مثل قوله^(١).

أَيُّمُكَ الثُّرُ مصقُولٌ عوارضُها كَانَ آصالها مِنْ رِقَّةٍ بُكَّرُ
أَحْمَلْتُ ذَكَرَ ملوكُ كُنْتُ خاتمهم وَأَنْجَمُ اللَّيْلِ فِي الإِصْباحِ تُسَيِّرُ
بَعْضُ الْوَرَى أَنْتَ لَكِنْ فُتِنْتُمْ شَرْقًا إِنْ الْحِجَارَةُ مِنْهَا الدَّرُّ وَالْمَدَرُّ
نَحَالَ رَاحَتَهُ وَالْمَشْرِفِيُّ بِهَا سَحَابَةٌ ظَلٌّ فِيهَا التَّيَرُ يُسْتَمَرُّ

ولفظه جزل متين وصوره بديعة، مما يدل على شاعرية خصبة. ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية الوزير طلائع بن زُرَّيْكَ، وكان مثل الأفضل الجمالي راعيا لكثير من الشعراء مثل ابن قادوس والقاضي الجليس والمهذب بن الزبير وأخيه الرشيد. وترتحر الخريدة وكتب الأدب بمدائحهم لطلائع..

وكانت هناك مواسم كثيرة في زمن الدولة الفاطمية يقدم فيها الشعراء مدائحهم للخلفاء. في مقدمتها الأعياد وموالت الرسول صلى الله عليه وسلم والإمام علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء وابنيها الحسن والحسين والخليفة الذي بيده صولجان الحكم وعيد القدير ويوم عاشوراء وليالي رمضان وأول رجب وأول شعبان وأول السنة وأعياد النصارى وليلة الغطاس وليلة الثيروز ووفاء النبل وما يقترن به من فتح الخليج. وفي كل هذه الأعياد وما يماثلها كانت تقام احتفالات ضخمة، وكان الشعراء يهتتون بها الخلفاء، وكل يحاول أن يكون له قصب السبق على أقرانه. ويصور لنا ذلك المقرئ من بعض الوجوه في إحتفال بوفاء النبل سنة ٥١٧ لمهد الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ). إذ يذكر بعض الأشعار التي أنشئت وما كان يصحبها من نقد يديه بعض المستمعين، من ذلك^(٢) أن ابن جبر أنشد في هذا الاحتفال مدحة استهلها بقوله:

(١) الخريدة للصاد الأسبلي (قسم شعراء مصر) (٢) غلط للمقرئ ٢٥٣/٢ .
٧١/٢ .

فَجَحَّ الخَلِيجُ فَسَالَ مِنْهُ الْمَاءُ وَحَلَتْ عَلَيْهِ الرَّابِئَةُ الْبَيْضَاءُ
فَصَفَّتْ مَوَارِدُهُ لَنَا فَكَانَ كَفُّ الْإِغَامِ فَعَرَفُهَا الْإِصْطَاءُ

فانتقد عليه الناس قوله : « فسال منه الماء » قالوا أى شيء يخرج من النهر غير الماء . وبذلك ضيِّعوا عليه ما قاله بعد هذا المطلع . وأنشد شاعر مدحة افتتحها بقوله :

لَمَنْ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ فِي ذَا الْمَشْهَدِ لِلثَّلِيلِ أُمِّ لَكَ يَا بَنِي مُحَمَّدٍ

فهلل الناس لمطلعه ، فأمر له الخليفة الأمر على الفور بخمسين ديناراً وتخلع عليه وزيد في جاريه . ومثربنا حديث النظرة التي بناها الأمر للشراء ببركة الحبش ورفوفها وما كان عليها من صُررٍ للشراء وفي كل صُرَّة خمسون ديناراً جزاء وفاقاً لمديحهم ، وكان ذلك كان مكافأة معلومة لهم . ويخلفه المحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ويبدو أن الشراء كانوا يتأدون أيامه في تطويل مدائحهم ، فأمرهم أن يختصروها مما جعل أبا العباس أحمد بن مفرج ينشده في إحدى مدائحه ^(١) :

أَمَرْتَا أَنْ نَصَوِّغَ الْمَدْحَ مَحْتَصِرًا لِمَنْ لَا أَمَرَ نَذَى كَتَبْتُكَ يُخْتَصَرُ
وَأَقَّةً لَا بُدَّ أَنْ نُجَرِّي سَوَاقِنَا حَتَّى يَبَيِّنَ لَهَا فِي مَدْحِكَ الْأَكْرَ

فأمر الأمر بالعود إلى ما كانوا عليه .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس منذ أواخر القرن الخامس ، وأسوا به مملكة وأضافوا إليها مملكة في طرابلس وثالثة في أنطاكية ورابعة في الرها ، وبلغت مصر حيث من الضعف مبلغاً بعيداً لم تستطع خلاله أن تقاومهم إلا بعض تجريدات عسكرية وخاصة في عهد وزيرها طلائع بن رزيك ، تجريدات لم تُغن عنها شيئاً . وبينما اليأس يجيم على الناس إذا عباد الدين زنكي يخلص الرها من أيديهم ، ويقضى على مملكتهم فيها قضاء مبرماً ، ويتابع جهاده ابنه نور الدين ، ويستغيث به شاور في مصر ضد ضرغام فيرسل إليه أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتطور الظروف سريعاً ، فنهى صلاح الدين حكم الفاطميين لمصر ، ويقبض على صولجان الحكم . ويتوفى نور الدين ، فيضم الشام تحت لوائه ، ويأخذ في الانقضاض على الصليبيين ، وكلما اتق بهم دثر جموعهم تدميراً ، حتى كانت الموقعة الفاصلة : موقعة حطين التي

استولى فيها للسلمون على الصليب الأعظم : صليب الصُّلبوت ، وأسروا قواد الصليبيين وزعماءهم ومزقوا جموعهم شرمزق . ويقول اللوزخون إنهم أكتفوا منهم في القتل والأمراض كان من يشاهد القتل يظن أنه ليس وراءهم أسرى وكان من يشاهد الأسرى يظن أنه ليس وراءهم قتل ، ويقولون إنه بلغ من كثرة الأسرى أن كان الأمير منهم يباع في أسواق الرقيق بثلاثة دنانير ، وفي هذا النصر العظيم أنشد العباد الأصمباني صلاح الدين مدحة رائعة يقول فيها ^(١) :

حططت على جِطِينِ قَدَرَ ملوكهم ولم يُثِقْ من أجناسِ كفرهم جِئًا
بطونُ ذئاب الأوضِ صارتِ قبورهم ولم تَرْضَ أرضٌ أن تكون لهم رَمًا ^(٢)
سبأيا بلادُ الله مملوءةٌ بها وقد شَرِيتَ بِحُكَا وقد عُرِضَتْ نَحَا ^(٣)
يُطَافُ بها الأمواقُ لا راعِبٌ لها لكثرتها كم كثرةُ توجب الوُكَا ^(٤)

وفُتحت لصلاح الدين بعد هذه المعركة أبواب مدن كثيرة في فلسطين ولبنان مثل نابلس وبيت جبريل (بير سبع) وقيسارية وحيفا وصَيْدَاء وبيروت . وتفتح الشراء في مصر والشام والعراق بهذا النصر المبين . وسرعان ما تلاه صلاح الدين بفتح بيت المقدس ، وعمُّ الفرح بهذا الفتح جميع البقاع الإسلامية ، وتغنى به الشعراء طويلا من مثل قول محمد بن أسعد نقيب الأشراف بمصر ^(٥) :

أَكْرَى مِنَامًا مَا بَعَثَنِي أَبْعُرُ الْقُدْسُ يُفْتَحُ وَالْفَرَنْجَةُ تُكْسَرُ
قد جاء نصرُ الله والفتحُ الذي وعدَ الرسولَ فَبُحُوا واستغفروا
فُتِحَ الشَّامُ وطُهرَ الْقُدْسُ الذي هو في القيامة للأنام المحشرُ

وكان هذا تحولا واسعا في قصيدة المديح المصرية ، فإنها لم تعد - كما كانت أيام الفاطميين - قصيدة تُنشد في الأعياد والاحتفالات الرسمية : قصيدة مناسبات ، بل أصبحت قصيدة أمجاد حرية مظفرة . وتنبه لذلك أبو شامة في الروضتين فأنتج المواقع الحربية بما نُظم فيها من مدائح تصور البطولة العربية تصويرًا يملأ نفس كل عربي بالفتوة والقوة والمَصَّاء ويدفعه دفعا إلى أن يَكِيل لأهداء العروبة والإسلام ضريات قاصمة .

(١) الوكس : البيع بالحصارة .

(١) الروضتين لأبي شامة ٨٣/٢ .

(٥) الروضتين ١٠٥/٢ .

(٢) رسا : قبرا .

(٣) نحَا : من النخاسة وهي بيع الرقيق .

ولا يكثر المديح الحماسي لصلاح الدين فحسب ، بل يكثر أيضا لقواده من إخوته ، وخاصة أخاه العادل ، وفيه يقول القاضي الفاضل من قصيدة بدئية^(١) :

أَهْدَى كَفِّهِ أَمْ خَبِثُ غَوْتِ وَلَا بَلَغَ السَّحَابُ وَلَا كِرَامَةُ
وَهَذَا بِشْرُهُ أَمْ لَنَعُ بَرَقِ وَمَنْ لِلْبَرْقِ فِينَا بِالْإِقَامَةِ
وَهَذَا الْجَيْشُ أَمْ صَرَفُ اللَّيَالِ وَلَا سَبَقَتْ حَوَادِثُهَا زَحَامَةُ
وَهَذَا الدَّهْرُ أَمْ حَبْدٌ لَدِيهِ بِصَرْفٍ عَنْ عِزَّتِهِ رِزَامُهُ
وَهَذَا الثَّرْبُ أَمْ خَدٌّ لَكُنَّا فَاتْلُرُ الشِّفَاءَ عَلَيْهِ شَامُهُ

ويعرف هذا الأسلوب في البديع باسم تجاهل العارف مبالغة في المديح ، فالقاضي الفاضل لا يدرى أكرم ما يصيبه هو وأمثاله من العادل أم غيث سحاب منهر ، بل إن السحاب دون كرمه الفياض . ولا يدرى أبشر وجهه الذي يتلألأ أم البرق ؟ غير أن البرق يعرض ويزلز أما هو فقيم لا يريم . وأيضا لا يدرى ما يقوده إلى النصر جيش أم هو صرف الليالي ، بل إن الدهر عبد لديه يصدع بأمره ومشيئته ، ويعجب لما يسير عليه وكأنه يسير على خلود يرى عليها آثار الشفاء التي تقبل الأرض من دونه ، لكثرة الحشود المزدحمة على تقييلها ، وكأنها نفس الشامة التي نراها على الخلود .

ويظل جهاد الصليبيين الموضوع الأهم في مدائح السلاطين الأيوبيين حتى إذا كانت سنة ٦١٥ غزا حَمَلَةُ الصليب دِمَاطَ لعهد السلطان الكامل ، وظلوا بها نحو ثلاث سنوات ، وحذّثتهم أنفسهم أن يتقدموا إلى الجنوب نحو المنصورة واستنفر السلطان الكامل أخويه المعظم عيسى صاحب دمشق والشام والأشرف موسى صاحب الولايات الشرقية حتى الفرات . وتجمعت جيوشهم وأُنزلت بحملة الصليب هزائم ساحقة ولّوا على إثرها قارين إلى البحر المتوسط وما وراءه . وتغنى البهاء زهير بهذا النصر المجيد في مدحة أنشدها السلطان الكامل وفيها يقول^(٢) :

يَكْ اهْزُ عِطْفُ الدِّينِ فِي حَلِّ الثَّغْرِ وَرُدَّتْ عَلَى أَهْقَابِهَا بِلَّةُ الْكُفْرِ
وَمَا فَرِحْتَ مَعْبَرٌ بِذَلِكَ وَحْدَهَا لَقَدْ فَرِحْتَ بِضَادٍّ أَكْثَرَ مِنْ يَضُرِّ
فَن مَبْلَغُ هَذَا الْمَنَاءِ لِمَكَّةَ وَيُثْرِبَ بُنْيَهُ إِلَى صَاحِبِ الْقَبْرِ

(٢) البهاء زهير للشّخ مصطلح عبد الرزاق (طبعة سنة

١٣٥٤ هـ) ص ٦٥

(١) خزائن الأدب للحصري (طبع مطبعة بولاق) ص

والبهاء زهير يصور تهلل الدين الحنيف باندحار الصليبيين وأن الفرحة بالنصر الباهر لم تتم مصر وحدها بل عمت أيضا بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وأنه لحري أن نثأبه منازل الوحي في مكة والمدينة وأن يثأ به الرسول في جدته الطاهر. وكأنما كان هذا النصر درسا ظل حملة الصليب يذكرونه نحو ثلاثين عاما، حتى كانت سنة ٦٤٧ إذ تجمّعوا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، ونزلوا ديباط واتجهوا نحو المنصورة، غير أن المصريين بقيادة توران شاه آخر السلاطين الأيوبيين عصفوا بهم سنة ٦٤٨ وسحقوهم سحقا ذريعا، وأخذ لويس التاسع أسيرا وسُجن بدار ابن لقان كاتب الإنشاء وكان يحرسه الطواشي صبيح. وأذعن لشروط الصلح التي فرضها توران شاه وخرج من مصر مع فلول حملته خاسئا مدحورا. وتتطور الظروف سريعا، فيُقتل توران شاه وتحلّفه شجرة الدر فالسلطان أيك. ولعل التابع السريع لهذه الأحداث هو الذي عقد ألسنة الشعراء فلم يتغنوا ببطولة توران شاه وجيشه الباسل وما أذاق حَمَلَة الصليب من نكال شديد.

وتظل مصر وشعراءها دولة المالك، وما ثوفا سنة ٦٥٧ حتى تكسح سيول التار الشام وتبسط إلى الجنوب في فلسطين ويلتقي بها جيش المالك فيكبح جماحها في عين جالوت، ويردها قُطر والظاهر بيبرس إلى غير مأب. ويصبح بيبرس سريعا سلطان مصر سنة ٦٥٨ وكان على المهمة بعيد النظر، فأعاد الخلافة العباسية في القاهرة، وبذلك أصبحت مصر حامية الخلافة والإسلام. وعصره يُعد العصر الذهبي في زمن المالك، وقد صورناه من بعض الوجوه وصورنا فتوحاته وحروبه المستمرة مع الصليبيين والتار، وكيف قُوض للأولين مملكتهم في أنطاكية، وما كان من تعقبه الدائم للتار في الموصل. وسمع يوما يجمع لهم على الشاطئ الشرقي للفرات، فخاضه إليهم وخاضه الجيش معه فقتل منهم مقتلة عظيمة ولم ينج منهم إلا القليل، وفي ذلك يقول ناصر الدين حسن بن النقيب الكناني - وكان حاضر الواقعة - من قصيدة طويلة^(١) :

ولما تزامينا الفراتَ بِحِلْنا سَكْرَناهُ منا بالقوى والقوائم^(٢)
فأوقفتِ النَّيَّارَ عن جَرَيانِهِ إلى حيثُ عُذْنا باليُخى والضمائم

وكان الشعراء ينثون على بيبرس قصائد هم في كل معركة وكل نصر مظفر على التار والصليبيين وفي أرمينية وآسنة الصغرى، وبالمثل حين كان ينشئ المدارس والمساجد، وفي مدرسة الظاهرية

يقول السَّراج الورَّاق من مدحة بديعة^(١) :

وشبَّهها للعلم مدرسةً غداً عراقٌ إليها شَبَّوْهُ وشامٌ
ولا تذكرون يوماً نظاميَّةً لها فليس يُضاهي ذا النظامِ نظامٌ

فهى فى رأى الوراق تفوق المدرسة النظامية التى أنشأها نظام الملك فى بغداد .
ولا يلبث أن يتولى مقاليد الحكم بعد بيبرس السلطان قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) . ومُرُّ بنا
بناؤه لمارستان ضخيم وإحلافه به مدرسته المنصورية ، وفى ذلك يقول معين الدين عثمان بن
سعيد بن تولو التنبيسى المصرى مستهلاً قصيدة فى مديحه بقوله^(٢) :

أنشأت مدرسةً ومارستاناً لتصحَّح الأدبان والأبدان

ونازل قلاوون الصليبين مرارا ، واستولى منهم على بعض الحصون . وخطفه ابنه السلطان
خليل (٦٨٩ - ٦٩٣) وكان بطلاً مغواراً فافتتح أيامه بمجاهد حملة الصليب واستطاع فى أقل من
ثلاث سنوات أن يستخلص منهم عكا وصور وصَيْداً وبيروت وجميع سواحل الشام ، فلم يبقَ لهم
بلد ولا قلعة ، ومن بقى منهم ولَّى على وجهه إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وكان الشراء ما يتون
يهتئون السلطان خليل بفتوحه ، ولبلر الدين المنجى التاجر بالقاهرة قصيدة طويلة فى تهنته
بانتصاراته المجيدة أومها :

بلغتْ فى الملك أقصى غاية الأمل وفُتْ شأؤُ ملوكِ الأحصِرِ الأولِ

ونظم كثيرون من معاصريه قصائد وأشعاراً مماثلة من ذلك قول البوصيرى شاعر المدائح النبوية
الشهور^(٣) :

قد أخذ المسلمون عكا وأشبعوا الكافرين صكاً
وساق سلطاننا إليهم خيلاً تدكُّ الجبال دكاً

وحفا أشبعوهم صكا وقتلا ودفعا إلى البحر المتوسط فى غير رجعة ولا مآب ، فقد سقطت
عكا آخر حصونهم ، بل لقد دمرتها مجانيق المصريين وحرقتها نيرانهم ، وفى ذلك يقول أحمد

(٣) ديوان البوصيرى (طبع مطبعة مصطفى الحلبي) ص
٢٣١ .

(١) المخطوط للفرزى ٣٤١/٣
(٢) النجوم الزاهرة ٣٢٧/٧ .

ابن عبد الدائم الشارمَسَاحِي (١) :

لا تعجبوا للمجانين التي رشقت عكا بنارٍ وهذتها بأحجارٍ
بل اعجبوا للسانِ النارِ قاتلةً هذى منازلَ أهلِ النارِ في النارِ

وتتوقف حركة الفتوح ، فلم يعد في الشام صليبيون ، ويتحول شعر المديح إلى شعر مناسبات في الأعياد ، وحين يستولى سلطان على مقاليد الحكم ، وخاصة إذا قرب من نفوس الشعب مثل السلطان الأشرف شعبان (٧٦٥ - ٧٧٨ هـ) . وكان قد استولى على صولجان السلطنة في ربيع الثاني فقال ابن نباتة :

طَلَعَتْ سُلْطَانُنَا نَبْذَتْ بِكَامِلِ السُّعْدِ فِي الطُّلُوعِ
فَأَعْجَبَ لَهَا تَبِكُ كَيْفَ أَبَدَتْ هَلَالَ شُعْبَانَ فِي رَيْعِ

وكانت أيام حكمه أيام أمن ورخاء وازدهار للآداب والفنون ، وفيه يقول شهاب الدين أحمد بن العطار (٢) :

لِلْمَلِكِ الْأَشْرَفِ الْمَنْصُورِ سَيِّدَنَا مَنَاقِبُ بَعْضُهَا يَدُو بِه الْعَجَبُ
لَهُ خَلَاتِقُ يَيْضُ لَا يَغْيُرُهَا صَرَفُ الزَّمَانِ كَمَا لَا يَصْدَأُ الذَّهَبُ

وللعطار أشعار كثيرة في أحداث زمنه أنشد منها ابن تغري بردي طائفة في الجزء الحادى عشر من كتابه النجوم الزاهرة . ولما تولى مقاليد السلطنة الظاهر برقوق يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان سنة ٧٨٤ ملحه بقوله من قصيدة :

ظَهَرُ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ ابْتَدَأَ بِالظَّاهِرِ الْمَعْتَرُ بِالْقَاهِرِ
وَالْبَشْرُ قَدْ تَمَّ وَكُلُّ امْرِئٍ مَنشَرُجٌ الْبَاطِلُ بِالظَّاهِرِ

وربما كان أهم حدث بلغنا بعد ذلك فتح السلطان الأشرف برسباى لجزيرة قبرص إذ كانت موئلا لكثير من القراصنة اللذين كانوا يعيشون فسادا في البحر المتوسط وما يحمل من سفن تجارة للمصريين ، كما كانوا يعيشون فسادا في شواطئ مصر والشام ، وأرسل إليها برسباى حملات ثلاثا انتهت بالاستيلاء عليها سنة ٨٢٩ وتغنى الشعراء بهذا النصر المجيد في عدة قصائد ، من ذلك

(١) فوات الخفيات ٨٦/١ .

(٢) النجوم الزاهرة ٨٣/١١ .

قصيدة زين الدين عبد الرحمن بن الحزأط أحد كتاب الثنن ، وفيها يقول ^(١) :

بُتْرَاكَ بِأَثْلَكَ الْمَلِكُ الْأَهْرَفُ يَفْتَحُ قَبْرَ الْحَسَامِ الْمَشْرِفِ ^(٢)
كَحْ تَفْتَحُ السَّمَاوَاتِ الْعُلَا مِنْ أَجْلِ الْبُتْرِ وَاللُّطْفِ الْخَفِيِّ

ولانود نسمع عن انتصارات حرية مجيدة أيام المالك ، وبصبح المديح مديح مناسبات
للسلاطين في توليهم مقاليد الأمور وفي الأعياد .

ويُظَلُّ مصر عهد العتائين وفيه يقدم الشعراء مدائهم للولاة ونوابهم وكبار الموظفين في زمنهم
ويكسب تاريخ الجبرق وغيره بأشعارهم على نحو ما يلقانا في مديح الوالي العتائي رضوان كسنا
المتوفى سنة ١١٦٨ وكان قد بنى لنفسه عدة قصور وعاش للهو ، وقصدته الشعراء ومدحوه
بالقصائد والأواجيز والموشحات والمقامات وأعطاهم الجوائز السنية . واتخذ له جلساء وندماء منهم
عبد الله الإدكاري ، وقد صنف في مدائهم كتابا سماه « الفوائج الجنانية في المدائح الرضوانية » ومن
كبار مداحه مصطفى اللقيبي الدماطي ، وله مقامة طويلة ضمنها أشعار كثيرة في مديحه ، وله فيه
مزدوجة فريدة ، يقول فيها ^(٣) :

مليكٌ سعلٍ قد سما في عَصْرِهِ مُؤَيَّدٌ مُعْظَمٌ فِي مِصْرِهِ
مَعْرُزٌ كِيُوسُفِي فِي قَصْرِهِ عَلَيْهِ مَنْشُورٌ لَوَاءُ نَصْرِهِ

ومن مداح رضوان قاسم ^(٤) بن عطاء الله ، وله فيه مزدوجة بدعية ومدائح كثيرة ، وله أيضا
فيه توشيح عارض به الموشح المشهور للسان الدين الخطيب ، وفيه يقول :

كَمُفِّ النَّبْتُ عَلَى النَّاسِ هَمًّا فَأَعَادَ الْخِصْبَ بَعْدَ الْيَبْسِ
أَصْبَحَ الدَّهْرُ بِهِ مَبْنِمًا وَهُوَ فِي فِيهِ مَعْلَى الْقَسْرِ

ويُكْثَرُ مدح الشعراء لعطاء الأهر الأبلأ ، ويلقانا ابن الصلاحي ^(٥) السيوطي كلفا بأستاذة
الشمس الحنفي ، وله فيه مدائح كثيرة على شاكلة قوله :

(٤) الجبرق ١٩٣/١ وما بعدها وانظر ترجمة قاسم في

١٨٤/٢ .

(٥) الجبرق ٢٦٥/١ وما بعدها

(١) النجم الزاهرة ٢٩٦/١٨ .

(٢) للمشرق : نسبة إلى مشارف الشام أو اليمن ،

والسيف للمشرية : سيف حادة لاطمة .

(٣) الجبرق ٢٣٢/١ .

إمامُ الهدى الرافى إلى ذروة المَلا إلى رتبةٍ عنها الثوابُ تقعدُ
وما شئتَ قل فيه فأنت مصلِّقٌ مزاياء تقضى والمحسنُ تشهدُ

وأكتلوا حيثُ من التأريخ بالشعر يؤرخون به قدوم والو أو مناسبة من المناسبات في آخر شعر
بالقصيدة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحساب الجمل فتكون سنة الولاية أو سنة المناسبة ،
ويمكن أن نستعرض شعراء المديح النابيين على مر الحقب .

المهلب^(١) بن الزبير

هو الحسن بن علي الفسافي ، ولد بأسوان في أوائل القرن السادس الهجري ، وبها تنف علوم
العربية ، وأوفى ملكة شعرية خصبة ، فلم يلبث أن لهج بالشعر ، وما اتصل معه إلى سنة ٥٢٦ حتى
نراه يتصل بيني المكثر سراً ببلدته ، ويمدح كبيرهم بقصيدة بديعة يقول فيها :

لئن جهل المذائح طُرِقَ مديحكُم ظاني بها من سائر الناسِ أعلمُ
وهل لي حمدٌ في الذي قلت فيكمُم وتعاكمُم عندى القى تتكلمُم

ونال على قصيدته جائرة كبيرة : ألف دينار . ودفعه طموحه الأدنى إلى التزوج عن بلدته إلى
القاهرة : حاضرة الفاطميين وموطن الشعراء الكبار . ونراه يمدح رضوان بن ولحشى وزير الخليفة
الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ولعله هو الذي أنفذه في مهمة إلى اليمن ، فأكتبُ على كتب
النسب ، وألف فيه دائرة معارف ضخمة قال ياقوت إنها تقع في أكثر من عشرين مجلدا . ولم
تصرفه عنايته بهذه الدائرة عن الشعر والمديح . وأهم وزير اتصل به بعد ابن ولحشى طلائع بن
رزيك (٥٤٩ - ٥٥٦ هـ) . وكان بعد أكبر شاعر في زمنه ، وقد ترجم له الهادي الأصماني ترجمة
ضافية استلها بقوله : « المهلب بن الزبير يحكم الشعر كالبناء المشيد ، لم يكن في زمانه أحد أشعر
منه ، وله شعر كثير وعمل في الفضل أثير » . والغالب على شعر المهلب المديح .

ومن يدرس الشعر العربي يعرف أن قصيدة المديح تقوى تارة وتضعف أخرى ، فهي تقوى

الصيد ص ١٣ ، ١٠٠ وابن خلكان ١/١٦١ في ترجمة
أنبه الرشيد ونواف الوفاة ٢٤٣/١ والنجم الزاهرة
٣١٣/٥ وحسن المحاضرة للسروطي ١/٥٦٣ .

(١) انظر في ترجمة المهلب وأشعاره غريدة القصير (قسم
شعراء مصر - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢٠٤/١
ومجموع الأدباء ٤٧/٩ والنكت المصرية لعبارة اليمن ص
٣٥ والطالع السعيد الجاسع لاشتد الغضلاء والرواة بأطل

حين تعبر عن فخر وانتصارات جديدة بأن يسجلها الشعراء ويتشوها ، وهي تضعف حين تعبر عن زُلْفَى وما يتصل بالزُلْفَى من رياء . ومعنى ذلك أنه توجد للمديح في الشعر العربي قصيدتان لا قصيدة واحدة ، قصيدة ذات موضوع واضح ، وقصيدة ليس لها موضوع واضح ، ومن الضرب الأول مدائح أبي تمام في قواد الدولة العباسية وحروهم في خراسان وفي آسية الصغرى ، ومنه أيضا مدائح التنبى في سيف الدولة وانتصاراته الجيدة ضد البيزنطيين . ومن الضرب الثاني مدائح مهيار وغيره من الشعراء للخلفاء والوزراء والحكام في المناسبات والأعياد المختلفة . وفرق بعيد بين الضربين ، ففي الضرب الأول نقرأ حقائق واقعة ، بل يقرأ العرب تاريخهم في صورة رائعة من الفناء والشعر ، أما في الضرب الثاني فلا نقرأ حقائق ولا ما يشبه الحقائق ، ولا يقرأ العرب تاريخهم حريا أو غير حرى ، إنما يقرءون ملقا وترلفا ورياء .

ويمكن أن ندخل مدائح المهذب بن الزبير للوزير طلائع بن رَزْيك في الضرب الأول ، لأنه ملاً أيامه ببطولة محققة في حرب الصليبيين وردَّهم عن بعض حصون فلسطين ، وفي كتاب الروضتين في أخبار الدولتين للمقدسى ما يصور ذلك . فقد كانت الجيوش المصرية في أيام وزارته ماثق تنازل الصليبيين في العريش وغَزَّة وعَسْقلان ، وكان الأسطول المصرى يقوم بدور مهم فهو يُفَرِّعهم في « صور » و « عكا » وهو يقطع على بعض سفنهم في البحر المتوسط طريقها إلى الموانئ الشامية والفلسطينية . وكان طلائع يقود بنفسه بعض جيوشه البرية ، ويتصر على الصليبيين في عسقلان وغير عسقلان ، والمهذب شاعره يتغنى بانتصاراته مبهجا بمثل قوله :

لَا أَبَوَا مَا فِي الْجِفَانِ قَرْنَتِهِمْ	بصوارمِ سُلْتُ من الأَسْجَانِ ^(١)
وَتَلَلَتْ فِي جُومِ الْعَرِيشِ غُرُوشُهُمْ	بِشَبَا ضِرَابِ صَادِقٍ وَطِعَانِ ^(٢)
أَلْجَأَتْهُمْ لِلْبَحْرِ لَمَّا أَنْ جَرَى	مِنْهُ وَمِنْ دَمِهِمْ مَمَّا بَحْرَانِ
وَلَأَتْ كَحُضْبٍ كُلُّ بَحْرٍ زَاخِرٍ	مِمَّنْ تَحَارَبُ بِالتَّجِيعِ الْغَانِ ^(٣)
حَتَّى تَرَى دَمَهُمْ وَخَضِرَةً مَائِهِ	كَشَقَاتِي نُثِرَتْ عَلَى الرِّيحَانِ
وَكَأَنَّ بَحْرَ الرُّومِ خَلَقَ وَجْهَهُ	وَطَفَتْ عَلَيْهِ مَنَابِتُ الْمَرْجَانِ ^(٤)

(١) الجفان : جمع جفة وهي قصعة الطعام .

(٢) الأَسْجَانُ : جمع جفن وهو غمد السيف .

(٣) التَّجِيع : الدم . الْغَان : شديده الحمره .

(٤) خَلَقَ وَجْهَهُ : طَبَّ بِالْخُلُقِ وهو الزعفران .

(٢) شَبَا : جمع شِيبَة ، وهي حد السيف .

والمهذب بن الزبير فرح منتهج بما أفاء الله من نصر على ابن رزّيك في العريش ، فقد دق أعناق الصليبين هناك ، ونكصت بقيتهم على أعقابها إلى البحر منزهة . ولا ريب في أن تصوير المهذب لدم الأعداء على صفحة البحر المتوسط بأنه خضاب أو هوشقات أو ورد أحمر نثر على المرجان ، وكان المتوسط قد خلّق وجهه وجلب بالزعفران وطفّت عليه منابت المرجان ، لا ريب في أن ذلك كله تصوير بديع . ويذكر المهذب أن الأسطول المصري لقي فلول الصليبين المنهزمين إلى البحر يقتل فيهم ويأسر ، يقول في سفنه وصنيعها بهم :

شُبُهْنَ بِالزَّيْبَانِ فِي أَلْوَانِهَا وَفَعَلْنَ فَعْلَ كَوَاسِرِ الْيَقْبَانِ
وَلَتُنَّتْ مُوقَرَّةٌ بِسَبِيٍّ بَيْنَهُ أَسْرَاهُمْ مَغْلُولَةٌ الْأَذْقَانِ^(١)

وهو يصف الأسرى وقد غلّت أعناقهم إلى أذقانهم فلا يستطيعون لره وسهم عطفًا ولا حركة ، ويؤوه يقتل أحد أمرائهم ، قائلا :

قَتَلَ الْبَرْنَسَ وَمَنْ عِوَاهُ أَعَانَهُ لَمَّا عَاثَ فِي الْبَقْيِ وَالْعُدْوَانِ
وَأَرَى الْبَرِّيَّةَ حِينَ عَادَ بِرَأْسِهِ مَرَّ الْجَبَّتَا يَدُو عَلَى الْمَرَانِ^(٢)

وتصادف في أثناء ذلك أن وقعت زلازل شديدة في الشام دكّت بعض حصون الصليبين فذكر ذلك ابن الزبير ملتصقا له تعليلا طريفا إذ يقول لابن رزّيك :

مَا زُلْزَلَتْ أَرْضُ الْعِدَا بَلْ ذَاكَ مَا بِقُلُوبِهِ أَهْلِيهَا مِنَ الْخَفَقَانِ

وله في ابن رزّيك مدائح كثيرة وراء هذه التوبة . وكان يتغنّ فنون الشعر المختلفة من استعطاف وغير استعطاف ، وله في استعطاف أحد دعاة الفاطميين باليمن ميمية مشهورة ، كان أخوه الرشيد قد ذهب إليه في مهمة للدولة ، فهمم بقتله ، وسجّنه ، فأرسل إليه بثلث القصيدة يستطفه لأخيه ، ففعا عنه وردّ إليه حريته . واشتهرت القصيدة بغزلها وما يرمز فيه من لفة على أخيه ، إذ يقول :

يَارَيْتُ أَيْنَ تَرَى الْأَحْبَةَ يَمْشُوا هَلْ أَتَجَدُوا مِنْ بَعْدِنَا أَوْ أَتَهْمُوا^(٣)
نَزَلُوا مِنَ الْعَيْنِ السَّوَادِ وَإِنْ نَأَوْا وَمِنَ الْفَوَادِ مَكَانَ مَا أَنَا أَكْمُ

(٣) أتجدوا : دخلوا بجها . أتهموا : دخلوا تهامة .

(١) موقرة : محشلة .

(٢) الجبّا : الثمر . المران : الرماح .

رحلوا وفي القلب المئى بعدهم وَجَدْتُ عَلَى مَرِّ الزمان عَيْمٌ
وتعَوَّضْتُ بِالْأَنْسِ رَوْحِي وَحْشَةً لَا أَوْحَشَ اللَّهُ الْمَازِلَ مِنْهُمْ
إِنِّي لَأَذْكُرْكُمْ إِذَا مَا أَشْرَقَتْ شَمْسُ الضُّحَى مِنْ نَحْوِكُمْ فَأَسْلَمُ
لَا تَبْعَثُوا لِي فِي النِّسَمِ نَحْبَةً إِلَى أَغَارٍ مِنَ النِّسَمِ عَلَيْكُمْ

والآيات تعبر عن عاطفة الحب المتأناة وأنه لن ينسى أحياءه أبداً نزلوا نجداً أو نزلوا تامة ، فهم في سويداء قواده والوجد يبرح به ، والوحشة منهم تلذع روحه ، وهو يستقبل شمس الضحى المشرقة من ديارهم بالسلام الحار . وما يلبث أن يعبر في البيت الأخير عن رقة ورهافة حسن بالغة ، وله من جملة قصيدة يته للشهور :

وما لي إلى ماء سوى الثَّلِّ غَلَّةٌ وَلَوْ أَنَّهُ - أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ - زَمَرُمُ

وهو يصور أدق تصوير محبة لوطه ، وهي محبة تملك دائماً على المصريين شغاف قلوبهم . وكان المذهب وأخوه الرشيد - وكان شاعراً مثله - وثقاً صلتها بشركوه وصلاح الدين حين قلما مصر لنجدة الوزير شاور ضد خصمه وضد الصليبيين ، ولم يلبث شاور أن قلب ظهر الجهن لصلاح الدين وعنه شركوه ، واضطرا إلى مبارحة مصر فقرة . وحيتذ يقتل شاور الرشيد ويسجن للمذهب فينظم شعراً كثيراً في استعطافه ، ويرد إليه حريته ، وسرعان ما يتوفى سنة ٥٦١ للهجرة .

ابن فلاحس^(١)

هو نصر الله بن عبد الله بن فلاحس الإسكندري ، ولد بالإسكندرية سنة ٥٣٢ ونشأ بها وسمع من شيوخها ، ولزم حلقة أبي طاهر السلفي أكبر المحدثين في عصره ، وفتحت موهبة الشعرية مبكرة فلدح بعض أولى الأمر المشرفين على الإسكندرية . وكان في أثناء ذلك يلزم صحبة شيخه سلفي وله فيه مدائح بديعة مثبتة في ديوانه من مثل قوله :

تَقْبِضُ بِحَارِ الْعِلْمِ مِنْ كَلَامِهِ فَإِنِ كُنْتَ طَعْمَانَا فِرْدُ خَيْرِ مَثَلٍ
فَيَأْتِيَا الْهَمْدُ مِنْ كُلِّ نَاطِقٍ عَلَى كُلِّ مَعْنَى فِي قِتَا كُلِّ مَثَلٍ

الجنان ٣/٣٨٣ . وديوانه طبع قديماً بمطبعة الجوارب وراجعه
وضبطه خليل مطران .

(١) انظر في ترجمة ابن فلاحس الحريفة (قسم شعراء
مصر) ١٤٥/١ ومجموع الأدباء ٢٣٦/١٩ وابن خلكان
٣٨٥/٥ وحسن المحاضرة ٢٤٢/١ والفتوحات ٢٢٤/٤ ومرآة

تَحَسَّدَتِ الْأَيَّامُ فِيكَ ظَمَ تَرَل مَتَى الْقَادِمُ الْجَذَلَانُ وَالْمُتَرَحِّلُ

وهو يشير إلى علم أستاذه وأنه كان مقصداً للراجلين في طلب الحديث من كل بقاع العالم الإسلامي . وليس في ديوانه مديح لوزير مصرى قبل شاور وزير العاصد (٥٥٧ - ٥٦٤ هـ) .
واتصل بكتاب الديوان لعهد ومدهم ، وفي مقدمتهم القاضي الفاضل ، وله فيه غرر المدايح ،
ومن قوله في إحداها متخلصاً من الغزل إلى مديحه :

يَا رَبُّ خَيْرَ قَمَّةٍ كَأَسْهَى لَمْ أَفْتَحْ مِنْ شَرِّهَا بِالشِّمِيمِ
أَتَبَعْتُ رَشَقًا قُبَلًا عِنْدَهَا وَقُلْتُ : هَذَا زَمَزَمٌ وَالْحَطِيمِ
فَافْتَرِ إِمَّا عَنْ أَقَاحِي الرُّبَى تَضَحَّكَ أَوْ ذُرَّ الْعُقُودِ الثَّقِيمِ
أَوْ كَانَ قَدْ قَبِلَ مُسْتَحْسَنًا مَا حَبَّرَ الْفَاضِلُ عَبْدُ الرَّحِيمِ
مَنْ لَفْظُهُ رَاحٌ وَأَخْلَاقُهُ رَوْحٌ وَتِلْكَ الدَّارُ دَارُ النِّعَمِ

والآيات تصور قدرة رائعة على تكوين الصور الشعرية البديعة ، فقم صاحبه كأس خمر ،
وهو يرشفها وكأنه يرشف من ماء زمزم ويقبلها وكأنه يقبل الحطيم المقدس . وضحكت فخال
أقاحى الرى تضحك ، بل عقد در نظم ، بل درر القاضي الفاضل عبد الرحيم ، مَنْ لَفْظُهُ خمر
وأخلاقه قَرَحَ وداره جنة الخلد ، ولعله يريد قصر الخلافة الذى كان يعمل به الفاضل كاتباً .
وليس في شعره أى شائبة ندل أو تشير إلى أنه اعتنق الشيعة ، وكان عهد وزارة شاور عهداً
مضطرباً أشد الاضطراب ، فسدت فيه أداة الحكم فساداً شديداً ، مما جعل شاور بصطرع مع
ضرغام على الوزارة ، ويستعين بنور الدين أمير حلب ويرسل معه أسد الدين شيركوه وصلاح
الدين ، فيعيدانه إلى كرسى الوزارة ، وما يلبث أن يستعين ضدّهما بالصليبيين . ولعل هذا
الاضطراب الشديد الذى عانته البلاد حينئذ هو الذى جعل ابن قلاص يفكر في مبارحة مصر إلى
صقلية ، ويبدو أنه كان يسمع في أثناء مقامه بالإسكندرية من مسلميها الذاهبين إلى الحج تنويها
كثيراً بها وبرجالاتها ، وكانت قد سقطت في أيدي النورماندين ولكن أمراءهم منذ رجاء كانوا
لا يزالون يعاملون المسلمين بها معاملة حسنة ، وأعانوهم على استمرار نشاطهم العلمى والأدبى .
على كل حال نفاجأ برحيل ابن قلاص إلى صقلية في شعبان سنة ٥٦٣ هـ ولم يكده يتزل بها حتى
أرسل بقصيدة يصف فيها رحلته البحرية إلى الجزيرة وصفاً بديعاً ، وكانت قد أعجبت مشاهدتها
الطبيعة فأنشد :

بَلَدُ أَعَارَتْهُ الْحَمَامَةُ طَوَّقَهَا وَكَسَاهُ حَلَّةٌ رِيشُ الطاووسِ
فَكَانَ الْأَزْهَارُ مِنْهُ سُلَاقَةً وَكَانَ سَاحَاتِ الدِّيارِ كَثُوسُ

وتنقل في بلدانها ، وكانت لاتزال عامرة بالمسلمين ، ونزل حاضرتها يلزم ، وتعرف على أكبر شخصية عربية بها : أبي القاسم بن الحجر ، ويبدو أنه كان رئيس ديوان المسلمين وصاحب الأمر والنهي فيهم ، وفيه دُيِّع مدائح كثيرة ، مشيداً ببيانه وبلاغته ، وبحسن تدييره ، بمثل قوله :

وَيَمِينُكَ طَيْرٌ يُعْنِي وَسَعْدِي أَصْفَرُ الظَّهْرِ أَسْوَدُ النِّقَارِ
قَلَمٌ دَبَّرَ الْأَقَالِمَ فَالْكَتَبُ بِهُ مِنْ كِتَابِ الْأَقْدَارِ

والبيت الثاني يشير بوضوح إلى أن أبا القاسم كان يصرف أمور المسلمين في صقلية ، ولعله لذلك تسميه بعض المصادر العربية صاحب صقلية ، وفيه كتب ابن فلاقس كتاباً سماه « الزهر الباسم من أوصاف أبي القاسم » وصف فيه رحلته إلى صقلية ومقامه بها نحو عامين ومدائمه فيه ، واحتفظ العماد الأصمباني في ترجمته بقطعة كبيرة من هذا الكتاب . وفي ديوانه مدائح كثيرة لشخصية ثابتة بصقلية ، هي شخصية القاضي علي بن أبي الفتح بن خلف الأموي ، ويقول العماد إنه نوه به في كتابه الزهر الباسم وقال عنه « حَذَقَ الْعِلْمَ النَّاطِرَةَ وَحَدِيقَةَ الْأَدَبِ النَّاضِرَةَ » وفيه يقول :

وَكَمْ لَكَ فِي الْفَصَاحَةِ مِنْ أَبَايَ مَلَكْتَ بِهَا الْفَخَارَ عَلَى الْإِيَادِي^(١)
تَخَذْتُكَ مِنْ صَقْلِيَّةٍ خَلِيلَا فَكُنْتَ الْوَرْدَ يُقَطِّفُ مِنْ قَتَادِ
وَشِمْتُكَ بَيْنَ أَهْلِهَا صَفِيًّا فَكُنْتَ الْجَمْرَ يُقَبِّسُ مِنْ زَنَادِ

وابن فلاقس لا يريد أن يهجو أهل صقلية بأنهم قتاد وشوك وابن خلف وحده هو الورد ، ولا أنهم زنَاد صُلْد وهو وحده الجمر ، وكل ما في الأمر أنه يريد أن يمدحه ، وبالع في مديحه ، أما بعد ذلك فكان هناك أبو القاسم بن الحجر مملوحوه وراعيه فيها . وقد مدح بها آخرين ، منهم جرُّدنا وزير صاحب صقلية ، وفيه يقول :

وَجَرُّدُنَا الْمَدَائِحَ فَاسْتَقَرَّتْ عَلَى أَوْصَافِ جَرُّدُنَا الْوَزِيرِ

وهو يشير مراراً إلى مجالس الشراب في صقلية ، وأنه قضى بها أياماً وليالي هنيئة ، كان يستمتع

(١) هوس بن ساعدة الإيادي الحطلي المشهور .

فيها بالاستماع إلى الغناء والموسيقى ورؤية الراقصات وهن يشئن في نسق بديع من الحركات يقول :
 وَمُتَنٌ تَنَاولَتْ يَدُهُ الْعَرَبُ دَ فَعَادَتْ بِنَا إِلَى الْأَفْرَاحِ
 بَيْنَ رِيحٍ مِنَ الزَّامِيرِ أُسْرَى بَيْنَ أَجْسَامِنَا مِنَ الْأَرْوَاحِ
 وَجِبَاحٍ قَدْ عَقَدُوا طُرُقَ اللَّيْلِ لَوْ جَمَالًا عَلَى الْوُجُوهِ الْعُصَابِ
 يَبِثُّ الرُّوحُ مِنْهُمْ حَرَكَاتٍ سَرَقَتْ بَعْضَهَا طَوَالُ الرُّوحَانِ

وعاد ابن قلاؤس إلى مصر ، فوجدها لا تزال مضطربة قبل تحول مقاليد السلطان إلى صلاح الدين ، ففكر في الارتحال عنها ، وولى وجهه نحو عدن سنة ٥٦٥ هـ استقبله استقبالا حسنا ياسر بن بلال وزير محمد وأبى السعود ابنى عمران حفيد الداعي سبأ صاحبها ، فأغلق عليه نائلا غمرا ، وركب البحر الأحمر عائدا إلى مصر ، فانكسر المركب به وغرق جميع ما كان معه بالقرب من جزيرة دهلوك ، فعاد إلى ياسر ، وأنشده قصيدة دالية استلها بقوله :

صَدَرْنَا وَقَدْ نَادَى السَّمَاحُ بِنَا رِدْوَا فَعُدْنَا إِلَى مَفْئَاكَ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ
 وَجَادَبْنَا لِلْأَهْلِ شَوْقُ يَقِينَا وَشَوْقُ لَمُعْنِنَا عَنِ الْأَهْلِ بِقَعْدِ
 وَمَا فَاحَ فِينَا غَيْرَ ذِكْرِكَ رَوْضَةً وَلَا سَاحَ فِينَا غَيْرَ نَعَاكَ مَوْدُ
 فَيَا يَاسِرًا نِلْنَا بِهَ الْفَضْلَ يَاسِرًا وَيَا مَنَ وَجَدْنَا مِنْهُ مَا لَيْسَ يُوجَدُ
 دَعَوْتَ بِصَوْتِ الْجُودِ حَتَّى عَلَى الثَّدَى لَأَنَّكَ تَرَوَى عَنِ بِلَالٍ وَتُسَيِّدُ
 والقصيدة كلها من هذا النمط البديع ، وما أروع بيتها الأخير ، وقد تصور ياسر يؤذن بصوت الجود داعيا الناس إليه ، ويعطل ذلك تعليلًا طريفا ، إذ يقرن اسم أبيه بلال إلى بلال مؤذن الرسول وهو يروى عنه ويفتدى به قلوة حسنة . وكان يحسن التعليل كما يحسن التصوير ، ومن طريف صوره وتعليلاته قوله في جارية سوداء :

رُبُّ سُدَّاءَ وَهِيَ يَضَاءُ مَعْنَى نَافَسَ الْمَسْكَ عِنْدَهَا الْكَافُورُ
 مَثَلُ حَبِّ الْعَيُونِ بِحَسْبِهِ النَّاسُ مِنْ سَوَادًا وَإِنَّمَا هُوَ نَوْدُ
 وهى صورة بدیعة غريبة . ويكثر مثلها عنده ، كقوله يصف الشجر وأن منه ما يذبل سريعا

ومنه ما يخلد على الدهر ، ومنه القبيح ومنه الجميل ، يقول :

الشَّجَرُ مِنْ قَصِيرٍ عَمْرُهُ زَهْرٌ يَذْوَى وَمِنْهُ طَوِيلٌ عَمْرُهُ زَهْرٌ^(١)

أو كالميون فهذه حطها حول يُقص منها وهذه حطها حول

وكان قد ظل عند يأسر نحو ستين وعاد في شوال سنة سبع وستين ، وركب البحر إلى عيذاب
نغر قوص على بحر القُزم ، وكان الموت كان في انتظاره ، فلم يكد يتزلها حتى لبى نداء ربه وهو في
الحامسة والثلاثين من عمره .

ابن سناء ^(١) الملك

هو القاضي السيد هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن القاضي المتحد سناء الملك
السهدي ولد سنة ٥٥٠ بالقاهرة في بيت يسار ونعمة ، إذ كان أبوه وجده من كتاب الإنشاء في
الدولة الفاطمية ، كما يدل على ذلك تلقيبها بلقب القاضي الذي كان يمنح لكبار الكتاب ،
وكانت قد انمقدت صلة وثيقة بين جده وأبيه وبين القاضي الفاضل حين كان يعمل معها في
الدواوين الفاطمية . ولما تطورت الظروف وأصبحت مقاليد الحكم في مصر بيد صلاح الدين
واتخذ القاضي الفاضل وزيراً له ومستشاراً قُرب الفاضل منه جعفر بن سناء الملك وتوثقت الصلة
بينها حتى كان ينييه عنه في غيبته مع صلاح الدين بالشام . وعُني جعفر بترية ابنه هبة الله منذ
نعومة أظفاره ، فعهد إلى بعض القراء بتحفيظه القرآن الكريم ، حتى إذا حفظه اختلف إلى
حلقات العلماء وخاصة حلقة ابن بَرِّي أكبر أئمة اللغة والنحو المصريين حينئذ . وأكب يقرأ كتب
الفقه وعلم الكلام والمنطق على نحو ما يشهد بذلك استظهاره في أشعاره لبعض مصطلحات هذه
العلوم في الحين بعد الحين . ودفعه طموحه العلمي إلى الارتحال إلى الإسكندرية لسماح الحديث
على السني الكبير الحافظ السلفي أحمد بن محمد ، وفيه يقول :

وجئتُ إلى الإسكندرية قاصداً إلى كعبة الإسلام أو عَمَّ العلم
إلى أحمد الهجي شريعة أحمدٍ فلا علمتُ منه أباً أمة الأمي

للمحمي في مواضع مغرقة ومقاتل : الروح المصرية في
شعر ابن سناء الملك ، بكاتب : « فصول في الشعر ونقد »
وابن سناء الملك : حياته وشعره محمد إبراهيم نصره ومقدمة
محمد عبدالحق لنشره للديوان في المنة ، ونشره وحققه في
القاهرة محمد إبراهيم نصره .

(١) انظر في ترجمة ابن سناء الملك وأشعاره الحريدة
(قسم شعراء مصر) ٦٤/١ ومجموع الأدباء ٢٦٥/١٩
والغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٢٧٣ وابن خلكان
٦١/٦ وصبر الذهبي ٢٩/٥ والشتوات ٣٥/٥ وحسن
الحاضرة ٢٤٣/١ وديع البهانه لعل بن ظافر وخزانة الأدب

وقد أكتبُ على دواوين الشعراء يلتهمها كما أكتبُ على الموشحات الأندلسية في طليعة عمره كما يقول في مقدمة كتابه النفيس « دار الطراز » الذي سبق أن تحدثنا عنه وقلنا إنه وضع فيه عروض الموشحات ، وإنه يقوم في ذلك مقام الخليل بن أحمد في وضعه عروض الشعر العربي ، ونراه يختم بعض موشحاته بأقوال أعجبية مما يدل على معرفته بالفارسية . وبشهد وضعه لعروض الموشحات وضماً نهائياً بذكاء خارق .

وقد تفتحت موهبة ابن سناء الملك الشعرية مبكراً تفتحاً راع القاضى الفاضل كبير أدباء زمنه ، فاستأذن أباه في أن يتخذ كاتباً بين يديه ، وأذن له ، وأضنى عليه من إعجابه بشعره وودّه ما أصبح به أباً روحياً له ولفته . ومن خير ما يصور هذه الأبوة الروحية كتابُ ابن سناء الملك المسمى « فصوص الفصول » ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، والكتاب في جمهوره مراسلات بين ابن سناء الملك وأبيه جعفر من جهة وبين القاضى الفاضل من جهة ثانية حين كان يذهب إلى الشام في رفقة صلاح الدين ، فيكتب الشاعر وأباه ، وخاصة حين يرسل إليه ببعض مدائحه فيه أو في صلاح الدين . وهي ليست مكاتبات إخوانية فحسب ، بل هي أيضاً ملاحظات نقدية على الشعراء السالفين والمعاصرين وخاصة ابن سناء الملك نفسه وأشعاره . وتخرج رسائل الفاضل فيها بناءً غنقي عليه من مثل قوله عن بعض قصائده : « مايرينا من آية إلا هي أكبر من أختها ، وما يجلو علينا عروضاً إلا وقد جمع بين حسنها وبخنها ، وقلما يُجمعُ بين الحسن والبَخت » ويفضّلها على المعلقات . ويمدحه مرة ثانية فيقول : لله درُّ تلك الأنفاس التي تستخف عقول الرجال ، بل عقود الجبال . . . ولقد أبقي للأباء ذكراً ، وللأبناء فخراً ، وأرسلها مقلّدات ، فأرهقها مجرّدات ، وأثارها أوابد ، فنظمها قلائد » . ويشيد الفاضل بموشحاته كما يشيد بأشعاره رافعا منزلته فيها على منزلة الأندلسيين درجات . وبهنا ما يسجله كتاب فصوص الفصول من أنه كان ناقدًا كما كان شاعراً .

واختصر ابن سناء الملك كتاب الحيوان للجاحظ ، باسم روح الحيوان ، ويقول ابن خلكان إنها تسمية لطيفة ، ويذكر له كتاباً ثانياً باسم مصايد الشوارد . وكان ناثراً بارعاً كما كان شاعراً مبدعاً ، يقول ابن خلكان : « ومن نثره في وصف النيل في سنة كان ناقصاً ، ولم يوف الزيادة ، التي جرت بها العادة : « وأما أمر الماء فإنه نضبت مشارعه ، وتقطعت أصابعه ، وتيمم العمود (عمود المقياس) لصلاة الاستسقاء ، وهمُّ المقياس من الضعف بالاستسقاء » . يقول ابن خلكان : « وهذا من أحسن ما يوصف به نقصان النيل » . وزعم ابن سعيد في كتابه المغرب أنه

كان غالبا في التشيع ، وربما دفعه إلى ذلك أنه وجده بمدح القاضي الفاضل في يوم عاشوراء ذاكرًا
مقتل الحسين الشهيد فيه يقول :

يَوْمُ بَسَاءٍ بِهِ وَفِيهِ كُلُّ شَيْعٍ وَسْئٍ
ولم يكن القاضي الفاضل شيعيا ، بل كان سنيًا ومثله ابن سناء الملك ، وهو لفلنك يقول إن
ذكرى هذا اليوم تحزن السنين والشعبة معًا . وقد أشار في رثائه لبعض العلويين من أسهاره إلى نوم
الحلق عن ثأر الحسين . وفي رأينا أنه ليس في ذلك ما يعارض سنته ، فإن مصرع الحسين يأمر له
الطرفان المتعارضان من أهل السنة والشعبة جميعا ، وقد صرح في مدحه للقاضي بأنه سني رغم
حبه وتشيعه له يقول :

وغلوتُ في حبي له متشعبًا من ذا رأى متشعبًا متشعبًا

وليس من المعقول أن ينال حُظوة القاضي الفاضل وصلاح الدين شاعرٌ شيعي غالٍ في تشيعه .
ويبدو أن الصفدي قرأ هذه التهمة عند ابن سعيد ، وأكدها عنده أنه قرأ في ديوان ابن الساعاني
هجاء له في ابن سناء الملك حين سقط عن جواد له كان يسمى الجمل ، فزعم أنه إنما سقط عنه
لبغضه أم المؤمنين السيدة عائشة وأباها الصديق أبا بكر ، يقول :

أَبْغَضْتُ بِالطَّبِيعِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ تُخَيِّبْ أَبَاهَا فَجَاءَتْ وَقَعَةُ الْجَمَلِ

وهو هجاء لابن الساعاني جرّه إليه أن اسم الجواد الجمل ، وله فيه أهاج مختلفة كما يشهد
ديوانه ، وكأنه ذكر ذلك كيدًا له . وقد أشاد في مقدمته لقصوص الفصول بالصحابة جميعا ، ولم
يخص على بن أبي طالب بتوبيه . ومر بنا أنه تتلمذ على الحافظ السلفي أكبر سني في عصره .
وكان ابن سناء الملك يعيش في رغد من العيش ، لثراء أبيه ، وفي الديوان أنه أهداه مرة
بستانا ومرة فندقًا . وظل موظفًا في ديوان الإنشاء منذ بواكير حياته ، وبعد وفاة صلاح الدين
واستعفاء القاضي الفاضل من عمله ظل يعمل في الديوان مع السلطان العزيز ثم أخيه السلطان
الأفضل ثم السلطان العادل وابنه الكامل ، حتى إذا كانت سنة ٦٠٦ عهد إليه السلطان الكامل
بتدبير ديوان الجيش ، غير أنه استعفاء فأعفاه . ولم يلبث أن توفي سنة ٦٠٨ . ولم يكن يعمل مع
كل أولئك السلاطين فحسب ، بل كان يقدم إليهم مدائمه وكانوا يميزون له في العطاء ، وبالمثل
كان يميز له في العطاء أمراء البيت الأيوبي حين كان يمدحهم ، وفي ديوانه مدائح كثيرة لهم
ولصفي الدين بن شكر وزير السلطان العادل . فالأموال كانت تُقدِّقُ عليه بالإضافة إلى راتبه

وما ورثه عن أبيه مما يؤكد أنه عاش مترقا منها . وفي ديوانه أشعار كثيرة يصف فيها داره التي كانت تطلُّ على النيل وحديقتها وما كان بها من ناهورات ، وكانت تمتد للشمراء من أصدقائه وكانت تجرى بينهم فيها محاورات ومفاكهات طريفة .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ابن سناء الملك ، أكبر شاعر ظهر بمصر قبل العصر الحديث ، وقد أوضحنا في مقال عنه بكتابنا فصول في الشعر ونقده تمثله في أشعاره للروح المصرية ، من ذلك ما يجري في أساليبه من السهولة التي تعد انعكاساً لما يشعُّ منها في روح المصريين أبناء النيل وأوديته وسهوله وما أسبغ على ساكني ضفافه من حياة سهلة ، مما دفعه إلى استخدام بعض الكلمات العامية المألوفة في ألسنة المصريين مثل « باما بمعنى كبير جدا ، ومثل « وديني هو على أكثره ومثل « على عيني » . ومن ذلك الرقة في ألفاظه ومعانيه وما يتصل بها من اللين والدماعة ، مما جعله يكثر من التفرزل بمن فقدن أبصارهن من الفتيات والنساء كقوله في إحداهن :

شمسٌ بغير الليل لم تُحجِّبِ وفي سوى العينِ لم تُكسِفِ
مُعمَّدةُ المُرهَقِ لكنها تفتِكُ باليمنِ بلا مُرهَقٍ^(١)

فهي شمس منيرة تحجبها غلالة من الليل ، شمس أصابها في عينيها كسوف ، ونورها بغير كل ما حولها وإن جفونها تطبق على عينيها إطباق الغمد على سيفه ، ومع ذلك تفتكان بمن يبصرهما كما يفتك السيف القاطع . ويتجسّد تمثل ابن سناء الملك للروح المصرية في تعلقه الشديد - مثل المصريين جميعا - بوطنه ونفوره من الغربة حين يذهب إلى القاضى الفاضل بالشام في إحدى القضايا المهمة ، حتى يقول :

ووالله ما أشرى الشَّامَ وملُكته وغُوطته الحُفُرا بشبرين من شبرا

فنقطة دمشق بمشاهدها الساحرة بل الشام وملكه وصولجانه ، كل ذلك لا يشتره بشبرين من شبرا : إحدى ضواحي القاهرة . وصفة مصرية رابعة ماثلة بالقوة في شعره هي حبه لأبويه وأسرته حياً يملك عليه كل شيء من أمره ، مما نراه ماثلا في مراثيه لأمه وأبيه ووجهه وزوجه وأخته وإخوته . وله في أبيه مدائح بديعة من مثل قوله وكأنه يمدح بعض السلاطين :

يا سائلا عن معاليه ليشهرها البدرُ في الأفقِ يستغنى بشهرته

ذلك الذى يَسْمُ الدهرُ العوسُ بِوَيْبِهِا وَتَبْجَحُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِ
وَنَحْسُ^١ فِى مَدِيحِهِ بِسَعَادَتِهِ سَاعِدَةٍ غَامِرَةٌ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْ مِزَلَّتِهِ وَأَدْبِهِ وَعِلْمِهِ وَشَيْبِهِ فِى
إِجْلَالٍ وَإِكْبَارٍ يَفُوقَانِ الْوَسْفَ . وَأَيْضًا مَا تَنَازَرَتْ بِهِ مِصْرُ مِنْ تَعَلُّقِ بِالْدِّينِ بِجِلْدِهِ مَصُورًا فِى أَطْعَامِهِ .

وَأَهَمُّ مِنْ اسْتِنْفَادِ مَدَائِحِهِ صَلَاحُ الدِّينِ وَالْقَاضِى الْفَاضِلُ ، وَمَعْرُوفٌ أَنَّ صَلَاحَ الدِّينِ قَضَى
عَلَى أَسْطُورَةِ الصَّلِيبِيِّينَ وَمَا كَانَ يُقَالُ عَنْ بَأْسِهِمْ وَمَا أَسْوَاهُ فِى الشَّامِ مِنْ مَمَالِكِهِمْ فَقَدْ مَزَقَ
جَمِيعَهُمْ تَمْزِيقًا ، وَرَدَّ قُلُوبَهُمْ إِلَى الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ وَمَا وَرَاءَهُ . وَقَدْ مَضَى ابْنُ سَنَاءِ الْمَلِكِ بِمَدْحِهِ
مَدَائِحَ رَاقِعَةٍ مِنْذُ إِعْدَادِهِ لِحَرْبِ الصَّلِيبِيِّينَ وَمَدُّ سُلْطَانَتِهِ عَلَى حَلَبٍ وَغَيْرِهَا مِنْ دِيَارِ الشَّامِ ، وَجَمْعِهِ
لِلْعَرَبِ تَحْتَ لَوَائِهِ ، حَتَّى يَنْقُضُ بِهِمْ عَلَى حِمْلَةِ الصَّلِيبِ ، وَلَهُ يَقُولُ :

بِدَوْلَةِ الْتُرْكِ عَزَّتْ مِلَّةُ الْعَرَبِ وَبَابِنِ أَيُّوبَ ذَلَّتْ شِيعَةُ الصُّلْبِ
وَفِى زَمَانِ ابْنِ أَيُّوبَ غَدَتْ حَلَبُ مِنْ أَرْضِ مِصْرٍ وَعَادَتْ مِصْرُ مِنْ حَلَبِ

وَكَأَنَّهُ كَانَ يَسْتَشْعِرُ فِى عَمَقِ أُمْنِيَةِ تَوْحِيدِ الْعَالَمِ الْعَرَبِ . وَلَهُ فِى صَلَاحِ الدِّينِ مَدَائِحُ كَثِيرَةٌ بِصُورٍ
فِيهَا بَطُولَتُهُ وَبَطُولَةُ جُيُوشِهِ وَسَحْفَتُهُمْ لِلصَّلِيبِيِّينَ . وَمَا زَالَ صَلَاحُ الدِّينِ يَتَزَلُّ بِهِمُ الدَّمَارُ وَيَأْخُذُ
مِنْهُمْ الْحَصُونِ وَالْبِلَادَ حَتَّى كَانَتْ هَزِيمَتُهُمْ الْكَبِيرَى فِى مَوْقِعَةِ حِطَيْنَ ، وَفِيهَا جَرَتْ دِمَاؤُهُمْ أَنْهَارًا
وَتَعَمَّ الْفَرَحُ الدِّيَارَ الْعَرَبِيَّةَ ، وَبَيْنَى ابْنِ سَنَاءِ الْمَلِكِ صَلَاحَ الدِّينِ بِهَذَا النِّصْرِ الْمُبِينِ قَائِلًا :

لَسْتُ أَدْرِى بِأَيِّ قَحَرٍ نُهُتَا	يَا مُنِيلَ الْإِسْلَامِ مَا قَدْ تَمَنَّى
أَنْهَيْكَ إِذْ تَمَلَّكَتَ شَامَا	أَمْ نُهَيْتَكَ إِذْ تَمَلَّكَتَ عَدَنَا
قَدْ مَلَكَتِ الْجَنَانُ قَصْرًا فَقَصْرَا	إِذْ فَتَحْتَ الشَّامَ حِصْنًا فَحِصْنَا
لَكَ مَدْحٌ فَوْقَ السَّمَوَاتِ يَنْشَا	وَعَمَلٌ فَوْقَ الْأَسْنَةِ يُبَيِّنَا
حَمَلُوا كَالْجِبَالِ عُظْمًا وَلَكِنْ	جَعَلَتْهَا حَمَلَاتُ خَيْلِكَ عَيْنَا ^(١)
لَمْ تَلَقِ الْجُيُوشَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ	لَكَ لَاقِيَتُهُمْ بِلَادَا وَمُدْنَا
وَتَصِيدَتْهُمْ بِحُلُقَةٍ صَبِيدِ	بِجَمْعِ اللَّيْلِ وَالْغَزَالِ الْأَغْنَا ^(٢)

(١) يشير إلى الآية الكريمة : (وتكون الجبال كالعهن) (٢) الغزال الأخضر : الذى يخرج صوته من خياشيمه .
المقوش) . والعهن : الصوف .

والقصيدة مديح رائع وتحمل كثيرا من الصور المبتكرة ، وقد مضى فيها بصور أخذ صلاح الدين لصليب الصليبيات الذي يزعم المسيحيون أن المسيح صُلب عليه ، وبغيره بإحراقه ، كما يصور أخذه لطبرية وعكا ونابلس وبيت جبريل وتينين وغيرها من مدن الشام وحصونه ، وذكر فتكه بأرناط صاحب الكرك بيده جزاء وفاقا لسوء فعله وقوله لتعرضه القبيح للحجاج المصريين ولإعداده أسطولا - كما مر بنا - لغزو مكة والمدينة ، ولما نُقل إليه عنه من استخفافه بالرسول عليه السلام .

ومدائحه في القاضي الفاضل كثيرة حتى تُعَدَّ بالعشرات ، إذ كاد لا يترك مناسبة دون أن يهديه من أشعاره ، فهو يهديها له في الأعياد وفي القدوم من الشام ومن الحج وفي انتصارات صلاح الدين ، إذ كثيرا ما يتوَّه بها في مدائحه له ، وهو فيها يبالغ مبالغات كثيرة من مثل قوله :

صوّر الله ذلك الشخصَ نورًا وجميعُ الأنام ماءً وطنٌ

وقوله :

وما الدهرُ إلا خادمٌ أنت ربُّه وما الخلقُ إلا عالمٌ أنت فاضلهُ

وقوله :

الدهر مدٌّ إليه كفُّ مفتقرٍ لهُ للدهر منه لحظٌ محترٍ
في كفه قلمٌ إن شئتَ أو قُلرٌ يصرفُ الخلق بين النفع والضررِ

وهو يكرر معنى البيت الثاني ويطيل فيه ، وله يقول :

بمؤمنٍ رأيتُ كان الفتحُ ومنصورٍ عزمك كان القلبُ
وكثيرا ما يردد هذا المعنى وكأنه يشير إلى قولة صلاح الدين المشهورة : لم أنتصر على الأعداء بسبي وإنما انتصرت بقلم القاضي الفاضل ، وفيه يقول واصفا كرمه الفياض :

لا يستقرُّ المال فوق بنايه حتى كأن بناه مخروقٌ
باطالين ذرى علاه توقفوا وموئلن ندَى يدبوا أفيقوا

وهما بيتان رائعان في وصف الجود ، وبحق كان القاضي الفاضل يستحق منه كل ثناء وكل تكريم فقد رعاه أعظم رعاية ، ونوه بأشعاره تنويها ليس وراءه غاية وبحق ، يقول له :
شكرى لثناك شكر الأرض للمطرِ أولا فشكر سواد العين للنظرِ

فهو يشكره شكر الأرض المجدبة للفيث المدرار الذى يجي مواته ، بل شكر سواد العين لنور
البصر الذى يصلها بالوجود ومشاهده . وله فيه صور كثيرة مبتكرة مثل قوله فى جوده المنهر على
الناس :

وقصر البحرُ عنه فهو مكتسبٌ أما تراه بكفى موجو التطمأ
وولتِ السحبُ - إذ جارته - باكيةً أما ترى الدمع من أجفانها انسجماً

فالبحر يشعر إزاء كرمه بقصوره حتى ليندب حظه ويلطم وجهه بكفى موجه ، وإن الفيث
ليكى بدموع غزار لاتزال تنهل . ونحس بفرحة تسرى فى كثير من مدائمه للفاضل كما نحس خفة
الظل الذى يشهر بها المصريون وخاصة فى تخلصاته من الغزل إلى المديح كقوله :

صَنتَ بطرفِ ظلٍ يُعْدى سقمُهُ أَرَأَيْتُمْ مَنْ صَنَ حَتَّى بِالضُّنَا
إِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ ثُمَّ رَأَيْتَهَا مَاذَا عَلَى إِذَا هَوَيْتُ الْأَحْسَنَا
وَسَأَلْتُ مِنْ أَيْ الْمَادَنِ نَقَرَهَا فَوَجَدْتُ مِنْ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْمَعْدِنَا
أَبْصَرْتُ جَوْهَرَ نَقَرَهَا وَكَلَامَهُ فَعَلِمْتُ حَقًّا أَنَّ هَذَا مِنْ هُنَا

وَصَنَ صاحبه بالطرف وعدواه وضئها حتى بالسقم أو بالضنأ غريب ، وتلطف فى التخلص
من الغزل إلى مديح القاضى الفاضل عبد الرحيم ما شاء له التلطف والرشاقة وخفة الروح وعذوبة
الكلم . وله فى غزله كثير من هذه التصاویر المبتكرة ، كقوله :

أَقَمْتُ عَلَى عَاشِقِكَ الْقِيَامَةَ بوردٍ لَحْدٌ وَغُصْنٍ لِقَامَةَ
فَيْنَ وَرَدٍ خَدُّكَ كَيْفَ النَّجَاةُ ؟ وَمِنْ غُصْنٍ قَدُّكَ كَيْفَ السَّلَامَةَ

وقوله :

وأشكو إلى ليلِ القَدَائِرِ غَدَرَهَا وأملى عليه وهو فى الأرض يكتب

وقوله :

أَلْقَى حَبَائِلَ صَبِيٍّ مِنْ ذَوَائِبِ فَصَادَ قَلْبِي بِأَشْرَاكِ مِنَ الشُّعْرِ

وقوله :

لَا تَحْشَ مِنْ فَنَى كَالنِّسِيمِ ضَنَا وَمَا الثِّيمُ بِمَخْنَى عَلَى الْفُصْنِ

وقوله :

يُعَانِقُهَا مِنْ دُونِي الْعِقْدُ وَحَدَهُ فَا عَجَبًا يَاقَوْمُ هَلْ بَقَلْتُ الْعِقْدُ

وقوله :

سَأَتْنِي مَا حَالُ قَلْبِكَ بَعْدِي رُبَّةَ الْيَتِ أَنْتِ بِالْيَتِ أَخْبَرِ

وهو باب واسع عند ابن سناء الملك ويدل على شاعرية خصبة وأنه كان ما يزال يغمص وراء التصاوير حتى يأتي منها بفرائد عجيبة ، مع حلاوة الأسلوب وعذوبته ، مما يدل على أنه كان شاعرا مبدعا إلى أبعد حدود الإبداع . وسنعود إليه مرارا في عرض موضوعات الشعر الأخرى سوى المديح .

ابن نباتة^(١)

هو جمال الدين محمد بن محمد بن شرف الدين محمد ، من سلالة عبد الرحيم ابن نباتة خطيب سيف الدولة المشهور ، وقد غلبت عليه نسبة إليه . كان أبوه وجده من شيوخ الحديث ، وقد ولد لأبيه بزقاق القناديل في القاهرة ، واختلف من ترجموا له في سنة ولادته هل كانت سنة ٦٧٦ أو سنة ٦٨٦ وجمهورهم يؤكد أنه ولد في السنة الأخيرة ، غير أن هناك نصا عنه يذكر فيه أساتذته أو شيوخه في الأدب ، ويذكر من بينهم محيي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وليس من المعقول أن يتلمذ له ويأخذ عنه الأدب وهو في الخامسة أو السادسة من عمره ولذلك كنا نرجح أنه ولد في سنة ٦٧٦ على الأقل إن لم يكن قبيل ذلك . ويذكر مترجموه كثرة من شيوخه في الحديث من بينهم أبوه وجده . وتنقل في حلقات شيوخ الأدب وتفتحت موهبته الأدبية في الشعر والنثر مبكرة . وكان كثير من العلماء في مصر يرحونها إلى دمشق والشام في تلك المحبة . وبالمثل كان كثير من علماء الشام يرحونها إلى مصر والقاهرة ، ويبرح أبوه مصر إلى الشام

مواضع متفرقة وكتاب ابن نباتة المصري لعمر موسى (طبع دار المعارف) والأدب في العصر المملوكي لمحمد زغلول سلام (طبع دار المعارف) ٢٢١/٢ وطبع ديوانه قديما في مصر وهو في حاجة إلى طبعة محققة ، ومنه مطبوعات كثيرة في مكبات العالم العربي والغربي

(١) انظر في ابن نباتة وشعره الدرر الكامنة ٣٣٩/٤ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وطبقات الناضية للسبكي ٢٧٣/٩ والوافي بالوفيات للصفدي ٣١١/١ والبداية والنهاية لابن كثير ٣٢٢/١٤ والتحرير الفزارة ٩٥/١١ وشمس الزمان للذهب ٢١٢/٦ والبرر الطالع ١٥٢/٢ وخزانة الأدب للحموي في

حوالى سنة ٧١٠ وبنزل دمشق ، وبأخذ الطلاب عنه الحديث^(١) ، ويستقر بها ويتولى فيما بعد مشيخة الحديث بالمدرسة الظاهرية هناك . ولعل ارنحال أبيه عن مصر هو الذى حُبب إليه الرحلة وراه إلى دمشق واتخاذها منذ سنة ٧١٦ دار مقام له ، وظل بها مدة تقارب نصف قرن أو بعبارة أدق نحو خمسة وأربعين عاما ، وقد ظل يحن إلى مصر حينما متصلا بمثل قوله :

أَوْ لِمَصْرَ وَأَرْضَ مِصْرَ وَكَيْفَ لِي بِدِيَارِ مِصْرَ مَرَاتِعًا وَمَلَاغِبًا
حَيْثُ الشَّيْئَةُ وَالْحَيِيَّةُ وَالْوَفَا فِي الْأَقْرَبِينَ مِثَارِيًا وَأَصْحَابًا
وَالدَّهْرُ سَلَمٌ كَيْفَمَا حَاوَلْتُهُ لَا مِثْلُ دَهْرِي فِي دِمَشْقَ عِجَارِيَا

وقواده يهفو إلى مصروتراب مصر ونبل مصر ورياض مصر ومراتع صباه بها وملاعبه ، ويقول إنها ديار شبابه وحبه وديار الوفاء في الأقرباء وغير الأقرباء وديار الأمن والسلام ونعيمه . وفى أثناء مقامه بدمشق كان يتردد على حلب ، وبالأخص على حماة وصاحبها المؤيد أبى الفداء الذى استقبله أروع استقبال ، وقرر له راتباً سنوياً : ستمائة درهم غير ما كان يسبغه عليه من العطاء كلما قدم عليه بمدحه من مدائمه ، وظل يفد عليه حتى توفى سنة ٧٣٢ فوفد على ابنه الأفضل من بعده .

وفى دمشق والشام تفجر ينبوع الأشعار عند ابن نباتة حتى أصبح - كما يقول ابن كثير والسبكي - حامل لواء الشعر فى زمانه ، غير منازع ولا مدافع . وأروع أيامه حيثئذ أيام اتصاله بالسلطان المؤيد ، ونراه لا يكتفى بما يقدم إليه من مدائح ، بل يؤلف الكتب باسمه ويهديها له مثل كتابه « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » وهى الرسالة الهزلية ، ومثل كتابه « مجمع الفوائد » . وكان قد قرظه كثيرون من فضلاء دمشق وعلمائها وأدبائها ، مما جعله يؤلف فيهم كتابه « سجع المطوق » مترجماً لهم ، وهو كتاب نفيس لا يزال مخطوطاً . ونراه فى هذه الفترة : فترة اتصاله بالسلطان المؤيد وثيق الصلة بشيوخ دمشق وأعلامها ، من مثل ابن الرُّمْلَكَانِي وابن صَصْرَى القاضى والشهاب محمود شاعر الشام وتقى الدين السبكي وابنه تاج الدين وابن فضل الله العمري ، وله فيهم جميعاً مدائح بديعة . وكان ابن فضل الله يتولى كتابة السرى فى دمشق ، فكان

(١) انظر ترجمته فى الرائق بالوفيات ٢٧٠/١ واللمع

طبيعياً أن يقرب ابن نباتة ويعهد إليه بكتابة التوقيع . وكان أحياناً يُنزل عنها وأحياناً يعود إليها حتى سنة ٧٦٦ . وفي هذه السنة استدعاه الناصر حسن سلطان مصر والشام إلى القاهرة في ربيع الأول وأمر أن يُصَرَّفَ له ما يتجهَّز به وأن يرد عليه ما انقطع عنه من الراتب ، وعينه موقفاً للدُّسْتِ وكانت قد تقدمت سنة ، فلم يستطع القيام بتوقيع الدُّسْتِ ، فأعفاه السلطان حسن من الحضور وأمر بإجراء راتبه عليه ، كما أمر بنسخ ديوانه وحفظ نُسخٍ منه في المكاتب السلطانية . وبذلك أُمِّرَ على الشعراء ، مما جعله يلهج بمدحه والثناء عليه . ولم يلبث السلطان حسن أن توفى ، وكان راتبه ربما صُرف له وربما لم يصرف حتى توفى بمارستان قلاوون سنة ٧٦٨ للهجرة .

وكان نَجِّحُ الشعر عند ابن نباتة فياضاً ، فله بجانب ديوانه الكبير ديوان سماه « القطر النباتي » وهو خاص بمقطوعاته الشعرية ، والقطر السكر والتورية في اسم الديوان واضحة ، يريد السكر النبات . وله ديوان خاص بغزلياته سماه « سوق الرقيق » . وديوانه الكبير يكتظ بالمدايح ، وعُني كثيرون من معاصريه بمعارضته في بعض قصائده ، واشتهر الصفدي بكثرة إغاراته على معانيه ، وخاصة على تورياته البديعة وكان مغرماً بصنعها ، وألف في سرقات الصفدي منه كتاباً سماه « خبز الشعير » يريد أن سرقاته كخبز الشعير المأكول المنوم ، واستهل خطبة هذا الكتاب بالآية الكريمة : (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا) ويورد دائماً أبيانه موضع السرقه ، ثم يورد سرقه الصفدي مثل قوله في الغزل مورياً .

ومولع بفيخاخر بمدها وشبالم
قالت لي العين ماذا يعيدُ قلت كراكي

ويقول الصفدي :

أغار على سرح الكرى عند ما رمى الـ سكرافي غزالاً للبدور بحاكي
فقلت ارجعي يا عين عن ورد حسنٍ ألم تنظري كيف صاد كراكي
والكرى : النوم ، والكرافي طير مفردة كركي . والتورية واضحة عند ابن نباتة وخفيفة رشيقة وقد أحالها الصفدي ثقيلة بما أضاف إليها من شرح وتطويل ، ومن ذلك قول ابن نباتة متزلاً :

فديتك أيها الرامي بقوسٍ ولحظي يا ضناً قلبى عليه
لقوسك نحو حاجبك المجذاب وشية الشيء منجذب إليه

ويقول الصفدي :

نَشْرُطُ مَنْ أَحَبُّ فَذُبْتُ وَجَدًا فَقَالَ وَقَدْ رَأَى جَزَعِي عَلَيْهِ
عَقِيقُ دُمِي جَرَى فَأَصَابَ خَدِّي وَشَيْئُهُ الشَّيْءُ مَنْجَذِبٌ إِلَيْهِ
وَتَشْبِيهِ الْحَاجِبِ بِالْقَوْمِ وَالْمَجْذَابِ إِلَيْهِ طَلِيعِي ، أَمَا الْمَجْذَابُ الدَّمُ إِلَى الْخَدِّ وَتَشْبِيهِهِ بِهِ فَافْرَمْنِي
بَعِيد .

وابن نباتة في شعره يمثل بحق ما تمتاز به الروح المصرية من الحفّة والإشافة . وبذكر السبكي في كتابه طبقات الشافعية أنه مدح ابن الزُّمْلَكَاني نباتية رائعة بدأها بالقرن ووصف الخمر ، وأنشدها ثم قال : « حاول أدباء عصره معارضة فيها فلم يحسنوا إحسانه ، بل قصّروا وتأخروا ولم يلحقوا شأواه^(١) . وأروع مدائحه ما نظمه في المؤيد صاحب حماة وابنه الأفضل ثم بعد ذلك في السلطان حسن ، وقد ذُبح في المؤيد نحو أربعين قصيدة ومقطوعة من مثل قوله :

لَوْ أَنَّ لِلْبَحْرِ جَنَدَاءَ لِفَاضَ عَلَى وَجْهِ الثَّرَى بِنَفِيسِ الدَّرِّ مَنْصُودٍ
وَلَوْ أَمُرُّ عَلَى صَلْدِ الصَّفا يَدَهُ لِأَنِّتِ الْعُشْبَ مِنْهَا كُلُّ جُلُودٍ
بِاحْجَاذِ الْمَلِكُ السَّارَى عَلَى شَيْمٍ تَرَوِي وَتُنْقَلُ عَنْ آبَانِهِ الصَّيْدِ
أَغْنَى الْعَفَا فُلُولَا نَاهِيَاتُ نَفَى - أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ - سَمَوَهُ بِمَعْبُودٍ

وهو دائم الإشادة بحجوده الفياض على العفا والسائلين ، ويكثر من مديح أسرته الأيوبية وآبانه الصيد الشجعان وما شادوا لأنفسهم من بيت فخار مثوّه في أعلى السموات ولا يزال يتألق ويضيء بين الكواكب . وكان المؤيد مؤرخا كبيرا ، وعالما في العربية والفقه والأصول والطب والفلك والمنطق والفلسفة ، وبنوه ابن نباتة مرارا بعلمه من مثل قوله مشبرا إلى تصانيفه الكثيرة :
العالمُ الملكُ السَّيَّارُ سُوْدُوهُ فِي الْأَرْضِ سَيَّرَ الدَّرَارِي بَيْنَ أَفْلَاقِ

وقوله :

وللعلوم تصانيفٌ بَدَتْ فَهَدَتْ نَمِ السَّوَارُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالسُّورُ
وكان مولعا بالتورية كما أسلفنا ، وكان يدخلها في مدائحه للمؤيد ، وورى كثيرا باسم مديته حماة عن الحماة الحقيقية ، ومن تورياته الطريفة في مديحه قوله :

أَفَسْتُ مَا الْمَلِكُ الْمَزِيدُ فِي الْوَرَى إِلَّا الْحَقِيقَةُ وَالْكَرَامُ بِجَازٍ
هُوَ كَعْبَةُ لِلْفَضْلِ ، مَا بَيْنَ الثَّدَى مِنْهَا وَبَيْنَ الطَّالِبِينَ حِجَازُ

وواضح أنه ورى في كلمة « حجاز » فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للحقيقة ، وإنما أراد بها المعنى البعيد وهو المَعْبَرُ ، وورى في كلمة « حجاز » فلم يرد بها المعنى القريب الذى تشير إليه كلمة الكعبة وهو الحجاز إقليم الكعبة المعروف ، وإنما أراد المعنى البعيد وهو الحجاز ، ومن ذلك قوله في مديح المريد :

يَذْكُرُنَا أَنْخَبَارَ مَعْرِى بِجُودِهِ وَنُشَى لَهُ لَفْظًا فُبْنَى لَنَا مَعْنَا

ومعنى بن أوس المرنى مشهور بجوده في مفتح العصر العباسى شهرة حاتم في الجاهلية ، وقد ورى آخر البيت في مدلول كلمة معنى ، فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للفظ وإنما أراد بها معنَا المرنى .

ومملوحه الثانى فى الديوان بعد المريد ابنه السلطان الأفضل ، وقد أنشده حين تولى إمارة حماة بعد أبيه تهته بسلطته وتعزية له عن أبيه ، تُعَدُّ من فرائد الشعر العربى ، وفيها يقول :

هناة بما ذاك العزاء المقلما	لما عسى الهزون حتى تبسما
ثغور ابتسام في ثغور مدامع	شبهان لا يمتاز ذو السبق منها
مليكان هذا قد هوى لضربحه	برغى وهذا للأسرة قد سآ
كان ديار الملك غاب إذا انقضى	به ضيعم أنشأ به الدهر ضيما
فإن بك من أبواب نجم قد انقضى	قد أطلعت أوصالك الر أنجما
وإن تلك أيام المريد قد مضت	فقد جددت عليك وقتا وموسما
هو الغيث ولّى بالثاء مشيما	وأبقاك بحرا بالمواهب متعما

وعلى هذا النحو تمضى تهته الأفضل جامعة بين النقيضين في كل بيت : بين المدح والثناء ، وفى ذلك ما يصور براعة ابن نباتة وحدة ذهنه وذكاؤه وخصب شاعريته وسهولة أسلوبه ، وهى سهولة تتم سهولة أشعار ابن سناء الملك ، بل سهولة أشعار المصريين عامة ، سهولة تغنن بعذوبة ، وكأنها نفس عذوبة مياه النيل ، وكان يحس ذلك معاصروه إزاء أشعاره وما تغنن به من حلاوة ، فقالوا إن أشعاره سكر نبات أو قطر نبات . وله فى مديح الأفضل وآبائه الأيوبيين :

قَوْمٌ لَذِكْرَاهُمْ عَلَى صُحُفِ الْعُلَا
 الْمَلِكُ بَعْضُ دِيَارِهِمْ فَلْيَتَرَلَوْا
 إِنْ يَتَّقَ مَاضِيَهُمْ عَلَى سَنَنِ الْوَقَا
 مِلَاتٍ مُوَاجِهَةِ الْقُلُوبِ مَهَابَةً
 وَكَأَنَّمَا أَفْلَامُهُ بِسَوَادِهَا
 لَا عَيْبَ فِيهِ سَرَى الْعِزَامُ فَصُرَتْ
 أَصْلُ الْفَخَارِ وَكُلُّ ذِكْرِ مُلْحَقُ
 وَالنَّجْمُ بَعْضُ جِلْدِهِمْ فَلْيَتَرَقُوا
 فَلَانِهِمْ بَقَاءُ أَفْضَلِهِمْ بَقَا
 فَالْقَلْبُ قَبْلَ الطَّرْفِ فِيهَا مُطْرَقُ
 غُرْبَانُ يَتَنَوَّى فِي الْخِزَانِ تَتَنَقَّى
 عَنْهَا الْكَوَاكِبُ وَفِي بَعْدُ تَحْلُقُ

وواضح أنه مع سهولة الأسلوب في القصيدة نحس كأن الألفاظ يستدعي بعضها بعضا مع جمال التصاوير فالقلب مطرق قبل العين هية ، والأفلام كأنها غربان فراق لخزائن الأمير مارتل تنق في أموالها بالبين والبعد إلى غير مأب ، وعزائم الأفضل ماتي مخلقة في السموات البعيدة ، حتى لتطو الكواكب في تحليقها المتخلخل في الفضاء ، وإن قومه لأصل الفخار وكل فخر لغبرهم إنما هو ملحق بغبرهم . وكان قد خرج مع الأفضل في رحلة صيد ، فوصفها في أرجوزة طويلة نفت على مائة وستين بيتا ، وصف فيها رياض حسانة ثم أطنب في وصف القنص بالشواهين والصقور والكلاب والبندق بمثل قوله :

وَكُلُّ شَاهِينٍ شَهَى الْمُرْتَمَى
 يَنَا تَرَاهُ ذَاهِبًا لَصِيدُو
 حَتَّى تَرَاهُ عَائِدًا مِنْ أَقْبَى
 وَكُلُّ صَفِيرٍ مُسْبِلِ الْجَنَاحِ
 ذُو مَقْلَقٍ لَهَا ضَرَامٌ وَاقِدُ
 كَأَنَّمَا الْخَطْبُ مِنْهُ يَنْجَلُ
 وَكُلُّ مَنْسُوبٍ إِلَى سَلَوِي
 طَاوِي الْفَزَادِ نَاشِرِ الْأَطَاوِي
 بِمَعْضٍ بِالْبَيْضِ وَيَغْطُو بِالْقَتَا
 كِبَارِي طَارٍ وَصَوْبٍ قَدْ هَمَّا^(١)
 مَحْتَصِمًا بِأَيْدِيهِمْ وَكَبِيدُو^(٢)
 مَلْتَزِمًا طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ
 مُوَاصِلُ الْغَدُوِّ وَالرُّوَاخِ^(٣)
 يَكَادُ يَشْوِي مَايَصِيدُ الصَّائِدِ
 لِحَصْدِ أَعْمَارِ الطَّيْرِ مَرْسِلِ
 أَهْرَتَ وَثَابِ الْخُطَا مَحْشُوقِ^(٤)
 بِأَعْجَابٍ مِنْهُ لَطَاوٍ نَاشِرِ
 وَيَسْبِقُ الْوَهْمَ لِإِدْرَاكِ الْمَنَى

(١) صوب : للطير . ما : سال
 (٢) الأبد : القبرة
 (٣) سبل : مرسل
 (٤) سلق : تب إليها كلاب الصيد السلوقية . أهرت : واسع الفتق .

وأما نخلنا بهذه الأبيات جميعها من الأرجوزة لدل على أن أرجوزة الطرد والصيد الملية بالألفاظ الغريبة عند أبي نواس ومن جاموا بعده استحالت إلى هذه اللغة السهلة عند ابن نباتة بفضل مهارته الأسلوبية ، والأبيات محمله بصور بديعة ، فقطة الصقر كأنها شعلة نار ومخلبه كمنجل يحصد من الطير الأعمار ، وكل كلب سلوق يعض بأسنانه الحاذة ويخطر بسيقان كأنها القنا أو الرماح القاتلة . ونخم الأرجوزة بمدح الأفضل ويحق سماها : « نظم السلوك في مصايد الملوك » .

ومحموده الثالث السلطان الناصر حسن ، مدحه بأخرة من حياته حين ألقى عصاه بالقاهرة ، وليس في مدحه له الحرارة التي ألناها في مدح الأفضل وأيه المؤيد ، وقد يكون ذلك لتقديم سنه ، وله بقول :

يَنَاصِرُ الدِّينَ وَالدُّنْيَا لَقَدْ نَفَذْتُ أَقْلَامُ مَدَحِكَ فِي الدُّنْيَا بِسُلْطَانٍ
دَانَتْ لَكَ الْخُلُقُ مِنْ بَدِيٍّ وَمِنْ حَضَرٍ وَقَاضٍ جُودُكَ فِي قَاصِرٍ وَفِي دَانِي
هَذِي الْمَدَائِنُ مِنْ أَقْصَى مَشَارِقِهَا لَنْتَهَى الْغَرْبُ فِي طَوْعٍ وَإِذْعَانِ

وله وراء مدح السلاطين والأمراء والعلماء والكتاب مدح نبوى رائع . وبينه وبين صلاح الدين الصفدى محاورات ومراسلات ومعاتبات ، وأرسل إليه الصفدى قصيدة عتاب جعل شطورها الثانية أعجاز معلقة امرئ القيس ، مفتتحاها بقوله :

أَفَى كُلِّ يَوْمٍ مِنْكَ عَتَبٌ يَسُوهُنِي كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عُلَى

« ولعله كان يعاتبه لتسجيله عليه سرقاته منه في كتابه « خبز الشعير » الدالف . وصنع ابن نباتة صنيعة فرد عليه بقصيدة من نفس الطراز شطورها الثانية مقبسة من نفس الشطور في معلقة امرئ القيس استلها بقوله :

فَطَمْتُ وَلَالِي ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَاتِبَا أَقَاطُمُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدْلِيلِ
وَابْنُ نَبَاتَةَ كَثِيرُ الشُّكْوَى فِي شَعْرِهِ مِنْ بُوْسِهِ وَرَقَّةُ حَالِهِ ، وربما صدق ذلك على أيامه قبل لقاء السلطان المؤيد الذي غمره بتواله ، وربما كان لكثرة عياله أثر في ذلك ، بل إنه يعلن هذه الكثرة في مثل قوله :

لَقَدْ أَصْبَحْتُ ذَا عُنُرٍ عَجِيبٍ أَقْصَى فِيهِ بِالْأُنْكَادِ وَقَى
مِنْ الْأَوْلَادِ خَمْسُ حَوْلِ أُمِّ فَوَاحِرَاهُ مِنْ خَمْسِ رَيْثِ

وكلمة ست لا يريد بها العدد كما يتبادر ، وإنما يريد أم عياله ، ويسمى بها أو مبدته . وكان مرزاً ، حتى ليقول ابن تغرى بردى فى ترجمته بالمنهل الصافى إن كثيرين من أولاده توفوا فى سن الخامسة والسادسة والسابعة ، فكان يألم لهم ويرثيهم مرثى كريمة ، وله رثاء حار فى السلطان المؤيد وابنه الأفضل . ويقول الشوكافى : هو أشهر المتأخرين ولاسيما فى الغزليات .

عبد الله^(١) الشبراوى

من بيت علم وجلالة ، كما يقول الجبرئى ، ولد فى سنة ١٠٩٢ ومضى فى نعمة أظفاره يحفظ القرآن الكريم ، ثم اختلف إلى الشيوخ بالأزهر يأخذ عنهم الفقه الشافعى ، وسرعان ما ظهرت براعته ، فأمل وحاضر الطلاب . واعترف له الجميع بالفصل والتعمق فى الشريعة والعلوم الدينية ، مما أتاح له أن يتولى مشيخة الأزهر فى سنة ١١٣٧ . وكان له جاه رفيع ومترلة عظمى عند الأمراء ورجال الدولة ، وكانت كلمته لديهم نافذة وشفاعته مقبولة . وصار لأهل العلم فى مدة مشيخته للأزهر مقام على هبة وتجلت عند الخاص والعام ، ومن مؤلفاته عنوان البيان وبستان الأذهان فى الأدب والسلوك والأخلاق وشرح الصدور بغزوة بدر والإنحاف بحب الأشراف وديوان منائح الألفاف فى مدائح الأشراف ، وكلها مطبوعة بالقاهرة من قديم . يقول الجبرئى : « وله ديوان يحتوى على غزليات وأشعار ومقاطع مشهور بأيدى الناس » . ومازال يتولى مشيخة الأزهر حتى وفاته سنة ١١٧١ عن نحو ثمانين سنة .

وللشبراوى مدائح فى ولاية مصر العثمانين ، وأهم وال دُيِّع فيه مدائحه عبد الله الكبورى أو الكبورى لأوائل العقد الخامس من القرن ، وكان جديراً حقاً بمدحه له ، إذ يقول الجبرئى عنه : « كان خيراً صالحاً متقاداً إلى الشريعة أبطل الفحارات والمنكرات » ويقول : « إنه كان من أرباب الفضائل وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى الأدب » ، ويذكر أن للشبراوى فيه مدائح طنانة ، وفيه يقول :

سليُّ المكرمات ابنُ الكبورى كريمُ الطبع والأصل الشهير
أقام العدلَ فى مصرٍ وأحيا معالِمَها بها بعدَ الدُّثورِ

وإن لمعت صوارمه بأرضي تسارعت العصاة إلى القبور
وإن حادثته في العلم تلقى بحورا موجها در الشجر
وإن ساوته شعرا فحدث عن ابن أبي ربيعة أو جرير
وإن نسمع تلاوته تجده حكى داود بلهج بالزبير
أدام الله دولته بمصر ومثنا به دهر الدهور
وأنتنا به من كل كزبر وكث بعزمه أهل الفجور

ونسج القصيدة جيد ، والشراوى بمدح الكجورى بقضائه على أهل الفجور وإشاعته للعدل الذى لا تصلح حياة الأمة ببلونه ، ويؤده بعلمه وحسن تلاوته للذكر الحكيم كما ينوه بشعره ونثره . وقد مضى في القصيدة بمدحه بيلاغته وتفوقه على نوايغ الشعراء من أمثال ابن هانئ الأندلسى ونوايغ الكتاب من أمثال الحريرى . وكثرت منذ زمن المالك تقاريط الكب والمصنفات الأدبية والبلاغية ، وللشراوى من تقريظ لبدبعية وشرحها لعل بن تاج الدين :

أذاك نسر نبم أم ذاك لطف نجم
أم روضة قد تفتى شخروها ونرم
أم الصبا حين هبت أزال المم والقم
قد كنت أعب دهرى وأحب الدهر أعقم
حتى رأيت عجيبا من فضلك الباهر الجم
فكل لفظك لطف وكل معنك محكم

والتقريظ طويل إذ تحول به الشراوى إلى مدحة بشيد فيها بعلم على بن تاج الدين وحفظه وفهمه كما بشيد بنثه وشعره وذكائه وبراعته . وكان من عادة الشعراء حين يتولى أمير أو يتوفى هو أو بعض العلماء أو الأدباء أن ينظموا أبياتا في تلك المناسبة ، إذا حُبت حروف الكلمات في شطرها الأخير بحساب الجمل أرخت لسة الوفاة أو الولاية ونحو ذلك . وكان الشراوى يشارك في هذا الصنيع ، من ذلك تأريخه لوفاة الشيخ أحمد الدلنجاوى شاعر وقته المتوفى سنة ١١٢٣ للهجرة :

سألت الشعر هل لك من صديق وقد سكن الدلنجاوى لحنة
فصاح ونثر منثيا عليه وأصبح ساكنا في القبر عنده
فقلت لمن أراد الشعر أقصر فقد أرخت : مات الشعر بعده

وللشيخ الشبراوى بعض غزليات رقيقة ، كان يفرد لها أحياناً مقطوعات قصيرة ، وأحياناً يجعلها في مقدمات مدائمه على عادة الشعراء السابقين ، ومن قوله في مقدمة إحدى مدائمه لعبد الله الكبورى :

أَعِذْ خَيْرَ الْعَذِيبِ وَسَاكِنِيهِ وَكَرَّرْ طِيبَ ذِكْرِهِمْ عَلَيَّ
فَلَنَهُمْ - وَإِنْ هَجَرُوا وَصَدُّوا أَحَبُّ النَّاسِ كُلِّهِمْ إِلَيَّ

وواضح أن صياغة الشبراوى جيدة ، وفي شعره وشعر أمثاله من معاصريه ما يدل على أن الشعر كانت لاتزال فيه أيام العثمانيين بقية من حيوية وحياة .

٥

شعراء المراتى والشكوى

نشط الرثاء في مصر من قديم ، وتلقى به زمن الولاة في العهد الأموى ، ولعل أهم وال رثاء الشعراء حين موته عبد العزيز بن مروان ، وكان - كما مرّ بنا - ممدّحاً ، وتصادف أن توفى بعد وفاة ابنه الأصغر بنحو شهر ، فيكاهما الشعراء ، وسجل الكندى بكاهم لهما في كتاب الولاة والقضاة كما سجل بكاهم لدارهما المذهبة حين أمر مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بحرقها وهو فارّ بمصر وجيش العباسيين بطارده ، وكان عبد العزيز قد تأنق فيها ، وكأنما عزّ على مروان أن تحبّر للعباسيين .

وغضى في زمن الولاة وتلقانا في كتاب الولاة والقضاة مراثٍ مختلفة لغير منهم ولبعض الشخصيات العربية ، وفي رأينا أن أهم مراثية خلفتها تلك الحقبة مراثية المعلّى الطائى لجارته ، وقد أشرنا إليها فيما أسلفنا من حديث . وتطلّ الدولة الطولونية مصر ، ومرّ بنا ما كفت لمصر من استقلال عن بغداد ومن نهضة عمرانية وعلمية وأدبية وما أقامته من آثار عظيمة في مقدمتها قصر ابن طولون وميدانه الذى حوله خمارويه إلى بستان رائع واتخذ فيه بركة من الزئبق ، واتخذ لنفسه في قصره مجلساً سماه مجلس الذهب نُقش على جدرانهِ صور بارزة له ولخطاياه وعلى رموسه أكاليل الذهب المرصعة بالجواهر . وأعدت الدولة على الشعراء إغداقاً واسعاً ، فلما قضى عليها جيش الخلافة العباسية بقيادة محمد بن سليمان - كما أسلفنا - وهُدمت آثارها بكاهها الشعراء وبكوا آثارها

بلموع غزار من مثل قول إسماعيل بن أبي هاشم ^(١) :

قِفْ وَفَقَّهْ بَفَنَاءِ بَابِ السَّاجِ وَالْقَصْرِ ذِي الشُّرَفَاتِ وَالْأَبْرَاجِ ^(٢)

وربوع قوم أزعجوا عن دارهم بعد الإقامة أيسا ازعاج

فانظروا إلى آثارهم تلقى لهم علما بكل نتيحة وفجاج ^(٣)

ولسعيد القاصر مربية طويلة للدولة وآثارها احتفظ بها الكندي ^(٤) في كتابه الولاية والقضاء ، واقتطف بعض أبياتها ابن تغري بردي وأنشدها مع ما أنشد من مرثي الشعراء للدولة وما كانت أقامت من قصور ومبان وآثار فخمة ضخمة ، ومن قول ابن أبي هاشم مخاطبا القصر وقد خلا من سكانه :

بالله عندك عِلْمٌ من أَحْبَبْنَا أَمْ هَلْ سَمِعْتَ لَهُم من بعدنا خبرا

وتكاثرت الشعراء - كما مر بنا في غير هذا الموضع - لعهد الدولة الإخشيدية ، غير أنهم لم ييكوها حين دخل جوهر الصقلي مصر واستولى عليها باسم إمامه المعز لدين الله سنة ٣٥٨ وقد يرجع ذلك إلى أن مدة الإخشيد لم تَطُلْ ، وخلفه ابنه أنوجور حتى سنة ٣٤٩ فأخوه على حتى سنة ٣٥٥ وكان كافور مدبر مملكتها ، ولم يكن لها من السلطان شيء . وخلف عليا كافور حتى سنة ٣٥٧ وتوفي فخلفه أحمد بن علي بن الإخشيد وعمره إحدى عشرة سنة ، واضطربت أمور مصر اضطرابا شديدا ، ولم يتداركها الخليفة العباسي يتقدا ، وسرعان ما دخلت رايات المعز الفاطمي بقيادة جوهر ، واستولى على البلاد دون مقاومة تذكر ، وكأنما تنفست مصر الصعداء بزوال هذه الدولة فلم ييكوها أحد من شعرائها على نحو ما بكوا الدولة الطولونية .

وتلقانا في أوائل الدولة الفاطمية مرثي مختلفة لعيم بن المعز أول خلفائها بمصر ، وكان أكبر أولاده ، وكان المظنون أن يتخذه ولي عهده ، غير أن سيرته السيئة جعلت أباه يَصْرِفُ ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله ، حتى إذا توفي مبكرا سنة ٣٦٤ حولها إلى أخيه نزار الذي تلقب بلقب العزيز ، ولعيم مربية في أخيه عبد الله مطلعها ^(٥) :

كَلَّ حَيًّا إِلَى الْفَنَاءِ بِصِيرُ وَالسَّيَالِ تَعِلَّةُ وَغُرُورُ

وكان ابن طولون قد بنى مدينة القطائع فوق قلعة الجبل .

(٤) الولاية والقضاء ص ٢٥٣ .

(٥) ديوان عيم بن المعز لدين الله الفاطمي (طبع دار

الكتاب المصرية) ص ١٤٧ .

(١) النجوم الزاهرة ١٤٠/٣ وانظر الولاية والقضاء ص

٢٥٢

(٢) باب الساج : أحد أبواب القصر .

(٣) التنية : الطريق في الجبل ، والفجاج : الطرق .

ويكى شابه بدموع غزار ، وما يلبث القدر أن يلم بأبيه المزعزعة ٣٦٥ ويرثه بمقطوعة قصيرة تخلو من اللوعة على فقدته ، وهو شيء طبيعي لتنجته له عن العهد . ويتوفى أخوه عقيل عن ثلاثين عاما ، ويكى فيه الحسين الشهيد وآبائه الفاطميين . ويكى جارية له بكاء فيه غير قليل من اللهفة والحسرة على ما ضاع منه فيها من الجمال وحسن الصوت والغناء وطيب المدام كما يقول ، ويكى بالمثل قينة سغية . وله في الحسين مربية رائعة ، وهو يكيه بكاء مؤثرا قائلا^(١) .

نَحَرُوهُ غَيْرَ مَلْتَمٍ نَحَرَ الْهَدَايا لِلضَّحِيَّةِ

ويصور موقعة كربلاء وما سفل فيها من دماء البيت العلوى ، ويصف موكب النساء اللاتي كن مع الحسين وهن مشهيات على ظهور الإبل إلى يزيد بالشام ولا من يرحمهن أو يشفق عليهن ، ويتوعد الأمويين بالويل والثبور والدمار ، وللمربية تكثف بالأناث واللوعات المنصبة . ونلتقى بالمسبح مؤرخ دولتهم المتوفى سنة ٤٢٠ ويذكر له ابن خلكان في ترجمته مربية لأبيه ومربية أخرى لأم ولده ، وفيها يقول^(٢) .

وباليتى للموت قُذِمْتُ قبلها وإلا فليت الموت أَذْهَبَا معا

وتكثر مرأى الشعراء خلفاء تلك الدولة ، ومن ذلك مربية أبى المناقب عبد الباقي بن حلى التنوخى للمستنصر ، إذ يقول^(٣) :

وليس رَدَى المستنصر اليوم كالرَدَى ولا أمره أمرٌ يقاسُ به أمرٌ
وقد بكت الحنساء صخرًا وإنه ليكيه من قَرَطِ المصاب به الصخر

وقلما مات وزير في العصر إلا بكاه الشعراء وبالمثل القضاة وكبار الكتاب وأصحاب الوظائف العليا في الدولة ، وتلقانا من ذلك طرائف كقول ابن قادوس الديماطى في مربية^(٤) :

يا فجعته هي في الجنان مسرةً لقدمي تخال في عرقاتها
إن كان في الدنيا عليه ماتم فأراه عرس الجور في جثاتها

وحين قضى صلاح الدين الأيوبي على هذه الدولة لم ييكنها المصريون ولا ودعوها ، لأنهم لم يكونوا راضين عن عقيدتها الإسماعيلية المفرطة في الغلو ، وكان حكمها قد فسد فسادا شديدا على

(٣) النجم الزاهرة ٢٣/٥

(١) اللؤلؤ من ٤٥٥ وما بعدها .

(٤) الحريدة (قم شعراء مصر) ٢٣١/١ .

(٢) ابن خلكان ٣٧٨/٤

نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وتكفل بذلك شاعر من شيعتها هو عماره الجني الذي ترجمنا له في الجزء السابق من هذا التاريخ للأدب العربي . ولعل بطلا لم ييكه الشعراء كما بكوا صلاح الدين عظم الصليبيين حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، وقد أقيمت عليه المآثم في غير بلد من البلدان العربية ، وراثه كثير من الشعراء ، من ذلك قول العباد الأصبهاني في رثائه ^(١) :

لأنحموه مات شخصاً واحداً قد عمّ كلّ العالمين مماتهُ
لو كان في عصر النبي لأُزِلَتْ في ذُكُرو من ذُكُرو آباءهُ
ياراعيا للدين حين تمكنت من كل قلب مؤمن روعاتهُ
فعل صلاح الدين يوسف دائماً رضوان ربّ العرش بل صلواتهُ

وهي مرثية طويلة في مائتين وثلاثين بيتاً ، صوّر فيها جهاده في الدين واستبساله في حروب الصليبيين حتى استخلص منهم بيت المقدس وأكثر بلدانهم وحصونهم في الشام ما حقاً لهم محققاً ذريعا . ويتوفى صلاح الدين ويخلفه ابنه العزيز سنة ٥٨٩ كما مرّ بنا في غير هذا الموضع ويتوفى سنة ٥٩٥ ويخلفه أخوه الأفضل وما يلبث عمّه العادل أن يستولى منه على عرش مصر ، ويعمل على نغية آثار العزيز ويكي القاضى الفاضل قصره وقصر أبيه بمثل قوله مخاطبا القصر ^(٢) .
وكم قد حَجَجْنَا فِيكَ للمجدِ كعبةً وكم قد أَلْمَأْنَا فِيكَ للحجِّ مؤسماً
وكم قد وجدنا فِيكَ رَافَةً راحيةً نَقْبُلُ إذ تُعْطَى حَظِيماً وَزَمَزَما
ولابن سناء الملك مرثية مختلفة في أصدقائه وأقربائه وأهله ، وله نذب رائع في أبيه ، تنهر فيه دموعه ، وتنسكب ، وهو يذكر تقواه ونسكه ذكرى محضة ، وما يزال بندبه ويبيكه قائلاً ^(٣) :

ويا أرضه إن ينكشف بكِ بذره لما برحت في الأرض تُكْشَفُ أَلْأَارُ

وبنفس اللوعة والحرقه لموت الأب يلتاع لموت الأم وتظلم الدنيا في عينه ، ويحس كأنما كان في فردوس معها من فراديس الجنان وأُخرج منه إلى غير أوبة يقول ^(٤) :

لَهَفَ نَفْسِي عَلَيْكَ يَا مَا بَقَلِي مِنْكَ يَا طُولَ حَسْرَتِي وَعَنَائِي
كُنْتُ فِي جَنَّةٍ فَأُخْرِجْتُ مِنْهَا وَاسْتَعَادَ الْمَطَاءَ رَبُّ الْمَطَاءِ

(٣) ديوان ابن سناء الملك (طبعة جبر آهاد) ص ٣٢٣ .

(٤) الديوان ص ٣ وما بعدها .

(١) النجوم الزاهرة ٦/٦٠ وانظر خاتمة كتابه البقي الشامي .

(٢) ديوان القاضى الفاضل (نشر بلوى) ص ٣٤ .

وكلمة « ياما » في الشطر الأول من كلمات العامية المصرية ومعناها كثير . ويلقانا بنفس اللفظة والحسرة والإحساس الحاد بالألم والحزن والضييق والوحشة في رثائه لجارية شابة ، اختطفها منه الموت دون شفقة أو رحمة ، ويظل يئنّ ويسكب دموعه إلى أن يقول ^(١) :

وآنسى من بعدها طولُ وحشَى وضاجنى في مضجى بعدها كزى
أيا تُربُّ ما أنصفتَ نَصْرَةَ غُصْنِها أهذا صَنِيعُ التُّرْبِ بالْغُصْنِ الرُّطْبِ

ويشتهر ابن النيه بمرثية دالية رائعة رثى بها ابنا للخليفة الناصر سنة ٦١٣ وهى من بدائع المراثى ، إذ يمزى الناصر عن ابنه في أسى ولوعة ودعوة حارة إلى الصبر على المصاب بمثل قوله ^(٢) :

الموتُ نَقَادُ على كَفِّهِ جواهرٌ يختارُ منها الجِياذُ
والمرءُ كالظِّلِّ ولا بُدَّ أن يزولَ ذاك الظِّلُّ بعد امتداد

ولا يموت سلطان أبوى بمصر حتى يندبه الشعراء ، ومن نذبه الملك الصالح نجم الدين أيوب المتوفى سنة ٦٤٧ وهو يستعد لمنازلة لويس التاسع ، وخلفه ابنه توران شاه فقتل بالصليبيين فتكا ذريعا ، وأخذ لويس التاسع قائد الحملة الصليبية أسيرا ، غير أن مماليكه لم يبلثوا أن فتكوا بالبطل : بطل موقعة المنصورة وبكاه غير شاعر مصرى من مثل قول ابن مطروح ^(٣) :

بابعِدَ اللَّيْلُ من سَحَرَةٍ دائِما يبكى على قَمَرَةٍ
خَلَّ ذَا واندب معى ملكا وَلَّتِ الدنيا على أثره

وحقا وَلَّتِ الدنيا الدولة الأيوبية على أثره وغربت شمسها للمضيئة ، إذ استولى المماليك على صولجان الحكم بمصر . وأول سلاطينهم العظام الظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التى سحق فيها التتار ، ودفع سيولهم إلى الوراى حتى حلب فالعراق . وله بعد ذلك بلاء رائع في حرب بقايا الصليبيين والاستيلاء على كثير من حصونهم بالشام . حتى إذا توفى سنة ٦٧٨ بكاه شعراء مصر بمثل قول محيى الدين ^(٤) بن عبد الظاهر :

(٤) انظر نشره في الأهم والصور في سمة لملك للمصور

فلاوون لمحيى الدين بن عبد الظاهر (نشر وزارة الثقافة والإرشاد بمصر) ص ٢٥ .

(١) الديوان ص ٦٢ .

(٢) ديوان ابن النيه (تحقيق صبر الأسد) ص ١٠٤ وما بعدها .

(٣) فوات الوفيات ١٨٥/١ .

هذا الذى هزَمَ التَّارَ فأصبحوا تتألم عند الكرى الأحلامُ
هذا الذى قهر الفرنج فكلهم تُرديهم من رُعبِ الأوهام

وقلما يتوفى سلطان بعد الظاهر فى زمن المالك إلا ويكيه الشعراء .

ومرنا الحديث عن ابن نباتة ومملوحيه السلطان المؤيد الذى دُيِّع فيه غرر المدائح ، حتى إذا مات رثاء بمرث طنانة وفيها يكيه بكاء حارا من مثل قوله فى إحدى مرثيته :

نَعَى المؤيدَ ناعيه فوا أسفا للغيث كيف غدت عنا غَواديه
واروَّعتنا لصباح من رزيتو أنظرَ أن صباح الحشرِ ثابته
لبت الحمامَ حبًا الأيامَ موهبةً فكان يُغنى بنى الدنيا وبيقه
لبت الأصغر يُغذى الأكبرون بها فكانت الشهبُ فى الآفاق تُغديه

وهو تأبين مزوج بنذب وأنين ، وحسرة ما بعدها حسرة ، حتى ليتنقى لومات الناس جميعا فداء للمؤيد بل يتنقى لوكانت الشهب تستطيع أن تغديه .

ويستولى العثمانيون على مصر ويتعاقب عليها ولانهم ولشعرائنا فيهم وفى كبار الموظفين حيث يتوفون مرث كثيرة ، من ذلك قول الشيخ محمد الغمري فى رثاء الأمير إسماعيل بن إيواظ المتوفى سنة ١١٣٦ للهجرة^(١) :

أفى أمانو وسيفُ الأمن قد غمدا ويدرُ أفق سماء العدل قد فُقدَا
وشمسُ نصرٍ عباد الله قد كُفَّتْ ودولة العزْ ماتتْ بالذى لُجِدَا
كم قد أغاث فقيرا من ظلماته وأبدل الجور عدلا والفسوق هُدَى
وتكثر مرثى العلماء الأعلام وتكتظ بمرثيتهم كتب التراجم ، وخاصة منذ عصر المماليك ، من ذلك قول^(٢) عبد الباسط بن خليل الحنفى ، فى رثاء جلال الدين عبد الرحمن السيوطى حين توفى سنة ٩١١ :

مات جلالُ الدين غوثُ الزوى مجتهدُ العصر إمامُ الوجودِ
فباعيونُ انهملُ بعده وبأ قلوبُ أنفطرى بالوقودِ

ويروى الجبرقى أنه لما مات الشيخ محمد العثماوى سنة ١١٦٧ قال بعض شعراء الوقت وه

(٢) بدائع الزمرد لابن لياس ٦٣/٣ .

(١) الجبرقى ١٢١/١ .

السيد حسين الإدكاوي قصيدة أنشدت وقت الصلاة عليه مظلماً^(١) :

ما بين حرقة أدمى وتولّى نارٌ يوججها لبيبٌ تولّى
يا أرضُ ميلدى باسماء تشقى ياشمسُ نوحى بالمجوم تأوى

والمبالغة واضحة في البيت الثاني

وكان وتر الشكوى من الزمن وأحواله وتقلباته ونوائبه ورزاياه ومن نكد الحظوظ وبؤس الحياة مشدوداً دائماً إلى قيثارات الشعراء يتغنون عليه آلامهم وأحزانهم وما يصيبهم من شر الحياة ونكرها ومن ضعة الحظوظ التي كبت عليهم فيها ، وبين نزول المصائب التي تعصف بهم ، من مثل قول نعيم بن المعز^(٢) :

أما والذي لا يملك الأمر غيرةً ومن هو بالسر المكم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلماً لإعلانها عندي أشد وألم
صبرتُ عن الشكوى خياءً وضةً وهل يشتكى لذغ الأرقام أرقم^(٣)
وبى كلُّ ما يتيكى العيون أقله وإن كنت منه دائماً أنبسم

وكان نعيم يعيش في نعيم لأنه ابن للمعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، غير أنه كان أكبر أبنائه وصرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله حتى إذا توفى صرفها إلى أخيه نزار الملقب بالعزيز الفاطمي . وعاش نعيم يتجرع مرارة هذه القصة دون أن يستطيع التفوه بكلمة ، إلا مثل هذه الأبيات التي كان بنفسها عما يحتم في دخائله من ألم مرير . ويردد شعراء الدولة الفاطمية بعده شكاوهم من الحياة وكوارثها والحظ وبؤسه وقصوره عن أمانهم كقول ظافر الحداد^(٤) :

ول همة تبني النجوم وحالة تصحف ماتبعيه فهو لنا خيد
إذا رفعتني تلك تخفض هذه فكلُّ تناو في إرادته الحد^(٥)
لما حال شخسو بين هاو وصاعدي وليس له عن واحد منها بد
تولتني الأرزاء حتى كأنما قوادى لكفى كل لاطمة خد

فهذه مازال تصعد به حتى يضافح النجوم وحظه ما يزال يهبط به حتى يهوى إلى اللرك

(١) تاريخ الجبقي ١٨٩/١ .

(٤) الحريدة (قسم شعراء مصر) ٣/٢ .

(٢) الديوان ص ٣٩٨ .

(٥) الحد : للحد .

(٣) الأرقام : الأسماء .

الأسفل من البؤس والشقاء وكأنه في أرجوحة ما يزال صاعدا هابطا وماتزال الأرزاء والكوارث تنزل به بل تلطم فؤاده لطما عنيقا .

ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية داود بن مقدم من أهل المحلة شمال طنطا ويقول العباد :
كان منحوس الحظ غير مبخوت ، منكوب الجاه بحرفة الأدب منكوت ، وينشد له ^(١) :
لقد بكرت تلوم على خمولى كأن الرزق يجلبه احتيالى
وكم أدليت من دلو ولكن بلا بلل يرُد على قدالى ^(٢)
وكم علفت أطاعي رجاء بخلب بارق ووميض آل
ولا أنا بالكفاف التزير راضى ولا أنا عن طلاب الكثير سال

فصاحته تلومه على خموله وأنه يقعد عن طلب الرزق ، ومفتاحه ليس في يده ، وطالما أدلى بدلوه مع طلابه فصادت دلاؤهم ملاء ، وارتد عليه دلوه فارغا ، وكأنما يتعلق ببرق كاذب وسراب يحسبه القطمان ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئا ، وهو مع ذلك لا يزال يطمع في الكثير وكان حريئا به أن يرضى بالتر القليل .

وتخفف الشكوى على ألسنة الشعراء في زمن الدولة الأيوبية وانتصاراتها المدوية ، إلا في بعض لحظات نعمة قد تمر بالشاعر فيشكو شكوى عارضة كقول ابن سناء الملك ^(٣) .

بِاخْتِيبَةِ الْحُرِّ الَّذِي لَمْ يَلْقَ فَوْقَ الْأَرْضِ حُرًّا
وَإِذَا اشْتَكَى فَقَرًّا أَسَا لَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنِهِ نِيرًا
وَالْحَلْقُ تُنْزِي الدَّمْعَ مَا ۚ وَهُوَ يُذْزِي الدَّمْعَ جَمْرًا
وَإِذَا تَغَلَّكَ اللِّسَانُ فَإِنْ مَوْتَ الْحُرِّ أُحْرَى

ولا أظن أن ابن سناء الملك اشتكى الفقر والبؤس يوما ، فقد كان يعيش في مجبوحة من الترف والنعيم ، ولذلك نظن أنه قال قصيدة هذه الأبيات في لحظة من لحظات غضبه ، وهي فعلا أبيات عارضة في ديوانه الضخم .

ويعود الشعراء إلى الشكوى في أيام المالك والحديث عن بؤسهم ، وكانوا يمزجون هذا الحديث بنخلة الظل التي عُرف بها المصريون ، حتى لتصبح الشكوى ضريبا من الفكاهة أحيانا على

نحو ما هو معروف عن الجزار والوراق وابن دانيال ، وستترجم لهم في حديثنا عن شعراء الفكاهة .
وبأخذ هذا الحديث صورة عابسة جادة عند نفر من الشعراء ، وفي مقدمتهم ابن نباتة الذي أكثر - كما أسلفنا - عن الحديث عن كثرة عياله كقولہ لأحد ممدوحيه :

يأسدي دعوة ذي حالة أحاطا الدهر وعدوانه
تفليس في الشام بعد الغنى يقضى بأن القلب حرانة
فارق أولادًا وأهلا وما تحملت للبين أظعانة

فهو يستعطف ممدوحه لما أصابه الدهر به من البؤس والفسك وضيق العيش ، وقد فارق أولاده وأهله يئس أن يجد لهم ما يقوّمهم وأن يعود لهم غنيا ثريا أوفى بسطة من الرزق . ويردد ابن نباتة ذلك كثيرا في أشعاره . ووراءه كثيرون في زمن الماليك كانوا يشكون مما يتجرعون من مرارة الحياة وعيشها البائس المضى . وساعد على ذلك أن الماليك لم يرعوا الشعراء في زمنهم رعاية الحكام من قبلهم ، وأنهم قلما كانوا يسبقون عليها عطاياهم ، وحتى ما كانوا يعطونه لهم أحيانا كان نزرا قليلا ، فكان طبيعيا أن يستشعروا الحرمان والبؤس وأن يندبوا حظهم العاثر ، وأن يعسروا نعمتهم على الدهر والزمان . ثم حلت الحقبة العثمانية ، فزادتهم إغفالا في البؤس واليأس والشكوى المريرة . ولعل من الخير أن نقف قليلا عند بعض شعراء الرثاء والشكوى في المراحل المختلفة لهذا العصر .

على بن النضر^(١)

من أهل الصعيد كان نحويا أديبا روى عنه ابن برّي وغيره ويقال إنه كان يحفظ كتاب سيبويه ، وكان متصرفا في علوم كثيرة ، وهو أحد قضاة الصعيد النابئين ، تولى قضاء الصعيد وإخميم في زمن الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) . ويدل أن موهبته الشعرية استيقظت مبكرة ، مما جعله يقبل على شعر المديح محاكيا شعراء عصره . فلدح كثيرين من أعيان الصعيد وفي مقدمتهم بنو الكثر أعيان أسوان . ثم قصد بمدح الأفضّل فرفع منزلته وعينه قاضيا للصعيد ، وفيه يقول أبو الصلت في رسالته المصرية التي كتبها عن شعراء مصر وأدبائها ، وقد

(مصر) للعاد الأصيلاني ٩٠/٢ واطالع السيد ص ٢٢٠
والبنية للسيوطي ص ٣٥٣ .

(١) انظر في ترجمة ابن النضر وأشعاره رسالة أبي الصلت
أمية في توادد المخطوطات لعبد السلام هرون (المجموعة
الأولى) ص ٤٠ وما بعدها وغريدة القصر (قسم شعراء

افتتحها بذكره قائلا : « من الأفاضل الأعيان ، المملودين من حسنات الزمان ، ذو الأدب الجم والعلم الواسع ، والفضل الباهر والنثر الرائع ، والنظم البارع ، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ، والرتبة الأولى » ويبدو أنه كان واسع الثقافة . ويقول الأذفرى صاحب الطالع السعيد : « أكثر شعره في تشكي الزمان والإخوان » . وكان قد قصد الأفضل في أول الأمر راجيا خلة عنده أو ولاية فخاب أمه فيه وضاع رجاؤه ، فقال من قصيدة يعاتب فيها الزمان ويشكو الحية والحرمان :

بين التمزُّز والتذلل مسلِكُ بادی التارِ لِعَيْنِ كلِّ موقِفِ
فاسلكه في كلِّ للواطن واجتنبْ كَبَّرَ الْأَبَىْ وَذُلَّةَ الْمَسْلُوقِ
ولقد جلبتُ من البضائع غيرها لأجلْ مَخْطَرِ وَأَكْرَمِ مَتْنِ
ودرجوتُ خَفَضَ الْعَيْشِ تحت رِوَاقِهِ لا بَدْءَ إِنْ نَفَقْتُ وَإِنْ لَمْ تَنْفَقِ
ظَنَّا شَيْئاً بِالْيَقِينِ وَلَمْ أَخْلُ أَنْ الزَّمانَ بِمَا سَقَانِي مُشْرِقِ^(١)
لأفارعنَّ الدهرَ دون مَرَوْنِ وَجُرِمْتُ عُرِّ النَّصْرِ إِنْ لَمْ أَصْدُقِ

وهو ينصح غيره من الشعراء أن لا يصغروا خدعهم كبرا ، وأهم من ذلك أن لا يسيموا أنفسهم ذل الملق والمهوان ، وليتخذوا منه وما صنع به الأفضل عبرة وعظة ، إذ قدم له بين يدي ما أمَّله منه قصيدة بديعة من قصائده ، فكان جزاؤه خيبة ما بعدها خيبة ، ومع ذلك فهو يمسك نفسه ، إذ هي أكبر من أن تنكسر ، بل إنه ليهدد بمقارعة الدهر ونزاله دون مروته وعزة نفسه . وفزع إلى غير قليل من الزهد والقناعة بمحض عليهما ويلم الضراعة ، متأسفا على امتنان نفسه وإراقة ماء وجهه للأفضل دون طائل بمثل قوله :

لَقَدْ لَقِيتُ الْمَلِكَ قَاعَةً لَوْ أَنَّنِي مَتَّعْتُ فِيهِ بِعِزِّهِ الْمَمْلُوكِ
وَلَكِنَّتُ بِأَسْرِ كُنْتُ قَدْ أَحْرَزْتُهُ لَوْلَمْ تَعِثْ فِيهِ الْخَطُوبُ وَتَفْتَلِكِ
أَكَيْتُ أَجْعَلُ مَاءَ وَجْهِهِ بَعْدَهُ كَدَمُ يُولُ بِهَ الْحَجِيجِ بِمَنْتَلِكِ
لَا أَنْشَأُنِي الْحَادِثَاتُ لَمِثْلِهَا وَرُمِيتُ قَبْلَ وَقُوعِهَا بِالْمَهْلِكِ

لقد أضعاف ملك قاعة كان هنيئا به متمتعا فيه بعز سلطانه ، وأضعاف معه كثر بأس من الوزراء والحكام أمثال الأفضل كان مغتبطا به سعيدا ، ويقسم أن لا يريق ماء وجهه لأحد بعد الأفضل

(١) مشرق : جاعلي أخصر بما سقاني .

وما صنعه ، ويدعو على نفسه بالموت إن هو فكر أن يعود إلى المديح وهوان الاستجداء وذله ،
ويتجه إلى ربه داعيا ضارعا بمثل قوله :

يَاسْتَجِيبْ دَعَاہِ الْمَسْجِرِ بِوَیْ وَیَا مُفْرِجَ لَیْلِ الْکَرْبِ الدَّاعِیِ
قَدْ أُرْتِجَتْ دُونَا الْأَبْوَابُ وَامْتَنَعَتْ وَجَلَّ بِابْکَ عَنْ مَتَعٍ وَارْتَاخَ
لِخَافٍ عَدْلُکَ أَنْ یَجْرِی الْقَضَاءُ بِوَیْ وَنَرْمِجِکَ فَکُنْ لِلْخَائِفِ الرَّاجِیِ

فقد أغلقت أبواب الرجاء من دونه ، وأظلمت الدنيا من حوله ، وغرق في كرب وغم ،
وأخذته اليأس من كل جانب ، فلا أمل ، بل قنوط مقيم ، حتى ليخشى على نفسه من أن يفلق الله
عنه بابه ، وإنه ليمتلئ خوفا ورجاء . ويعزى نفسه ويدعوها إلى الصبر الجميل :

يَا نَفْسُ صَبْرًا وَاحْتِسَابًا إِنَّمَا غَمَرَاتُ أَيَّامٍ تَمُرُّ وَتَجَلُّ
لَا تَيَاسُ مِنْ رُوحِ رَبِّكَ وَاحْتَرِي أَنْ تَسْتَعْرِی بِالْقَنُوطِ فَتَحْتَلُّ

إنه يتمنى لنفسه أن تخلص من محنة اليأس الذي يملؤها شقاء وعناء ومسرة ولوعة ، فيخفف
عنها ذلك كله أو يحاول أن يخففه بما يدعوها إليه من الصبر على البلاء وأن لا تياس من روح ربه
فإنه لا يياس من روحه إلا الظالمون لأنفسهم المستسلمون للقنوط وأهواله .

وكان على بن النضر يحميد الرثاء كما يحميد الشكوى من الزمان وأهله ، وله مثنوية بدعية في إبراهيم
ابن الزبير حاكم قوص لسنة ٤٧٢ للهجرة وهو جد المهذب بن الزبير الشاعر المار ذكره ، استهلها
بقوله :

يَا مَرْؤُا ذَا جَدَّتْ الرُّشْدُ قِفْ مَعِيَ نَسْفَحْ بِسَاحَةِ مَزَادِ الْأَدْمَعِ (١)
وَامْسَحْ بِأُرْدَانِ الصَّبَا أَرْكَانَهُ كَيْ لَا يُلْمَ بِهِ شُحُوبُ الْبَلْعِ
وَبُودُ نَفْسِي لَوْ سَقَيْتُ تَرَابَهُ دَمَ مُهْجَتِي وَوَقَيْتُ بِالْأَضْلَعِ

وهو يتجه إلى المزن أو السحاب المطر محاولا أن يستوقفه ليسفح أمطاره معه على قبر صاحبه ،
بل ليسفح معا عليه قربانا من الدموع ، ويتوسل إليه أن يمحو بأكام الصبا أركانه ، حتى يظل
ناضرا لا يلزم به شيء من شحوب البلع أو القفر من حول جدته ، وكان بود نفسه لو قد ناء بروحه
وسقى ترابه دم مهجته ووقاه بأضلعه ، ويخاطب قبره ملئناها بقوله :

(١) مزاد : جمع مزادة وهي القرية .

لَتَنْفُسُ فِيكَ الصَّبَا مَفْتُوقَةٌ بِسِمِ مِسْكِ رِيَاضِهَا الْمَتَفُوقِ
أَوْ مَا عَجِبْتَ لِطَوْدِ عَرْ بِادْخِرْ مُسْتَوْدِعٌ فِي ذِي الثَّلَاثِ الْأَذْرَعِ
وَلَحْدُ مَنْ وَطِئَ الْكُوكَبَ رَاقِيًا كَيْفَ ارْتَفَى مِنْ بَعْدِهَا بِالْإِرْمَعِ
وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى رُبُوعِكَ شَاكِيًا وَبِهَا الَّذِي بِي مِنْ أَسَى وَتَوَجُّعِ

وهو يدعو للقبر أن تهب عليه ريح الصبا المعطرة بمسك الرياض ذكى الرائحة وأن يظل ذلك دائما أبدا ، ويعجب لهذا الجبل الشامخ عزا أن تطويه ثلاث أذرع ومن وطئ الكواكب بقدمه راقيا أن يرتضى التزول تحت اليرمع أو الحجارة الرخوة ، وإنه - مثل كل ما حوله من الربوع - يمتلئ حسرة وأسى وتوجعا ما بعده توجع . ولعل في ذلك كله ما يصور ملكة ابن الضر الشعرية الخنصبة .

على بن عَرَام^(١)

شاعر أسوان مسقط رأسه وموطنه ، بل شاعر الصعيد قاطبة ، دفعه طموحه في شبابه إلى أن ينزل الفسطاط ويأخذ عن علمائها اللغويين من أمثال ابن بركات وغير اللغويين . وكان فيه ذكاء وحسب للعلم وفنون ، فبرع في غير فن ، وصنف تصانيف كثيرة . ويبدو أنه آثر المقام ببلدته أسوان ، وله في أعيانها غير مدحة ، وكان كثير الوفود على حكام الصعيد من الأيوبيين في قوص وغير قوص ، من مثلي مبارك بن متقذ وتوران شاه . ويقول العاد الأصماني إنه سأل عنه سنة ٥٧٣ فقالوا له إنه حَيٌّ في أسوان ، وكان لا يزال يذكرها حين يبرحها فترة في حين بالغ ، حتى ليقول في إحدى رحلاته وقد ذكرها ، فكأنما نكأ جرحا في فؤاده إذ يقول متلهفا في العدة إليها حين نفاء بنو الكثر أعيانها إلى إسنا :

وَلَا بَارَكَ الرَّحْمَنُ فِيمَنْ أَزَاخِي عَنِ الظِّلِّ وَالْمَاءِ الْإِلَالِ الَّذِي يَجْرِي
مَقِيلٌ وَلَكِنْ أَيْنَ مَتَى ظِلُّهُ وَسُقْيَا وَلَكِنِّي بَعِيدٌ عَنِ الْقَطْرِ

فهو يتمنى وقت قبولة بأسوان وشربة من مائها السلسيل ، إنها نعيمه وفردوسه الذي لا يمثاله فردوس ، وسرعان ما عاد إليها وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٠ . ويقول صاحب الطالع السعيد :

الهاضرة ١/٥٦٥ .

(١) انظر في ابن عرام وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مصر) ١٦٥/٢ والطالع السعيد ص ١٩٨ وحسن

« لم يكن في أرض مصر من يدانيه في فضله وبضاهيه في نبه » . ويشيد به ويشعره العاد الأصهباني إشادة رائعة ، ويذكر أن بعض أصدقائه أحضر له ديوانه فوجده من طبقة عالية ، مما جعله يعرض منه ألوانا ، ويقول : « قد أوردت من جملة نظمه الفائق الرائق ، ولفظه الرائع الشائق ، ما إذا حُصِرَ ^(١) اسحر . . ولا ين عَرَّام في ميدان النظم عَرَّام ^(٢) » ، وبابتكار المعاني الحسان غرام ، ولرويته في إذكاء ^(٣) نار الذكاء فيرام . . وكل سحر وخمر سوى منسوج فدائه ^(٤) وممزوج مداه حرام ، اعجب : بحر في الصعيد ^(٥) يُقصد بالتيسم لائه ، ولجم في صعود السعد لا يترقى إلى سمائه . ويتلو العاد ذلك بطائفة من أشعاره مرتبة على حروف الهجاء ، ويذكر له من قصيدة في رثاء بعض العلويين ، وربما كانت من أشعاره في زمن الفاطميين ، وفيها يقول :

إنما هذه الحياة غرورٌ كثرَ أبدا لنا في فجاج
تبع الحلو من جنى عيشها الحلو جر يمر من الرزايا أجاج ^(٦)
نحن فيها كمثل ركبي أناخوا ساعة ثم أرهقوا بانزعاج

وتلك سنة الحياة : غرور كلها وسراب سرعان ما يزول ، وحلو سرعان ما يحول مرا وملحا أجاجا ، وما أشبه الناس فيها بركب أناخوا قليلا وجميعهم وقوف ، كل منهم ينتظر دوره في الرحيل ، فالكل راحلون إلى أجدانهم وقبورهم فهي قرارهم ومترهم ولا مآب لهم منه ولا خلاص . وله مراثية في ابن عمه هبة الله بن عَرَّام ، وكان شاعرا محسنا وفيه يقول :

من لسود المخطوب غمرك يُجلب لها وقد غاب منك بدرٌ منير
من يحوك القريض مثلك يسدب على خبرٍ به وينير ^(٧)
ليس في العيش بعد قتلك خير حبذا وافد الردى لو يزور
كان ظنى إذا المنايا انتحنا أننى أول وأنت أخير ^(٨)

(١) حصر : انكشف .

(٢) عرام : قوة وشدة .

(٣) إذكاء : إشادة .

(٤) الفدام : ما يوضع على قم الدن لتصفية ما فيه .

(٥) الصعيد : الوجه القبلي وهي أيضا وجه الأرض

والغراب

(٦) أجاج : شديد اللوعة .

(٧) يسدب : من السدى وهو ما يد طولاً في النسيج .

ينير : يلحم أو يحيل له لحمه وهي ما يد عرضاً في النسيج

يريد أنه يحكم الشر إحكاماً دقيقاً

(٨) انتحنا : قصدنا .

كيف لي بالسُّوء عنه وطئُ الـ قلب من فقدته جوى منشورُ
فَسَقَى قَبْرَهُ نَدَاهُ ففِيهِ لِكِرَاهِ غَيْثِي وَرِيٍّ غَزِيرُ

وهو شديد اللوعة على ابن عمه وصديقه ، ولذلك يخلط ندمه بتأينته ، إذ فقد البدر الذى كان ينير في دجى خطوب الدهر وكوارثه ، وإنه ليندب للشعر شاعره المبدع الذى كان ينسج خيوطه نسجا محكما ، وكأنما فقد كل نعيم في دنياه وكل خير ، حتى لينتفى الموت ، إذ لم يعد له بقاء بعده ، ولا عاد يعرف كيف السلوان عنه ، وقلبه منظر على نار من الجوى لا تنجو ولا تهدأ ، وإنه ليذكر نداء وكرمه الذى طالما أخذقه على من حوله ، ويدعو الله أن ينزله على جدته شايب رحمة .

ويروى العماد لابن عرام قصيدة بل مناحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر ناديين موتاهم باكين ، استلها بقوله :

الرَّدَى لِلْأَنَامِ بِالْمِرْصَادِ كُلَّ حَيٍّ مِنْهُ عَلَى مِعَادِ
كيف يُرْجَى ثَبَاتُ أَمْرِ زَمَانٍ هُوَ جَارٍ طَبْعًا عَلَى الْأَصْدَادِ
فَإِذَا سُرَّ سَاءَ حَقًّا وَيَقْضَى بِوُجُودِ إِلَى بَلَى وَنَفَادِ

فالمرت غاية كل حى ، والناس جميعا يسقطون في قراره العميق ، لكل منهم موعده لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، وبالحال من سخرية للزمان ، فإنه لا يبق للإنسان على شيء ، وحتى لو سره يوما لساء يوما أو أياما ، وإنه ليس له كل ما أعطاه حتى وجوده وحياته . ويمضى في نفس القصيدة أو المرتبة قائلا :

نَحْنُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ كَسَفَرٍ رَمَا أَصْغَلُوا عَنِ الْإِرْوَادِ (١)
عَرَسُوا سَاعَةً بِهَا ثُمَّ نَادَى بِالرَّحِيلِ الْهَدَى فَبِهِمْ مُنَادٍ (٢)
كَمْ أَبْرَ وَالِدٍ بِكُلِّ بَيْتٍ كَمْ يَتِيمٍ فِينَا مِنَ الْأَوْلَادِ
يُدْخِي الْمَرْءُ إِرْثَ أَرْضِهِ وَدَارِ سَفَهَا غَيْرَ لَاتَقَى بِالسُّدَادِ
وَهُوَ مَوْرُوثُهَا إِذَا كَانَ يَتَّى وَهَى تَبَقَى عَلَى مَدَى الْآبَادِ
وَقُصَارَاهُ أَنْ يَشِيعَ مَحْمُومٍ لَا بِأَكْثَانِهِ عَلَى الْأَعْوَادِ

وما أبأس الحياة من رحلة ، وما أبأس ركب هذه الرحلة ، فليس لهم فيها حق في الريث والأناة ، ولا في العهل والوقوف ، إنها لا تريد عن ساعة تنزلها قافلة ، وسرعان ما يصبح في ركبها مناد بالرحيل السريع ، وكل من في الركب يركي وينوح وبين أنبأ لا ينقطع ، أب بن وينرف الدموع مدراراً على أنبائه ، وأبناء أيتام يتنون ودعوعهم لا تجف ولا ترقأ على آباتهم وأمهااتهم ، وكأنما يقطعون جميعاً وادياً كله غصص وآلام ، إنه وادي الموت يحوسون خلاله ، وهم لا يدرون . وأعجب العجب أن يحرص الإنسان على إرث الأرض وملكها ، وهو موروثها وملوكها الذي سرعان ما يزول ويفنى ، بينما هي باقية على كُر الدهور ، وما أعظمها عبة ، فكل إنسان مها بلغ من الثراء أو الجهد يخرج من دنياه كغربة محمولا على أعواد ، وسرعان ما يُلْقَى عليه رداء التراب الثقيل . ويقول ابن عَرَام

وَإِذَا الْأَهْلُ وَالْأَقَارِبُ وَالْأَحْذُ جَابُ رَاخُوا فَأَنْتَ فِي الْإَثْرِ غَادِ
فَالْقُبُورِ الْبُيُوتُ مَضْجَعُنَا فِيهِ هَا وَمَا إِنَّ سَيِّئَ الْفَرَى مِنْ وَسَادِ
كَمْ أَحَالِ الْبَلَى إِلَيْهِ قَدِيمًا جَسَدًا نَاعِمًا مِنَ الْأَجْسَادِ
شَاهِدُ الْمَوْتِ لَانْعُ فِي جَبِينِ الْ حَيُّ مَتَا فِي سَاعَةِ الْمِلَادِ

فالكل ميت ، وكل ما هناك سابق ومسبق ورائع وغاد إلى القبور : البيوت الدائمة التي نضطجع فيها على وسائل الثرى ، لا فرق بين إنسان وإنسان ، فنحن جميعاً بنو الموت ، ونحن جميعاً سكان القبور ومنذ يولد الإنسان يلوح على جبينه ساعة ميلاده شاهد موته وأنه ملق به - طال أجله أو قصر - وراء تراب وأحجار .

ابن القتيب^(١) : الحسن بن شاذل الكنايني

ولد بالفسطاط سنة ٦٠٨ وتوفي سنة ٦٨٧ وهو بذلك من شعراء الدولتين : الأيوبية والمملوكية ، وكانت له عناية بالحديث النبوي . روى عنه الحافظ الهمياطي وغيره ، واتصل بالأيوبيين ، فمئنه في دواوينهم ، وقد لقيه ابن سعيد الأندلسي مؤلف كتاب المغرب حين زار

وحسن الخطيرة للسيوطي ٥٦٩/١ وشرحات اللعب لابن
العماد ٤٠٠/٥ .

(١) انظر في ابن القتيب : الحسن بن شاذل المغرب في
حل للمغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٥٨ وفهرست
الوفيات لابن شاذل ٢٣٢/١ والتجويد الزاهرة ٣٧٦/٧

مصر في أوائل العقد الرابع من القرن السابع ، يقول : « اجتمعت به وهو يتولى لسلطان مصر معدن الزمرد ، فأبصرت شخصا مجسداً من الفضائل معنوا عن بيته - إذ يُنسَبُ إلى شاور وزير العاضد الخليفة الفاطمي - بما يبدو عليه من كرم الشئال ، وصنف كتاباً سماه « منازل الأحباب ومنازه الألباب » . وفي شعره ومترلته الشعرية يقول ابن سعيد : « هو عندي من أفراد شعراء العصر المتخلفين في النوص على المعاني الحائزين من غايات الإحسان ما يقصر في إطرابه عنه الثالث والثاني » ويقول ابن شاعر : « شعره جيد عذب منسجم فيه التورية الرائعة اللاتفة المتكئة . وهو أحد فرسان تلك الحلقة الذين كانوا من شعراء مصر في ذلك العصر ، ومقاطيعه جيدة إلى الغاية » . وابن شاعر يقصد بالحلقة السراج الوراق والجزار والحمامي الذين كانت أسماؤهم على كل لسان لحفة وروحهم وكثرة ما كانوا ينظمونه من التوريات ، وكان ابن النقيب على شاكلتهم يكثر منها ومن طريف تورياته :

أنا العُنْزِيُّ فاعلُزْنِي وسامعٌ وجِرَّ عليَّ بالإحسان ذَيْلاً
ولما صِرْتُ كالهِنُونِ عِشْقاً كَمْتُ زيارتي وَأَتَيْتُ لَيْلاً

وكلمة « لَيْلاً » في نهاية البيت الثاني لا يريد بها الليل الحقيقي إذ جاء بها تورية عن صاحبة « ليلي » . وهي تورية تدل على ما وراءها من سرعة بديته ، ورقة حسه ، وله غزل بديع مستند منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل . وله محاورات كثيرة مع من سبناهم من الشعراء ، وكتب إليه ابن سعيد بيتيه اللذين أنشدناهما في غير هذا الموضع ، وهما :

أيا ساكني مصرِ غدا النيلُ جارِكم فأكسبكم تلك الحلاوة في الشُّرِّ
وكان بظلك الأرضُ سحرٌ وما بقى سوى أثرٍ يبدو على النظم والثرِ

وأجابه ابن النقيب من قطعة كتب بها إليه متواضعا :

ولا تَطْلُبْنِ سحرَ البيان بأرضنا فكم فيه موسى مبطلُ آيةِ السُّرِّ
ولا رِقَّةَ الشعرِ الذي كان أولاً وكيف رقيقِ الشُّرِّ معَ قسوةِ الدهرِ

وإنما ذكرنا هذه الإجابة لما فيها من شكوى الدهر وقسوته ، منذ الثلاثينيات من عمره ، ولا ندرى هل ظل موظفا بالدواوين في عهد المالك أو أنه أثار العزلة مكتفيا بما ورثه عن آبائه ؟ . وأكبر الظن أنه ظل متصلا بالمالك ودواوين الدولة ، بدل على ذلك ما رواه ابن تغري بردي ،

مما مرّ بنا في غير هذا الموضع من أنه كان حاضرا وقعة الظاهر يبرس مع التار على شطّ الفرات سنة ٦٧١ وكيف أنه صوّر انتصاره تصويرا ارائعا .

وحانت منه التفاتة فيما يبدو إلى جندى قبل المعركة كان في الساقة وعرف أن له نظراء لا يوضعون في مقدمة الجيش وإنما يوضعون في مؤخرته ، أو لعله إنما التفت قبل كل شيء إلى نفسه ، فتأثر وبلغ به التأثير حدا بعيدا من الإحساس بالظلم ، وإذا هو ينشد في ألم بالغ :

نحن إلا قطاعةُ الأجنادِ وبرّياتُ غرِّ هذا النادي^(١)
 نحن إلا حكايةُ وخیالٍ وحديثُ الحاضرِ ولبادي
 نحن إلا غُسالَةُ لمَراقٍ لقدورِ تفرّغتِ وزبادي
 نحن إلا زبالَةُ ضَمَمها الرُّبُ مالُ فوقِ الأكوامِ للوقادِ
 جردونا فلما قطعنا فردو نا - وقد أحسنوا - إلى الأغادِ
 وعرضنا على براذينِ جيشي ما استعملتُ لحملةٍ وطرادِ^(٢)
 ورماحٍ لم نعتقل لطلعانٍ وسيوفٍ ما جردتُ لجِلاذِ
 فهُيَ لا فرق في يدِ الفارسِ الكَشِّ حانِ مئا أو في يدِ الحدادِ

ويبدو أنها شكوى بلسان فريق من الفرسان ، ممن وضعوا في مؤخرة الجيش الذي يقوده الظاهر يبرس لحرب التار يريدون أن يكونوا في أول الصفوف لمنازلة العدو التارى ودحره دحرا لا تقوم له قائمة بعده ، ويسوق ابن النقيب الشكوى في مرارة ، إذ يقول على لسان هؤلاء الفرسان منهكما : ما نحن إلا نُحاةُ الأجناد بل نحن حكاية وخیال وحديث مردد ، بل غُسالَة لمراق بل زبالَة ، ولعله يبالي في تصوير ما أصاب هؤلاء الفرسان من ظلم ويبدو أنهم كانوا مثله بلغوا من العمر عتيا فوضعوا في المؤخرة . على أن في شكوى ابن النقيب ما يدل على أن فرسان المقدمة إنما كانوا يختارون من أصلب الجنود وأعتاهم ، إذ كانوا هم وغيرهم يعرضون ، ويختارون في أثناء العرض وبعد الاختبار ، وهو لذلك يقول إنهم جردوهم لينظروا إلى أي حد هم سيوف قاطمة فلما لم يقطعوا رءوهم إلى الأغاد أو إلى المؤخرة ، ويلقى التبعة على البغال التي ركبوها ، فإنها

(١) القطاعة : النحاة كالتبراة .

(٢) براذن جمع برذون : بطل ضخم .

لم تكن ممرنة على العدو الشديد والغارة السريعة ، وأيضاً فإن السيوف والرماح كانت قد علاها الصدا ولم تعد صالحة للترال ، فسيان هي في يد الفارس البطل منا أوفى يد الحداد كي يشحذها ويزيل عنها الصدا . و تلقانا عند ابن النقيب شكوى مرددة من البؤس والفقر ، في مثل قوله :

يَا قُفْلَ بَابِ الرِّزْقِ يَا ذَا الَّذِي مازال عند الفتح قُفْلًا عَمِيرُ
أَفْرَطْتَ فِي الصَّرِّ وَلَا بُدَّ أَنْ تَنْفُسُ أَوْ تَنْدُقُ أَوْ تَنْكِيرُ

وهو يشعر كأن باب الرزق أغلق من دونه ، وهو يعالج فتحه ، ولا يفتح ، وبشكو ما يلقاه من عسرو ضيق وضك ، ويأس من فتح هذا القفل بأي مفتاح من مفاتيح طلب الرزق فيأمل في أن ينفس وتفتح أغلقة أو يندق أو يندكر . ويجمع عليه الشيوخة والعوز والإملاق ، فينشد :

وَجَرَدْتُ مَعَ قَفَرِي وَشَيْخُونِي الْقِي تَرَاهَا قَنُومِي عَنْ جُفُونِي مَشْرُدُ
فَلَا يَدْعِي غَيْرِي ثِيَابِي ظَنِّي أَنَا ذَلِكَ الشَّيْخُ الْفَقِيرُ الْمَجْرُدُ

وحق ثيابه نزعها البؤس عنه ، فهو شيخ فقير عريان مسهّد لا ينام . ولعل في ذلك كله مبالغة ، وهي على كل حال تدل على مدى إحساسه بلوعة البؤس واستطالته عليه في شيوخته . ويبدو أن محته بالحياة لم تقف عند ضيق ذات اليد ، فقد اتسعت لتشمل الأصدقاء والأصفياء ، حتى يقول :

لَا تَتَّقُ مِنْ آدَمِي فِي وِدَادِي بِصَفَاءِ
كَيْفَ تَرْجُو مِنْهُ صَفَا وَهُوَ مِنْ طِينِ وَمَاءِ

فطيمي - في رأيه - أن لا يُصْنَى إنسان لصديقه إزاء . لأنه لا يعرف الصفاء ، بل هو دائماً كدر وكذلك كل ما يتصل به إذ هو مركب من طين وماء .

عبد الله^(١) الإدكاوي

ولد بإدكو بالقرب من رشيد سنة ١١٠٤ وألحقه أبوه بكتاب بها حفظ فيه القرآن الكريم ، حتى إذا أتمه ذهب في طلب العلم إلى القاهرة ، فحضر دروس العلماء بها في زمنه ، واشتهر بأدبه

(١) انظر في ترجمة الإدكاوي وأصله تاريخ الجبل ٣٥٢/١ ولاحق ٢١٠/١ ، ٢١٦ ، ٢٦٣ ، ٣٤١ .

وشعره ، ولزم السيد على برهان زاده نقيب الأشراف ، وظل يسبح عليه من عطاياه ، وحجَّ معه بيت الله الحرام سنة ١١٤٧ وزار قبر الرسول ﷺ وعاد إلى القاهرة ، وأقبل - كما يقول الجبرتي - على تحصيل الفنون الأدبية فنظم ونثر ، ومهر وسر ، وهو في أثناء ذلك يكثر من رحلاته إلى رشيد والإسكندرية ويطارح أدباءهما . وتزوج حيث وأصبح صاحب حيال ، وتوفى النقيب المذكور ، فظم الشيخ عبد الله الشبراوي المترجم له بين شعراء المديح ومدحه بقصائد كثيرة ، حتى إذا توفى سنة ١١٧١ لزم الشيخ الشمس الحضي ، وأنشد الجبرتي بعض مديحه فيه ، وله بخطابه من قصيدة :

بابهجة العصر بامتاج كلِّ علَّا بِمُحَيِّىَ اللّٰهِنِ بِالْآثَارِ وَالسُّرَى

وظل يلازمه إلى أن توفى سنة ١١٧٨ وصوِّح روض عزَّه بعده إلى أن توفى سنة ١١٨٤ . وله تصانيف كثيرة منها الدرة الفريدة في شرح مدحة نبوية ، وهداية المتوهمين في كلب المنجمين ، ومختصر شرح بانث سعاد للسيوطي ومنظومة في علم العروض والمقامة التصحيفية ضمنها ألفاظ تغير معانيها بالتصحييف ومقامة أخرى مجنونة ، ونضاعة الأريب في شعر الغريب ، وهى مجموعة من أشعاره . وله أيضاً تخميس بانث سعاد والدر المستظم في الشعر الملتزم والفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية جمع فيها أشعار المادحين للأمير رضوان كتحفها ، ثم أورد في خاتمتها ماله من الأمداح فيه نظما ونثرا ، وفيه يقول :

رضوانُ أوحُدُ من تفرَّدَ بالعطا فنانحُ الأجواد بعضُ هباتِهِ
الفارسُ المقدامُ في يومِ الوغَى وللمرهَبُ الآسادُ في وثباتِهِ

ومن تصانيفه « الدر اللّجين في محاسن التضمين » . وبجانب ذلك كله ديوانه وهو مرتب على الحروف الهجائية .

ويورد الجبرتي قطعة من شعر الإدكاوى تدل على براعته وقدرته على استخدام فنون البديع من تضمين وغير تضمين ، ونراه يستعيد قدرة الحريري في بناء الأبيات من كلمات منقوطة وأخرى عاطلة أوكلها منقوطة أوكلها عاطلة أو الكلمات تتكون من حرف عاطل فحرف منقوط ، وكذلك في صنع أبيات تُقرأ شطوهرها طردا وعكسا ، فهى تقرأ من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين ، وهو ماكانوا يسمونه « ما لا يستحيل بالانعكاس » مثل قوله :

ارْعَ لِحِلُّ إنْ أَسَا وائسَ لِحِلُّ إنْ عَرَا

وكان يكثر من تشطير بعض القصائد المشهورة ، وكذلك من تخميس بعض الأبيات ، وتصنع لاستظهار مصطلحات بعض العلوم ، ولكن في خفة ودون أن نصطدم عنده بتكلف شديد ، كقوله مستظها لمصطلحات المنطق ، إذ يذكر المناطق كثيرا المقدمات والبراهين والنتائج :

وشقائق قالت لنا بين الربا بمقدمات ما بها إيهام^(١)
برهان سمدى الآن أنتج قائلا دغ وجنة المحبوب فهي خيرام

وله مرث مختلفة فيمن سميناهم من الشيوخ رعائه وفي غيرهم من علماء عصره ، ومن رثاهم وتضع عليهم طويلا الشيخ حسن المدابغى المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة ، وله فيه مرثتان مطلع أولاهما :

مضى عالم العصر الإمام لرؤي حميد الماسعى فاندبته وبالغ

وفي خاتمتها ينشد :

ولما قضى ذاك المهنذب نحبه وآب برضوانه من الله سابع
دعوت أحبائي وقلت لهم قفوا معي عند ذا التاريخ نبكى المدابغى

ومطلع الثانية :

صبرا فذا الدهر من عاداته المحن وفي تلونه قد حارت الفطن

ويختتمها بقوله :

والحور جاءتك بالبشرى مؤرخة حليت من حلال الأبرار باحسن

ولم ينشد له الجهرى شيئا من مرثيه الأخرى ، وكأنه اكتفى بالإشارة إلى مرثيته في المدابغى ، ومع ذلك فقد أنشد له مقطوعة في رثاء نفسه وبكائها قبل موته ، وفيها يقول :

ليت شعري إذا دنا بارقاني أجل ثم هبنا لي ثرابي
واقتلوا بي إلى محل بي صح جى جفوني وليس برجى إياي
هل إذا غرلوا التراب أبلغوا ذرة من عطى فيالمصاي
ويح هذى الدنيا التي تحرق الأكس جاد قد مرقت يلحدي إهابي
ويذاك القفر اغتديت رهينا ليس لي من زاد ولا من ركاب

وهو يذكر ساعة الموت وقد حُفر لحده والمشيون يحملون نعشه إلى مثواه ، وما يلبثون أن ينصرفوا عنه إلى غير رجعة أو مآب ، وقد بل جسده في التراب ولم تبق من عظامه باقية . ويتساءل هل إذا فُشوا عن ذرة من عظامه أيجدونها أم لا يحملون إلا عدما ، فقد مزقت الدنيا إهابه وعظامه في لحده . وكأنما لا يكفيها ما تصنعه بالإنسان في حياته من إحراق كبده . وإنه ليندب نفسه ويكبها وقد غدا وحيدا غريبا في قفر موحش ، بل غدا جيسا لازاد ولا ركاب إلى يوم الحشر ، وفي الحق أنه كان شاعرا مجيدا وهو يعد أنه الشعراء المصريين في زمنه .

٦

شعراء الدعوة الإسماعيلية

مرُّ بنا - في غير هذا الموضع - أن الدولة الفاطمية قامت على أساس العقيدة الإسماعيلية الشيعية وأنه كان لهذه العقيدة طائفة من المبادئ جعلتها متطرفة غاية التطرف ، بل جعلتها تنفصل عن نظرية أهل السنة انفصالا تاما . وقد عملت بقوة على نشر هذه المبادئ منذ أول الأمر متخذة دعاة لها في أقطار العالم الإسلامي ، ودفعت معهم الشعراء إلى تقريرها والعمل على إذاعتها وفي مقدمتهم ابن هانيّ وسنخصه بكلمة . وتميم بن المزرّ أول خلفائها بمصر يرددها في أشعاره لأخيه الخليفة العزيز ، ولا نكاد نتقدم في ديوانه حتى نجدده يحاطبه بقوله في إحدى مدائحه ^(١) :

إنما أنت حُجَّةُ الله لاحت في البرايا ووارثُ الأنبياء

والحُجَّةُ عند الإسماعيلية مصدر الحكم ولا يراجع في حكمه لأن حكمه الحق ، ويقول عنه وارث الأنبياء مشيرا بذلك إلى نظرية الدور التي ترعّم أن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار حتى إذا ختم الأئمة من الأنبياء بالرسول ~~ﷺ~~ بدأت أئمة آل البيت ، وبذلك يصبح العزيز وغيره من الأئمة الفاطميين ورثة للأنبياء ، على نحو ما يزعم تميم . ونمض في الديوان وفي قراءة مدائحه للعزيز ، وسرعان ما نلتقي بقوله فيه ^(٢) :

وهو لسان التقي ومقلته	وهو يمينُ العلا ويُسراها
صَوَّرَ من جوهر النبوة إذ	كان الوريّ طينةً وأمواها
فن يبطئه يَفْرُ بطاعته	ومن عصاه فقد عصى الله

وواضح في البيت الثاني ما كان يردده شعراء الفاطميين من أن الأئمة منهم ومن الأنبياء خلُقوا من جوهر لطيف مصفى وأن أجسادهم ليست كأجساد البشر المادية الغليظة ، بل هي أجساد نورانية شفاقة . والبيت الثالث يصور بوضوح مبدأ طاعة الإمام في مذهب الإسماعيلية وأنها واجبة بحيث يفرض إليه أتباعه أمورهم دون أى مناقشة أو سؤال ، إذ هي فريضة توجب طاعة الإمام ، وجزء لا يتجزأ من إيمانهم بالدعوة الإسماعيلية . وكانوا يزعمون أن كل إمام من الفاطميين له مرتبة قائم القيامة أو كما يسمونه المهدي المنتظر ، وبذلك يخاطب تميم أخاه قائلا^(١) :

أنت المسمى المرجئ قبل مولدو والخامس القائم المذكور في الكتب

وهو يشير في أول البيت إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون في الإمامة من فكرة الوصية الشرعية وأن كل إمام تالو وصي لسلفه كما قلر الله وقضى ولا راد لقضائه ، ويقول إنه القائم أو المهدي المنتظر وأنه خامس الخلفاء الفاطميين منذ جهرهم بالدعوة في المغرب ، وهم المهدي والقائم والمنصور والمعز ثم العزيز الخامس ، أما من كانوا قبلهم فلم يجهروا بالدعوة بل كانوا مستترين يدعون لها سرا . ويقول تميم أيضا في العزيز^(٢) :

ما أنت دون ملوك العالمين سوى روح من القدس في جسم من البشر
نور لطيف تاهى فيك جوهره تاهيا جاز حد الشمس والقمر
معنى من العلة الأولى التي سبقت خلق الهيولى وبسط الأرض والمدبر

والبيت الأول يشير فيه تميم بصراحة إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون من أن للإمام نسبتين : نسبة بروحه إلى عالم القدس ، ونسبة بجسده إلى عالم الطبيعة ، أما نسبه إلى عالم القدس فهي الجانب النوراني فيه ، وهو جانب صاف لطيف ، يحمل عقله فوق عقول البشر ، عقلا ممثلا للعقل الكلي الفعّال المتصل بالله ، وقد سماه بالعلة الأولى ، وجعله معنى من معانيه . وأوغل الإسماعيليون في هذا التصور حين قالوا إن الإمام مدبر الكون ، وما يقولون إلا زورا وهتانا . وتميم يقول إن هذا العقل الأول أو العلة الأولى أول ما خلق الله ، فهو سابق لخلق الهيولى أو المادة وخلق الأرض وما عليها . ونغضى في قراءة ديوان تميم فنجد أنه يقول في إحدى مدائحه للعزيز^(٣) :

وإن جميع الغيب لله وحده تبارك من رب ومن صمد وتر
وما علمت منه الأئمة إنما رووه عن المختار جدتهم الطهيرة

(٣) الديوان ص ٢٠٧ . والوتر : الفرد .

(١) الديوان ص ٦٩ .

(٢) الديوان ص ٢٢٤ .

ونعم يجعل الغيب في البيت الأول لله وحده ، وأشرك الرسول ﷺ معه في علمه ، وكأنه يصدر في ذلك عن قوله جلّ شأنه : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) ولو أنه سكّت عند بيان ذلك لما كان في كلامه غلو ، ولكنه لم يسكّت بل أضاف أن الأئمة يعلمونه عن طريق الرسول مشيراً إلى ما يزهه الإسماعيلية من توارث أئمتهم لعلم الغيب عن الرسول وهو تماد في الغلو والبهتان .

وسرى ابن هانيّ يتأدى مثل نعيم في الغلو ، بل لعله يزيد عنه درجة أو درجات ، ونرجع إلى كتب التاريخ والشعر والشراء فلا نجد أصداً واضحة لها فضلاً عن أن تكون قوية في أشعار من خلفوها في القرنين الرابع والخامس للهجرة إلا ما كان من المؤيد داعي الدعاة لعهد المستنصر ولم يكن مصرياً ، بل كان ليرانيا ، وسنخصه بكلمة بعد ابن هانيّ ، والشاعر المصري الوحيد الذي ردّد هذا النعم الإسماعيلي العالي هو ظافر الحداد المتوفى سنة ٥٢٩ هـ وسنترجم له بعدها ، وكان يعاصره على بن محمد الأخفش وهو مغربي وليس مصرياً ، ونرى الهاد الأصبهاني ينشد له في الحريدة بيتاً في الخليفة الأمر قائلًا^(١) :

إلى ذروة النور العلانيّ إنه إلى ذروة النور الإلهيّ ينسبُ

وهو ينسب الأمر إلى نور الأنوار ، إلى النور الإلهي الذي يعم الأكوان . ويذكر له الهاد قصيدة في الخليفة الحافظ ملاحظاً أن الغلو أفضى به إلى الكفر الصريح ، إذ يقول فيه مستطرداً من وصف الخمر إلى مديحه^(٢) :

صرفتُ جزألو يرى تحريمها	من يرى الحافظ قرّداً صمّلاً
بشرّ في العين إلا أنه	من طريق العقل نورٌ وهدي
جلّ أن تُذكره أعبتنا	وتعالى أن تراه جسدًا
فهو في التسيح زلّقى راسع	سمع الله به مَنْ حمداً
تُذكر الأفكار فيه نبأ	كاد من إجلاله أن يُعبداً

وهو يسبغ على الحافظ صفات الله من الفردية والصلدية ، وكان دعائهم يزعمون أن الله

ينبغي أن يتره عن الصفات والأسماء ، وأن ما في القرآن الكريم من أسمائه وصفاته إنما هي صفات العقل الكلي الأول وأسمائه . ومُرُّ بنا آنفا أنهم كانوا يزعمون أنه ممنول الأئمة ، ومن هنا أصفوا عليهم أسمائه وصفاته ، وبالفرا فجعلوهم مجسدا للذات العلية ، بل إن ابن الأخشس يحل الحافظ من كل مجسد ومادة ، فهو نور خالص لا تدركه الأعين . ويتأدى في هذا الغلو والبهتان الآثم ، حتى ليكاد يحمله معبود الإسماعيلي في ركوعه وقيامه . ويلقانا نفس الغلو المقيت عند الشريف ابن أنس الدولة داعي دعايتها ، إذ يروى أن الخليفة الحافظ صعد المنبر يوم عيد ، فوقف بإزائه ، وقال مخاطب المصلين ^(١) :

خشوعًا فإن الله هذا مقامه وهنسا فهذا وجهه وكلامه
وهذا الذي في كل وقت بروزه تحياته من ربنا وسلامه

وهو غلو ما بعده غلو ، بل هو انحراف عن جادة الدين ما بعده انحراف ، وكأنما الحافظ مجسد للذات الإلهية على نحو ما جسد المسيحيون الرب في المسيح .

ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية يحيى بن حسن بن جبر ، وله مجموع ^(٢) في مدائح بني أبي أسامة كتّاب الإنشاء في عهد الحافظ والأمر من قبله ، ألفه سنة ٥٢٥ . وجعله الشيخ الأميني في الغدير من شعراء المستنصر في سنة ٤٨٧ وهو متأخر عنه بشهادة ترجمة العاد الأصبهاني في الخريدة إذ أنشد له شعرا في ابن ^(٣) رُزَيْك الوزير الفاطمي من سنة ٥٤٩ حتى سنة ٥٥٦ وله قصيدة في فضائل علي بن أبي طالب وبكاء الحسين أنشدتها صاحب «الغدير» وفيها يقول ^(٤) :

يا آل أحمد كم يكابد فيكم كبدى خطوباً للقلوب بواكى
كبدى بكم مقروحة ومدامى مسفوحة وجوى قوادى ذاكى
وإذا ذكرت مصابكم قال الأسى لجفونى اجتنى لذيد كراكى ^(٥)
وابكى قبلا بالطفوف لأجله بكت السماء دما فحق بكالو

وهو يغلو في مديح علي بن أبي طالب ، وينسب له كثيرا من معجزات غير ثابتة ، كرد الشمس إليه بيايل لقضاء فرض كان سيفوته وقته ، ويزعم أن الريح سحرت له رخاء ، ويقول إنه

(١) عسلط المقرئ ٢/٢١٤ .

(٤) شعراء الغدير ٤/٣١٣ وانظر أدب الطغ ٢/٣٢٨ .

(٥) كراكى : نوك .

(٢) الخريدة ٢/١٠٥ .

(٣) الخريدة ٢/٢٣١ وما بعده .

أحيا الموتى إلى غير ذلك من مزاعم غير صحيحة . ونقف عند ثلاثة من أعلام الدعوة الإسماعيلية هم ابن هانيء والمؤيد في الدين وظافر الحداد .

ابن هانيء

هو محمد بن هانيء المهلبى الأندلسى ، ينتمى إلى المهلب بن أبى صفرة الأزدي القائد المشهور في زمن بنى أمية ووالبهم فترة على خراسان ، ويقال إنه من سلالة حفيده يزيد وإلى المنصور العباسى على إفريقية ، وقيل : بل من سلالة أخيه رَوْحَ والبا بعده . ويبدو أن أبناءهما ظلوا بعد وفاتها بإفريقية ، وكان من سلالتها أبو الشاعر هانيء ، إذ يقال أنه كان من قرية من قرى المهديّة بتونس وكان شاعرا أدبيا نزع إلى الأندلس داعيا - فيما يبدو - للمذهب الإسماعيلى هناك ونزل إشبيلية وفيها وُلد له الشاعر سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢١ على اختلاف الروايات ، وبها نشأ وعكف على الأدب ، وفتحت موهبه الشعرية مبكرة ، فانتصل بصاحب إشبيلية وحظى عنده ، غير أنه كان كبير الانهباك في اللذات ، واتهم بأنه يعتنق مذهب الفلاسفة ، أو لعله اتهم باعتناقه المذهب الإسماعيلى متابعا في ذلك أباه ، وكانتا تعدان تهمتين خطيرتين هناك فنصحه ممدوحه بالغبية عن البلدة مدة فإرحاها إلى إفريقية في السابعة والعشرين من عمره ونزل بجعفر بن على الأندلسى أمير الزاب وأخيه يحيى فأكرمهما ومدحهما الشاعر مدائح بديعة بمثل قوله في جعفر :

المشرقات النيراتُ ثلاثةُ الشمسُ والقمرُ النيرُ وجعفرُ

وسمع به المزمع فطلبه من جعفر وأخيه فلما وصل إليه بالغ في الإنعام عليه وخاصة حين رآه يعتنق المذهب الإسماعيلى ويلجج في مديحه بمبادئ المذهب التى أسلفنا الكلام عنها ، بل لكأنما اتخذ أشعاره أداة لتسجيلها في صور مغالية غلوا شديدا . وكان شاعرا مبدعا فأبدع في مدائحه ، كما أبدع في مديح قواده وخاصة في جوهر الصقلى فاتح مصر ، وله فيه حين يسم بحميه مصر من القيوان عينية رائعة استهلها بقوله :

اللسان الدين ٢١٧/٢ والمغرب لابن سبيد (طبع دار المعارف) ٩٧/٢ ومجموع الأدباء ٩٢/١٩ وابن خلكان ٤٢١/٤ وغير الذهى ٣٢٨/٢ والشترات ٤١/٣ وديوانه طبع قديما بالهند .

(١) انظر في ابن هانيء وترجمته وشعره كتاب التكملة لابن الأبار ص ١٠٣ وللطبع للفتح بن خاكان ص ٧٤ والمغرب لابن دحية (القهرس) والمغنفه للحبيدي : ٨٩ وبغية للشمس رقم ٣٠١ ونصح الطيب (القهرس) والإسطة

رَأَيْتُ بَعْضَ فَوْقَ مَا كُنْتُ أَسْمَعُ وَقَدْ رَاغَى يَوْمٌ مِنَ الْحَشْرِ أَرْوَعُ
غَدَاةً كَانَ الْأَنْقَ سُدُّ بِمَثَلِهِ فَعَادَ غُرُوبُ الشَّمْسِ مِنْ حَيْثُ تَطْلُعُ

وَنَوَّهَ بِالْجَيْشِ وَعِظَّمَهُ وَرَحَلَهُ جَوْهَرَ الْمَظْفَرَةِ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَلَمْ يَلِثْ جَوْهَرُ أَنْ أُرْسِلَ إِلَى
الْمِصْرِ يَهْتِمُ بِفَتْحِ مِصْرَ سَنَةِ ٣٥٨ فَهَتَفَ ابْنُ هَانِيءٍ فَرَحًا مُسْتَبْشِرًا :

يَقُولُ بَنُو الْعَبَّاسِ هَلْ فُتِحَتْ مِصْرُ قَتَلَ لَبْنِي الْعَبَّاسِ قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ
وَمُدُّ جَاوَزَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ جَوْهَرُ نَصَاحَةِ الْبُشْرَى وَيَقْلُمُهُ النَّصْرُ

وَجَمَعَ الْمِصْرَ أَسْبَابَهُ وَتَوَجَّهَ إِلَى مِصْرَ سَنَةِ ٣٦٢ وَشِيعَهُ ابْنُ هَانِيءٍ وَرَجَعَ إِلَى أَسْرَتِهِ بِالْمَغْرِبِ
لَاخِذَهَا مَعَهُ وَالْحَاقِقُ بِهِ ، وَلَجَّهْزُ وَتَبِعَهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ اغْتِيلَ فِي بَرْقَةٍ لَشَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ ٣٦٢ وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمْ
يُشَيِّعَ الْمِصْرِيَّ كَانَ فِي صَحْبَتِهِ إِلَى أَنْ دَخَلَ مِصْرَ ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمَغْرِبِ لِأَخْذِ عِيَالِهِ ، وَاغْتِيلَ بِبَرْقَةٍ كَمَا
ذَكَرْنَا . وَلَمَّا بَلَغَتْ الْمِصْرَ وَفَاتَهُ حَزَنٌ عَلَيْهِ وَتَأْسَفٌ قَاتِلًا : هَذَا الرَّجُلُ كُنَّا نَرْجُو أَنْ نَفَاضَ بِهِ شِعْرَاءَ
الْمَشْرِقِ فَلَمْ يَقْدِرْ لَنَا ذَلِكَ . وَلَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرِيدُ أَنْ يَفَاضَ بِهِ مِنْ حَيْثُ رَوَعَتْ شِعْرُهُ فَحَسِبَ ، بَلْ
كَانَ أَيْضًا يَرِيدُ أَنْ يَفَاضَ بِهِ مِنْ حَيْثُ اسْتَظْهَارُهُ لِلْعَقِيدَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَمِبَادِئِهَا الْمَفْرُطَةِ فِي الْغُلُوفِ افْرَاطًا
بَعِيدًا حَقًّا لَتَنْحَرِفَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَجَادَّتْهُ .

وَبِمَجْرَدِ أَنْ نَقْرَأَ فِي دِيْوَانِ ابْنِ هَانِيءٍ نَرَاهُ يَرُدُّ أَنْ إِمَامَةَ الْفَاطِمِيِّينَ رِبَانِيَّةٌ وَأَنَّهَا فَرِيضَةٌ مَكْتُوبَةٌ
عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَأَنَّهُمْ يَتَوَالَوْنَ بِتَرْتِيبٍ إِلَهِيٍّ وَأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ كُلِّ زَلَالٍ وَأَنْ طَاعَتُهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ
مِنْ أَطَاعَتِهِمْ اسْتَحَقَّ رِضْوَانُ اللَّهِ وَمِنْ عَصَاؤِهِمْ كَانَ مَالُهُ الْخُسْرَانُ الْمَبِينُ ، يَقُولُ فِي الْمِصْرِ :

إِمَامٌ رَأَيْتُ الدِّينَ مُرْتَبِطًا بِهِ نِطَاعَتُهُ فَوْزٌ وَعَصْيَانُهُ خُسْرٌ

وَهُمْ دَائِمًا مَبْرَأُونَ مِنَ الذُّنُوبِ مُطَهَّرُونَ مِنَ الْآثَامِ ، بَلْ هُمْ نُورُ اللَّهِ وَمَشْكَاةُ فِي الْعِبَادِ ،
يُضِيئُونَ لِلنَّاسِ حَيَاتِهِمْ ، وَيَكْشِفُونَ عَنْهُمْ ظِلْمَاتِ الضَّلَالِ ، وَكَأَنَّهُمْ يُشْتَوْنَ نُورَ اللَّهِ أَوْ كَأَنَّهُمْ
يُشَارِكُونَ فِيهِ ، يَقُولُ فِي الْمِصْرِ :

وَمَا كُنْتُ هَذَا النَّوْرِ نَوْرُ جَبِينِي وَلَكِنْ نُورَ اللَّهِ فِيهِ مُشَارِكُ

وَيُكَرِّرُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ كَثِيرًا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ مَا دَحَا لِلْمِصْرِ :

تَسْمَى بِنُورِ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ لَتَنْصِيءَ بِرَهَانًا لَهُمْ وَتَلْقُوا
وَجَدَ الْيَأْنَ سَنَّاكَ تَحْقِيقًا وَلَمْ تُحِطِ الظُّلُونُ بِكُنْهِهِ نَصْرِيحًا

وقد انتقل ابن هاني نقلة واسعة فقد جعل المعز نوراً خالصاً ، وكأنما ليس فيه شيء من المادة ولا من الطبيعة البشرية ، ويصرح بذلك إذ يقول إن العيان والحس إنما يشهدان سناه وضياؤه فحسب ، أما هو فكانه الذات العلية لا تحيط الظنون بكنهه وحقيقته ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ويعود إلى مثل هذا الظو الشائن في مدحه للمعز قاتلاً :

أَتَبَحُّهُ فَيَكْرِى حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ غَايَاتَهَا بَيْنَ تَصَوُّبٍ وَتَصْغِيرٍ
رَأَيْتُ مَوْضِعَ بَرَاهَانٍ يُلُوحُ وَمَا رَأَيْتُ مَوْضِعَ تَكْيِيفٍ وَتَحْدِيدِ

وقد خطا ابن هاني في الظو هنا خطوة أبعد من سابقتها إذ جعل المعز يخلو من كل صورة للمادة ، بل كأنما جعله الخالق نفسه ، إذ نفى عنه ما ينفيه المترلة عن الله من كل تشبيه وتمجيد ، فلا حد له ولا كيف ولا هيئة بأى شكل من الأشكال . وقد بدأوا كما بدأ المسيحيون في مسيحهم بأن في الإنسان لا هوأ وناسوتاً أو روحاً وجسماً . وبالفرا فخلصوا - مثل ابن هاني - أنفسهم من كل أثر للمادة ، وجعلوهم روحاً أو نوراً خالصاً ، بل جعلوهم نفس الله بأسمائه وصفاته ، حتى لنى ابن هاني يقول في المعز :

مَا شِئْتُ لَأَمَّا شَاءَتِ الْأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
وَيَقُولُ فِيهِ أَيْضاً :

نَدَعُوهُ مُنْتَقِماً عَزِيزاً قَادِراً غَفَّارَ مُؤَيِّدِ الذُّنُوبِ صَفُوحَا

فالمعز الواحد القهَّار المنتقم العزيز القادر للغفار . وعلى هذا النحو زين لهم دعائهم وشياطينهم أن يترهوا الله عن أسمائه وصفاته في القرآن الكريم ويسبقوها على أنفسهم ، ضلال ما بعده ضلال ومروق لا بدائيه مروق . ومن هذا الباب ما يزعمه ابن هاني في المعز من أنه مقسم الأرزاق بين العباد :

رَأَيْتُكَ مَنْ تَرَزَّقَهُ يُرَزِّقُ مِنَ الْوَدَى دِرَاكًا وَمَنْ تَحَرَّمَ مِنَ النَّاسِ يُحَرِّمُ

لمن شاء رَزَقَهُ ووَسَّعَ رِزْقَهُ ومن شاء حرمه وضيق عليه وجعل حياته ضنكا ، وكل شيء في الأرض بل في الكون بمشيئته حتى ليقول ابن هاني فيه :

أَدَارَ - كَمَا شَاءَ - الْوَدَى وَتَحَبَّرَتْ عَلَى السَّبْعَةِ الْأَفْلَاقُ أَتَمَلُّهُ الْعَشْرُ

فهو لا يمين على شئون الناس وأحوالهم فحسب ، بل هو أيضا يمين ويسيطر على الأفلاك التي تصدر عنها الحركة في الكون . وكل ذلك لما لجؤا فيه من أن الإمام بمنول العقل الفعال المسيطر على الوجود ، فجعلوه نفس هذا العقل الذي آمن به الفلاسفة ، وجعلوه لذلك العلة الأولى أو علة العلل التي ينشئ عنها الكون ، مما جعل ابن هاني يقول عن المعز :

هو عِلَّةُ الدِّنيا وَمَنْ خُلِقَتْ لَهُ وَلَعَلَّ مَا كَانَتْ الْأَشْيَاءُ

وماذا بقى لخالق الكون ؟ وحتى الحياة والموت ملكها ابن هاني للمعز يوزعها على الناس كيف يشاء إذ يقول مخاطبا للمعز :

لَكَ الدَّهْرُ وَالْأَيَّامُ تَجْرِي صُرُوفُهَا بِمَا شِئْتَ مِنْ حَتْفٍ وَرِزْقٍ مَقْسَمٍ

فهو الذي يجي ويميت وهو الذي يدبّر الدنيا ويصرفها ، وهو الذي يمين على الكون وينسقه ، وهو الرازق ومانع الرزق وهو المنتقم العزيز الغفار وهو الواحد القادر للقهار . ولا نعجب بعد ذلك كله لابن هاني إذ يقول :

أَرَى مَذْحَهُ كَالْمَدْحِ لَهْ إِنَّهُ قُنُوتٌ وَتَسْبِيحٌ يُحِطُّ بِهِ الْوِزْرُ

ويستضيء ابن هاني بفكرة الدور عند الإسماعيلية مرارا وما يذهبون إليه من أن الأئمة الفاطميين خلفاء الأنبياء وأنهم يتظنون معهم منذ آدم في أدوار سبعة ، كل دور يُخْتَمُ بإمام سابع نبي أو من الخلفاء الفاطميين ويسمونه الناطق وهو يمثل عندهم العقل الأول الفعال الذي تحولت إليه قدرة الله وأسماءه وصفاته ، ومن هنا كانت تطلق على ممثله من الأئمة ، وهو الإمام السابع الحامل للنور الرباني الذي يتمثل في كل إمام سابع منذ آدم . ولما كان المعز نهاية السبعة الثانية من الأئمة الفاطميين فإنه كما يتمثل فيه نور كل إمام سابع قبله من الأنبياء يتمثل فيه نور نوح :

لَوْ كُنْتُ نَوْحًا مَنَدَرًا فِي قَوْمِهِ مَازَادَهُمْ بَدْعَائِهِ تَضْلِيلًا

ويتمثل فيه قيس موسى وشعلته وهدهد :

مِنْ شُعْلَةِ الْقَبَسِ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَى مُوسَى وَقَدْ حَارَتْ بِهِ الظُّلُمَاءُ

ويتمثل فيه نور المسيح الذي كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله :

أَقْسَمْتُ لَوْلَا أَنْ دُعِبْتَ خَلِيفَةً لِدُعَيْتِ مِنْ بَعْدِ الْمَسِيحِ مَسِيحًا

ويمثل فيه نور الرسول ﷺ المشاهد في كل نور بملكوته السموات : في الشمس والقمر والكواكب والنجوم :

وَكُنَّا أَنْتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ وَكُنَّا أَنْصَارُكَ الْأَنْصَارُ

ويبلغ به الإلحاد في الدين أن لا يكتفى بحلول أرواح الأنبياء في المعز ، بل يجعل الله يحل فيه ، بل لكانه الله ، جلّ جلاله عن أن يتعلق بذاته العلية شيء من ترهاته إذ يقول في غير استحياء للمعز حين حلّ بقرية رَقَادَةَ بِحِوَارِ الْقَبِيَّانِ :

حَلَّ بِرَقَادَةَ الْمَسِيحُ حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو الْمَعَالِي وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رَيْحُ

وكان ابن هاني شاعرا فذا بارعا ، وإنا لنأسى له حين سخر ملكاته الشعرية الخصب التي منحها له ربه في الدعوة للعقيدة الإسماعيلية الضالة . وهو في رأينا يعدّ مشولا إلى حد كبير عن اندفاع الشعراء بعده في هذه الدعوة الخاطئة المنحرفة ، وهو أيضا إلى حد ما يعدّ مشولا عن ضلال الخليفة الحاكم الفاطمي حين قال بعد جده المعز : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ، وتبعه في ضلاله ومروقه من تبعه . وكان ابن هاني يكثر من التشبهات والاستعارات أحيانا في أشعاره ، ونفذ إلى صور كثيرة مبتكرة كقوله في مطلع قصيدة مدح بها جعفر بن علي الأندلسي :

فَقَتَّ لَكُمْ رَيْحُ الْجِلَادِ بِعَتِيرٍ وَأَمْدُكُمْ قَلَقُ الصَّبَاحِ الْمُسْفِرِ
وَجَنِيئُكُمْ نَمَرُ الْوَقَائِعِ يَانَعًا بِالنَّصْرِ مِنْ وَرَقِ الْحَدِيدِ الْأَخْضَرِ

وهو يتصور الجلاد أو القتال رحا عاصفا يفوح منه شذى العنبر والطيب وهو يهب في الصباح المشرق الجميل . ونفذ إلى صورة بديعة إذ تخيل السيوف شجرا مورقا مشمرا وهم يحنون منه النصر المأمول ، والقصيدة تكثف بأبيات رائعة .

المؤيد^(١) في الدين الشيرازي

هو هبة الله بن أبي عمران موسى بن داود ، ولد بشيراز في العقد الأخير من القرن الرابع

إبراهيم نشر د . محمد عبد القادر عبد الناصر ، وانظر مجمع الأدباء ١٧٥/٣ وما بعدها في ترجمة أبي العلاء .

(١) انظر في المؤيد ديوانه ومقدماته بتحقيق الدكتور محمد كامل حسين وكتابه : في أدب عصر الفاطمية ص ٥٩ ونشره للسيرة المؤيدة وراجع مختصر المجالس المؤيدة لحاتم بن

المهجري لأبيه موسى ، وكان من دعاة الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وتقدم في الدعوة ، حتى استحق لقب حُجَّة إقليم فارس ، ونشأ ابنه على مثاله في الإخلاص لتلك الدعوة ومازال يسمى له عند الحاكم الخليفة الفاطمي (٣٨٦ - ٤١١ هـ) حتى جعله خليفة له في فارس ، ومنحه نفس اللقب الفاطمي : الحجة ، وهو لقب رفيع من ألقابهم . وكان سيوسا ، فتقرب من نفوس أتباعه وأخلصوا له ، وحاول أن يدخل أبا كاليبجار الحاكم البرهسي في عقيدته ، ويقال إنه عقد له مجلسا كان يلقى فيه كتاب دعائم الإسلام للقاظمي النعمان بن محمد الكتامي داعي الدعاة لعهد المعز ، وأيضا فإنه بنى مسجدا بالأهواز ونقش على محرابه بالذهب أسماء الأئمة الفاطميين ، وطلب من أتباعه أن يؤذّنوا فيه بأذان الإسماعيليين : «حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» . ومن أهم أتباعه حينئذ ناصر محسرو . وتنبه له الخليفة العباسي ببغداد ، فأرسل إليه من يتقبه ، وخشى على نفسه ، ففرّ موليا وجهه نحو مصر والقاهرة : مركز دعوته ، ووصل إليها سنة ٤٣٧ لمهد الخليفة الفاطمي المستنصر ، واستقر بها ، وحضر مجالس الدعوة فيها ، وعيّنهُ الوزير البازوري رئيسا لديوان الإنشاء ، وظل في هذا العمل حتى سنة ٤٥٠ وهو يتصل سرا بدعاة الدولة في إيران والعراق ، وأحسّ خطر طغربك السلجوقي حين تستقيم له العراق ، فرما فكر في الاستيلاء على الشام ومصر ، وكانت العلاقة ساءت بين طُغْرُبُك وأخيه إبراهيم ، وكان قد ولاه على الموصل ، فأعلن العصيان لأخيه ورحل إلى بلاد الجبل فتبعه بجيشه ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، ورأى المؤيد في الدين الفرصة سانحة فكاتب البساسيري مقدم الأتراك ببغداد . وذهب إليه بنفسه محمّلا بالأموال من المستنصر ، ومحدثنا في سيرته كيف أخذ يستميل أمراء العرب في طريقه إلى بغداد وكيف نفروا معه ، يؤازرهم أهل الكوفة وواسط وحلب ، وكيف وصل إلى بغداد ، حيث وجد البساسيري قد أبعد الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى «عانة» سنة ٤٥٠ ودعا على المنابر باسم المستنصر باقه ، وظل ذلك نحو عام ، حتى إذا قضى طغربك على عصيان أخيه وثورته قدم إلى بغداد وقضى على البساسيري ودعوته وأعاد الخليفة العباسي إلى مبرسه . ولمر في هذه الأثناء المؤيد إلى القاهرة ، وتولى بها مرتبة داعي الدعاة جزاء لجهوده وإن كانت قد أخفقت إخفاقاً ذريعا ، غير أنه حقق للفاطميين حلما طالما رجعوا لتحقيقه وهو أن يُدْعَى على منابر بغداد باسمهم ولو إلى حين أقصير . وكتابه «السيرة المؤيدية» يصور فيه حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ وما اضطرب فيه من أحداث ، وهو لذلك يعد وثيقة تاريخية مهمة .

وأخذ المؤيد في أثناء اضطلاله بمرتبة داعي الدعاة يلقى دروسه بالجامع الأزهر ، وقد جمعها

في كتابه « المجالس المريدية » وهي تضم ثمانمائة مجلس له ، وقد اختصرها حاتم بن إبراهيم الداعي البجلي ، وعُني بنشر مختصره وتحقيقه الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر وهو موسوعة كبيرة في العقيدة الفاطمية والتأويل الباطني وما يتصل به من الحكمة التأويلية ، ويشتمل على مناظرات مع مخالفيه وردود عليهم ، لعل من أهمها ردوده على ابن الراوندي ودحض آرائه الإلحادية^(١) . وله رسائل متبادلة مع أبي العلاء المري ناظره فيها طويلا في تحريره على نفسه أكل الحيوان وكل ما يتجبه من اللبن والبيض وعسل النحل ، وقد احتفظ بها ياقوت في معجمه . وكان شاعرا كما كان كاتباً ناثراً ، وحقق الدكتور محمد كامل حسين ديوانه ونشره بالقاهرة ، وهو في مديح المستنصر الفاطمي وآبائه والدعوة إلى العقيدة الفاطمية وكل ما يتصل بها من التأويل الباطني الموقوف على الأئمة الفاطميين وآبائهم من البيت العلوي ، فهم وحدهم الذين يعرفون أسرار التأويل في القرآن على نحو ما خصَّ الله الخضره الرجل الصالح بأسرار لم يعرفها موسى عليه السلام ، وبالمثل الأئمة يعرفون من الأسرار في تأويل الذكر الحكيم ما لا تعرفه العامة ، وفي ذلك يقول في أولى قصائده بديوانه محتجا بقصة الخضر على جهل العامة بسر الملوكوت أو أسرارهم ووقفها على الأئمة :

ياقومُ سِرُّ الملوكوت هذا يجعلُ أصنامكمُ جُذاذا
سُرُّ له صاحبُ موسى الخضرُ قال معي لن نستطيعَ صبرا
تدبروا القصة ماذا يسأ من قصها إن لم تكونوا نوما

وكان كل إمام خضر زمنه ، وهو وحده الذي يعرف أسرار الكون وبواطن الآيات القرآنية ، وهي معرفة اختص الله بها الوصي الأول على بن أبي طالب وأبناءه الأئمة . والمؤيد في الدين بذلك يرفع الأئمة درجات على سائر الخلق ، بل هي العقيدة الفاطمية التي تجعلهم نورا خالصا . لا تعلق بهم مادة ولا ما يشبه المادة على نحو ما رأينا عند ابن هاني ، وقد مضى المؤيد وراءه ردود نقديسه للأئمة وأنهم فوق الطبيعة البشرية ، ومضى يسبح عليهم كثيرا من الصفات الربانية ، حتى يجعلهم القائمين على الجنة والنار فيدخلون الجنة بأتباعهم ويزجون بأعداءهم في الجحيم ، يقول :

يقيمون الجنانَ والنارَ فيهم فلكل نصيبه الموجبُ

كبرت كلمة بل كلمات تخرج من له ، ويتأدى في هذا الضلال فيجعل زيارة الإمام أداء

(١) انظر في ذلك كتاب تاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد

الرحمن بدوي (نشر مكتبة النهضة) ص ٧٥-٨٨ .

لفريضة الحج يقطع إليها أصحابه القلوات للتبرك به ، فهو القبله والغايه التي ليس بعدها غايه ، يقول :

هَلَمْ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي بِسَاحَتِهَا سَكَّانُهَا أَتَيْنَا الْمَوْتَ
إِلَى عِلْمِ الْإِيمَانِ وَالْقَبِيلَةِ الَّتِي عَلَيْهَا بَلَامِيكُ دُلَّتْ وَوُجْهَتَا
وَمِيزَانُ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي بِهِ تُؤْفَى الثَّوَابَ الْجَزَلَ إِنْ أَنْتَ وَقِيَّتَا
فَالْمُسْتَصْرَ وَأَمثالُه مِيزَانُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ، بطاعتهم ومقدارها يكون الثواب وبعضياتهم
ومقداره يكون العذاب ، وما يزال المؤيد يردد مثل هذا الضلال واليهتان في ديوانه .

ومما رددته المؤيد طويلا نظرية الدور التي تصور إيمان الإسماعيلية في أمتهم وأنهم مثل العقل
الفعال الأول في عالم الطبيعة ، وهم لذلك يعدون مدبرين للكون ، وأيضا فإن أسماء الله الحسنى
تُسَبِّحُ عليهم ، وقد رتبوا في أدوار تشترك معهم فيها الأنبياء والرسل منذ آدم ، وكل منهم يمثل من
سبقوه في هذه الأدوار من الأئمة والرسل ، وفي ذلك يقول في المستصر وآله :

سَلَامٌ عَلَى الْعِزَّةِ الطَّاهِرَةِ	وَأَهْلًا بِأَنْوَارِهَا الزَّاهِرَةِ
سَلَامٌ بِدَيْءِ عَلَى آدَمَ	أَبِي الْخَلْقِ بِأَدْبِهِ وَالْحَاضِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى مَنْ بَطَوَافِيهِ	أَدِيرَتْ عَلَى مَنْ بَنَى الدَّائِرَةَ
سَلَامٌ عَلَى مَنْ أَنَاهِ السَّلَامُ	غَدَاةً أَحْفَتْ بِهِ النَّائِرَةُ ^(١)
سَلَامٌ عَلَى قَاهِرٍ بِالْعَصَا	عُصَاةَ فِرَاعِنَةَ جَائِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى الرُّوحِ عَجَبِ الَّذِي	بِمَعْنَاهُ شَرَّفَتْ نَاصِرَهُ ^(٢)
سَلَامٌ عَلَى الْمُصْطَفَى أَحْمَدِ	وَلِيُّ الشَّفَاعَةِ فِي الْآخِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى الْمُرْتَضَى حَيْدَرِ	وَأُبْنَانِهِ الْأَنْجَمِ الزَّاهِرَةِ
سَلَامٌ عَلَيْكَ فَمَحْصُولِهِ	لَدَيْكَ أَيَا صَاحِبِ الْقَاهِرَةِ
بِنَفْسِي مُسْتَنْصَرًا بِالْإِلَهِ	جُنُودُ السَّمَاءِ لَهُ نَاصِرَةُ
شَهِدْتُ بِأَنَّكَ وَجْهُ الْإِلَهِ	وَجُوهُ الْمَوَالِي بِهِ نَاصِرَةُ

وواضح أن المؤيد بدأ سلامه بآل البيت ، ثم تلاهم بآدم ونوح صاحب الطوفان وإبراهيم
الذي ألقاه الخمرود في النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما ومومى صاحب العصا التي استعالت

نعبانا في مجلس فرعون فإذا هي تلفت كل ما جاء به سحرته من سحر رهيب ، وعيسى الروح الأمين الذي شرفت به مديته الناصرة ، ومحمد المصطفى الشفيح المشفع في الآخرة ، وعلى أوحيد المرتضى وأبنائه الأئمة الأئمة الأئمة . ويقول إن المستنصر لديه محصول كل هؤلاء الرسل وكل الأئمة فهو الرسول وهو عيسى وهو موسى وهو إبراهيم الخليل وهو نوح وهو آدم وهو على والأئمة جميعا قبله إماما إماما . وهو بذلك وارث الأئمة والرسل ، وارث علومهم ومعجزاتهم وخوارقهم . ولا يكتفى المزيد بكل ذلك ، إذ يقول إن الملائكة جنده الذي ينصره في معاركه ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يتقدم خطوة بل خطوات إذ لا يُسبغ عليه صفات الله وحدها ، بل يجعل ذاته نفس ذات الله إذ يقول إنه وجه الإله ، وكأنه اتحد معه في ذاته تعالى الله عن هذا البهتان الآثم علوا كبيرا ، وهو ليس بهتانا فحسب ، بل هو ضلال مبین .

ظافر^(١) الحداد

هو ظافر بن القاسم الإسكندري ، من سلالة قبيلة جُدَام البجينة ، كان أبوه حدادا بالإسكندرية ، ولد له في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، ويبدو أنه أرسله في صباه إلى الكتاب ، ورأى من ذكائه ما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء ، وهو مع ذلك يعاونه في حرفته . وأكب الصبي على حفظ الشعر وكانت له ملكة خصبة ، سَوَتْ منه شاعرا كان يلفت أقرانه ، كما لفت كثيرين من شعراء الإسكندرية ، وكانت بها آنذاك نهضة شعرية واسعة ، جعلت شعراءها يتكاثرون ، كما جعلت العماد الأصماني في الخريدة يترجم لكثيرين منهم . ولعل شيئا من العجب يداخلنا إذ نجد بين الشعراء هناك شاعرا حدادا ، ولكن إذا عرفنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت طوال الحقب السالفة ثقافة شعبية عامة إذ كانت تُلقى بالمساجد ، ولكل شخص الحق في أن يجلس إلى حلقة الشيخ الذي يريد الاستماع إليه ، وكانت للشعراء في المساجد حلقات ، مما أتاح لشباب العامة المشاركة في الشعر وفي العلوم العربية والإسلامية ، وتكثر هذه الظاهرة بين شعراء الدولة المملوكية ، إذ نجد بينهم جزارا وحمّاسيا ووراثا ونخباطا وكحالا . وقد

والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٥ وه في أدب مصر الفاطمية ،
للكثير محمد كامل حنين ص ١٩٠ وظافر الحداد الحسين
نصار وديوانه بتحقيقه (نشر مكتبة مصر) .

(١) انظر في ترجمة ظافر وشعره الخريدة (قسم شعراء
مصر) ١/٢ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢٧/١٢ ووفيات
الأعيان لابن خلكان ٥٤٠/٢ والرسالة المصرية لأبي الصلت
أمية في الجزء الأول من نواهد المخطوطات لعبد السلام هرون

تفتحت موهبة الشعر عند ظافر مبكرة وتبيأت له فرصة أن يتلقى اسمه بين شعراء مدينته ، فإن ابن ظفر والبا من قبل الخليفة الفاطمي تصادف أن ورم خنصره وبه خاتم ، فخشى عاقبة الأمر وطلب حداً كي يكسر حلقتة ، فجاءوه بظافر ، فلما كسر الحلقة أنشده يديها :

قَصَّرَ في أوصافك العالمُ واعترف النائرُ والناظمُ
من يكنو البحرُ له راحةً بضيق عن خنصره الخاتمُ

فاستحسن ذلك منه ابن ظفر ووجه الحلقة وكانت من ذهب . وكان بين يديه غزال مستأنس قد ربض أو طوى قوائمه ، وجعل رأسه في حجره ، فقال له أحد الحاضرين : إن كنت ذا خاطر سمح فأنشدنا أسرع من لمح البصر في هذا الغزال للمستأنس ، فقال توا :

عجبتُ لجرأة هذا الغزال وأمرُ تخطي له واعتَمَدَ
وأعجبُ به إذ بَدَأَ جاثماً فكيف اطمأنُّ وأنت الأسدُ

فزاد ابن ظفر وجلساؤه في الاستحسان . وكانت هناك شبكة مسدولة على باب المجلس تمنع الدباب من دخوله ، فأملها ظافر وقال يديها :

رأيتُ بسبابك هذا المنيفو شيباكما فأدركني بعضُ شكُ
وفكرتُ فيما رأى خاطري فقلتُ البحارُ مكانُ الشبكُ

وكانت هذه الحادثة سببا في اشتار ظافر بمدينته ، ونهاداه أعيانها وقضاتها مثل ابن أبي حديد قاضيا وله فيه مدائح طريفة .

وطمح ظافر إلى لقاء الأفضل بن بدر الجمالي وزير الفاطميين ، وكان قد حجر على الخليفة الأمر وأصبح له الملك والسلطان كله ، فاتخذ الأسباب إلى لقائه ، ولم يكده يستمع منه إلى مديحه حتى أكبره وقلّبه على أقرانه ، وسكن ظافر بيمجواره في القسطاط ، وأخذ يدبج فيه مدائح طانة ، وهو يفتق عليه من نواله مع راتب قدره له ، وإلى ذلك يشير قائلا :

وهذا الجنبُ الأفضلى يُكِنُّ ذرى ظلّه إلى إذنٍ لسعيدُ

وقدّر لهذه السعادة أن ينحسر ظلها عن ظافر إذ دبر الخليفة الأمر للأفضل من قتله غيلة سنة ١٠٥٠ للهجرة ، وولى الوزارة بعد الأفضل المأمون البطاحي ، ولظافر فيه مدحتان يشكروفيهما من عوزه وضيق ذات يده ، ومع ذلك يشكره على ما أولاه من نعم . ويبدو أن ما نم به في زمن الأفضل

من أموال انقطع بعده إلا قليلا ، وكان أبواب المأمون لم تكن مفتوحة له إلا من حين بعيد إلى حين ، ولا يلبث الخليفة الأمر في سنة ٥١٩ هـ أن يصادر المأمون ثم يقتله . حيث نجد ظافرا يفكر في تقديم مدامحه للخليفة ، ولم يكن شيئا فضلا عن أن يكون إسماعيليا طوال أيامه الماضية ، فقد رأيناه حين نزل القسطنطينية يقصر مدامحه على الوزير الأفضل بن بدر الجليلي ، وكان سببا ، وكان المأمون البطاغمي من رجاله ، ولعله لذلك لم يكن شيئا أو بعبارة أدق لم يكن غالبا في تشييعه . على كل حال ليس في مديح ظافر له وللأفضل ما يبدل على صلكه بالتشيع الإسماعيلي حتى هذا التاريخ . ولكن المأمون قُتل ، وكأنما دُفع دفعا لكي يمدح الخليفة الأمر ، فأكتبُ على ديوان ابن هاني الأندلسي يدرسه لينمثل معاني العقيدة الإسماعيلية ، ويرى نهجه في عرضها بمدحها ليحذبه ، يقول في إحدى مدامحه للأمر مصرحا بذلك دون أي مواربة :

أَجَادَ ابْنُ هَانِي فِي الْمَرْءِ مَدَائِحًا هَدَاهُ إِلَيْهَا ذَلِكَ الْفَضْلُ وَالسَّجْدُ
وَقَدْ جَادَ مَدْحِي فَيْكَ لِمَا رَأَيْتُ مَا رَأَى فَاسْتَوَى الْمَدْحَانِ وَالْإِبْنُ وَالْجَدُّ

ونراه في نفس هذه القصيدة يردد ما رددته ابن هاني من أن طاعة الخليفة أو الإمام الفاطمي فريضة واجبة ، على كل إسماعيلي أن يعنتقها وأن يؤدي واجباتها ، يقول :

فَمَنْ عَاشَرَ أَخِيَاءَ نَدَاهُ وَمَنْ يَمُتْ عَلَى حَبْوٍ طَوْعًا لِمَسْكَنِهِ الْخُلْدُ
أَطَاعَتْهُ أَسْرَارُ الْقُلُوبِ دَبَانَةً لِمَا لَامَرِي لَمْ يَعْتَقِدْ حَبَّهُ رُشْدُ
فَطَاعَتْهُ فَرَضٌ وَخَدَمَتْهُ نَفْيٌ وَنَصَرَتْهُ دِينٌ وَمَرْضَاتُهُ جَدُّ

فطاعة الأمر وأمثاله من الأئمة فرض مكتوب ، فمن أطاعه فاز بالرضوان ومن عصاه كانت عاقبته الخسران ، وإن مرضاته لجدة أو حظ أكبر ، ولا إسلام إلا بطاعته ومولاته ومحبه . والأمر مثله مثل الأئمة قبله ، يرتفع فوق حدود الطبيعة البشرية ، إذ هو مثل العقل الفعال الأول الرابط بين الله والوجود ، وهو بذلك النور الإلهي ، نور السموات والأرض . ولن يفهم ظافر كل هذه الفلسفة الإسماعيلية المنحرفة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع ، وهو لذلك سيلتقط دون تعمق من ابن هاني فكرة النور التي يرددها في مديحه للمعز قاتلا في الأمر :

إِمَامٌ تَبْدَى لِلْوَدَى مِنْ جَبِينِهِ ضِيَاءٌ بِهِ تُشْفَى بَصَائِرُهَا الرُّشْدُ
وَنُورُكَ مَا يُهْدِي الصَّبَاحُ لِنَظِيرٍ وَلَوْلَاهُ ضَلَّ النَّاسُ وَامْتَنَعَ الْقَصْدُ

- وكان ظافرا ينقل ذلك عن ابن هانيء دون أن يدرك مقصده تماما وأن ممدوحه نور السموات والأرض ، وبالمثل نقل عنه نظرية الأدوار التي تزعم أن الأنبياء والأئمة الفاطميين إنما هم مظاهر دورية للعقل الفعال وحلقاته البادئة بآدم والتي ينتظم فيها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثم على وأبناؤه وأحفاده من الأئمة الطاهرين ، ويلم ظافر بظاهر من ذلك كله قائلا في مدحة أخرى للآمر :

أنت الذى بعثَ الإلهَ لنا بهِ آبَاءَهُ فَنَسْتَلُوا بِمُسْئِلِهِ
هذا ضياءُ اللهِ والمعنى الذى تتفاضلُ العلماءُ فى تعليلهِ
مازال يَشْتَقِلُهُ الإلهُ مُطَهَّرًا عن ظَهَرٍ مثلِ ذِيحِهِ وخَطْبِهِ
وتوارثتهِ الأنبياءُ وسادةُ الـ خلفاءِ حقِ حان وقتُ حُلُولِهِ

فآباء الأمر من الأئمة والأنبياء قد تمتلوا فيه بميراثهم الرباني من النور الذى يعم أطباق السموات والأرض ، ومازال الله ينقل هذا النور من نبي إلى نبي ومن إمام إلى إمام من مثل إبراهيم وإسماعيل وذبحه ومثل على وجعفر الصادق إلى أن حلَّ في الأمر المطهر المحضوف بالعبادة الإلهية والثَّفحة النورية ، ومن ثمَّ كان ابن هانيء يقول في الميزان جواهر الملكوت وإنه العقل المدبر للكون . ولم يكن ظافر يتغلغل في العقيدة الإسماعيلية هذا التغلغل ، بل كان يقف كما رأينا عند ظاهر من أقوال ابن هانيء في الميز ويردها في الأمر . وهو معنى ما قلناه في غير هذا الموضع من أن المصريين انصرفوا عن العقيدة الإسماعيلية ولم يحاول أحد منهم أن يكون داعية لهم على شاكلة المؤيد وابن هانيء . ولعل مما يؤكد ذلك عند ظافر أننا نجده يضيف إلى قبارة مديحه للآمر وترين لا نجدها عند ابن هانيء ، وهما ميراث الأمر وآبائه للرسول ﷺ ، مما جعله يتغنى بمعجزاته الخارقة من المعراج وغير المعراج ، ثم الاتساع بخياله في بيان سحق جيوش الأمر للصليبيين ، وكانوا قد استولوا في عهده على بيت المقدس وكثير من ثغور الشام وبلدانه ، والخليفة ووزيره الأفضل والمأمون يغطون في غفلة لا تدانها غفلة ، وكان ظافرا يحاول إيقاظ الأمر ودفعه للذَّب عن حُرُمات الإسلام ودياره أمام حملة الصليب ، وهو في ذلك إنما كان لسانا للمصريين يعبر عن فزعهم للغزو الصليبي وما يأملون من القضاء على حملة الصليب قضاء امريما . وهذا الوتر في مدائح ظافر للآمر ووتر الميراث النبوي إنما هو لمحدثه لأن لا تنف عند المبادئ الإسماعيلية في مدح الأئمة الفاطميين إلا لاما وإلا عند هذا الظاهر السطحي منها الذى صَوَّرَناه .

ودليل ثان على أن هذه المبادئ لم تتعمق نفس ظافر أنه حين قُتل الأمر سنة ٥٢٤ • وتولى ابن عمه الخليفة الحافظ واتخذ أبا علي بن الأفضل الجمالي السني وزيراً له ، حيث نجد ظافراً يمدحه مدحا يتخلو خطوا تاما من هذا الغلو الإسماعيلي الذي رأيناه في مدائح الأمر . وكان من المبادئ الإسماعيلية أن يتولى الخلافة ابن الخليفة وتصادف أن الأمر لم يترك ابنا ، وقيل بل ترك طفلا رضيعا اسمه الطيب ، وتمصبت له جماعة سميت الطيبة وتمصبت جماعة أخرى سريعا للحافظ عبد المجيد ابن عم الأمر ، وأخذت له البيعة واستولى على مقاليد الخلافة . وظل من ذلك جَمْرٌ محتف وراء الرماد ، مما جعل ظافرا يدافع في بعض مديحه للحافظ عنه وعن حقه في الخلافة قائلا :

ورثَ ابنُ عمِّ محمدٍ من بعده حقَّ الخلافةِ مُنصفاً في نَقْلِها
وورثتْ أنتَ عن ابنِ عمِّك حقَّها فجرى قياسُ خلافةٍ في شكلها

فالحافظ ورث الخلافة عن الأمر كما ورثها عن الرسول ﷺ ابن عمه علي بن أبي طالب رأس الأئمة . ولا يلح ظافر فيما كان يعتقد الإسماعيليون في أنتمهم من معان قدسية ومن رفعهم عن حدود الطبيعة البشرية المادية ، فهو إنما يمدح الحافظ بميراثه للرسول مما يجعله يطيل في بيان معجزاته . ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن كل ما استبقاه من العقيدة الفاطمية في مديحه قوله .

بِاحْجَةِ الله التي أبدتْ لنا بِكَمالِها الآياتِ والبُرْهانا

وكأنما حدث انقلاب في مديح ظافر للحافظ بالقياس إلى مديحه للأمر ، وليس له في الحافظ إلا قصيدتان مع أنه عاش في مدة خلافته خمس سنوات ، إذ توفي سنة ٥٢٩ • وأكبر الظن أن فيما قلتم ما يدل على أن ظافرا لم يكن إسماعيليا بالمعنى الدقيق ، وإنما هي فترة محدودة نحو أربع سنوات اضطر فيها للمديح الأمر على طريقة القوم ، مما جعله يعود إلى ديوان ابن هاني يستظهر ما فيه أو بعضا مما فيه ، ولم يمتدُ استظهاره قشورا ، ردَّدها حيناً في مديح الأمر ثم كَفَّ عنها في مديح الحافظ إلا ما سقط عفوا .

ويدون ريب كان ظافر شاعرا بارعا وفيه يقول العماد الأصمباني في ترجمته له بكتابه الخريدة :
« ظافر ، بحظه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر .. حداد لو أنصفُ لسميَ جوهرياً ، وكان باعتزائه إلى نظم الآلئ حرباً ، أهْدَى بِرَوى شعره

الرؤى للقلوب الصادبة^(١) ربياً ، فياله ناظماً فصيحاً مقلداً جريبياً^(٢) . وحقا شعره غابة في السلاسة والعذوبة ، وهي ظاهرة عامة تلاحظ دائماً في شعر المصريين ، كما يلاحظ عندهم على الأقل حتى زمن ظافر أنهم لا يتصنعون للبدع ومختراته المقلدة ، قد تأتى عندهم وقد يستخدمونها أحياناً ولكن في خفة ووشاقة . ودائماً تلقانا عند ظافر العذوبة والرقّة على نحو ما نرى في مثل قوله متغزلاً :

يا ساكني مصرٍ أما مِنْ رَحْمَةٍ فيكم لمن ذهب الغرامُ بِلَبِّهِ
أمن المروءة أن يزورَ بلادكم مثلَ ويرجعَ مُعْدِماً من قلبهِ

وهما يتان في منتهى السهولة ، وكان ينفذ كثيراً إلى صور طريقة مبتكرة ، وقد يبعد فيها حتى تصبح كأنها رؤى حائلة على شاكلة قوله :

لَنْ أَنْكَرْتُ مَقْلَتَهَا دَمَّةً لَهْ عَلَى وَجَسَتْهَا سِمَةٌ
وَمَا فِي أَنْامِلِهَا بَعْضُهُ دَعْتُهُ خِضَاباً لَكِي تُوهِمَهُ

وواضح أنه كان عند ظافر حظ من الخيال المفرق في الوهم إغراقاً يروع قارئه ، ويستند له قطعة من غزله في الفصل التالي ، ونكتفي بصورة واحدة من صوره الحائلة العجيبة للدل على هذه المقدرة البارعة ، وهي صورة وصف فيها الهرمين وأبا الهول وصفا لم يقع لشاعر من قبله ولا من بعده ، يقول :

تَأْمَلْ بَنِيَّ الْهَرَمَيْنِ وَأَنْظُرْ وَبَيْنَهُمَا أَبُو الْهَوْلِ الْعَجِيبُ
كَعَمَارَتَيْنِ عَلَى رَحِيلٍ لِحَبْوَيْنِ بَيْنَهُمَا رَقِيبُ
وَمَاءُ النَّيْلِ تَحْمِيهِمَا دَمُوعُ وَصَوْتُ الرِّيحِ عِنْدَهُمَا نَجِيبُ

وهي صورة مركزة لمشهد واسع كبير استحال إلى هذه الرؤيا الحائلة ، فالهرمان كأنهما عاريتان أو هودجان هرميا الشكل لمحبوئين بينهما أبو الهول وكأنه رقيب ، يشهدهما ساعة الوداع ، وهما يلترقان الدمع مدرارا ، ويهي تحت أقدامهما نهرا فياضا كبيرا هو نهر النيل ، والريح من حولهما تتحب وتئن أنيّا لا ينقطع . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ظافرا كان أبرع شاعر عرفته مصر زمن الدولة الفاطمية .

الفصل الرابع طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لعل موضوعا لم يشغل شعراء مصر طوال هذا العصر كما شغلهم الغزل ، الذى يصور عاطفة الحب الإنسانية الخالدة ، والذى طالما تنفّى به الشعراء مصورين حبيهم للمرأة وهيامهم بها ، وما شعروا به من سعادة حين أقبلت عليهم ولو بعض الإقبال وما شعروا به من شقاء حين كانت تعرض عنهم ولو بعض الإعراض . أما حين كانت تقبل فكأنها تناولهم شرابا هنيئا بل رحيقا صافيا لا يذانيه رحيق ، وأما حين كانت تعرض فكأنها تلقى عليهم شواظا من نار يلدع قلوبهم وأفتدنتهم ، ويصور الشاعر كيف يتصل ذلك كله بقلبه وبنفسه وبأحاسيسه ومشاعره ، يصور ما يجد فى حبه من لذة أو ألم ومن نعم أو جحيم . ولا يكاد يوجد محب إلا وهو يخشى القطيعة والفراق إلى غير مآب ، فإن حدث الفراق فإنه يشكو ويضرع ويستعطف . لقد حُرِم حق من الإشارة واللمحة من بعيد ، ولكن الأمل فى اللقاء يظل يراوده مها تجرّع من الآلام واحتمل من ألوان العذاب ، ويبدى ويبعد فى تصوير عذابه وآلامه لعل صاحبه تعطف عليه وتعيد ما كان بينها وبينه من وصال . وحقا قد تلقانا فى تضاعيف ذلك صور من الحب الجسدى الذى تمليه الغرائز ، وهو خليق بالازدراء ، إنما الذى يملئنا إعجابا هو الحب العذرى العفيف الطاهر الذى يشغف قلوب أصحابه ويملئهم بوجد ليس بعده وجد ، وجد لا ينجلون منه ولا يستخزون ، لأنه لا يتعلق بمأرب مادية ، فحسبهم الوصال واللقاء ، وهنىء لهم عذابهم بهذا الحب الذى ليس بعده عذاب ، إنه حب قوى حار ، حب نقي صاف ، حب يمتلئ إحسانا . وسواء استحال هذا الحب نارا من اليأس أو نورا من الأمل فإن تعبه عند الشعراء المصريين وحرصه فيه كثير مما يلدّ النفس ويمتعتها ، وخاصة ما نفلوا إليه من غزل وجدانى صادق فى وصف حبيهم وما انطوت عليه قلوبهم من مشاعر الصباية ، مما ستره واضحا عند ابن النيهه والبهاء زهير .

ونحيل إلى الإنسان كأنما أوقد الحب جنوة من النار لا تنطفى أبدا في قلوب الشعراء ، فهم دائما يَصْلَوْنَهَا وَيَصْلَوْنَ معها البعد والفراق ، وحتى مع القرب يَصْلَوْنَ عذاب الحب ، دون إشفاق أو عطف أو رحمة ، على نحو ما يقول ابن هاني^(١) .

فَكَاتُ طَرْفَةً أَمْ سَيْفُ أَيْلُوكِ وَكُوسُ خَمِيرٍ أَمْ مَرَاشِفُ فَيْلُوكِ
أَجْلَادُ مُرْهَفَةٍ وَفَنَكُ مُحَاجِرٍ مَا أَنْتِ رَاحَةٌ وَلَا أَهْلُوكِ
بَابِنْتَ ذِي السَّبْعِ الطَوِيلِ نِجَادُهُ أَكُنَّا بِمُحُوزِ الْحَكْمِ فِي نَادِيكَ
عَيْنَاكِ أَمْ مَفْئَاذُ مَوْعِدُنَا وَادِي الْكَرَى أَفْكَالُكَ أَمْ وَادِيكَ
قَدْ كَانَ يَدْعُونِي خِيَاءً فِي طَارِقَا حَتَّى خَعَانِي بِالْقَنَا دَاعِيكَ
مَنْعُوكِ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى وَسَرَّوَا ظُلُومَ عَثَرُوا بِطَيْفِي طَارِقِي ظَنُّوكِ

وهو لا يدري كيف يتق فركات طرف صاحبه التي تشبه أُم الشبه فركات سيف أيها ، وإنها جميعا لتصيه في الصميم دون أي رافة ، وإنه لياتس بأسا شديدا من رافة أيها وأهلها ، فلا يأمل في رؤية لها أول لقاء ، ويتعلل بلقائها ورويتها في الكرى والأحلام ، ويألم ألما شديدا ، فقد منعوا طيفها من الإلام بعينه في الحلم ، وإنه ليبست خائفا منهم حفرا ، أن تسفر له عن وجهها الباسم حتى في النوم ، لما أشفاه وما أشد عذابه ، إذ لا يجنى من حبه لها سوى الألم والحمران واللوعة . ولم يكن تميم بن المضر الفاطمي أقل منه لوعة وأسى حين صور وداعه لصاحبه ، وهي لا تقل عنه أسى والتياحا ، يقول^(٢) :

مَازَالَ فِي الْحَبِّ شَوْقٌ مُوجِعٌ وَأَسَى مَبْرَحٌ يَقْطَعُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا
حَتَّى رَمَى الْبَيْنَ بِالْضَرْبِ أَفْكَتَنَا وَحَلَّ مِنْ وَصْلِهَا مَا كَانَ قَدْ حَقِيدَا
فَأَوْ مِنْ لَوْعَةٍ مَشْبُوبَةٍ وَجَوَى فِي الصَّدْرِ لَمْ يَبْقَ لِي صَبْرًا وَلَا حَلْدَا
قَالَتْ وَعَبَّرْتُهَا مَخْلُوطَةً بِدَمٍ تَجْرِي وَأَنْفَاسُهَا مَرْفُوعَةٌ صُعْدَا
لَا تَطْلُبُ النِّطْقَ مِنِّي بِالسَّلَامِ لَهَا أَبْقَى فِرَاقُكَ لِي رَوْحًا وَلَا جَسَدَا

وهو يصور أساه في حبه وكيف يفتت منه الأحشاء والكبد ، وإذا البين ينبع بالفراق ، فيلتاع لوعة تستمر بين جوانحه ، وبتهالك ويفقد الصبر والجلد ، بينما هي تنفرف الدمع مدرارا مرسة

١ . ديوان ابن هاني (طبعة : زاهد ط) ص ٥٣١ . ٢ . ديوان تميم ص ١٣١ .

أنفاساً حارة ملتبية ، وتتلطف له قائلة لا تطلب منى التلق بالسلام ، فلم أعد أستطيع الكلام ، وتشركان الفراق يكلفها من الجهد فوق ما يطيق جسدها وروحها ، بل لكأنما لم يعد لها جسد ولا روح . ويعود إلى تصوير لوحة هذا الفراق لهجوياته في الديوان مراراً بمثل قوله (١) :

قالتْ وقد نالها للبين أوجعُ والبينُ صعبُ على الأحباب موقِعُ
اجعلْ يديك على قلبي فقد ضُفِفَتْ قُوَاهُ عن حَمَلِ ما فيه وأضلَعُه
كأنقَى يومَ ولتٍ - حَسرةً وأسى - غريقُ بَحْرِ يرى الشاطئ ويُمَتِّعُه
فقد ارتفع نبضها وعلت ضرباته ، ونحس كأنما لم يعد في قلبها فضلٌ من قوة تستطيع به أن تحتمل صلصة الفراق المروعة ، وتحمي يادها نفس الشاعر ونفس الآلام والأوجاع ، وإنه لينوب حسرة وأسى لفراقها ، ولا يستطيع أن يتفادها ويتخذها بنفسه من هذه الهمة ، وكأنه غريق تلبه به الأمواج وهو يرى الشاطئ ولا يستطيع وصولاً إليه . وعلى الرغم من أنه كان أميراً وكان ابن الخليفة المعز تلقانا عنده مشاعر الحب الحقيقية التي ترتفع عن أدران الحس ، ومن طريف قوله في بعض غزله (٢) :

قلتُ استمحي لي بتقيل أعيش به قالت : وأى عجبٌ قبل القمرَا
ومرُّ بنا في ترجمة ظافر الحداد أن له غزلاً رقيقاً يطير عن القم بخفة وأنشدنا له قطعتين ، واشتهر بقصيدة له ذالية أو اختار أن تكون ذالية ليدل على قدرته في النظم على هذه القافية التي يظن أنها تستصعب على الشعراء ، وهي قصيدة غزلية ، تجري على هذا النمط (٣) :

لو كان بالصبر الجميل ملأه ما سَحَّ وابلٌ دمه ورَدَّاهُ
من كان يرغبُ في السلامة فليكن أبداً من الحلقِ المراض عيَّاهُ
لا تخدعُك بالفُتور فإنه نَظَرٌ بصرٌ بِقَلْبِكَ استِلْذَاهُ
يا أيها الرُّشَا الذي مِنْ طَرَفِهِ سهمٌ إلى حَبِّ القلوب نفاذهُ
دُرٌّ يلوح بِفَيْكِ مَنْ نَظَامُهُ خمرٌ يحولُ عليه مَنْ نَبَّاهُ (٤)
وقناةُ ذاك القَدُّ كيف تَقُومُ ومينانُ ذاك اللَّحْظُ ما فولاذهُ
رِفقاً بِجِسْمِكَ لا يذوبُ وإننى أخشى بأنْ يَجفُوَ عليه لادُهُ (٥)

(٤) النبأ : صانع للنبي

(٥) اللاد : ثوب من حرير

(١) الديوان ص ٢٦٠ .

(٢) الديوان ص ١٥٢ .

(٣) ابن خلكان ٥٤٠/٢ والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٥ .

والقصيدة على هذه الشاكلة تسيل رقة وعنوبة ، حتى مع قوافها الذالبة ، وتغلا صوره النفس بهجة ، فهذا الرشا أو الظبي الجميل الغرير يرسل سهامه وهى سهام حقيقية تنفذ إلى حُبِّ القلوب وسويداتها ، ويحال ذرأ ملء فيها ويتساءل من نظمه في هيته البديعة ، أما ما حوله من رُضاب أوريق فخر حقيقة ويتساءل من النباذ الذى صنع هذه الخمر العجيبة ، ويشند به العجب وهو ينظر إلى قامة صاحبه واستوائها الرائع ، ويتساءل أى فولاذ صلب اتَّخذ منه سنان لحظها المرهف القاطع النافذ إلى الأقدرة . وإن جسد صاحبه ليذوب رقة ما بعدها رقة ونعومة ما تماثلها نعومة ، حتى ليظن كأن اللاذ أو الحرير الذى تلبسه ينبو عليه لشدة لطفه ورعاقه . وله ينزل موجهاً الخطاب إلى معانيه في حبه ونهالكة فيه ^(١) :

عَتَّ وَلَكِنِّى لَمْ أَعِ وَأَبْنِ مَلَأْمَكَ مِنْ مَسْمَعِى
وَمَاقِدْرُ عَشِيكَ حَتَّى يَزِيلَ غَرَامَا تَمَكَّنَ مِنْ أَضْلَعِى
وَمَادَامَ لَوْمُكَ إِلَّا وَاتَّ بَت تَقْدِرُ أَنْ جَنَانِى مَعِ
مَضَى كَمِى يَوْدَعُ سُكَّانُهُ غَدَاةَ الْفِرَاقِ فَلَمْ يَرْجِعِ
قَوَادِى فِي غَيْرِ مَا أَنْتَ فِيهِ فَخُذْ فِي مَلَامَةِ أَوْدَعِ

والقطعة تموج برقة الحسن ولطفه إلى أبعد حدود الرقة واللطف اللذين يشتهر بها أهل القاهرة من قديم ، وليس فيها لفظة غريبة بل كأنه تعمد أن يختار ألفاظها أقرب ما تكون إلى لغة الحياة القاهرية اليومية . ولا نبعد إذا قلنا إنها تعد هى ونظيراتها عند ظافر مقدمة للفرز الوجدانى الصافى الذى سنعرضه عند ابن النثية ومعاصريه . وهو يقول لصاحبه فى القطعة بمنتهى الرقة والتلطف كفى عتاباً فقد سلبت محبوتى عقل وسمى ، وملك حباً جَنَانِى ، بل لقد مضى وراءها منذ الفراق ولم بعد . فأننا لا أعقل ولا أسمع شيئاً مما تقول ، ويتلطف إليه غاية اللطف حين يترك له الخيرة فى أن يستمر فى لومه أوبكف عنه ، وعادة المهين أن يَعْتَفُوا بِلَاثِمِهِمْ فى الحب ، وظافر لا يعنف بل يتلطف فى ود أريق .

وربما كان من تمة الرقة فى غزل الشعراء المعاصرين لظافر أن نجد ابن قادوس الدمياطى ينزل بمجارية سوداء ، محاولاً بكل ما استطاع أن يرد عنها ما يُظَنُّ من قبح السواد ، يقول ^(٢) :

وعاذلوا مُخْتَفِلَ مجتهد في عَـذَلِ
 يلومني في ظَنِبِي مخلوقة من كُحْلِ
 إن السَّوَادَ عَلَّةٌ من نورِ هذِي المُقَلِّ
 والحَجَرُ الأسودُ لم يُخْلَقْ لغيرِ القُبَلِ
 والقَارُ - مذ كان - وعَا السُّبُلِ السُّلَلِ

فقد دافع عن تلك الجارية دفاعا بديعا . إذ جعلها مخلوقة من الكحل الذي تردان به الحسان في عيونها ، بل جعلها مخلوقة من سواد العيون الذي تبصر به من حولها النور المنبثق في الكون ، وإنه ليذكر الحجر الأسود وإكباب الحجاج على تقيله ، كما يذكر القار أو القطران وانخاضه في دعم الجدر لآنية الماء المذهب . وهو ظرف بالغ من ابن قادوس ، ظرف نعرفه دائما للشراء المصريين . وكانوا يستلون هذا الظرف بكبر من الصور الخيالية المتكررة ، وقد يبالغون في وصف هيامهم بمالفة بعيدة على نحو ما نقرأ للمهذب بن الزبير^(١) :

إذا أحرقت في القلب موضعَ سَكْنِهَا فمن ذا الذي من بعدُ يُكرم مَثْوَاهَا
 وما الدَّمْعُ يومَ التَّيْنِ إلا لَأَلَى على الرَّسْمِ في رسمِ الدِّيارِ نَثْرَانَا^(٢)
 وما أَطْلَعَ الزَّهَرَ الرَّيْعُ وَإِنَّمَا رَأَى الدَّمْعُ أَجْيَادَ الفُصُونِ فَحَلَاهَا
 ولما وَقَفْنَا لِلدَّوْعِ وَتَرَجَمْتُ لِعَيْنِي عَا في الضَّمائرِ عَيْنَاهَا
 بدتْ صُورَةٌ في هَيْكَلٍ فَلَوْ أَنَا نَدِينُ بِأَدْيَانِ النَّصَارَى عِبَادَهَا
 وهو يشكو من النار التي دلتها صاحبه في قواده ، ويقول لها إنه مسكنك فإذا لم تبق عليه فأين يكون مثواك ، استعطاف واسترحام ، فقلبه ملئ بها فتونا بل نارا موقدة ، وقد أزعمت البين والفراق وهو ينثر دموعه نثرا . ويمتد به الخيال فيظن أن الندى العالق بفصوص الأشجار دموعه ، ويعلم سحرها له وشغفه بها ، وكيف يعبث جالها بفؤاده ، حتى تبدوله وكأنها صورة في هيكل تقدم لها القرابين والقراتيل ، وبوشك أن يعبدها كما يعبد النصارى المسيح . ونحس عند المهذب نقلة لشعر الغزل المصري ، إذ يستحيل وجداً وصباة ورقة وخفة من مثل قوله^(٣) :

هُمْ نَصَبَ عِثَى أَنْجَلُوا أَوْ غَارُوا وَمَتَّى قَوَادِي أَنْصَفُوا أَوْ جَارُوا^(١)
 فَارَقْتَهُمْ وَكَأَنَّهُمْ فِي نَاطِرِي مِمَّا تَمَثَّلُهُمْ لِي الْأَفْكَارُ
 تَرَكُوا الْمَنَازِلَ وَالْدِيَارَ لَهَا لَمْ إِلَّا الْقُلُوبَ مَنَازِلُ وَدِيَارُ
 وَاسْتَطَلُّوا يَدَ الْقِفَارِ فَأَصْبَحَتْ مِنْهُمْ دِيَارُ الْإِنْسِ وَفِي قِفَارِ
 فَلَنْ غَدَتْ مَصْرُ فَلَائَةٍ بَعْدَهُمْ فَلَهُمْ بِأَجَازِ الْفَلَا أَمْصَارُ^(٢)
 أَوْ جَاوَرُوا نَجْدًا قَلَى مِنْ بَعْدِهِمْ جَارَانُ : فَيَضُ الدَّمْعُ وَالتَّذْكَارُ
 وَالْدهرُ لَيْلٌ مَذْ تَنَاءَتْ دَارُهُمْ عِثَى وَهَلْ بَعْدَ النَّهَارِ نَهَارُ

إنه لن ينسأهم أبداً مهما أنجلوا أو غاروا ومهما أنصفوا أو ظلموه ، لقد
 فارقوه وصورهم ماثلة في خياله لا تبرحه ، وحقا تركوا المنازل والديار ، ولكنهم تركوا وراهم
 متزلا عظيما ، لا تزاله صورهم ، إنه قلبه الملتاع المطوى على حبيهم . وينظر إلى الديار والمنازل
 حوله بمصر فيظنها فلولات ومغازات ، فقد غادروها قفرا ييايا خرابا إلى ديار كانت خالية موحشة
 فأصبحت بهم أمصارا ، وليس من جار له في قفره الحزب إلا جاران : تذكأرهم ودموعه المنهلة
 التي لا ترقأ أبدا ، وقد أظلمت الدنيا في عينيهِ . حتى غدا النهار مظلا داجيا ، فقد أخذوا معهم
 كل شيء حتى النهار وضياؤه . وله أبيات غزلية خفيفة من مثل قوله^(٣) :

لَمْ يَهْنُ قَطُّ عَلَيْنَا بُعْدُكُمْ مِثْلًا هَانَ عَلَيْكُمْ بُعْدُنَا
 لَمْ تَبَالُوا إِذْ رَحَلْتُمْ غَدَوَةً أَيُّ شَيْءٍ صَنَعَ الدَّهْرُ بِنَا
 وقوله^(٤) :

أَحْبَابُنَا مِابَالِكُمْ فَبِنَا مِنَ الْأَعْدَاءِ أَعْدَى
 وَحِبَاةٍ وَدُكُمُ وَتُرْ بَةِ وَصَلَكُم مَأَخْتُ عَهْدَا

والرقة واضحة في الأبيات ، وواضح في البيت الأخير الظرف المصري ، فالوصل مات وقبر
 والمهذب يحلف - كما يحلف المصريون حتى اليوم بأعزائهم وتُرهم أو قبورهم - بترية الوصل العزيز
 وما سكب عليه من الدموع الحارة .

(٣) الحريدة ٢١٩/١ .

(٤) الحريدة ٢١٩/١ .

(١) أنجلوا : دخلوا النجدا . غاروا : دخلوا الغدأى

تامة .

(٢) أجواز : جمع جزد : وسط

ويلقانا في أوائل أيام صلاح الدين الأيوبي على بن الدباغ الإسكندري ، ومن بديع ماله في الغزل آياته المشهورة ^(١) :

يأربُ إن قَدَرْتُهُ لِمُقْبَلٍ غَيْرِي فَلِلْمَسَاكِ أَوْلَاكُمُوسِ
وَلَنْ قَضَيْتَ لَنَا بِصَحْبَةِ ثَالِثٍ يَأْرَبُ فَلَيْكُ شَمْعَةٌ فِي الْمَجْلِسِ
وَإِذَا قَضَيْتَ لَنَا بَعِينَ مَرَاقِبٍ فِي السَّرِّ فَلَيْتُكَ مِنْ عَيُونِ التَّرْجِسِ

وابن الدباغ يصور في آياته أنانية الحب وكأنه يحب نفسه كما يحب محبوبته ، بل هو يرى فيها ظلال نفسه ، ولذلك يتمنى لها ما يتمنى لنفسه من أن لا يقبل شفتيها سوى المسواك للوضوء والأكوس أو الأكواب للشراب ، وأن لا يصحبها ثالث إلا أن يكون شمعة تضيء المجلس ، وإذا كان لابد من عين لرقب فلتنك من عيون الترجس .

وكان القاضي الفاضل وزير صلاح الدين يمنح إلى استخدام المحسنات البديعة وإلى صور مختلفة من التكلف ، وكان قد نشأ بمصر وتنفس في حياتها الأدبية ولعله لذلك يؤثر من حين إلى حين السهولة في غزله وأن يمتح من المعين المصري العذب كقوله ^(٢) :

يَا طَرَفُ مَالِكٍ سَاهِدًا فِي رَاقِدٍ يَاقْبُ مَالِكٍ رَاغِبًا فِي زَاهِدٍ
مَنْ يَشْتَرِي عَمْرِي الرَّخِيسَ جَمِيعَةً مِنْ وَصْلِكَ الْغَالِي يَوْمَ وَاحِدٍ
عَاتِبَتُهُ فَتَوَرَّدَتْ وَجَنَانُهُ وَالْقَلْبُ صَخْرٌ لَا يَلِينُ لِقَاصِدٍ

والقطعة مكتظة بالطباق ولكن لا نكاد نحسه ، لأن الألفاظ متداخلة متواصلة ، وهو يصور فيها انصراف المحبوبة عنه ، بينما هو واليه بها واجد ، وعاتبها فتصرجت وجناتها بالخجل ، غير أنها ظلت منصرفة عنه لا تلتن له ولا تعطف عليه ، ومن غزله البديع قوله ^(٣) :

تَرَى لِحْيَتِي أَوْ حَنِينِ الْحَمَائِمِ جَرَتْ - فَحَكَتْ دَمْعِي - دَمْعُ الْغَائِمِ
وَهَلْ مِنْ ضُلُوعٍ أَوْ رُبُوعٍ تَرَحَّلُوا فَكُلُّ أَرَاهَا دَارَسَاتِ الْمَعَالِمِ
لَقَدْ ضَعُفَتْ رِيحُ الصَّبَا فَوَصَلَتْهَا فَيَنْيَ لَأَمْنَهَا هَوْبُ السَّائِمِ

وهو ترداد طريف ، فهو لا يدري أبحاكي السحاب في قطره المنهل حنينه الملتاع أو هو يلي

(٢) الحُرَاة ص ٢٤٧ .

(٣) الحُرَاة ص ٢٤٦ .

(١) الحُرَيْدة ١٣٣/٢ وغزاة الأدب للمصري (طبع)
مطبعة بولاق ص ٢٤٦ .

الحمام وما ترسل من حنين شجي ، وهو لا يدري أيضا أى منازل رحل عنها أحبابه أمى الربوع أو الضلوع . فكلاهما أطلال دارسة ، ويبلغ به الخيال أن يظن أنفاسه الحارة امتزجت بنسيم الصبا ، فأحاطته سمائم لافحة .

ونلتقى بخِذْنِ القاضى الفاضل ورفيقه : ابن سناء الملك أكبر شعراء مصر فى العصر ، وشعره يمجج بوجود لا حدود له ولا ضفاف ، وجد يشق به تارة وينعم به تارة ، إذ يذوق لذة الحب المؤلمة والحلوة ، حتى إذا اختلس قبلة أو ضمة كاد يطير من الفرح طيارا ، مها تأبّت عليه محبوبته ومها صدت عنه ونفرت منه ، بل إنه ليلقى ذلك كله بحنان لا يماثله حنان ، بقول (١) :

لا أجازى حبيبَ قلبى بجرّمة أنا أحنى عليه من قلب أمة
صنّ عنى بريقه فتحيّلتُ إلى أن سرّفته عند لثيّه
والى اليوم من ثلاثين يوما لم تزل من فسى حلاوة طعّمه
إن قلبى لصدره ورقادى ملكُ أجفانه وروحى لجسده
يكثيرُ الجفنَ بالفتورِ ومالى عملٌ عند كَمَرُو غير ضمه
والآيات تمجج بالعدوبة والظرف ، فكله حنان لصاحبه ، حتى ليفوق حنوه عليها حنو الأم .

ومازال بها حتى اقتطف منها خلسة قبلة ، ومرت الأيام ولا تزال حلاوتها فى له ، وبشعر كأن كل شىء فيه لها : قلبه وروحه ، وملك أجفانها رقاده ومهدده . وتصنع فى البيت الأخير لاستخدام مصطلحى الكسر والضم عند النحاة ، ومع ذلك أوقعها فى موضعها ، فلا نحس فيها تصنعا ولا ما يشبه التصنع ، ومن قوله (٢) :

نعمَ المشوقُ وأنعمَ للمشوقُ فالعيشُ كالخضرِ الرقيقِ رقيقُ
خضرٌ أديرُ عليه يقصمُ قبلةً فكانَ تقبيلَ له تغنيقُ
ونعمَ لقد طرق الحبيب وماله إلا حدودُ العاشقين طريقُ
فرشوا الحدودَ طريقه فكأنما زفرائهم لقدمه تطريقُ (٣)
واقى وصُبحُ جبينه متفَسُّ وأنى وجيدُ رقبته مخلوقُ

(١) الطريق : تسجيل الطريق للمارة .

(١) الديوان ص ٦٦٤ .

(٢) الديوان ص ٥٠٢ .

وهي لحظة من لحظات الحب الحلوة صورها ابن سناء الملك تصويرا بديعا ، فقد سعد العاشق الوطان بما أنعم عليه العشوق من لقاء ، وأحس بابتهاج ما بعده ابتهاج ، فقد زارته الهجوية الفاتنة التي شغفت قلوب كثيرين ، وإنهم ليفرشون طريقها بخدودهم لتطأ عليها ، مرسلين زفراتهم ، وكأنما يمهّدون بها الطريق لها ، وقد وافت يمينها المشرق إشراق الصباح ، وغصّ الرقيب بريقه حتى كأنه مخنوق . ومن طرائف غزله قوله ^(١) :

سَعِدْتُ بِدِرْ خَدُّهُ بُرْجُ عَقْرِبِ فَكُذِّبَ عِنْدِي قَوْلَ كُلِّ مَنْجَمٍ
وَأَقْسَمُ مَا وَجَّهَ الصَّبَاحَ إِذَا بَدَا بِأَوْضَحَ مِنِّي حُجَّةً عِنْدَ لُؤْمِي
وَلَا سَمًا لَمَّا مَرَرْتُ بِمَنْزِلُو كَفَضْلِهِ صَبْرٌ فِي قَوَادِ مَنِيْمٍ
وَمَا بَانَ لِي إِلَّا بَعْدُ أَرَاكِي تَعْلَقُ فِي أَطْرَافِهِ ضَوْءُ مَنِيْمٍ ^(٢)
وَقَفْتُ بِهِ أَعْتَاضُ عَنْ لَثَمِ مَيْسَمٍ شَهِيٌّ لِقَلْبِي لَثَمٌ آتَاكِ مَنِيْمٍ ^(٣)
بَكَيْتُ بِكُلَّتِي مُقَلَّتِي كَأَنِّي مَتَمُّ مَا قَدْ فَاتَ عَيْنِي مَتَمِّمٍ

وهو يقول إنه سعد برؤية هذا البدر وما سال على خده من عقرب الشعر ، مما جعله يكذب قول المنجمين أن برج العقرب في السماء إذ رآه على خد صاحبه الفاتنة . وإن فتنها وما تدلع في قلبه لأنصح برهان له عند لاثميه ، أنصح من الصباح في وضوحه وضياهه . وقد مرّ بمنزلها الذي لا يكاد يبين ، كما لا يكاد يبين الصبر في قواد العاشق الوطان ، وبان له بفضل عود أراك كانت تستاك به صاحبه قبل الوضوء ، إذ تعلق بأطرافه ضوء من مبسمها ، واهتدى إليها وإلى منزلها على لأناته فوقف مبهوتا مشلّوها ولا أمل له في قلة يقتطفها أو ما يشبه القلة ، وأقبل يلثم آثار منسمها أو طريقها باكيا بدموع غزار ، باكيا بمقلته وكأنه يتم بكاء متمم بنيرة على أخيه مالك وقد اشتهر بكثرة بكائه عليه ، وكان أعور لما زال ييكبه حتى دمت عينه العوراء . وعلى هذا النحو لا يزال ابن سناء الملك يتقلب بين لحظات حب مؤلمة مبكية وأخرى مفرحة مبهجة . وكان يلوب لطفًا ورقة مما جعله ينزل - كما أشرنا في ترجمته ، ببعض من فقدان بصره ، وهو يحتال في غزله حين على إيراد ألوان من حسن التعليل ترفع عنهن هذا الضم الذي نزل بهن ، من مثل قوله ^(٤) :

فَتَسْتَفِي مَكْشُوفَةٌ نَظَرَاهَا كَمَا لِي مِنَ الْجِرَاحِ أَمَانَا

(٣) النسم : طرف خف البحر ويريد راحلة الجبيرة .

(٤) الديوان ص ٨٤٦ .

(١) الديوان ص ٦٩٨ .

(٢) مسم : نمر

فَهِيَ لَمْ تَسْلُ الْفُتُورَ حُسَامًا لَا وَلَمْ تَحْمِلِ اللَّحَاطَ سِنَانًا^(١)
وَهِيَ بِكَرِّ الْعَيْنِ مُحْصَنَةٌ الْأَجْدُ فَاِنْ مَا افْتَضَّ نَيْلُهَا^(٢) الْأَجْفَانَا
قَصَرَتْ عَشَقَهَا عَلَى فَلَمْ تَعِدْ شَقَّ فَلَآنَا لِذَلَمْ تُعَايِنِ فَلَآنَا
لَا وَلَمْ تَبْصُرِ الرِّجَالَ فَتَحْتَا رَ عَلَى مُلْتَحِبِهِمُ الْمُرْدَانَا
عَبَتْ مِنْ هَوَايَ وَارْتَحَلَ الْإِنْ سَانُ مِنْ عَيْنِهَا وَأَطَى الْمَكَانَا
عَلِمَتْ غَيْرِي عَلَيْهَا فَخَافَتْ أَنْ تَسْمَى غَيْرِي لَهَا إِنْسَانَا

وهو يعلن إليها فتنه بحسنا ، وهي فتنة ممزوجة بغير قليل من الرضا والغبطة ، إذ أمن عندها أن تصبى سهام عينيها قلبه ، أو يصحبه حسام الفتور وسنان اللحاط ، ويصفها ببيكاراة العين وطهارة الأجفان ، إنها عنراء البصر ، لم يمس ميل الكحل عينيها ، وإنها لتفردة بالحب إذ لم تر ولم تبصر سواه ، فهو دنياها غير مفكرة في شيب وشبان ، إذ لا تعرف الفرق بين أصحاب اللحى والمردان . وتبلغ به الرحمة والإشفاق والعطف عليها أن يقول إنها فقدت بصرها بسبب حبه ، وبذلك خلا مكان إنسان العين منها ، وكأنما عرفت غيرته عليها حق من إنسان عينيها ، فنحت عنها ، حتى لا يكون لها إنسان سواه . وكل ذلك لطف من ابن سناء الملك ورقة ورحمة وعطف وحنان ما بعده حنان . وهو بحق يعد في الذروة من شعراء العرب النابيين الذين يمتازون بدقة الحس ورهافة الشعور وروعة المعاني والتساوير .

ويتفجر هذا الغزل الوجداني البديع على كل لسان بعد ابن سناء الملك ، وكان من أهم الأسباب في ازدهاره الشعر الصوفي الذي ذاع وشاع منذ زمن الدولة الأيوبية ، فإن الصوفية من أمثال ابن الكياني وابن الفارض أذاعوا فيه وجدا ملتاعا وكان لذلك أصداؤه الواسعة في غزل الشعراء ، فانفكروا من أهداف البديع ومن الأخيلة الجامدة المتحجرة ، وأخلوا بصورون حبيهم وما ينوون فيه من الوجد والصبابة وما يثير في قلوبهم من المشاعر والعواطف وما يصطلون فيه من العذاب والآلام : آلام الفراق وعذاب الإعراض ، من ذلك قول الحسن بن شاور في بعض غزله^(٣) :

قُلْتُ يَوْمَ الْيَمِّ جِيدٌ مَوْعَى دُرَّرًا نَظَمْتُ عَقُودَهَا مِنْ أَدْمَى

(١) اللحاط : مؤخر العين مما يلي الصدغ .

العين .

(٢) نيل : للكحل أو المرود وهو ما يوضع به الكحل في

(٣) غزوات الوفيات ٢٣٦/١ .

وحدا بهم حادى المطى فلم أجد
 بانفس قد فارقت يوم فراقهم
 هيات يرجع شملنا بالأجرع
 بجياتكم جودوا على نكرما
 فلفد عدمت العبر يوم فراقكم .
 بانازحين فهل لكم من عودة
 لو لم تعودوا للديار وترجعوا
 قلبى ولا جلدى ولا صبرى معى
 طيب الحياة فى البقا لا تطمى
 ويعود أحبابى الألى كانوا معى^(١)
 فمضى خيالكم بلم بمضجى
 وتضرمت نار الأسى فى أضلى
 نزع التفرق ما بقى من مذمى
 هلكت من شوق وقرط نوجى

وابن شاور فى أول الأبيات يبكى يوم البين والفراق شاعرا بأنه يعجز عن احتمال هذه المحنة التى
 خانته فيها صبره ومجملده ، بل التى توشك أن تقضى عليه ، لقد تفرق شملهم ، ولم يعد هناك أمل
 فى لقاء بالأجرع : لقاء أحبابه ومهوى قواده . ويستحلفهم وقد حرموه طلعة وجوهمهم فى البقطة
 أن لا يجرموه طيفهم فى المنام ، لعله يخفف من نار الحب المضطربة فى صدره . ويتنخى عودة لهم
 أورجة ترد إليه روحه وترد عنه أوجاعه من الحب الملتب وأوصابه .

ونلتقى بنق الدين^(٢) السروجى المولود سنة ٦٢٧ والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٩٣ ويقول عنه
 أبو حيان : كان مع زهده وعفته مغرما بحب الجمال وكان يفتى بشعره الغرامى المغنون لركة انسجامه
 وعذوبة ألفاظه ، ومن غزله :

أنعم بوصلك لى فهذا وقته
 يا من شغلت بحبه عن غيره
 باقه إن سألك عنى قل لهم
 أوقيل مشتاق إليك فقل لهم
 يا حسن طبع من خيالك زارنى
 لفضى وفى قلبى عليه حسرة
 يكفى من المجران ما قد دقت
 وسلوت كل الناس حين عشقت
 عبدي وملك بدي وما أعنت
 أدرى بدا وأنا الذى شوقته
 من عظم وجدي فيه ما حقت
 لو كان يمكننى الرقاد لحقت

وهو يتضرع لمحبوبه أن ينم عليه بالوصل بعد طول المجران والعذاب فى حبه وانشغاله الدائب
 بعشقه ، ويقول متذللأ له إنه عبده وملك يده ولن ترد إليه حريته ، ويشكو لواضع الشوق ،

(١) الأجرع : الأرض ذات الحزونة للشائكة الرمل .

(٢) انظر فى ترجمة السروجى وشعره نوات الوليات

ويأسي لنفسه إذ رأى طيفه في المنام ولم يكبد بحقه أو يتحقق منه حتى قرّ النوم من عينه ، وهو لا يتمتع لقاء كمادة المحبين ، لبأسه منه ، وإنما يتمتع لو عادت له رؤيته في منامه ، أو لو طال حلمه وطال رقاؤه قليلا حتى يشق منه غلة حبه . ويعلق ابن حجة الحموى في خزائنه على هذه الأبيات بقوله : « ما نفثت السحر إذا صدقت عزائمها بأوصل إلى القلوب من هذه النفثات ولا لسلاف نثر الحجاب مع حلاوة التصيل علوية هذه الرشفات » . ومن غزله :

قَصَدَ الحَيِّ وَأَنَاهُ يَجْهَدُ فِي السَّرِّ حَتَّى بَدَتْ أَعْلَامُهُ وَقِبَابُهُ
وَرَأَى لِلَّيْلِ العَامِرِيَّةَ مَنَزَلًا بِالْجُودِ يُعْرِفُ وَالنَّدَى أَصْحَابُهُ
قَدْ أَشْرَعَتْ يَبْضُ الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا مِنْ حَوْلِهِ فَهوَ المَنِيعُ حِجَابُهُ
وَعَلَى حِمَاهُ جَلَالَةٌ مِنْ أَهْلِهِ فَلِذَاكَ طَارِقَةُ العَيُونِ نَهَابُهُ
كَمْ قَلْبٌ فِيهِ الْقُلُوبُ عَلَى الثَّرَى شَوْقًا إِلَيْهِ وَقُبْلَتْ أَعْتَابُهُ

وهو يرمز لصاحبه بليلي العامرية وكأنه مجنونها وعاشقها قيس الذي ملأ اليد بأغاني حبه ، ويقول إنه ما زال يدأب في السرى أو السير الليالي المتصلة حتى بدت أعلام حبه وقبابه أُوخيامة ، وباللهول لقد وجد من دون رؤيتها السيوف والرماح مشرعة وشعر بجلال وهيبة لا يماثلها هيبة وجلال ، وهناك رأى كثرة من العشاق يضمنون الثرى إلى صدورهم مقبلين الأعتاب آملين أملا يائسا في أن يرفع الحجاب . وكان يعاصر السروجي فخر الدين بن لقمان كاتب يبرس وقلاوون ، وله غزليات رقيقة مثل قوله (١) :

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَانْفِ بِكَ مَغْرَمُ رَاضٍ بِمَا فَعَلَ الهَوَى التَّحَكُّمُ
وَلَنْ كَسَمْتُ عَنْ الوَشَاةِ صَبَابِي بِكَ فَالْجَوَانِحُ بِالهَوَى تَكَلُّمُ
أَشْتَقُ مِنْ أَهْوَى وَأَعْلَمُ أَنِّي أَشْتَقُ مَنْ هُوَ فِي الْفَوَادِ عَجِيمُ
يَأْمَنُ بِصَدِّ عَنْ الْمَحَبِّ تَدْلُلًا وَإِذَا بِكِي وَجَدًا غَدَا يَنْسِمُ
أَسْكُتُ الْقَلْبَ الَّذِي أَحْرَقَتْ فَحْذَارٍ مِنْ نَارٍ بِهِ تَنْصَرَّمُ

وهو راض من صاحبه بكل ما تصنع من إقبال وإعراض ، وإنه ليخفي حبه عن الوشاة بل

(١) للنبل الصافي لابن تفرى يمدى (طبع دار الكتب
الطبعة) ١١٩/١ .

يكلمه ينأ جوارحه تنطق به وتعلمه ، ويعجب أن يشاق صاحبه ويود لقاءها ، ينأ هي حجمة في - فواده لا يبرحه . وإنما لعمن في التدلل ، وحتى إن بكى وجدا سرعان ما يبتسم . ويحضرها من هذا الدلال وما يطوى فيه من اللب . فقد أسكنها قلبه الذي أحرقت ، ولا تزال نار الحب فيه مضطربة مندلعة . ولابن نباتة غزل وجداني كبير من مثل قوله ^(١) :

أهلاً بطيفي على الجراء مُحْتَلِمِي والفجرُ في سَحَرٍ كالنفر في لَعَسِ ^(٢)
والنجمُ في الأفق الغربي مُنْهِدِي كَشَعْلَةٍ سَقَطَتْ من كَفِّ مُقْتَبِسِ
يا حَبْذا زَمَنُ الجَراءِ من زَمَنِ كلُّ الليالي فيه ليلَةُ العَرسِ
وحَبْذا العِيشُ مَعَ هِيفاءِ لوبرِزَتِ للبدرِ لم يَزْهَ أو للغُصنِ لم يَمِسِ
محروسةً بشعاعِ اليَفسِ ملتَمَعاً ونورُ ذاك الحُجْبا آيَةُ الحَرسِ
يَسْنَى وَرَاءَ لَحْظِهَا قَلْبِي ومن عَجِبِ سَنَى الطَريدَةُ في آثارِ مَفْتَرِسِ
لَيْتَ العُذُولَ على مَرَأَى عَاسِيهَا لو كان ثَنَى عَمَى عَيْنِهِ بِالْحَرسِ

وهو يصور فرحته بالطف الذي رآه في حلمه اختلاسا لأواخر الليل والفجر ينتلج في الآفاق المظلمة تلج النفر في لعل الشفاء ، والنجم يسقط في الأفق الغربي منحدرًا سقوط شعة من كف مقتبس . وتواوده ذكرى ليالي الجراء المفرحة فرح ليالي العرس ، وهو يمش رانيا إلى حبيته التي لو رآها البدر لغض من زهوه ولو رآها الغصن لغض من ميسانه وخيالاته . ويقول إنها مئمة محروسة بسيوف باترة ، وآية حراسها هذا النور الذي يُشِئُه وجهها في الآفاق ، ويعجب أن يسمي قلبه وراء لحظها سمي طريدة الصيد وراء مفترسها ، ويقول إن ضياءها أحال عيني العذول عشواءين ، فهو لا يصبرها ، ويتمنى لو شئ ذلك بخمره وانقاد لسانه ، فلا يتحدث عنها أي حديث من قريب أو من بعيد .

ومن كانوا يكفون من الغزل النواجي ^(٣) شمس الدين محمد بن حسن صاحب كتاب حلبة الكيت في الحمر والتدما وآدابهم ، وبعد أكبر شعراء القرن التاسع الهجري ، توفي سنة ٨٥٩

٢٢٩/٧ والنجوم الزاهرة ١٧٧/١٦ والبدر الطالع للشوكاني

١٥٦/١ وصفحات لم تشر من بطلع الزهر (طبع دار المعارف) ص ٢٧ . وبدر الكعب للصربية مطبوعة من ديوانه . ومن كبه : عقود اللاك في الموشحات والأزجال ، .

(١) النجوم الزاهرة ٩٩/١١ .

(٢) الجراء : الأجرع أو الحزن . اللبس : سواد الشفة .

(٣) انظر في النواجي وشعره الفصحى للامام السخاوي

للهجرة ، ومن غزله قوله :

خَلِيلِيْ هَذَا رَيِّعُ عَرَّةٍ فَاسْتَبَا إِلَيْهِ وَإِنْ سَأَلْتُ بِهِ أَدْعُمِي طَوْفَانُ
فَجَفَنِيْ جَفَا طَيْبِ الْمَنَامِ وَجَفَنَهَا جَفَانِيْ ، فَيَا اللَّهَ مِنْ شَرِّكَ الْأَجْفَانِ

ونغضى في قراءة مثل هذا الغزل الوجداني المتنازع حتى إذا أظلم لواء العثمانيين البلاد أخذ يفيض معينه في القلوب والنفوس وخاصة عند نور الدين علي العسيلي ، وسنخصه بكلمة ، ومثله خرجه وتلميذه يحيى^(١) الأصيلي ، الذي يقول في بعض غزله :

بَدَا بِوَجْهِ جَمِيلٍ الوَصْفُ وَالشَّانُ يَقُولُ : سَبْحَانَ مَنْ بِالْحَسَنِ وَشَانِي^(٢)
كَأَنَّهُ رَوْضَةٌ غَنَاءُ مِزْهَرَةٌ مِنْ دَمْعٍ عَاشَقَهَا تُنْفَى بِغُدْرَانِ
أَشْبَهْتُ فِي حُبِّهِ وَرَقَ الْحَمَى فَعَدَا كُلُّ يَتِّ الْجَوَى شَجَوَا عَلَى الْبَانِ

فأله جل شأنه زين وجهها بالجمال حتى كأنها روضة ، أليس يشبه الشعراء الثغر بالأقحوان ، والحد بالورد والشقيق والعين بالترجس ، لذلك جعل وجهها كأنه روضة تنقى من دموع العشاق بغدران ، ومضى يستكمل خياله فورق الحمى وحامه يث جواه شجوا على أغصان البان وهو يشبه على مَنْ قَامَتْهَا نَحَاكِي قَامَةِ الْبَانِ . ونُحْرَجُ عَلَى يَدِ الْأَصِيلِيِّ يَوْسُفَ^(٣) الْمَغْرِبِي ، وغزله كغزل أستاذه بسيل عنوبة من مثل قوله :

جَعَلُوا الصَّبَاحَ مَبَاسًا ثُمَّ الظَّلَا مَ صَفَاثِرًا ثُمَّ الرَّمَاحَ قُدُودًا
وَالْوَرْدَ خَدًّا وَالْغُصُونَ مَعَاظِفًا وَالْبَدْرَ فَرْقًا وَالْغَزَالَ جِدَا
وَرَأَتْ غُصُونُ الْبَانِ أَنْ قُدُودَهُمْ قَاقَتِ فَأُضْحِتْ رُكْمًا وَسَجُودًا

وتشبيه قدود الحسان بالرماح وغصون البان لضمورهم واستقامتها مشهور . وكان المغربي والأصيلي والعسيلي يكوّنون في الغزل زمن العثمانيين مدرسة متائلة في رشاقة الموسيقى وجمال الصياغة ، وإن كان التكلف قد أخذ يعم في الغزل بعدهم وفي أيامهم . ولعبد الله الإدكاوي :

(٣) راجع في يوسف المغربي رباعية الألبا ٣٢/٢ وما
يلحقها وخلاصة الأثر ٥٠١/٤ .

(١) راجع في يحيى الأصيلي رباعية الألبا ٣٨/٢ وسلافة
النصر لابن معصوم ص ٤١٥ وخلاصة الأثر ٤٨٠/٤ .
(٢) وشان : نقي .

عقيقٌ دمي غدا في الجزع كاللحم.
 وانهل منسجا من نار مضطرم
 ظبي نفور أنيس ناعس يقظ
 إن أرض يغضب وإن أقرب نأى صلفاً
 مهفهف مابدت للفصن قامت
 وإن تبسم ما برق بكاطمة
 ما فيه عجب سوى تغير مقلته
 مذ بان سكان بان الحى والعلم
 ملآن وجدنا إلى خشف بنى سلم
 بالليل مشح بالصبح ملثم
 وإن أذل يتن بالعر والشمم
 إلا اتنى ذابل الأوراق ذا صرم
 له وميض يحلى داجى الظلم
 وحكما في قواد المدنف السقم

والعقيق : غرز أحمر ، يقول الإدكاوى إنه مازال يكي حتى اختلط دمه بالدم القاني وتناثر
 في الجزع أو جانب الوادى وكأنه ديم مسكوبة مذ بقد سكان الوادى والعلم أو الجبل وما بها من
 شجر البان ، وإنه ليكي وأحشاؤه تضطرم بوجد مبرح إلى خشف أو ظبي من ظباء ذى سلم
 بنجد ، وإنه لظبي نفور أنيس ناعس يتشع بوشاح أسود من شعره ، ويلثم بلاثم منبر من وجهه .
 وإن لقيه راضيا غضب وازور عنه وإن قرب منه نأى يجابه ، وحتى إن ذل له تاه عليه صلفا
 وشما أو تكبرا . وهو مهفهف ضامر دقيق المحصر ، وما يرى الفصن قامت حتى تذبل أوراقه خجلا
 ويلتاع لوعة ملتبة . وإن ابتسامته لتضىء الكون من حوله ضياء لعله أكثر من ضياء البرق الناعا
 فى البالى الداجية . ويجعل عيه الوحيد خور عينيه الذى طالما تنفى الشعراء به وما يرسل من سهامه
 التى تصبى أفدة الرضى بالحلب ، وتفنتك بهم فتكا . وواضح ما يداخل هذا التصوير من مبالغة
 وتكلف شديد . وحرى بنا أن نقف عند نفر من شعراء الغزل الوجلفى الذين صوروا ما اختلج فى
 خبايا قلوبهم وصلوهم من وجد مبرح ولوعات ممضة .

ابن النيه (١)

هو الكمال أبو الحسن على بن محمد بن يوسف المعروف باسم ابن النيه ، ولد بمصر حوالى سنة
 ٥٦٠ واختطف إلى كتاب حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الأشعار على عادة لداته ، ثم أخذ يختلف

تحقيقا بينها وطبع طبع حجر فى القرن لثانى . وطبع
 الديوان حقا بتحقيق عمر محمد الأسعد (نشر دار الفكر)
 بيروت .

(١) انظر فى ابن النيه وترجمته وشعره ابن خلكان
 ٣٣٦/٥ وفوات الوفيات ١٤٣/٦ والنجوم الزاهرة ٦/٢٤٣
 وحسن الحاضرة ١/٥٦٦ وشلوات الذهب ٥/٨٥ ومقدمة
 عبد الله فكرى للديوان إذ جمعه ورزبه وحققه

إلى حلقات العلماء والأدباء ، وفتحت ملكته الشعرية ، وورنا إلى الالتحاق بدواوين صلاح الدين ووزيره الكاتب البليغ القاضي الفاضل راعي الأدباء في عصره ، وفي ديوانه مدائح مختلفة له ، ولبضع أمامه الدليل الواضح على قدرته البائية ضَمَّن جميع أبيات إحدى مدائحه له كلمات من سورة المزمل مقتبسا لها في قوافيه بقوله في مطلعها :

قَتُّ لَيْلٍ الصُّلُودِ إِلَّا قَلِيلًا ثُمَّ رَثَلْتُ ذَكَرَكُمْ نَرْنِيلا
ووصلتُ السَّهَادَ أَفْجَحَ وَصَلُّرُ وَهَجَرْتُ الرِّقَادَ هَجْرًا جَمِيلًا

ويدو أن القاضي الفاضل لم يُعْجَبْ بالقصيدة ، فلم يَعيِّن في دواوين صلاح الدين وأيضا لم يَعيِّن في دواوين ابنه العزيز ، حتى إذا ولي شئون مصر السلطان العادل سنة ٥٩٦ رأبناه بِقَدُّم مدائحه إليه وإلى وزيره الصفي بن شُكْر . ويدو أن صداقة انعقدت حيثذ بينه وبين الأشرف موسى بن السلطان العادل ، حتى إذا ولاه أبوه على الرُّها سنة ٥٩٨ اصطحبه معه وانخذه كاتبه . وأخذت إمارته أو مملكته تتسع ، فشملت غِلَاط ومِثَالَارِقِينَ وَنَصِيبِينَ ومعظم بلاد الجزيرة . وكان ينتقل الأشرف موسى في بلدان إمارته وكانت أكثر إقامته بالرقعة لموقعها على الفُرات وابن النيه معه يلازمه ، ولا يترك مناسبة من انتصار في حرب أو عيد إلا ويقدم له مدائحه . ومن أهم هذه المناسبات - كما مربنا في غير هذا الموضع - قدومه إلى مصر بجيش جرار ساعد به سلطانها أخاه الكامل في سحق الصليبيين بموقعة دمياط ورد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وقد نفخ ابن النيه بذلك طويلا بمثل قوله :

دمياطُ طُورُ ونارُ الحرب موقَدةٌ وأنت موسى وهذا اليومُ مِيقَاتُ
أُتْلِجَتْ صدرُ رسول الله وانكشفتُ عن سَرَحَةِ الدِّينِ والدنيا غَمامَاتُ
اللهُ أَكْرَمُ أَنْ تُسَمَّى مزامرهم تَتَلَّى وتُنسى من القرآن آيَاتُ

وهو يستغل اسمه في مديحه ، فيقرنه إلى موسى الرسول ومعجزته في الطور ، ويذكر في القصيدة أن عصاه تلففت كل ما أفكوا ، ويصور كيف اندحر الصليبيون وتوزعهم المسلمون قتلا وأسرًا وسيًّا ، ومن بق منهم عاد إلى البحر المتوسط وما وراءه بجزي لا يماثله خزي .

وبدل ديوان ابن النيه على أنه كان يعيش لدى الأشرف موسى معيشة مبهجة يتمتع فيها بالرياض ومحاليس الأنس والطرب حتى وفاته بتعيين سنة ٦١٩ . ومع ما كان فيه من هتاء لم

بسر وطنه ، بل ظل يحزن له ، وظل حنينه يفرق في تضاعف أشعاره كأقوى ما يكون الشعر الصادق لدى المحبين الوالدين ، كقوله مكثاً عن مصر بالعقيق أحد ديان الأراضي المقدسة في المدينة المنورة الذي طالما تغنى به شعراء الصباة والحب المتنازع :

بَابَارِقَا أَذْكَرَ الْحَشَا شَجْتَهُ مَنْزَلْنَا بِالْعَقِيقِ مَنْ سَكْنَهُ
وَمَرَبِيعُ اللَّهِوِ بَانِعُ خَصِيلُ أَمْ غَيْرُ الدَّهْرِ بَعَدْنَا يَمَّتَهُ (١)
يَا بَرِّقُ هَذَا جَسْمِي بِذَنْبِ ضَنَى وَمَسْجِي بِالْعَقِيقِ مُرْتَهَنَتُهُ
بَلَّغْ حَدِيثَ الْحِمَى وَسَاكِنِهِ لِمُفْرِمِ أَنْحَلِ الْهَوَى بَلَنَتُهُ
أَشَقِ الْمَحِينِ عَادِمٌ وَطَرَا فَكَيْفَ إِنْ كَانَ عَادِمًا وَطَنُهُ
سَقْبًا لِأَيَامِنَا الْقِي سَلَفَتْ كَانَتْ بِطَبِيبِ الْوَصَالِ مَقَرَّتُهُ
لَوْ بَعِثَ يَوْمٌ مِنْهَا وَكَيْفَ بِهِ كُنْتُ بِعُمُرِي مُسْتَرْخَصًا ثَمَّتُهُ

وابن النيه في أول الأبيات يخاطب برقاً أذكره ما يطلع في أحشائه من الشجن أو الأشجان على بعده عن موطنه بوادي النيل ، ويتساءل عن السكان والأحباب وهل لا يزال مربع اللهور والشباب كعهده به يوم فارقه من النضرة والجمال أم غير الدهر بعده الديار وتبدل الحال . ويشكو للبرق ارتئان مهجته وراهه وتحلفها بمصر وكيف أنه بذنب ضناً وسقاً ونحولاً متمنيا لو يسمع شيئاً بطمته عن الحمى وساكنته . ويقول إن أشق المحبين من عدم الوصال بمحبوبه فكيف بالمحب المقتون الذي عدم الوصال بوطنه ، ويدعو بالسقيا لأيام وصاله الهنيئة الماضية له ، ويتمنى لو حج إلى هذا الوطن المقدس تقديس العقيق أو عاد إليه ، ويقول إنه يقدم حياته كلها راضياً بيوم واحد يقضيه بين ربوعه . وابن النيه بذلك يصور تصويراً رائعا تعلق المصريين في غربتهم بوطنهم وشغفهم به ومدى حنينهم إليه وطمسهم إلى جرعة من نيله في ظلاله وبين رياضه .

وإذا أخذنا نقرأ في ديوان ابن النيه أحسننا بوضوح أنه يمثل في غزله الروح القاهرية المصرية بكل ما عُرف عنها من الدمعة والرقعة وخفة الظل لا في موسيقاه وجمال أنغامه فحسب ، بل أيضاً في تصوير مشاعره ووجداناته وعواطفه ، دون أي حجاب من أهداف المحسنات البدئية ، فهو قلماً يستخدمها بل يترك نفسه على طبيعتها ، مما جعل غزله يرتفع إلى مستوى وجداني سام ، دون

(١) غزل : مبتل ندى . اللحن : جمع دنة : آواز

ترداد الأوصاف المادية الحسية للمرأة ، فحسبه أن يصور عاطفته إزاءها في رقة متناهية . وهياً ذلك قدما لئله أن يكثر التفتي به في ديار الجزيرة والموصل وفي الشام ومصر واليمن ^(١) لرقته وورشاته وصفاء موسيقاه ، ومازال المفتون والمغنيات يتغنون بأشعاره ، وتتغنى بها السيدة أم كلثوم وغيرها ، ومن ذلك قوله :

أَفْدِيوْ إِن حَفِظَ الْهَوَى أَوْ ضَيَّعَا مَلَكَ الْفَوَادِ فَمَا عَسَى أَنْ أُضَيَّعَا
مَنْ لَمْ يَذُقْ ظَلَمَ الْحَبِيبَ كَظَلَمِي حُلُومًا فَقَدْ جَهِلَ الْحُبَّ وَادْعَى ^(٢)
يَا أَيُّهَا الْوَجْهُ الْجَمِيلُ تَدَارَكَ الْعُشْبُ السَّحِيلُ فَقَدْ وَهَى وَتَضَخَّضَا
هَلْ فِي قَوَادِكُ رَحْمَةٌ لِحَبِيبِي صَمْتُ جَوَانِحِهِ قَوَادًا مَوْجَمَا
هَلْ مِنْ سَبِيلٍ أَنْ أَبْتُ صَبَابَتِي أَوْ أَشْكِي بَلَوَاتِي أَوْ أَنْضَرُمَا

وهو يفدى محبوبه بروحه سواء حفظ العهد أو ضيعه فهو لا يملك إزاءه في الحالين إلا أن يزداد تعلقا بحبه وشغفا ، بل إنه ليتقبل ظلمه ويحمده شرابا سائغا ، وإلا حق عليه أنه دعى حب . ويتضرع إليه أن يتداركه ، فإن كل شيء فيه حتى بدنه وهن ولم يعد يستطيع احتمالا ، ويسرّحه لو هن جسده وأوجاع روحه ، لعله يستطيع أن يشه شيئا من حبه أو من محبته فيه . ولا تقلّ جلالا وروعة عن هذه الأغنية في أيامنا الأغنية التالية :

أَمَانًا أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمُطْلُ لَمَنْ جَفَّتْكَ أَسَافُ نُسَلْ
يَزِيدُ جَمَالَ وَجْهِكَ كُلَّ يَوْمٍ وَلِي جَسَدٌ يَذُوبُ وَيَضْمَحُلُ
وَمَا عَرَفَ السَّقَامُ طَرِيقَ جَسِي وَلَكِنْ دَلُّ مِنْ أَهْوَى يَدُلُّ
إِذَا نُشِرَتْ ذَوَائِبُهُ عَلَيْهِ تَرَى مَا يَرِفُ عَلَيْهِ ظِلُّ ^(٣)
وَقَدْ يَهْدِي صَبَاحُ الْخَدِّ قَوْمًا بَلْبِلُ الشَّرِّ قَدْ تَاهَوْا وَضَلُّوا

وابن النبية يتوسل إلى صاحبه أن لا تسل عليه أساف جنيتها وأن يثني عليه فلا تفتك به ، حتى يتمتع بجمال وجهها الذي يزداد ويتضاعف كل يوم ، بينما يذوب بدنه اضمحلالا وتضاؤلا ونحولا . وما عرف السقم يوما طريقا إليه إلا عن طريق حبه لها وهيامه بها ، بينما هي تدل عليه

(٢) الظلم بفتح الظاء : ريق الخمر وريقه .

(٣) اللواتب : غفائر الشر .

(١) انظر كتاب شعر الغناء الصنعالي للكثير محمد عبيد

خانم (طبع دار الكتاب العربي بيروت) ص ١٧٧ .

وترداد كل يوم دلالة وإعراضا . وماذا يصبر ؟ إنه لا يصبر إلا جهلا فانتا وجسدا ساحرا رقيقا رقة الماء يهتر عليه من الشَّمَر ظل ناضر باهر . ويقول :

بِاسَاكِنِ السَّفْحِ كَمْ عَجَزَ بِكُمْ سَفَحَتْ نَزَحْتُمْ فَهِيَ بَعْدَ الثُّبُدِ قَدْ نَزَحَتْ
لَهْفِي لَطِيفٌ أَنْسَى مِنْكُمْ نَفَرْتُ لَا بَلْ هِيَ الشَّمْسُ زَالَتْ بَعْدَ مَا جَتَحَتْ
يَبِضَاءُ حَبِيبُهَا الْوَاشُونَ حِينَ وَشَوَا عَنَى وَلَوْ لَحَتَ صَنِيعَ اللَّجَى لَمَحَتْ
يَقْتَصِرُ مِنْ وَجَّتِيهَا لَحْظُ عَاشِقِهَا إِنْ ضَرَجَتْ قَلْبَهُ بِاللُّحْظِ أَوْ جَرَحَتْ
مَنْ لِي بَسَلَمَى وَفِي أَجْفَانِ مُقْلَتَا لِلْحَرْبِ يَبِضُ حَدَادُ قَطْ مَا صَفَحَتْ
وَأَسْوَدُ الْحَالِ فِي عَمْرٍ وَجَّتِيهَا كَمِسْكَةٍ نَفَحَتْ فِي جَمْرَةٍ لَفَحَتْ

وفي القطعة جناس بين « السفح وسفحت » بمعنى صبَّ العين الدمع ، وكذلك بين « نزحتم » بمعنى بعدتم و« نزحت » العين بمعنى نفدت دمعها ، وأيضا بين « الواشون » و« وشوا » في البيت الثالث وبين « لمحت » من لمح البصر واختلاسه و« عمت » في آخر البيت من المهر والإزالة ، والبيت الأخير به جناس ناقص بين « نفحت ولفحت » . والجناسات جميعها جناسات خفيفة على اللسان والأذان ، لأن صانعها موسيقى ماهر في قياس الأنغام ، وهو في أول القطعة يشكو لساكني السفح من كثرة ما سفحت دموعه وسكبت حتى لقد جفت عيناه ، ويقول كأن محبوبته سلمى ظلية نافرة بل لكأنها الشمس مالت إلى الغروب ولو أنها أطلت بطلعتها المضيئة على الليل لمحت ظلمته محوا ، ويتخيل كأنما يقتصر بالنظر إلى وجتيتها من جرحها لقلبه جرحا لا يتحمل أبدا . وهي مبالغة مسرفة . ويتمنى لقاء سلمى مع ما قد يصيبه من فتك عينها الساحرتين ، ويتصور الحال في غدها الوردى كجثة من المسك تعلقت بجمرة لافحة ، فانتشر منها أربع عطر . ومن غزله الذي يقطر حنا ورقة قوله :

تَعَالَى اللَّهُ مَا أَحْسَنَ شَقِيقًا حَفَّ بِالسُّوسَنِ
خُلُودُ نَفْسُهَا يُبِيرِي مِنَ الْأَسْقَامِ لَوْ أَمَكْنَ
لَا تُجَنِّسَنِي وَحَارِسُهَا يَقْفُلُ الصَّدْعُ قَدْ زَرَقَنُ^(١)

(١) زرقن الصدغ : جبل الشمر للحدل على المحرد كالخففة .

أَبْتُ هَوَاهُ مِنْ حَرِّ نَجْمِ اللَّيْلِ لَمَّا جَنُّ
وَكَمْ أَسْكَنْتُهُ قَلْبِي فَسَارَ وَأَحْرَقَ الْمَسْكَنَ

وهو يعطين افتتاحه بجمال صاحبه واحمرار خلودها المشبه لورد الشقيق المحضوة بمصل السوسن من شعرها الذهبي ، ويقول إن لم خلودها يرى السقم ، ولكن من يستطيع أن يصل إليها ؟ إن أحدا لا يمكنه أن يقتطف من خلودها شيئا من زهرات الحب ، فإن وراءها حارس أمين من شعرها لوى على خلودها قتلا كالحلقة ، فلا يستطيع أحد إليها وصولا . وإنه ليث هواه وما يلوقه من حرارته اللافحة للنجم حين جَنُّ الليل ودجت ظلماته ، معلنا إليه هذا الهوى الذى لم يعد يستطيع اكتفائه . ويأسى لنفسه ومصيره ، فكَمْ أَسْكَنَ محبوبته قلبه فعبثت به بل أحرقت وأتت عليه . ومن غزله الرائع :

أَمَّا وَبِإِذَا مَبْجُودُ النَّقْىِ	وَسَمَرَةٍ بِسَكَةِ اللَّعْسِ الشَّهْىِ ^(١)
لَقَدْ أَسْقَمْتُ بِالْهَجْرَانِ جِئْنِى	وَأَعْطِئْنِى وَصَالِكُ بَعْدَ رِىْ
إِلَى كَمْ أَكْتُمُ الْبَلْوَى وَدَمْعِى	يَبُوحُ بِمُفَسِّرِ السَّرِّ الْخَفِىْ
وَكَمْ أَشْكُو لِلْأَهْيَةِ غَرَامِى	فَوَيْلُ لِّلشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِىْ
تَفَارِئِى وَتَزْوِى حَاجِبِيَا	كَمَا انْبَرَتْ السَّهَامُ عَنِ الْقِيْ
وَتَخَفِى الصَّفُوفَ بَرِيْقِ فِيهَا	وَهَلْ يَخْفَى شَدَى الْمَسْكِ الشَّدِىْ
يَذُودُ شَبَا الْقَتَا عَنْ وَجَّتَيْهَا	كَمَنْعِ الشُّوْلُو لِلْوَرْدِ الْجَنَى ^(٢)
إِذَا مَا رُمْتُ أَقْطَعُهُ بَعْبِى	تَقُولُ حَذَارِ مِنْ مَرْعَى وَبِى ^(٣)

وابن النية يُقَسِّمُ لهويته بمسما الفائز وسمة شفاهاها اللعس أنها أسقمت جسمه بهجرانها بعد الوصال وبما أصابته به من ظمأ بعد رى ، ويقول إلى كَمْ أَكْتُمُ محق في الحب ودمعى يوبح بسرى وإلى كَمْ أَشْكُو للأهية عنى ، وصدق المثل القديم : ويل للشجى من الخلى . ويُعْجَبُ أنها تغارله أو تمدله أسباب الغزل ، بينما تقطع حاجبها وتزوى ما بينها ، ويلتمس لها عذرا ، فكأن حاجبها قوسان يرسلان السهام ، ولا بد لها كالقوس ووترها من الشد والجذب في أثناء الرمى

(١) اللعس : سواد النفة .

(٢) الشول : حد الراح .

(٣) الشول : حد الراح .

بالهام والنبال ، ويقول إن شذاريقها كشفا المسك وأرجحه يعلن عنها من بعيد . ويتحدث الشعراء كثيرا عن السيوف والرماح المسلولة من العيون على الناظرين للجمال المصون ، ويرسم ابن النيه من ذلك صورة رائعة ، فعيون صاحبه بما يحجبها من الرماح تنود عن وجبتها الفاتنتين كما ينود الشوك عن الورد حين تمتد يد لاجتائه أو اقتطافه ، ويقول إنه حتى حين يريد أن يقتطف بعينه لا يشغفه شيئا من ورد وجبتها تقول له حذار من مرعى وخيم العواقب .

وكل هذا غزل وجداني يموج باللهفة والظما واللوعة الملتبة التي لا سبيل إلى إطفائها في قلب الحب الوهّان ، وهو دائما يستعطف ويتوسل ويتضرع ، ولا يجب حتى بنظرة أو كما يقول باقتطاف نظرة إلى الوجه الفاتن . وقد تراءت لنا صور من هذا الغزل الوجداني الصافي المتنازع عند ظافر الحداد والمهذب بن الزبير وابن سناء الملك غير أنه تكامل عند ابن النيه في هذه الصورة الرائعة التي تحلو من المتاع المحسوس والتي يسيل فيها الشرقة وعذوبة وسلاسة . وما أشك في أن الحاجري شاعر الموصل استلهم في غزله الوجداني الذي تحدثت عنه في الجزء الخامس من هذه السلسلة لتاريخ الأدب العربي هذا الغزل الوجداني لابن النيه نزيل دياره حين كان الحاجري لا يزال شابا في نحو الخامسة عشرة من عمره ، وتلاه التلعفري الموصل الذي تحدثنا عن غزله الوجداني المتنازع يستضيء فيه بابن النيه أيضا ، ولاحظ ذلك صاحب فوات الوفيات ، فقال في ترجمته إن قصيدة التلعفري التي أنشد منها قطعة في ترجمته بالكتاب المشار إليه والتي يستلها بقوله :
أَيَّ دَمْعٍ مِنَ الْجَفُونِ أَسْأَلُ إِذْ أَتَتْهُ مَعَ النَّسِيمِ رِسَالَةٌ
إنما نظمها معارضة ومحاكاة لقصيدة ابن النيه :

بَدْرٌ نَيْمٌ لَهُ مِنَ الشَّعْرِ هَالَةٌ مِنْ رَأَى مِنَ الْهَيْبِ هَالَةٌ^(١)

فهى من نفس الوزن والروى ، بل المحاكاة عند التلعفري لابن النيه أوسع من هذا ، إذ هي محاكاة لغزله الوجداني الرائع لافي أساليبه السلسة السائغة فحسب ، بل أيضا في مضمونه المليء بالأسى المبرح والوجد الملتب ، مع الرقة والدعامة واللفظ وخفة الروح . وسقطت القبتارة من يد ابن النيه بوفاته وكانت مصر قد أنجبت البهاء زهير ، وإذا هو يستخرج من قبتارته نفا رائعا لهذا الغزل الوجداني على نحو ما سنرى عما قليل ، وهو نغم يبلغ به اللروة التي كانت مأمولة لهذه الصبابة

(١) حالة الأول : حارة القمر . وحاله الثانية : من حاله الهوى إذا أصابه وروحه .

الوجدانية ، وإذا كان شر هذا النعم قد تطاير عن طريق ابن النيه إلى الموصل فإنه تطاير عن طريقه وطريق البهاء زهير إلى الشام وإلى بيتات عربية مختلفة .

البهاء^(١) زهير

هو بهاء الدين زهير بن محمد ، انتهى نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة القائد المشهور في العراق وإيران زمن بنى أمية ، ولد لأبويه المصريين في وادي نخلة بالقرب من مكة في أثناء حَجَّهَا خامس ذى الحجة سنة ٥٨١ . وكان أبوه رجلاً صالحاً يشهد بذلك وصفه على نسخة خطية من الديوان بدار الكتب المصرية بأنه : « العارف محمد قدس الله روحه »^(٢) وقد تؤذن كلمة العارف بأنه كان صوفياً أو على صلة بالصوفية والتصوف ، ويبدو أنه أقام مع ابنه وزوجه في مكة ناسكاً بضع سنوات ، إذ يشير البهاء في بعض أشعاره إلى ذكريات له فيها أيام طفولته ، بمثل قوله :

تذكرتُ عهداً بالمحْصِبِ من مَيِّ ومادونه من أَبْطَحٍ وَحَجُونِ^(٣)
منازلُ كانتُ لي بين منازلُ وكان الصَّبَا إلى بها وقرى

وعاد العارف محمد بزوجه وابنه إلى بلدته بالصعيد : قوص ، وكانت حينئذ عاصمة الصعيد وباب المسافرين من مصر والمغرب والأندلس في البحر الأحمر من سواكن وعيذاب إلى الحجاز ، وكانت بها حركة تجارية واسعة ونهضة علمية وأدبية ناشطة ، وهي منشأ البهاء ومرباه ، فيها تلقن العلم والأدب والشعر . وتعرف في أثناء ذلك على خِذْنَه ورفيقه ابن مطروح ، وانعقدت بينهما صداقة حتى المات . وفي ديوانه قصيدة قصيرة مدح بها الملك المنصور حفيد صلاح الدين وكان قد ولي شئون مصر بعد أبيه العزيز فترة قصيرة سنة ٥٩٥ وأغلب الظن أنه أرسل بها إليه من قوص وهو لا يزال في الرابعة عشرة مما يدل على أن ملكة الشعرية تفتحت في سن مبكرة .

وينشد ابن خلكان له أبياتاً من قصيدة مدح بها جَلْدُكَ التقوى وإلى دمياط سنة ٦٠٥ وأكبر الظن أنه أرسل أيضاً بها إليه من قوص . ونراه في سنة ٦٠٧ يقدم مدحه لوالى بلدته قوص : مجد

(١) انظر في ترجمة البهاء زهير وشعره ابن خلكان

(٢) انظر في ذلك البهاء زهير للشيخ مصطفى عبد الرازق

ص ٥ .

(٣) المحصب : موضع رمى الجمار بحى . والأبطح : أبطح مكة وهو واديا . والحجون : جبل بها .

(١) انظر في ترجمة البهاء زهير وشعره ابن خلكان

٣٣٢/٢ والنجوم الزاهرة ٦٢/٧ وحسن المحاضرة ٥٦٧/١ ،

٢٣٣/٢ وشفرات الذهب ٢٧٦/٥ . و« البهاء زهير » :

بحث بقلم الشيخ مصطفى عبد الرازق . وقد طبع ديوانه بكمبريدج سنة ١٨٧٦ بتحقيق بلرم مع مقدمة وتعليقات ،

الدين إسماعيل النمطي بيته فيها بولايته على أعمالها ، وأعجب به اللطفي فاتخذته كاتباً له ، وظل يعمل معه نحو عشر سنوات ، ثم أخذت العلاقة تفرق بينهما ، ويبدو من استعطافاته له في بعض أشعاره أنه عزله من منصبه فهاجر من بلدته إلى القاهرة . ويظن بعض الباحثين أن هذه الهجرة حدثت في سنة ٦١٩ وفي رأينا أنها تسبق هذا التاريخ سنة أو أكثر إذ نراه يهني السلطان الكامل الأيوبي في انتصاره العظيم سنة ٦١٨ على الصليبيين وطردهم من دمياط أو طرد ظوهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . ويأخذ في دعم صلته بأبناء السلطان الكامل منذ هذا التاريخ ، ومحاول الاتصال بابنه الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم إلى القاهرة سنة ٦٢١ ويقدم له مدحتين ، ويغض على قلب أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ويلحقه بخدمته ، ويلييه مثلاً فيه قصيدة بديعة يقول فيها :

لَبِّكَ يَا مَنْ لَا مَرَدَّ لِأَمْرِهِ وَإِذَا دَعَا الْعَبِيدُ لَا يَنْعَوُ^(١)
الصَّالِحُ الْمَلِكُ الَّذِي لَزَمَانِهِ حَسُنَ يَنْتَهُ بِهِ الزَّمَانُ وَرَوَّنُ
سَجَدْتُ لَهُ حَتَّى الْعَبِيدُ مَهَابَةً أَوْ مَا تَرَاهَا حِينَ يُقْبَلُ تَطَرُّقُ

ويصحبه معه حين أصبح في سنة ٦٢٩ نائباً عن أبيه في حكم بعض البلدان الشرقية في نواحي القرات . وعاش البهاء مع الملك الصالح في رغد ، بنم بالحياة وسناً بها . ويتنقل معه في بلدان إمارته ، غير أنه لم ينس موطنه ، فقد ظل يذكره وظل لا ينسى أباه فيه وأصدقائه ، ولا ينسى - نيله الغنى ورياضه ومراكبه المصعدات المنحدرات ، ويظهر على العودة إلى واديه والجلجلى بحاله واكتحال عينيه بحسنه وبساكنيه وكل ما فيه ، بمثل قوله :

سَقَى وَادِيًا بَيْنَ الْغَرِيشِ وَرَقَّةٍ مِنْ الْقَيْثِ هَطَالُ الشَّائِبِ هَتَانُ^(٢)
بِلَادٍ إِذَا مَا جَسَّتْهَا جَسَتْ جَنَّةٌ لَعِينِكَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ رِضْوَانُ
تَمَثَّلَ لِي الْأَشَوَّاقُ أَنَّ تَرَاهَا وَحَصَبَاهَا مَيْكَ يَفْجُوعُ وَعَجَبَانُ^(٣)
فِيَا سَاكِنِي مِصْرٍ تَرَاكُمُ عَلِمْتُ بَأَنِّي مَالِي عَنْكُمْ الدَّهْرُ سُلْوَانُ
عَسَى اللَّهُ يَطْوِي شُقَّةَ الْبَعْدِ يَتَنَا فَتَهْدَأُ أَحْشَاءُ وَتَرْقَأُ أَجْفَانُ

كثير للطر .

(١) العبيد : نجم في طرف الهجرة بطو القرا .

(٢) حبابها : حبابها . الضيان : النعب الخالص .

(٣) الشائب : جمع شويوب وهو دعة للطر ، وهتان :

فهو يدعو للوادی من شرقه إلى غربه أن يظل يسقيه من الفيث هطال مدرار ، ويتصور الوادی جميعه فردوسا لا يشبه فردوس وثرابه وحصابه مسكا وذها خالصا . وهو لا يسلو أهله ولا ينسأهم أبدا ويتخى لو قصرت المسافة وعاد إلى موطنه ينظر ما شاهده ، حتى تحف دموعه المنهله ، وتهدأ أحشأؤه الموجعة .

ويستول الملك الصالح في سنة ٦٣٦ على دمشق فيتحول معه إليها ويتملى بغوطتها ورياضها ، ولا يلبث الملك الصالح أن يفكر في الاستيلاء على أملاك داود ابن عمه صاحب الكرك في جنوى الأردن ويزل نابلس ، غير أن مؤامرت تحاك له ، ويُعْتَقَلُ بسببها عند ابن عمه داود في الكرك ، ويظل البهاء زهير بنابلس حافظا لمعهده . وتُرَدُّ إليه حريته ، وينتجه إلى مصر فيستولى من أخيه الصغير العادل على مقاليد الحكم بها سنة ٦٣٧ ويولى البهاء زهير ديوان الإنشاء ، والبهاء بكاد يطير فرحا برجوعه إلى موطنه وتعظم منزله عند الملك الصالح ويصبح مستشاره الأعلى وأمين سره ، وكان خيرا نبلا ففنع - كما يقول ابن خلكان - خلقا كثيرا بحسن وساطته عنده وجميل سفارته . ومن حين إلى حين كان يرحل مع الملك الصالح إلى دمشق ، وفي آخر رحلة لها هناك جاءها خبر الحملة الصليبية على ديباط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وتصادف أن كان الملك الصالح مريضا ، فصمم على منزلة لويس وجيشه في أقرب فرصة ، وحمل من هناك في محفة حتى نزل بطناح بالقرب من المنصورة في شهر المحرم سنة ٦٤٧ ومضى يستعد للقاء الصليبيين وهو يحاهد المرض جهادا عنيفا حتى شهر شعبان إذ لبى نداء ربه . وقيل وفاته بقليل عُزل البهاء زهير من منصبه ، ويذكر المؤرخون أن ذلك كان بسبب تقصيره في الالتفات إلى إشارة كان قد كتبها الملك الصالح على كتاب كان مرسل لابن عمه داود صاحب الكرك ، مما أغضب الملك الصالح . ونظن أنه رجع ذلك السهو إلى تقدمه في السن ، فأعفاه من منصبه وأسنده إلى نائبه فخر الدين ابن لقان . ويقال إنه حاول بعد وفاة الملك الصالح إعادته إلى منصبه ، وكأنما عز ذلك على البهاء فلم يقبل تقلده ، وقبل : قِيلَ فترة ثم استغنى منه . وفي ديوانه مداخل مختلفة أرسل بها إلى الناصر الأيوبي حين استولى على دمشق ، وأكبر الظن أنه أرسل بها إليه انتظارا لبعض رِفْدِهِ ، ولزم يته نحو ثمانى سنوات عرف فيها شظف العيش بعد رَغَدِهِ ومَرَهُ بعد حُلُوهِ إلى أن فارق دنياه سنة ٦٥٦ في وباء حدث بالفسطاط والقاهرة .

ويدلُّ شعر البهاء على أنه كان صاحب نفس كريمة كبيرة ، ويقول ابن خلكان في ترجمته : وكنت أود لو اجتمعت به لما كنت أسمعُه عنه فلما اجتمعت به رأيته فوق ما سمعت عنه من مكارم

الأخلاق ودمانة السجاياء . وما مر من حديثنا عنه يدل على أن حياته ظلت ، حتى أعفاه الملك الصالح من منصبه وهو في نحو السابعة والستين من عمره ، حياة سهلة ليس فيها حرمان ولا شيء من يؤس ، بل فيها غير قليل من النعم ، وفي شعره وصف كثير لمجالس أنس مع الرقاق والأصدقاء ، وفيه ما يدل أيضا على شغفه بالطبيعة ومجالها الفاتنة . وله مراسلات شعرية رقيقة مع ابن مطروح حين صباه وشبابه في قوص . وشعره يكتظ بالمرح والتفاؤل والدعوة إلى الفرحة بمنح الحياة وطرح المهوم عن عاتق الإنسان ، يقول :

أيها الحاملُ هَمًّا إن هذا لا يدومُ
مثل ما تَقْنَى المسرا ت كذا تَقْنَى المهومُ

والغزل هو الموضوع الأساسي في ديوانه ، وهو غزل وجداني من نفس المعين الذي كان يستمد منه ابن النبية ، بل ربما كان يتقدم خطوة أو خطوات نحو السهولة ، مما جعل ابن خلكان يقول : « شعره كله لطيف ، وهو - كما يقال - السهل الممتنع » . وليس كل ما يلاحظ عليه السهولة فحسب ، فهو يتميز فيه حتى من ابن النبية بالأوزان القصيرة والمجزوءة . وهو مثله يتقن بالحب وتباريمه في تدفق وانطلاق ، وقلما نجد عندهما معا رواصب تصويرية من تقليد القدماء ، وما يجيء من ذلك يُقرض عرضا جديدا ، وأيضاً ما يجيء أحيانا من جناس وغير جناس من المهنات البديعية يجيء في خفة ورشاقة . فالشعر - وخاصة الغزل - ليس مهنات ولا تصاوير محفوظة مما يتردد على الألسنة ، وإنما هو مشاعر وانفعالات وعواطف . وقد يكون ذلك غريبا على أذواق الباحثين الذين طالما ردحوا أنه لم يبق عند الشعراء منذ أيام الدولة الأيوبية سوى الأخيلة والتصاوير التجمدة ، وسوى المهنات البديعية التي استحالَت إلى أهداف ينقصها البريق واللحمان .

وينبغي أن لا نجعل ذلك خاصة فريدة من خصائص البهاء زهير وحده ، فهذا الغزل الوجداني لم يكن خاصا بالبهاء زهير ، فقد كان يُشركه فيه - كما أسلفنا - ابن النبية وأيضاً ابن سناء الملك ، وله مقدمات قديمة مجدها عند المهذب بن الزبير وظافر الحداد . ولا ريب في أنه لطبيعة مصر السهلة وطبيعة نبلها العذب السُّلس أثر كبير في ذلك ، فعلى نحو ما يمتد الوادي في مصر سهلاً لا تنوء فيه ، كذلك شعره وشعر أصحابه تمتد لغته سهلة دون أي صعوبات ، وعلى نحو ما يجري النيل مترقفا متدفقا كذلك شعره وشعر أصحابه يسيل عذبا سائغا شرابه . وكما أن الوادي ينطوي على السهولة كذلك النفس المصرية نفس سهلة لطيفة لا خشونة فيها ، نفسُ

طُبعت على اللين والرقّة والدماثة ، مما انعكست آثاره عند ابن سناء الملك وابن النيه . ومن الحق أن البهاء زهيراً كما خُلِق ليبلغ بتصوير هذه النفس كل ما يسمها من عنوبة وخفة ظل ورشاقة .

وربما كان من أسباب اندلاع هذا الغزل الوجداني على لسان البهاء زهيراً ما أشرنا إليه في صدر حديثنا عنه من أن أباه كان صوفياً أو على صلة بالتصوف والصوفية مما جعله يحفظ مبكراً - وتطور على لسانه - أشعارهم المليئة بالوجد الإلهي وتبارحه ، وانطبع هذا الوجد في نفسه وبثّه في حبه . وجعل اختلاطه بهذه البيئة يُعمّق هذا الوجد وأشواقه بأكثر مما عمقه في نفوس الشعراء من حوله ، وإن كنا نستقي بصفة عامة أثر هذا الوجد الصوفي في غزلهم جميعاً ، مما دفع بقوة لظهور هذا الغزل الوجداني الصادق . ومعروف أن صوفية مصر من أمثال ابن الكيزاني وابن الفارض ممن ستحدث عنهم في غير هذا الموضع بثّوا في أشعارهم وجدلاً لا ضفاف له ، وكأن البهاء زهيراً استمد جنوة من هذا الوجد المبرّح نشر شررها في غزله . وكثيراً ما نعرّ عنه على أبيات تصور تأثيره بالصوفية كقوله في بعض غزله :

أنا في الحقيقة أنتم هذا اعتقادي فيكم

ولو أننا لم نعرف أن البيت له وسُئنا لمن هذا البيت لقلنا إنه لأحد الصوفية يعبر فيه عن مبدأ الاتحاد المعروف عندهم : اتحاد الحب بالحبوب . ومن ذلك قوله :

يا مَنْ إليك المشتكى أنت العليم بحالي

وكانه متصوف يخاطب الذات العلية ضارحاً مستعظفاً ، وهو إنما يخاطب صاحبه التي دلت نار الحب في قوّاده . وهذا الجانب من غزل البهاء زهير جعل بعض قصائده تلبس عند الأسلاف بقصائد ابن الفارض ، من ذلك رائيته المشهورة التي يقول فيها :

غبري على السلوان قاذِرْ	وسوائى في العشاق غاذِرْ
أشكو وأشكر فعلهُ	فاعجب لثالِو منه شاكِرْ
لا تنكروا خَفَقان قَلْ	حي والحبيب لدى حاضِرْ
ما القلب إلا دارُهُ	خُصِرَتْ له فيها البائِزِرْ
بالبلّ طُلْ يا شوق دُمْ	إني على الخالين صابِرْ
لي فيك أجِرْ مجاهدِ	إن صبح أن الليلَ كافِرْ

والقصيدة في ديوان البهاء زهير، وهي أيضا في ديوان معاصره ابن الفارض المتصوف المشهور، وفي رأي أن الالتباس الذي جعل الرواة يظنون أن القصيدة لابن الفارض جاءهم من أنها تحمل فكرة الغيبة والحضور التي يرددها كثيرا ابن الفارض في غزله الرباني، على نحو ما يلاحظ في البيت الثالث، وإن اختلف المترعان في الفكرة، وبالمثل البيت الرابع فقد يشير من طرف خفي كسابقه إلى فكرة الاتحاد بالمحبوب. وفي البيتين: الأول والثاني جناسات ناقصة وفي البيت الأخير تورية بالكفر بمعنى الشرك بالله والمراد السر. على كل حال يلفتنا الالتباس بين شعر البهاء زهير وابن الفارض إلى ما قلناه من أن أصدااء من الوجد الصوفي انعكست في شعر البهاء زهير. ويبدو أن انعكاسها بدأ مبكرا، إذ نراها واضحة في غزل قصيدة بمدح بها مجد الدين اللطفي إذ يقول:

لما خَفَّرَ يومَ اللقاء خَصِيرُهَا لما بِالْهَا ضَمَّتْ بما لَا يَصِيرُهَا^(١)
أَعَادَتْهَا أَنْ لَا يُعَادَ مَرِيضُهَا وَسِيرَتْهَا أَنْ لَا يُفَكَّ أَسِيرُهَا
وَمَا أَنَذَا كَالطَّيْفِ فِيهَا صَابَةً لَعَلَّ إِذَا نَامَتْ بَلِيلُ أَزُورُهَا
مِنَ الْغَيْدِ لَمْ تَوَقَدْ مَعَ اللَّيْلِ نَارُهَا وَلَكِنَهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ تُشِيرُهَا
يَقَاضَى غَرِيمُ الشُّوقِ مِنْ حُشَاةٍ مَرُوعَةٍ لَمْ يَبْقَ إِلَّا يَسِيرُهَا

والصور في القطعة دقيقة فَخَّرَ صاحبه أو خجلها وحياؤها بحرستها يوم لقائه، فلماذا تبخل عليه بما لا يضربها؟ وهل من عاداتها أن لا تعود مريضها ومن سيرتها أن لا تفك قيود أسيرها؟. وهو تضرع وتوسل لطيف. ويقول إنه أصبح كالطيف شبعا متضائلا انجبالا. ويتسع به الخيال فيتمنى لو أصبح طيفا حقا وزارها في المنام وتضاعف الأحلام. وهي صورة طريفة من مبتكرات خياله. ويقول إنها لم توقد نارها ليلاكعادة الناس اكتفاء بليقاداتها بين ضلوعه وجوانحه. ويقول إنه لم يبق منه إلا بقية روح مروعة من حبها مفرقة. وفي القطعة جناسات وتساوير لا نحس فيها بتكلف، بل نحس كأنها جوهر الأبيات ومعانيها. ووراء هذه القطعة قطع وقصائد كثيرة تسيل رقة وخفة وعلوبة، مع مسها للقلب بما يودعها من كلمات تشيع حتى أيامنا في اللغة اليومية الدارجة من مثل قوله:

نَعْمِيْشْ أَنْتِ وَبَقِيْ أَنَا الَّذِي مَتَّ عِشْقَا
 حَاشَاكَ يَا نُوْرَ عَيْنِي تَلَقَّى الَّذِي أَنَا أَلْقَى
 وَلَمْ أَجِدْ بَيْنَ مَوْنِي وَبَيْنَ هَجْرِكَ فَرَقَا
 يَا أَنْعَمَ النَّاسِ بِالْأَمْرِ إِلَيَّ مَنِي فَبِكَ أَشَقِي
 لَمْ يَبْقَ مَنِي إِلَّا بِقِيَّةٍ لِّسِ بَقِيَّةِ
 قَدْ كَانَ مَا كَانَ مَنِي (وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَابْقَى)

والقطعة تنبض بالسهولة والبساطة والرقّة واللفظ مع جمال الجرس واتساق الكلمات ، ومع ما بداخلها من ألفاظ اللغة اليومية مثل : « مت عشقا » و « يا نور عيني » و « قد كان ما كان مني » وأيضا مع ما بداخلها من الاقتباس القرآني في الشطر الأخير .

وكان الشعراء المصريون في زمنه وقبل زمنه يستظهرون بعض كلمات الحياة العاملة أو اليومية ، ولكنه توسع فيها وأكثر منها كثرة مفرطة ، وهي كثرة تجعل غزله يمس أوتار القلوب والأفئدة ، ومن طريف غزله :

مَنْ الْيَوْمَ نَعَارَفْنَا وَنَطْوِي مَا جَرَى مَنَا
 وَلَا كَانَ وَلَا صَارَ وَلَا قُلُومٌ وَلَا قُلْنَا
 وَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ مِنْ الْعَتَبِ فَبِالْحَقِ
 فَقَدْ قَبِلَ لَنَا عَنْكُمْ كَمَا قَبِلَ لَكُمْ عَنَا
 وَمَا أَحْسَنَ أَنْ نَرْجِعَ لِلْمَوْضِلِ كَمَا كُنَّا

والقطعة كلها من اللغة الدارجة ، وقد عرف كيف يلتقط منها هذه الكلمات والمبارات الفصيحة ، وكأنها لا تفصل من لغتنا اليومية ، بل تفصل من القلوب والأفئدة . والقطعة عتاب ولكنه عتاب مملوء لطفا وظرفا وتسامحا ورقّة ودماثة ، ودالما تجرّى في غزله هذه الرقّة الحلوّة التي تشبه ماء النيل العذب الصافي والتي تجعل القلوب تتعلق بغزله من مثل قوله :

قَصِّرُوا مَدَّةَ الْجَفَا طَوَّلَ اللَّهُ عُمْرَكُمْ
 شَرَّفُونِي بِزُورَةٍ شَرَّفَ اللَّهُ قَدْرَكُمْ
 قَدْ صَبَرْتُمْ وَلَبِئْسَ كُنْتُ أُعْطِيتُ صَبْرَكُمْ

لو رأيتم علكم من فزادى لسكرم
لو وصلت علكم ما الذى كان ضرركم

والقطعة خفيفة خفة شديدة ، والدعاة ان فى البيت : الأول والثانى من الأدعية المتداولة على ألسنة المصريين فى لغتهم اليومية ، وإنه ليتفرع لصاحبه مظهرًا لها ما يحتمله من الصبر وجهده .
لعلها تتفق عليه وتخلصه من عذاب المجر والحرام . وهو لا يتخرج من إعلان تذلل فى الحب .
بل من إعلان عبادته لمحبوبته ، يقول :

سأشكر حبًا زان فيك عبادى وإن كان فيه ذلة ونشوع
أصلى وحدى للصبابة رقة فكل صلاتى فى هوالك خشوع

فزله فيها ليس شعرا فحسب ، بل هو أيضا صلاة وترايل يقدمها لمن شغفت قلبه حبًا ، بل عبادة ونشوع ودين ، يتعب لها كما يتعب الوثنيون للوثن ، ويأسى لنفسه ولهذا الحب الذى فتن به ، بل الذى عبث به حتى جعله يعبد محبوبته ، يقول :

لى حبيب عبثته ونح من بعد الوثن

وكانه يريد أن يسترجع نفسه من محراب هذا الحب ، ولكنه لم يسترجعها أبدا ، فقد ظل يتشد ترايل غزله الوجدانى البديع .

وكان البهاء زهير يعرف فى وضوح ما ينشئ من هذا الغزل الرائع ، يدل على ذلك ما رواه الحموى فى خزانته من حوار^(١) له مع ابن سعيد الأندلسى حين أطلعه على كتاب المغرب ورأى الأندلسيين يكتفون فى الغزل من أهداف التشبهات والاستعارات فإنه قال له إن لنا فى الغزل طريقا آخر سماه الطريق الغرامى يقصد هذا الغزل الوجدانى . ثم لقيه مرة أخرى وأنشده : « يا بآن وادى الأجرع » وقال له : أنشئ أن تكمل هذا المطلع ففكر ابن سعيد قليلا وأنشد : « سُبَيْتَ غَيْثَ الأدمع » فقال البهاء : والله حسن لكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول : « هل ملئت من طربى معى » . وفى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على إحكام البهاء للغة الغزل الوجدانى ومعانيه فى عصره ، وهو ما جعل معاصريه فى الديار الشرقية على شواطئ القرات وفى دمشق والشام وفى القاهرة ومصر يشغفون بديوانه ويروونه ، ويشهد بذلك ابن خلكان إذ يقول عنه :

و أجازني رواية ديوانه وهو كبير الوجود بأيدي الناس . وما يدل على ذلك من بعض الوجوه ما جاء في طبعة المستشرق پلمر لديوان البهاء من أنه اعتمد في تحقيقه للديوان على مخطوطة بمكتبة أكسفورد كتبها شرف الدين بن الحلوى الشاعر الموصل الأصل الدمشقي الدار والمولد . ونص ابن خلكان في ترجمة البهاء زهير على أن هذا الشاعر لقبه ومدحه بقصيدة أحسن فيها كل الإحسان ، وطبعا طلب إليه أن يميزه رواية الديوان فأجازه له . وأنشد ابن نغرى بردى لابن الحلوى قصيدة^(١) في نهاية الرقة ، يتضح فيها تأثيره بالبهاء وفيها يقول :

هَلالٌ وَلَكِنْ أَفْقُ قَلْبِي مَحَلُّهُ غَزالٌ وَلَكِنْ سَفْعُ عَيْنِي عَقِيقُهُ^(٢)
عَلَى غَدَاهُ جَمْرٌ مِنَ الْحَسَنِ مُضَرَّمٌ يُشَبُّ وَلَكِنْ فِي قَوَادِي حَرِيقُهُ

وشاع هذا الغزل الوجداني في الشام وغير الشام ، وبدون ريب لمصر وشعرائها ابن سناء الملك وابن النيه والبهاء زهير فضل شيوخه وذيوخه بعدهم في مصر والبلدان العربية .

ابن^(٣) مطروح

هو جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح ، ولد بأسبوط سنة ٥٩٢ هـ ونشأ وأقام بقوص دار العلم والأدب والشعر حينذاك ، واختلف إلى ما بها من حلقات العلماء والأدباء ، وفيها تعرّف على البهاء زهير وكان يكبره بنحو عشر سنوات . وأعجب به البهاء ، فاتخذة رفيقا وصديقا ، واستمع إلى أشعاره وملكته الشعرية تتفتح فكان يشجعه . ويبدو أنه حين عُيِّن حاكم قوص مجد الدين اللطفي البهاء كاتبه ، كما مرّ بنا في ترجمته ، سعى لديه لبسند عملا إلى صديقه ابن مطروح ، يدل على ذلك ما في ديوانه من مدائح موجهة لمجد الدين ، وأكبر الظن أنه حين سخط مجد الدين على البهاء وأعفاه من منصبه سخط بالمثل على ابن مطروح وأعفاه من عمله . وحاول أن يستل من نفسه سخطه عليه ، كما تشهد بذلك قصيدة يستعطفه بها استلها بقوله :

لَكَ اللَّهُ إِنَّ الْعَفْوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَمِثْلُكَ أَوْلَى مِثْلِي الصَّفْحَ وَالْعَفْوَ

(١) النجوم الزاهرة ٦٠/٧ .

٢٨٥/٦ ومرآة الجنان ١١٩/٤ وشعرات الذهب ٢٤٧/٥

والنجوم الزاهرة ٣٧٠/٦ ، ٢٧/٧ وحسن المحاضرة

٥٦٧/١ . وديوانه طبع قديما في القسطنطينية سنة

١٢٩٨ هـ وهو في حاجة إلى نشرة محققة .

(٢) الطبق : اسم وديان ومواضع مصدحة في اللبنة

ومجد .

(٣) انظر في ترجمة ابن مطروح وأشعاره ابن خلكان

ولم يجد الصديقان بدءاً من ترك قوص والاتجاه إلى القاهرة ، ومُرّت بنا مدحة رائعة للبهاء مدح بها السلطان الكامل عقب انتصاره الحاسم على الصليبيين سنة ٦١٨ وبالمثل نجد ابن مطروح بمدح الكامل منها بهذا الانتصار بمثل قوله :

بَانَاصِرَ الدِّينِ الحَنِيفِي بِسَيْفِهِ وَمِثْلُ أَهْلِ الشُّرْكِ وَالطُّغْيَانِ

وقد يدل ذلك على هجرة الصديقين معا إلى القاهرة في تلك السنة إن لم يكن قبلها ، وكما اتجه البهاء إلى أبناء الملك الكامل بمدحهم وفي مقدمتهم الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم منها إلى القاهرة سنة ٦٢١ كذلك مدحه ابن مطروح ، ومدح أيضا عمه الأشرف موسى ممدوح ابن النبيه ، وله مدائح مختلفة في أمراء بني أيوب . ويقول ابن خلكان في ترجمته إنه تنقلت به الأحوال في الخدم والولايات ، ولا نعرف بالضبط ما هي هذه الخدم والولايات التي عمل بها . ومُرّ بنا أن البهاء زهير وثق صلته بالملك الصالح نجم الدين أيوب ، ونرى ابن مطروح يلتحق بخمته ، ولا ندرى أي الصديقين قدم صاحبه إليه ، ويذكر ابن خلكان أن ابن مطروح كان في خدمة الملك الصالح حين أصبح نائباً لأبيه للملك الكامل على البلاد الشرقية : الزها والرقة وغيرها في سنة ٦٢٩ وظل معه هناك حتى إذا استولى الملك الصالح على مقاليد الأمور بالقاهرة سنة ٦٣٧ استبقاه في دمشق فترة ثم استقله إليه سنة ٦٣٩ وعينه ناظراً في الخزانة ، ولم يزل ينم بقربه وحظوته منه حتى سنة ٦٤٣ إذ عيّنه وزيراً له في دمشق بدير شونها ، فارتفعت منزلته . وقدم عليه الملك الصالح في سنة ٦٤٦ ولم تعجبه بعض تصرفاته فعزله من منصبه وسيره مع جيش للاستيلاء على حمص . وسمع بمحلة لويس التاسع ومن انضموا إليه من حملة الصليب وأنهم اجتمعوا بجزيرة قبرس لقصد مصر ، فسحب جيشه المحاصر لحمص وعاد به إلى مصر في شهر المحرم سنة ٦٤٧ وخيّم به على المنصورة وابن مطروح في خمته وهو متغير عليه متكره إلى أن توفي في شعبان سنة ٦٤٧ وقاد ابنه توران شاه المعركة ، ودمر الحملة الصليبية ، وأسر لويس التاسع وسُجن بدار ابن لقمان بالمنصورة والطواشي صيحب بحرسه إلى أن فدى نفسه بأربعائة ألف دينار وعاد مهزوماً مدحوراً مع ظول جيشه الصليبي إلى البحر المتوسط وما وراءه . وأغلب الظن أن ابن مطروح لم يحضر المعركة فقد عاد بعد وفاة الملك الصالح إلى داره بالفسطاط وانقطع إليها ، وشاع أن لويس التاسع بعد حملة ثانية لمصر فكذب إليه قصيدته البديعة :

قُلْ لِلْعَزِيزِ إِذَا جِئْتُهُ مَقَالَ صِلْتِ مِنْ قَوْلِي نَعِيحُ

أَجْرَكَ اللَّهُ عَلَى مَا جَرَى مِنْ قَتْلِ عِبَادِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ
 أَنْتَ مَصْرًا تَبْنِي مُلْكَهَا نَحْبُ أَنْ الزَّمَر - بِاطْلُ - رِيح
 فَسَاقَكَ الْحَيْنُ إِلَى أَذْقَمِ ضَاقَ بِهِ عَنْ نَظَرِكَ الْفَسَحِ^(١)
 وَكُلُّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعَتْهُمْ بِحَسَنِ تَدْبِيرِكَ بَطْنُ الصَّرِيحِ
 خَمْسُونَ أَلْفًا لَا تَرَى مِنْهُمْ إِلَّا قَتِيلًا أَوْ أَسِيرًا جَرِيحِ
 وَفَقَكَ اللَّهُ لَأَمْنَاهَا لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يَسْتَرِيحِ
 وَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَنْصَرُوا عَوْدَةً لِأَخَذِ نَارٍ أَوْ لِقَصْدِ صَحِيحِ
 دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا وَالْقَبْدُ بَاقٍ وَالطَّوْاشُ صَيِّحِ

ويعلق ابن نفري بردى على القصيدة بقوله : « لله ذرّه ! فيها أجاب عن المسلمين مع اللطف والبالغة وحسن التركيب ». والقصيدة تمتلئ بالسخرية والتهكم ، فقد ظن لويس ظنا كاذبا أن مصر قرية المثال فإذا من دونها حرّ رقاب الكثرة من جيشه وأسر البقية في الأغلال . ويسخر منه سخرية قاتلة حين يطلب إليه أن يعيد أمثال تلك الغزوة المشئومة حتى يستريح منهم عيسى وتحرّر رقابهم جميعا . ويسخر من البابا ودعوته لهم أن ينجهوا بحملاتهم الصليبية الحاضرة إلى الشرق ، ويقول له ساخرا منهكما : لا تزال دار ابن لقمان التي سُجنت فيها على حالها ، ولا يزال القيد أو الغلّ باقيا ولا يزال حارسك صبيح في انتظارك . كلمات مسمومة وكأنها سقود يَشْوِيه عليه ، مع لطف التعبير ودقته ورهافته ومع الوخز الأليم .

وظل ابن مطروح ملازما داره إلى أن لُبِّي نداء ربه في مستهل شعبان سنة ٦٥٠ ونزه في الستين الأخيرتين من حياته طوال مقامه بمنزله يكثر من الإبتال لربه أن يغفر له ، حتى إذا توفى وُجد البيتان التاليان في رقعة تحت رأسه :

أَتَجَزَّعُ لِلْمَوْتِ هَذَا الْجَزَعُ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ فِيهَا الطَّمَعُ
 وَلَوْ بِذُنُوبٍ الْوَرَى جِثَّةُ فَرَحْمَتِهِ كُلُّ شَيْءٍ تَسَعُ

ويقول ابن خلكان : « كانت خلاله حميدة جمع بين الفضل والمروءة والأخلاق الرضية ، وكانت يني وبينه مودة أكيدة . وله ديوان أنشده أكثره » . ويبدو أن ديوانه المطبوع لا يحفظ

بجميع أشعاره ، ومن أكبر الأدلة على ذلك أننا لا نجد فيه شيئا من مدائح في الملك الصالح إلا مقطوعة ذُكر فيها عرضا مع أنه ظل في خلعتة نحو عشرين سنة ، بينما نجد في الديوان غير ملك أو أمير أبوي ، وربما كان حذف مدائحه من الديوان من صنيع الشاعر نفسه ، وكأنما عرَّ عليه أن يُعزَّل من منصبه ، فانتقم لنفسه بحذف تلك المدائح .

ومر بنا آنفا أنه نشأت بينه وبين البهاء زهير مودة صافية منذ أيام صباه وشبابه في قوص ، حتى كانا كالأخوين ، وامتدت بينهما هذه المودة الحلوة طوال حياتهما ، وجنبا منها واقتطفا أزهارا أو ثمارا هنية ، كما يوضح ذلك ديوانهما وما فيها من مراسلات شعرية بينهما . وهو مثل صديقه بكثير من شعر الغزل الوجداني غير أنه كان يميل أكثر منه إلى الرمز عن وجده بالتحاذه غالبا البدويات رمزا لمحبواته ، وكأنه يريد أن يقرن وجده بوجود مجنون ليلي وأضرابه من شعراء نجد ، حيث يثَّ في وجده وجهه شذا الحنان والشوق الذي يكتظ به من قديم الغزل العنرى وما يُطوى فيه من حرارة ولوعة ، على شاكلة قوله :

هي رامةٌ فخذوا يمينَ الوادي	وذروا السيوفَ تفرُّ في الأعادي ^(١)
وحذارٍ من لحظاتٍ أُعِينَ عينا	فلکم صرَعن بها من الآسادي ^(٢)
مَنْ كان منكم واثقا بفؤادو	فهناك ماأنا واثقُ بفؤادي
يا صاحبي ولي يجرعاه الحمي	قلبُ أسيرٍ ماله من قادي ^(٣)
سلبته مني يوم بانوا مقلَّة	مكحولَةٌ أجفانُها بسواد
ويحى من أنا في هواه ميثُ	عَيْنٍ على العشاق بالمرصاد
كيف السبيلُ إلى وصاله محجَّب	ما بين يفيض ظلُّا وسُرَّ صياد ^(٤)
حرسوا مُهتَفَفَ قَدُو بمثَقنو	فتشابهَ اللباس بالياد ^(٥)

وواضح أنه رمز لحبه والتباعه فيه برامة في نجد وظلماتها ساحرات الأعين اللاتي يصرعن بين الأسد ، وقد خلف قلبه أسيرا هناك ولا من يهديه سلبته منه عين فاتنة مكحولَة أجفانها بسواد

(١) رامة : موضع بالبادية .

(٢) العين : بقر الوحش .

(٣) جرعاه الحمي : أرضه ذات الحزونة

(٤) الطي : جمع طبة : حلييف . الصعاد : جمع

صعدة : الفتاة أو الرمح .

(٥) اللباس : للخصف . اللباد : القابل ، والصف :

الرمح .

آسر، وأحد لا يستطيع أن يصل أوليَمَ بتلك الديار : ديار رامة والحبيبة ، فن دونها سيوف ورماح مسلولة مشرعة ، ويعجب أن يُحرَسَ قُدُّها الرشيقي المتبختر المختال برمح مشبه لها مباد أوامبال . ويقول :

سَكَرَتْ وجاءتْ في الغَلَّالِ تَنثَى فَأَرْنَكَ حِطًّا الجِطْلَى والمِجْنَى
وَرَنْتَ لما تُنْقَى الغَلَامُ والرَّقَى وَأَيْكَ عن لَحَظَاتِ تلك الأَعْيُنِ
بدويَّةُ كم دونها من ضاربٍ بالسيف مرهوبٍ السُّطَّا لم يؤمِّنْ
لا يَحْدَعُكَ لَحْظَ طَرْفٍ فازيرَ أَبَدًا ولا تَأْمَنُ لعطفَةٍ لَبَّيْ
أَلْبَسْنِي باهاجرى ثوبَ الضَّنا وأَخَذَتْنِي يا تاركِي من مَأْمَنِي

لقد رفعت عن وجهها نقابها فشخت قلبه حبا واقتانا ، ومدت بصرها إليه فوق في حائل أعينها مسحورا ولم تعد تغنيه الغلام والرقي ، وإنها لدوية أعرابية تحمبها السيوف المرفهة . وينصح صاحبه أن لا تحذعه العيون الناعسة ولا القدود اللينة عايسيان له من آلام وأوصاب دون أن ينفق شيئا من وصال ، ويشكو لصاحته البدوية ضناه وتباريح حبه ، يقول :

خَذُوا جِذْرَكُمْ من طَرْفِهَا فَهَوَّ سَاهِرٌ وليس بناجر من دَهْتِهِ المهاجرُ
فَإِنَّ العيونَ السَّودَ وهى فَوَائِرُ تَقْدُ السيوفَ الْبَيْضَ وهى بَوَائِرُ
ولا تُخْدَعُوا من رَقَّةٍ في كلامِها فَإِنَّ الحَمِيَّا للعقول تُخَايِرُ
من القاصراتِ الطُّرْفَ غَارَتْ لِحْسُهَا ضَرَّائِرُهَا والسَّيِّراتُ الضَّرَّائِرُ
إذا ما اشتهى الخَلْخَالُ أخبارَ قُرْطِهَا فَيَاطِبُ ما تُمْلِي عليه الضَّفَائِرُ

وهو يحلُّز من طَرْف صاحبه ، فالسهم دالمة مصوبة منه ، ومن تصبه محاجرها تصسى قلبه ، وبالمعجب فإن العيون الفائرة الناعسة تقد السيوف البائرة القاطعة ، ويحلُّز من رقة كلامها المعول فهو كالخمر يذهب بالعقول . ويقول إنها عفيفة مصونة ، تغار من حسنها الفائن قريناتها الحسناوات والكواكب النيرات . والصورة في البيت الأخير رائعة ، فضفائر شعرها تطول حتى تلمس خلخالها وكأنما تحذنه بأخبار قرطها ، ومن غزله في بواكير حياته :

خَذْ تَوَقَّدْ إذ تَرَقَّرَ ماؤُهُ لَهْفِي على التَّوَقُّدِ المَرْتَقِرِ
حتى الحُلَى لِحْسُهَا متوسُّسٌ فاعجبُ لحسنِ اللِّجَادِ مَنْطِقِ

ياشمسُ قلبى فى هوالك عطاردُ لولا نعره لما لم يُحرقِ
لم انس ما قالتْ وقد لمتْ يدى ماذا لقينا منه أو ماذا لقي
وأقول يا أختَ الغزال ملاحه فتقول لا عاش الغزال ولا بقى

يقول إن خد صاحبه المتوهج حمرة كأنه نار موقدة ، وماء جماله ونضرنه يتلألأ فيه ويتفرق ،
كما يملؤه فتنة به ولهفة عليه . ويقول إن حسنا يُطلق حتى الجهاد ، وما وسوسة حليها إلا إعجاب منه
بها ، وما هو قلبه قد احترق من تعرضه لشمس حسنها كما احترق عطارد أقرب الكواكب السيارة
للشمس من تعرضه لنورها الحار المشتعل ، ويذكر رقة قلب صاحبه وأنها حين لقيه وسلمتْ
أظهرت له عطفًا وشفقة ، حتى إذا شَبَّهها بالغزال حسنا وملاحه قالت له مدلة : لا عاش الغزال
ولابقى ، فهي أكثر منه فتنة وسحرًا وجمالًا . ويقول :

هزوا القدودَ وأرهفوا سُرَّ القنا واستبدلوا بدلَ السيوفِ الأعينا
وتفلسموا للمعاشقين فكلهم أخذ الأمانَ لنفسه إلا أنا
لاخيرَ فى جَفَنٍ إذا لم يكحلْ أرقًا ولا جسمٍ بجافاهُ الفنا
لما اتنى فى حلةٍ من سندسٍ قالتْ غصونُ البانِ ما أبقي لنا
شبهتهُ بالبدر قال : ظلمتنى - يا عاشقِ والله - ظلمنا بيّنا

وهو يتصور هؤلاء الفاتنات كأنهن يقدن معركة رماحها قلدودهن وسيوفها عيونهن وكل من
حوله يطلب منهن الأمان إلا هو ، فقد تعلق بإحداهن ، وهو لا يرى للحياة قيمة بدون الحب
والسهاد فيه وضنا الجسم والنحول . ويرى صاحبه فى حلة سندسية خضراء ، فيتصور كأن غصون
شجر البان الذى ظلمنا تنفى به المحبون تقول : ما أبقت لنا من الحسن والنضرة والجمال ، ويشبهها
بالبدر فتقول له مدلة كصاحبه السابقة : ظلمتنى ظلمنا بيّنا فهي أكثر منه جمالًا وحسنًا وروعة . ومن
آياته البديعة التى تتداولها كتب الأدب قوله فى بعض غزله .

لبسنا ثيابَ العناقِ مزدرةً بالقُبَلِ

ولعل فى كل ما قدمت ما يصور غزل ابن مطروح الوجدانى وما أشاع فيه من الرقة واللفظ
والدماعة والظرف وعفوية الروح وخفة الظل .

برهان^(١) الدين القيراطي

هو إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر ، ولد لأبيه سنة ٧٢٦ . والقيراطي نسبة إلى قيراط بلدة بمحافظة الشرقية سميت فيها بعد باسم كفر النحال وضُمَّتْ إلى مساكن مدينة الزقازيق ، كان أبوه شيخا جليلا ولى القضاء بالمنوفية ودمياط وأسيوط ، ودرس في مدرسة كانت تجاور الإمام الشافعي ومشهد السيدة نفيسة والجامع الأزهر توفى سنة ٧٤٠ . ونشأ برهان الدين بالقاهرة وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات العلماء إلى أن برع في الفقه وعلمى الأصول والعربية وأكب على كتب الحديث وأخذها عن أمته ، ودرس وحديث بالقاهرة . واستيقظت فيه مبكرة موجهة الشعرية ، فكان ينظم المدائح ويدبجها في السلطان حسن وغيره ، وسلك في شعره طريقة ابن نباتة ، وتلمذ له ورأسه . وله في وصف شعره ونثره تقييد بديع احتفظ بفقرات منه الحموى في باب الاقتباس بجزائره . ويقول ابن تغرى بردى في ترجمته بالمنهل الصافي : « هو شاعر عصره بعد الشيخ جمال الدين بن نباتة وأقرب الناس إليه من دون تلامذته ومعاصريه من شعراء عصره ، مع علمي بمن عاصره من الشعراء ولا حاجة لنا إلى ذكرهم فإنه أرق وأحل وأرشق » . ويقول ابن حجر : « كان له اختصاص بالشيخ السبكي وأولاده وله فيهم مدائح ومرأى وبينهم مراسلات » ويقول ابن العباد في الشذرات : « له في تاج الدين السبكي غرر المدائح » واحتفظ تاج الدين في كتابه « طبقات الشافعية » بمراسلات بينه وبين القيراطي استغرقت نحو ثمانين صحيفة ، وأنشد مرثية له في أبيه مطلعها :

أسمى ضربك موطنَ الخفرانِ وعلمُ وفدٍ ملأكُ الرحمنِ

ورأى أن يجاور بمكة مثل كثيرين من علماء عصره وقبل عصره ، فرحل إليها ، وأخذ عنه جماعة من طلابها والقادمين عليها ورووا عنه ديوانه . ويذكر ابن حجر بعض تلاميذه من جلة المحدثين في القاهرة أمثال شيخ الحفاظ أبي الفضل العراق والشيخ بدر الدين البشكني ، وفي مكة أمثال جمال الدين بن ظهيرة وتقى الدين الفاسي المذكور في مصادره ، وقد كتب عنه بعض شعره

٣٢/٧ وشذرات الذهب لابن العباد ٢٧٠/٦ والشد الدين في تاريخ البلد الأمين لتقى الدين الفاسي (طبع القاهرة) ٢١٧/٣ . وله ديوان أسماء مطلع التبرين طبع بمصر سنة ١٢٩٦هـ ومنه عدة غزليات بدار الكعب المصرية .

(١) انظر في ترجمة برهان الدين وأشعاره المنهل الصافي لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ٧٠/١ والنجوم الزاهرة ١٩٦/١١ وطبقات الشافعية للسبكي ٣١٤/٩ - ٣٩٨ ٣٣١/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر

وأجاز له روايته ، ومازال طلاب علمه وشعره يمحكون على حلقة بمكة حتى توفي بها سنة ٧٨١ .
ولبرهان الدين غزل وجداني كثير ، أوكا يسميه البهاء زهير غزل على الطريقة الغرامية ، غزل
يقلمه صاحبه لهجونه مؤملا في الوصال ، ودالما لا وصال بل دموع وأنشواق ووصف للصباية
والغرام والوجد الذي لا تنطفئ ناره في قلوب أصحاب هذا الغزل ، مع مشاعر غامرة من اللطف
والرقة ، ومع الألفاظ والأساليب الرشيقة من مثل قوله :

بأنى لحظ غزالو قائلو في الفلوات^(١)
أنعدت بابلُ عنه بعضَ تلك النُفُوتِ
حسناتُ الخلدُ منه قد أطالتُ حُسراني
أعشقُ الشاماتِ منه وهى أسبابُ ممانى
إنَّ للموتِ بأقدا ح جفوني سكراتِ
قلت قد يت غراما قال لى مُت بجاني

والآيات تتطاير عن القم بخرقة ، وهو يشكو من لحظ غزال بدوى يقضى أوقات قيلولته في
الفلوات ، غزال ينث في كل ما حوله السحر ، بفتته وجمال وخلوده التي ملأت قلب الشيخ
حسرات ، لأنه يتمنى الدنو منها ليتلمى بحسنا وما فيها من شامات تريداه حسنا وجمالا ، وإنه
ليلوب - أوكا يقول - ليحوت وجدا والتباعا ، وتلك سكرات الموت تملأ أقداح جفونها ،
ويتضرع إليها قائلا إنه مات غراما ، فتضحك في خبث مدلة عليه قائلة له : « مت بجاني » ومن
نفس هذا المعين المتدفق السلس يقول :

غرامى فيك ياقرى غربى وذكرِك في دُجى لى ندبى
وملئى الحميمُ وصدُ عنى ومالى غير دعى من حميمِ
وكم سأل العواذل عن حديثي فقلت لهم على العهد القديمِ
وعمُ يسألون ولى دموعُ تحذئهم عن التبا العظيمِ
بدتُ في خدّها شاماتُ مسكٍ كحظى أوكبلى أو هوسى
إذا نيرانُ خديها تبتتُ رأيتُ بهن جئاتِ التعم
ومن شفى بعضن القدّ منها أغارُ على المُصون من النسيمِ

(١) قائل : من القيلولة وهي وسط النهار ، وطفه قال

وكأنى بصاحبته في الأبيات هي نفس صاحبته الأولى، ويقول إن غرامها غريمه وذكرها نديمه طوال الليل، والتورية في البيت الثاني بديعة فقد مله الحميم والصدق في حب صاحبه، ولم يبق له إلا مدحه الحميم الحارير افقه. ويسيل البيت الثالث صفاً وعذوبة مع ما فيه من الجناس وكذلك البيت الرابع وما به من اقتباس عن سورة «النبأ» وتعجب أن يتساءلوا ودموعه تجري على خدودها، ويقول إن شامت خدودها الضاريات إلى السواد كأنها نقط مسك أو كأنها مقتطعة من حظه معها أو من ليله أو من هموم حبها المشتغل في حنايا صدره. ويعجب أن يجمع خداهما يبحرتهما المتوهجة بين نيران الحميم حرارة وجئات النعيم وورودها الفاتنة. ويعلن غيرته عليها حتى ليغار من النسيم إن هب على ما يشبه غصنها من غصون الرياض الناضرة. ويقول:

يا مَنْ هجرتُ على هواهم عاذلُ أبجلُ في شَرِّعِ الهوى أنْ أهْجَرَ
طلعتْ بدورُ القمِّ من أزراركم ففدا اصطبارُ الصَّبِّ مُتَقَصِّمَ العُرا
من كل مَيْفَاهِ القَوامِ كأنها غُصْنٌ يحرُّكه النسيمُ إذا سَرى
دُكرتْ فصرَّها المَنولُ جهالةً حتى بدتْ للناظرين فكبراً
وجهلْتُ معنى الحسنِ حتى أقبلتُ فرأيتُه فيها بلوحُ مصوراً
لما درتُ أني الكلمُ من الهوى جعلتْ جواي في الهبة لن ترى^(١)
يامنْ إذا ما مرَّ حلَّو حديثها أغناك عن مرِّ العتيق وأسكرا^(٢)
أرخصتْ يومَ اللين سِمرَ مدامي وتركتْ قلبي بالغرام مسكراً^(٣)

وهو يتضرع إلى صاحبه أن لا تنيقه ألم الهجران وأن تنقذه منه، فقد نقد صبره إذ رآها مع صواحبها الفاتنات وهن يمسن ميس الفصون حين يداعبها النسيم، ويقول إن العذول كان يحاول الغض من جلالها تسرية عن نفسه فلما رآها بهت وصاح. الله أكبر: أما هو فيرى فيها كل معاني الفتنة مصورة مغرية. ولما علمت مقدار وجدده المبرح بها لم يأخذها عليه إشفاق أو رحمة، بل مفست تدل عليه، وتقول له: لن تراني. ويعود إلى نداءها والتضرع إليها مصوراً روعة حديثها وحلاوته المسكرة، ويقول لها: لقد أرخصت مدامي وأسمرت قلبي أو أشعلته نارا موقدة. وفي البيتين الأخيرين طباق وجناس مندبجان في هذا الأسلوب السهل السائق، ويقول:

(١) في سمر تورية لأنها إما من السمر وهو اللقي المتبادر غير المراد، وإما من السمر أى الحميم وهو اللقي المراد.

(٢) الكلم: المبرح. لن ترى: لن تراني.

(٣) يريد بالعتيق الحمر اللطيفة.

علموا بأنى لا أحول فمذبوا وَدَرُوا بِأَنى عاشقٌ قَتَفَصُوا^(١)
 قتلوا المتيم في الموى ونظلموا وَجَتُوا عَلَيْهِ بِصَدْمٍ وَتَعَبُوا
 ومهفهم لولا حلاوة وجهه مَا كَانَ مَرَّ عَذَابِهِ يُسْتَعَذَّبُ
 إن كان يرضى أن أموت صباة فَجَمِيعُ مَا يَرْضَاهُ عِنْدِي طَيِّبُ
 يا باخلا وله أجود بمهجتي رِقَقًا عَلَى صَبٍّ عَلَيْكَ يَعْذِبُ
 إن ملت فالأغصان يُفْهَدُ مَبْلَهَا أَوْ غِيَتْ قَالَالَارُ قَدْ تَغَيَّبُ

وهو يقول إن صاحبه عرفت أنه لا يستطيع حولا عنها فتأدت في تعذيبه ، ولم ينفعه عندها عشقه . فقد أظهرت له سخطا وغضبا ، ومع أنها فككت بمحبها تشكى منه ظلما وجورا . وماتزال تتجنى عليه ، ويقول إن جمال وجهها هو الذى جلب له هذا العذاب المرير ، وإنه ليستعذبه إرضاء لها . حتى لطيب له الموت في سيلها . ويقارن بينه وبينها ، فهو يجود لها بروحه ، وهى شحيحة شحا شديدا ، لا تجود له حتى بنظرة ، ويملل نفسه قائلا : إن مالت عنه فذلك طبعى ، لأنها غصن رشيق ، وطبيعة الأغصان أن تميل مع الرياح ، وكذلك إن وعدته وغابت فطبيعة الأثمار أن تغيب عن الآفاق .

وكان القيراطى يكثر من التوريات ، واختار له ابن حجة الحموى منها فصلا^(٢) طرفا أودعه خزانته ، من مثل قوله :

تنفس الصبح فجاءت لنا من نحوه الأنفاسُ مسكبة
 وأطربت في العود قمرية وكيف لا تُطربُ عُودِيَّةُ

وعودبة لها معنيان : القمرية التى تطرب على عود الشجر ، والمغنية الفاربة على العود ، والتورية واضحة . ولعل فيما سبق ما يوضح الغزل الوجدانى أو الغرامى عند القيراطى ، وكان - كما أسلفنا - شيخا من شيوخ الحديث النبوى في عصره ، وكان طلابه يختلفون إليه في أخذه عنه بالقاهرة ومكة . ولا ريب في أن إسهام مثله في هذا الغزل يدل دلالة قاطعة على أن موجته بمصر في هذا العصر كانت حادة وأنها عمت حتى شيوخ الحديث وحفاظه من أمثال القيراطى . ووراءه كثيرون من الشيوخ الفقهاء والمحدثين المصريين خلفوا دواوين تحمل سيولا من هذا الغزل الوجدانى الرقيق أمثال ابن دقيق العيد وابن الصائغ الحنفى وابن حجر

نور الدين^(١) على الصبلي

من علماء مصر وفصلاتها وشعراتها في القرن العاشر الهجري توفي سنة ٩٩٤ للهجرة وكان قريبا شافيا تلمذ لشيوخ الأزهر ، وأظهر براعة في فنه ، وعكف على التأليف والتدريس ، وفيه يقول الشهاب الخفاجي : « نور حذقة الزمان ونور (زهر) حذيقة الحسن والإحسان وكحل عيون الفضلاء والأعيان » وعاش طويلا ، وتعلق بأخرة بالسادة البكرية ، فقابله الدهر - كما يقول الشهاب الخفاجي - بوجه طليق . ويبدو أن موهبه الشعرية تفتحت مبكرة ، فقد غطى اشتهاره بشعره على شهرته بالعلم والفقه والفضل ، وغلب عليه الغزل من مثل قوله :

سَقَى الْحَمَى وَلِيَالِيهِ الَّتِي سَلَفَتْ مِنْ أَدْمَى وَمِنْ الرَّوْسَى هَتَانُ^(٢)
لِي فِي الدِّيارِ سَقَاها الْمَزْنُ صَيِّهُ غَزَالُ حُسْنٍ بِدَيْعِ الْخَلْقِ هُتَانُ^(٣)
بَارِئِ الْحَسَنِ قَدْ بَالَفَتْ فِي تَلْفِي أَمَا لِهَجْرِكَ بِأَلْبَاءِ هِجْرَانُ^(٤)
هَلَا نَظَرْتُ إِلَى مُضْنَاكِ رَاحِمَةً فَكَانَ يَشْفَعُ مِنْكَ الْحَسَنُ إِحْسَانُ

وهو لا يمل الدعاء بأن يُسَقَى الحمى وليالي حبه فيه أمطار الربيع ودموعه الماطلة أبدا في الديار غزال سقاها المزن صييه . ويتف برب الحسن أن يلتفت إليه وبصاحته لمياء أن تصله بعد طول الهجر والعذاب ، حتى ولو بنظرة عطف وإشفاق على مضناها الذي طال عتاؤه وشقاؤه وحرمانه . ويقول :

كَأَنَّ الَّذِي أَهْوَى عَلَى نَفْسِهِ جَنَى قَالَ عَلَى تِلْكَ الْمَاسَنِ بِالْفَتْكَ
فَأَغْرَقَ خَدْيَهُ بِمَاءِ جِمالِهِ وَأَوْقَعَ فِي الظُّلُمَاءِ نَاطِرَهُ الْتَرَكِي
وَهَاجَتْهُ يِيكِي عَلَيْهِ مِنَ الضَّأَا وَهِيَ خَضْرُوءُ مَنْ يَنْقُلُ أَرْدَاهُ يُشْكِي

وهو يحمل المبوب التركي جانباً على نفسه ، فقد أغرق خديه في ماء جماله أو بعبارة أخرى في رونق حسنه ، وكأنما كحل ناظره الأسود بالظلام الداجي فلمع بريقه ، ويتخيل كأنما جضه ييكي

(١) انظر في نور الدين الصبلي وترجمته وجماعة الألبا

(تحقيق عبد الفتاح الحلو) ١٩٧/٢ وما بعدها وشلوات

اللعب ٤٣٤/٨

(٢) المزن : السحاب . صييه : مطره .

(٣) الريب : التطيح من الظباء أو البقر الوحشي .

والاستعارة واضحة .

(٤) الروسى : مطر الربيع . هتان : هلال .

حل ضناه وكأنما خصره يشكو من ثقل أردافه ، وقد استعمل يشكى مثل العامية بدلا من يشكو الفصيحة ، ويقول في إحدى الجوارى .

دَبْتُ لَهُ ذُوَابَةٌ كَحَيْفَةٍ مِنْ خَلْفِهِ
نَحْمَى ضَعِيفَ خَصْرِهِ مِنْ خَارِجِي رِذْفِهِ

وهو يشبه الضفيرة بحية وكأنها نحى خصره من ثقل ردفه ، وقد عبر عنه بأنه من الخوارج مبالغة ، ويقول :

كَلُّ فِعَالِ الْحَبِّ مَحْمُودَةٌ وَإِنْ تَجَافَى وَتَجَنَّى وَتَسَاءَ
فَوَضْلُهُ قَطْعٌ لِدَاءِ الْأَسَى وَهَجْرُهُ قَطْعٌ لِقَوْلِ الْوَسَاءِ

فهو يرتضى من محبته حتى هجرها ليقطع ألسنة الوشاة ، وهو جانب فيه من التظرف والركة ورهافة الشعور ما يمتاز به أهل القاهرة ، وله قصيدة بديعة في دولاب (ساقية) روض صورته فيها ينوح ويئن دائما لفراقه روضه إذ كان شجرة ضخمة في إحدى الرياض قطع أوصالها غبي ودق عظمها في ضلوعها ، فهي مانتى تبيكى على عهدا بالرياض ، ومانتى عيونها جارية بالدموع . وفي الحق أنه كان شاعرا بارعا ، ومربا أنه يكون مع تلميذه يحيى الأصيل وتلميذ يحيى الشاعر يوسف المقرئ مدرسة في الغزل زمن العثمانيين كانت تمتاز بدقة الحس ورهافة الشعور .

٢

شعراء الفخر والفخر والمجاء

الفخر والمجاء غرضان قديمان من أغراض الشعر العربي ، لنذ الجاهلية يتنفي الشعراء بمفاخرهم الذاتية ومفاخر قبائلهم وأقوامهم ، ويلتئل يتننون بأهـاج فردية تتصل بفرد بيته ، وأخرى جماعية تتصل بالقبائل والأقوام ومثلهم . ولا ريب في أن وتر الفخر الذي شد الشعراء إلى قيتاراتهم كان ويرا خصبا ، إذ وقع الشعراء عليه كثيرا من الألحان الحلقية الرفيعة ، مما يتصل بالبرودة والكرم والوفاء والكرامة وغير ذلك من الفضائل الحميدة ، كما وقعوا عليه كثيرا من الألحان الحماسية التي تصور بسالـتهم الحرية وما أذاقوه أعدامهم من المزامم الساقية . وظلت هاتان المجموعتان من الألحان طوال الحقب التالية ، وظل العرب في كل مكان يرددونها صحائف تربية

مثالية وأناشيد حرية حماسية . وشعراء مصر منذ نشط فيها الشعر يشاركون في المجموعتين ، يشارك فيها الأمراء وأبناء الشعب ، من ذلك قول العباس بن أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية ^(١) :

قَدْ دَرَى إِذْ أَعْدُو عَلَى فَرْسِي إِلَى الْهَيَاجِ وَنَارُ الْحَرْبِ تَسْتَمِرُّ
وَفِي يَدِي صَارُمٌ أَفْرِى الرُّعُوسَ بِي فِي حَدِّهِ الْمَوْتُ لَا يَتَّقِي وَلَا يَنْدَرُ

والبيان من قصيدة حماسية ملتبة ، ومعروف أنه أخطأ في هذه الحماسة وما اقترن بها من شجاعة ، إذ وجهها إلى أبيه ثائرا عليه . وأخفقت ثورته . ويترنل مصر في أيام كافور الإخشيدي المتنبئ ، وتستدير حوله ندوة كبيرة تروى شعره وتندارسه وكل ما فيه من فخر مضطرم وحماسة ملتبة . وتستقبل مصر الدولة الفاطمية ويدخلها المعز الفاطمي ، ومعه ابنه الشاعر النابغ نجم ، وله فخر كبير ، وسنفرده له ترجمة عما قليل ، ونلتقى بعده بولي الدولة بن خيران صاحب ديوان الإنشاء بمصر في عهد الظاهر والمستنصر المتوفى سنة ٤٣١ ونراه يديئ ويعيد في الفخر بشعره وكتاباته من مثل قوله ^(٢) :

لَقَدْ سَمِعْتُ عَلَى الْأَنَامِ بِخَاطِرِ اللَّهِ أَجْرَى مِنْهُ بَحْرًا زَاخِرًا
فَإِذَا نَظَّمْتُ نَظَّمْتُ رَوْضًا حَالِيًا وَإِذَا نَثَرْتُ نَثَرْتُ دُرًّا فَاحِرًا

فهو يفتخر بخواطره الغزيرة التي تنسكب من ذهنه كأنه بحر زاخر ، وهو يهدي منها إلى الناس والآفاق أشعارا رائعة ورسائل بديعة . ونلتقى بغير شاعر فاطمي يفخر بنفسه فخرا حماسيا ملتبا على شاكلة قول الحسن بن زيد الأنصاري ^(٣) :

مَتَالُ الثَّرِيَا دُونَ مَا أَنَا طَالِبُ فَلَا لَوْمَ إِنْ عَاصَتْ عَلَى الْمَطَالِبُ
وَإِنِّي وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ الدَّهْرُ بِالْمُنَى عَلَى فِي كَهَمَاتِ الرَّمَاحِ مَارِبُ
تُقَرَّبُ لِي مُسْتَعِدَاتٍ مَطَالِي جِيَادِي وَعَزْمِي وَالْقَنَا وَالْقَوَاضِبُ

فما يطلبه ويتمناه فوق الثريا في أعلى عليين من السموات ، وطبيعي أن لا تتاله يده أحيانا ، ومع ذلك هو لا يئأس أن ينال من الدهر مطالبه ومآربه بفضل رماحه وجياده وسيوفه القواضب

(٣) الخريدة (لحم شعراء مصر) ٢٩٩/٢ .

(١) النجم الزاهرة ٢١٣/٣ .

(٢) معجم الأدباء ٨/٤ .

القاطعة وعزمه الذى لا يُقَلَّ ، إنه مملوء فتوة وقوة صلبة ينبلانه كل ما يتنى . وكان يعاصره الرشيد بن الزبير أخو المذهب الذى ترجمتا له فى الفصل الماضى وقلنا هناك إنه وقعت لأخيه الرشيد عنة باليمن إذ ذهب رسولا عن الدولة الفاطمية إلى أحد دعاة فسطحهم وهم بقطه مما جعل المذهب يستعطفه لأخيه بقصيدة رائعة ، ردَّ عليها بمجرد سماعها حرثته ، إذ عفا عنه وأطلقه ، ونرى الرشيد يعلن فى قوة أن نفسه لم تنكسر ولم يصبها أى وهن بسبب هذا الحادث ، يقول ^(١) :

جَلَّتْ لَدَى الرِّزَايَا بِلْ جَلَّتْ هِمِّى وهل يَصْرُ جَلَاءُ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
لو كانت النارُ للياقوتِ محرقةً لكان يَشْتَبِهُ الياقوتُ بالحجرِ
لا تُقَرَّرَنَّ بأطاري وقيمِنا فإنما هى أصدافُ على دُرِّ
ولا تظُنَّ خفاءَ النجمِ من صِفَرٍ فاللَّئِبُ فى ذاك محمولٌ على البصرِ

وهو يقول إنه تحمّل الرزايَا والمصائب التى نزلت به جَلَدًا شجاعا ، بل لقد جَلَّتْ همته جلاء السيف الباتر ، ويضرب مثلا بالياقوت فالنار منها اضطربت لا تحرقه ، وإلا كان حجرا لا غناء فيه . وينظر إلى أطواره وثيابه البالية فيقول لصاحبه : لا تفرنك هذه الأطوار الخلقية فإنها أصداف وقشور وأغطية للآلئ ثاقبة ، ويضرب مثلا بالنجم فى السماء تستصغر الأبصار رؤيته ، والذنب فى الصفر البصر لا للنجم .

ونغضى إلى زمن صلاح الدين وما حققت مصر فى أيامه من مجد حرمى عظيم بسحقها الصليبيين فى ديار الشام واستخلاص بيت المقدس وغيره من أيديهم ومخضهم محقا لا يكاد يبق منهم ولا يتر . وكان لابد لمصر من شاعر يتغنى لها بهذا الجهد البطولى الذى تُوجِّها به صلاح الدين ، وتثنى ابن سناء الملك أكبر شعرائها حيثنذ ببطولة صلاح الدين وجنده المصريين فى قصائد حماسية مضطربة ، كما مر بنا فى ترجمته ، وليس ذلك فقط ، فقد مضى بفخر فى أشعاره فخرا عارما ، وكان كل ما تجمّع فى صدر صلاح الدين وأبطال جيشه من أحاسيس تجمّع فى صدر ابن سناء الملك وقلبه ، فإذا هو يتغنى بمثل هذا النشيد الرائع ^(٢) :

سِوَايَ يَخَافُ الدَّهْرَ أَوْ يَرْهَبُ الرَّدَى وَغَيْرَى يَهْوَى أَنْ يَكُونَ عِلْدَا
وَلَكِنِّى لَا أَرْهَبُ الدَّهْرَ إِنْ سَطَا وَلَا أَحْزُرُ الْمَوْتَ الرُّؤْمَ إِذَا حَدَا ^(٣)

(٣) الرُّؤْم : السرج .

(١) ابن خلكان ١٦٢/١ .

(٢) الديوان ص ١٦٥ .

ولو مدَّ نحوى حادثُ الدهرِ طَرَفَهُ
لحدثتُ نفسى أن أمدُّ له يَدًا
توقدُ عَظْمى يترك الماءُ جمرَةً
وجِلَّةُ جِلْمى تترك السيفَ مِرْدَا
وأظمًا إن أبدى لى الماءُ مِثْنَةً
ولو كان إدراكُ الهدى بتذللٍ
وإنك عَبدى يازمَانُ وإننى
ولو علمتُ زُهرَ النجومِ مكانى
لخرتُ جميعًا نحو وجهى سَجْدًا

وكانه لم يعبر في هذه الأنشودة الفريدة عن شعور كل مصرى لزمه حمل السلاح وسفك به دماء الصليبيين المعتدين الآتين فحسب ، بل لقد عبر بها عن شعور كل مصرى على مر الزمن بأجماد أمته الحرية والحضارية . وإنه ليشمخ بنفسه في أعلى الأفلاك والسموات ، فإذا هولاء يهرب الدهر ولا يهرب الموت الزؤام ، ولو مد الدهر طرفه إليه لتأزله بعزم صادق يُشعل الماء جمرًا ملتهبا ويردّ السيف كليلا صلدًا لا يقطع . ويمتلئ صدره بإحساس الكرامة ، حتى إنه ليطمأن إن أبدى له الماء مِثْنَةً ، بل إنه ليموت ظمأ حتى لو كان نهر الهجرة مورده وحقق له وروده كل ما أمّله ، وحتى الهدى لو كان إدراكه بشيء من الهوان لرفضه . ويبلغ من استصغاره للدهر وأحداثه أن يشعر في قوة سيطرته عليه حتى كأنما ذلّ له ودان ، بل حتى كأنما أصبح له عبدا مسترقًا ، وهو مع ذلك يشعر في كبرياء بتعاطف شديد عليه ، حتى ليقول إن النجوم الساطعة لو رأت وجهه لخرت ساجدة تقدم له الترابيل ، وكأنما نجسدت في روحه مصر الخالدة الجديرة بكل تقديس .

ومن طريف ما يلقانا من الفخر بعده فخر ابن نباتة الكثير بشعره وكان حاملَ لواء الشعر في زمنه ، ومن قوله :

من مبلغُ العُرب عن شعري ودولته أن ابن عبادَ باقى وابنُ زيدونا
إذا رأيت قوافيها وطُلعتْها فقد رأيتُ مقتلَكَ البحرَ والثونا
كأنَّ ألفاظها في سمع حُصدها كواكبُ الرّجَم يَحرقن الشياطينا

وهو يقول إن من سمع شعره عرف أن الأندلس لم تُنْسَ ، فلا تزال حية نضرة ولا يزال شعراؤها العظام من أمثال المعتد بن عباد أمير إشبيلية وشاعره الوجداني ابن زيدون . وقد ورى في البحر والنون يريد بها بحر الشعر ونون القافية في القصيدة لا الحوت ، ويسمى حساده باسم

الشياطين تسقط عليهم آيات قصيده كشهد الرجم فيحترقون ويستحبون رمادا تذروه الرياح .
وقلنا نلتقي في الحقبة المئانية بفخر إلا ما يتصل بالشائيل والأخلاق الكريمة .

ومنذ سال الشعر على ألسنة المصريين سال معه هجاء كثير ، وكان الشعراء يقفون بسهامه -
كما مر بنا في غير هذا الموضع - الولاة والقضاة كلما انحرفوا عن الصراط السوي على نحو ما يصور
ذلك كتاب الولاة والقضاة للكندى . ومعروف أن أحمد بن طولون استقل بمصر وأنس بها
الدولة الطولونية ، وضم إلى لوائه الشام ، وله أعمال مجيدة كثيرة ، ولم يكن يخلو منه ظلم وعسف
وسفك للدماء كما يقول ابن تغرى بردى وفي كتاب الولاة والقضاة شاعريسمى محمد بن أبى داود
كان كثيرا ما يهجو مزربا على ماشاده من المارستان وغير المارستان ، وفيه يقول من أشعار مقذعة
كثيرة حتى بعد وفاته :

وكم ضجّة للناس من خلفو سيره نضجُ إلى قلبه عن الله مُخْفَلُ
قلبه غافل عن ذكر ربه وعن حوائج الناس وهم يضجون خلف حجابيه وحرسه . ولا نشك
في أن ابن أبى داود ظلم ابن طولون ، فقد كان يعنى بالرعية وبني جامعه المشهور وعهد إلى بعض
العلماء بالتدريس فيه . وأهاجى التنبى في كافر الإخشيدى مشهورة ، وقد ظلمه بدوره ظلما يبيّنا .
وكان المصريون قد احتضوا به حين نزوله في القسطنطينية وعقدوا له ندوة كبيرة ظلت طوال مقامه بين
ظهورانهم ، ومن لزمه فيها وروى عنه شعره صالح بن رشدين ، وعبيد الله بن أبى الجوع وله
نقائض وأهاج مع صالح بن مؤنس ، وله يقول صالح^(١) :

هاجبك فيها قاله مادحُ فأنت في صَفَقَتِكَ الرابعُ
بأبها الصُّوَرُ الذى لم يزل يرقص حتى دَهَّ الجارح^(٢)

وهو يسمي هجاءه له مدحا لأن فيه ذكرا له ، ومثله ليس شيئا حتى يذكر ، ويقول له إنك
عصفور صغير لا يزال يرقص على الأغصان من غصن إلى غصن حتى يذق عذقه صقر أو نسر
جارح . ونمضى إلى زمن الدولة الفاطمية وما أخذت تنشره من عقيدتها الشيعة الغالبة الرافضة .
وما زعمته للأئمة من نسبة إلى عالم القدس وأنهم من جوهر روحى مصفى وأنهم يعلمون الغيب

مما عرضنا له في غير هذا الموضع . ويروى أن الخليفة العزيز بن المعز صعد المنبر في يوم الجمعة ، فرأى ورقة كتب فيها شاعر مصري هذين البيتين ^(١) :

بالظلم والجور قد رَضِينَا وليس بالكُفر والحاقَة
إن كنتَ أعطيتَ عِلْمَ غَيْبٍ فَقُلْ لَنَا كَاتِبَ الْبَطَاقَةِ

فتناولها العزيز وقراها ولم ينس بيت شفة .

وظل شعراء مصر طويلا مغاضبين لهذه الدولة معرضين عنها ، كما أسلفنا ، وكان مما أثار حفيظتهم بالإضافة إلى نخلتها المنحرفة اتخاذها وزراء لها من اليهود ممن أعلنوا إسلامهم ، وكان كثير من المصريين يشك في صحة إسلامهم وأنهم يتخللون ذلك ذريعة للاستيلاء على الوزارة والمناصب الكبرى في الدولة ، وكان منهم صدقة بن يوسف الفلاحى وزير الخليفة المستنصر واتخذ أبا سعد التستري اليهودى مديرا للدولة معه فصاح أحد الشعراء المصريين بالخليفة ساخرا غاضبا ^(٢) :

يهودُ هذا الزمانِ قد بلغوا غايةَ آمالهم وقد ملكوا
العزُ فيهم والمالَ عندهمُ ومنهمُ المستشارُ والملكُ

وهى سخرية من المستنصر قاتلة ، مما اضطره إلى النزول على إرادة الشاعر والشعب ، فاعتقل الوزير الفلاحى ولقى حتفه على يده . وعلى نحو ما كان المصريون يتعرضون للفاطميين بالهجاء كانوا كذلك يتعرضون لوزرائهم هاجين هجاء مرًا على نحو ما هجا الشاعر جاسوس الفلك الجرجاني وزير المستنصر وكان أقطع الدين لحيانة ظهرت عليه في أيام الحاكم ، فلما ولي الوزارة استعمل الأمانة الزائدة والاحتراز الشديد فخطبه جاسوس الفلك قائلا ^(٣) :

يا أحمقًا إسمعْ وقُلْ ودّعْ السرقةَ والنحامقُ
أمنَ الأمانةِ والحقِّ قُطِيتْ بذاك من المرافقِ

ولم يكن الوزير مصرى الأصل بل كان من جرجاريا من أرض العراق . واشتهر الناجى المصرى بمقطعاته الهجائية الكثيرة في الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة الأمر ، وفيه يقول ^(٤) :

(٣) ابن خلكان ٤٠٨/٣

(٤) الحريدة ١٠٣/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ١١٦/٤

(٢) حسن المحاضرة ٢٠١/٢

قُلْ لَابِن بَنِي مَقَالَ مِنْ صَدَقَةٍ لَا تَفَرَحُنْ بِالْوَزَارَةِ الْخَلْقَةُ
إِنْ كُنْتَ قَدْ نَلَقَهَا مُرَاعَةً فَهِيَ عَلَى الْكَلْبِ بَعْدَكُمْ صَدَقَةٌ

وهو هجاء مقذع إقذاعا شديدا . ونرى داود بن مقدم المولى الملقب برضى الدولة المار ذكره
يهجو بعض أصحاب اللواوين وماكانوا عليه من فساد فى جمعهم للضرائب ، يقول ^(١) :
وَكُتَّابٌ لَهُمْ أَبَدًا حُمَاتٌ تُعَدُّ لَهُمُ الرُّقَى مِثْلَ الصَّلَالِ ^(٢)
بِأَيْدٍ تَبْتَدِرُنْ إِلَى الرُّشَاوَى كَأَيْدَى الْخَبْلِ أَبْصَرْتُ الْخَالِ

فكانهم يشبهون الزناوير والعقارب والأفاعى ، إن لم يقدم لهم الرشاوى لسوا من يجمعون منهم
الضرائب كما يلسع الزنجر والعقرب بمخنها أو إبرتها وكما يلسع الصل أو الأنهى بسمه القاتل .
ونلتقى فى أثناء ذلك بدعابات ساخرة كقول ابن قادوس ينهك على الرشيد بن الزبير وكان شديد
السواد ^(٣) :

إِنْ قُلْتُ مِنْ نَارٍ خِلْفُكَ تَ وَقُتَّ كُلُّ النَّاسِ فَهَمَّا
قُلْنَا صَدَقْتَ فَا الَّذِى أَطْفَاكَ حَتَّى صِرْتَ فَحَمَّا

وهى دعاية قد يقبلها الرشيد لما فيها من فكاهة خفيفة ، ولابن قادوس أحيانا هجاء ملىء
بالسوم وخاصة ممن يضيق بهم كقوله فى مناقب مايزال يتلون لكل شخص باللون الذى يعجبه ،
يقول ^(٤) :

حَوْلَهُ السَّيَوْمُ أَنْاسٌ كُلُّهُمْ بُزْغَى بِرَائِهِ
وَهُوَ مِثْلُ الْمَاءِ فِيهِمْ لَوْنُهُ لَوْنُ إِنَائِهِ

ونغصى إلى زمن الأيوبيين ، ويلقانا ابن سناء الملك ساخطا على بعض معاصريه ، يكوهم
بسياط هجائه وخاصة من يسمى ابن عثمان ، حتى ليد أن يُصَفَّعَ بالنعال على حد قوله ^(٥) :
وَكَمْ لَهُ مِنْ وَقْعَةٍ لَمْ تُبْقِ مِنْهُ بَاقِيَةٌ
وَمَا عَلَيْهِ قَطُّ مِنْ صَفْعٍ النُّعَالِ وَاقِيَةٌ

(٣) الحريدة ٢٢٩/١ .

(١) الحريدة ٤٧/٢ .

(٤) الحريدة ٢٣٣/١ .

(٢) حات : جمع حنة وهى إبرة الزنجر والعقرب .

(٥) الديوان ص ٨٧٦ .

والصلال : الأفاعى .

فهو يتصوره يُصْنَعُ بالآمال ولا منبث له ولا مجبر ، وللبهاء زهير بعض مقطوعات في الهجاء ، وهو لا يقذع فيه ، بل يفسح للدعابة والوخز الخفيف الذى لا يلمس ، وقد لا يتعدى وصفه بالثقل كقوله ^(١) :

ربُّ ثَقِيلٍ لِبُغْضٍ طَلَعَتْهُ أَخْشَاءُ حَتَّى كَانَتْ أَجَلِي
وَكَلِمًا قَلْتُ لَا أَشَاهِدُهُ أَلْقَاءَ حَتَّى كَانَتْ عَمَلِي

وكان الشعراء يتعرضون أحيانا للوزراء يهجونهم كقول ابن مطروح يهجو هبة الله بن صاعد الفاترى مستغلا اسم أبيه في هجائه ^(٢) :

لَعَنَ اللَّهُ صَاعِدًا وَأَبَاهُ فَصَاعِدًا
وَبَنِيهِ فَنَازِلًا وَاحِدًا ثُمَّ وَاحِدًا

وهو كصاحبه البهاء زهير لا يتسع في هجائه ولا يقذع فيه ولا يفحش .

ويظل الشعراء طوال عصر المالك يريشون سهام الهجاء ، ويلقانا في أوائله الجزار والوراق ولها أهاج فكهة كثيرة سنعرض لها في غير هذا الموضع ، وكان يعاصرها البوصرى شاعر المديح النبوى الرائع ، وكان يعمل موظفا في دواوين الأقاليم ، وله هجاء عنيف في طوائف الموظفين جميعا أوكما يسميهم المستخدمين من كتاب خراج وقضاة وغير قضاة ، ومن قوله فيهم ^(٣) :

نَكَلْتُ طَوَائِفَ الْمُتَخَدِّمِينَ فَلَمْ أَرْ فِيهِمْ رَجُلًا أَمِينًا
أَقَامُوا فِي الْبِلَادِ لَهُمْ جُبَّةٌ لِقَبْضٍ مُغْلَلًا كَالْمُقْطَعِينَا
نَحْبِلُ الْقَضَاءُ فَخَانَ كُلُّ أَمَانَةٍ وَسُوءِ الْأَمِينَا
وَكَمْ جَعَلَ الْفَقِيهُ الْعَدْلَ ظُلْمًا وَصَبْرًا بَاطِلًا حَقًّا مُبِينَا

فهو يشكو من فساد جميع الموظفين ، فعالم الخراج كأنهم من أصحاب الإقطاع وهم يجمعون ما تظه إقطاعاتهم ، والقضاة يخونون الأمانة والفقهاء يحملون بفناؤهم المضلة الظلم عدلا والباطل حقا ، ويردد ذلك في أشعار كثيرة تصور فسادهم جميعا وكيف كانوا يجمعون ثروات طائلة بطرق غير مشروعة . وسرى لابن دانيال أهاجى فكهة كثيرة في حديثنا عن شعراء الفكاهة . وما يلاحظ

(١) البهاء زهير للشيع مصطلح عبدالرازق ص ٢٢ . (٢) الديوان ص ٢١٨ .

(٣) النجم الزاهرة ٥٨/٧ .

أن المصريين قلما يفحشون في هجائهم ، وكثيرا ما يتحول إلى ما يشبه عتابا رقيقا كقول ابن مكناس المتوفى سنة ٧٩٤ هـ حاجيا^(١) :

نَعَمْ نَعَمْ مَحَضُّهُمْ صِدْقُ الْوَلَا نَطُولَا^(٢)
وما رَعُوا عهدا ولا مودَّة ولا ولا

وفي كلمة « ولا » الأخيرة تورية واضحة إذ يريد بها مقصور ولاء . ونراه حين يصادر أمواله وبغاله وخيله السلطان الظاهر برقوق لا يشتم ولا يهجر بل يكتفى بقوله^(٣) :

رَبُّ خُذْ بِالْعَدْلِ قَوْمًا أَهْلَ ظُلْمٍ مِثْلِي
كُلُّفُونِي بِبَيْعِ خَيْلِي بِرَخِيصٍ وَبِغَالِي

والتورية في كلمة بغالي مع كلمة برخيصة - وهو يريد بغاله الحقيقية - واضحة ، وهو يعمد إليها في هذا الطرف المخرج من محته .

ونظلم تلقى بالهجاء في أيام الثمانين ، من ذلك قول الشهاب الخفاجي من قصيدة جميعها على الخط التالى^(٤) :

يَا ضَيْعَةَ الْهَيْبَانِ مِنْ عَائِلٍ قَبِيلِ عَيْدٍ أَعَزَّ الْفُطْرَةِ^(٥)
وَيَأْقِفَا الْمَهْزُومِ مِنْ فَارِسٍ أَدْرَكَهُ فِي سَاحَةِ قَفْرَةٍ
وَبَهْتَةَ السُّكْرَانِ مِنْ هَاجِمٍ فِي لَيْلَةٍ مَظْلَمَةٍ قَرَّةٍ^(٦)
وَيَانِجِيًّا جَاءَ عَنْ وَاحِدٍ إِلَى عَجُوزٍ مَالَهَا أُسْرَةٌ

وتغضى القصيدة على هذا النحو الساخر اللاذع المُضْحَى نكيل الذم لمهجوه كيلا ونزأ به وتسخر منه سخرة قاتلة .

وتلقانا مطارحة^(٧) طريفة بين الشاعر المعروف باسم شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠ للهجرة والشاعر قاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ ، فقد نظم شبانة - يداهب قاسما - قصيدة هجائية طويلة يقول فيها :

-
- (١) رعانة الألبا للخفاجي (طبعة الحلبي) ص ٤١ .
(٢) نطولا : فضلا .
(٣) النجم الزاهرة ١٢/١٢٩ .
(٤) نسخة الرعانة للمسبح ٦١٢/٤ .
(٥) الفطرة : القتل في لغة المصريين العامة . الهيبان : كيسي النور .
(٦) قرّة : باردة .
(٧) تاريخ الجبل ١٢٨/٢ .

سبحان من قسم التحو من لقاسم وأذل هامة
وكساه ثوباً جنابة يحزى بها يوم القيامة
ومضى يتمه بأنه يعين لصوص البيوت ويسرق الحرير ويسل الكحل من العيون ، ورد عليه
قاسم هاجباً مداعباً ، من نفس الوزن والقافية ، وكأنها يعيدان لنا نقائض جرير والفرزدق يقول
قاسم :

جَلَّ الذي . قسم الشقا لشبانة وله أدامة
بمامة لوخالها ال قلاً نوقمها برامة
موروثية عن جدّه من قبل أن تُنتى القيامة
لو كان يصلح للصلاة لحق للفرزدق الإمامة

والقلاً مقصور القلاء وهو من يقل اللحم والأطعمة ، والبرام : القدر الذي يُقلى فيه . يشير
بذلك إلى ضخّم رأسه وقذارة عمامته . ولعله يريد بالقامة كنيسة القيامة بالقدس ، وقد بنيت
حوالي سنة ٣٢١ للميلاد . والدعابة واضحة في الأبيات . ونقف قليلاً عند بعض شعراء الفخر
والهجاء :

نجم^(١) بن المعز

هو نجم بن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، ولد لأبيه سنة ٣٣٧ بمدينة المهديّة التي بناها
جده عبيد الله المهدي بتونس ، وقد تحول عنها ابنه الخليفة المنصور في نفس السنة التي ولد فيها نجم
حفيده إلى مدينة أسسها هناك سماها المنصورية ، وولد لأبيه بعده على التوالي عبد الله ونزار
وعقيل ، وكان المعز قد بويع بولاية العهد في حياة أبيه المنصور ، وجُدِّدت له البيعة حين توفي سنة
٣٤١ . وكان في الثانية والعشرين من عمره ، وكان حصبفاً سيّوساً ، دانت له إفريقية من تونس
إلى المحيط ما عدا سبتة فإنها ظلت - كما مر بنا في غير هذا الموضع - مع عبد الرحمن الناصر الأموي
صاحب الأندلس ، وسيّر جوهرًا قائده إلى مصر فافتتحها سنة ٣٥٨ - كما مر بنا في غير هذا
الموضع - ودخلها المعز في سنة ٣٦٢ وكان على الهمة يحكم تدبير الأمور حازماً منتهى الحزم ،

الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ص ١٧٠ ومقدمة
ديوانه (طبعة دار الكتب المصرية) .

(١) انظر في نجم وترجمته وأشعاره البنية ٤٣٦/١ وابن
خلكان ٣٠١/١ والخطبة السبابة (طبعة د. حسين مؤنس)
٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٥٦٠/١ وكتاب في أدب مصر

واتضح حزمه إلى أقصى حد في صرفه ولاية العهد عن ابنه الأكبر نجم ، وكان لا يزال في المنصورة بتونس ، حين تأكد أنه يسير سيرة معوجة منحرفة ، مما جعل واليه على صقلية أحمد بن الحسن الكلالي يستأذنه في قتل أحد أبنائه لمشاركته نجما في مجونه^(١) .

ويبدو أن المزمح حاول - دون جدوى - أن يرد ابنه إلى الطريق السوي حتى إذا فشلت محاولته صرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله^(٢) ، ولم يلبث عبد الله أن توفي حين نزل مع أبيه في مصر فجعل المزمح ولاية العهد لأخيه نزار الذي خلف أباه حين وفاته بالقاهرة سنة ٣٦٥ متسما باسم العزيز .

وليس من ريب في أن المزمح حتى بتربية ابنه نجم الذي كان يعدّه لولاية العهد منذ نموه أظفاره ، فأحضر له المعلمين المذنبين واللغويين وعهد إلى بعض دعاة الحلة الفاطمية بتلقينها له ، وكانت للغلام موهبة شعر فذة ، فأكب على الشعر العربي في أزمتته المختلفة يتزود منه ، وسرعان ما استيقظت فيه موهبته ، فعكف على اللهو والمجون لا يردعه رادع . وانتقل مع أبيه إلى مصر ، ففضى في سيرته ، ينجأ للهو والمجون . ويموت أخوه وأبوه فيريهما رثاء فائرا ، وهورتاه يدل على مكنون ضميره وأنه كان يشعر في أعماقه بأن أباه سلبه حقه . وهو في ديوانه يكثر من مديح أخيه العزيز ، ونحس صدقه في هذا المديح وإخلاصه له ، ومع ذلك كان لا يسلم من الوشاة بينه وبين أخيه ، مما جعله يبعده مرة إلى عين شمس بجوار القاهرة ومرة ثانية إلى الرملة بفلسطين ، ويألم ألما شديدا لفرفته وبعده عن ملاعب مجونه ، وسرعان ما يرد العزيز إليه حريته . وهما فترتان صغيرتان في حياته المثيرة بالقاهرة حتى وفاته سنة ٣٧٤ .

وكان العزيز يقدق عليه إغداقاً عظيماً ، فقد جعل القصور على بركة الحبش - بمصر القديمة الآن - خالصة له ، وكانت تطل على النيل ومن حولها حدائق بديعة ، ووهب له بستانا عظيما يعرف باسم المشوق ، غير ما كان يفضى عليه من الأموال الضخمة . وكل ذلك أتاح له أن يجامح حياة ترف ولهو في قصوره وبساتينه ورياضه وفي الأدب . وكان ينتهز فرصة الأعياد الكثيرة : الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية ، فيشارك الشعب في مرحه وقصفه ، سواء فيما كان يقم من

الذي ذكرناه فقد كان لا يزال في سلالع شبابه ، وقد عاد فصرها عنه مرة ثانية بعد وفاة أخيه عبد الله . وربما كانت كتابة نجم بأبي على قاطعة في أنه أجب فعلا .

(١) سيرة جوفرد (محقق د : كامل حسن) ص ١٢٠ .
(٢) ذكر ابن الأثير في الحلة السيرة أن السبب في صرف العزيز لولاية العهد عن نجم أنه لم ينبغي ولدا . غير أن صريحا منه وهو لا يزال في نحو العشرين من عمره يؤكد السبب

مضارب ومصادقات وقباب ببركة الحبش أو لما كان يتخذ من قوارب نضاه بالشموع ليلاً في النيل ، والمضون والمغنيات يطربون الناس . وهو يمر بزوارقه على قواربهم ، ويستمع إلى من معهم ويُسمعهم بعض قيامه . وفي ديوانه ما يصور كتوس اللهو والمجون التي كان يعبّ منها عباً ، ومربناً مديحه لأخيه العزيز وما أذاعه ونشره فيه من مبادئ الدعوة الفاطمية الإسماعيلية وعقيدتها في الإمام وارضاها عن البشر بجوهره الروحاني اللطيف وجسده النوراني الشفاف وعقله الكلي الفعال وإسباغ الصفات الربانية عليه . ويتنادى نعيم في ذلك ومثله حتى لكأنه داعية من دعاة الدولة ودعاة أخيه العزيز خاصة وحسبنا ما صورناه عنه في حديثنا عن المديح . وهو في الديوان بضيف إلى هذا المديح فخراً يمتزج أحياناً بعقيدته في الأئمة ، وكأنه الإمام المنتظر ، إذ يقول :

أنا الصبحُ	أنا الشمسُ	أنا البدرُ	الذي بَرى
أنا المرجوُ	في المُسَرِّ	أنا المرجوُ	في البُسرِ
أنا المُسَبِّلُ	لِلنُّعْمَى	أنا الكاشفُ	لِلضَّرِّ
أنا الرائقُ	لِلْفَتْحِ	أنا القاصمُ	لِلظُّهْرِ

وكانما تجسدت فيه شخصية أحد الأئمة ، فهو نور الصبح ونور الشمس ونور القمر ونور الأنوار الذي يستمد منه كل نور ، وهو مدبر الكون ومقسم الرزق المرجو في الصر والبسر والمسيخ للنعمى والكاشف للضر الرائق للفتح القاصم للظهر . ويستمر فيقول إنه هو الحاطم للعظم والجابر للكسر والعالم بالذكر ، يريد أنه العارف لبواطن الذكر الحكيم ، كما يزعم الإسماعيليون لأئمتهم . ولا يبعد أن يكون مثل هذا الفخر هو الذي كان يتخذه الوشاة أداتهم للوقعة بينه وبين أخيه العزيز ، مما جعله يعبه ، كما ذكرنا ، مرة إلى عين شمس ومرة إلى الرملة . وتتردد أصداه من هذه المعاني في أشعاره في صوت عال تارة ، وتارة ثانية في صوت خفيض ، ومن قوله في ذلك :

أبني علىَّ إن نكنُ نُنَى	إلى حَبِّ أَنَا بَا وَجَدُ أَرْوَعاً ^(١)
فلقد علمتُ أني أغشى الوغى	وأنوبُ في الجَلَى قَوَولا مُسْتَعِماً ^(٢)
ولقد علمتُ أني رَضْتُ الملا	يَقَمًا وحاولتُ المكارمَ مُرَضَّعاً ^(٣)

القول يشير إلى بلائه في شعره .

(٣) الفصح : الحق في لسان شابه .

(١) أنفت : أفرط وارتفع .

(٢) الجَلَى : الأمر العظيم . قَوَولا : صيغة مبالغة من

فدعوا لى الشرف الذى شديته إذ هضموه فانكفأ وتَصَصَّصَا^(١)
لى فى المشرق والمغرب جَوْلَةً يَغْلُو بها قلبُ الزمانِ مصدعا
فادفع بحدِّ السيف كلَّ ظَلَامَةٍ إن لم تجد يوما سواه مَنقُصَا
فبذلك أوصانى الوصى ورَفَعَهُ وعلى فَرَضُ أَنْ أُطِيعَ وأسمعا

وهو يخاطب أسرته العلوية ذات الحسب العالى والحظ العظيم واضعا بين يديها شجاعته ونفوذه
فى الأمور العظيمة برأيه المحكم وشعره البلخ ، ويزعم أنه راضى الملا وساسها فى مطلع شبابه وأنه
حاول المكارم منذ كان فى المهد مرضعا . وإذن فليحطوه حقهُ والشرف الذى يمنونه منه ، وكأنه
ينلهم ويهدمهم ويتوعدهم إن لم يردوا عنه ظلمهم ويردوا إليه الحق الملبوب ، ويزعم أن تلك
وصية جده أبى الأوصياء على بن أبى طالب وأبائهِ من الأئمة وأن فُرِضا عليه أن يسمع ويطيع .
ولا ريب فى أن هذه المعزوة التى كان يوقّعها كثيرا على قيثارته كان يضيق بها العزيز ، غير أن غمتها
سرعان ما كانت تتكشف عن صدره حين يستمع إلى مدائح تميم فيه وترديد قلميته ووجوب
طاعته .

ومعزوة ثانية كان كثيرا ما يعزفها تميم ويلحنها على وتر الفخر فى قيثارته ، ونقص ردوده
العنيفة على فخر عبد الله بن المتمر العباسى بأسرته العباسية الهاشمية . وله إزاده موقفان : موقف
يختار فيه قصيدة من قصائد ابن المتمر فى فخره بأسرته ويقضها نقضا بما يصور من مفاخر أسرته
الفاطمية . وموقف ثان لا يتقيد فيه بقصيدة معينة يردُّ عليها . وهو فى الموقف الثانى حر يختار أى
وزن ينظم فيه وأى قافية ، أما فى الموقف الأول فيتقيد بوزن القصيدة التى يرد عليها وقافيتها على
شاكلتها ما كان يحدث بين جرير والفردق فى نقاضها ، ومن قصائد الموقف الأول راتبة لابن المتمر
استلها بقوله : هـ أى رُبِّع لآل هندٍ ودأبه عند تميم إلى نقضها بقصيدة تماثلها فى الوزن
والرؤى ، وفيها يقول ، رادًا على ابن المتمر والعباسين جميعا :

ليس عَبَّاسُكُمْ كمثل على هل تقاسُ النجومُ بالآلِ
مَنْ له الصُّهْرُ والمولساةُ والثَّفْرةُ ، والحربُ ترعى بالشرارِ
مَنْ دَعَاهُ الثَّيْبُ خُتْنًا وسَمًا هـ أَنَا فى الخفاءِ والإظهارِ

(١) هضموه : من هاض الحظ إذا حطه وكان على
وشك أن يتجبر .

مَنْ لَهُ قَالَ أَنْتَ مِنْهُمْ كَهَارُو نَ وَمَوْسَى أَكْرَمَ بِهِ مِنْ نَجَارٍ
 ثُمَّ يَوْمَ الْقَدِيرِ مَا قَدْ عَلِمْنَا مَنْ لَهُ قَالَ : لَا تَقَى كَعَلَى
 مَنْ تَوَطَّأَ الْفِرَاشَ يَخْلُفُ فِيهِ أَحْمَدًا وَهُوَ نَحْوُ يَثْرَبَ سَارِ
 وَلَنَا حُرْمَةُ الْوِلَادَةِ وَالْأَخْ حَامِ وَالسُّنْبُ وَالْهَدَى وَالنَّارِ
 نَحْنُ أَهْلُ الْكِسَاءِ سَادَتُنَا الرُّوحُ أَمِينُ الْمُهَيْمِنِ الْجَبَّارِ
 حُجَّجٌ كُلُّهَا تَأْتِلُهَا الْعَا لِمُ بَانَتْ لَهُ يَانَ النَّارِ

ونعم يوازن بين جده علي بن أبي طالب وعمه العباس بن عبد المطلب ، ويفاخر بأنه صهر
 الرسول ﷺ وساعده الأيمن في الحرب ، ويشير إلى حديث نبوي ترويهِ الشيعة : أن النبي عليه
 السلام قال : « علي مني بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » . وهم يستدلون بهذا
 الحديث على أن عليا ليس أحق بالخلافة من العباس فحسب ، بل هو أيضا - في اعتقادهم -
 أحق من الشيخين : أبي بكر وعمر بالخلافة . ويذكر يوم غدير خم وهو موضع بين مكة والمدينة
 انتهى فيه الرسول ﷺ على ابن عمه علي ، وقال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، وتذهب الشيعة
 إلى أن الرسول عليه السلام أوصى في هذا اليوم بالخلافة لعلي . ومنذ أواسط القرن الرابع الهجري
 يتخذ الشيعة هذا اليوم الموافق للثامن عشر من ذي الحجة عيداً لهم . ويشير نعيم إلى ما يرويهِ الشيعة
 من أن الرسول قال : لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار : سيفه . ويذكر أنه هو الذي اصطفاه
 الرسول لبناء في فراشه ليلة خرج مع أبي بكر مهاجراً إلى المدينة ، مختزلاً حصاراً مسلحاً ضرته
 فريش حول بيته ، حتى لا تنبّه إلى خروجه ، وكانت قد نُسيت القضاء عليه (يريدون أن يُطْفَئُوا
 نور الله وبأبي الله إلا أن يثْمَ نوره) . ويقول إنهم يشتركون مع العباسيين في أنهم من سلالة
 أعمام رسول الله ويرتفعون فوقهم درجات بأنهم أبناء بنت رسول الله السيدة فاطمة الزهراء . ويشير
 إلى ما تقصّ الشيعة من أن الرسول ألقى كساءً عليه وعلى السيدة فاطمة وعلى زوجها وابنيها الحسن
 والحسين وكان سادسهم - كما يقول نعيم - جبريل وقال : نحن أهل البيت في خيرٍ مردونه . ويذكر
 جهاد علي المبرور في غزوات الرسول وخاصة في بدر وأحد وخيبر وكيف أبلى فيها جميعاً بلاءً عظيماً .
 ويقول هذه كلها براهين ساطعة كالشمس بأفضلية علي وارتقاء منزلته على عمه ، ويهدد العباسيين

بحرب مبيدة تعصف بهم عصفا شديدا .

ونتم في الموقف الثاني الذي لا ينقص فيه قصيدة بعينا لابن المعتز يلح على هذه المعاني نفسها في رده على العباسيين وفخره عليهم فخرا مضطرا بشرر كثير ، يريد به أن يثبت أن العلويين أحق بالخلافة من أبناء عمومته سواء من جهة إرثهم لها عن طريق جدهم على وجدتهم فاطمة بنت الرسول عليه السلام أو عن طريق وصاية الرسول بها لعل أو عن طريق خدماته الجليلة للدين الحنيف ونصره . ويمد طرفا من هذا الجدل إلى بني أمية وهو يقصد أصحاب الأندلس في أيامه ، وكان أخوه العزيز كتب إلى صاحبها الأموي - ولعله المستنصرين عبد الرحمن الناصر - كتابا يثبه فيه وجهه ، فكتب إليه : « أما بعد فلأنك قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبتك والسلام » فاشتد ذلك على العزيز وأفحمه عن الجواب ^(١) . ولعل ذلك ما جعل تبما يتصدى للأمويين ويفخر عليهم بمثل قوله :

إِنْ قُرَيْشًا بِعَلَا هَاشِمٍ تَفْخَرُ فِي عَقْوَةِ عَرَبِيهَا ^(٢)
 إِنْ يَكُ مِنْ يَاقُونَا هَاشِمٌ فَعَبْدُ شَمْسٍ مِنْ ضَغَايِهَا ^(٣)
 اسْمٌ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ أَهْلُ مَعَالِيهَا وَتَقْدِيهَا
 دَعَا عَبْدَ شَمْسٍ وَأَبَاطِيلَهَا فَقَدْ بَدَا اللَّهُ بِتَنْكِيْهَا
 قَبِيلُهُ مَا طَهَّرَ اللَّهُ مِنْ شَايِعِهَا مِنْ إِثْمِ تَنْجِيهَا

فهاشم جد الرسول والعلويين فخر قريش في ساحة غيلها الملتف ، وهو وبنيه باقوت قريش ومعدنها النفيس أما بنو أمية فحجارة صلده ، وللهاشميين بفضل الرسول علاهم وقديسيتهم ، أما عبد شمس وبنيه فأصحاب أباطيل مزورة ، وقد هدم الله دولتهم في المشرق ، وإنها لقبيلة آتمة إنما فظيما ، وإنها لتصم كل من شايعها وصمة شنيعة . ويستمر فيذكر سفكهم لدم الحسين وسبيهم لمن كن معه من النساء ، مسجلا بذلك عارا عليهم لا يماثله عار .

(٣) الضحائيس : جمع ضغيوس : الضعيف اللئيم .

(١) ابن خلكان ٣٧٢/٥

(٢) عقوة : ساحة . عريس : غيل الأسد .

طلائع^(١) بن رزّيك

أرمنى الأصل قَدَم إلى زيارة مشهد الإمام علي بن أبي طالب بالنجف ، وكان لا يزال شاباً واعتنق مذهب الشيعة الإمامية ، وتعرّف في أثناء زيارته له على شخص يسمى ابن معصوم يدعى أنه كان من دعاة الفاطميين ، فحبّب إليه زيارة القاهرة والانتظام في خلعمة القوم ، ولقيت دعوة الرجل من نفسه قبولاً حسناً ، فصار إلى مصر ، وترقّى في خلعمة الفاطميين حتى ولّوه حاكماً لمنية الحصب بالصعيد (المنيا الآن) وحدث أن تأمر عباس الصنهاجي وزير الخليفة الظافر مع ابنه نصر على قتل الخليفة سنة ٥٤٩ هـ وتمت المؤامرة ، فاستغاث بيت الفاطميين بطلائع ضد عباس ، فأقبل يريد محاربته حتى إذا قرب من القاهرة فرعباس بما نهب من أموال القصر الفاطمي إلى الشام ، وقتله الصليبيون في الطريق . ودخل طلائع القاهرة فخلعت عليه الخلع الخاصة بالوزارة وتُعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين . وكان قد ولي الخلافة الفاطمية ابن للظافر تلقب بالفاتر (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) وكان صبيّاً لا يملو خمس سنوات ، فدبّر الدولة طلائع وأحسن تديرهما ، حتى إذا نوى الفاتر بعد نحو ست سنوات اختار للخلافة بعده طفلاً لم يبلغ الحلم من الأسرة هو عبد الله بن محمد الملقب بالعاضد ، وزوّجه ابنته ، وأصبح صاحب الأمر كله في الدولة . وأخطأ إذ قطع رواتب الخاصة ، فلم يدرك عام في خلافة العاضد حتى دبّرت له مؤامرة لقطه ، فقتل سنة ٥٥٦ هـ ويقال إن العاضد نفسه هو الذي أعمل الحيلة في قتله لاستبداده بالأمر من دونه ، وخاصة أنه كان شيعياً لا على مذهب الفاطميين الإسماعيليين ولكن على مذهب الإمامية . ويقول المقرئ : « كان رجل وقته فضلاً وحققاً وسياسة وتدبيراً » . ولم يكن يستر عقيدته الإمامية بل كان يعلنها ويجادل فيها الفقهاء الإسماعيليين ، وصنف في ذلك كتاباً سماه « الاعتاد في الرد على أهل المعتاد » ويقول المقرئ إنه جمع له الفقهاء وناظرهم عليه . وكان يجادل أيضاً بقوة عن مذهب المعتزلة في القدر وأن الإنسان حر الإرادة لا مجبر كما يقول القدرية ، وله في ذلك قصيدة سماها : « الجهورية في الرد على القدرية » ومن قوله في الرد عليهم :

النكت المصرية عليه وعلى حياته وأجاده ومدائمه ومدائح
غيره فيه ، ونشر محمد هادي الأميني ديوانه في النجف ،
ولودع في مقفله ثباتاً خفلاً بمصادر ترجمته .

(١) انظر في طلائع وزوجته وأبنائه الحريدة ١/١٧٣
والغرب (قسم القاهرة) ص ٢١٧ وابن خلكان ٢/٥٢٦
والجزء الخامس من النجوم الزاهرة في مواضع مختلفة (انظر
القهرس) وخطط المقرئ ١٩٢/٣ وبني حارة اليمن كتابه

بِأَمَّةٍ سَلَكَتْ ضَلَالًا بَيِّنًا حَتَّى اسْتَوَى إِقْرَارُهَا وَجُودُهَا
يَلْتَمِسُ إِلَى أَنَّ الْمَعَاصِيَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِسِتْقَادِيرِ الْإِلَهِ وَجُودُهَا
لَوْ صَحَّ ذَا كَانَ الْإِلَهِ يَزْعَمُكَ مَنَعَ الشَّرِيعَةُ أَنْ تُقَامَ حُدُودُهَا

وقد فتح أبوابه للشراء ، وكثير منهم كانوا يختلفون إلى مجلسه في منزله وخاصة المجلس بن
الحباب والمهذب بن الزبير وابن قادوس ، وأصبحت القاهرة لعمده كعبة للقصاد من شراء البلاد
الرية أمثال ابن الدعان الموصلي وعارة اليمنى ، ولكل هؤلاء الشعراء فيه قصائد طنانة ، وفيه
يقول العباد : « نفق في زمانه النظم والنثر واسترق بإحسانه الحمد والشكر وقرب الفضلاء ،
واخذلهم لنفسه جساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على الداني والقاصي بالعطاء » . وقد
أدار العباد كثيرا من تراجمه في القسم للمصرى من كتابه الخريدة عليه وعلى مدائحه . وألف في أيامه
الرشيد بن الزبير كتابه « جنان الجنان ورياض الأذهان » في معاصريه من الشعراء ومادحيه
وافتحه بترجمته ، كما ألف شاعره المجلس بن الحباب كتابا قصره على مدائح الشعراء فيه .

وقد حقق محمد هادى الأميى ديوانه ونشره بالنجف في نحو مائة وخمسة وعشرين صحيفة ،
ويقول ابن خلكان إنه رأى ديوانه وأنه كان يقع في جزءين ، وكان ديوانه المنشور وإنما هو
مقتطفات من ديوانه الأصل ، وانتهى بعض معاصريه بأن كثيرا من أشعاره ليس له وإنما هو من
صنع شاعريه : المجلس بن الحباب والمهذب بن الزبير ، ويبدو أنها تهمة غير صحيحة ، وأنه ربما
كان يرجع إليها لتصحيح بعض أشعاره إن صح ما قيل من أنها كانتا يصلحان له شعره . وأكثر
الديوان المنشور في مديح آل البيت وراثتهم ورثاء الحسين خاصة ، ولعل هذا هو سبب النعم
الحزين الكثير في شعره ، إذ الشيعة دائما محزونون منذ مقتل الحسين وقد اتخذوا يوما يندبونه فيه هو
يوم عاشوراء ، وجعلوا شاعرهم السواد ، وهو سواد يطبع كثيرا من أشعار طلائع بالتشاؤم والتفكير
الكثير في الموت ، حتى في يومه البيج يوم جلوسه في الوزارة إذ نرى الدنيا تتحول بهجتها أمام
عينه حزنا وشؤما وموتا ، وإذا هو ينشد حين تربيته في كسب الوزاره :

انظُرْ إِلَى ذِي الدَّارِ كَمْ قَدْ حُلَّ سَاحَتُهَا وَزِيرُ
وَلَكُمْ نَبَحْتَرِ آمَنَّا وَنَطَّ الصَّفُوفِ بِهَا أَمِيرُ
ذَهَبُوا فَلَا وَاقِهَ مَا بَقِيَ الصَّغِيرُ وَلَا الْكَبِيرُ
وَلِشَلِّ مَا صَارُوا إِلَيَّ مِنْ الْفَنَاءِ غَدًا نَصِيرُ

وكان طلائع شجاعا بل مثالا عاليا من الشجاعة والبطولة ، قضى بعد الجيش المصرى لحرب الصليبيين ونازلهم مرارا براءً وبحرا ، وظل ينازلهم ويقاثلهم طوال أيامه ، حتى لقيه معاصروه بأبى الغارات ، فقد كان جيشه لائى آيا ذاهبا إلى مواجهة الصليبيين وسحق جموعهم فى جنوى فلسطين ودق أعناقهم وسفك دمايهم فى حزونها وسهولها وعلى سفوح جبالها ، وله فى تصوير ذلك قصائد كثيرة من مثل قوله :

تَوَلَّ عَلَيْنَا فِي الْكَتَائِبِ وَالْكَبِ بِشَائِرُ مِنْ شَرْقِ الْبِلَادِ وَمِنْ غَرْبِ
جَعَلْنَا جِبَالَ الْقُدْسِ فِيهَا وَقَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا عَنَاقُ الْخَيْلِ كَالْتَقَتِ السُّهُبِ^(١)
وَقَدْ أَصْبَحَتْ أَوْعَارُهَا وَحَزُونُهَا سَهْلًا تَوَطَّ لِلْفَوَارِسِ وَالرُّمَحِ
وَلَا غَدَتْ لَامَاءَ فِي جَبَّتَانِهَا صَيِّتًا عَلَيْهَا وَابِلًا مِنْ دَمٍ سَكَبِ^(٢)

وهو فرح مبهج بنصر جيشه على حملة الصليب وما أذاقهم من التقتيل ونثر دمايهم على جنبات فلسطين حتى سالت هناك أنهارا . وكثيرا ما كان يرسل بيشائر انتصاراته على الصليبيين إلى صديقه أسامة بن منقذ الشيرازي وكان قد زار مصر وأقام فيها مدة أيام عباس الصهاجي وانعقدت بينه وبين طلائع صداقة فكان يخبره بانتصاراته حتى يستثير نور الدين صاحب حلب لتضييق الحناق على حملة الصليب ، وكانت فرحته بالغة حين انتصر الجيش المصرى بقيادة ضرغام عليهم فى سنة ٥٥٣ هـ نصرا عظيما ، وصور ذلك لأسامة فى ميمية استلها بقوله :

أَلَا هَكَذَا فِي الْقَدِّ تَمْضِي الْعَزَائِمُ وَتَمْضِي لَدَى الْحَرْبِ السُّيُوفُ الصُّوَارِمُ^(٣)
وَتُعْرَى جِيُوشُ الْكُفْرِ فِي عُقْرِ دَارِهَا وَيُوطَّأُ حِجَاهَا وَالْأَنْفُ رَوَاغِمُ^(٤)
خَيُْولُ إِذَا مَا غَارَتْ مَصَرَ تَبْنَى عِدَا فُلَهَا الثُّصُرُ الْمَبِينُ مَلَاظِمُ
يَسِيرُ بِهَا ضِرْغَامُ فِي كُلِّ مَازِقٍ وَمَا يَصْحَبُ الضَّرْغَامُ إِلَّا الضَّرَاغِمُ^(٥)
فَقُولُوا لِنُورِ الدِّينِ لَا قُلَّ حَدَّهُ وَلَا حَكَّتْ فِيهِ اللَّيَالِي الْعَوَاشِمُ^(٦)
تَجَهَّزْ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ وَلَا تَهِنْ وَتُظْهِرْ فَتُورَا أَنْ مَضَتْ مِنْكَ حَارِمُ

(٤) عقر : وسط .

(٥) الضراغم : جمع ضرغام وهو الأسد .

(٦) العواشم : الشديدة الظلم .

(١) عناق الخيل : كرامها . النصف : القلعة . السهب :

المستوى .

(٢) وابلا : مطرا شديدا . المكب : الماطل السائل .

(٣) الصوارم : جمع صارم وهو السيف القاطع .

وهو يشيد بجيش مصر الباسل وانتصاره للمدمر للصليبيين : انتصار أسده الهادرة ، ويدعو أسامة إلى إبلاغ نور الدين هذا الانتصار ، وكان حملة الصليب قد استولوا منه على حصن حارم تجاه أنطاكية وعقدوا معه هدنة ، ويدعوه إلى نقض ما أبرم معهم والاستعداد لمحربهم حتى يضيّق عليهم في الأطراف الشمالية كما يضيّق الجيش المصرى في الأطراف الجنوبية .

وكان الأسطول المصرى لا يزال يجوب سواحل الشام ويفتك بسفن الصليبيين وأغار على عكا وثغر بالقرب من حمص يسمى أنطَرطوس ونكّل في الثغرين بحملة الصليب وسفنه فكتب طلائع إلى أسامة قصيدة يسأله فيها أن يشر الملك العادل نور الدين بذلك ويستنهضه لفتح القدس يقول :

إن بعض الأسطول نال من الإفـ رنجـ مالا يناله التأميلُ
فحوى من عكا وأنطَرطوسِ عِدَّةٌ لم يُحِطْ بها التحصيلُ
أُتِلِّغْ قولنا إلى الملك العا دل فهو المرجو والمأمول
قُلْ له كم تُأطل الدين في الكفـ ارٍ فاحذرْ أن يفضبَ المطولُ
يرُ إلى القدسِ واحتسبْ ذاك في الدـ ـ فبالسير منك بُشْفَى الغليل

وواضح أن جيوش مصر وأساطيلها لعهد طلائع كانت مازال تغدو وتروح إلى حملة الصليب منزلة بهم الهزائم تلو الهزائم . ودأما يستحث طلائع في حاسباته إلى أسامة صاحب نور الدين أن يزحف إلى حملة الصليب شمالا ، بينما يزحف هو إليهم جنوبا ، حتى يقفوا بين شقي الرحا فتدور عليهم الدوائر . ولعل في ذلك ما يشير بوضوح إلى أن مصر لم تقصر في واجبا إزاء حملة الصليب لعهد طلائع ، وكانت تُعدُّ حتى أيامه مقصرة في القيام بهذا الواجب ، قصرت أيام الأفضل بن بدر الجمال ومن جاء في إثره من الوزراء ، فلما أقيمت مقاليد الأمور إلى طلائع وضع نصب عينيه أن تنهض بواجبها ، فجهرت الجيوش والأساطيل وأمدّها بالرجال والعتاد . ودأما ييبس في كثير من حاسباته بنور الدين أن يهجم عليهم شمالا بينما يهجم هو عليهم جنوبا ، حتى يمزقوا كل ممزق ، غير أن بدا آتمة امتدت إليه ، فحالت دون أمانيه في الانتصار الحاسم على حملة الصليب إذ قضت عليه ، وراثه عماره وغيره من الشعراء مرأى حارة .

ابن (١) النُزَوِيُّ

هو الوجه على بن يحيى النُزَوِيُّ أصله أو أصل آبائه من ذروة بلدة باليمن ، وفي ترجماته ما يدل على أنه نشأ بمصر إن لم يكن ولد بها ، وهو من شعراء الدولتين الفاطمية والأيوبيية ، ويقول ابن سعيد : إنه رأى ديوانه وقرأ فيه مدائح في الخليفة العاضد في صباه وأخرى في صلاح الدين وأخيه العادل والقاضي الفاضل وابن شكر وزير العادل . ويذكر بعض المعاصرين أنه توفي سنة ٥٧٧ وقد ذكره العماد في الحريرة التي ألفها في أوائل العقد الثامن من القرن السادس ، فقال إنه شاب نشأ في هذا الزمان ، وفي كلام ابن سعيد المار أنه مدح الخليفة الفاطمي العاضد في صباه ، وذكر أنه مدح ابن شكر وزير العادل منذ سنة ٥٩٥ . ولم يذكر السيوطي في حسن المحاضرة تاريخ وفاته ، غير أنه ذكره بعد ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ وكل ذلك يؤكد أنه لحق القرن السابع وعاش فيه فترة من الزمن .

وكان ابن النُزَوِيُّ شاعرا مجيدا توه به معاصروه في المديح ، وأنشد له ابن شاعر في القوات مقطعات غزلية بديعة ، ويبدو أن ابن سعيد لم يكن يعجب به ، إذ قال إنه اطلع على ديوانه فوجده دون ما كان يظن ، ومن غزلياته قوله :

يَابَانُ إِنْ كَانَ سُكَّانُ الْحِمَى بَانُوا قَبِيضُ شَأْنِي لَهُ فِي إِنْزِهِمْ شَأْنُ
مَنْ لِي بِأَقَارِ أُنْسٍ فِي دُجَى طَرَرٍ أَفْلَاكُهَا الْعَيْسُ وَالْأَبْرَاجُ أَظْطَاعُ^(٢)
مِنْ كُلِّ قَائِمَةِ الْحَدِيدِ نَاهِدَةٌ لَوْ كَانَ لِلْضَمِّ أَوْ لِلثَّمِّ إِمْكَانُ

وفي البيت الأول توريثان فكلمة بان الأولى نوع من الشجر طالما ذكره المهيون ، وبانوا بعدها بمعنى بعدوا ، ولفظ شأن الأول : واحد الشئون وهي مجارى الدمع وه شأن ، وفي آخر البيت بمعنى خبر . والصورة في البيت الثاني تامة وبديعة ، فهو يمتحن لو يلقى أقارار مضببة في ليال شديدة من الطرر ، ويقول إنهن ركن العيس فكأنما تحولت بهن أفلاكا وتحولت الأظطاع أبراجا . ولعل

(١) انظر في ابن النُزَوِيُّ وترجمته وأشعاره الحريرة

١٨٧/١ والمغرب (قسم القاهرة) ص ٣٣٣ و٣٤١ والقنوات

١٨٨/٢ وحسن المحاضرة ١/٥٦٥ و٢/٤١٦ والروضتين

٢٧/٢ وفي مواضع متفرقة والحارثة ص ١٢٣ وابن خلكان

في مواضع من تراجمه (انظر الفهرس) .

(٢) الطرر : جمع طرة وهي مقطعات شعر المرأة الذي

نصفه على جبهتها . العيس : الإبل .

موهبة الشعرية لم تبرز في فن كما برزت في فن الهجاء ، وقد اشتهرت له قصيدة فيه نظمها في شاعر معاصر له أحذب هو ابن أبي حُصَيْنَة وفيها يقول :

لَا تَنْظُرُنَّ حَدْبَةَ الظَّهْرِ عِيَا فَهَيَّ لِلْحَسَنِ مِنْ صِفَاتِ الْمَلَالِ
وَكَذَلِكَ الْقَيْسِيُّ مُحَدِّثَاتٍ وَهَيَّ أَتَىكَ مِنَ الظُّبَا وَالْعَوَالِ^(١)
وَإِذَا مَا عَلَا السَّمَاءُ فَفِيهِ لِقُرُومِ الْجِبَالِ أَيْ جَمَالِ^(٢)
وَأَرَى الْإِنْخَاءَ فِي مَنِيرِ الْكَأ سِرِّ يُلْقَى وَيُحْلَبُ الرُّبَالِ^(٣)
قَدْ تَحَلَّيْتَ بِأَمْنَاهُ فَأَنْتَ أَل رَأَيْتَ الْمُسْتَرْ فِي كُلِّ حَالِ
وَتَعَجَّلْتَ حَمْلَ زَرْكَ فِي الظُّهْرِ بِرَ فَأَمَّا فِي مَوْقِعِ الْأَهْوَالِ
كُونَ أَفْهَ حَدْبَةَ فَيْكَ إِنْ شَدَّ سَتَ مِنْ الْفَضْلِ أَوْ مِنْ الْإِفْضَالِ
فَأَنْتَ رَبُوءٌ عَلَى طَوْدٍ جِلْمٍ مِنْكَ أَوْ مَوْجَةٌ بِبَحْرِ نَوَالِ
مَارَأَتْهَا النِّسَاءُ إِلَّا تَمَنَّتْ لَوْ غَدَتَ حِلْيَةً لِكُلِّ الرُّجَالِ
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَجَرِّ بُدٌّ فَعَسَى أَنْ تَزُورَنِي فِي الْخَبَالِ

وهو هجاء مؤلم أشد الإيلام ، إذ يعرض فيه حدبة ابن أبي حصينة على أنها ميسم جمال وصفة من صفات الحسن في الملال ، ويأخذ في بيان حسنها وفضائلها ، فالقسي أشد فحكا من أسنة السيوف والرماح ، وهي مصدر جمال كالسنام للجمال ، وما كان الانحناء عيبا في منقار النسر ومغلب الأسد المصور . ويتصوره راعيا مدى حياته ، ويعود فينبئ عنه تقواه وصلاته ، ويقول إن حدبته وزركبير مجسد تعجل جملة في دنياه . ويعود إلى السخرية والتهكم فيقول إنها ربوة تعلو طود حلمه أو موجة تعلو مياهه ، ويبلغ من السخرية به مبلغا بعيدا حين يزعم له أن النساء تعدها حلية وتسمى لو تملحن بها كل الرجال . ويتأدى في سخريته ، فيقول إنه مفتون برؤية جماله ، ولكنه هاجر له أبدا فيتمنى لو رآه . خيالا في منامه وأحلامه . ويخزفها متأدبا وخز الإبر فيقول فيه :

هُوَ فِي الْفَقْهِ مَاهِرٌ لَا يُبَارَى وَأَدِيبٌ فِي جُمْلَةِ الشُّعْرَاءِ
لَا إِلَى هَوْلَاءَ - إِنْ طَلَبُوهُ - وَجَدُوهُ وَلَا إِلَى هَوْلَاءَ

(٣) منير الكاسر: منقار الطير الجارح. الرُّبَال: الأسد.

(١) الظُّبَا: جمع ظب وهو حد السيف. والعوال: الرماح.

(٢) قُرُومُ الْجِبَالِ: عقابها

فهو يدعى الفقه وإذا طلبه الناس بين الفقهاء لم يجدوه وهو يدعى الأدب وإن طلبه الناس بين الأدباء افتقدوه ، وهو يشير إلى الآية الكريمة في سورة النساء : (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) . وكان بعاصره في شبابه شاعر يسمى هبة الله بن وزير دخل معه حماما فقال ابن وزير :

فه يومٌ بحمامٍ نعمتُ بهِ والماء ما بيننا من حَوَيه جارى
كانه فوق شَفَافِ الرُّخَامِ ضُحَى ماء يسيل على أنواب قَصَارِ
والقَصَار : مبيض الثياب وغاسلها ، وكان الشاعر غفل ، فشبه الماء بالماء . وانتهر الصديق ابن الذرؤى الفرصة ، فقال على البديهة :

وشاعرٍ أوقد الطبعُ الذكاء له فكاد يَحْرِقه من قَرَطِ إذكاء
أقام يُجْهد أياها قَرِبحته وشبه الماء بعد الجُهد بالماء

وشاع الشطر الأخير على ألسنة المصريين إلى اليوم لكل من يصيه مثل هذا المي في الكلام عمدا أو غفلة . وكان أحدا لم يكن يسلم من لسان ابن الذرؤى حتى الأصدقاء ، بل أيضا حتى الطبيعة ، إذ نجده يهجو النيلوفر ، وهو ما يسمى في الريف المصرى باسم البشنين وهو زهر متفاوت الزرقة والحمرة بديع المنظر ، ولم يشفع له حسنه عند ابن الذرؤى فعمد إلى هجانه بقوله :

ونِيلُوفِرٌ أَبْدَى لَنَا باطناً له مع الظاهر المَخْضَرُ حُمْرَةً عَتَمَ^(١)
فَشَبَّهَتْهُ لَمَّا قَصَدْتُ هِجَاهَهُ بكاسات حِجَامٍ بها لَوْنُهُ الدَّمُ^(٢)

وكانه يريد أن يقول إنه يستطيع أن يَبْحَث كل حسن منها يكن حسنه حتى زهر النيلوفر الذى طالما تغنى به الشعراء المصريون من قبله ومن حوله ، وقد تغنوا به طويلا من بعده .

(١) العتدم : خشب أحمر يتخذ للصباغة .

(٢) الحجام : عتوف أنط الدم بالمهم .

أحمد^(١) بن عبد الدائم

هو شهاب الدين أحمد بن عبد الدائم الشرمساحي نسبة إلى شرمساح : بلدة قريبة من المنصورة في شمال الدلتا ، ولد في أوائل زمن المالك سنة ٦٦٣ وأقبل مثل لداته على الدراسات الدينية واللغوية ، وأكّب على الشعر حتى مهر فيه غير أنه لم ينتج به إلى زهد وتصوف ولا إلى غزل ومديح ، وإنما اتجه به إلى الهجاء بسلق الناس بلسانه ويخافون شره فيأدرون إلى إعطائه بعض النوال . ولم يقف بهجائه عند أهل مصر فقد كان يرحل إلى دمشق ويتخذ هناك نفس الوسيلة ، ويقال إنه دخل على قاضيه شهاب الدين الحويّي وقدم إليه قصيدة هجو فردّها إليه وقال له : كأنك ذاهل ، فقال له : لست بذاهل ، بل صنعت ذلك عمدا لأشتهر فإنك إذا أدبني قال الناس : ما هذا ؟ فيجيبهم المؤدّبون : هذا غريم القاضي ، فأشتهر ، فوصله وعفا عنه . وكان لا يقف في الهجاء عند حد ، إذ كان يستخذه كما رأينا في هجو القضاة كذبا وبهتاناً ، وبالمثل كان يستخذه في هجو علماء الدين غير متورع ، من ذلك أن المظفر يبرس الجاشنكير كان يقرب منه في سلطته بعد خلع الناصر بن قلاوون لنفسه سنة ٧٠٨ كلا من الفقيه ابن عدلان وزميله الفقيه ابن المرحّل الدمياطي ، حتى إذا دار العام عزل نفسه وعاد الناصر بن قلاوون ، ولم يضع ابن عبد الدائم الفرصة ، فقد مدح الناصر بقصيدة بيته فيها بعودته إلى عرشه وهجو المظفر يبرس ويعرض بصحبته لشمس الدين محمد بن عدلان وصدور الدين محمد بن زين الدين الملقب بابن المرحّل وبابن الوكيل ، ومن قوله فيها :

ولّى المظفّر لما فاته الظفّر وناصر الحق وافي وهو مُتَصَيّر
فَقُلْ لِيَبْرَسَ إن الدهر ألبسه أثوابَ عارية في طولها قِصْر
لما تولى تولى الخير عن أمر لم يحمدا أمرهم فيها ولا شكروا^(٢)
وكيف تمشي به الأحوال في زمن لا التَّيْلُ وافي ولا وافاهم مطر
ومن يقوم ابنُ عدلانٍ بِنُصْرَتِهِ وابن المرحّل قُلْ لي كيف يتصر؟

(٢) تولى الأول بمعنى تقلد الحكم . وتولى الثانية بمعنى أدير وأعرض .

(١) انظر في أحمد بن عبد الدائم وترجمته ونشأته الفتاوى ٨٦/١ والدرر الكامنة لابن حجر ١٧١/١ والنجوم الزاهرة ٩/٩ ، ٢٤٩ .

وكان قد تصادف أن المطر لم يسقط في سنة ٧٠٩ بأرض مصر وقصّر النيل في فيضانه أجديت بعض البلاد وارتفع السعر . وعفا الناصر عن الشيخين في انضمامهما ضده إلى بيبرس الجاشنكير ، وكان ابن عدلان يتولى نيابة الحكم فأعفاه منها ، ومُرّ به ابن عبد الدائم فأنشده :

والله ما سرتني عزلُ ابنِ عدلانِ

فقال له : جزيته خيرا . فأكمل البيت قائلا :

من غير صَفْعٍ ولا والله أرضاني

وشاعت القصيدة . وكان آخر شيخ رماه بسهام هجائه قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وكان يشرف على الأوقاف ، وكأنه أراد أن يبيّنه ، وكانت فيه صرامة فازدراه فانقم لنفسه بهجائه وهجاء ابنه سنة ٧١٣ وكان فقيها ورعا مثل أبيه ، وتغصى القصيدة على هذا النمط .

متى بسمعُ السلطانُ شكوى المدارسِ ، وأوقافُها ما بين عافٍ ودارسٍ^(١)
يموت عديمُ القوتِ بالجوعِ حَسْرَةً وَيَشْعُجُ بالأوقافِ أهلُ العُلباسِ^(٢)

وأخذ يتهم القاضي وابنه بعظائم هما منها براء ، وكلها كذب وهتان واقتراء ، وكاد القاضي ينزل به عقابا صارما لولا أن تدخل بعض الأمراء واستغفاه فعفا عنه . وازدراه الناس بعد هذه الحادثة ازدراء شديدا ، وسامت حاله ، فإن لحوم العلماء مسمومة . وأخذ ينتقل في البلاد لا يتحرى طريق الرشاد إلى أن عاجلته منيته حوالى سنة ٧٢٠ وكأنما كان غمة زالت عن صدور الناس والشيوخ في زمنه .

حسن^(٣) البدرى المجازى الأزهرى

يقول الجبerty في ترجمته : « كان عالما فصيحا مفوها متكلمنا متقدا على أهل عصره وأبناء عصره » ويقول كان أبوه ملازما لقراءة كتاب الصحاح السنة : صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن ابن ماجة وسنن أبى داود وسنن الثمالى وجامع الترمذى . وقد تفتحت موهبة الابن في سن

(٣) انظر في حسن البدرى المجازى الأزهرى تاريخ

الجبرى ٧٥/١ وما بعدها .

(١) حاف ودارس : محرو زائل .

(٢) العلباس : جمع طبلان وهو كساء كان خاصا بطباء الدين تميزا لهم .

مبكرة وعُنى بنظم كثير من المتن الطمبة مثل رسالة الوضع للعلامة المضد ، والدرة السنية في الأشكال النطقية ورموز الجامع الصغير ، وكانت وفاته سنة ١١٣١ للهجرة . وكان قد أصبح شاعراً كبيراً ويصف الجبرتي شعره فيقول : له في الشعر طريقة بديعة وسليقة منجدة ، على غيره رفيعة ، وقفاً نجد في نظمه حشواً أو تكللة ، وله أرجوزة في التصوف في نحو ١٥٠٠ بيت على طريقة الصادح والباغم ضمنها أمثالا ونوادر وحكايات ، وديوانه على حروف المعجم سماه باسمين : « تيه الأفكار للتافع الفصار وإسجاع الإياس من الوثوق بالناس شرح فيه حقيقة شرار الخليفة من الناس ، المنحرفة طباعهم عن طريقة قوم القياس » . وواضح من تسميته لديوانه أن شعره أو لجمهوره على الأقل لم يكن مديحاً وهجاءً وغزلاً وعتاباً وما إلى ذلك من موضوعات الشعر المعروفة إنما كان نقداً للمجتمع ، وهو نقد يشوبه كثير من الذم لسلك الناس حتى يبدو إلى احتراهم لما يتصفون به من الطمع والجشع والأنانية ، والعامل من اجتنابهم وقر منهم فرار السليم من الأجر لا من الأبعاد فحسب بل أيضاً من الأقارب ، يقول :

أَنْحَى قَلْبًا كُنْ واحذر النَّاسَ جَمْلَةً وَلَا تَكُ مَفْرُورَ الظُّنُونِ الْكَوَاذِبِ
وَلَا سَمًا نَوْعُ الْأَقْرَابِ إِنَّهُمْ عِقَابُكَ فِي الدُّنْيَا وَعُقُورُ الْعِقَابِ (١)

ويستمر في هجو الأقارب وأنهم يتمنون الموت لك ، إن كنت ثرياً ليرثوك ، وإن كنت فقيراً كنت لديهم غصباً أخس من الكلاب . وهو على هذا التحريص الظن بالناس حتى بالأقرباء من ذوى الرحم ، وكاد لا يعلم من سباط ذمه وهجائه أحد حتى المتصوفة ، يقول فيهم من قصيدة طويلة :

احذَرْ أَوَّلِي التَّشِيحِ وَالسَّجَةِ	وَالصُّوفِ وَالْمُكَازِ وَالشَّمْلَةِ (٢)
قَدْ صَارَ إِبْلِيسُ لَهُمْ تَابَعًا	يَقُولُ يَا لَلْعُنُونِ وَالسُّجْدَةِ
مِمَّا حَوَّنِي عِلْمُونِي فَا	لِي عَنْكُمْ فِي الْمَكْرِ مِنْ خِيَةِ
لَكُمْ قِيَادِي وَانْقِيَادِي وَمَا	مِثْلُكُمْ فِي النَّادِ وَالْقُوَةِ (٣)
وَأَنْتُمْ تَأْجِي عَلَى هَامِي	مَاهِيَتِ إِلَّا كُنْتُمْ مَيْتِي (٤)

(٢) الناد : النادي حلفت لياه للضرورة ففصر .

(٤) ممت : من هام يمم إذا خرج حل وجهة لا يهرى
أن يهرى .

(١) طر : بيت أو منزل .

(٢) القصة : ذال كاطيلسان يتفح به حل للكنيف
والصدر .

وهو طبعاً يقصد نفراً من المتصوفة حادوا عن طريق التصوف وانحرفوا عن واجباته ومستولياته ، وتورطوا - كما يقول في القصيدة - في بعض الآثام ، وكان يؤذيه منهم من يدعون الجنون وتظنهم العامة أقطاباً وأولياء ، حتى إذا ماتوا شادوا لهم أضرحة وجعلوها مزاراً ، يقول :

إِلَيْتَا لَمْ نَعِشْ إِلَى أَنْ رَأَيْتَا كُلَّ ذِي جِنَّةٍ لَدَى النَّاسِ . قُطْبَا
عَلَمًا هُم بِهِ يَلُودُونَ بَلْ قَدْ تَخَذُوهُ مِنْ دُونِ ذِي الْعَرْشِ رَبًّا
إِذْ نَسُوا اللَّهَ قَاتِلِينَ فَلَانَ عَنْ جَمِيعِ الْأَنْامِ يُفْرِجُ كَرْتَا
وَإِذَا مَاتَ يَحْسِلُوهُ مَزَارَا وَلَهُ يُهْرَعُونَ عُجْمًا وَعَرَبَا

وكأننا يلزاه داعٍ مصرى يدعو ضد الصوفية ومن كانت تسميهم العامة بالجنوبيين وتقيم لهم الأضرحة والمزارات وتطلب منهم الدعاء أحياء وتقدم لهم النذور أمواتاً . ومع كثرة أشعاره في هذا الجانب لم تترك ورامها في مصر أثراً . على أننا نجد به وجه ذمّه وهجاءه - ظلماً وعدواناً - لبعض رجال الدين كما وجهه إلى المتصوفة ، وهو في ذلك كله يسرف في هجائه وذهمه ، فلا رجال الدين انصرفوا عن التقوى ولا المصريون اتخذوا أقطاب الصوفية أرباباً .

٣

شعراء الطبيعة وبجالتس اللهو

عاش شعراء مصر على ضفاف النيل وفي وديانه ورياضه ، ينعمون بمباهج المتدفقة العذبة وبما ينشئ من غروس وزروع وثمار وأزهار ، وهو يجري نافعاً لعبابه من حوض إلى حوض ، بأثاء الحياة والجمال في كل ما يسه ، مما جعل العرب يلقبون مصر حين فتحوها بأنها فردوس الدنيا . وقد وصفها القرآن الكريم بأنها جنات وعيون وزروع ومقام كريم . وفي كل مكان نهم الشعراء بهذه الجنات يسرّحون الطرف فيها والخيال ، فتكون لديهم حاسة الجمال ، ويتمتعهم الشعور بما حصّر الله ديارهم من هذا النعيم الذي يقصر أى وصف عن تصويره . وطبعى أن يتردد ذكر النيل على ألسنة الشعراء وذكر مشاهد رياضه الفائقة وقواربه وسفنه الشراعية . ومحدثنا ابن قيس الرقيات حين زار مصر لمهد واليها عبد العزيز بن مروان في العصر الأموى عن رحلة نيلية له من القسطنطينة إلى حلوان . وعنى شعراء مصر بمدح بوصف مثل هذه الرحلة ووصف النيل وزوارقه وسفنه ، غير أن الشعر المصرى في عصر الولاة لم يبق منه القليل وإلا بقية تتصل بالأحداث والولاة والقضاة

احفظ بها الكندي . وتبدو العناية بتدوين أشعار الشعراء منذ عهد الدولة الطولونية ، ونجد المرمى القاسم بن يحيى شاعر خمارويه ينحصر النيل بقصيدة بديعة يصور فيها مراكبه بمثل قوله ^(١)

وَمَطَابَا لَا يَفْتَنْدِينَ وَلَا يَنْدُ أَمِنْ كُدِّ الْبُكُورِ بَعْدَ الرُّوْحِ ^(٢)
أَصْلُهَا الْبَرُّ وَهِيَ سَاكِنَةٌ فِي الْإِلْ جَحْرٌ سَكْنَى إِقَامَةٍ لَا يَرَا
وَإِذَا أُوقِرَتْ فَذَاتُ وَقَارٍ وَإِذَا أُخْلِيَتْ فَذَاتُ مِرَاحٍ ^(٣)
جَارِيَاتٌ مَعَ الرِّيَّاحِ وَطُورًا كَاسِرَاتٌ بِالْبَحْرِ جِدُّ الرِّيَّاحِ
سَارِيَاتٌ لَا يَشْتَكِيَنَّ سُرَى اللَّيْلِ لَمْ وَلَا يَرْتَقِبَنَّ ضَوْءَ الصَّبَاحِ
لَا يَخْفَنَ النَّهَارَ يُقَدِّفَنَّ فِيهَا وَيَخْفَنَ الْمُرُورَ بِالْفُضْحَاحِ ^(٤)

ويطلب في تصوير المراكب ، فهي في الماء وهي خالية تماما من الماء ، وهي ذات أجنحة بيضاء وإن لم يكن لها جناح حقيقي ، وهي من البيض وبطل شطرها الأسفل بالقار ، فهي بيضاء سوداء من ذوات الألواح لا الأرواح ، وتقرّ على الشاطئ فتسكن دون ذلة في السكون ، وتسير على صفحة النيل وتجد في سيرها دون احترام جاح ، وكأنها على الماء قصور متحركة ، وتنساب في النيل خفيفة خفة الأفاعي ، وتجمع أحيانا فتظنها كباشا سودا تقابلت للنطاح . ومع ضؤولة ملاحها يحسن تدبير جريها مع الرياح مكافحا في ذلك أشد الكفاح ، وله مساعدون يكتفون من الصباح حتى كأن السفن تجري خوفا من صباحهم . وهو تصوير بديع للسفن السابحة في النيل من شاطئ إلى شاطئ ومن مكان إلى مكان . ويوجز نغم بن المعز القول في وصف النيل وصفه فيقول ^(٥) :

يَوْمٌ لَنَا بِالنَّيْلِ مُحْتَصِرٌ وَلِكُلِّ يَوْمٍ مَسْرَةٌ فَهَرٌ
وَالْقُنُ تَجْرِي كَالْحَيُولِ بَنَّا صُعْدًا وَجَيْشُ الْمَاءِ مُتَحَلِّبُ
فَكُنَّا أَمَاجُهُ عُكُنْ وَكُنَّا دَارَاتُهُ سُرُرُ ^(٦)

(١) الفار : جمع غمر وهو للاء الكثير المسين
الفضاح : للاء القليل لا حسن له .

(٢) ديوان نغم ص ٢٤١ .

(٣) المعن : جمع عكنة وهي ماشية من ظاهر البطن وطياتها .

(٤) انظر مقالا من المرمى لخلال تاجي بمجلة الكتاب
العراقية في العدد الثامن من السنة الثامنة

(٥) الرواح : الرجوع في المعنى .

(٦) نُوقِرَتْ : حلت حملا قبيلا . للراح : للرح والنشاط .

والصورة الأخيرة للنيل بديعة ، فكان أواجه حُكَنَ أو ثُنَيَات أمامية لأجساد عارية وكأنما قراراته أو داراته في فيضانه السرُّ أو النقر الصغيرة أو الثُكَّت في بطون من كن يدين إلى النيل من عرائسه . ولعم أشعار كثيرة في وصف الحدائق والأزهار والثمار . ومن أوصافه الطريفة قوله في الناهورة ^(١) :

نَشْنٌ وَلَيْسَتْ بِمَحْزُونَةٍ أَنْيْنَ الْمَهَبِ الْكَبِيرِ الْحَزِينِ
تَخْطُقُ بِالصَوْتِ لَا مِنْ قَمَرٍ وَتَقْدِفُ بِاللَّمْعِ لَا مِنْ جُفُونِ
كَأَنَّهَا مَيِّتَةٌ فِي الثَّرَى فَادْمَعُهَا هُمُوعُ كُلِّ حِينٍ ^(٢)
إِذَا زَمَرْتُ أَطْرِبْتُ نَفْسَهَا فَغَنَّتْ بِمُخْتَلِفَاتِ اللَّحُونِ
غَنَاءَ بِرَقَصٍ كِبَرَانِهَا وَيُظْهِرُ فِيهِنَّ وَثْبَ الْجَوْنِ
فَتَهْوِي فَوَارِغٌ فِي بَرِّهَا وَتَضَعُدُ مِنْهَا مِلَاءَ الْعَبُونِ

والناهورة ثمن أنين المهب اليأس الحزين وتشكو لا بغم وتبكي لا من عين ، وتلحن مختلف اللحن وكيزانها ترقص هاوية فارغة وصاعدة ممثلة ، لا تتلق أبدا . ولظافر الحداد أشعار كثيرة في الرياض والثمار والأزهار ، ومن قوله في النخل ويُسرّه أو بلحه ^(٣) :

التَّحْلُ كَالْهَيْفِ الْحَسَنِ تَرَبَّتْ فَلَيْسَنْ مِنْ أثمارهنَّ قَلَالِدَا

وكانها في خياله فائتات تترين حول جيلدها بعقود البسر الزمردية والياقوتية ، وبشبه طلعهما الأخضر وهو لا يزال مطلقا على ستابل البلح البيضاء في أول تكونها بسلاسل من فضة يضمها حق من خشب الصندل طيب الرائحة . أما حين يفتح الطلع ويظهر بلحه الأخضر المتصل بستانله الصفراء فكاحل من زبرجد رموسها منها الذهب . وأما الخوص الأخضر ونحوه البلح الأحمر فزبرجد يشر عبقاقه ، وكأنما الطبيعة جميعها من حول الشاعر جواهر نفيسة .

ويتفنن ظافر ببركة الحبش في مصر القديمة وكانت تشرف عليها قصور نجيم ، كما يتفنن بجزيرة الروضة التي يفترق النيل عندها أمام القاهرة وسرعان ما يجتمع ، ويجعلها منه هي وأشتات لها بحوارها بمجلة السراويل ، ويعجب ابن قلاص بغروب الشمس وراء النيل فيقول ^(٤) :

(٣) حسن المظاهرة ٤٣٥/٧ .

(١) الناهورة ص ٤٢٤ .

(٤) الناهورة ص ٧٥ .

(٢) مع : سرائل .

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربةً واعجب لما بعدها من حمرة الشفق غابت وأبدت شعاعاً فيه يخلقها كأنما احترقت بالماء في الرقي ولللهال فهل وافي ليثقلها في إثرها زورقٌ قد صيغ من ورق^(١)

وهي صورة خيالية بدیعة ، فقد غابت الشمس بل احترقت في النيل وخلفت فيه شعاعاً ، كما خلفت على صفحة الأفق حمرة الشفق ، ويتسع به الخيال فيتصور الهلال زورقاً من فضة جاء لإيقاظها من الفرق . وموج بصدر البهاء زهير الحنين إلى مصر وهو مع الملك الصالح في الديار الشرقية نواحي الفرات ، فينشوق إلى النيل ورحلاته النيلية فيه ، وينشد^(٢) :

حبذا النيلُ والمراكبُ فيه مُصعداتٍ بنا ومنحدراتٍ
ولسالي بالجزيرة والجد حيرةٍ فيما اشئتُ من لذاتي
بين روضي حكي ظهور الطاوب سحر وجو حكي بطون البزاة^(٣)
حيث مَجْرى الخليج كالحيّة الرق حطاه بين الرياض والجنات
هاتِ زفنى من الحديث عن التبدل ودغنى من دجلة والفرات

إنه يذكر ذكرى عطرة رحلاته النيلية وامواج النيل تصعد بقاربه وغيره من القوارب وتنحدر ، ومانق صاعدة منحطرة ، كما يذكر ذكرى عطرة مجالس أنسه في الجزيرة وجزيرة الروضة والطبيعة متبرجة بأزهارها ورودها من حوله وهي مختلفة الألوان البهیجة كأنها ألوان الطاويس في جو صاف صفاء بطون البزاة الطائرة ، والنيل يجري في خلجانه وبين رياضه كأنه حیات تسمى ، حیات لا تنفث السم بل تنفث الحیاة في الوديان والسهول الخضراء الجميلة ، ويخفق قلب البهاء مراراً بهذا الحنين في أشعاره . ويظل مصر أبام المالك ويظل الشراء يتفنون بالطبيعة المصرية ومفاتها الرائعة من النيل وقواربه ونزهاته وأشجاره وأزهاره ، ولابن مكانس التوفى سنة ٧٩٤ وُصف لشجرة سرّو باسقة قصد موضعها مع بعض رفاقه ، ووُصف معها القارب المظلي بالقار الذي ركبه ، يقول^(٤)

مالت على الثمر إذ جاش الخريُّ به كأنها أذن مالت لإصفاء

طويلة الساق والجنب .

(١) ورق : فضاء .

(٢) غزاة الأدب للمصطفى ص ٤٢٤ .

(٣) البهاء زهير ص ٧ .

(٤) البزاة : جمع بازى وهي جنس من الصقور الصليبة

كَانَ صَمْنَتَهَا الْحَمْرَاءُ بِقَشْرَتِهَا إِلَى حُدُكْنَاهُ قُرْصٌ عَلَى أَعْكَانٍ سَمَاءٍ
نَمَتْ إِلَى جَرْدَاءٍ جَارِيَةٍ مِنْ آلَةِ كَهْلَالِ الْأَفْقِ حَدْبَاءُ
سَوْدَاءُ تَحْكِي عَلَى الْمَاءِ الْمُصْنَدَلِ شَا مَةً عَلَى شَفَةِ كَالشَّهْدِ لَعْنَاءُ

والتصوير في الآيات بديع ، فشجرة السرو المائلة على النيل كأنها أذن مالت لتتصفي إلى
خَرِيرِهِ ، ويتخيلها بلونها الأحمر الداكن وهي منحنية على أمواج النيل في فيضانه كأنها قرص
ملتصق بطيات بطن لسراء عارية . ويقول ابن مكناس إنهم سعوا إليها في سفينة حدباء كهلال
الأفق سوداء ، ويتخيلها على ماء النيل الداكن المطرطر عطر خشب الصندل شامة مطبوعة لا على
خَدٍّ ، وإنما على شفة ضاربة إلى السواد تقطر شَهْدًا وعسلًا مصني .

وبجانب شعر الطبيعة المصرية ومفاتها الجميلة نجد شعراء يتفنون بمجالس الأسى والشراب ،
وقد زار مصر - كما مر بنا - أبو نواس أكبر من تغنوا بالخمر وكسوها وسقناها وندماتها ، ولكن
يبدو أنه لم يخلف من مجونه أثرًا أو آثارًا واضحة ، لأن الشعب المصرى بطبيعته معتدل ولا يجترئ
على ما حرّمه الدين ، وفي رأى أن المصريين إنما كانوا يحاكون شعراء العصر العباسى في المديح وغير
المديح ودفعتهم هذه المحاكاة أو قل دفعت نفرا منهم نلتقى به منذ أيام الطولونيين إلى التغنى بالخمر ،
إما إدمانًا عليها وإما محاكاة وتقليدًا لأبى نواس وأضرابه . وكان أول ما ساعد على ظهور هذا النفر
أن أحمد بن طولون مع تمسكه بالدين كان لا يتحرج من معاورة الخمر ومثله ابنه خارويه ، ويقال
إنه كان يشرب أربعين رطلا من النبيذ^(١) . فحاكاهما بعض الشعراء في احتساء الخمر ، وأخذوا
يقصدون لها الأديرة ، واشتهرت منذ هذا الحين أربعة أديرة ذكرها الشافعى في كتابه الديارات ،
وهي دير القصير على قمة الجبل الشرقى ويشرف على طرة والنيل ، وكان خارويه كثيرا ما يزوره ،
ودير مَرَحًا بمصر القديمة على شاطئ بركة الحبش ، ودير نيبا بالجيزة ، ودير طسويه بجوار حلوان .
ويلقانا في أيام الإخشيديين غير شاعر يعكف على كؤوس الخمر حتى الغالة ، يتقلمهم أحمد بن
محمد بن طباطبا نقيب الأشراف العلويين بمصر ، وفيها يقول :^(٢)

أَتَرَكَ الشَّرْبَ وَالْأَمْطَارَ دَائِمَةً وَالطَّلُّ مِنْهَا عَلَى الْأَشْجَارِ مَشُورٌ
وَالْمُضْنُ يَهْتَرُ كَالشَّوْانِ مِنْ طَرِبٍ وَالْوَرْدُ فِي الْعُودِ مَطْوًى وَمَنْشُورٌ

وإذا كان نقيب الأشراف يشرها حتى المالة فقد حاكاه غير شاعر من مثل سعيد المنبوز باسم قاضي البقر وصالح بن مؤنس ومحمد بن عاصم وابن أبي العصام ، وكان الأخيران يلمان بالأديرة ، وكان ثانيها خاصة ينتك في شربها ويمتري على الدين في غير استحياء حتى ليقول في وصف مجلس آثم من مجالسه ^(١) :

مجلسٌ لا يرى الإلهُ به غَيْدَ رَ مُصَلٍّ بلا وضوءٍ وطهرٍ
سُجْدٌ للكُتوس من دون نُسَيْبٍ حَر سوى نَعْمَةٍ لعودٍ وزَرٍ

فهو يعيش معيشة مزرية ماجنة أشد ما يكون المجون مستهرة أسوأ ما يكون الاستهتار . وتلقى بشيم بن العز ، وربما أن أباه حرمه من ولاية العهد لانحرافه وسوء سلوكه وما سمعه عن مجونه ، وله في الخمر أشعار كثيرة ، وقد يسوق الحديث فيها منفردة ، وقد يجمع بينها وبين جمال الطبيعة أويينها وبين بعض صواحبه ، ومن قوله فيها وفي الورد ^(٢) :

ورِدٍ أَعَارَتْهُ الْغَوَايِ خُدُودَهَا وَأَهْدَى إِلَيْهِ الْمَسْكُ أَنْفَاسَ مَقْتَرِفَةٍ
كَأَنَّ النَّدَى فِيهِ مَدَامُ عَاشِقٍ أَرِيقَتْ غَدَاةَ اللَّيْلِ فِي خَدِّ مَعْشُوقَةٍ
أَذْرَنَا كُوسَ الرِّاحِ فِي جَنَابَتِهِ عَلَى حُسْنِ مَرَاةٍ وَرَقَةٍ تَوْرِيقَةٍ

وواضح أنه يحسن التصوير ، فالورد خدود الغواي وهو عبق بشذا المسك ، وكأن الندى فيه دموع عاشقٍ تانثرت على خد معشوقة يوم الفراق ، وهو يشرب على حسنة ورقة أوراقه . ومن طريف ماله في المزج بين الخمر وصاحبه قوله ^(٣) :

نَاولَتْهَا مِثْلَ خَدِّيها مُشَفِّعَةً صِرْفًا كَأَنَّ سَنَاهَا ضَوْءُ مِقْبَاسٍ ^(٤)
فَقَبَّلَتْهَا وَقَالَتْ وَهِيَ ضَاحِكَةٌ وَكَيْفَ تَسْقِي خُدُودَ النَّاسِ النَّاسِ لِلنَّاسِ
إِذَا تَنَاولْتُ خَدِّي كُنْتُ نَائِلَةً نَفْسِي وَهَذَا لِعَمْرَى غَيْرُ مَنَاقِسِ

والفكرة بديعة ، فالخمر تشبه خديها بلونها ووهجها ، وتناولت كأسها منه وقبلته مازحة قائلة له : كيف تسقي خدود الناس للناس ؟ وكأنه قدّم لها خدودها لشربها ، بل كأنه قدّم لها نفسها ،

(٣) الديوان ص ٢٤٩ .

(٤) المقياس : شطة النار .

(١) المغرب (تم القسطاط) ص ٢٧٣ .

(٢) الديوان ص ٢٩٨ .

وهل من أحد يشرب نفسه ، وإنه لقياس غريب ، بل لا ينقاس . وقبس منه الفكرة ابن هاني الصغير المتوفى لأواخر العهد الفاطمي ، إذ يقول في خمرية له ^(١) :

ومنهضو أبدى الشبابُ بخدّه صُدْغاً فرُرقَ ورْدَه في آسِه ^(٢)
تَلْهَبُ الصُّهْبَاءُ في وجاتِه خمر من عَيْنِه في جُلَاسِه
حتى إذا ملأَ الزجاجَةُ خدّه نوراً وقاحَ الخمرِ من أنفاسِه
حالَ الزجاجَةِ أَقْصَمَتْ بمدامِه فدنا ليشرب نُورَه من كأسِه

وهو يقول إن صدغ الشعر أو خصلته تخرج بخدّه كما يخرج الآس الأبيض بالورد ، وينسج به الحبال فيقول إن الخمر تلهب في خدّه فتلهب السحرة في عينه فيسير منها إلى جلاسه ، حتى إذا ملأ خدّه الكأس نورا ظننا ملئت خمرنا ، واستحال ظنه يقينا ودنا من الكأس يريد أن يجسبها .
ولابن سناء الملك خمريات مرحة في لغة سهلة سلسة من مثل قوله ^(٣) :

أين كئوسى وأين أنكوأى فَهَيَّ وَحَقَّ المَجُونِ أَوَّلَى بِسِ
يلو عليها الحَبَابُ إن مُزِجَتْ مثلَ عيونِ بغيرِ أهدابِ
تأتى ويأتى السرورُ يتبعها كأنه واقفٌ على البابِ
أسجدُ شكراً لها إذا طلعتْ كأن كأسى لدى مِحرابِ

وهو يصور في خمرياته مرحاً وابتهاجا ، ومربنا أنه كان يعيش في بُلْهَيْتِه ونعيم ، وقلما كان يعترضه في حياته شوك يؤذي ، فهي ورد عطر ، وهي زوف ، وكل وسائل الترف مهيأة له ، لذلك لا تعجب إذا رأيناه مرحا في خمرياته .

وكانت حياة ابن النيه هنية لينة ناعمة مثله ، مما جعل خمرياته تطفح بالمرح والابتهاج والشعور بأن كل ما في الكون والطبيعة رائق شائق ، ومن طريف خمرياته قوله ^(٤) :

باكرَ صَبْوحَكَ أَهْنا العِشْرَ باكرُهُ فقد نَزَمَ فوقَ الأَيْكِ طائِرُهُ ^(٥)
واللَّيْلُ تجرى الدَّرارى في مجرَّتِه كالزُّرُوضِ تطفو على نَهرِ أَزَاهِرُهُ ^(٦)

(٥) الأيك : الشجر الملقح .

(٦) الدرارى : الكواكب للفلأفة . المجرة : مجرعة من

النجوم تدور كوشاح أبيض .

(١) الخريدة (قسم مصر) ٢٧٠/١ .

(٢) ررق : مزج .

(٣) الديوان ص ٣٤

(٤) الديوان ص ٩١

فَانْهَضْ إِلَى ذَوْبٍ ياقوتٍ لما حَبَبُ
 حمراء في وَجْنة الساقِ لما شَبَّ
 تَوْبُ عَنْ نَفَرٍ مَنْ نَهَوَى جواهره
 فهل جَنّاها مع العنقود حاصره
 ساقٍ تَكُونُ مِنْ صُبْعٍ وَمِنْ خَسْفٍ
 فَايُضْ خَدَاهُ واسودَّتْ غَدَائِرُهُ^(١)
 تَعْلَمْتُ بَانَةَ الْوَادِي شَائِلَةً
 وَزَوَّرْتُ سَحَرَ عَيْنِهِ جَائِرَةً^(٢)
 فَلَوْ رَأَتْ مُقَلَّتَا هَارُوتَ آيَتَهُ الـ
 كَكَبْرِى لَأَمِنَ بَعْدَ الْكَفْرِ سَاحِرَهُ

والفرجة تسرى في الحمرة ، وتلف كل شيء فيها ، فالطير ينفى فرحا على الفصون ، والسماء
 منيرة بكواكبها الساطعة ، وحجاب الكأس كأنه ثغر الحبيبة ، والحمراء حمراء كخدها وكأنما الجاني
 اقتطف خمرته مع عنقودها وما أجمل يياض خديها المشرقين وسواد صفائرها البيجة ، وكأنما
 قبست بانه الوادى رشاقها ، وزوّرت جأفده سحر عينها الخلابتين ، ولو رآه هاروت لأمن بربه
 وكفّ عن سحره .

ويكثر من الحمريات شعراء اللهم والهمر في أوائل عصر الماليك مثل الجزار والوراق وابن
 دانيال وستحدث عنهم بين شعراء الفكاهة . ولعل مما يشهد بأن كثيرين ممن كانوا ينظمون
 الحمريات إنما كانوا ينظمونها محاكاة وتقليداً ولم يكونوا يتعاطون الهمر ولا تورطوا في إثمها أن نجد
 فقيها كبيرا من فقهاء زمن الماليك هو صدر الدين محمد بن عمر المشهور باسم ابن المرحّل وابن
 الوكيل المتوفى سنة ٧١٦ ينظم فيها خمرية تداولها الرواة في عصره وبعد عصره استلها على هذا
 النمط^(٣) .

. لِيَنْهَبُوا فِي مَلَامِي آيَةً ذَهَبُوا فِي الْخَمْرِ لَا فِضَّةً تَبْقَى وَلَا ذَهَبٌ
 لَا تَأْسَفُنَّ عَلَى مَالٍ تَمَزَّقَتْهُ أَبْدَى سُقَاةِ الطُّلَا وَالْخُرْدُ الْعَرَبُ^(٤)
 فَا كَسُوا رَاحَتِي مِنْ رَاحِيهَا حُلَلًا إِلَّا وَعَرَّوْا قَرَادِي الْمُمْ وَاسْتَلْبُوا

وقد مضى يجب فيها ويغرى بها على عادة المجان ، مما جعل بعض الناس يتهمه بمعاقرتها ،
 وقدّم للقضاء وثبت براءته من وزرها الآثم ، وعاد إلى دروسه وعاد إليه طلابه . وللشيخ برهان
 الدين القمراطى الذى مرت ترجمته بين شعراء الغزل خمريات بدوره ، وكان فقيها ومحدثا ، وكأنه

(٣) الفوات ٥٠٢/٢ .

(١) الفسق : القللام . الفسقار : القضاة

(٤) الطلا : الخمر . الخرد : جمع خرقة وهي البكر
 الخبيثة .

(٢) الجاندز : جمع جندز وهو ولد البقرة الوحشية
 المروقة . جمال حنينا .

ينطق بلسان شاعر ما جن كبير ، إذ يقول ^(١) :

كم ليلة نأدمتُ بدرَ سمانها والشمسُ تُشرقُ في أكفِ سَمانها
والبدرُ يُستَرُّ بالغيومِ ويَتَجَلَّلُ كنتُفسُ الحساءِ في مرآتها
خالفتُ في الصُّبَّاءِ كلَّ مقلِّدٍ وسعتُ مجتهداً إلى حانائها
أحرَّكَ الأوتارَ إن نفوسنا سكناؤها وَقَفُ على حركاتها
ومليحةٍ أرغمتُ فيها عاذل قامتُ إلى وصلى برغم وُشاتها
بأعجَلَةِ الأغصانِ من خَطَرَاتِها وفضيحةِ الغزلانِ من لَفَاتِها

والقمرطاطى إنما يستخدم مهارته الفنية التي صوّرتها في غير هذا الموضع ، ليدل على براعته في محاكاة الجنان لزمنه ، بل لعل أحدا من معاصريه لا يستطيع اللحاق به في مثل هذه الآيات ، وهو يجمع فيها بين جمال الطبيعة في اللبالي القمرية وبين الصبياء أو الخمر وصاحبته أو الغزل ، وهي طويلة ، وقد نوه بها الأسلاف طويلا لروعيتها الموسيقية والتصويرية .

وأخذ يزاحم الخمر في عصر الماليك تعاطى الحشيش ، وحين أمر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ . بإغلاق حانات الخمر وحطّم دنانها أمر بحرق الحشيش ، وأشار إلى ذلك ابن دانيال في بعض شعره ويقول حين أبطلت المنكرات في أيام السلطان لاجين سنة ٦٩٦ وفي مقدمتها الخمر والحشيشة ^(٢) :

احنرُ ندبى أن تذوق المُسكرا أو أن تحاولَ قطُ أمرا مُتُكرا
ذى دولةَ المنصورِ لاجينَ الذى قهر الملوك وكان سلطان الورى
إياك تأكلُ أخضرًا في عصره ياذا الفقيرُ بصيرَ جِسْمُكَ أحمرًا

والأخضر : الحشيش . ويشير إلى العقاب الشديد الذى سبّرتل بمتعاطيه ، ونهى ابن دانيال بالمثل عن تعاطى الخمر . وسرعان ما يذهب عصر لاجين كما ذهب عصر الظاهر بيبرس ، ويعود نفر من الناس إلى الحشيشة والخمر ، ومن تعلق بها ابن الصائغ ، وله فيها عدة ^(٣) مقطوعات من مثل قوله :

عصر الأيوبيين للدكتور محمد كامل حسن ص ١٠٧ وما

يلحقا .

(١) للنبل الصائغ ٧٢/١

(٢) فوات الوفيات ٣٨٨/٢

(٣) انظر في هذه المقطوعات كتاب دراسات في الشعر

قم عاطني خضراء كافورية قامت مقام سلافة الصنها
يغدو الفقير إذا تناول درهما منها له تبة على الأمراء

ووصفها بأنها كافورية لأنه كان يزعم منها كثير يستأن كافور في القاهرة ، ويلقانا كثيرون
يفضلون عليها الخمر لمجالسها وكتوسها ودنانها وقيانها .

وتظل الحشيشة والخمر على ألسنة الشعراء في الحقبة العثمانية ، وبما نقرأ لهم قول أبي
المواهب ^(١) البكري المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة :

وقهوة تَنْصَحُ مِنْكَ ولا يَدْعُ فِي الْفِنْجَانِ شَكْلُ الْقَزَالِ ^(٢)
تدبرها هيفاء ممشوقة خُودُ تُنْتِ فِي بُرُودِ الدُّكُلِ ^(٣)
يُسْمَرُ أَوْطَرُ وَزَعَتْ أَفْكَارُنَا بَيْنَ الْهَدَى وَالضَّلَالِ
تقول للشمس وقد أَقْبَلْتُ نَلْسِي مَا أَنْتِ إِلَّا خِيَالُ

وربما كان من أسباب شيوع الخمرات على ألسنة بعض الشيوخ أيام المماليك والعثمانيين أنها
كانت قد شاعت على ألسنة الصوفية من أمثال ابن الفارض وابن عري متخذين من نشوئنا رمزاً
لنشوة الحب الإلهي ، فلم يجد كثيرون حرجاً في نظمها ومحاولة التفنن فيه . ونقف عند نفر من
شعراء الطبيعة ومجالس اللهو ، وكلهم من الشعراء أيام الفاطميين ، أما من جاموا بعدهم فقد
مزجوا بين الجون والفكاهة الشعبية وسنخسهم ببعض الحديث .

ابن ^(٤) وكيع التنبسي

يسوق ابن خلكان لابن وكيع نسباً طويلاً ، فيقول هو الحسن بن علي بن أحمد بن محمد بن
خلف الضبي ، ووكيع لقب جده محمد بن خلف ، ويذكر أنه كان من أهل القرآن والفقه والنحو
والسير وأيام الناس وأخبارهم ، وله مصنفات كثيرة ، ويقول إنه كان نائباً في الحكم بالأهواز في
إيران لعبدان الجوالقي وإنه توفي سنة ٣٠٦ ببغداد ، ويذكر عن الشاعر أنه ببغدادى ومولده

وتتمة البيعة ٢٩/١ وحلقة الكتب في مواضع مختلفة

والعمدة لابن رشتين (طبعة أمين مكتبة) ٢/٢١٦ وابن

خلكان ١٠٨/٢ .

(١) روضة الألبا ٢/٢٢٦

(٢) قهوة : خمر .

(٣) خود : الثابة الحسنة .

(٤) انظر في ابن وكيع وترجمته وأخباره البيعة ١/٣٥٦

بشَّيس، وهى مدينة كانت بقرب بور سعيد الحالية، وتمتد فى بحيرة المنزلة، واشتهر أهلها^(١) بصناعة النسيج والتفوق فى صنع الثياب الشفافة والملونة، ويذكر المؤرخون والجغرافيون أنها كانت تكتظ بالجنان والكروم والفواكه والأشجار والأزهار والطيور من كل لون، وأكثر أغلبية أهلها السمك، وهم مياسر أصحاب ثراء، وأكثرهم حاكمة، وهم يحبون النظافة والعناية والفناء واللذة وأكثرهم يبتعون سكارى. ويبلغ الأسلاف فى وصف ما كان بهذه المدينة أو الجزيرة التى اندثرت من مشاهد طبيعية ومن جثات ورياض. وفيها ولد ابن وكيع كما يقول ابن خلكان ولا نعرف تاريخ مولده، أما وفاته فعرف تاريخها وهو سنة ٣٩٣ وكذلك مكانها وهو مسقط رأسه تيس. ولا نعرف الأسباب التى دفعت أباه إلى اتخاذ تيس دار مقام له ولأسرته، وقد نشأ فيها الشاعر وتصف. ويدل أنه طلب المزيد من الثقافة والتعرف على أدباء القاهرة فرحل إليها، وكانت شاعريته تمتدحت فلفت إليه الأنظار، ولا ندرى متى كان ذلك تماماً، غير أن من المؤكد وجوده فى القاهرة حين نزلها انتهى سنة ٣٤٦ ويدل أن صلة انقطعت بينه وبين ابن جِزْزَابَة وزير كافور، وكانت العلاقات قد سامت بينه وبين انتهى، حيث رأينا ابن وكيع يؤلف كتابا فى سرقات للنهى سماه المنصف إرضاء للوزير، ويقول ابن رشيق فى العمدية: «سماه كتاب المنصف، مثل ما سُمي اللديغ سلبا، وما أبعد عن الإنصاف». ولم يكن للنهى من ذوق ابن وكيع، ويون بعيد بين ذوقيهما، فالنهى شاعر جاد منتهى الجد، لا يعرف اللهو ولا الخمر ولا الهون، وابن وكيع شاعر ماجن منتهى الهون، فاندفع يريد أن يسقط النهى من عليائه وأثنى له ذلك!؟ ويدل أنه كان ثريا، فأعانه ثراه على انغماسه فى الهون، ويدل على هذا الثراء أننا لا نجد رواية شعره يذكرون له قصائد فى ابن جِزْزَابَة ولا فى الخلفاء الفاطميين وقد عاصر منهم المعز والعزى والحاكم، فحسبه دائما كأس وطاس، حتى ليؤثرهما على تولى منصب الخلافة الرفيع يقول:

وإن أتوك فقالوا كُنْ خليفَتنا فقلْ لهم إننى عن ذاك مشغولُ
وَارْضَ الحمولَ فلا يَحْطَى بِلَذَّتِهِ إلا امرؤُ خاملُ فى الناس مجهولُ
واسفِكْ دَمَ القهورة الصُّهْبَاءِ تُحْمِي بِهِ روحى فإن دم الصُّهْبَاءِ مطلوبُ^(٢)
فهو يؤثر حياة الحمول والهون على حياة العزة حتى لو كانت الخلافة، ويدل أنه تمثل كل

(٢) مطلوب: ممدد لأجل طلب ثاره.

(١) انظر لهم قول للقرنيزى عنهم فى كتابه المخطط

ما في ديوان أبي نواس من مجون حتى الجانب السيء عنده جانب الغلمان ، إذ نراه يداعب غلاما نصرانيا في مربعة مزدوجة طويلة أشرنا إليها في الفصل الماضي ، شكا له فيها من جبه وعذابه فيه ، ومضى يتوعدده نظرا إن لجُ في هجره أن يشكوه إلى القساوسة والرهبان والأسقف والمطران والبطرك ، ويقول له كيف تحمل قتل الروح وهو ما لم يأت به المسيح ولا أخبر به يوحنا ومثي ولوقا ومرقص .

وكل ذلك على سبيل الدعابة ، ونظن ظنا أنه لم يكن متورطا في هذا الإثم ، وكل ما في الأمر أنه هو ومن نظموا فيه بعده على مر السنين . إنما كانوا يحاكون فيه مجان بغداد نظرا ودعابة على نحو ما يتضح في مربعة ابن وكيع المزدوجة . وربما كان من أسباب ذلك كثرة النصارى في تيس كما يقول المقرئ وكثرة حاناتهم فيها ومن بها من السقا والغلمان . ومن المؤكد أنه كان لا يظلم مكته في القاهرة فهو دائم الرجوع إلى بلدته ناعما بثرائه فيها وبمشاهدتها الطيبة . وله بجانب هذه المزدوجة المربعة مزدوجة ثانية في وصف فصول السنة يبدؤها بوصف فصل الصيف وحره وغباره وما يجلب لشارب الخمر من الصداق ، ويتلوه بفصل الخريف وأهويته واختلاف برده وحره ، ويتبعه بفصل الشتاء وما فيه من برد وأمطار وزكام وحاجة مدمن الخمر فيه إلى اللغف وإيقاد النار ثم يفيض في بيان محاسن الربيع المنتشرة في كل عناصر الطبيعة من شمس وقر وطيور ورياض وأزهار وثمار ، مما ينم به شارب الخمر ويمجد فيه هناءه . ونكتطف الأبيات التالية من خمرية له جمع فيها بين وصف الخمر ووصف الطبيعة في الربيع وصف مشغوف بها مفتون ، يقول :

أبدي لنا فصل الربيع منظرا	بمثله تُفَتِّنُ أَلْيَابُ الْبَشَرِ
فالأرض في زى عروس فوقها	من أذمِعِ القطر نثاراً من دُرٍّ ^(١)
أما ترى الورد كخدي كاهب	راودها ، فامتنت منه بشر
كأنما الخمر عليه نقضت	صباغها أو هي منه تُصَصِّرُ ^(٢)
أنجبله الترجس إذ جداله	فاحمر من قرط حياه وشعر
وانظر إلى الأطيار في أرجائه	إذا دعا التاكل فيها وصفر ^(٣)
كانها - تصغير في رياضها -	يرب قبانو فوق بسط من حير ^(٤)

(٣) التاكل : من قلت ابك لما .

(٤) حير : جمع حبة ، وهي القطعة من نسج الحرير .

(١) الشتر : ما يثر على العروس ليلة الزفاف من التمام

القضية

(٢) صباغها : لونها .

وَالْتَكُّ فِي عَصْرِ الصَّبَا كَانَ مِنْ قَبْحه خَلْعُ عِذَارٍ فِي الْكِبَرِ^(١)
فَاشْرَبَ عُقَارًا لَوْ أَصَابَتْ حَجَرًا لَطَارَ مِنْ خَفْتِهِ ذَاكَ الْحَجَرُ
كَأَنَّمَا الْأَوْطَارُ فِيهَا جُمِعَتْ فَلَيْسَ فِي الْعَيْشِ لَهَا فِيهَا وَطَرٌ^(٢)

وإنما أطلنا في اقتطاف هذه الأبيات لندل على براعة ابن وكيع في تصوير الطبيعة تصوير الصب المفتون بها ، فهي عروس جميلة موشاة بألوان زاهية ، ورأى السماء فضفتها وأخذت تبكي بأجضان المطر ، وما أروع الورد ، إنه كوجنتي فتاة راودها ولحان بها ، فانتشت حياة وتفرجت وجتها خفرا . ويعجب ابن وكيع أشد العجب هل الحمر نفست لونها القاني على الورد أو هي معصورة منه ومستخرجة ، أو لعل الزرجس جادلها فاحمر لقوة حجة خجلها . وفي أرجاء هذا الروض البديع يغنى الطير غناء شجيا مؤثرا ، وكأنه أسراب قيان تئن في فوق بسط من سندس وحرير . ويدعو إلى اللهو واللذة في زمن الصبا والشباب ، ويزعم أن النسك وهجران المتاع في بواكير الحياة ضميم مثل خلخ المذار والمجون في الكبر . وكأنه نظم هذه الخمرية في شبابه . ويزعم ما زعمه أبو نواس قبله من أن الخمر لومست حجرا لمس السور ، وأنها تجمع الأوطار والمنى . ودأما يقول إنه عاكف على شرب الخمر وسط مباحج الطبيعة ، غير مُرْعَوْ ولا مزدجر على شاكلة قوله :

جَانِبْتُ بَعْدَكَ عَفَى وَوَقَارَى وَخَلَعْتُ فِي طَرَقِ الْهَوْنِ عِذَارَى
خَوَّفَتْنِي بِالنَّارِ جُهْدَكَ دَائِبًا وَلَجِجْتَ فِي الْإِرْهَابِ وَالْإِنْذَارِ
خَوَى كَخَوْفِكَ غَيْرَ أَنِّي وَاقٍ بِجَمِيلِ عَفْوِ الْوَاحِدِ الْقَهَارِ
أَنْظَرُ إِلَى زَهْرِ الرَّيِّحِ وَمَا جَلَّتْ فِيهِ عَلَيْكَ طَرَائِفُ الْأَنْوَارِ
تَاحَتْ لَنَا الْأَطْيَارُ فِيهِ فَأَرْهَجَتْ عَرَسَ السُّرُورِ وَمَأْتَمَ الْأَطْيَارِ^(٣)
فَاشْرَبَ مَعْتَقَةً كَانَ نَسِيمَهَا مَسَكٌ تَضَوُّعُهُ يَدُ الْعَطَارِ^(٤)
مَعَ مُنْعِمٍ حَلَفَتْ لَهُ أَوَاتَرُهُ أَنْ لَا تَنْسَافِرَ رَنَّةُ الْمَزَارِ
فَطَرِي بِحَرْكٍ كُلِّ عَضْوٍ سَاكِنٍ تَحْرِيكُهُ لِسَوَاكِنِ الْأَوْتَارِ

وهو يعطين لصاحبه أنه انغمس في الهون غير مصغ لتخريفه له من عذاب النار ، إذ يأمل في

(١) نُزِجَتْ : أُنْزِلَتْ .

(٢) خَلْعُ الْعِذَارِ : كِتَابَةُ مِنَ التَّهْنِكِ وَالْإِفْرَاقِ فِي

(٣) تَضَوُّعُهُ : تَذَكُّي رَافِعُهُ وَتَشْرِهُهُ .

الْهَوْنِ .

(٤) الْوَطَرُ : الْأَمْنَةُ .

عفو الله وغفرانه ، وهو يكرر هذه النعمة كثيرا في خمرياته ، ويقول له : انظر إلى ما حولك من جمال الطبيعة الساحر وما فيها من بدائع النور والزهر وما يتشربها من نواح الطير الذي يستثير حزنه كما يستثير فيه السرور والفرح . ويدعو إلى شرب الخمر ذكية الرائحة وسط مباحج الطبيعة على ألحان مغن حاذق يجيد المزف حتى ليحرك في السامع كل عضو ساكن منه تحريكه لسواكن أوتاره . وفي كتاب البيئمة قطعة كبيرة من شعر ابن وكيع . وكان له ديوان رآه ابن خلكان سقط من يد الزمن ، ولو وصلنا لعرفنا بوضوح مدى تأثيره في الشعراء المصريين بعده وفيما نظموه من شعر الخمر والطبيعة ، ومع ذلك فني رأينا أن هذه القطعة كافية في بيان أثره فيمن خلفوه . وهذه هي أول مرة نلتقي فيها بشاعر في إقليم عري يعيش للخمر والطبيعة ولا يعنى أى عناية بالمديح .

الشريف^(١) العقيلي

هو علي بن الحسين بن حبلرة ينتهى نسبه إلى عقيل بن أبي طالب ، وتاريخ مولده غير معروف وكذلك تاريخ وفاته ، غير أن الثعالبي ترجم له في البيئمة باسم أبي الحسن العقيلي وأردف الاسم بكلمة رحمه الله والثعالبي ترجم لشعراء أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، وقد يفهم من قوله رحمه الله ، أن العقيلي لا بد أن يكون قد توفى قبل وفاته ومعروف أن الثعالبي توفى سنة ٤٢٩ ، ويقول ابن سعيد في المغرب : « سألت عن العقيلي جماعة من أهل مصر فلم أرفيهم من يتحقق أمره ، وقال لي أحد الشرفاء اللعين بأنساب الشرف : كان في المائة الرابعة » . وقد يشهد لذلك أننا نجد في ديوانه أبياتا ينوه فيها بالحسين بن جوهر وزير الحاكم ، وكان من بين من قتلهم سنة ٤٠١ . ويبدو أن كلمة « رحمه الله » في البيئمة وضعها الثعالبي - إن كان هو الذي وضعها - خطأ أو سهوا فقد جاء في خطط المقرئى ما يشير إلى أن العقيلي امتدت حياته حتى سنة ٤٤٨ إذ ذكر أنه أشد المستنصر الفاطمي صبيحة يوم عرفة في هذه السنة :

قُمْ فَانْحَرِ الرَّاحَ يَوْمَ النَّحْرِ بِالْمَاءِ وَلَا تُفْصَحْ ضُحَى إِلَّا بِصَهْبَاءِ^(٢)
أَذْرِكُ حَبِيبَ الثَّدَامَى قَبْلَ نَفْرِهِمْ إِلَى مَنَى قُضْفِهِمْ مَعَ كُلِّ هِفَاءِ

(١) الخليلي . بتحقيق د. زكي المحاسني .

(٢) المحر : افصح . يوم النحر : يوم الأضحية . قضى : ظلى الأضحية . الصهباء : الحمر .

(١) انظر في الشريف العقيلي وترجمته وأشعاره البيئمة ٤١٥/١ والمغرب (قسم القضاة) ص ٢٠٥ وقد أنشد ابن سعيد قطعة كبيرة من شعره وراجع الفوات ٩٩/٢ والفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٤٨٣ ومقدمة ديوانه (طبع

فخرج المستنصر في ساعته يروا يا الخمر تُزجى بنفحات حُداة الملاحى وتساقي ، حتى أناخ بعين شمس (بحوار القاهرة) في كبكبة من الفساق فأقام بها سوق الفسوق على ساق ، يقول : « وفي ذلك العام أخذَه الله وأخذ أهل مصر بالسنين ^(١) » وكان ذلك كان في أول عام من أحوام المجاعة المشهورة لعهد المستنصر التي بدأت سنة ٤٤٢ وظلت سبع سنوات ، حتى هلك الحرث والنسل . والخبر يدل على أن الشريف العقيلي عاش على الأقل حتى هذه السنة ، ويستدرك صاحب المغرب على من ذكر له أنه كان في المائة الرابعة قائلا : « وقفت في الحريرة (للمعاد الأصباني) على ترجمته فدلُّ على أنه متأخر العصر عن المائة الرابعة » . ولعل في ذلك كله ما يشهد بأنه عاش مطلع شبابه في القرن الرابع ، وامتدت به الحياة فعاش دهرًا في القرن الخامس .

وهو من أهل الفسطاط ، وكان ثريا ثراء مفرطاً حتى قال ابن سعيد : كان له بها متزهات ، وهو في ذلك مثل تميم بن المز ، فيها جميعاً من سكانها وأصحاب البساتين والقصور بها ، غير أن تيمماً شغل في ديوانه بمديح أبيه وأخيه العزيز ، أما العقيلي فكما يقول ابن سعيد « لم يكن يشتغل بجلعة سلطان ولا مدح أحد » ويشهد بذلك ديوانه فليس فيه مديح لحليفة من الخلفاء البطاطيين ، فيه فقط بعض إخوانيات قليلة ، وكذلك بعض فخر وهجاء ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه استغرقه شعر الطبيعة والخمر والحب وكأنه امتداد لابن وكيع التنيسي . . ينظم أشعاره لنفسه ويهتفي لها بالطبيعة ومفاتيحها مازجاً بينها وبين الخمر في نشوة وفرح ومصرة . ونشر كأنما يتفرض أمامها انتاضاً بعم كيانه كله ، وهو يشاهد جداولها ومباهها ورياضها وأشجارها وأزهارها وبركها ، حتى لتحول أمامه مبعداً ما يزال يقدم إليه تراتيله مصحوبة ببخور الخمر وشذاها ، وكأن حياته وعبادته إنما تأتلف من الطبيعة والخمر وكثوسها المترعة ، وهو يدور دائماً إلى احتساء هذه الكئوس ، وكأنه يعب من الطبيعة ما يعب من فيها ، ثم يعب من الخمر ما يعب من دنانها ، مع القدرة البارعة على التصوير والتحول بالمناظر الواسعة في الطبيعة إلى مناظر مركزة ، كالكرة تجمع فيها الأشعة فتحول إلى ما يشبه قوس قزح رالع بديع ، يقول داعياً إلى المتاع بجمال الطبيعة وشرب الخمر العتيقة :

الْحَبِيبُ مَمْدُودُ السَّرَادِقِ وَالزَّهْرُ مَفْرُوشُ النَّارِقِ ^(٢)
وَالْقَاشُ قَدْ نُقِشَتْ لَنَا مِنْهُ الْمَجالِسُ وَالْمَرافِقُ

أشججـاره وثماره مثلُ التراب والمخائق^(١)
 قد غُتِ الأطيارُ في طرقاته كلُّ الطرائق
 فاحتقَ فؤادك فيه من ريقِ الموم بشرِبِ حائق^(٢)
 فالأفحوانُ غصونُه ببضِ السواصي والمفارق
 ومراودُ الأمطار قد كُجِلَتْ بها حَدَقُ الحدائق

والطبيعة من حوله قد تجمعت في حفلٍ بسرّادقٍ بهيجٍ وسائده من الزهر الملون ، وكذلك
 جماله ومناكاته كأنما قد قُطِمَتْ وقُصِلَتْ من القاش أو من نسيجٍ حريريٍّ متعدد الأصباغ ، بينما
 تطلُّ عليه من الأشجار والثمار التراب والقلائد . والطير تشدو وتغنى ، منظر قاتن ومغنى ساحر ،
 جدير بالشراب الزيل للموم ، والأفحوان يتأيل على أغصانه وكل ما في الحدائق أخذ زيته
 وزخرفته ، حتى الميون لم تنس كحلها ، عيون الأزهار البديعة ، فقد ناولتها الأمطار مراود تسم بها
 زينتها وحسبها الفانن . ومن قوله في مطلع الربيع .

قد بُيِّضَتْ قُبَّةُ السماء وزُوِّقَتْ قاعةُ الفضاء
 فالسما بسحبها البيضاء الممتدة على الأفق من كل جانب كأنها قُبَّةٌ بُيِّضَتْ ، والريبع بأزهاره
 وأنواره كأنه قاعة متألقة نُقِشَتْ ونُصِفَتْ بمنمحات الربيع وزخارفه البديعة . وعلى نحو ما تتجدد
 الطبيعة في مناظر ينمثل فيها التجميع والحشد والتركيز بكثرة عنده التشخيص وبث الحياة في عناصر
 الطبيعة من مثل قوله :

قد حبا طفلُ الصباح بين دايساتِ الرياح

وقوله :

الشَّعْبُ تَرُضِعُ من بنات الأرض ما جعلَ الربيعُ لها النُصُونُ مهودا

وقوله :

لَمَهاثُ الثَّمارِ بين الرِّوای تانَهاثُ بلبسِ خُضرِ الثَّيابِ
 وبناتُ الكروم تُجَلِّى بما قد صاغَه للام من عقودِ الحَبَابِ

فطفل الصباح يحو بين دابات الرياح والسحب ترضع أزهار الأرض على مهود القصور ،
وأمهات الحار من الأشجار يملؤها التيه والدلال بشبابها الخضراء ، والماء يجلو الخصور من بنات
الكروم بما يصوغ لها من عقود الحجاب . وعلى هذا النحو ما تزال نحس عند الشريف العقيل
باندماجه في الطبيعة وتغلب عينيه وقلبه بمشاهدتها الساحرة ، فهو مسحور بها سحراً لا حدود له ،
سحراً كان يحس إزائه بنشوة كشوة الخمر ، وكان لا ينسى النشوتين جميعاً حتى في غزله كقوله :

قامتُ قِيامَةً روجها لرواحي إن الثَوَى لقيامةُ الأرواحِ
وبكتُ فصار الدمعُ في وجَّعَاتِها مثل العَجَابِ على كُتوسِ الراحِ
وكانُ صفحَةً وجهها لما بكتُ روضُ برُصعِ وِزْدَه بأقاصي

وقرار هذه الأبيات الروض وما يرصعه من أنوار وأزهار وهو القرار العام لشعره ، فهو شاعر
الرياض ومباهجها ، وهي أنشودته أو أناشيده التي ظل يتغنّى طوال حياته بها وبما كانت تُلقَى في
وهمه وخياله من رؤى وأحلام وأشباح لا تكاد تخلص ، مما جعل الاستعارة المكنية القائمة على
التشخيص تكثر في أشعاره كثرة مفرطة ، مع التفوق فيها والبراعة ، ولاحظ ذلك الصفدى من
قديم فقال : « مارأيت أحداً من شعراء المتقدمين أجاد الاستعارة مثله ولا أكثر من استعاراته
اللائقة الصحيحة التخييل » .

ابن^(١) قادوس

هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل الدمياطي المشتهر باسم ابن قادوس ، من شعراء النصف الأول
من القرن السادس الهجري ، ذكره أبو الصلت الشاعر الأندلسي نزير مصر في رسالته التي
ألّفها عن الشعراء المصريين حوالي سنة ٥١٠ هـ مما يدل على أن نجمه أخذ يلمع ويتألق في المحافل
الأدبية بالقاهرة منذ هذا التاريخ . وله مدائح مختلفة في الأفضل بن بدر الجمالي المقتول . كما مربنا
سنة ٥١٥ هـ . ويبدو أن نجمه ظل يصعد في الأدب حتى عمل في الدواوين الفاطمية ، وما زال
يترقى بها حتى أسندت إليه - مع الموفق بن الحلال - رياسة ديوان الإنشاء ، واستمر يتقلدها حتى

الحاضرة للسيوطي ٥٦٣/١ ومقالا له عنه في مجلة الثقافة
العدد ٦٨٩ .

(١) انظر في ابن قادوس ورجسته وأشعاره الحريدة
(قسم شعراء مصر) ٢٢٦/١ والرسالة المصرية في المجموعة
الأول من نواذر المخطوطات نشر عبد السلام هرون وحسن

نزل به القضاء سنة ٥٥١ للهجرة . ورياسته لهذا الديوان تجعلنا مهئين لأن يكون شعره - مثل النثر المصرى الكتابى فى تلك الحقبة - مرصعا بالبديع ، كقوله فى الأفضل :

مَلِكٌ نَذَلُ الحَادِثَاتُ لِعَزِّهِ يُعِيدُ وَيُيَدِّى وَاللَّيَالَى رَوَاغُمُ
وَكَمْ كَرِيهَ يَوْمِ التَّرَالِ نَكْشَفَتْ بِحِمْلَاتِهِ وَهَى الْغَوَاشَى الْغَوَاشِمُ^(١)
تَشِيدُ بِنَاءَ الْحَمْدِ وَالْجِدِّ يَضُهُ . وَهْنُ لَأَسَاسِ الْهُوَادَى هَوَادُمُ^(٢)

وواضح أن فى البيت الأول طباق بين « يعيد وييدى » وأن فى البيت الثانى والثالث جناسا ناقصا بين « الغواشى والغواشم » وكذلك بين « الهوادى وهوادم » . وكان بارعا فى صنع ما يسمى فى البديع بحسن التعليل ، إذ كان يعرف كيف ينفذ إلى تعليلات طريفة إن هو رضى عن شىء ، فإنه يلتبس له ما يحسنه كقوله الذى أنشكدها بفواتح الفصل فى جارية سوداء :

يَلْمُومُنِي فِي ظَلْبِيَةِ مَخْلُوقَةٍ مِنْ كُحْلٍ
وَالْحَجَرُ الْأَسْوَدُ لَمْ يُخْلَقْ لِغَيْرِ الْقُبْلِ

فهو يرد عن السواد فى الجارية قبحه ، إذ يجعلها مخلوقة من كحل العيون الذى تترين به النساء ، وقد مضى يقول - كما مر بنا - إن السواد هو الذى يمنح العين السوداء بصرها ونورها ، وما يبلغ حجر كرم ما يبلغ الحجر الأسود من القدسية ، حتى لينال عليه الحجاج بالقبل . وفى أشعاره توريات بصنمها نظرفا . وكل شىء يؤكد أنه كان شاعرا بارعا ، غير أن ديوانه سقط من يد الزمن ، وهو فى شعره يتغنى بالخمرة وينفذ فى وصفه لها إلى تصاوير بدیعة ، ويبدو أنه كثيرا ما كان يشربها مع صحبه فى الأديرة ، يقول :

قُمْ قَبْلَ تَأْذِينِ التَّوَاقِيسِ وَاجْلُ عَلَيْنَا بِنْتُ قَيْسِ
عَرُوسَ دَنْ لَمْ يَدْخَ عَيْتُهَا إِلَّا شُعَاعَا غَيْرَ مَلُومِ
تُجَلِّى عَلَيْنَا بَاسًا نَقْرَهَا فَلَا تَقَابِلُهَا بَغْفِيسِ
مُذْهَبَةُ اللَّوْنِ إِذَا صُفِّتْ مُذْهَبَةُ لَلْهُمَّ وَالْبُومِ

نَارٌ إِلَى النَّارِ دَعَا شُرُهَا وَشَرُّدَتْ بِالْعَقْلِ وَالْكِسْرِ
فِي رَوْضَةٍ كَانَتْ أَزَاهِيرُهَا كَأَنَّهَا رِيشُ الطُّوَاوِيرِ

وهو يختصها مع رفاقه في بستان دير ، وهو يعب منها متعلبا بجمال الطبيعة ، وهي تجل عليهم عروسا رشيقة معتقة ، كأنما لم يبق منها عبقها إلا شعاعا بفرج الموم حين يمس الخلق ، وإنما لذات نعر باسم بما يطفو عليها من حجاب ، وابن قادوس يشربها وهو غير ناس أنها محرمة وأنه يتناولها من يد إبليس ، وكأنه آمل في غفوره . وعلى نحو ما كان يمزج بين الحمر والطبيعة ، محتسبا ككوس الشوة منها جميعها ، كذلك كان يمزج بينها وبين الغزل في مثل قوله :

وَلَيْلَةٍ كَاغْتَاخِي الطَّرْفِ قَصَرُهَا وَصَلُّ الْحَيِّبِ وَلَمْ تَقْصُرْ عَنِ الْأَمَلِ
بَنَّا نَجَازِبَ أَهْدَابِ الظَّلَامِ بِهَا كَفُّ الْمَلَامِ وَذَكَرَ الصَّدِّ وَالْمَلَلِ
وَكَلَّمَا رَامَ نَطَقًا فِي مَعَاتِقِ وَشَدَّتْ فَاهُ بِطَبِيبِ اللَّثْمِ وَالْقَبْلِ
وَبَاتَ بَدْرُ نَمَامِ الْحَسَنِ مُتَحَنِّقِ وَالشَّمْسُ فِي قَلَكِ الْكَاسَاتِ لَمْ تَهْلُ^(١)
فَبَتُّ مِنْهَا أَرَى النَّارَ الَّتِي سَجَدْتُ لَهَا الْجُحُوسُ مِنَ الْإِبْرِيْقِ تَسْجُدُ لِي
رَاحُ إِذَا سَفَكَ التُّنْعَامُ مِنْ دَعْمَا ظَلَّتْ تُقَهِّقُهُ فِي الْكَاسَاتِ مِنْ جَدَلِ^(٢)
قَلُّ لِمَنْ لَامَ فِيهَا إِنِّي كَلَفْتُ مُقَرِّى بِهَا مِثْلُ مَا أُغْرِيتُ بِالْعَدَلِ^(٣)

والخميرية يديعه بصور فيها ابن قادوس ليلة من أروع ليل ليالى وصاله ، يعاتب فيها صاحبه مصرحا بما اقتطفا فيها من أزهار الوجد والوله والصبابة ، بينما شمس الحمر تنفّلت أشعتها من أفلاكها في الككوس مشرقة غير غاربة ، ويشعر كأنها نفس النار التي طالما سجد لها الجحوس تسجد له حين نصب من إبريقها في كأسه ، ويعجب أن يسفك دمها الشارب فتسيل من اللذ إلى كأسه غير محزونة ، بل مستبشرة ، بل ضاحكة مقهقهة لشدة فرحها وسرورها . ويقول لعاذله في شربها كفى عذلا ، لأنني مولع بها ولوعك باللوم والغلل . وحسبنا هذه الخميرية وسابقتها للذل على تفوق ابن قادوس في تصوير الشغف بالحمر إما حقيقة وإما محاكاة لشعراء بغداد من أمثال أبي نواس ومعاصريه .

عبد^(١) الباقى الإسحاقى المتوفى

من شعراء القرن الحادى عشر الهجرى أيام العثمانيين ، ولد بمخوف وبها نشأ ، وتلقى العلم على شيوخها ، ثم نزل القاهرة وأكبَّ على حلقات علمائها ينهل منها ، حتى أصبح من علمائها ، وعُنى بالتاريخ ، وكان شاعرا بارعا ، ويصفه الهبى بأنه يجاوز فى الرقة الحد وأنه يمتاز بجلالة معانيه وعذوبة مبادئه ، ومازال ينظم الشعر حتى توفى بمسقط رأسه سنة ألف ونيّف وستين ، وقد أنشد له طائفة من أشعاره ، استلهمها بخمرة ممزوجة بالزل على هذا النمط .

نَمَتْ لَنَا تُحْجِلُ الْكُوكِبَا فَنَادَيْتُهَا مَرْحَبًا مَرْحَبًا
أَدَارَتْ بِمَضْرِنَا قَهْوَةً وَطَافَتْ بِكَأْسِ الطَّلَا مُدْهَبًا^(٢)
رَبَّتْ وَرَمَتْنى بِأَلْخَاطِهَا وَقَدْ أَدَكْرَتْنِى عَهْدَ الْعَبَا
وَعُتَتْ لَنَا فَطْرَبْنَا لَهَا وَيَا حُسْنَ ذَاكَ الَّذِى أَطْرَبَا

وهو يتغزل بهاقية مغنية أسرت لُبّه ، وقد دارت عليه بكوس الخمر ، وهو ينتشى بها ويجمال المغنية كما يقول ، مصرّحا بذلك مجاهرا فى غير مداراة . وفى قصيدة ثانية يذكر مجلسا للهو والغناء نعم به بين مشاهد الطبيعة فى عفاف لا يدانيه عفاف . ومن قوله فى خمرية راقصة :

رَقَصَ الْمَجْلِسُ أَنْسَا فَاجْعَلِ الْهَبْرَةَ كَأْسَا
وَأَسْقِنِى بِالزُّقِّ وَالطَّاءِ سِرِّى فَرَانِ طِبْتُ نَفْسَا
وَأَقِمْ لِسُكْرِ وَالِدِ لَذَاتِ فِى حَانِى عَرْسَا
كَيْفَ لَا وَهَى تَرِينِى فِى دُجَا الظُّلُمَاءِ شَمْسَا
وَنَقِمِ الْمَيْتَ حَبَا بَعْدَ مَا جَاوَرَ رَمْسَا

وهو لغزاهم بالخمر وشغفه بها يريد أن يحتسبها جرارا وزقا وطاسا لا كأسا فحسب ، وتصور نفسه كأنما يعيش فى حان يخالفها فيه شمس ، ترد إلى اللون الحىاة ، تعبيرا بذلك عن شدة تعلقه بها ، ويقول :

(١) القرن الحادى عشر ٢٨٩/٢
(٢) الطَّلَا : الخمر .

(١) انظر فى عبد الباقى الإسحاقى وترجمته نسخة الرخاينة
للسجى ٥٨٩/٤ وكذلك كتابه : خلاصة الأثر فى أعيان

امْلَ لِي الكاسَ تمامًا واسقني جَمًّا فجَما^(١)
اسقني بالكوب والكاس فرادى وتَوما^(٢)
ثم بالسَّجْرة فالج رُة حتى أَتسرامى
اسقني حينئذٍ بال رُق حتى لا كلاما
ثم أزهى موضع في ال مروضٍ فاسخَره مقاما

وهو صَبٌّ بالخمير يريد أن يحتسبها حتى الثالثة ، بل يريد أن يشربها أرطالا جاما فجاما وكثوسا
وأكوابا وَجَرَّتْ متوالية حتى يفقد الكلام ويغيب عن حسه ، وهو يشربها في أزهى موضع
بالروض قد عجت فيه الأزهار بأريجها العطر . وكأنما يعبد الإِسْحاق في أيام العَمَّانين ذكرى
أبي نواس وأمثاله من الماجنين العباسيين .

٤

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

مرُّ بنا أن مصر عرفت الزهد والنسك الديني من قديم ، ويكنى أنها هي التي أنشأت في
المسيحية نظام الرهبنة الذي شاع منها وانتشر في العالم المسيحي . وقد أقبلت على الإسلام بمجرد
اعتناقها له ونزول العرب المسلمين فيها تنهل منه ، ورأيناها تسهم منذ زمن الولاة في نشر مذهبي
مالك والشافعي ، كما أسهمت في القراءات عن طريق مقرئها المشهور : ورش . وأكبت على
الحديث النبوي وتفسير الذكر الحكيم وأخذت تدرسها كما تدرس القراءات والفقه ، وتكونت لها
طبقات من علماء الدين ومن الوعاظ والقصاص ، وكان كل من شدا منهم شعرا نظم في الزهد
والوعظ آياتا كان يتداولها الناس على نحو ما كانوا يتداولون أشعار الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤
وظلوا يتداولون بعده أشعار منصور بن إسماعيل الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٣٠٦ من مثل قوله^(٣) :

كُنْ بِمَا أوتيتَه مُتَغَيِّطًا تَسْتَدِمُ عَمَرَ الْقَنَرِ المكنى
إِنْ فِي نَيْلِ الْمَنَى وَشَكَّ الرَّدَى وَقَبَّاسُ الْقَصْدِ عِنْدَ السَّرَفِ
كسراج دُفئِهِ قُوئُهُ فإِذَا عَرَّقَتْهُ فَبِهِ طُفْيِ

(٣) نكت المنيان ص ٢٩٨

(١) الجام : إياه من فضاء .
(٢) تَوما : تَوما : من الاثنين إلى مازاد .

وهو يدعو إلى القناعة والاكتفاء بالقليل وعدم التطلع إلى مَنى عريضة يكون فيها حتف صاحبها ، ويقول لابد من القصد والاعتدال لتظل للإنسان مَنته وقوته ، أما إذا أفرط وتجاوز الاعتدال والقصد فإنه لاشك صائر إلى الهلاك . وإذا تركنا الفقهاء إلى الشعراء وجدناهم يرددون بعض أشعار زاهدة وبعض مواظ ، واتخذوا - كما أسلفنا - من زوال الدولة الطولونية عبرة كبرى للدهر ونكباته ، وأخذت العظة وما يتصل بها من شعر الزهد تتكاثر على ألسنة الشعراء ، ولتميم بن المزعز صيدة في القرافة ومقابرها وما تبث في النفس من خشية الله ، وفيها يتجه إلى ربه قائلا أو مناجيا^(١) :

رجوئك يا ربُّ لا أننى أطمعك طوعاً أولى الانتهاء
ولكننى مؤمنٌ موقنٌ بأنك ربُّ الورى والسَّاءِ
وأنتَ أهلُّ لحسنِ الظنونِ وأنتَ أهلُّ لحسنِ الرجاءِ

فهو يرجو الله ويعبده لا خشية عقابه ولا خوف ناره ، ولكنه يعبده لأنه أهل لعبادته ، فهو رب الكون ، رب الأرض والسماء ، وهو يرجوه للرجاء لا لشيء وراءه من مآرب الحياة أو مآرب الآخرة . فشئ من ذلك لا يعلق بنفسه ، وإنما يعلق بها اليقين والإيمان بأنه الرب الأعلى الخلق بكل عبادة وكل رجاء .

ومن يتصفح ديوان الشريف العقيلي شاعر الطبيعة والخمر يحمده بنظم كل قافية من قوافيه المرتبة على الحروف الهجائية بأبيات واعظة ، كأنما يكفر بها عما نظمه من مجون في نفس القافية ، كقوله في قافية الباء^(٢)

أيها السَّاءِ الذى ضَلَّ عما يَبراد بهُ
إنَّ للمَرَضِ وَقْفَةً أمرُها غيرُ مُتنبه
فانتبه قبل أن تُرى مَذنباً غير مُنتبه

ووعظيات الشريف ليس فيها روح ، لسبب طبعه وهو أنه لم يكن شاعر وعظ وزهد ، وإنما كان شاعر خمر وطبيعة ، ومع ذلك فأغلب الظن أنه هو الذى أوحى لشعراء الموشحات الأندلسية في الحقب المتأخرة بفكرة الموشحات المكفرة لموشحاتهم الماجنة .

ونلتقى بظافر الحداد بعد نعيم ، وهو يذكر دائما بالموت كقوله ^(١) :

كُنْ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى وَجَلٍ وَتَوَقَّعْ سُرْعَةَ الْأَجَلِ
تَحْدُغُ الْإِنْسَانَ لَذَّتُهَا فَهِيَ مِثْلُ السَّمِّ فِي الْعَلِّ
أَنْتَ فِي دُنْيَاكَ فِي عَمَلٍ وَاللَّيَالِ فِيكَ فِي عَمَلٍ

فالسعيد في رأى ظاهر من وضع الموت نصب عينيه ، ولم يغتر بمتاع الحياة ولذتها فهي كالسم في العسل ، لاتزال تسرى في الجسم ، ولاتزال الأيام والليالي تعمل عملها فيه ، حتى يفتى فجأة وعلى غير أهبة أو انتظار . ولا ين الثَّغر يدعو دعوة حارة إلى الزهد والقناعة ^(٢) :

جِهَادُ النَّفْسِ مَفْرُضٌ فَخُذْهَا بِآدَابِ الْقِنَاعَةِ وَالزَّهَادَةِ
إِنْ جَنَحَتْ لَذَلِكَ وَاسْتَجَابَتْ وَخَالَفَتْ الْهَوَى فَهُوَ الْإِرَادَةُ
وَإِنْ جَمَحَتْ بِهَا الشَّهَوَاتُ فَاكْبَحْ شَكِيمَتَهَا بِمِقْمَعِ الْعِبَادَةِ
عَسَاكَ تُحِلُّهَا دَرَجَ الْمَعَالِ وَتَرْفَعُهَا إِلَى رَبِّ السَّعَادَةِ

وهو يحض على جهاد النفس وترويضها على الزهد في طيات الحياة ، فإن خالفت هواها وأصفت لك فهي الأمانة المبتغاة ، وإن استعبدتها الشهوات فاكبح جاحها بالنسك والعبادة ، فهي خير مؤدب ومروض مذل لها حتى ترقى إلى درج المعالي وتصل إلى رب السعادة . ومن تبتلته إلى ربه ^(٣) :

بِاسْتَجِيبَ دَعَاهِ الْمُسْتَجِيرِ بِوَ . وَيَا مَفْرَجَ لَيْلِ الْكُرْبَى الدَّاجِيِ
قَدْ أُرْتَجَتْ دُونَا الْأَبْوَابُ وَاسْتَمْتَّ وَجَلُّ بِأُفْكٍ عَنْ مَتْنٍ وَإِرْتَاكِ
نَخَافُ عَدْلَكَ أَنْ يَجْرِيَ الْقَضَاءُ بِوَ . وَتَرْجِيحُكَ . فَكُنْ لِلْخَائِفِ الرَّاجِيِ

وهو تبتل وتضيق إلى الذات العلية ، إذ يدعو الله المفرج لظلمات الكربة ، الكاشف لليلها الداجي ، أن يفتح له الأبواب بعد أن أخلق دونه كل باب ، وإنه ليتعلق بالأمل في رحمته

رحمة تمنع العدل أن يجرى القضاء به متوسلاً بخوفه ورجائه في رحمة الله الواسعة ، ولا ين سناء الملك^(١) :

أقولُ دارى وجيرانى مغالطةً والقبرُ دارى والأمواتُ جيرانى
في وَحْشة القبر والدود المقيم به شُغلٌ لنفسى عن دارى وبُستانى
سأوسع القبرَ بالأعمال أَصلحها جهدى وألبسُ زهدى قبل أكفانى

فليست داره هي الدار الحقيقية له وليس جيرانه هم جيرانه الحقيقيون ، فداره الحقيقية القبر وجيرانه الأموات حول قبره ، وإنها لدار مفزعة ، دار وحشة وديدان تنتظره ، دار ضيقة وسبحاؤل أن يمد أطاها بالأعمال الصالحة ، ويسرع إلى ثياب الزهد في الحياة الدنيا يلبسها قبل أن يلبس أكفانه ويتزل رمله وخثرته المظلمة .

ويكثر ابن مطروح من مناجياته لربه كقوله^(٢) :

يَا مَنْ عَلا فِي مُلْكِهِ فَأَقْرَبُ وَمَنْ بَدَأَ فِي نُورِهِ فَاحْتَجَبُ
وَمَنْ هُوَ الْقَصْدُ لِأَهْلِ الثَّمَى وَالْمَطْلَبُ لِأَسَى وَكُلُّ الْأَرْبِ
عُودَتِي الْآنَسَ فَلَا تُنْسِنِي وَهَبْنِي الرُّحْمَةَ فِيمَا نَهَبُ

وهو يتضرع إلى ربه الذي علا في ملكوته وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، والذي يملأ الدنيا نورا وضياء من حوله ، وهو محتجب لا يراه أحد ، والذي هو المقصد والمطلب الأسى وكل الأرب والأمل ، والذي عوده الأنس به ، أن لا ينساه وأن يهبه من خزائنه العلية ورحمته الواسعة .

ويظل شعر الزهد والتبتل إلى الله مردهراً زمن المالك ، من ذلك قول عبد الملك الأرمنى القوصى للتوفى سنة ٧٢٢ متعلقاً بغفوربه^(٣) :

قَالَ لِي الْفُسْرُ وَقَدْ شَاهَدْتُ حَالِي لَا تَصْلَحُ أَوْ تَسْتَقِيمُ
بِأَيِّ وَجْهِ تَلْتَقِي رَبَّنَا وَالْحَاكِمُ الْعَدْلُ هَاكَ الْغَرِيمُ
فَقُلْتُ حَسْبِي حُسْنُ ظَنِّي بِهِ يُنْبِلُنِي مِنْ النِّعَمِ الْمَقِيمِ

(١) الديوان ص ٧٨٧ .

(٢) ديوان ابن مطروح مع ديوان العباس بن الأحنف

ص ٢١٢ (٣) طبقات الثلاثة للبيكى ٩٨/١٠

قَالَ وَقَدْ جَاهَزْتَ حَتَّى لَقَدْ حَقَّ لَكَ يُصْلِكَ نَارَ الْجَحِيمِ
قُلْتَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَّيَلَّ بِسَنَارِهِ وَهُوَ بِحَالٍ عَلِيمٍ

والمراجعة بين عبد الملك ونفسه طريفة ، فهي تلومه على حاله المروعة وسلوكه غير الصالح وتقول بأى وجه تلقى غريمك وهو ربك ، فيرد عليها بأنه حسن الظن بالله وعفوه ، وأنه سيدخله جنات النعيم ، فتسأله متعجبة أنجهز بذلك ولا تخفيه ، لقد حقت عليك النار . فيقول معاذ الله أن يصلبه ربه الجحيم وهو العالم بحاله وصحة نيته في إيمانه .

ويقول الحافظ المحدث شمس الدين أبو المعالي ابن القحاح المتوفى سنة ٧٤١ للهجرة (١) :

اصْبِرْ عَلَى حُلُوِّ الْقَضَاءِ وَمُرُوْءٍ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ بِالْغُيُوبِ أَمْرُو
وَأَثْبِتْ فِكْمَ أَمْرِ أَمُصِّكَ عُزْرَهُ لَيْلًا فَبَشِّرْكَ الصَّبَاحُ بِبُشْرِهِ
وَاضْرَعْ إِلَى اللَّهِ الْكَرِيمِ وَلَا تَسَلْ بِشَرًّا فَلَيْسَ سِوَاهُ كَاشِفَ ضُرِّهِ

وهو يدعو إلى الرضا بكل ما يأتي به القضاء من حل ومرار ، فتلك إرادة الله ولا راد لأمره ، وينصح بالثبات حتى تنكشف ظلمة الغمة وتسفر عن بشرى مضيئة ضوء الصباح وأن يلجأ الإنسان إلى ربه ويضرع إليه ، فهو وحده كاشف النعم ومفرج المحن .

وتلقى ببينات وأدعية كثيرة عند الشيوخ ، من ذلك قول قاضي القضاة ابن التتسي المالكي المتوفى سنة ٨٥٢ للهجرة (٢) :

إِلَهَ الْخَلْقِ قَدْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي فَصَامِعْ مَا لِعَفْوِكَ مِنْ مَشَارِكِ
أَعِثْ بِأَسِيدِي عَبْدًا فَقِيرًا أَنَاخَ بِيَابِكَ الْعَالِي وَدَارِكِ

فهو يتضرع لربه أن يعفو عن ذنوبه ، ويستغث به ، فهو عبد فقير من عبادته ، ألقى عصاه بيباه ، آملاً في قبول تضرعه ، ويورث توربة واضحة في قوله : « دارك » فعناه القريب الدار الحقيقية بدلالة كلمة الباب قبلها ، والمعنى البعيد المقصود أن يدركه قبل أن يأس من عفوهِ ورحمته .

ويلقانا زهد كثير في الحقبة العثمانية من مثل قول محمد بن أحمد الحنطادى في الدعوة إلى القناعة

وَأَنْ لَا يَفْكَرَ الْإِنْسَانُ فِي رِزْقِ الْغَدِ^(١) :

نَأْنُ وَلَا نَجْزُغْ لِأَمْرِ تَحَاوُلُهُ فَخَيْرُ اخْتِيَارِ الْمَرَّةِ مَا اللَّهُ فَاعْلُهُ
تَفْعِيًا بِظُلِّ اللَّهِ مِنْ رَوْضِ قَوْلِهِ أَلَسْتُ بِكَافٍ تَلَحُّقُكَ فَوَاضِلُهُ^(٢)
وَعِزُّ نَهْنِ دُنْيَاكَ وَاغْنَى بَرَكَمَا وَلَا تَحْفَلَنْ بِالرِّزْقِ فَاللهُ كَافِلُهُ

فهو يدعو إلى الصبر في طلب الرزق وأن لا ييأس الإنسان ، بل يدع شأنه لربه فإنه ضامن رزقه ولن ينساه ، وحرى بالإنسان أن يستظل بمثل قوله : (أليس الله بكاف عبده) مؤمنا بأنه يتكفل بعباده ولا يترك ظامئا إلا سقاه ولا عاريا إلا كساه ، وما الغز الحقيق إلا رضى الدنيا وما الغنى الحقيق إلا تركها وعدم التعلق بها وأن لا يشغل الإنسان نفسه برزق الغد ، فالله كافله وضامنه .

وقد تحدثنا في الفصل الأول عن نشأة التصوف بمصر وأنه أخذ طريقه فيها إلى الظهور منذ سنة ٢٠٠ للهجرة ولم يلبث ذو النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ للهجرة أن رفع صرحه سامقا ، إذ يعد المؤسس الحقيقي للتصوف الإسلامي وترتيب أحواله ومقاماته ، وقد ذكرنا أطرافا من آرائه الصوفية وبعض تلاميذه من أعلام الصوفية بعده في الشام والعراق وإيران ، وكأن مصر التي يرجع إليها الفضل في قيام نظام الرهبنة في المسيحية يرجع الفضل إليها أيضا في قيام التصوف في أركان العالم الإسلامي ، أو قل عبارة أدق يرجع الفضل في قيامه إلى أحدائنها وهو ذو النون المصري ، ومر بنا تصوير ذلك من بعض الوجوه وكيف أنه كان أول من وضع تعريفا للوجد الصوفي وأول من ذكر كأس المحبة الربانية التي هي جوهر التصوف وقوامه ، ومن ضيائها استمد في قوله مخاطبا ربه^(٣) :

لَكَ مِنْ قَلْبِي الْمَكَانُ الْمَصُونُ كُلُّ لَوْمٍ عَلَى فَيْكَ يَهُونُ
لَكَ عِزُّمُ بَأَنْ أَكُونَ قَتِيلًا فَيْكَ وَالصَّبْرُ عَنْكَ مَا لَا يَكُونُ

وكانه أول قتيل بل أول شهيد في الحب الإلهي ، فقد سبح في بحاره وغرق بين أمواجه ، غرق في مياه عميقة ، مادًا بصره إلى القاع وأعماق الأعماق ، يريد أن يرتوى وأن يحظى بأمانيه من الوصال ، محتلا في ذلك جهودا مضنية ، وفي ذلك يقول^(٤) :

(١) سلافة المصرايين بمصر (طبع القاهرة) ص ١١٨

(٣) ابن خلكان ٣١٦/١

(٤) طبقات الصوفية للسلي ص ٢٧ .

(٢) تفعيلاً : استظل .

أموت وماتت إليك صبايى ولا قُفِيَّتْ من صدق حبك أوطارى
تحمل قلبى فيك مالا أبى وإن طال سُقَى فيك أوطال إضرارى

فصباياته بالحب الإلهى لا تنقضى ، إنه لا يزال يريد أن يكون حبه لربه لا يدانيه حب ، ولا يزال يجد فيه نصبا وشقاء ، ولذته التى لا تمح إثمها فى هذا الشقاء والنصب الذى لا يشبه نصب . وتناول كأس هذه الهبة منه كثيرون فى العالم الإسلامى . ويدور الزمن بمصر دورات وتدخل فى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وسرعان ما تنشأ بمصر الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وكانت تعارض التصوف حتى لا يطفى على عقيدتها التى صورناها فى غير هذا الموضع وبصرف المصيرين عنها ، ومن هنا تراجعت موجهة فى عهدها ، ومع ذلك فينبغى أن لا نظن أنه تلاشى ، فقد ظل حبله ممدودا بعد ذى النون . ومربنا من متصوفها بعده أبو بكر الدقاق الكبير المتوفى سنة ٢٩٠ وبنان الحال المتوفى سنة ٣١٦ وأبو على الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢ وبعد السيوطى بعض أسماء لمتصوفة ظهوروا فى عهد الدولة الفاطمية^(١) مثل ابن الترجان المتوفى سنة ٤٤٨ ويقول عنه : كان شيخ الصوفية بديار مصر . وولتقى بأخيرة من أيام الفاطميين بصوفى كبير هو ابن الكيزانى وسترجم له عما قليل . ومربنا أنه أخذ بتفصح فى التصوف منذ قيام الدولة الأيوبية انجماها ، انجاء فردى فلسفى وانجاء جماعى سنى ، ومثل الانجاء الأول ابن الفارض وسنخصه بترجمة ، ومن تلاميذه ابن الحيمى محمد بن عبد المنعم المتوفى سنة ٦٨٥ ولم يتجه بتصوفه انجاء ابن الفارض الفلسفى ، بل وقف به عند الوجد والحديث عن الشوق وأكثر من ذكر معاهد الحب على طريقة العذريين ، واشتهر بأنه تنازع مع محمد بن إسرائيل صوفى الشام فى قسيمة صوفية واحتكما إلى ابن الفارض ، فشهد لابن الحيمى أنها من نظمه ، وفى فوات الوفيات قطعة من شعره ، ومن قوله فى الذات الإلهية^(٢) :

وحجَّبَ عَنَّا حُسْنَهُ نَوْرَ حُسْنِهِ فَمِنْ ذَلِكَ الْحَسَنِ الصَّلَاةُ وَالْهُدَى
فَيَانَارَ قَلْبِي حَيْثَا أَنْتَ مُصْطَلًى وَيَادْمَعَ عَيْنِي حَيْثَا أَنْتَ مُؤَرِّدَا

وشعره الصوفى يهبط عن شعر ابن الفارض كثيرا . وكان يعاصره كناككت المصرى الواعظ

المقرئ المتوفى سنة ٦٨٤ ونحس عنده قيسا من ابن الفارض في مثل قوله ^(١) :

حَضَرُوا فَمَنْظُورًا جَمَّالَكَ غَابُوا وَالْكُلُّ مَذْهَبًا سَمِعُوا خَطَابَكَ طَابُوا
فَكَأَنَّهُمْ فِي جَنَّةٍ وَعَلَيْهِمْ مِنْ خَمَرٍ حَبْكُ طَافَتِ الْأَكْوَابُ
أَنْتَ الَّذِي نَاولَتْنِي كَأْسَ الْهَوَى إِذَا سَكَرْتُ لِمَا عَلَى عِتَابِ

ويقول ابن تني يرى إنها قصيدة مشهورة عند الفقراء يريد الصوفية ، وواضح أنه يصور في هذه الأبيات الغيبة التي طالما صورها ابن الفارض والتي تعني عنده السكر وفقدان الوعي ، فقد غاب عن وعيه حين أحس بمشاهدته للجمال الرباني وكأنما طافت أكواب الخمر الإلهية ، وتناول منها كوبا ، جعله ينيب عن الوجود شاعرا بوجود لا يشبه وجد ، وجد بالجمال الإلهي المطلق الذي يسرى في كل كائن جميل مستمدا منه حسنه وجهاله ، يقول ^(٢) .

مَنْ أَنْتَ مَحْبُوبُهُ مَاذَا يَغْيِرُهُ وَمِنْ صِفَتِهِ لَهُ مَاذَا يُكْدِّرُهُ
هِيَاثَ عَنْكَ يَلَاحُ الْكُونُ تَشْغَلُنِي وَالْكُلُّ أَعْرَاضُ حَسْبِ أَنْتَ جَوْهَرُهُ

وكان الله يشاهد في كل جميل بالكون ، أو قل كان كل جميل يستمد منه جهاله ، أو يشاهد فيه جهاله ، وفكرة الشهود سنعرض لها عند ابن الفارض عرضا أكثر سعة . وبدون ريب أثر ابن الفارض في صوفية مصر وغير مصر بعده آثارا تضيق وتتسع حسب مواجد الصوف .

ويلقانا صوفي من أتباع ابن عربي ، مربنا ذكره في الفصل الأول ، وهو عبد العزيز بن عبد الغني الحسني المتوفى سنة ٧٠٣ وفي شعره ما يدل على تلمذته لابن عربي إذ يقول ^(٣) :

وَجَدْتُ بَقَائِي عِنْدَ فَقْدِ وَجُودِي فَلَمْ يَبْقَ حَدٌّ جَامِعٌ لِحُدُودِي
وَأَلْقَيْتُ سِرِّي عَنْ ضَمِيرِي مَلُوحًا بِرَمَزٍ إِيْشَارَاتِي وَقَدْ قُبُودِي
فَأَصْبَحْتُ مِنْ دَانِيَا بِمَعَارِفِي وَقَدْ كُنْتُ عَنِّي نَانِيَا بِمَحْمُودِي

ويقول ابن حجر معلقا على الأبيات : « وهذا نفس الاتحادية لا شك فيه » . يريد أن الأبيات تصدر عن فكرة الاتحاد بالذات العلية التي كان يؤمن بها ابن عربي ، وكان له ديوان

(٢) النجم الزاهرة ٣٦٥/٧

(١) انظر ترجمة ككاكت في الفوات ١٠٨/١ والنجم

(٣) الدرر لابن حجر ٤٨٤/٢

الزاهرة ٣٦٤/٧ .

كبير ، ويذكر له قصيدة نونية طويلة اسمها العيوب وهي ملكة النحل .

ومن المؤكد أن التزعة الفلسفية في التصوف بمصر كادت تنحسر بعده إلا قليلا ، إذ مضت مصر تؤثر التصوف السني وما أشاعه من الطرق الصوفية الكثيرة ، وقد أفضنا في بيان ذلك بالتفصيل الأول ، وكان من أهم الطرق التي تأسست بها الطريقة الشاذلية ، ومن أهم أصحابها ابن عطاء الله السكندري الصوفي الواعظ تلميذ مؤسسها أبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسى ، ومن شعره قصيدة يقول فيها ^(١) :

ويا صاحِبَ إن الركب قد سار مسرعا ونحن قعودُ ما الذي أنت صانعُ
أترضى بأن تبقى الخلفَ بعدهم صريحَ الأمانى والغرامُ ينازع
وهذا لسانُ الكونِ ينطقُ جهرَةً بأنَّ جميعَ الكائناتِ قواطِعُ

فهو يهتف بصاحبه أن يتبع ركب المحبوب ولا يتخلف ، حتى لا يفقد أمانيه ويضيع منه حبه ، بل إن الكون كله ليتف به أن يرحل وراءه ويهاجر له ، فجميع الكائنات ماتزال مهاجرة تتبعه . وكثير من شعر هؤلاء الصوفية كانوا ينظمونه ليردده المنشدون في الذكر بين صفوف الذاكرين الله كثيرا بجلوتهم حاسة وإمعانا في ذكر الله وتسيحه ، من مثل قول عبد الغفار بن أحمد بن نوح القصي الصوفي المتوفى سنة ٧٠٨ للهجرة :

أنا أَقْنَى أَنْ تَرَكَ الحُبَّ ذَنْبٌ آثَمُ في مذهبي مَنْ لَمْ يُحِبْ
ذُقْ على أُمري مراراتِ الهَوَى فَهوَ عَذْبٌ وَعَذَابُ الحُبِّ عَذْبٌ
كل قلبٍ ليس فيه ساكنٌ صَبَوَةٌ عُدْرِيَّةٌ ما ذاك قلبٌ

ويكثر هؤلاء الشعراء من الصوفية في أيام المماليك ، ومن أشهرهم برهان الدين بن زقاعة ، المتوفى سنة ٨٥٩ عن سن عالية ، وكان يتبرك به السلطان برقوق وابنه السلطان فرج ، وله في الحب الصوفي ومواجهه أشعار كثيرة من مثل قوله ^(٢) :

رأى عقلٌ ولَّيى فيه حارا فأضرمَ في صَمِيمِ القلبِ نارا
ألا يـالانمى دَغْنى فـلانى رأيت الموتَ حَجًّا واعْتارا
وأهلُ الحب قد سيكروا ولكنْ صحا كلُّ وفِرَقَتنا سُكارى

وهي نار كانت لا تزال مشتعلة في قلوب الصوفية ، نار حميم للذات العلية ، نار لا تنطفئ أبداً في أثناء حبه بل جهادهم الشاق العنيف في هذا الحب ، الذي كانوا لا يزالون يرحلون إليه رحلتهم الصوفية المجهدة حباً وعمرة ، وما يزالون راحلين هالمين مفضين إلى سكر لا يذانيه سكر ، متجردين عن كل رغبة في النفس ، حتى لكأنما تعطل إرادتهم ويموت كل شيء إلا رغبتهم الجامعة في الوجد الراجي .

ويلقانا شعراء صوفية كثيرون في كل طريقة من طرق الصوفية بل إن كثيرين من أصحاب هذه الطرق التي كان يرثها الأبناء عن الآباء كانوا شعراء وبحرى الشعر على ألسنتهم على نحو ما نقرأ عند السادة الوفاة الشاذلية، والسادة البكرية في أيام المالك وأيام العثمانيين من مثل قول علي بن وفا :

تَهَيَّأَ عَنْ عَيْنِي فَفَيْتِكَ شَاهِدِي وَوَجَّهْتُكَ مَشْهُودِي وَمَا عَنكَ عَائِقُ
فَإِنْ غَبَتْ فَلْأَشْبَاحُ مِنْ مِثَارِبُ وَإِنْ لُغَتْ فَلْأَرْوَاحُ مِنْ مِثَارِقُ

ويتلو الشهاب الخفاجي البيتين بطائفة من أشعار أبنائه ويقول لهم أنفس قدسية أُنِصَّتْ عليها العلوم الدنية^(١). ونشأ للصوفية وطرقهم من قديم مریدون كثيرون كانوا لا يزالون ينهون بأصحاب طرقهم وأساتذتهم، وقد يزالون في ذلك، فيطلبون منهم الهداية إلى طريق التقوى والصلاح^(٢).

وكان المديح النبوي يقترن بشعر التصوف من قديم ، ومنذ حسان بن ثابت وكعب بن زهير والشعراء بمدح الرسول ﷺ . وأخذت هذه المدائح تتكاثر منذ القرن الرابع الهجري ، تكاثرت على ألسنة أهل السنة مجدين في الرسول المثل الكامل للمسلم في نسكه وجهاده في سبيل نشر دعوته ورسائله النبوية ، وكذلك على ألسنة الشيعة ذاهبين إلى أن نوره المهدى يتجسد في أنتمهم من بعده . وبالمثل على ألسنة للتصوفة وقد أخذوا منذ الحلاج يشيرون فكرة الحقيقة المهدية وأن الرسول مبدأ الوجود الروحي للحياة الإنسانية ، بل مبدأ النور في الكون ، منه يستمد ضياءه . وقد مضى كل هؤلاء المادحين ينهون بصحابة الرسول وبمعجزاته المادية ومعجزته الكبرى القرآنية ، مع التوسل إليه بطلب الشفاعة يوم العرض وأن يكون دائماً معينا لهم ونورا هاديا . وما زال الشعراء المصريون - مثلهم مثل شعراء العالم الإسلامي ينهون بمدح الرسول ﷺ ، حتى إذا نشبت

الحروب الصليبية ، وكانت حرباً دينية ، أخذ حملة الصليب يهاجمون رسول الإسلام برماثل منكورة ، واندلعت الحروب بين المسلمين وبينهم فكان طيعاً أن يذمر المديح النبوي للرد على أعداء الإسلام من جهة ، ومن جهة ثانية لرفع سيرته العطرة وجهاده في نشر رسالته شعاراً يتخذ منه الذائدون عن حمى الإسلام القدوة الحسنة دالاً فيهم الحماية لدق أعتاق الصليبيين وسحقهم سحقاً ذريعاً . وكاد لا يخلو ديوان شاعر مصري حيثذ من مدحة أو مدائح نبوية ، وخاصة منذ ظهور البوصيري أنه ملاح مصرى للرسول ، بل أنه ملاح عرى له على الإطلاق ، وسنخصه بكلمة ، ولكتيبرين من معاصريه مدائح نبوية طائفة ، ونكتفي بأن نشير من بينهم إلى شيخ الإسلام تقي الدين محمد بن علي المشهور باسم ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ وله أكثر من مدحة نبوية ، ومن قوله في مديحه **عليه السلام** ^(١) :

لم يبق لي أملٌ سواك فإنْ بَقْتُ ودَعْتُ أيامَ الحياةِ وداعاً
لا أَسْتَلِدُّ لغيرِ وجهك منظراً وسوى حديثك لا أريدُ سماها

وكان العزّازي معاصره المار ذكره بين الوشاحين يكثر من المديح النبوي ، ومن قوله في بعض مديحه للرسول الكريم ^(٢) :

أَلْمَيَ النَّبِيْنَ بَرهَانًا وَمَعْجَزَةً وَغَيْرَ مَنْ جَاءَهُ بِالوَحْيِ جَبْرِيلُ
سَلِّ إِلَهُهُ بِهِ سَيْفًا لِلنَّبِيِّ وَذَلِكَ السَّيْفُ - حَقِّي الْحَشَرُ - مَسْلُوبُ
وَيْلٌ لِمَنْ جَعَدُوا بَرهَانَهُ وَتَنَى عَنَّا رُشْدَهُمْ غَيٌّ وَتَضَلُّيلُ

ولابن سيد الناس صاحب السيرة النبوية المتوفى سنة ٧٣٤ للهجرة ديوان خصه بمديح الرسول عليه السلام سماه « بشرى اليب بذكر الحبيب » مخطوط بدار الكتب المصرية . ولابن نياه وبرهان الدين القيراطي مدائح نبوية مختلفة ، ويظل الشعراء يمدحون الرسول الكريم مدائح كثيرة ويتردد ذلك في الحقة المائنة عند الشهاب الخفاجي وغيره ^(٣) ، كما يتردد التوسل به وطلب الشفاعة ، على نحو ما نجد عند عبد الله الإدكاوي من مثل قوله متوسلاً ^(٤) :

(١) القوت ٤٨٧/٧ .
الحلي ٤١٣/٤ وما بعدها ، وقد أشد الهي في كتابه لهذا
كثرة من اللوائح النبوية .
(٢) النبل الصافي ٣٤٣/١ .
(٣) تاريخ المجلد ١/٣٥٣ .
(٤) تاريخ المجلد ١/٣٥٣ .

(٣) وانظر نسخة الرحانة المحي (طبعة هي الباق)

يَاربُّ بِالْهَادِي الشَّفِيعِ مُحَمَّدٍ مَنْ قَدْ بَدَا هَذَا الْوَجُودُ لِأَجْلِ
كُنْ لِي مَعِيًّا فِي مَعَادِي وَاتَّخِضْ هُمْ الْمَعَاشِ وَمَا أَرَى مِنْ ثِقَلِهِ
وَاسْتَرْ بِضَلِّكَ زَلَّتِي وَاغْفِرْ بَعْدَ لَكَ سِتْنِي وَاشْفِ الْحِشَا مِنْ غِلِّهِ

وهو يضرع إلى الله متوسلا إليه بالرسول الشفيع يوم القيامة لأهل دينه أن يكون حونا له في معاده ومعاشه ، وأن يضر له ذنوبه ويسر عيونه ، وحرى بنا أن نتوسع قليلا في الحديث عن بعض شعراء التصوف والمديح النبوي :

ابن الكيزاني^(١)

هو محمد بن إبراهيم الكتاني للمقرئ الواعظ الشافعي ، مصري الدار ، من شعراء الحب الإلهي وما يتصل به من الأحوال والمقامات ، اشتهر باسم ابن الكيزاني ، من شعراء مصر في النصف الأول من القرن السادس الهجري ، إذ توفي سنة ٥٦٢ للهجرة ، وقد رأى ابن سعيد صاحب كتاب المغرب الذي زار مصر في العقد الخامس من القرن السابع الهجري ديوانه يباع بكثرة في سوق الفسطاط وسوق القاهرة ، غير أنه لم يصلنا إذ سقط من يد الزمن ، وقد هُوِّنَ منه العهد الأصهباني في كتابه « الحريدة » طائفة كبيرة من شعره ، تصور إلى حد بعيد مواجده الصوفية ، ونراه يقدم لها بأنه « فقيه واعظ مذكر حسن العبارة مليح الإشارة لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه حلوة وحلاوة .. وله ديوان شعر ينهات الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله ، لما أودع فيه من المعنى الدقيق ، واللفظ الرشيق ، والوزن اللوافق ، والوعظ اللائق ، والتذكير الرائع الرائق . ودفن عند قبر الشافعي » ويقول عنه : عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمقول والمشروع ، مشهور بالتحقيق في علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ومعرفة بالقديم مكنون الحديث إلا أنه ابتدع مقالة ضلُّ بها اعتقاده ، وزلُّ في مزالقتها سَدَّاده ، إذ ادعى أن أفعال العباد قديمة والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة » وهم أشباه الكرامية بخراسان « فهو عالم

والوفاء بالوحيات للصفدي ٣٤٧/١ والنجوم الزاهرة ٣٦٧/٥ ، ٣٧٦ . وراجع مقالنا لنا عن ابن الكيزاني في مجلة الثقافة ، العددين ٦٩٢ ، ٦٩٣ .

(١) انظر في ترجمة ابن الكيزاني وألفاظه المغرب لابن سعيد (قسم الخاص بالفسطاط) ص ٢٦١ وما بعدها ، وذاكرة الخطوط ١٣١٩/٤ والحريدة (قسم مصر) ١٨/٢ وابن خلكان ٤٦١/٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٩٠/٦

بالسنة والفقه والشريعة وبالفلسفة وعلوم الأوائل ، غير أنه صاحب مقالة خاصة تشبه مقالة الكرامية في خراسان . ويقول المقدسي الذي زار مصر في أواخر القرن الرابع الهجري إنه كان لهم محلة بالقسطاط ، ومن الممكن أن تكون هذه المحلة ظلت حتى عصر ابن الكيزاني ، وهو بذلك كان كراميا صوفيا ، أو صوفيا على مذهب الكرامية القائلين بتشبيه على الذات العلية للعباد ، وهو تشبيه كان يقترن بالتزويه ، وتبدو الفكرة مقددة ولكن من الممكن تصورها ، فأتت إذ نشاهد كائنا جميلا ترى فيه خالقك ، مع تزويه عن أن يكون هونفس الكائن الجميل . وليست هذه الفكرة كل ما يميز الكرامية ، فقد كانوا يعتقدون - كما اعتقد الكيزانية - فكرة القدم في أفعال العباد لا في أفعال الله وحدها ، وقد أنكر المهاد ذلك على ابن الكيزاني . وهو والكرامية معه إنما يريدون قدمها في العلم الإلهي ، ومادام العلم الإلهي قديما فهي قديمة مثله . وربما آتفا أن المهاد قال إنه كانت تتبعه بمصر لمعهده في النصف الثاني من القرن السادس الهجري فرقة كانت تعتق نخلته ، ويقول القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ : « لابن الكيزاني بمصر وسواحل الشام فرق تنسب إليه في المعتقد وأكثرهم بحوف مصر » ويقول ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ : « بمصر طائفة ينسبون إلى ابن الكيزاني ويعتقدون مقالته » . وفي ذلك ما يدل على أن مترعه الصوف ظل معروفا بمصر وظل له أتباع طوال القرن السابع الهجري على الأقل . ويبدو أنه كان هناك من يعارضه في حياته وبعد مماته ، فقد ذكروا أن الفقيه نجم الدين الخبوشاني نبش قبره في عهد صلاح الدين وأخرج منه عظامه ، وقال : « لا تنفق مجاورة زنديق إلى صديق » ويقصد بالصديق الشافعي . وقد نقله إلى سفح المقطم ، يقول ابن خلكان : « وقبره مشهور هناك بزار ، وزرته مرارا ، رحمه الله » ويقول ابن تفرى يردى : « لا يلتفت لقول الخبوشاني فيه لأنها أهل عصر واحد ، وتهور الخبوشاني معروف » . وتجمع كتب التراجم على أنه كان ورعا زاهدا ، بل متصوفا متقشفا ، وقد أنشد له المهاد أكثر من ثلاثمائة بيت في الحب الإلهي ، تسيل غلوبة ورشاقة وخفة من مثل قوله :

تَلَدْتُ لِي فِي هَوَى لَيْلٍ مَعَانِي	لَأَنَّ فِي ذِكْرهَا بَرْدًا عَلَى كَبْدِي
وَأَشْتَهِي سَقَى أَنْ لَا يَفَارِقَنِي	لَأَنِّي أَوْدَعْتُهُ بَاطِنَ الْجَسَدِ
وَلَيْسَ فِي النِّوَمِ لِي مَاعَشْتُ مِنْ أَرْبِ	لَأَنِّي أَوْقَعْتُ جَفْنِي عَلَى السُّهْدِ
وَلَوْ تَمَادَتْ عَلَى الْمَجْرَانِ رَاضِيَةً	بِالْهَجْرِ لَمْ أَشْكُ مَا أَتَى إِلَى أَحَدِ
الْوَلَمُ أَشْبَهُ بِي مِنْهَا وَإِنْ ظَلَمْتُ	أَنَا الَّذِي سَقْتُ حَقْنِي فِي الْهَوَى يَلْدِي

ولو أننا لم نعرف قاتل هذا الشر وأنه من الصوفية لظنتاه شاعرا عذريا ، فهو يشكو الصد والمجر ويرمز عن الذات الإلهية بليلى ، ويتأدى فى العتاب ، ملطنا سقمه وسهده ، بل لقد عرض نفسه للموت والملاك . وابن الكيزانى مثله مثل شعراء الحب الإلهى جميعا فقد رفعوا كل الحواجز بينهم وبين أصحاب المنزل العنبرى ، معبرين بما فى غزلهم من حمية واضحة عن رموز ومعان صوفية ، حتى لنرى ابن الكيزانى يقول :

أترعم ليل أننى لا أحبها	وأنى - بلا ألقاه - غيرُ حَمُولٍ
فلا ووقوفى بين آلوية الهوى	وعصيانِ قلبى للهوى وعدول
لو انتظمتنى أسهمُ المجر كُلِّها	لكنْتُ على الأيام غيرَ ملولٍ
ولست أبالى إذ تعلقْتُ حبَّها	أفاضتْ دموعى أم أضُرُّ نُحول
وما عبئى بالنوم إلا نعلُّ	عسى الطيفُ منها أن يكونَ رسول

وهل من فارق بين هذه الأبيات وأبيات الحب العنبرى ؟ إنه ليدكر وقوفه بمعاهد الهوى وعصيانه للمنول أو العواذل وصبره على المجران الألم وما يعانى فيه من البكاء والنحيب والسقم والنحول ، ويأمل فى طيف يزوره فى الحلم ليلاً ، ولكن لنحضر هذا الفهم الظاهرى للأبيات فابن الكيزانى إنما يتخذ ذلك كله رموزاً عن معانى حبه وهيامه بالذات العلية ، وهو هيام لا نهائى غير محدود بحس ولا ما يشبه الحس ، هيام كله لوعة ووجد ، وجد سماوى علوى يتدلج شرره فى كل جسمه وجوارحه وحشاه وهو صابر لا يتألم ولا يشكو ، بل يجد لذة لا يبلغها وصف فى ألّه ، حتى ليبدل دمه فى سبيل حبه طائفا مختاراً ، فهو النور الذى يضىء فى جنبات قلبه وقواده ، وهو الحمز الروحانية التى سرت فى شرايينه ، فلم يعد يملك إزاءها حولا ولا قوة ، يقول :

جرّ كيف شئتَ فلستُ أولَ عاشقٍ كَأَسْرُ الهبةِ فى محبتهِ سُقى

إنه لم يعد فى حال صحو بل أصبح فى حال سكر بالعشق الإلهى الذى لا حدود ولاضاف له ، عشق ما إن يأمل فيه بقاء محبوبه ، حتى يعتمد عنه ، تاركا له الحسرات والدموع ، لقد كان شهوده قاب قوسين أو أدنى ، وسرعان ما طار الحلم وولى الأمل ، ويتأدى ابن الكيزانى :

يا حادى العيسِ اضطرب ساعةً فهجنى سارتْ مع الرُكبِ
لاتخذُ بالتفريق عن عاجل رفقا بقلبِ الهائمِ العُصْبِ

وهو يعبر عن ضياع الأمل في لقاء المحبوب بالرحلة ولوعاتها المضّة في نفوس العشاق تعبيرا رمزيا عن آلامه وأوصابه وأوجاعه النفسية ، فلم يعد يستطيع اللحاق بمحبوبه فضلا عن مشاهدته . وعلى نحو ما يعبر عن ذلك تعبيرا حسيا بالرحلة كذلك يعبر عنه - كما عبر المحبون العفريون طويلا - بكاء الديار والوقوف على الأطلال الدارسة أو العافية ، بمثل قوله :

بِرَبِّكَمَا عَرَجْنَا سَاعَةً نَتَوَخُّ عَلَى الطُّلُلِ الدَّارِسِ
فَقِيضُ اللَّمْعِ عَلَى رَسْمِهِ يَتَرَجَّمُ عَنْ حَرْقِ الْبَائِسِ

ودائما يتعلق ابن الكيزاني بخيط من الأمل في مشاهدة محبوبه ، ونوره يتألق له ولا يراه ، ويبحث عنه بين الأطلال ، ويسأل عنه الييسر ، وهي ملحمة في المسير ، لتلتفت إليه ، وهو هامم على وجهه غارق في دموعه ، ونار الحب تنفذ في أحشائه ، يقول :

يَا مَنْ يَنْتَبُهُ عَلَى الزَّمَانِ بِحَسَنِ اعْطِيفٍ عَلَى الصَّبِّ الْمُشَوِّقِ الثَّانِي
أَضْحَى يَخَافُ عَلَى احْتِرَاقِ قُرَادِهِ أَسْفًا لِأَنَّكَ مِنْهُ فِي سَوْدَائِهِ

ودائما تلقانا عند ابن الكيزاني هذه اللوعة ونارها التي توشك أن تحرق والتي ما يزال يلوقها ويصطلي بها مالكة عليه قلبه مستأثرة منه بكل شيء ، إنه ليس حبا فقط ، بل هو حب ومحنة أو هو سعادة وعذاب ، وهو راض بذلك كل الرضا ، حتى لا يطلب لحبه دواء ولا شفاء + يقول :

اضْرِبُوا عَنِّي طَبِيبِي وَدَعُونِي وَحَسْبِيبِي
عَلَّلُوا قَلْبِي بِذِكْرِهِ هُ فَقَدْ زَادَ لَهْجِي
طَابَ مَتَكِّي فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَاشِي وَرَقِيبِ
لَا أَبَالِي بِفَوَاتِ الثَّمَرِ سَ مَا دَامَ نَصِي
لَيْسَ مِنْ لَامٍ وَإِنْ أَطُ حَبَّ فِيهِ بِمَصِيبِ
جَسَدِي رَاضٍ بِسُقْمِي وَجُفُونِي بِنَحْصِي

إن الداء هو نفس الدواء وإن العلة هي نفس الشفاء ، وهو لا يفكر في بزه من علة أو داء ، لأنها سعادته الغامرة ، وحقاً إنها يثيران حرقاً في قُراده ، غير أن ما يشره معها من رحين المحبة الرابنة المصنّى ينسب الحريق وناره المتظلمة التي لاتنطفئ في سويداء قُراده أبداً .

ابن الفارض (١)

هو عمر بن كمال الدين على الفارض ، كان أبوه من حاة سوريا ، هاجر منها في مطالع شبابه إلى القاهرة ، وفيها رزقه الله ابنه عمر سنة ٥٧٦ للهجرة ، فهو مصرى المولد والنشأ والمرى والحياة . كان أبوه من علماء الفقه والشرعية ولُقّب بالفارض لكتابه الفروض على النساء والرجال . ولي نيابة الأحكام بالقاهرة والفسطاط ، ويقال إنه عُرضت عليه وظيفة قاضى القضاة فأبأها ولزم قاعة الخطابة بالجامع الأزهر يتسك ، وعُنى بابنه فألحقه بدروس العلماء بالعلوم الشرعية واللسانية ، حتى إذا شبّ دفعه إلى التقوى وعبادة الله ومعاشرة المستضعفين من التصوفة في الجبل الثانى من المقطم ، وهناك أخذ عمر يتجرد للعبادة والنسك . وأحسُّ برغبة شديدة للمقام بمكة مهبط الوحي على الرسول ﷺ فرحل إليها ، ومكث بها خمسة عشر عاما ساعيا في أوديتها عابدا الله ناسكا مؤملا في أن تفيض عليه الفتوحات الإلهية ، مكثرا من الصلاة والصيام ، حتى نُصحت له الأبواب المغلقة ، وشعر كأنه في مقام الشهود للذات العلية . وعاد إلى وطنه ، غير أنه ظل يأسى لفراقه مهبط فتوحاته الإلهية بمثل قوله :

باسمى رُوح بمكةً روحى شادياً إن رغبَ في إسعادى
كان فيها أنسى ويمرّاجُ قُنى ومقامى المقامُ والفتحُ بادية

ولزم مناسك العبادة وخاصة وادى المستضعفين بالمقطم والجامع الأزهر ، يذكر الله ويسبحه ويعبده حتى عبادته ناسكا خاشعا متضرعا ، شاعرا من وقت إلى آخر أنه أصبح في مقام الشهود لربه ، فيشخص بصره ويغيب عن كل ماحوله غيبة قد تطول أياما وهو لا يسمع صوتا ولا يرى أحدا ولا يشرب ولا يطم ولا ينام ، فقد غاب عن كل حواسه وغمره نور شهوده للذات العلية . ومضى يعكف على التقوى والنسك والصلاة ، وشاع أمره في القاهرة فكان الناس يزدحمون عليه إذا سار في الطرقات يلتمسون منه الدعاء ، وهو غائب عنهم ، مشغول بحبه لربه وما ينظم في هذا

للكثير محمد مصطفى طس وكتابه فصول في الشعر ونقده ص ١٩٧ وما بعدها . وديوانه طبع بمصر مرارا طبعا مستقلة ، وطبع مع شرح عبدالحى النابلسى وهو شرح صوفى رمزى ، ومع شرح حسن البورسوى على ظاهر اللفظ دون تأويل .

(١) انظر في ابن الفارض وزججه وأشعاره النجوم الزاهرة ٢٨٨/٦ وابن خلكان ٤٥٤/٣ وميزان الاحتيال ٢١٤/٣ وصبر الدمى ١٢٩/٥ والبداية والنهاية ١٤٣/١٣ ولسان الميزان ٣١٧/٤ وشذرات الذهب ١٤٩/٥ وحسن المحاضرة ٥١٨/١ وكتاب ابن الفارض والحب الإلهى

الحب من أشعار لعلها أروع مانظمه الصوفية في حبه الملهي ، حتى لُقّب بحق سلطان العاشقين للذات الربانية . وهي أشعار تموج بوجود ملتحاح لحدود له ، متخذاً لذلك لغة العشاق العذريين ومايذكرونه من معاهد المحبوبة يريد معاهد مكة التي هبط عليه فيها النور الملهي ، وأيضا مايذكرونه من نسيم العبا المحمل بشذى المحبوبة ، وهو في أثناء ذلك يئن ويروح آملاً في الوصال وأن يشرق عليه النور الرباني ، متجرعاً غصص الهجر والصد والسهاد ، ويصبح فيمن تحدته نفسه بسلوك هذا الطريق المحفوف بمالاً يحصى من الأشواك والصعاب :

هو الحب فاسلم بالحنّاء الهوى سهلُ فما اختاره مُضَيٌّ به وله عقلُ
وعشْ خالٍ فالحبُّ راحته عتاً وأوله سُقمٌ وآخره قتلُ

وهو لا يريد القتل الحقيقي ، بل يتخذ رمزاً للحظات الفناء في الذات العلية حين يتجرد الصوفي - مثل ابن الفارض - من حواسه ومن كل وجوده فلا يشعر بزمان ولا بمكان ، وكأنما غاب عن حياته ، بل كأنما مات بسبب حبه شهيداً ، وهو موت لا يتحقق تصوف بدونه ، حتى ينمحي المتصوف في الذات الربانية ونورها الملهي ، وحتى لا يرى في الوجود سوى ربه المائل في الكون وكائناته وكل شيء فيه ، يقول :

تراه - إن غابَ عني - كلُّ جارحةٍ في كلِّ معنى لطيفٍ راتني بهج
في نعمة العود والثاني الرّخيم إذا تألقا بين ألحانٍ من الهَرَج^(١)
وفي مسارح غزلان الخمائل في برّد الأصائل والإصباح في البلج^(٢)
وفي مساقط أنداء الغمام على بساطِ نَوَرٍ من الأزهار مُتَسِج
وفي مساحب أذبالٍ الثّبير إذا أهدى إلى سُحُرا ، أطيبَ الأرج^(٣)

فهو يرى الله وجلاله وجماله مائلاً في جميع أركان الكون وعناصره : في أنغام العود والثاني المرافقة لألحان المزج ، وفي مشهد غزلان الرّياض وقد انتعشت قلوبها بأنفاس الأصيل والصبح ، وفي الأزهار والورود مساقط أنداء الغمام وهي متناثرة هنا وهناك على أبسطها الطيّبة البيجة ، وفي النسيم يملأ الجو سحرًا بشذاه وأريجها العطر . وابن الفارض لا يعبر بذلك ومثله في أشعاره عن إيمانه

(٣) الأرج : الشذى والرائحة العطرة .

(١) الرخيم : اللين الناعم .

(٢) البلج : أول إسفار الصبح وانتشار الضوء .

بوحدة الوجود التي كان يؤمن بها غلاة الصوفية من أمثال ابن العربي معاصره ، فهو إنما يريد أن يقول إن نور الله منبث في الكون بجميع كائناته وعناصره ، متجل في كل مناظره ومشاهده ، وذلك هو سر وجوده وهيامه وولمه بربه ، يريد أن يشرق عليه ضياء جماله . ويظل يحلم بشهوده حلما متصلا بمجاهدا في سبيل ذلك محتملا من العذاب ما يطاق وما لا يطاق ، متغنيا بالجمال الرباني وما يصلى فيه من هجر ، هانفا من قواده :

نَهْ دَلَالًا فَأَنْتَ أَهْلٌ إِذَاكَ وَنَحْكُمُ فَالْحَسَنُ قَدْ أَعْطَاكَ
وَتَلَاقَ إِنْ كَانَ فِيهِ اتِّلَاقَ بِكَ عَجَلٌ بِهِ جُمِلْتُ فِدَاكَ
فَقَدْ أَهْلُ الْجَمَالِ حُسْنًا وَحُسْنِي فِيهِمْ فَاقَّةٌ إِلَى مَعْنَاكَ

وهو يضيف إلى الذات العلية التحكم والدلال على طريقة أصحاب الحب العنري ، ولا يلبث أربيع الحب الصوفي أن يعقب في البيت الثاني ، فهو يطلب أن يتلف في حبه مادام في تلفه اتلافا بربه المحبوب ، وهو لا يريد التلف الحقيقي إنما يريد الفناء المطلق في ربه وجماله الذي يفوق كل جمال ، بل إن كل جميل ليفتقر إلى جماله المتجل في الكون بنوره . وعلى نحو اتخاذ ابن الفارض للنزل العنري رمزاً لحيه الصوفي نراه يتخذ الخمر ونشوتها رمزاً لهذا الحب ، ولا خمر ولا كوس ولا دنان ولا سقاء ، وإنما هو جمال الذات الإلهية الذي شغف به حتى ليقن كأنما نهل من شراب قدسي مسكر ، فهو سكران دائما منتشي غائب عن وجوده . ومن قوله في ذلك من قصيدة بديعة :

شَرَبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرَمُ
لَهَا الْبَذَرُ كَأْسٌ وَهِيَ شَمْسٌ يُدِيرُهَا هَلَالٌ وَكَمْ يَدُو - إِذَا مَرَجَتْ - نَجْمُ
وَأَنْ خَطَرْتُ يَوْمًا عَلَى خَاطِرِ امْرِئٍ أَقَامَتْ بِهِ الْأَفْرَاحُ وَارْتَحَلَ الْهَمُّ
وَلَوْ نَفَّحُوا مِنْهَا قَرَى قَبْرِ مَبِيتٍ لَعَادَتْ إِلَيْهِ الرُّوحُ وَاتَّمَشَ الْجِسْمُ

وهو يقول إن سُكْرَهُ بتلك المدامة أو الخمر قديم أقدم من الوجود ، وهو يشير إلى فكرة الحقيقة المحمدية التي يذهب التصوفة إلى أنها تسبق نشأة الكون ، وأن أضواءه مازالت تنفيض من تلك الحقيقة في نفوس الأنبياء ونفس الرسول ﷺ ونفوس التصوفة من بعده حتى تجلت في ابن الفارض ، ومن هنا يقول إن سكره بها ونشوته يسبقان الخليفة . ويقول إنها تجلب الفرح وتطرد

الهم ، ونحى الروح لاجازا بل حقيقة ، فلو صبوها على قبر ميت لعادت إليه الروح ودبت فيه الحياة . ونمضى فيقول : إنها صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هواء ، ونور ولا نار ، وروح ولا جسم . خمر ربانية لا تشوبها أى شائبة مادية ، خمر ينشئ بها ابن الفارض وأمثاله فيغيثون عن وجودهم غيبة كلها متاع وكلها نعيم لا حدود له . ودبوانه كله من هذا الطراز انتشاء وسكر وحب ووجد ووله والنياع ، وتطول إحدى قصائده حتى تبلغ سبعائه وستين بيتا أو تزيد ، وهى تائية ونسى التائية الكبرى لأن له بجانبها تائية صغرى ، وهو فيها يصور معراجة القدس بمكة وقضه التي هبطت عليه هناك وانعماؤه حيثذ في الحقيقتين : الإلهية والمحمدية ، حتى ليتكلم في بعض أجزاء القصيدة باسمها ، وهو يستلها ببيان شربه من كأس المحبة الربانية ونشوته بها وما تجشمه في معراجة من أهوال وعطوب وعمن ، وكلها كما يقول منح من ربه وعطايا اجتازها في معراجة ، خالصا إلى الانعماه والفناء في الذات العلية حتى ليقول :

ولم تَهَوَّنِي مالم تكن في قانياً ولم تَفْنَ مالم تُجْتَلَبْ فك صورتي
كلانا مُصَلٌّ واحدٌ ساجدٌ إلى حقيقته بالجمع في كل سَجْدَةٍ
وما كان لي صُلَى سوايَ ولم تكن صلاتي لغيري في أَدَا كل رَكْعَةٍ

وكانه يشعر في البيت الأول أنه لا يزال دون الحب الإلهي لانصاله بل لانصافه بالصفات البشرية . ويقول في البيت الثاني إنها ينبغي أن تُنمحي فيه حتى يغنى في الذات الربانية وتتجلى فيه الصورة الإلهية ، وما يلبث أن يقول في البيت الثالث إن حواسه تعطلت وتعطلت فيه كل إرادة وشعور ، حتى فنى فناء مطلقا في ربه ، متخطيا مرتبة الصحو إلى مرتبة الشهود أو كما يسميها الجمع ، وكأنما يصل لنفسه أو لربه متجليا فيه ، يقول :

وطاحَ وجودي في شهودي وبُثْتُ عن وجودِ شهودي ماحباً غيرَ مثبتٍ
وفي الصُّخْر بعد الحَرِّ لم أَكْ غيرِها وذاني بذاني إذ تجلَّتْ تجلَّتْ

فهو قد انمحي وفنى فناء كلياً في الذات العلية ، وبلغ من هذا الانعماه والفناء أعلى مراتبه ، إذ لا يعتره في حال المحو والغيبة مع الشهود للنور الرباني ، بل أيضا يعتره في حال الصحو ، فهو دائما محوٌّ قائم في الذات الإلهية . وهو دائما يعلن أنه متمسك أشد التمسك بالكتاب وأداء الفرائض

الدينية وبالسنّة والحديث النبوي ، فمنها يستمد في كل موارد الروحية . وقد أشار مرارا إلى أن لب تصوفه وما يذهب إليه من عقيدة الفناء في الذات الربانية إنما يصدر فيه عن الرسول ، يقول :

وجاء حديث في اتحادى ثابت رويته في الثقل غير ضعيّة
يشير بحب الحق بعد تقرب إليه بفعل أو أداء فريضة

وهو يشير إلى الحديث النبوي المشهور : « ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبيته ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها .. وإن سألني أعطيته ، ولئن استأذني لأعذنه » . وفكرة الانغماء والفناء واضحة في الحديث ، ولعل في ذلك ما يشير بوضوح إلى أن تصوف ابن الفارض وأمثاله إنما كان تصوفاً إسلامياً خالصاً . وما زال يتسلك لربه حتى وفاته سنة ٦٣٢ للهجرة .

البوصيري^(١)

هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد ، كان أبوه من بوصير وأمه من دلاص ، فكُون لنفسه من اسم بلديها لقباً هو الدلاصيري ، غير أن اللقب الذي غلب عليه ، وبه اشتهر ، هو البوصيري . واختلف م ترجموا له في تاريخ مولده كما اختلفوا في تاريخ وفاته ، والأرجح أنه ولد سنة ٦٠٨ وتوفي سنة ٦٩٨ وفي بل ولد سنة ٥٩٨ وتوفي قبل السنة السابعة قبل سنة ٦٩٤ أو ٩٥ أو ٩٦ أو ٩٧ وقيل بل سنة ٦٨١ والصحيح ما رجحناه . واختلف مثل لداته إلى الكتابات حتى حفظ القرآن الكريم ، ثم انتظم في حلقات الشيوخ يأخذ عنهم علوم الشريعة واللغة ، ويبدو أن ميوله الأدبية انتضحت فيه مبكرة وفتحت في نفسه ملكاته الشعرية ، مما جعله يتنظم فيمن يعملون في الكتابة الديوانية ، وعين في دواوين بلييس بالشرقية . ومر بنا هجاؤه للموظفين هناك وتسجيله عليهم

والخط المجلد لمل مبارك ١٠/٨ وكتابتا فصول في الشعر ونقده ص ٢٢٩ - ٢٥٤ . ودواين (طبعة الحلبي) بتحقيق محمد سيد كيلاني . وأورد بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي ٨١/٥ ترجمات برده إلى اللغات الأجنبية ونخباتها وتطبيقاتها وشروحها المختصة وكذلك المنزعة .

(١) انظر في البوصيري وحياته وأشعاره الفوات ٤١٢/٢ والواف بالوفيات للصفدي ١٠٥/٣ وحسن المحاضرة ٥٧٠/١ وشلوات الذهب ٤٢/٥ ومقدمة ابن حجر الميمني على شرح مدحه المعزية النبوية ولطائف الفن لابن طه الله السكندري وطبقات الصوفية للشمري ١١/٢ وما بعدها ،

الحياة للدولة وأكل أموال الناس بالباطل . ويبدو أنه زهد في العمل معهم سريعا وعاد إلى القاهرة ، محترفا إقراء القرآن للصيبة وبعض الفتية في مسجد الشيخ عبد الظاهر ، وكان مسجدا مغمورا وتصادف أن أمر الملك الصالح في أثناء توليه لمقاليذ الأمور بمصر (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ) بتوزيع ألف دينار على طلبة العلم . ولم يصب منها مسجده المغمور وطلابه شيئا ، فنظم على لسان المسجد شكوى للملك الصالح استلها بقوله :

ليت شمرى مامْتَضَى حِرْمَانِي دون غيمى والألفُ للرَّحْمَنِ
أترانى لا أَسْتَحِقَّ لكوني جامعاً شملَ قارئِ القرآنِ

ونراه كثير الرحلة إلى البلدان المصرية والاتصال بمن فيها من الولاة ، وله فيهم بعض المدائح وكذلك في بعض وزراء الدولتين الأيوبية والمملوكية وفي بعض الأمراء والسلاطين ، ويبدو أنه كان يضطر للمديح اضطرارا ، ليوفر لأولاده الكثيرين الطعام والثياب ، ويصرح بذلك مرارا في مديحه بمثل قوله :

إليك نشكو حالنا إنا عائلة في غاية الكثرة

وكما تلقانا في أشعاره المبكرة أهاج مختلفة لموظفي الشرقية تلقانا عنده دعابات مختلفة تصور المزاج المصرى المعروف بالميل إلى الفكاهة والنادرة ، وربما أراد بشكواه في مدائحه من فقره ويؤسه إلى الدعابة ، ويقول :

ولو أتى وحدى لكنتُ مريداً في رباطٍ أوعابداً في مَنَازرة

وكانه كان يشعر في أعماقه بأنه خلق لايكون إنسانا يضطرب في الحياة ومشاغلا اليومية ومكاسها الضرورية له ولأسرته ، وإنما ليكون عابدا ناسكا في رباط صوفى أو في كهف يخلو فيه للنسك والعبادة . ويبدو أنه مدَّ إحدى رحلاته إلى الاسكندرية وتعرف على أبى الحسن الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية المشهورة ، وانتظم في سلك مريديه وطريقته الصوفية ، حتى إذا خلفه أبو العباس المرسى على الطريقة ظل يلزمه ، حتى عُدَّ ثانى اثنين من تلاميذه هو وابن عطاء الله السكندرى ، وفي ديوانه قصيدة دالية يمدحه بها ، ويعزيه في شيخه أبى الحسن حين توفى سنة ٦٥٦ ويشيد به إشادة رائمة إذ كان من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب ، يقول :

اسْئَلْ طَرِيقَ مُحَمَّدٍ شَرِيعَةَ وَحَقِيقَةَ مُحَمَّدٍ الْمُحْتَدِ
 اِنْ اِلَامَ الشَّاذِلِيَّ طَرِيقَهُ فِي الْفَضْلِ وَاضْحَةً لَعَيْنِ الْمُهْتَدِي
 قَطْبُ الزَّمَانِ وَغَوْنُهُ وَإِمَامُهُ عَيْنُ الْوُجُودِ لِسَانُ سِرِّ الْمَوْجِدِ

فهو قطب الزمان وإمامه ، وعين الوجود إذ كان يؤمن المتصوفة بأن القبس الإلهي المبثوث في الأنبياء نُقل إليهم وإلى أئمتهم ، ويقول إنه من أهل الشريعة المحمدية والحقيقة الصوفية ويشير إلى أنه سليل الرسول ﷺ فهو محمدى نسا وحقيقة صوفية وشريعة إسلامية .

ويبدو أن البوصري منذ صلته بالطريقة الشاذلية لم ينتج بأشعاره نحو المحبة الإلهية على نحو ما اتجه ابن الفارض ، بل اتجه إلى المديح النبوي ، وبلغ فيه ذروة لم يلفها أحد قبله ولا في زمنه ، فقد نظم فيه ديواناً رائعاً . وكان الصليبيون ، شامت وجوههم ، يكتبون رسائل ضد الدين الحنيف وصاحبه ، فرد عليهم طويلاً في مديحه النبوي ، وأفرد لرد عليهم وعلى اليهود قصيدة طويلة في نحو مائتين وسبعين بيتاً ، داحضاً افتراءاتهم على الرسول الكريم ناقضاً ما ادعاه النصارى من ألوهية المسيح وصلبه وما جاء في التوراة المخترقة من ارتكاب الأنبياء للمعاصي ، وسمى قصيدته « المخرج والمردود على النصارى واليهود » ويتحدث في حاشية فياضة عن صفات الرسول وسيرته ومعجزاته الباهرة وانتصاراته الساحقة على أعدائه وأعداء الله . ويكثر من المديح النبوي ومن التنويه بالخلفاء الراشدين وبالصحابة وآل البيت مصوراً في الرسول أزالة النور المحمدي المعنوي كُلب الوجود وروحه ، وكأن للرسول وجودين هذا الوجود المعنوي الذي يستمد منه الكون وجوده والذي تعاقب في الأنبياء منذ آدم ، ووجود ثان حسي مادي هو وجوده حين وُلد ثم بُعث بشيراً ونذيراً ، وبذلك اتحد المعنى والصورة أو قل الحقيقة المحمدية الأزلية وصورة الإنسان ، على نحو ما نقرأ في قوله :

مُحَمَّدٌ حُجَّةُ اللَّهِ الَّتِي ظَهَرَتْ بِسَمِّ مَا هَا فِي الْخَلْقِ تَحْوِيلُ
 مِنْ كَمَلِ اللَّهِ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ فَلَمْ يَفُكْ عَلَى الْحَالَيْنِ تَكْوِيلُ
 مِنْ آدَمَ وَلَحْنِ الْوَضْعِ جَوْهَرُهُ الـ حَكُونُ فِي أَنْفَسِ الْأَصْدَافِ مَحْمُولُ
 فَلِلنَّبْوَةِ إِتْمَامٌ وَمُبْنَدٌ بِهِ وَلِلْفَخْرِ تَعْجِيلٌ وَتَأْجِيلُ

ودائماً يعصف الحنين بقلبه إلى زيارة مكة والمدينة عصف الوجد المتلذذ ، ودائماً يردد معجزات

الرسول وجهاده في غزواته ، ودائما يكرر حقيقته الأزلية ، حتى لكانه مبدأ الوجود ومبدأ النبين وأيضاً خاتمهم ، يقول :

كان سيرا في ضمير القيب من قبل أن يُخلقَ كونٌ أو يكونا
تشرق الأكوأ من أنواره كلما أودعها الله جينا
ختم الله النبين به قبل أن يجبل من آدم طينا
فهو في آبائهم خير أب وهو في أبنائهم خير أبينا

فهو السر الأول في الكون أو هو العلة الأولى ، خُلِقَ قبل الكون وخلق قبل أن يُجبل أو يخلق آدم ، وكل نور في الكون مستمد منه ، وهو مبدأ الأنبياء ومنتهاهم ، وهو أبوهم المعنوي الأزلي ، فيه تبدأ الحياة وإليه تنتهي . ويكثر البوصيري في مدائمه النبوية من الضراعة للرسول أن يقبل توبته وأن يكون شافعه يوم القيامة حتى ينال رضوان ربه وغفرانه .

ويشتهر البوصيري بمدحه النبوية المسماة بالهمزية وقد سماها « أم القرى في مدح خير الروى » وهي في نحو أربعائة وخمسين بيتا وعُني كثيرون بشرحها ، وهو فيها يحمل سيرة الرسول حتى يوقد حمية الشباب المحاربين للصليين ، ويفتحها بفكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول سر الوجود ونوره الذي يفيض على الكون وعلى الأنبياء من قديم ، يقول :

كيف تَرَقَى رَقَبُكَ الْأَنْبِيَاءُ يَا سَمَاءُ مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ
إِنَّمَا مَثَلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّاسِ كَمَا مَثَلُ النُّجُومِ الْمَاءُ
أَنْتَ مَصْبَاحُ كُلِّ فَضْلٍ فَاصْصَدِرْ إِلَّا عَنْ ضَوْثِكَ الْأَضْوَاءُ

فالرسول لا تبلغ منزلته ودرجته الرفيعة منزلة أى نبي أو رسول ، إنه في أعلى عليين ، وكل رسول إنما مثّل جانباً من صفاته الربانية ، كما تمثّل النجوم المتراصة على صفحة الماء النجوم على صفحة السماء . وإن كل ضوء ونور في الكون يستمد من مصباحه ، فهو منبع كل نور ومصدره . ويتحدث عن مولده وما اقترن به من دلائل النبوة ، ويفيض في الحديث عن سيرته حتى مبعثه ، ويعدد بعض معجزاته الباهرة وفي مقدمتها الإسراء ، ويصعد جهاده الباسل في نشر دينه ، ويرد على النصارى واليهود افتراءاتهم على الدين الخفيف ، ويعرض بعض معتقداتهم الفاسدة ، ويلم بعداء اليهود للإسلام وحرهم لرسوله . ويصور حجته إلى مكة وأداء المسلمين

لناسك الحج . وبنوه بمواقف كبار الصحابة وبالصحابة جميعا وبأستاذيه الشاذلى وخليفته
أبى العباس الرضى ، ويتضرع فى أثناء ذلك للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه فى محو ذنوبه .

وأروع من هذه المدحة النبوية مدحة للبية المساة بالبردة وقد عارضها كثيرون ويقال إنه كان
قد أصابه قالج ، فنظم هذه القصيدة وأخذها شفيعا لدى الله كى يعافيه ، وظل يكرر إنشادها
ويكى ويدعو ويتوسل ، ونام فرأى النبي ﷺ يمسح على وجهه يده المباركة ويلقى عليه بردة ،
وانتبه فوجد نفسه معافى ، وشاعت القصة وسميت القصيدة البردة . وهو يفتحها منزلا بمجازية
من ذى سلم أشعلت الحب فى قلبه ، وهو إنما يتخذها رمزا لوجده اللئاع بحب الرسول عليه
السلام ، ويلم بأصل من أصول الطريقة الشاذلية . وهو كبح جراح النفس وردّها عن شهواتها .
ويتحدث عن فضائل الرسول مبتدئا بفضيلة الزهد وكيف أنه لولاه لم تخرج الدنيا من العدم
ويسترسل فى تصوير الحقيقة المحمدية الأزلية قائلا :

فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقِهِ وَفِي خَلْقِهِ وَلَمْ يَدَانُوهُ فِي عِلْمِهِ وَلَا كَرَمِهِ
وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مَلْتَمَسٌ غَرَقًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدَّيَمِ
فَإِنَّهُ شَمْسُ فَضْلِهِمْ كَوَاكِبُهَا يُظْهِرُنْ أَنْوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ

فهو يفوق الأنبياء صورة وخلقا وعلا وكرما وكلهم يلتمس من علمه وحكمته ويستمد من
نوره ، فنوره يتجلى فى الأنبياء جميعا ومها تعددوا فى الأزمنة فلانهم شخصية واحدة وحقيقة
واحدة هى الحقيقة المحمدية . وبفيض البوصيرى فى بيان معجزات الرسول ، وخاصة القرآن
معجزته الكبرى كما يفيض فى بيان جهاد الرسول وصحابته لأعداء الرسول ودينه الحنيف حتى
استسلموا صاغرين . ويضرب للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه كما يضرع لله أن يلطف به فى
دنياه وآخرته . ولا تزال هذه القصيدة وأختها الهزلية تنشد إلى اليوم فى حفلات الموالد وحلقات
الذكر الصوفى وله بجانبها فى المدايح النبوية أناشيد أخرى رائعة .

محمد بن أبي الحسن^(١) البكري الصديقي

من سلالة أبي بكر الصديق بمصر ، ولد بها سنة ٩٣٠ وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وأقبل على حفظ المتن والتلقى على شيوخ عصره يأخذ ماعندهم ، وكان أستاذه الأول أباه ، وجلس مكانه في الجامع الأزهر للتدريس بعد وفاته وعمره لا يتجاوز إحدى وعشرين سنة ، وكان يدرس لطلابه فقه الشافعي ، وله شرح على متن أبي شجاع . وكان آية في العلم والزهد واشتهر بتعمقه في العلوم الشرعية واللغوية والصوفية ، وورث عن أبيه مشيخة السادة البكرية وله بناجي ربه :

رَبُّ إني عَبْدٌ ذليلٌ ضعيفٌ فِلحَالِ باللطف منك تداركُ
كُلُّ قَطْرِ أصابني منك بَحْرٌ كيف والحالُ في تجرى بباركُ
كُلُّ جزءٍ مني لسركَ دارُ عَمَرُ الله يا حبيبي دياركُ
من رآني رآكَ من غير شكٍ أيُّ شكٍ وقد جعلتُ مزاركُ

وتمثل في الآيات مثولا بينا فكرة الاتحاد بالذات الربانية المعروفة عند المتصوفة وما يتبعها من فكرة الفناء ، فناء الإنسان عن صفاته البشرية ، وهي فكرة رأيانها واضحة عند ابن الفارض : وله قصائد كثيرة يصف فيها حبه ومواجهه الروحية من مثل قوله :

حَبِيْبُ داني رقيب قريبُ فاذا البكاء وماذا الثَّجيبُ
نعم هو داني ولكنني بَعِيدُ فقيدُ طريدُ غريبُ
بُكَائي على لآني بُليتُ بداء الصدودِ وعزُّ الطيبُ

وعلى هذا النحو دائما هو واله ملتاع يبني الوصال ، ومحبوه قريب منه ، بعيد لأنه لا ينيله أمنيته من الوصول وهو لذلك دائم القلق ، ويث والحبوب منصرف عنه معرض . وهو يهتف

للبيروسي (طبع بنده) ص ٤٦٤ وكتاب بيت الصديق
للسيد محمد توفيق البكري وما ذكره من مراح .

(١) انظر في محمد بن أبي الحسن رعاية الألبا للشافعي
٢٢٠/٢ وأكمل الترجمة بعد ترجمته لابن أبي المواهب ص
٢٢٣ وراجع شلوات اللهب ٤٣١/٨ والنور السافر

وينادى آملا. راجيا ويردد ما رده ابن الفارض وغيره من الصوفية قبله . من الحديث عن مدامة الحب الإلهي ورجفه المسكر للصوفية .

وللبكري استغاثات كثيرة بالرسول ﷺ حبيب الله خير مبعوث قرّبه الله إليه ، وسره الأعلى الذى لا ينجب أمه ، والذى ينال سؤله اللانث . ومن قوله فى إحدى استغاثاته :

يا أكرمَ الخلق على ربِّهِ وخيرَ من فيهم به يُسألُ
قد مَسى الكربُ وكم مرة فُرِجَتْ كَرْبًا بعضُهُ يُذهَلُ
وأنتَ بابُ الله أىِّ امرئٍ أتاه من غيرِكَ لا بدخلُ

ويضيف فى استغاثاته بالرسول إلى تفريج الكرب عنه وإقائه من عثراته الشفاعة له من ذنب يوم المحشر بما أوتى من محبة الله ورؤيته له فى عروجه إلى السموات .

٥

شعراء الفكاهة

من أهم ما يميز مصر قديما وحديثا ميل أهلها إلى الفكاهة والتندير والدعابة ، وقد صورنا ذلك تصويرا جامعا فى كتابنا « الفكاهة فى مصر » مستعرضين هذه الخصلة فى مزاج المصريين من عصر الفراعنة حتى العصر الحديث . ونراها واضحة طوال هذا العصر . بل منذ أن وجدت مصر شخصيتها الأدبية زمن الدولة الطولونية على نحو ما يتضح من نيز شاعر بلقب الجمل الأكبر ، وخلفه شاعر كان يلقب بالجمل الأصغر ، ويقول ابن سعيد . « كان ينحرف فى الظرافة والتطايب منحى الجمل الأكبر ^(١) » . ولا يلبث أن يقول فى سعيد القاص شاعر الإخشيد الملقب هو الآخر بقاضى البقر : « من شعراء الإخشيد وزاد اختصاصه لديه بما كان فيه من الحلاوة والتندير والمزل ^(٢) » . وإذا مضينا إلى زمن الدولة الفاطمية وجدنا ظاهرة التبز بالألقاب دعابة للشعراء

تسع ، إذ ينز غير شاعر بلقب غريب كما بوضع ذلك كتاب الخريدة للعاد الأصهباني إذ يلقانا فيه شاعر لُقِّب بِشَلْمَعٍ وثان بالوضيع وثالث بالكاسات ورابع بالجهجهان وخامس بالنساس إلى غير ذلك من ألقاب .

ومن أوائل الشعراء في هذا العصر ابن وكيع التنبسي ومرت في الفصل الماضي مربعة مزدوجة له ، جعل موضوعها غزله بفلام مسيحي ، وقد مضى فيها بداعبه ، منذرا له ، إن ظل هاجرا ، أن يشكوه إلى القساوسة وينسح في ذلك محتجا بتعاليم المسيح ووصايا متى ولوقا ومرقس ويوحنا ، ويقول إنه سيشكوه إلى الأسقف فإن لم يقطع عن هجره شكاه إلى المطران ، فإن لم يكف شكاه إلى البطريرك . وكانت تقترن بهذه الفكاهة سخرية شديدة بالفاطميين ووزرائهم عرضنا لها في حديثنا عن المهجاء . وأدى هذا الميل إلى السخرية والفكاهة والرغبة في التندير بالمصريين إلى الاتساع في القذف بسهام التورية ، وهي تكثر في سماء أشعارهم طوال هذا العصر حتى لنشبه النيازك التي يكثر إلقاؤها إلى الفضاء في الأعياد ، فلاتزال النيازك تلقى ليلة العيد ، ولايزال الشعراء المصريون يرمون بتورياتهم قلحا ومدحا وغزلا على كل لون من مثل قول الشريف العقيلي مثنيا على زامر ونايه أو ناياته ^(١) :

وزامر يكذبُ فيه عائبهُ تكثرُ في صنته عجائبهُ
يحجب صبرَ المرء عنه حاجبُهُ كأنما نايابُهُ ذوائبهُ

والتورية واضحة في حاجب وذوائب . ومن تعلقوا بصنع التورية في الحقبة الفاطمية ابن قادوس - كما مر في غير هذا الموضع - ومثله قر الدولة جعفر بن دؤاس ، وله يقول في ابن أفلح أحد الكتاب الشعراء وكان شديد السواد ^(٢) :

هذا ابنُ أفلحَ كاتبٌ منفرَّدٌ بصفاته
أقلامُبه من غيره ودوائبه من ذاته

ونلقانا بجانب التورية دعابات كثيرة للشعراء في زمن الفاطميين ، يداعبون بها زملاءهم من الشعراء وأصدقاءهم من الكتاب والعلماء والأطباء ، من ذلك دعابة مشهورة للقاضي الجليس

شاعر الفاطميين ووزيرهم طلائع ابن رزيك وجّه بها إلى طيب تمهّده وكان محمّوماً ، فلم ير أعلى بدية وفيها يقول (١) :

وَأَصْلُ يَلْتَقِي مَنْ قَدْ غَزَانِي مِنْ السُّقْمِ الْمَلْحِ بِعَسْكَرَيْنِ
طَيْبٌ طَيْبٌ كَثْرَابٍ بَيْنِي يَفْرُقُ بَيْنَ عَافِيٍّ وَبَيْنِي
أَنْيَ الْحُمَى وَقَدْ شَاحَتْ وَبَاخَتْ فَرْدٌ لَهَا الشَّابُّ يَنْسَخَتَيْنِ
وَدَبَّرَهَا بِشَدْبِيرٍ لَطِيفٍ حَكَاهُ عَنْ سِنَانٍ أَوْ حَتَّيْنِ (٢)
وَكَانَتْ نَوَّةً فِي كُلِّ يَوْمٍ فَصِيرُهَا بِحَلْقٍ نَوَّاتَيْنِ

والجلیس يداعب الطیب فبدلاً من أن يصله بعافيته فرق بينها ، ويقول إنه جاء في أواخر الحمى وقد شاحت وباحت أو فترت فإذا هو يردّها لها الشاب بورقين من سقوف الدواء أو كما يقول بنسختين ، وكأنما أحكم تدبيره في ردّ قوة الحمى إليها فإذا هي لاتعاوده في اليوم نوبة بل نويتين . ولعل القارئ لم ينس ابن اللّروی في الحقة الأبوية ووصفه لحدة ابن أنى حصينة وصفا ساخرا لاذعا . ومن طريف ما تقرأ من دعابات في هذه الحقب دحابة البهاء زهير مع أحد أصدقائه ، وقد جعل موضوعها بقلته ، يقول (٣) :

لَكَ بِأَصْدِيقِي بَغْلَةً لَبِثْتُ نَسَاوِي غَرَدَلَةً
تَمْشِي فَتَحْسِبُهَا الْعِيْرُ نُ عَلَى الطَّرِيقِ مُشْكَلَةً (٤)
وَتُخَالُ مَدْبِرَةً إِذَا مَا أَقْبَلْتُ مُسْتَعْجِلَةً
مِقْدَارُ خَطْوَتِهَا الطَّوِيلَةُ بَلَى حِينَ نَسْرَعُ أَنْمَلَةً
تَهْتَرُ وَهِيَ مَكَانُهَا فَكَأَنَّمَا هِيَ زَلْزَلَةٌ

ويريد البهاء زهير بالخردلة أقل شيء في الصغر ، ويقول إنها حين تمشي يُظَنُّ أنها مقبلة لبعثها الشديد ، ويجعلها مدبرة حين تقبل ومقدار خطوتها الطويلة أنملة لما بالنا بخطوتها القصيرة ، وإنها لتهتر واقفة لانسير ولا تتحرك كأنما هي زلزلة .

(٣) كتاب البهاء زهير للشّخّ مصطفى عبدالرازق ص

(١) الحريدة ١٩٢/١ .

(٢) سنان هو سنان بن ثابت بن مرة من أطباء القرن

الثالث ومطه حنين بن إسحق .

وتكثر التورية في شعر القاضي الفاضل وزير صلاح الدين كثرة مفرطة من مثل قوله منشوقا إلى مصر وإلى شربة من ماء النيل^(١) :

باقه قُلْ للنيل عني إني لم أشفِ من ماء الفرات غليلا
وسلّ الفؤاد فإنه لي شاهد أن كان طرقي بالبكاء بجيلا
ياقلب كم خلقت ثم بيّنة وأظن صبرك أن يكون جيلا

فقد غاب عن مصر مع صلاح الدين في بعض رحلاته وحملاته إلى الموصل ، وهو يعطن أن ماء الفرات لن يشق غليله ، ولن يكف بكأوه شوقا إلى مصر ورياضها ونيلها . والتورية واضحة في كلمة جميل بعد ذكره لبينة صاحبة جميل الشاعر الغزل القديم .

ويتوقف ابن حجة الحموي بكتابه خزانة الأدب في حديثه عن التورية ملاحظا أنه خلقت القاضي الفاضل شعبتان^(٢) : شعبة مبكرة وشعبة لاحقة ، أما المبكرة فجميعها مصريون وجميع اللاحقة شاميون ، ويعدّد المبكرة ومن قاموا عليها من المصريين في القرنين السادس والسابع للهجرة مسميا لهم ، وهم ابن سناء الملك من مثل قوله في بعض غزله^(٣) :

ملككت الخفافين فنهت عجبيا وليس هُما سوى قلبي وقُرطك

فهي لا تمتلك قرطها الخافق المهتر وحده بل تمتلك أيضا قلبه الخافق ، والتورية في كلمة الخفافين وهما الشرق والغرب . ويذكر ابن حجة بعد ابن سناء الملك شعراء القرن السابع المصريين : الجزار والوراق وابن النقيب والحمامي وابن دانيال ومحيي الدين بن عبد الظاهر ، وسلم ببعض توريات من سترجم لهم منهم ، ومن توريات ابن النقيب قوله المشهور^(٤) :

أقول وقد شتوا إلى الحرب غارة دعوى فلاني آكلُ الحَبَرَ بالجبنِ

والتورية في الجبن واضحة . ومن توريات الناصر الحمامي قوله في بعض غزله^(٥) :

ويظنني حيا رويتُ بريقه فإذا دعا قلبي يجاوبه الصدى

(٣) قديان ص ٤٦٣ والخزانة ص ٣٠٠

(٤) خزانة الأدب ص ٣٠٨

(٥) نفس المصدر ص ٣٠٨

(١) خزانة الأدب للحموي (طبع مطبعة بولاق) ص ٣٠٠

(٢) خزانة الأدب ص ٢٩٨ .

والمعنى القريب للصُدَى المتصل بالدعاء والجواب وجع الصوت ، والمعنى البعيد المراد الذى ورئى عنه النصير الحامى هو العطش . ويتوقف ابن حجة طويلا عند توريات ابن نباتة ، وقد روى منها أكثر من مائة تورية ، غير مارواه مما أخذته عنه الصفدى وغيره ، ومن طريف تورياته قوله لمن أهدى إليه تمرا رديئا غلبه نوى ، إذ كتب إليه ^(١) :

أرسلت تمرا بل نوى فقبلته يد الوداد فما عليك عتاب
وإذا تباعدت الجسوم فودنا باقى ونحن على الثوى أحباب
والمعنى القريب المتبادر لكلمة النوى هو نوى العمر ، والمعنى البعيد الذى أراده ابن نباتة هو البعد والفراق .

ويترك ابن حجة توريات ابن نباتة إلى توريات من جاء بعده من المصريين أمثال ابن الصائغ الحنفى وفخر الدين بن مكانس وبدر الدين البشتكى وابن أبى الوفا وابن حجر العسقلانى المصرى . وتستمر التورية فى الحقبة العثمانية وكأنها والمزاج المصرى صنوان لا يفترقان . ويلقانا فى أيام العثمانيين شاعر فكاه كان يعبش للهزل هو عامر الأنبوطى وسنترجم له عما قليل بين شعراء الفكاهة فى المصر .

ابن ^(٢) ميكنة

هو إسماعيل بن محمد الإسكندرى عاش فى القرنين الخامس والسادس للهجرة إذ توفى سنة ٥١٠ هـ وفيه يقول أبو الصلت فى الرسالة المصرية : « شاعر مكثر التصرف ، قليل التكلف ، يفتن فى نوعى جد التعريض وهزل ، وضارب بسهم فى رقيقه وجزله » . وكان مع جودة شعره يتبذل فى مديحه وبلغ منه ذلك أنه انقطع إلى عامل مسيحي يسمى أبامليح فى عهد بدر الجمالى وزير المستنصر وكأنه لم يجد عند بدر ما يفتنه ، فلما تحولت الوزارة منه إلى ابنه الأفضل وتعرض لاستباحته لم يقبله ولم يقبل عليه ، لقوله فى رثاء أبى مليح :

طويت سماء المكرما تِ وكورت شمسُ المديحِ
ماذا أرجى فى حيا فى بعد موت أبى مليحِ

والخرقة ٢٠٣/٢ وفوات الوفيات ٣٦١/١ ومجمع السلفى فى

مواضع مخرقة .

(١) خزائن الأدب ص ٣٦٢

(٢) انظر فى ابن ميكنة وترجمته وأندامه الرسالة
للمصرية لأمة بن أبى الصلت نشر عبد السلام هرون

ويبدو أن البيت الثاني هو الذى آذى نفس الأفضل ، فأعرض عنه وكفله عز الدولة بن فاتق
ويبدو أنه كان من كبار رجال الدولة الفاطمية ، وله فى المديح كثير من الأبيات الطريفة كقوله :

بِلِقَاكَ مَبْهَجًا وَالغَيْثُ فِي يَدِهِ يَهْمِي فَبِجَمْعِ بَيْنِ الشَّمْسِ وَالْمَطَرِ
وقوله :

الطُّودُ حَاسِدٌ جَلِمِ وَأَنَاثِ وَالسِّيفُ حَاسِدٌ بَاسِ وَمَضَاهِ

وله أشعار غزلية كثيرة كان يعرف كيف يسوق فيها أفكارا وصورا مبتكرة ، وهو كالسابق إليها
أوسابق فعلا من مثل قوله بصف خصلة من الشعر التوت على خد جميل فى شكل عقرب :

قُلْتُ إِذْ عَقَرَبَ الدَّلَا لُ عَلَى خَدِّهِ الشَّعْرُ
مَارَرْنِي قَطُّ قَبْلَ ذَا عَقْرَبُ حَلَّتِ الْقَمَرُ

والحديث عن عقرب الشعر وقرنه يبرج العقرب قديم ، وربما كان أروع من هذه الصورة ،
وهى بحق صورة مبتكرة له قوله :

لَا تَخْدَعُكَ وَجَنَّةُ عَمْرَةٍ رَقَّتْ فِي الْيَاقُوتِ طَبْعُ الْجَلْمِدِ

وعلى شاكلة هذه الصورة المبتكرة قوله :

الْحَسَنُ فِي وَجْتِهِ وَطَرَفِهِ يَفْتَحُ وَرْدًا وَيَقْضَى نَرْجِسًا

وكانت له أشعار كثيرة فى المجون والحمر ومعاقرة الدنان ، وكثيرا ما ينفذ منها إلى صور وخيالات
بديعة من مثل قوله يصف الخمر وهى تُصَبُّ من إبريق :

إِيرِيقُنَا عَاكِفٌ عَلَى قَدَحٍ كَأَنَّهُ الْأُمُّ تَرْضَعُ الْوَلَدَا
أَوْعَابِدُ مِنْ بَنَى الْجُوسِ إِذَا تَوَهَّمُ الْكَأْسُ شَطْلَةً سَجْدًا

وكان فى ابن مكنسة ميل شديد إلى الفكاهة والدعابة ، وله فى ذلك نواذر وأشعار كثيرة ،
كان فيها يتاجن على طريقة أبى الشمقمق الذى عرضنا له فى كتاب العصر العباسى الأول ، إذ كان
دائم التصوير لبؤسه وقره وغلوه داره من الطعام وجبّ الجردان فيها وبنات وُردان أو الصراصير ،
ويتابعه ابن مكنسة واصفا قبح داره وضيقها ، قائلا :

لِيَ بُتٌ كَأَنَّهُ بَيْتُ شَعْرِ لَابِنِ حَجَّاجٍ مِنْ قَصِيدِ سَخِيفٍ
أَبْنٍ لِلْعَنْكَبُوتِ يَتُّ ضَعِيفٌ مِثْلُهُ وَهُوَ مِثْلُ عَقْلِ الضَّعِيفِ
بِقَعَةٍ صَدُّ مَطْلَعُ الشَّمْسِ عَنْهَا فَأَنَا - مَذْ سَكَّتْهَا - فِي الْكُوفِ

وهو يذكر جث بنات وردان فيه وضيقه الشديد وقبحه ، ويقول أنه يشبه بيت شعر سخيـف من أشعار ابن حجـاج المـفحـشة ، ويقول إنه - مذ سكته - في الكوف ولا يريد كسوف الشمس وهو المعنى القريب الملاثم لما قبله ، وإنما يريد المعنى البعيد من الخجل والاستحياء الشديد . وهى تورية واضحة . ومن قوله الفكه يشكو شيخوخته ووهن عظمه وكلال بصره :

عَشْتُ خَمْسِينَ بَلْ تَزِيدُ دُ رَقِيعًا كَمَا تَرَى
أَحَبُّ الْمُقْلَ بِنْدَقًا وَكَذَا الْيَلْعَ سُكْرًا
وَأَطْنُ الطَوِيلِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُدَوَّرًا
قَدْ كَبُرَ بَرْ يَبْرُ يَبْرُ تْ وَعَقْلٌ إِلَى وَرَا
عَجَبًا كَيْفَ كُلُّ شَيْءٍ سَبِيءٍ أَرَاهُ تَغْيَرًا
لَا أَرَى الْيَبْرَ صَارَ يُؤْ كَلُّ إِلَّا مُقَشَّرًا
وَإِذَا دُقُّ بِالْحِجَا رِ زَجَاجٌ تَكْسَرًا

وهو يعطن فى مطلع الأبيات أنه عاش ماجنا رقيقا ؛ وكأنه لن يكف عن رقاـعته ومجونه ، ويصور شيخوخته وضعف نظره حتى لم يعد يفرق بين ثمر الدوم المسى بالمقل والبندق ولا بين الملح والسكر ولا بين الطويل والمـدور ؛ ويـجـمـم ارتعاشه فى شيخوخته بالبيت الرابع إذا لم يكـد يلفظ بكلمة كبرت حتى ارتعش به فهـ مـكوـنا شطرا من بيت ، ويعجب أن كل شىء تغير ، ونقرأ ما تغير فـنـسـتـرق فى الضحك ، إذ تحولت الحقائق فى عقله الكليل إلى عجائب ، فالبيض يؤكل مقشرا ، والزجاج إذا دق بالحجارة تكسر . وما من ريب فى أن هذه الفكاهة فيه والدعابة هى التى جعلت المصريين لزمته يلقبونه ابن مكسة .

الجزائر^(١)

هو يحيى بن عبد العظيم ولد سنة ٦٠١ وتوفى سنة ٦٧٩ فهو من شعراء الدولتين : الأيوبية والملوكية ، نشأ بالفسطاط في أسرة كانت تحترف الجزارة ، ويقول ابن سعيد صديقه في ترجمته له بكتاب المغرب : دكاكين أسرته في الفسطاط عاينها وأبصرته معهم بها . وكان في أول أمره قصّابا وسال الشعر على لسانه وكانت ملكه خصبة فاحترفه ، وقصد به السلاطين والأمراء وعمال الدولة في الاسكندرية والمحلة ودمياط . وروى ابن سعيد في ترجمته قطعة كبيرة من شعره ومدائحه ، ويرجع تاريخ بعضها إلى سنة ٦٢٧ ويقول صاحب مسالك الأبصار : « قال الشعر وهو صغير أول ما احتلم ، وطاف بأركان بيت له واستلم » . ويشيد ابن سعيد بكرمه وما أغدق عليه من بره ، ويذكر دعوته له مرارا للزعة مع طائفة كبيرة من شعراء جيله أمثال ابن النقيب والسراج الوراق . وكانت للجزائر مسامرات ولقاءات كثيرة مع البوصيري والحامى وابن دانيال ، وجعله كرمه يقترب ممن كانوا يقدون على مصر أمثال ابن العديم وابن خلكان وابن سعيد الذى يشيد بوصف مروءته وكرمه وحسن عشرته . ويحيل إلى الإنسان كأن لم يبق سلطان ولا وزير ولا قاض ولا كبير في الدولة إلا أسبغ عليه مدائحه ، وهى مدائح وسطى ليست بالغة الجودة ، ومع ذلك يقول الصفدى : « لم يكن في عصره من يقاربه في جودة النظم غير السراج الوراق ، وهو كان فارس الحلبة ، ومنه أخذوا وعلى نمطه نسجوا ومن مادته استمدوا » ويقول ابن سعيد : « رُزق من حسن الاحتذاء لغرائب المعاني وبدائع الألفاظ ما يدل على غوص فكره ، وطريقه من أسهل الطرق التى يميل إليها العامة ولا ينكرها الخاصة ، لقرب مأخذها وحسن مترعها » .

وابن سعيد دقيق كل الدقة في وصف لغة الجزائر بأنها سهلة تميل إليها العامة ، مع فصاحتها ، وهى ظاهرة ترجع إلى نشأته ، وأنه ترى بين طبقة العامة في الفسطاط لزمته ، قطييعي أن لا ينجح في أشعاره إلى الألفاظ الغريبة إنما ينجح إلى الألفاظ الواسطة بين لغة العامة ولغة الخاصة بحيث يرضى الطرفين ويقع منها موقعا حسنا . والجزائر إحدى حلقات هذه السلسلة التى تصور صلة عامة

الزاهرة ٣٤٥/٧ وشذرات ابن الهادي ٣٦٤/٥ ومطالع البدور للزغلول ١٩١/٢ وما بعدها ، ومكتبة جامعة القاهرة مصورة لمختبرات من شعره بخط الصفدى في ١٨٠ ورقة .

(١) انظر في الجزائر وترجمته وشعره المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٩٦ وحسن المحاضرة ٥٦٨/١ وفوات الوفيات ٦٣٠/٢ ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري (مخطوطة دار الكتب المصرية) ١٢ الورقة ١٦٦ والنجوم

الشعب المصرى دائما بالشعر العربى صلة لاتنقطع ، إذ دائما نرى شعراء من طبقة العامة الكادحة يرقون فى الشعر إلى درجة عالية مثل ظافر الحداد فى الحقبة الفاطمية ، وكثير من معاصرى الجزار كانوا مثله من أبناء عامة الشعب نذكر منهم صديقه الوراق ، وكان وراقا يبيع الكتب ، وكذلك صديقه الحامى ، وكان له حَمَامٌ يقوم عليه ، ومثل مجاهد الحياط بالفسطاط ، وله فيه بيت مشهور لزمناها دار على الألسنة إذ يقول :

وليس يرجوه غيرُ كلبٍ وليس يخشاه غيرُ ثبسى
ورُدُّ عليه الجزار غيرُ غاضبٍ بل كأنما يريد استمرارًا فى الدعابة :

بسرَجِينَا بنو كلبٍ وبخشانَا بنو عجلٍ

ويبدو أنه كان يعود فى بواكير حياته إلى القصابة والجزارة مما جعل صديقا له يسمى شرف الدين يعاتبه ويكثر من عتابه ولومه لتركه الأدب إلى حرفة الجزارة فقال :

كيف لآ أشكرُ الجزارةَ ما عشتُ تَ حِفَاطًا وأرفضُ الآدابا
وبها أضحتِ الكلابُ تُرَجِّبُ نى وبالشعرِ كنتُ أرجو الكلابا

ولا بد أن أزمة كرامةٍ مرت به ، فانسحب فترة إلى دكاكين أهله ، ولكن سرعان ما عاد إلى الأدب وإلى الكرام من ممدوحيه وأصدقائه وزملائه الكثيرين .

وربما كان أهم ما يتصف به الجزار ميل متأصل فى نفسه إلى الفكاهة والدعابة ، مما جعله يُشَبِّه بآبن مكنسة وأبى الشعمق العباسى فى الشكوى من بؤسه وقره مداعبا متخفها بمثل قوله :

لى من الشمس خِلْعَةٌ صفراءُ لا أبالى إذا أتانى الشتاءُ
بيتى الأرضُ والفضاءُ به سو رُ مُدَارٌ وسقفُ بيتى السماءُ
لو ترائى فى الشمس والبردُ قد أُرِّ حَلَّ جسمى لقلتُ إني هباءُ
كلما قلت فى غَدٍ أدرك السو لَ أتانى غَدٌ بما لا أشاءُ

فحقى الثياب لايجمدها ، وبيتة الأرض وسقفه السماء ، وقد أنخله البرد حتى صار شبعا لا يكاد يرى ، وكل يوم يأمل ويرجو ويغيب الأمل والرجاء ، إذ لا ينال شيئا من دنياه سوى اليأس والشقاء ، ويعود إلى وصف داره قائلا :

ودار خرابٍ بها قد نزلتُ ولكن نزلتُ إلى السابعة
فلا فرق ما بين أني أكونُ بها أو أكونُ على القارعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانها الراكمة
إذا ما قرأتُ : (إِذَا زُلْزِلَتْ) خشيتُ بأن تقرأ : (الواقعة)

إنها دار خربة هوت به إلى الأرض السابعة ولا سقف ولا حيطان فكأنه على القارعة أو على الطريق . وإنه ليخشى أن يقيم بها الصلاة فتنفص حيطانها . ويتندر قائلاً إذا قرأت في صلاتي سورة الزلزلة خشيت أن تقرأ هي سورة الواقعة ، والتورية واضحة ، ويعود إلى ثيابه ويصف جبة له هذا الوصف الفكه :

لِيْ نِصْفِيَّةٌ تُعَدُّ مِنَ الْعُمْرِ سِتًّا غَسَلْتُهَا أَلْفَ غَسْلَةٍ
كُلُّ يَوْمٍ بِحَوْطِهَا الْعَصْرَ وَالذُّقْرَ مَرَارًا وَمَا تُقِرُّ بِعُمْلَةٍ
أَيْنَ عَيْشِي بِهَا الْقَدِيمَ وَذَلِكَ التَّسْبِيحُ فِيهَا وَخَطَرُنِي وَالشَّمْلَةَ
حَيْثُ لَا فِي أَجْنَابِهَا رَقْعَةٌ قَطُّ وَلَا فِي أَكْثَامِهَا قَطُّ وَصَلَهُ

فهي نصفية أو جبة ، طالما لبست وغسلت وصُبغت ، وفي كلمة العصر ، تورية لأنها كانت شائعة الدلالة على عصر الخصيتين تأديبا للمجرمين وتقريرا لهم ، وترشحها في البيت كلمة الإقرار بالعملة وهي بفتح العين الجناية وبالفهم النقود . والشملة لا تزال تستعمل في العامة المصرية على ما يتلفح به الرجال من الصوف أو الحرير ، وهي فصيحة . والأبيات مختارة من قطعة طويلة مضحكة في وصف هذه الحجة البالية . وصل التراويح عند الوزير بهاء الدين بن حنا فقرأ الإمام في ركعة من ركعات التراويح سورة الأنعام ، فقال ثوبا :

مَالِي عَلَى الْأَنْعَامِ مِنْ قُدْرَةٍ لَأَسْمًا فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ
فَلَا تَسْمُونِي حُضُورًا سِوَى فِي لَيْلَةِ الْأَنْفَالِ وَالْمَائِدَةِ

ولكلمة الأنفال معنى قريب هو السورة الكريمة ومعنى بعيد هو الهبات ، وهو المراد ، وبالمثل لكلمة المائدة معنى قريب هو سورتها في القرآن ومعنى بعيد هو مائدة الطعام وهو المراد . وله في أطعمة رمضان : القطائف والكنافة وما إليها مداخلات كثيرة من مثل قوله :

سَقَى اللَّهُ أَكْنَافَ الْكَنَافَةِ بِالْقَطْرِ وَجَادَ عَلَيْهَا سُكَّرَ دَائِمُ الدَّرِّ

والقطر هنا السكر ، والدر : المطلان والكثرة .

وتزوج أبوه امرأة متقدمة في السن ، فضى ينتقم منه ومنها بفكاهات واصفا فيها هرمها ، مصورا ضعف عقلها لكبر سنها وقبح وجهها كما يزعم بمثل قوله :

تَزُوجُ الشَّيْخُ أَيْ شَيْخَةً لَيْسَ لَهَا عَقْلٌ وَلَا ذِهْنٌ
لَوْ بَرَزَتْ صُورَتُهَا فِي الدُّجَى مَا جَسَرْتُ تَبَصُّرَهَا الْجِنُّ
كَأَنَّهَا فِي قَرَشِهَا رِمَّةٌ وَشَعْرُهَا مِنْ حَوْلِهَا قُطُنٌ
وَقَائِلٌ قَالَ لَهَا سَيِّئًا فَفَلَّتْ مَا فِي لَهَا سَيْنٌ

والبيت الثالث شديد الإقذاع لهذه المرأة المسنة ، واستخدام التورية في البيت الأخير إذ سئل عن سنّها أى عمرها ، فجعل السؤال عن أَسنانها .

وينظم في حمار له مقطعات كثيرة فكهة ، ومات فأكثر من رثائه محاكيا بشارًا في رثائه لأنثاه ، وجمع بعض معاصريه مرثيه لحماره في مجلد ، وهى مرث تدور على الدعابة الخالصة .
ومن قوله اللاذع في أحد البخلاء لأيامه :

لَا يَسْتَطِيعُ بَرَى رَغِبَ فَقَا عِنْدَهُ فِي الْبَيْتِ بُكْسَرٌ
فَلَوْ أَنَّهُ صَلَّى - وَحَا شَاهَ لَقَالَ الْخَبِيزُ أَكْبَرُ

وفي الحق أنه كان جعبة فكاهة ودعابة ، وهو أحد من أكثروا لزمنه صنع التوريات ، وقد روى له ابن حجة طائفة كبيرة ، منها قوله :

قُلْتُ لَسُّمُ الْجِسْمِ مَنِ وَقَدْ أَفْرَطَ بِي قَرَطٌ صَنَّا وَاسْتَكْتَابُ
فَعَلَّتْ بِي يَأْسُفُ مَا لَمْ يَكُنْ تَلْبَسُ - وَاللَّهِ - عَلَيْهِ الثَّيَابُ

والشطر الأخير له معنيان : المعنى الظاهر الضنا والتحول حتى لا تكاد الثياب تلبس ، والمعنى البعيد المراد وهو : ما لا يصح ولا يجوز أبدا .

السراج ^(١) الوراق

هو سراج الدين عمر بن محمد بن حسن رفيق الجزار وصديقه ، وُلد مثله بالفسطاط سنة ٦١٥ وتوفي سنة ٦٩٥ وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان إماما فاضلا أديبا مكثرا منصرفا في فنون البلاغة ، وهو شاعر مصر (الفسطاط) في زمانه بلا مدافعة » ويقول صاحب فوات الوفيات : « كان حسن التخیل ، جيد المقاصد ، صحيح المعاني ، عذب التراكيب عارفا بالبدیع وأنواعه » . ولم يكثر أحد من الشعر إكثاره إذ كان ديوانه سبعة أجزاء كبار ، وأكثره مقطوعات قصيرة . ويمتاز شعره - مثل الجزار - بالسهولة المفرطة ، لسبب طبعي ، وهو أنه نشأ في أسرة شامية متواضعة ، وما زال الشعر يصعد به حتى عُيِّن كاتباً للدرج عند بعض الأمراء ، ويبدو أنه لم يظل في ذلك طويلا وأنه احترَف الوراقة ، وفي شعره مدائح لبعض السلاطين والأمراء كقولهِ في الظاهر يبرس أثناء الاحتفال بافتتاح مدرسته الظاهرية :

وشبَّدها للعلم مدرسة غدا عراقُ إليها شَبَقٌ وشَامُ
ولا تذكُرْنَ يوما نظاميَّ لها فليس بضاهي ذا النظامِ نظامُ

وهو يجعلها فوق نظامية بغداد المشهورة التي بناها بها نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور ، وقد عرضنا لها في حديثنا عن العراق بالجزء السابق من هذه السلسلة ومدى إتفاقه عليها وعلى العلماء والطلاب بها ، وما حبس عليها من أوقاف دارة ، وكان لها شأن بعيد في النهضة العلمية ببغداد . ومر بنا حديث عن المدرسة الظاهرية في فصل الثقافة . وللوراق مرثية بديعة في المعزايك حين قتل ، يقول فيها :

نقيمُ عليه مأتما بعد مأتمٍ ونسفعُ دما دون سَفَحِ المقطَّمِ

وله شعر غزل كبير مثل الجزار ولا نحس عنده بحرقة ولا بلوعة ، مثله في ذلك مثل صاحبه ، ومن قوله في بعض غزله :

٣٠٠ وما بعدها ومطالع البدور ٩٠/١ وخطط القريزي ٣٤١/٣ . ومن ديوانه مخطوطة بدار الكتب المصرية ومصورة بخط الصفدي في مكتبة الجامعة في ١٨٠ ورقة .

(١) انظر في السراج الوراق وترجمته وأشعاره فوات الوفيات لابن شاکر ٢١٣/٢ والنجوم الزاهرة ٨٣/٨ وشعرات الذهب ٤٣١/٥ وخزانة الأدب للحموي ص

فِي خَدَّهَا ضَلَّ عِلْمُ النَّاسِ وَاخْتَلَفُوا أَلِلشَّقَاتِ أُمٌ لِلوردِ نِسْبَتُهُ
فَذاكَ بِالْحَالِ يَقْضَى لِلشَّقِيقِ وَذَا دَلِيلُهُ أَنَّ ماءَ الوردِ رَيْقُهُ

وإذا غضضنا النظر عن حشره لعلم الناس واختلافهم في خد صاحبه ، فإن الصورة تبدو بعد ذلك بديعة ومعروف أن الشقيق قام الحمرة ، وقد أبدع فعلا إذ جعل دليل نسبة الخد إلى الورد رى صاحبه الشبه بمائه . ومن غزله أيضًا :

لَا تَحْجُبِ الطِّيفَ إِنِّي عَنْهُ مَحْجُوبٌ لَمْ يَبَيِّنْ مِنِّي لِفِرطِ السُّقْمِ مَطْلُوبٌ
وَلَا تَنْقُ بِأَنبِيِّيَ إِن مَوْعِدُهُ بَانَ أَمِيشَ لِلْقِيَا الطِّيفِ مَكْتُوبٌ
هَذَا وَخَدُّكَ مَحْضُوبٌ يُشَاكِلُهُ دَمْعٌ بَقِيضٌ عَلَى خَدَيَّ مَحْضُوبٌ
تَأْوُدُ الْفُصْنَ مَهْزَأً فَأَبْنَانَا أَنَّ الَّذِي فِيكَ خَلَقْتُ فِيهِ مَكْسُوبٌ

وإنه لينمى رؤية خيال المحبوبة قبل موته وهيبات ، ويقول إنه يبكى دما قانيا كخد صاحبه في حمرة . ويزعم أن ميلان القفن واهتزازة إنما هو خلق فيه اكتسبه من تقليد صاحبه . وهو يستعير صورة الكسب في البيت من رأى المعتزلة في أن الإنسان يكسب عمله بفعله لا بقدر مقدور عليه .

وأهمية السراج الوراق في تاريخ الشعر المصرى كاهية الجزار ، إنما ترجع إلى جانب الفكاهة والدعابة عنده ، وقد خطا بفن التورية خطوة أوسع من خطوة صديقه الجزار ، مستغلا فيها إلى أبعد حد لقبه : السراج الوراق كما استغل الجزار لقبه في كثير من تورياته . ومن المؤكد أن السراج أرى عليه في هذا الباب حتى قال له بعض معاصريه : « لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك » ومن تورياته في لقبه السراج قوله مادحا :

كَمْ قَطَعَ الْجُودُ مِنْ لِسَانِي قَلْدٌ مِنْ نَظْمِهِ الثُّحُورُ
فَهَا أَنَا شَاعِرٌ سِرَاجٌ قَاطَعٌ لِسَانِي أَرْدَكَ نُورًا

وهو يشير إلى السراج الحقيقي حين يقول « اقطع لساني » وهو إنما يريد النوال الذي يقطع لسانه ويزيده مدحا وتنويعا وإشادة . ومن تورياته في لقبه الوراق :

وَاجْتَلَيْتِي وَصَحَائِقِي قَدْ سَوَّدَتْ وَصَحَائِفُ الْأَبْرَارِ فِي إِشْرَاقِ

وفضيجي لعنفي لي قائلو أكذا تكون صحائف الوراق

فهو خجل من لقاء ربه بصحافته السود ، ويقول له لانمه : أكذا تكون صحائف الوراق سوداء ، بينا ينبغي أن تكون مشرقة يضاه كصحائف زملائه من الوراقين . ومن تورياته في غير لقبه « السراج » وصناعته « الوراق » :

أصونُ أدبمَ وجيبي عن أناسي لقاء الموت عندهمُ الأدبُ
وربُّ الشرِّ عندهمُ بغيضُ ولو وافى به لَهمُ حبيب

ولكلمة حبيب معنيان : معنى قريب من الحب ، ومعنى بعيد هو أبو نغم إذ اسمه حبيب ، وهو المعنى المراد . ومن تورياته البديعة قوله :

دَعِ الهُونِيَّ وانتصبْ واكتبْ واكْذَحْ فَنفَسُ المَرِّ كدَاحَ
وَكُنْ عن الراحةِ في عَزَلَةٍ فالصُّفْعُ موجودٌ مع الرَّاحَةِ

ولكلمة الراحة معنيان : معنى أول هو الراحة من الاستراحة ، ومعنى ثان هو الكف أو اليد ، ومن تورياته في بقلة معروفة في مصر باسم « الرجل » ، وقد أضافه بعض أصدقائه ، فداعبه قاتلا :

وأحمقُ أضافنا بِبِقَلَةٍ لنسبِ بينها وَوُصَلَةٌ
إذ مَدَّ في وجه الضيوف رِجْلَهُ

وهو لا يريد مد الرجل الحقيقية ، وإنما يريد مد طعام الرجل على المائدة ، مما يدل بوضوح على حضور بديهة الوراق . ومن تورياته .

فَسِرْ لي عابِرُ منامًا فَصَلْ في قوله وأَجْمَلْ
وقال : لا بد من طُلُوعِ فكان ذاك الطُلُوعُ دُمْلُ

والطلوع : الصعود والرق ، واستغل الوراق تسمية العامة للدمل طلوعا ، وصنع هذه التورية البارة . وفي كتاب خزانة الأدب للحموي توريات كثيرة للسراج الوراق اقتطفنا منها ما أنشدناه . ووراءها توريات لا نقل عنها لطفًا وبراعة .

ابن^(١) دانيال .

هو شمس الدين محمد بن دانيال ، ولد سنة ٦٤٦ للهجرة بالموصل وتركها فنى إلى القاهرة ، ولا نعرف أسباب هجرته من بلدته ولا تاريخ هذه الهجرة ، ويقال إنه نزل القاهرة في سن العشرين ، ويلقب بالكحّال ، ويقولون : كان له دكان كحل داخل باب الفتوح ويلقبونه بالحكيم وليس معروفا بالضبط هل احترف طب العيون أو كان تاجر كحل وبائعه فقط . وأغلب الظن أنه كان يعالج العيون لقوله :

ياساتل عن حرفى فى الورى واضْبَعْنى فيهم وإفلاسى
ماحالُ مَنْ درهمُ إنفاقِهِ بأخذه من أعينِ الناس

والتورية في الشطر الأخير واضحة ، وهى عبارة تدور على السنة العامة ، يقولون يأخذ حقه من عينه أى رغم أنفه ، وهو لا يريد ذلك إنما يريد الإشارة إلى صنعة وحرفته . وكانت تتخذ في دكانه أغلب الليالي ندوة سمر يجتمع فيها كبار الفكهين لزمته من أمثال الجزار وابن النقيب والوراق والحامى ، ويروى أنهم جاموه يوما فقالوا له : نحتاج إلى عَصِيَّات يومئون بذلك إلى أن من يداوى عيونه يُجهز على بصره فيصبح ضريراً محتاجا إلى عصا تقوده ، فقال لهم على الفور : ليس عندى إلا أن يكون فيكم من يقوده تعالى . وكان يلزم الأشراف خليل ابن السلطان قلاوون قبل نقله الحكم في عهد أبيه ، وأعطاه يوما فرسا ومرت أيام فإذا به يراه على حمار أعرج ، فقال له : يا حكيم أما أعطيتك فرسا تركبه ؟ فأجابه مسرعا : نعم بعت وزدت على ثمنه واشتريت هذا الحمار ، فضحك الأشراف وأعطاه فرسا آخر . ومن تورياته الطريفة قوله :

قد عَقَلْنَا وَالْعَقْلُ أَيْ وَثَاقِي وَصَبَرْنَا وَالصَّبْرُ مُرُّ الْمَذَاقِ
كُلُّ مَنْ كَانَ فَاضِلًا كَانَ مِثْلِي فَاضِلًا عِنْدَ قِسْمَةِ الْأَرْزَاقِ

وكلمة « فاضلا » الثانية ليست من الفضيلة كسابقتهما . وإنما من الفضل بمعنى الزائد عن

الطالع للشوكاني ١٧١/٢ وكتابتها الفكاكة في مصر (طبع دار الهلال) ص ٥٣ وما بعدها .

(١) انظر في ابن دانيال وترجمته وأشعاره فوات الوفيات ٣٨٣/٢ والدرر الكامنة لابن حجر ٣٨٢/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٧/٦ والنجوم الزاهرة ٢١٥/٨ والبر

الحاجة . وهذا الجانب الفكه في ابن دانيال استطاع أن ينفذ منه إلى صنع ثلاث تمثيلات أو كما يسميها بابات لتمثل على مسرح خيال الظل في أيامه ، وهو مسرح دُمِّي متحركة متجاوزة ، واسم أولاهها « طيف الخيال » ، والثانية « عجب وغريب » ، والثالثة « منيم » . وتصور الأولى الحياة الاجتماعية لعهد الظاهر بيبرس . والثانية تصور سوقا مصرية ومن فيها من أخلاط الناس والأمم وقد جمدت ألسنتهم عند لهجاتهم الوطنية في بلدانهم وصور معينة من كلامهم تثير الضحك في النظارة . وتصور الثالثة الحيل وخاصة حيل المحبين مع صور مضحكة من عراك الديكة ونطاح الكباش والثيران .

وأبدع المسرحيات الثلاث وأطرفها « طيف الخيال » ، وهي مسرحية شعرية نثرية ونثرها مسجوع كثر المقامات وليس فيها لفظ غريب ، وكأنما حاول ابن دانيال أن يجعلها قريبة قرباً شديداً إلى عامة أهل القاهرة لزمه ، وهو يفتتحها بتقديمه لطيف الخيال الأحذب الموصل متغنياً بفضله وجده وهزله ، وبسلم سلام القادم ويرد عليه الرئيس السلام مادحا له ولحديثه بمثل قوله :

قساً يحسنَ قوامك الفنانِ يا أوحَدَ الأمراءِ في الحُذبانِ
بامشبةِ العُصنِ الرطبِ إذا انتنى من حَدَثيه يمسُّ بالرمَانِ
باعتجلاً شكلَ الهلالِ بقده حاشاك أن تُعزّزى إلى نُقصانِ

ويستمر في تحسين حديثه ، فهو صاحب رذقتين ، وهو جمل جليل السنام ، بل هو كالعود الأحذب المطرب . ويرد طيف الخيال عليه : لافضُّ الله فاك ، ولا أقال من سيف الحسبة قفاك . وكان الحاسب رجل شرطة وقانون . فهو يتمنى أن يظل سيفه مسلطاً على قواه . ويفنى طيف الخيال بأبيات يستقبل بها النظارة من الحاضرين ، ويذكر أنه جاء مصر من الموصل زمن الظاهر بيبرس حين أمر في سنة ٦٦٦ بتحريم المنكرات وإغلاق الحانات وإعدام أحد أصحابها المسمى ابن الكازروني بعد تجريسة في الطرقات وفي عنقه دِنٌّ نبيذ أو نياذبة . وإلى ذلك يشير طيف الخيال ، إذ يقول ابن دانيال على لسانه :

لقد كان حَدُّ السُّكر من قبل صَلْبِهِ خفيفَ الأذى إذ كان في شَرْعنا جَلْدًا
فلما بدا الصَّلُوبُ قَلْتُ لصاحبي ألا تُبْ فإنَّ الحدَّ قد جاوزَ الحدَّ
والتورية واضحة في كلمة « جاوز الحد » إذ لا يريد المعنى المتبادر من مجاوزة الشيء لحدّه

وإفراطه ، وإنما يريد مجاوزة الحد الشرعى فى العقوبة . ويتوقف طيف الخيال الأحذب ليرى
إبليس وغواياته ويندب تحطيم أوانى الخمر وذنانه وندمانها وسقاتها بمثل قوله :

مات - يا قوم - شَبَحْنَا إبليسُ وخلا منه رَبُّهُ المأنوسُ
والقناني به تكسرنَ والخمُ سارُ من بعد كسرهما محبوسُ
وقدَّو القَصْفُ ذاهلون وقد كا دتْ على سَبَلها نَسيلُ النفوسُ
والحَرافِشُ حولها يتباكو ن بنارِ تُراع منها المحبوسُ
وقضيبُ و نرجسُ وسُعادُ باكبأتُ ونَزَهَةُ وعُروسُ

والرثية طويلة ، واكتفينا منها بهذه الآيات لتدل على ماتموج به من هزل ودعابة . ويذكر
طيف الخيال أنه جاء إلى مصر يبحث عن أخيه الأمير وصال ، وهو أمير مزيف ، ويظهر أخوه ،
ويطلب الأمير كاتبه ، ومعدنه فى توقعات وودائع ، ويأمره بكتابة تقليد بولاية ، تدليسا وافتراء .
ويلقب الكاتب طيف الخيال بلقب صُرْبَر انتقاما منه حين هزى به ، فى مقابل لقب لشار
بغدادى مشهور يسمى صُرْدَر . ويذكر وصال لأخيه أنه قد عزم على ترك الخلاعة والمجون والتوبة
إلى الله والعمل بعمل أهل السنة والجماعة ، بادئا بالزواج . وتبدأ مشاهد التنبيلة من حين هذا
اللقاء بين وصال وأخيه وتدور حول مشكلة الخاطبة فى الحقب الماضية وما كان ينشأ عنها من
أغلاط فى تبين حقائق العروسين ، فالزوج يدعى أنه من أمراء الموصل ومعه كاتبه وحاسبه
المزيف ، وحقيقته أنه بانس فقير لا يملك شَرَى نَقير كما يقول بلسانه فى التنبيلة ، حين طُلب منه
المهر . وقد أطلق البخور ورُش الطيب على الحضور ويُشد :

أَسْبَتُ أَفْقَرَ مَنْ يَرُوحُ وَيَقْتَدَى ما فى يدى من فاققى إلا يدى
فى منزلٍ لم يَحْوَ غَيْرى قاعداً فإذا رقدتْ رقدتْ غيرَ ممددٍ
وترى البعوضَ يطير وهو يريشه فإذا نَمَكُنْ فوق عِرْقٍ يَقْعِدِ
والفارُ يَرْكُضُ كالخِيولِ نَسَبَتْ من كلِّ جَزْءِ الأديمِ وأَجْرِدِ
وترى الخنافسَ كالزَنُوجِ نَصَفَتْ من كلِّ سوداءِ الأديمِ وأَسْوَدِ
هذا ولِ ثوبٍ نراه مرعفاً من كلِّ لونٍ مثل ريشِ الهُدْهِدِ

ومع ذلك يُرَفِّ الأمير وصال على عروسه ، وحين تكشف عن وجهها يصيبه الذهول لهرمها

وقبحها المتأهى ، وينادى على الحاطبة وتأنيه ويشكومنها . وينشد طيف الخيال على لسانه شكوى مرة من زوجته . ويصور ما ينعاظه من الحشيش وما يرسم له من الخيالات والأوهام ، حتى ليرى وجهه في زير مملوء ماء فيظن به لصا إذ يراه يعبس ويضحك مثل عبه وضحكه ، فيحطمه حطما . وتموت الحاطبة وينوح عليها زوجها بمثل قوله :

ساعدونى بالتَّوَحُّع والتَّعْدِيدِ بعد فَقْدِ العَجُوزِ أُمِّ رَشِيدِ
هَلَكْتُ آخَرَ اللَّيَالِي السَّوْدِ يَا بَالِي الْوَصَالِ بِاللَّهِ عُودِي

والتَّحْيِيلَةُ تزخر بالمواقف المتناقضة كما تزخر بهذه الروح الفكاهية ، ويتخللها الفناء والرقص ويترد فيها التسلسل ، وشخصها في غابة الوضوح . وهى تصور جوانب كثيرة من الحياة الاجتماعية والسياسية وعلاقات الرجال بالنساء وعلاقات الشعب بحكامه في تلك الحقبة . وما زال ابن دانيال يتمتع أهل القاهرة بتمثيلياته الهزلية وفكاهاته التى كانت تدور فى أفواه الناس حتى وفاته سنة ٧١٠ للهجرة .

عامر^(١) الأنبوطى

يقول الجبرنى في ترجمته : « شاعر مفلق هجاءه ويقول إنه كان يقيم في بلده ويلم بالقاهرة من حين إلى حين فيزور العلماء والأعيان ، وكلما رأى قصيدة مشهورة سائرة قلبها وزنا وقافية إلى الهزل والطبيخ ، فكان الشيوخ والشمراء يتحامونه ويكرمونه ويمجزلون له في العطاء ، وكان فيه ظرف يجعلهم يأنسون لكلامه ويهشون لشعره الفكاهي . من ذلك نظمه لألفية في الطعام على غرار ألفية ابن مالك في النحو ، استلها بقوله :

يقول عامرٌ هو الأنبوطى أحمد رى لستُ بالقنوطى^(٢)
وأستعين الله في ألفبه مقاصدُ الأكلِ بها محوّه
فيها صنوفُ الأكلِ والمطاعم لئنْ لكلِّ جانحٍ وهائم^(٣)
طعامنا الضاني للذيدِ للثهم لحما وسَمنا ثم خَبِرا فالثهم

(٢) القنوطى : كلمة جلبتها القافية ولطه يريد بها اليأس
(٣) الجانح : شريد العطش .

(١) انظر في ترجمة عامر الأنبوطى وشعره الجبرنى
٢٤٨/١ .

فلانها نفيسة والأكل عَمَّ مطاعمٌ إلى سناها القلبُ أَمْ^(١)
والأصلُ في الأخبارِ أن تُقَمَّرَا وجُوزُوا التَّقْدِيدَ إذ لا ضررا^(٢)

ولاريب في أن شيوخ الأزهر وطلابه حين كانوا يسمعون منه شيئا من أشعار هذه الألفية يفرقون في الضحك إغراقا ، لأنه نقل أكثر صنيع ابن مالك في ألفيته النحوية الجادة منتهى الجدة إلى هذه الألفية الجديدة المضحكة غاية الضحك . ورأى أن لامية العجم للطغرائي تستولى على إعجاب الشعراء والناس منذ زمنه في القرن السادس لما تحمل من حكم وخبرات تنفع الناس في حياتهم وسلوكهم ، فنظم على وزنها وقافيتها لامية في المطاعم من مثل قوله :

أناجرُ الضَّانِ زِيَّاقٌ من اللَّبْلِ وَأَصْحَنُ الرِّزِّ فِيهَا مِنْتَهَى أَمْلٍ^(٣)
ولا خَلِيلٌ يَدْفَعُ الجُوعَ بِرَحْمَتِي ولا كَرِيمٌ يَلْحَمُ الضَّانَ بِسَمَحٍ لِي
طال التَّلَهْفُ للمَطْعُومِ واشتعلتْ حُشاشَتِي بِحَامِ الْيَتِّ حين قُلِّي
أريدُ أَكْلًا نَفِيسًا أَسْتَعِينُ بِهِ على العباداتِ والمطلوبِ من عَمَلِي

وكانت لابن الوردي الشامي المتوفى سنة ٧٤٩ قصيدة لامية جعلها جميعا حكما وأمثالا ، طارت شهرتها بين معاصريه ومن خلفوه فصاغ على وزنها لامية حكيمة في الطعام ، يقول فيها :

اجْتَنِبْ مَطْعُومَ عَدَسٍ وَبَصْلٌ فِي عَشاءٍ فَهُوَ لِلْعَقْلِ خَبِيلٌ
وَعَنِ الْبَيْصَارِ لَا تُغْنِ بِهِ ثَمَرٌ فِي صَحَّةِ جَسَدٍ مِنْ عِلَلٍ
سَاحَتِفَلْ بِالضَّانِ إِنْ كُنْتَ فَتَى زَاكِيَّ الْعَقْلِ وَدَعْ عَنكَ الْكَسْلَ
مِنْ كِبَابٍ وَضُلُوعٍ قَدْ زَكَّتْ أَكْلُهَا يَتَنَّى عَنِ الْقَلْبِ الْوَجَلُ

وطعام العدس والبصل وكذلك البيصار من الأكالات الشعبية المصرية ، وهو ينهى عن أكلها ويدعو إلى أكل لحم الخرفان الضاني وما يتخذ منه من طعام الكباب واللحم المشوى .

وكان عامر بهذه الأشعار وما يماثلها يطرف معاصريه في القاهرة ويسرى عن نفوسهم بهزله ويحلمهم يستفرقون في الضحك ، بما يعرض عليهم في أشعاره الفكاهة من أصناف الأطنمة وألوان

(٣) أناجر : جمع أنجر ويطلق في العامة على أنواع الطعام وطوبى الكبيرة .

(١) أَمْ : قصد .
(٢) قَمَر : كلمة عامية أى تعرض على الناس

الحلوى ، مع إكثاره من دعاء ربه أن يُنبئه «كبابا» ودواء من الحلوى والخشاف . ومازال ذلك دأبه في أشعاره حتى توفى سنة ١١٧٣ للهجرة .

٦

شعراء شعبيين

ليس معنى هذا العنوان أن شعراء مصر لهذا العصر ينقسمون إلى شعبيين وغير شعبيين ، فشعراؤها جميعا كانوا شعبيين إذا أردنا من نشأوا في يثاات شعبية ولم يكونوا من أبناء القصور أو من الطبقات الأرستقراطية . ونستطيع أن نستقي فقط تميم بن المزمّل أول خلفاء الدولة الفاطمية بمصر ، فهو وحده الذى نستطيع أن نقول عنه إنه نشأ في ترف ونعيم ، أما بعد ذلك فالشعراء كانوا من أبناء الشعب ، وكثيرون منهم كانوا من طبقة الدنيا التي تمتلئ بالحرف والصناعات ، بل هم أنفسهم كانوا يمتحنون تلك الصناعات والحرف على نحو ما مر بنا في حديثنا عن ظافر الحداد وأنه نشأ حدادا ، وتفجر ينبوع الشعر على لسانه ، فترك عالم الحدادة إلى عالم الشعر والفن . وبلغنا كثيرون من هؤلاء الشعراء المحترفين حرفا متنوعة مثل الجزار والوراق وبجاءد الحياط والحامى الذين عرضنا لهم في حديثنا عن شعراء الفكاهة .

ومعنى ذلك أننا لا نريد أن نتحدث عن شعبية شعراء العصر بهذا المعنى من نشأتهم في الأوساط الشعبية ، فهي نشأة مشتركة تجملهم جميعا شعراء شعبيين ، إنما نريد معنى أدق من ذلك معنى يتصل بلغة طائفة من شعراء مصر في العصر رأوا أن ينظموا بلغة الحياة اليومية حتى يصلوا مباشرة إلى التأثير في الناس باستخدام العامية لغتهم في التخاطب اليومي . وكانت قد نشأت في البلاد العربية فنون شعرية عامية ، هي الزجل أنشأته أو استحدثته الأندلس ، والموالبة استحدثه أهل واسط بالعراق ، والكان وكان استحدثه بغداد ومثله القوما . وسرعان ما شاعت هذه الفنون في العالم العربي وخاصة الزجل والموالبة .

والزجل أنواع منه ما يسمى بالاسم الأصل وهو الزجل ويختص بالغزل والنسب والخمر والطبيعة ، ومنه ما سُمّي مصر بِلَيْتًا وجمعه على بلاليق ، وهو ما تضمن الغزل أو الخلاعة والأحاض ، ومنه ما سُمّي قَرْيَاً وهو ما تضمن الهجاء أو المزحل ، ومنه ما سُمّي مكفّرًا وهو ما تضمن المواقظ والحكمة ، وكأنهم اشتقوه من تكفير الذنوب . ومررنا أن الشريف العقيلي في القرن

الخامس كان ينجم كل قافية من قوافي ديوانه بأبيات مكفّرة لما قدم في القافية من مجون .

وأخذت مصر منذ القرن السادس الهجري تشترك في صنع الزجل بأنواعه السابقة ، وأخذت تُلطف أساليبه وأوزانه حتى بلغت فيه غاية لانكاد تدرك ، وكما أقبلت على الزجل بالمعنى العام أقبلت على البُليق وهو زجل هزل ويقول ابن سعيد في منتصف القرن السابع الهجري : « كان بالفسطاط جماعة يصنفون البُليق ، وهو على طريقة الزجل الأندلسي ، منهم ساكن البُليق ، ومن بُليقاته :

بَسَى من الدين الثاني نرجع لدينى الحفاني
نرجع لدينى الأول عن الثا لَسْ نتحول
إن كنت فِ ذا نتقول اصْفَعْ وقطْعْ آذاني

وهذا من الطراز العالي في هذا الفن ، وهو عنوان كاف عن غيره^(١) . واشتهر في القرن السابع ابن دقيق العيد ينظم البلايق^(٢) ومن اشتهر في القرن الثامن بصنع البلايق زين الدين القوصي وقدروى له ابن حجر بُليقاً^(٣) ومثله سراج الدين عمر بن مولا هم ، وقدروى له ابن تغرى بردى بُليقاً^(٤) هزلياً رقص به منشدوه بين يدي السلطان حسن ، وفيه يقول :

من قال أنا جندى خَلَقْ فقد صدق
عندى قَبّاً من عهد نوح على الفئوح^(٥)
لو صادفوا شمس السطوح كـان احترق

وقد أشار بقوله : « أنا جندى خلق » أى هرم إلى يَبْلُغا مملوك السلطان وكان واقفا بين يديه ، وأغرق السلطان في الضحك واستعاد البُليق مرارا . وبجانب البلايق تلقانا أزجال كثيرة في هذا العصر ، من ذلك مطلع زجل رواه صفى الدين الحلّى ، وكان قد نزل القاهرة في العقد الثالث من القرن الثامن الهجري ، وهو يجرى على هذا النمط^(٦) :

-
- (١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٣٦٥
(٢) انظر بعض بُليقات ابن دقيق في الطالع السعيد ص ٣٧٧
(٣) النجوم الزاهرة ٣١٧/١٠ - ٣١٨ .
(٤) القبا : ثوب يلبس فوق الثياب أو يستنطق عليه .
(٥) العاقل الحالى لصق الدين الحلّى نشر ولهم هو نرباخ بلطانيا ص ٢٧ .
(٦) اللورد الكاتبة ١٤/٣

مَنْ نَشْتَقُوا سِيدَ الْمَلَاخِ فِي خَدُّوْ مَا وَنَا ز طَرَّزُوا مِنْ زَانُوا بِالْعِذَارِ
عَرَّضْتُ لَوْ بِالْإِتْمَاحِ صَارَ وَرَدُّوْ كَالْبَهَارِ^(١) وَتَسَدَّلُ لُونُو بِالضَّفَارِ

وأشد زجلا مصريا كاملا ، قال : سمعته للمصريين ، وهو يصور خفة روحهم ورقهم ولطفهم وظرفهم ، وبما جاء فيه ^(٢) :

لَسْ غَرِيبٌ مِّنْ فَارَقَ أَوْطَانُو أَوْ يَبْعُدُ عَنْ نَاطِرُو الْمُحِبُّو
إِلَّا مِّنْ دَارُو قَبْلُ دَارُو وَالْحَبِيبُ عَنْ نَاطِرُو مُحِبُّو
جِيئَ عَنِّي حَبِيبُو أَهْلُو وَأَسْرَفُو فِي جَنَعِ حُطَاظُو
وَالرَّقِيبُ قَدْ غَيَّبُوا عَنِّي حَتَّى غَيَّبَ قَلْبُ الَّذِي غَاظُو
كُلْ يَوْمَ لِأَجَلُو يَغِيبُ قَلْبُو رَبُّ غِيبَ قَلْبُ الَّذِي غَاظُو
مَاسْخَطَرُ إِلَّا وَهُوَ خَائِفُ أَوْعَبَرُ إِلَّا وَهُوَ مَرْعُوبُ
لَسْ نَطِيقُ نَلْفِظُ مَعُو لَفْظُهُ لَا وَلَا يَرْبِيعُ إِلَيْهِ مَكْتُوبُ
رَيْتُ حَبِيبِي فِي الرِّيَاضِ يَمْرُحُ بَيْنَ أَقْرَانُو وَأَتْرَابُو
قَلْتُ قَدْ صَحَّ الْمَثَلُ فِينَا مِنْ لَقَى أَحْبَابُونُسِي أَصْحَابُو
فَقَالُوا قَدْ ضَجَّتْ بِنَا أَعْدَانَا وَرَمُونَا قُلْتُ مَا صَابُوا

والزجل يسيل رقة ونعومة وعلوية . وقد روى صاحب خزانة الأدب قطعة من زجل ابن الفحاح في وصف الترجس ^(٣) . ولما توفي السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٨ حزن الناس عليه حزنا عظيما ورثاه الشعراء بعدة قصائد ، كما رثاه الزجالون ومن قول أحدهم ^(٤) :

كوكب السعد غابَ مِنْ الْقَلْعَةِ وَهَلَأُو قَدْ انطَفَأَ بِأَمَانِ
وَزُحِّلَ قَدْ قَارَنَ الرِّيحُ لِكُفُو شَمْسِ الْفُجَى شِعْبَانِ

ومن أطرف الأزجال المصرية لمهد المالك زجل نشرته قديما بمجلة الثقافة ^(٥) نظمه زجال مصري في رثاء الفيل مرزوق ، وهو قيل كان قد أهداه تيمور لنك في أوائل القرن التاسع الهجري إلى سلطان مصر ، وتصادف أن الظهان الموككين به ساروا معه نحو بولاق ورجعوا مجازفين به على

(١) النجوم الزائرة ٨٣/١١

(١) البحار : زهر أسفر .

(٥) مجلة الثقافة : العدد رقم ٣٧١ لسنة ١٩٤٦ .

(٢) الباطل الخال ص ١٠٩

(٣) خزانة الأدب ص ٢١٩

قنطرة ضعيفة فوق ماء ، فانخفضت به ولم يقدر أحد على إنقاذه ومات ، وخرج الناس زمرا
بتفرون عليه ، وأنشأ فيه بعض الزجالة مرثية بديعة ، وفيها يقول على لسان زوجته باكية له
نادبة :

سهم الفراق قد صاب قلبي يا مسلمين
ونا غريبة هندية قلبي حزين
وعبّطت حتى أبكت جيرانها^(١)
من كثر مانحت ناحوا لأحزانها
من نارها صارت تلطم بؤدانها^(٢)
حتى الزرافة جاءتها منحّره
تيكى على الفيل الى مات في القنطرة

وكانت لدى هذا الزجال روح فكهة ولفات ذهنية بديعة ، إذ جعل زوجة الفيل هندية كما
جعلها تلطم « بودانها » أو آذانها ، واختار الزرافة لتساعد في حزنها لما يبدو عليها دائما من تأمل
وحزن كأنما ضاع منها شيء . ويبدو أن الزجل ازدهر حيثذ بمصر . وفي دار الكعب مجلد نفيس
لأحوال زجل مصرية مطبوع بباريس .

وتنظّل الأزجال حبة في الحقة العنانية ومثلها المواليا ، وهي الفن الشعبي العامي الثاني الذي
استكلمته المصريون ومعروف أنه يخرج من بحر البسيط ، ونجدته في ديوان ابن الفارض الصوفي ،
واشتهر به في عصر الماليك أبو بكر بن العجمي عين كتاب الإنشاء في مطلع القرن التاسع الهجري
وكان إمام فن المواليا^(٣) لزمته وضروبه المتشعبة ، ومن موابياته :

للحبّ قالوا معتك الذي اذبلتو جدلّو بقلّله فقلّبو فيك خبلتو
فقال أقسم لو أنّ البوس سبلتو ومات ، للشرق مايرتو وقبلتو^(٤)

قد تكون من القيلة بضم القاف وهو المعنى الجادر لبقها
بكلمة البوس ، وقد تكون من القيلة بكسر القاف أى
مأداره نحو القيلة بعد موته وهو المعنى المراد .

- (١) عبّطت : بكت .
(٢) ودانها بالعابة : آذانها .
(٣) غزاة الأدب ص ٤٣ .
(٤) درنو : كلمة حامية أى أدرته . وفي قيسية لأنها

وتظل المواليا حية في أيام المالك وأيضاً في أيام العثانيين . وكانت توزعها منذ القرن السابع الهجري الأنواع التي مرت في الزجل وهي : البَلْبَن ، وموضوعه الغزل وقد تصحبه الخلاعة ، وأنشد الجبرتي من أمثله الغزلية البارعة قول الشيخ شمس الحنفى الشافعى الخَلَوْنى :

خَطَرُ عَلَى غَزَالٍ مَرَّ مَا أَتَكَلَّمُ فَوْقَ جُفُونِهِ وَقَلْبِي وَالْحِشَاءُ أَكَلَّمُ
إِشْرُكَ كَانَ بِضَرِّهِ إِذَا بِالرَّاسِ لِي سَلَّمَ حَتَّى أَسْرَّ مَهْجَتِي لَوْلَا السَّلَامُ سَلَّمَ

والنوع الثانى القَرَبَا وينظم فى المزل والفكاهة وما يتصل بهما ويسوق الجبرتي منه مثل قول حسن شَمَّه .

قَالُوا نَحْبُ الْمُدْمَسْ؟ قُلْتُ بِالزَّيْتِ حَاوُ الْعَبَشِ الْإِيضُ نَحْبُهُ قُلْتُ وَالْكِشْكَاوُ
قَالُوا نَحْبُ الْمَطْبَقِ؟ قُلْتُ بِالْقَنْطَارِ قَالُوا أَشْ تَقُلُّ فِي الْخَضَارَى قُلْتُ عَقْلُ طَارِ

والقول المدمس طعام شعبي لأهل مصر ومثله الكشك ، والمطبق نوع من الرقاق محشو بالنقل والسكر ، أما الخضار فن طيور البحيرات . والنوع الثالث من المواليا المكفر وينظم فى الحب الإلهي والمديح النبوى والمواعظ وفى ديوان ابن الفارض منه أمثلة متعددة . ويسوق منه الجبرتي قول الشيخ شمس الحنفى أو الخضاوى وهو مواليا يمكن قراءتها معربة على هذا النمط .

بَاهُ بِأَقْلَبُ دَعَّ عَنْكَ الْهَوَى وَاسَلَّمَ مِنْ كُلِّ مَيْلٍ وَوَفَى عَهْدَهُمْ أَسَلَّمَ
وَالزَّمْ حُمَى سَادَةٍ مِنْ أَمَهُمْ يَسَلَّمَ وَاسَلَّمَ سَبِيلَ التَّقَى يَوْمَ الْفَقَا تَسَلَّمَ

ويقول صنى الدين الحلى إن القوما خاصة بسجود رمضان من قول المغنين فى آخر كل بيت فيها
« قوما قوما للسجود » . أما الكان وكان فالشطر الأول من البيت فيه غالباً يكون أطول من الشطر الثانى وهو خاص بالحكايات والخرافات والمراجعات فكان قائله يحكى ما كان وكان . ويقول إن
فن القوما وكذلك فن الكان وكان لا يعرفها سوى أهل العراق ^(١) . ويحكى ابن تغرى بردى منه منظومة فى وقعة قوصون ساقى الناصر بن قلاوون وما كان من قتله ، وهى تسهل على هذا النمط ^(٢) :

مِنْ الْكَرْكُ جَانَا النَّاصِرُ وَجَبَّ مَعَهُ أُسْدُ الْغَابَةِ

ووقفك يا أمير قوصون ما كانتِ آلا كذابة

ويدو أن المصريين حاكوا فن القوما العراق أيضا ، إذ نرى الجعفرى فى الحقبة العثمانية يتوقف مرارا ليقول إن هذا الشاعر أو ذاك كان ينظم فى الزجل والقوما والكان وكان والموالي والبليق^(١) . ونقف قليلا عند بعض أصحاب هذا الشعر الشعبي العامى .

إبراهيم^(٢) المهار

هو جمال الدين إبراهيم بن على المهار ، يقول فيه صاحب فوات الوفيات : « إبراهيم الحائك وقيل المهار وقيل الحجار عامى مطبوع تقع له التوريات المليحة المتسكنة لاسيا فى الأزجال والبلاليت » ويقول الصفدى : « عامى مطبوع تقع له التوريات المليحة المتسكنة المطبوعة الجيدة ولاسيا فى الأزجال والبلاليت ، بحيث إنه فى ذلك غاية لاتدرك ، أما المقاطيع الشعرية فإنه يقعد به عنها مراعاة الإعراب وتصريف الأفعال » ويقول ابن تغرى بردى : « كان ذكى الفطرة قوى القرحة لطيف الطبع » ويقول ابن حجر : « كان يلزم القناعة ولا يتردد إلى أحد من الأكابر إلى أن مات فى الطاعون سنة ٧٤٩ ومن قوله فيه قبل موته .

فُجِعَ الطاعون داءً فُقدتْ فيه الأُحبة
بيعتْ الأنفسُ فيه كلُّ إنسانٍ بحُبه

وفى كلمة « حبة » تورية واضحة لأن الطاعون يصحبه دمل كبير ، وله توريات كثيرة كما قال من ترجموا له ، من ذلك قوله :

بالقُبُ صبرا على الفراق ولو رُميتْ من نَحْبِ بالبَيْنِ
وأنت يادمعُ إن ظهرتْ بما يُخفيه قلبى سقطتْ من عيني

وفى كلمة « سقطت من عيني » تورية إذ لا يريد معناها القريب وهو تحدر الدمع من عينه وإنما يريد معناها المعروف فى العامية إلى اليوم وهو أنه ضاع ولم تعد له مكانة . وكان الناصر بن قلاوون

والوفاء ١٧٣/٦ والدرر الكاشنة لابن حجر ٥٠/١ وتاريخ

ابن لياس فى مواضع متفرقة وخزانة الأدب ص ٣٨٥ .
وله زجل مسجل فى كتاب عقود الليل للنساجى

(١) انظر الجعفرى ٢٩٠/١ .

(٢) انظر فى المهار وترجمته وأشعاره فوات الوفيات
٥٥/١ والنجم الزاهرة ٢١٢/١٠ وللبل الصافي ١٧٤/١

يألفه وبقره منه لطرافة تورياته وله في زوجه مداعبا :

لما جَلَّوْا عِرْسِي وعابَتْهَا وجدتُ فيها كُلَّ عَيْبٍ يُقَالُ
فقلت للدُّلَالُ ماذا ترى ؟ فقال : ما أَضْنُ إِلَّا الحلال

والدلال : جالب العروس ، ولكلمة الحلال معنيان : ضد الحرام والمباح . ومن تورياته
مداعبا بعض من أمر بصفحه ، فحتى في هذا الموقف يفزع إلى التورية قائلا :

ماكان صَفْعٌ بالرُّضا لكنه من خَلْفِ أُذُنِي
لولا يَدٌ سَبَقَتْ له لأمرتُهُ بالكفِّ عَنِي

وفي البيت الأول تورية في كلمة « من خلف أُذُنِي » إذ تحمل معنيين هما القفا موضع الصفع
وعدم الاكتراث . وفي البيت الثاني تورية في كلمة « يد » إذ لها معنيان هما النعمة والصفع باليد ،
وبالمثل لكلمة « الكف » معنيان هما : الانصراف عن الشيء والصفع بالكف . ومن تورياته :

وخادمٍ يعلو على عشاقِهِ برتيةٍ من الجمال نالها
وإِسْمُهُ - وهو العجيبُ - محسَنٌ وكم دموعٌ في الهوى أسالها

وفي كلمة « أسالها » تورية إذ تحمل معنى قريبا هو إسالة الدمع ومعنى بعيدا من الأسى وهو
الحزن كأنه يرق لحبيه حين يرى دموعهم ويحزن لهم . ومن لطائف تورياته :

ما مصرُّ إِلَّا منزلٌ مستحسنٌ فاستوطنوه مَشْرِقًا أَوْ مَغْرِبًا
هذا وإن كنتم على سَفَرٍ بِهِ فَيَسِمُوا منه صَعِيدًا طَيًّا

وقد اقتبس الشطر الأخير من الآية القرآنية : (فَيَسِمُوا صَعِيدًا طَيًّا) وهو لا يريد معنى
الصعيد في الآية وهو وجه الأرض وإنما يريد صعيد مصر ووجهها القبلى ، وهى تورية بدبعة ،
ومن ذلك قوله :

حَزَنَ الحَزْرَانُ لما أن رأى
ورأى الأرض لنا قد أخرجتْ
وبكى إذ رَمِدَتْ أَعْيُنُهُ زادها اللهُ عروقا وسَبَلْ
يَلَنَّا قد عمَّ سهلا وجَبَلْ
سُبُلَاتِ ذاتِ حَبٍّ فاخْتَبَلْ

والسبل : داء يصيب العين بشاوة كأنها نسج المنكبوت بعروق حمر ، وهو لا يريد هذا المعنى فهو لا يريد الداء على الحزان وإنما يريد الداء لأرض مصر ونيلها وأن تزيد عروق قح وسبل كما تقول العامة أو سنبلات . ومن تورياته :

شهرُ الصيام نَوَلَى فراقه يومٌ عيدى
فَقِيلَ شَيْعُ بَسْتِ فقلت أيضا وسيدى

وكلمة « ست » لها معنيان معنى قريب هو الأيام الستة البيض التي تصام نفلا بعد رمضان ، ومعنى ثان هو السيدة ، وقد وجه العبارة إلى هذا المعنى كما يشهد بذلك الشطر التالى . ولم تُعْنَ كعب الأدب والتراجم برواية شيء من بلاليقه . ومن موابياته :

مَزَجْتُ يوما مع الحُبِّ الرشيْق القَدْ وقلت آهِ على من قَبْلَكَ فى الحَدِّ
فَلْ سِفُو من أَجْأَنُو لَقَتْلَى حَدِّ قلت انتهى الأمر يا حَبِيبى لهذا الحَدِّ
وفى كلمة « الحد » الأخيرة تورية إذ لها معنيان : العقوبة مثل كلمة الحد السابقة ، والنهاية المفرطة . ومن موابياته أيضا :

رمى ، أصاب صميمَ القلب زين الزَّينِ وَأَصْبَحْتُ مُضْنَى قَلْقٍ أَخْشَى حلول الحَيْنِ
وكنْتُ قَبْلُ خَلِيٍّ لم أَشْكُ وشكَّ البينِ سألَمُ من العشق حتى صابنى بالعَيْنِ
ولكلمة « صابنى بالعين » معنيان هما الحسد ، وإصابة المحب لمحبوبه بعينه وسهامها القاتلة . وله موابيات وأشعار مفحشة كثيرة كان يقولها نظرفا لأهل زمنه .

الغُبَارَى (١)

هو خلف بن محمد الغُبَارَى عاش فى القرن الثامن الهجرى ، وكان فقيها وعالما وأديبا وشاعرا ينظم الشعر الفصيح ولكنه اشتهر بنظم الزجل . ونرى السلاطين منذ الناصر بن قلاوون يقربونه منهم ، كما نراه ينظم أرجالا مختلفة فى أحداث مصر ، ولا يعرف تاريخ وفاته ، ويقال إن مثذنة

النواجى ص ٢٥٥ وكتاب « الزجل والرجالون » لأى بنية ص ٢١ .

(١) انظر فى الغُبَارَى تاريخ ابن راس فى مواضع متفرقة من القرن الثامن الهجرى ، وراجع زجلا له فى عقود اللآل

المسجد بقلعة الجبل سقطت عليه فوات ودُفِن تحت أنقاضها ، وهو يعد أستاذ فن الزجل لزمناه ،
فمنه تلقاه كثير من المصريين ، ويبدو أنه نظم في موضوعات كثيرة : في المديح والثناء والأحداث
السياسية ، ومن زجل له في مديح السلطان شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ) وكان محبوبا من رعيته :

حُبَّ قلبي شعبان موثَّق رشيدٌ وجمالو أشرقُ ومالو حدودُ
وأبوه الحسن وعمه الحسينُ وارث الملك من جُودود لجودود
زَعَقِي السعد بين يديك شاويشُ فرح القلب بعد ما كان حزين
ونصَّب لك كرمي على الملكة وظهرَ لك نصره بفتحو المين
والعصائب من حولك اشالتُ - خفقت في الركوب عليك - البنود
فاحكم احكم في مصر ياسلطان فجميع الجنود لحسنتك جنود

والشاويش : رتبة عسكرية ، ويريد الغباري أن السعد مثل بين يدي السلطان شعبان مؤثرا
بأمره ، ويقول إن العصابات أو جماعات الفرسان والرجالة اشالت أي رفقت البنود والأعلام
كتابة عن أنه أصبح في مصر صاحب الأمر والنهي والسلطان . ونراه متصلا بابنه السلطان على
(٧٧٨ - ٧٨٣ هـ) ناظرا الأزجال في الأحداث الكبرى لأيامه ، من ذلك زجل طويل نظم في
وقعة العريان بالبحيرة القريبة من الإسكندرية ، وفي مطالعه يقول :

جا الحَبْرَ يوم الأربعاء بأنو في ليلة الأحَد
جا دمنهور عرب غلوا سرقها وأخربوا البلد
وابن سلام أميرهم هو الذي للجميع حَذُ
فبرز أينمش سريع بمالك وجند نُوبُ
وعُدَد ماها عدد ويطلبوا لهم طلب
حضرُوا ما التقوا أخذُ من جميع العرب حَضَرُ

وله وراء ذلك أزجال كثيرة في النصائح والوصايا والحكم ، ولعلها أروع مما أنشدناه ، إذ
كانت تفصل من روحه ومن خبرته بالحياة ، وكأنما يريد بها إلى حسن التربية وإحكام السلوك
والانتفاع بخبرة الآباء والأسلاف وبمجارهم في الحياة ، من مثل قوله في زجل طويل :
في الناس رأينا للخير معادنَ والدرَّ يوجد في كثرِ مثْلُهُ

وَأَنْ رُمَتْ جَوْهَرٌ فِي الشَّخْصِ مَكْنُونٌ فَجَوْهَرُ الشَّخْصِ حَسَنٌ فِعْلُهُ
وَأَنْ كَانَ نَزِيدَ صَحْفَةِ الْمَعَانِي وَشَرَحَ مَا فِي الْبَيَانِ مَحْرُورٌ
خُذْ فَرْعَ يَأِيدُكَ مِنْ أَصْلٍ حَتَّظَلْ وَازْرَعْ جَنْدُورَهُ فِي أَرْضِ عَثْبَرٍ
وَاسْقِهِ بِمَاءِ بَانَ وَوَرْدٍ مَمْزُوجٍ وَعَقْدَ جُلَّابٍ وَحَلٍّ سَكَّرٌ^(١)
وَحِينَ تَشُوفُهُ عَقْدَ ثَمَارِهِ وَأَنْ أَوَانَهُ وَحَلٍّ فَصْلُهُ
فُوقَهُ تَرَاهُ مَرٌّ وَالسَّبَبُ فِيهِ مَا يَرْجِعُ الْفَرْعُ إِلَّا لِأَصْلِهِ

ولغة هذا الزجل تختلف عن لغة الزجلين السابقين ، فهي أكثر خفة وقربا من اللغة العامية المصرية ، وليس ذلك فحسب فهي تكتظ بالصور والاختلة البديعة ، وكأننا بازاء شاعر بارع يحسن تأليف الصور وإيرادها في موضع البراهين الساطعة ، ومن طريف حكمه ووصاياه في هذا الزجل نفسه قوله ناصحا صادقا :

لَا تَخْتَصِرْ أَيْ ابْنَ آدَمَ فِي طَوْلِ حَبَاتِكَ وَلَا تَنْمُهُ
كَمْ حَى خَامِلٌ يَقُولُ عَلَيْهِ مَا يَعْرِفُ اسْمَ الْبِهِمِ مِنْ اسْمَةٍ
وَأَنْ جِئْتَ صَاحِبَتَهُ فِي يَوْمٍ بَيَّانٍ لَكَ تَظْهَرُ مَعَارِفُهُ وَيَنْجَلِي عِلْمُهُ
وَيُشَبِّهُ الرُّوضِ حِينَ يَلْبُو شَوْكُهُ وَالْوَرْدِ مُسْتَوْدٍ مِنْ تَحْتِ سِيلُهُ
وَالْبَحْرِ تَلْقَى الرَّمَمَ تَعَوْمُ بِهِ وَالذَّرَّ غَابِصٌ مَحْلُوطٌ بِرَمْلُهُ

وهي وصية نفيسة أن لا يبادر الإنسان إلى الحكم حكما سريعا على شخص دون تبين حقيقته ومعرفة جواهره ، والثل في العامية : الشوك . ويمثل هذا الزجل كان الغباري إمام فنه في زمنه غير مدافع .

(١) البان : شجر مفقود الأضراس تشبه به الحسان .
والجلاب : ماء الورد والزمهر .

ابن^(١) سودون

هو على بن سودون أکبر شخصية شعبية فکهة في القرن التاسع الهجري عُنى في بواکیر حياته بحفظ القرآن الکریم وتحصيل العلوم والمعارف حتى أصبح شيخاً فقيهاً ، ومُتمِّناً إماماً بأحد المساجد في القاهرة ، وكان فيه ميل متأصل إلى الفكاهة والهزل وقدرة على نظم الأشعار الهازلة الفكهة . فشغف الناس به ، وتنافسوا في رواية أشعاره ودعاباته . ولم يلبث أن عُنى بجمعها وأضاف إليها بعض حکایات فکهة مکتونا من ذلك کتابه "أو ديوانه" : "نزهة النفوس ومضحک العبوس" وجعله في خمسة أبواب : الباب الأول في القصائد والتصاديق ، ويقصد بالتصاديق مقدماتها وهي قصائد نُظمت بالفصحى ، والباب الثاني في الحکایات الملائيق وواضح من اسمه أنه أقاصيص قصيرة ، والباب الثالث في الموشحات الهالية كما يقول وهي بالعامة ومثل هذا الباب باب الزجل والمواليا التالى فهو أيضا عامی اللغة . أما الباب الخامس فجعله للطرف العجیبة والتحف الغريبة ، وكأنّ البابین الثالث والرابع هما الخاصان بالشعر الشعبي العامی وإن كانت العامة عنده تتسرب إلى الباب الأول : باب القصائد ، ومن الطريف أن عاميته شعرا ونثرا تقترب جدا من عاميتنا الحديثة ، وقد يكون في ذلك ما يشير إلى أن مصر بلد محافظ . وبدون ريب يصور ابن سودون في كتابه مزاج المصرين الفكه . وفكاهته تقوم على ضروب من المفارقة المطلقة . تجعلك تشعر بغير قليل من فقدان التوازن على شاکلة قوله في وصف الريح وجمال طبيعته :

إلى الريح أرى الأهواء تلويني	لما بدا زهره في حسن تلويني
قد عطر الأرض نشر الفول حين سرت	نسيمه سحرا منه تخيبي
كان زهرته أم الخلول إذا	فلقنتها فوق نفع بصحون
وكاد يشبه تاج القمح بامية	لولا شعور كأعراف البراذين ^(٢)
واعجب من الماء وسط البحر كيف غدا	يمشي بلا قدم سحبا على الطين
مُسَلَّلا قد جرى بإصاح منطلقا	فاعجب لمن جمع الضلئين في حين

نزهة النفوس ومضحک العبوس مطبوع في القرن الثامن عشر وطبع حديثا .

(٢) البراذين : جمع برفون وهو البخل .

(١) انظر في ابن سودون شذرات الذهب ٣٠٧/٧ ومقابلين لنا في تحليل ديوانه مجلة الکاتب العددين رقم ١٠ ، ١٢ وراجع کتابنا الفكاهة في مصر ص ٦٧ وديوان

ومن يراه يتحدث عن الربيع والزهر في البيت الأول يظن أنه سيستمزج في الحديث عن الجبال
 المهاج في الطبيعة وأزهارها وورودها ورياحيتها ، وإذا هو يسقط به إلى النشر الفائع من نبات
 القبول وإلى زهره الذي يشبه صدقة أم الخلول التي يطعمها المصريون واضعين على الخلول النعناع
 والبهارات . أما القمح فتشبه سنابله البامية : الخضار المعروف ، لولا ما يتدلّى من سنابله من شعور
 كأعراف البغال والخيول . ويعجب عجا لاحت له من جريان الماء على الطين ، ويسمى الماء
 سلسلا إذا جرى منحدرا . ويستغل الكلمة ابن سودون إذ لها هذا المعنى ومعنى ثان من السلسلة
 بمعنى مقيدا بالسلاسل .

ونحن في أثناء ذلك كله نضحك ، لما أصاب توازننا المنطق من اختلال ، وكأنما الأشياء تهوى
 أمامنا من حائق . ومن ذلك قوله .

عجبٌ عجبٌ هذا عجبٌ بَقَرَا تَمَشَّى ولها ذنبٌ
 ولها في بُزْرِزْهَا لَبَنٌ يبدو للناس إذا حلبوا
 من أعجب ما في مصر يُرى الـ حَكْرُمُ يُرى فيه العجبُ
 والتَّحْلُلُ يُرى فيه بَلَحٌ أيضا ويُرى فيه رُطْبُ
 والمركبُ مع ماقد وَسَقَتْ في البحر بجمل تنحبُ
 والناقَةُ لا منقارَ لها والوزَةُ ليس لها قَتَبُ

وحين نقرأ قوله عجب ، نظن أنه سيعرض علينا بعض العجائب فإذا هو يعرض بدييات غاية
 في البدهة ، في صورة مفارقة من التباله . ونحس كأن عدوانا أصاب منطقنا أو وقع عليه ، فالبقرة
 تمشى ولها ذنب وضرع مملوء لبنا ، وشجر الكرم يحمل العنب ، وعلى النخل البلح بُسرا ورطباً ،
 والملاحون يجرّون بجالهم المركب الموسوق ، والناقَة لا منقار لها وكأنه كان يظنها يجسمها الضخم من
 الطير . ويظن الإوزة من الإبل تمشى على أربع ، ويتساءل عن قتها أو رحلها . وكل هذه
 مفارقات تتحدى على منطقنا فنفقد توازننا ونستغرق في الضحك لهذا الهزل الذي يُلقَى فيه المنطق
 الشديد إلغاء .

ومن طريف هزل ابن سودون ومفارقاته المنطقية المتناهية في الإضحاح . وصفه لحفل زواجه
 وقبح زوجته على هذا النمط :

حَلُّ السُرُورُ بهذا العَقْدُ مبتدرا ونجمُ طالعه بالسَّعْدِ قد ظهرَا

وه القل، كُـلُّ وَجْهٍ الْأَرْضِ فَاَنْعَطَفَتْ
وَالطَّيْرُ مِنْ فَرْحِهَا فِي دَوْحِهَا صَدَحَتْ
تَقُولُ فِي صَدْحِهَا : دَامَ الْهَنَا أَبَدًا
هَذَا وَعَقْلُ عَرُوسِي كَانَ أَصْغَرَ مِنْ
فِي السَّنِّ قَدْ طَعَنْتُ مَاضِرٌ لَوْ طُعِنْتُ
فِي وَجْهِهَا نَشْرُ فِي أَذْنِهَا طَرَشُ
يَا حَسَنَ قَامَتَا الْعَوْجَا إِذَا خَطَرْتُ
تَظَلُّ تَهْتَفُ لِي : حَسَا حَظِيَّتْ بَهَا

وهو في أوائل الآيات يجعل السعد رفيقا له كما يجعل الطبيعة ترقص طربا لرفاقه على عروسه ،
فالأشجار تنثر أزهارها فرحا والطير تصدح على أعوادها داعية للروسين بدوام الهنا أبدا . وفجأ
بعد ذلك بمفارقة منطقية شديدة ، فالعروس عجوز شمطاء صماء في وجهها نَمَشٌ وفي عينيها
عمش وقد حَتَّى قَامَتَا الْمَرْمُ . ومع كل هذا القبح تظل تهتف به أن يحمده الله على حظوته بها ،
وتهتفي لَوُطُعِنْتُ بَيْفٍ أَوْ حَازَهَا الْمَوْتُ وَدَفِنْتُ فِي التَّرَابِ إِلَى غَيْرِ مَا ب .

وعلى نحو هزل ابن سودون في تصويره لحفل قرانه نراه يهزل في رثائه لأمه هزلا ، يبعث على
الابتسام بل على الضحك والإغراق فيه ، يقول :

لَمُوتِ أُمِّي أَرَى الْأَحْزَانَ تَحْنِنِي
وَطَلَامَا دَلَعْنِي حَالُ تَرْبِنِي
أَقُولُ : « مَمَّ مَمَّ » نَجِي بِالْأَكْلِ تُطْعَمُنِي
تَقُولُ « هُوَهُو » يَهْزُ كِي تُشْنِنِي
كَمْ كَحْلَتْنِي وَلِي فِي جَهَنِّي جَعَلْتُ
« صَوْصُو بِنْبَلِي » وَكَمْ كَانَتْ تَحْنِنِي
وَمِنْ قَبِيحِي إِنْ أَهْرَبْتُ وَرَامَ أُنِي
تَشْرُ الْمَلْحَ مِنْ فَوْقِ وَتَرْقِنِي
وَخَلَفْتَنِي بِنْبَا ابْنُ أَرْبَعِي
فَطَلَامَا لَحَسْنِي لَحَسَ تَحْنِنِي
خَوْفَا عَلَى خَاطِرِي كِي لَا تَبْكِنِي
أَقُولُ : « أُمُور » نَجِي بِالْمَاءِ تُشْنِنِي
تَقُولُ « هُوَهُو » يَهْزُ كِي تُشْنِنِي
« صَوْصُو بِنْبَلِي » وَكَمْ كَانَتْ تَحْنِنِي
مَسْكِي وَبَقِي لَه كَانَتْ تَحْنِنِي
تَشْرُ الْمَلْحَ مِنْ فَوْقِ وَتَرْقِنِي
وَأَرْبَعِينَ سِنِينَ فِي حِسَابِي

والمرثية طويلة اقصرنا منها على هذه الآيات وكلها على هذا النحو عدوان على ما تألف في
الرثاء عامة ، إذ بدلا من أن يحمل كل بيت صرخة ألم أو دمع حزن تتحول المرثية كلها هزلا

ودعابة . وكأنما ينظمها في عيد من أعياد أمه فهو يذكرها بأيام طفولته وكيف كان يقول لها « مَم » فتأتي له بالطعام « وأُمبر » فتأتي له بالماء ، وكيف كان يبكي على صدرها وهي تنزهه في حنان ، كما يذكرها بأيام صباه ، وكيف كانت تدلّي من شعره تعويذة على جبينه ، وكيف كانت تحبّه حين يهرب من الكتاب . ويذكرها بيوم يختانه وزغاريد هافيه وكيف كانت تنثر فوقه الملح بركة ، وترقيه من شر كل ما يؤذيه . وكل هذه مفارقة شديدة للثناء وموقف الموت الوقور الحزين ، فإذا ابن سودون يهزل فنضحك ونشادي معه في الضحك . وقد جاء في المروية ببعض كلمات الأطفال ، وهو يكثر من لحنهم في هزله كقوله :

ولما أن كبرتُ بحمد ربّي وصار لِمَتَّهِ عقل ابتداء
بقيتُ أقول : نُتو نُتو تاتّة ودَحُو كَخْ وأُمبر مَم آء

والكلمات كلها من لغة الأطفال قبل نطقهم بالكلام ، ومعنى كلمة دَح في اللهجة المصرية العامية حسنا كلمة كَخ قبيح ولا تفعل . والحق أن ابن سودون كان جَمْعَ هزل وفكاهة ، وقد بتّى فكاهته على المفارقة المنطقية فتحس دائما بعدوانه على منطقنا يلاهته ، ونشعر كأنما الأشياء من حولنا تَهْوِي من أبراج عالية ، هي أبراج المنطق والعقل الواعي ، فنضحك ونسرتل في الضحك .

الفضل الختاس

النثر وكتابه

١

الرسائل الديوانية

ظلت مصر في عهد ولاتها من قبل الأمويين والعباسيين لا تعرف من الدواوين سوى ديوان الخراج والبريد ، وكانت الكتابة في الديوان الأول باليونانية إلى أن تعرب في عهد الوليد بن عبد الملك ، وعادة كان القائمون عليه وعلى ديوان البريد يحلبهم الولاة معهم من العراق ^(١) ، وبحق يقول القلقشندي إنه : لم يصدر عنهم ما يدون في الكتب وتنقله الألسنة ^(٢) . و مرجع ذلك - كما لاحظ - أن الولاة لم يهتموا حينئذ باتخاذ ديوان للإنشاء . يوظف فيه كتاب مجيدون وتصدر عنهم رسائل محبرة .

حتى إذا ولي مصر أحمد بن طولون وأسس بها دولته الطولونية وامتد سلطانه إلى الشام وعلا شأنه أقام ديوان الإنشاء ورفض مقداره كما يقول القلقشندي ^(٣) ، واتخذ فيه جماعة من مهرة الكتاب على رأسهم أحمد بن محمد بن مودود المعروف باسم ابن عبد كان . ويشهد اسمه بأنه فارسي الأصل ، إذ الكاف في الفارسية القديمة تدل على التصغير والألف والنون على النسبة ، فبعد كان يقابلها في العربية عيدي . وقد ظل قائما على ديوان الإنشاء بعد وفاة ابن طولون في عهد ابنه خماروية حتى توفي فخلفه على الديوان إسحق بن نصير الكاتب البغدادى .

وابن عبد كان يتدبّر بمصر سلسلة كتابها المشهورين ، ودوت شهرته منذ زمت لا في مصر وحدها بل أيضا في العراق ، إذ تجده بعد نحو قرن من الزمان يُقرن إلى أبي إسحق الصائى كاتبها حينئذ . وإذا رجعنا إلى رسائله الديوانية وجدناه يُعنى فيها بالسمع ، وقد يتخفف منه فيستخدم

(٢) صبح الأمنى ٩٥/١

(١) انظر كتابنا : الفن ومناخه في النثر العربي ، طبع

(٣) صبح الأمنى ٩٥/١ و ٢٨/١١ .

دار المعارف ص ٣٤٥ وما بعدها .

الازدواج من حين إلى آخر ، وسجعه خفيف . وبمده بغير قليل من التصاوير^(١) ، وتوقف القلقشندى في كتابه صبح الأعشى لذكر عنه كيف وضع رسوم الدعاء في افتتاح الرسائل وكيف تبدئ أجوبة الكتب^(٢) . وكان أهل بغداد في زمنه يخطون عليه مصر ، ويقولون إن بها كتابا - يقصدون ابن عبد كان - ليس لأمر المؤمنين بمدينة بغداد مثله^(٣) . وكانت رسائله متداولة بين الكتاب حتى زمن ياقوت في القرن السابع الهجرى^(٤) .

ونغضى إلى زمن الدولة الإخشيدية وقد ترتب ديوان الإنشاء وكثر الكتاب فيه ، غير أن أحدا منهم لم يشتهر شهرة ابن عبد كان ، ومن كتاب الديوان حيث ذكر إبراهيم بن عبد الله النجيمى ، واشتهر برسالة طويلة له ، ردّها على رومانوس حاكم يزنطة ، وكان قد أرسل إلى الإخشيد رسالة يفخر فيها ويمنّ عليه بأنه كاتبه وعادته أن لا يكتب إلا خليفة ، فكان له النجيمى الصاع صاعين ، ولإعجابه برسالة كتب منها نسخا وأرسلها إلى العراق مفاخرها بها مباحيا^(٥) .

ويستولى الفاطميون على مقاليد الأمور بمصر منذ منتصف القرن الرابع الهجرى وبمعظم ديوان الإنشاء في زمانهم لاتساع دولتهم من أقاصى المغرب إلى نهر الفرات وامتداد سلطانهم إلى الحجاز واليمن وأيضاً لأنهم كانوا أصحاب نخلة شيعية غالية اتخذوا لها دعاة كبيرين في العالم العربى ونظموا الدعوة لها تنظيمًا دقيقاً ، فكان من الطبيعى أن يهتموا اهتماماً واسعا بديوان الإنشاء القائم على كل شئون الدولة السياسية والإدارية والمذهبية ، وفى ذلك يقول القلقشندى : « لما ولى الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتبه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وولى عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغاتهم ما بين مسلم وذمى^(٦) » . وكانت لصاحب هذا الديوان منزلة كبرى لدى الفاطميين ، فكان لا يتولاه - كما يقول القلقشندى - إلا أجل كتاب البلاغة ، ويخاطب بالأجل ويلقب بكتاب الدُسْت ، والدمست صدر المجلس إشارة إلى أنه فى الصلبر من مناصب الدولة ، وكان أول أرباب الإقطاعات فى الكسوة والرسوم والملاحظات .. وله حاجب من الأمراء والشيوخ ، وله فى مجلسه المرتبة العظيمة والمخاد والمسدند والدواة العظيمة

(١) الفن وملامحه فى النثر العربى ص ٣٤٩ وما بعدها . (٥) المغرب فى حل المغرب لابن سجد : القسم الخامس

(٢) صبح الأعشى ١٦٠/٨ وما بعدها . بالخطاط (طبع جامعة القاهرة) ص ١٦٧ وما بعدها .

(٣) صبح الأعشى ١٧/٣

(٦) صبح الأعشى ٩٦/١ .

(٤) معجم الأدباء ٨٥/٦ .

الشان ، ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة ^(١) . وكانت تساعد طائفة من الكتاب البلغاء . وبلغ من اهتمام الفاطميين بهذا الديوان أن ألحقوا به دائما أكبر النواة واللغوين في أيامهم لمراجعة الرسائل قبل صدورها من الديوان ، ومن اختاروه لذلك ابن بابشاذ كبير نحاة مصر ولغويها في القرن الخامس الهجري وخلفه في مكانه ابن بركات من تلاميذه ، حتى إذا توفى خلفه ابن برى اللغوى المشهور ، إلى نهاية أيام الدولة الفاطمية ^(٢) . وكان يلتحق بالديوان بعض الشباب للتدريب فيه على تجويد الكتابة ، حتى إذا جودها شاب وأتقنها أصبح من كتّابه على نحو ماحدث ^(٣) للقاضى الفاضل بأخرة من زمن الفاطميين .

وتظل لديوان الإنشاء مكانته في عهد الأيوبيين ، ويتولاه لصالح الدين القاضى الفاضل مع قيامه على وزارته ، ويشرك معه العاد الأصياني في الكتابة ، وكان صاحب الديوان حينئذ يسمى كاتب اللشنت وكاتب اللزج وهو الورق الذى يكتب فيه . واتسع عمل هذا الديوان اتساعا كبيرا في عهد المالك ، مما جعل الظاهر يبرس بعين ثلاثة كانوا أصحاب اللشنت ، حتى إذا تحولت السلطة إلى قلاوون سمي صاحب الديوان كاتب السر ^(٤) . ورفع منزله فوق كتاب الدست . وجعلهم أعلى درجة من كتاب الدرج ، وكان في كل ولاية كبيرة لمصر ديوان إنشاء : في الإسكندرية وفي دمشق وغير دمشق . وظل هذا الديوان قائما إلى نهاية عصر المالك ، حتى إذا تبعت مصر الدولة العثمانية ضاعت منزلته نهائيا وأصبح أثرها بعد عين .

وفي صبح الأعشى للقلقشندي ثبت بأسماء من تولوا رئاسة هذا الديوان حتى زمنه ^(٥) سنة ٨٢١ وأضاف إليه ابن تغرى بردى من تولوه حتى أيامه ^(٦) سنة ٨٦٥ وأتمه السيوطى حتى نهاية القرن التاسع الهجرى ^(٧) ، ووراء هؤلاء الرؤساء كتاب كثيرا ما بذوا من كانوا يكتبون بين أيديهم وهم كثيرون . ومرت بنا أن ابن عبد كان الذى وضع رسوم الكتابة الإنشائية بمصر لزمن الطولونيين كان يعنى بالجمع فإن تركه ظل صور من الازدواج ، وظل كتاب الدولة الفاطمية في القرن الرابع الهجرى يترسمون طريقته ، فهم يسجمون ويزاوجون على نحو ما يلاحظ في الكتب التى كانت تصدر عن المعز والعزیز ، ويبدو أن ابن سورين المسيحي كاتب العزيز والحاكم كان يعنى بالجمع

(١) صبح الأعشى ١٠٢/١

(٥) صبح الأعشى ٩١/١ وما بعدها

(٢) انظر كتابنا « المدارس النحوية » طبع دار المعارف

(٦) النجم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣٣٤/٧ وما

ص ٣٣٨

بعدها

(٧) حسن المجاهرة ٢٣٠/٢

(٣) ابن خلكان ٢٢٠/٧

(٤) السلوك للمقريزى ٦٦٦/١ وابن تغرى بردى ٣٣٢/٧

كثيراً^(١) ، وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجري ، وجدنا كتابا يصدر على لسان الخليفة الظاهر سنة ٤١٤ مسجوعا كله ، وربما كان الذى كتبه أحمد بن على بن خيران الملقب بولى الدولة ، وكان بلى ديوان الإنشاء فى عهد الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ) والمتنصر إلى وفاته سنة ٤٣١ ، وكان كاتباً شاعراً ، وكان يعتد بشعره وكتابه مما جعله يرسل إلى الشريف المرتضى ببغداد جزء من شعره ورسائله ليعرضها على الأدباء هناك ، فإن استحسوها خلد لها بمكتبة دار العلم ، وأعجب هلال بن الحسن الصائى - فيما يبدو - برسائله^(٢) . ويقول ابن سعيد فى المغرب : « وقفت على رسائله فى مجلدين . وأكثرها من طبقة المفسول »^(٣) . ويسوق له رسالة عن الظاهر مسجوعة ، ويبدو أن ابن سعيد بالغ فى الحكم عليه ، أو لعله وجد عنده السجع فقط ولم يجد سجمه يزدان بألوان البديع ، ولذلك قال إن رسائله مغسولة أى من زينة البديع ومحسنة ، ومع ذلك فقد روى له قوله فى فصل من إحدى رسائله : « وكان قلمك يجف^(٤) ولا يجف^(٥) ، وسيفك من ذوى العناد يكف^(٦) ولا يكف^(٧) ، ووزنك فى سدّ ثلم الفساد يرجع ولا يجف^(٨) . والجناس واضح بين يجف^(٩) ويجف^(١٠) وبين يكف^(١١) ويكف^(١٢) وقد طابق بين يرجع ويجف مما يدل على أن ابن خيران لم يكن يخلى سجمه من محسنات البديع ، فهو ليس مغسولاً دائماً كما يقول ابن سعيد .

ولعل أهم كاتب خلف ابن خيران بديوان الإنشاء فى القرن الخامس الهجري ابن أبى الشخاء ولم يكن من رؤساء الديوان بل كان من الكتاب فيه ، وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . واشتهر ابن الصيرفى فى أثره إذ تولى ديوان الإنشاء فى عهد الأمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وسنترجم له عما قليل . وكان يكتب معه ابن قاهوس المار ذكره بين الشعراء ، ومازال يرقى فى الديوان حتى أسند إليه الديوان مع الموفق بن الحلال إلى وفاته سنة ٥٥١ . وكان يعمل معه لزمان ابن الصيرفى الحسن بن زيد الأنصارى وهو حفيد ابن أبى الشخاء من قبل أمه ، وكان كاتباً بليغاً واحتفظ العهد الأصمى ببطانة من رسائله الديوانية والشخصية^(١٣) . وقام على ديوان الإنشاء حتى نهاية الدولة الفاطمية للموفق بن الحلال وفى صبح الأعشى بعض رسائله^(١٤) ، وعلى يديه تخرج القاضى الفاضل

(١) المغرب فى حل المغرب (القسم الخاص بالقاهرة -

(٥) بكف : سبيل .

طبع مطبعة دار الكتب) ص ٢٤٩

(٦) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٧٣/٢ .

(٢) معجم الأدباء ٥/٩ وما بعدها

(٧) صبح الأعشى ٣١٠/١٠ و٣١٦ وانظر فى ترجمته

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٢٤٧ .

الخريدة ٢٣٥/١ وابن خلكان ٢٢٠/٧ وشعرات الذهب

٢١٩/٤ .

(٤) يجف : يسرع . وفى الأصل يوجف

في صناعة الرسائل . وظل يرعى له حق التعليم والتخريج إلى أن توفي سنة ٥٦٦ للهجرة .
 وكان القاضي الفاضل صاحب ديوان الإنشاء ووزير صلاح الدين وابنه العزيز ومقاليذ الأمور كلها بيده فأشرك معه العباد الأصحاب كما أسلفنا ، وسترجم لها بعد قليل ، ومن كتاب الأيوبيين في عهد الفاضل ابن مماتي وسترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ، وكتب من بعدها للأيوبيين جماعة ، منهم البهاء زهير الشاعر الذي ترجمنا له ، ولم تؤثر له رسائل مدونة ، وأشرك معه إبراهيم بن لقمان لعهد الصالح نجم الدين أيوب . ولم يلبث الصالح أن أعفى البهاء ، وظل ابن لقمان حتى نهاية الدولة الأيوبية ، وامتازت الكتابة الديوانية في العهد الأيوبي بأنه تكونت فيها مدرسة جديدة قادها القاضي الفاضل ، والحق أنها ليست جديدة خالصة ، فهي الثمرة النهائية لرقى الكتابة زمن الفاطميين ، إذ نرى الفاضل يكثر من المحسنات البديعة ، وكانت قد بدأت مع ابن خيران كما مر بنا ، وأضاف الفاضل إليها الإكثار من التورية ، وهي أيضا قديمة في الكتابات والأشعار الفاطمية منذ القرن الخامس على نحو ما مر بنا في حديثنا عن أشعار الشريف العقيلي . وألف في العصر الأيوبي كتابان في دواوين الخراج وشؤون المالية هما كتابا قوانين الدواوين لابن مماتي ، وسنعرض له في ترجمته عما قليل ، وكتاب لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية لعثمان بن إبراهيم النابلسي ، وكان كتابا في دواوين مصر لعهد السلطان نجم الدين الأيوبي (٦٣٧-٦٤٨هـ) .
 وبلغنا إبراهيم^(١) بن لقمان على ديوان الإنشاء أيام المالك في عهد أيك وقطر ويبرس ومدة قليلة في عهد قلاوون ثم نقله إلى الوزارة ، وظل وزيرا لابنه خليل . ثم عاد كتابا في ديوان الإنشاء إلى أن توفي سنة ٦٩٣ . وكان يشاركه في عهد الظاهر بيبرس محي الدين بن عبد الظاهر ، وهو أهم كتاب المالك ، وجعله قلاوون كاتب السر ، وظيفته أنشأها لأول مرة ، وسترجم لابن عبد الظاهر ، ومن كان يكتب بين يديه في الديوان ابنه خن^(٢) الدين . وخلفه على كتابة السر لعهد السلطان خليل بن قلاوون ، وكتب بين يديه أيضا سيظه شافع^(٣) بن علي بن عباس ، وهو الذي كتب عن السلطان قلاوون رسالة طويلة إلى السلطان أحمد القان بن هولاكو جواب كتاب كان قد أرسله القان إلى قلاوون يذكر فيه إسلامه وأنه حرم على عساكره الغارات على البلاد^(٤) .

١١٩/٥ .

(١) انظر في ابن لقمان صبح الأعشى ١١١/١٠ والنجوم

الزاهرة ٥٠/٨

(٢) راجع ترجمته في فوات الوفيات ٣٧٩/١ .

(٣) صبح الأعشى ٢٣٧/٧

(٤) انظر في فتح الدين حسن الحضارة ٥٧٠/١ والنجوم

الزاهرة ٣٥/٨ وصبح الأعشى ٣٣٩/١٣ وشفرة الذهب

ويلمع في رياسة ديوان الإنشاء بمصر ودمشق منذ عهد السلطان خليل التوفى سنة ٦٩٣ حتى نهاية القرن الثامن غير كاتب من أسرة فضل الله العمرى . وأول من ولى كتابة السرمها أو بعبارة أخرى رياسة الديوان عبد^(١) الوهاب بن فضل الله العمرى ، وظل يشغل هذه الوظيفة حتى العقد الثانى من القرن الثامن إذ نقله الناصر بن قلاوون إلى دمشق ووليا بعده من الأسرة في سنة ٧٢٩ أخوه^(٢) محيى الدين يحيى ، وكان يشرّكه في كتابة السرايه شهاب الدين أحمد ، وفي سنة ٧٣٢ نقلها الناصر فترة قليلة إلى دمشق ولم يلبث أن أعادها فظلا على كتابة السرحى سنة ٧٣٨ إذ تغير الناصر على شهاب الدين وأقام مقامه أخاه^(٣) علاء الدين ، وظل في الوظيفة حتى سنة ٧٦٩ وتولاها بعده ابنه بدر الدين^(٤) إلى أن توفى سنة ٧٩٦ .

ومن الكتاب المهمين المعاصرين له ابن مكانس ، وسترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . ويلمع في أوائل عهد المالك البرجية اسم القلقشندى صاحب صبح الأعشى ، ولم يتول كتابة السرحى ولكنه ألمع كاتب بالدواوين في زمنه وسترجم له بين كتّاب المقامات . ويتولى رياسة ديوان الإنشاء غير كاتب مصرى وشامى ويتوقف النشاط فيه مع دخول العثمانيين مصر كما أسلفنا . ونعرض طائفة من أنبه كتابه .

ابن^(٥) الصمى

هو على بن منجب بن سليمان ولد بالقاهرة سنة ٤٦٣ وكان أبوه صمى ، بينما كان جده معدودا بين كتّاب زمنه . ولعله هو الذى وجّهه إلى اتخاذه الكتابة الديوانية حرفة له . ولا بد أنه جمع له من أسبابها وأدواتها الثقافية ما جعله يتقنها سريعا ، والتحق بديوان الجيش وعنى به صاحبه صاعد بن مفرج ، وعمل في ديوان الخراج . وتنبه له وزير مصر لأيامه الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧-٥١٥هـ) فنقله إلى ديوان الإنشاء ، وأعجب به متوليه سناء الملك أبو محمد الحسى

الماضرة ٦٠٤/١ وصح الأحنى ٩٧/١ ، ٢٣٧/٨ -
٢٤١ ، ٣١٦ - ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ونسط القرى
٢١٤/٢ والمغرب لابن سبى (قسم القاهرة - طبع دار
الكتب المصرية) ص ٢٥٢ وراجع كتابه قانون ديوان
الرسائل (طبع مصر) والإشارة إلى من نال الوزارة (طبع
المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) .

(١) النجوم الزاهرة ٢٤٠/٩
(٢) انظر ترجمته في فوات الوفيات ٤٦/٢
(٣) النجوم الزاهرة ١٠٢/١١
(٤) النجوم الزاهرة ١٤٠/١٢ .
(٥) انظر في ابن الصمى وترجمته ورسائله معجم الأدباء
٧٩/١٥ وتاريخ مصر لابن مسير في مواضع مختلفة وحسن

الزبدى ، فأسند إليه كتابة التقاليد والمراسيم والتوقيعات ، حتى إذا توفى الخليفة الفاطمى المستمل سنة ٤٩٥ وولّى الأفضل الجمالى ابنه الأمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وهو فى الخامسة من عمره حينئذ نرى ابن الصيرفى هو الذى يكتب السجل بوفاة المستمل وولاية الأمر . ويُقرأ سجله على رهوس كافة الأجناد والأمراء . ويضيف إلى ذلك كتاباً عن الأمر عند استقراره فى الخلافة بعد أبيه بأنه فُوض إلى الأفضل الجمالى وزيره تدبير شئون الدولة والرعية . ويكتب كتاباً ثانياً إلى ولاية الأطراف بعد كتابة السجل أو العهد وتفويض الأمور إلى الأفضل مهتماً فيه بخلافة الأمر وتجديد ولايته . ويسجل القلقشندى فى صُبحه طائفة أخرى من كتب ابن الصيرفى فى البشارة بسلامة الخليفة فى مواسم رمضان إذ كانت تكتب فى مواكب الجمعة الأولى والثانية والثالثة وكذلك فى عيد الفطر وعيد النحر ، وحذف القلقشندى من تلك الكتب اسم الخليفة ، وقد ظل يعمل فى ديوان الإنشاء لعهد الأمر برياسة الشيخ ابن أسامة ، حتى إذا خلفه فيه ابنه أبو الرضا شركه فى برياسة الديوان ، ثم انفرد برياسته لعهد الحافظ (٥٢٤-٥٤٣هـ) . ويبدو أنه ظل يعمل فيه حتى توفى سنة ٥٤٢ . ويذكر ياقوت أنه توفى لأيام طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفاتر بعد سنة ٥٥٠ ولعل التاريخ الأول لوفاته هو الصحيح .

وكان ابن الصيرفى كاتباً بليغاً بل يُعدّ أبلغ الكتاب المصريين زمن الفاطميين ، وفيه يقول ياقوت : «أحد فضلاء المصريين وبلغاتهم مسلّم ذلك له غير منازع فيه . . وله رسائل أنشأها عن ملوك مصر تريد على أربع مجلدات» ويشيد ابن سعيد فى المغرب ببلاغته قائلاً : «وقعت على ترسله فى مجلدات عدة ، فوجدت [القاضى] الفاضل اليبسافى ينسج على منواله ويترج مترّعه» وسنعرّف عما قليل أن القاضى الفاضل أبرع كتاب مصر فى هذا العصر . وتتضح مهارة ابن الصيرفى اليبانية فى أول كتاب احتفظ له القلقشندى به ، وهو السجل الذى كتبه على لسان الأمر بوفاة الخليفة المستمل وولايته الخلافة بعده سنة ٤٩٥ وقد استله بحمد الله والصلاة على الرسول وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين ، يقصد آباءه من الخلفاء الفاطميين ، ويقول إن الله استرعى الأئمة هذه الأمة مشيراً بذلك إلى أن الله اصطفاها لهداية الناس ، ويصلى على جدّه لأبيه على بن أبى طالب ، ويقول «إن الله أكرمهم بالمرتلة العلية ، وانتخبه للإمامة رافة بالبرية ، وخصّه بغوامض علم التنزيل ، وجعل له مبرة التعظيم ومزية التفضيل» . وكل ذلك ترداد لما كان يبدى الفاطميون فيه ويعبدون من تفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر وغيرهما من جُلّة الصحابة ، وأن الله خصه بعلم فوق العلم الدينى المعروف للأمة ، به يعرف المعنى الحقيقى للقرآن أو المعنى الحقنى الذى

يعلو على ألفهم العادى ، ويشيد ابن الصيرفى على لسان الأمر بنشر آييه المستعمل للعدل بين الزهية ، ويصور فداحة الرزء به والفجعة فيه ثم يقول :

« وقد كان الإمام المستعمل بالله - قدس الله روحه - عند نقله ، جعل لى عقد الخلافة من بعده ، وأودعى ما حازه من آييه عن جده ، وعهد إلى أن أخلفه فى العالم ، وأجرى الكافة فى العدل والإحسان على منهجه المتعالم ، وأطلعنى من العلوم على السر المكتون ، وأففى إلى من الحكمة بالغامض المصون ، وأوصانى بالمعطف على البرية ، والعمل فيهم بسيئره المرضية ، بما جبلنى ^(١) الله عليه من الفضل ، وخصنى به من إثثار العدل ، وإننى - فيما استرعيته - سالك منهاجه ، عامل بموجب الشرف الذى عصب الله لى تاجه .

والسجل أو العهد كله بهذه اللغة الصافية المسجوعة ، لا غرابة فى كلمة ولا نبوى لفظ ، بل ينساب الكلام فى فيض من البراعة البانية ، وفيه يقرر ابن الصيرفى على لسان الأمر أن الخلافة انتقلت إليه بالوراثة عن آباءه ، وأن أباه عهد إليه بها ، فهو يخلفه عن عهد أو وصية ، وعند الفاطميين وجميع الشيعة أن الرسول أوصى بالخلافة لعل وأنها تنتقل بالوصية من الأب إلى الابن . ويقول ابن الصيرفى على لسان الأمر إن الله أطلعه من العلوم على السر المكتون ومن الحكمة على الغامض المصون ، مشيراً بذلك إلى عقيدة الفاطميين فى أن الأئمة يتميزون من الناس بعلم باطنى يتوارثه إمام بعد إمام منتقلاً من جيل إلى جيل ، وهو عندهم علم لا يشمل أمور الدين وحقائقه فحسب ، بل أيضاً يتسع ليشمل حوادث العالم حتى يوم القيامة ، وهو ما يفرض لهم على الناس طاعة واجبة لا تحدها حدود ، طاعة بدون قيد أو شرط .

وتوالى كتب ابن الصيرفى فى الجزء الثامن من صبح الأعشى يكتبها فى وصف خطابة الأمر وصلاته فى جمع شهر رمضان وفى عيد الفطر وعيد النحر أو الأضحى وفى وفاة النبى . ولا نراه يعود إلى مثل الإشارات السالفة للعقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ويبدو أنه لم يكن غالباً فى العقيدة أول لعل القلقشندى حذف مما دونه من كتبه ورسائله غلوه . ولم يكن كاتباً بليغاً يكتب الرسائل الديوانية فحسب ، بل كان أيضاً يكتب رسائل أدبية طريفة ، وقد أشار إليها ابن سعيد فى المغرب حين قال : « له تصانيف مشهورة صغار ظراف » ويبدو أنه كان قد صنفها للوزير الأفضل بن بدر الجمالى صاحب الأيادى السابغة عليه ، وله فيه إشارات مختلفة سجلها فى رسائله الديوانية التى

أشرنا إليها ورددها مرارا وتكرارا ، وقد ذكر ابن سعيد من تصانيفه كتاب « لَمَحُ السُّلَحِ »^(١) ، وأورد من نثره فيه قوله :

« جرت العادة في الفِطاس ، إعمال الكاس والطاس ، وهذه الآلة - إذا فقدت الراح - بمتزلة أجسام علمت الأرواح ، فداو بإحيائها قلبا لي قريبا ، وإذا كانت عازر فكن مسيحا . »
والفطاس عيد من أعياد القبط بمصر كان يحتفل ببلية النصارى والمسلمون في الحادى عشر من شهر طوبة أشد أشهر الشتاء برودة ، وكانوا يكثرون فيه من الملاهى في الزوارق بالنيل وعلى شاطئيه كما كانوا يكثرون من إيقاد المشاعل والفوانيس مع الاستماع إلى المنيّن والمغنيات . وواضح أن ابن الصيرفى يشير إلى ما كان يتخذ في هذا العيد من اللهو وشرب الخمر في أوعيتها من الكاس والطاس ، ويقول إن هذه الأوعية إن لم تملأ بالخمر أو الراح كانت أجساما بدون أرواح . وكأنه يطلب خمرا من صديق ، فيقول له : داو بإحيائها قلبا لي جريحا ، يطلب منه أن يث في دنايه الحياة التى عدمتها بفقدائها الراح . ويقول إنها أصبحت مثل الميت المعروف باسم عازر الذى أحياه المسيح ، فأحياها وابعثها من جديد . ويذكر ابن سعيد من رسائل ابن الصيرفى الأدبية التى صنفها للأفضل الجبالى رسالة بعنوان « منافع القرائح » وينقل من صدرها قوله :

« أول ما تُقَرَّبُ به إلى الله تعالى الإكثار من تكميده ، والإقرار بربوبيته وتوحيده ، والصلاة على نبيه محمد الذى عُصِدَ بتأييده ، وخصّه من الشرف بما لا سبيل إلى تحديده »^(٢) ، وعلى آله المنوحين من الفضل ما يعجز الواصف عن تعديده ، ثم التوسل إلى ملوك كل وقت بشكر نعمتهم ومواصلة خدمتهم ، وشهر خصائصهم التى امتازوا بها عن العباد ، وذكر مناقبهم التى سارت فى الأقطار ونُقِبَتْ^(٣) فى البلاد ، والاجتهاد فيها نفقت^(٤) بشريف مقامهم سوقه ، والاعتماد على مظهر سوقه^(٥) فى البلاغة وسوقه ، ولاخلاف أن سلطان هذا العصر ، والمخصوص من الفضائل بما لا يدخل تحت الحصر ، مالكنّا السيد الأجل بالأفضل أمير الجيوش سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، يقول ابن سعيد : وأخذ فى الاطتاب على الأفضل . ويذكر أنه قال من تمة تقدمته لتلك الرسالة :

(١) فى المغرب (قسم القاهرة) : ملح الملح .
(٢) فى المغرب : مجديده
(٣) نقبت : ذمبت وشامت .
(٤) سوقه وسوقه : ارتخاه
(٥) نفق : راج .

« فوجب على كل من صَفَتْ فكرته ، وصَحَّت فِطْرته ، وأمكنه استنباط معنى غامض ، واستدلَّ على المحاسن بِبَرَقها الوامض ، وعرف موضع الفضيلة فيما يضمه ^(١) من تصنيف ، وعلم موقع الوسيلة به إلى كل موقف شريف ، أن يُظهر كامن قُوته ، ويُعمل مطاباً رَؤْيِيه ، فيما يجذب مجلسه ^(٢) العالی به ، مما يُطرب مودره ومسموعه ، ويعجب مؤلفه ومجموعه .

وواضح أن ابن الصمفی كان بحسن الكتابة إحساناً بعيداً ، دون أى غرابة فى لفظ ، بل مع السهولة والبسر ، فسجعه خفيف لا غلط فيه ولا كرازة ، وكأنه يفيض من ينبوع غَلِيق ، شرباً يتمتع النفس . وكان يوشيه أحياناً بالألفاظ القرآنية مثل قوله عن المناقب إنها « نُقِبَتْ فى البلاد » أى مضت وانتشرت أخذاً من قوله تعالى : (فتقَّبُوا فى البلاد هل من محبص) . واقتباسه للألفاظ والآيات القرآنية واضح فى رسائله . وكثيراً ما يوشى سجعه بالمحسنات البديعة وخاصة الاستعارة والتشبيه والجناس والطباق . وأورد ابن سعيد لُقْزاً له فى السيف على هذا النحو : « يبالغ فى شكره إذا أقصد ^(٣) وجرح ، وتقبل فى تزكيتِه شهادة المجرَّح » . وفى كلمتى التزكية والمجرَّح توريثان واضحتان فلتزكية معنيان . التعديل من قولهم زكى الشهود أى علَّمهم ، وهو المعنى القريب للكلمة بدليل كلمة الشهادة . والمعنى الثانى بعيد ، وهو الإطراء وهو المراد ، وكذلك لكلمة المجرَّح معنى قريب بدليل كلمة الشهادة وهو الذى لاتقبل شهادته . ومعنى ثان بعيد وهو المجرَّح بالسيف فى الحرب ، وهو أيضاً المراد . ولعل فى هاتين التوريثين مايدل على أن ابن الصمفی كان يستظهر التورية فى نثره أحياناً ومَرَّبناً أن شعراء القرن الخامس وفى مقدمتهم الشريف العقيلي كانوا يستخدمونها كثيراً . وتبعهم فى ذلك الكتاب كما نرى الآن عند ابن الصمفی . وبذلك يتبين خطأ ابن حجة الحموى حين زعم أن القاضى الفاضل هو الذى ذلل من التورية الصعاب وأنزل الشعراء بساحتها ورحابها ^(٤) فقد نزلها شعراء الدولة الفاطمية من قبله وكُتِّبها ، وبهديهم اهتدى القاضى الفاضل ، وعن قوسهم رمى .

ولابن الصمفی كتابان مطبوعان موجزان هما : قانون ديوان الرسائل ، وكتاب الإشارة إلى من نال الوزارة . والكتاب الأول فى نظام ديوان الرسائل ويبان ماينبنى أن يتحل به رئيسه وموظفوه من ثقافات وصفات مميزة ، وبه مقتطفات من بعض رسائله وهو كتاب نفيس . والكتاب الثانى

(٣) فى المغرب : أنشد ، وأنشد السهم : أصاب

(٤) خزائن الأدب للحموى (طبعة بولاق) ص ٦٧

(١) فى المغرب : يضمه .

(٢) فى المغرب : محله .

يُورخ في إجمال لوزراء الدولة الفاطمية ، وهو مع إجماله بالغ الأهمية التاريخية . وأنشد باقوت لابن الصيرفي بعض أشعار ، وهي تدل على أن ملكته النثرية كانت أنحصب من ملكته الشعرية .

القاضي^(١) الفاضل

هو عبد الرحيم بن علي بن حسن اللخمي أصلاً ، العسقلاني مولداً ، اليَسَّاني نسبة إذ كان أبوه يتولى قضاء يَسَّان بفلسطين للفاطميين فُسب إليها . ويذكر بعض من ترجموا له أنه ولد سنة ٥٢٩ . وأكبر الظن أنه ولد قبل هذا التاريخ . كما سرى بعد قليل . وكان طبيعياً أن يُعْتَى أبوه بتريته ، وبدأ بإرساله إلى كُتَّاب أو مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ، وحفظه وحفظ كثيراً من الأشعار . ويبدو أن الأب أحسَّ بميل ابنه إلى الأدب ، فرأى أن يرسل به إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة ليتدرب فيه على الكتابة ، وفرح الابن برغبة أبيه : أن يصبح من كُتَّاب الدواوين الفاطمية ، فسافر إلى حاضرة الفاطميين لمهد الخليفة الفاطمي الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) ويقول الرواة إنه كان في الخامسة عشرة من عمره ، ونظن ظناً أن سنه كانت أعلى من ذلك على الأقل ستين أو أكثر حتى يتسنى له أن يهاجر من يسان إلى القاهرة ، وقد اشتد عوده قليلاً وخاصة أنه كان أحذب ضعيف البنية . ويقول الرواة إنه حين أُلِّمُ بديوان الإنشاء كان يرأسه الموفق بن الخلال أحد كتاب مصر المبدعين ، وكان بشركه في رياسته ابن قادوس الذي ترجمنا له بين الشعراء ، وظلت لها الرياسة حتى توفي ابن قادوس فانفرد بها الموفق بن الخلال حتى نهاية الدولة الفاطمية . وعُتِيَ به الكاتبان الكبيران ، وخاصة الموفق بن الخلال ، ويقول القاضي الفاضل إنه سأله في أول لقاء له : ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فأجابه ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة ، فقال له . في هذا بلاغ ثم أمره بملازمته فكثت يتردد إليه ويتدرب بين يديه ، وأمره الموفق بحلِّ شعر ديوان الحماسة ، فحلَّه من أوله إلى آخره ، ولم يزل ابن

الكب التاريخية في زمنه وخاصة كتاب الروضتين . ونسب له د . أحمد بدوي ديوانه ومختارات عمي الدين بن عبد الظاهر من نثره باسم الدر النظم من ترسل عبد الرحيم . وله فيه كتاب بعنوان : القاضي الفاضل : دراسة ونماذج ، وانظر كتاباته « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ٣٦٨ .

(١) انظر في ترجمة القاضي الفاضل ورسائله وشعره عبر النجدي ٢٩٣/٤ وابن خلكان ١٥٨/٣ وطبقات الشافعية للسبكي ١٦٦/٧ وحسن المأخضة للسيوطي ٥٦٢/١ والخريدة للمهاد الأصماني (قسم شعراء مصر) ٣٥/١ والجموع الزاهرة ١٥٦/٦ وشذرات الذهب ٣٢٤/٤ ونهاية الأرباب ١/٨ - ٥١ وصحح الأحمسي (انظر القهرس) وراجع

الحلال يدربه حتى أتقن فن الكتابة . ويبدو أنه أحس أن المكانة التي يريدها لنفسه في ديوان الإنشاء بالقاهرة من الصعب تحقيقها سريعاً لكثرة منافسيه فيه ، فرحل إلى ابن حديد قاضي الإسكندرية ومتولى الأمر فيها لعله يحقق لنفسه ما يريد من الشهرة ، ورُحِبَ به ابن حديد وعهد إليه بالكتابة عنه وظل عنده ثمان سنوات ، وكانت كنيته تسترعى أنظار موظفي الديوان الفاطمي لفصاحته فيها وحسن بيانه . ويقول الرواة إنها لفتت نظر العادل بن رزيك حين تقلد الوزارة للعاقد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٥٦ فأرسل إلى ابن حديد في طلبه ليعمل في دواوينه ، وأرسله إليه ، ووظفه رئيساً لديوان الجيش وتوثقت الصلة بينه وبين الوزير . ويبدو أنه انتقل من ديوان ابن حديد إلى دواوين الخلافة بالقاهرة في وقت مبكر عن خلافة العاقد (٥٥٥ - ٥٦٧) إذ نرى في الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهداً من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ولم يُذكر اسم الخليفة ، وآخر خليفة فاطمي تولى الخلافة بعد أبيه الفائزين الظاهر الذي تقلدها من سنة ٥٤٩ إلى سنة ٥٥٥ ووليها بعده عمه العاقد آخر خلفائهم . وواضح أن هذا العهد يؤكد أن القاضي الفاضل عمل في دواوين القاهرة على الأقل في عهد الفائزين لا بد أن يكون قد عمل فيها قبله في عهد أبيه الظاهر (٥٤٣ - ٥٤٩) حتى يمكن أن يكتب عنه هذا العهد . وقد استخلصه الموفق ابن الحلال رئيس ديوان الإنشاء لنفسه فكان يكتب بين يديه . ولا يلبث شاور أن يقتل العادل ويستولى على مقاليد الوزارة سنة ٥٥٨ . وينشب خلاف عنيف بين شاور وضرغام على نحو ما مر بنا في الفصل الأول من هذا القسم ، ويستنجد شاور والخليفة العاقد بنور الدين صاحب حلب ، ويقدم عليه شاور ويرسل معه بمساكر يقودها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وينصرانه . وسرعان ما يعض اليد التي نصرته . وتتطور الأمور ويستعين شاور بالصليبيين مرارا ، ويستصرخ العاقد نور الدين فيرسل إليه شيركوه وابن أخيه صلاح الدين المرة تلو المرة ولكن شاور لا يثوب إلى رشده فيفتك به ويُقتل ، ويتقلد أسد الدين شيركوه الوزارة المصرية للخليفة العاقد .

وفي هذه الأثناء كان القاضي الفاضل يكتب السجلات والتقايد والمنشورات عن العاقد بين يدي الموفق بن الحلال ، وكان قد أخذ بصبر الموفق يضعف جدا حتى أضرب ، فأصبح القاضي الفاضل هو المتصرف في المكاتبات باسم العاقد وفي الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهد من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ، ولم يذكر اسم الخليفة ، وأكبر الظن أنه العاقد ، وتكرر العهود والسجلات من إنشائه في الجزء العاشر مما كتب به عن العاقد إلى القضاة

والولاة بتقليد أعمالهم ، ومن ذلك العهد الذى كتبه عن العاضد بتولى أسد الدين شريكه الوزارة فى شهر ربيع سنة ٥٦٤ وتفويض كل شىء إليه ، وأيضا العهد الذى كتبه عن العاضد فى نفس السنة حين توفى أسد الدين فى جمادى الآخرة بتولى ابن أخيه صلاح الدين الوزارة بعده . وكان القاضى الفاضل قد وثق الصلة به وبعمه ، وأنس به صلاح الدين وتمكن منه غاية التمكن كما يقول ابن خلكان ، فلم يكف له برياسته لديوان الإنشاء ، بل اتخذ وزيراً ، قلما يرم شيئاً إلا بعد مشورته ، وكان إذا أناب عنه أحداً من أفراد أسرته بمصر فى أثناء غزواته للصليبيين أبقاه معه لإدارة دفة السياسة ، وكثيراً ما كان يصحبه معه فى مواقفه مع الصليبيين ، وخاصة منذ منازلته لهم فى حطين وفتح القدس .

وكان القاضى الفاضل اللسان المبين لصلاح الدين طوال حكمه يكتب عنه إلى الخلفاء العباسيين والملوك والولاة مسجلاً أحداث زمنه ومبلغاً عنه عهوده وسجلاته وتوقعاته إلى كل من تشملهم راية حكمه من الإسكندرية إلى الفرات وإلى النوبة وأقاصى الصعيد والحجاز واليمن . وبلغ من تقدير صلاح الدين له أن كان يقول لأصحابه ، لا تظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم ، إنما ملكتها بقلم القاضى الفاضل . وللفاضل كتب كثيرة وجه بها إليه ، تفيض بالحب والإجلال والإعزاز ، وكان حاضراً وفاته بدمشق سنة ٥٨٩ ، وبكاء بكاء مرا . وولى بعده على مصر ابنه العزيز قآزره ، وظل عنده فى نفس المكانة التى كانت له عند أبيه والرفعة ونفاذ الأمر ، وتوفى العزيز سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه المنصور وكان صبياً فظل على ولائه له وعونه ، حتى قدم الأفضل عمه من الشام . ولم يلبث السلطان العادل أخو صلاح الدين أن قدم إلى مصر بنية أخلها من المنصور وعمه الأفضل فى سنة ٥٩٦ وكانت بينه وبين القاضى الفاضل وحشة كما يقول ابن تغرى بردى ، فدعا الفاضل على نفسه بالموت - فيما يقولون - واستجاب الله دعوته فبينما كان العادل داخلًا من باب النصر كانت جنازة الفاضل خارجة من باب زويلة .

وكان الفاضل شاعراً وله ديوان شعر مطبوع ، كما كان كاتباً ، ودوت شهرته فى الكتابة ، وعُدَّ فيها رئيس مدرسة تبعه فيها المصريون والشاميون ، وفيه يقول العماد الأصبهاني فى كتاب الخريدة : « رَبِّ القلم والبيان واللَّسَن واللسان ، والقرعة الوُقادة ، والبصيرة النُقادة ، والبدئية المعجزة ، والبدئية المطرزة ، والفصل الذى ماسمُح فى الأوائل بمن لو عاش فى زمانه لعلق بفناره ، أو جرى فى مضماره ، فهو كالشرعية الحمديدية التى نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع ، يمتزج الأفكار ، ويفترق الأبقار ، وبطلع الأنوار ، ويبدع الأزهار » . ويقول النويرى : « إلى القاضى

انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت ذور الفضائل واعترفت ، وأمام فضله ألفت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت به نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لامحالة ، والفاضل بغير إطالة .

وفيما يلي قطعة من السجل أو العهد الذي كتبه بلسان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مستندا فيه الوزارة إلى صلاح الدين ، يقول بعد أن صور ماقلمه هو وعمه أسد الدين شيركوه للعاضد من عون متحدثا بلسان الخليفة :

« ولو لم يكن لك هذا الإسناد في هذا الحديث ، وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديث ، لأعتك غريزة ، عزيزة ، وسجية ، سجيئة ^(١) ، وشيعة ، وسيمة ^(٢) ، وخلاق ، فيها مانح الخلاق ، ومخائر ^(٣) ، لم يمز مثلها حائر ، ومحاسن ، ماؤها غير آسن ^(٤) ، ومآثر جد غير عائر ، ومفاخر ، غفل عنها الأول ليستأثر بها الآخر ، وبراعة لسان ينسجم قطارها ^(٥) ، وشجاعة جنان تضطرم نارها ، وخلال جلال ^(٦) عليك شواهد أنوارها تتوضح ، ومساعي لديك كإمام ^(٧) نورها تتفتح .. وابسط يدك قد قرض إليك أمير المؤمنين بسطا وقبضا ، وارفع ناظرك فقد أباح لك رفعا وخفضا ، واثبت على درجات السعادة فقد جعل لحكك تشينا ودحضا ، واعدد حسي ^(٨) العزمات للمصالح فقد أطلق بأمرك عقدا ونقضا . وانفذ فيما أهلك له فقد أدى بك نافذة من السياسة وقرضا ، وصرف أمور المملكة فإليك الصرف والتصرف ، وثقف أود ^(٩) الأيام فعلبك أمانة التهذيب والتثقيف .

وإنما اخترت هذه القطعة من سجل أو عهد كتبه الفاضل سنة ٥٦٤ لأدل على أن خصائص فنه النثرى كانت قد استوت ونبتأت له مبكرة ، وقد استهل القطعة بذكر الإسناد والحديث كأنه يريد أن يحدث تورية ، فهو لا يريد الحديث النبوى وإنما يريد ما سبق في العهد من حديث عن عم صلاح الدين وجهوده التي بذلها للخليفة الفاطمي ، وجعل لصلاح الدين إسنادا فيه لا من السند وإنما من المساندة والمساعدة ، ومضى في تورياته المتصلة بالحديث النبوى ، فجعل قديم فخر

(١) سجيئة : خفيفة ، وسجيئة الثانية : دائمة .

(٦) جلال : عظام .

(٢) وسيمة : جبيلة

(٧) كإمام : جمع كمية وهي غطاء النور والزهري .

(٣) مخائر جمع مخيرة : طيبة .

(٨) حسي : جمع حيرة ، وهي التوب بديره الجالس

(٤) آسن : متغير الطم .

حول ساليه وظهره للاستناد عليه

(٥) قطارها : قطرها وسطرها .

(٩) أود : اعرجاج .

صلاح الدين وحديث مسندا جامعا ، وكتب المساند النبوية معروفة ومنها الجامع الصحيح للبخارى ، وقد جانس بين الحديث أى الكلام السابق وحديث بمعنى جديد والطباق واضح بين كلمتي قديم وحديث . وتوالى سجمات قصيرة أقامها على الجناس الناقص وكان كلفا بجميع صورته . ويجانس بين خلّاتق بمعنى طباع والخلّاتق بمعنى الناس والتورية واضحة في كلمة الخلّاتق . وتوالى جناسات ناقصة وتداخلها بعض التصاویر ، فهاء المحاسن غير آسن والجَدُّ أو الحظ غير عاثر . ومحاول الإغراب والابداع في سجمه فَيَأْتِي بسجمة هي كلمة مفاخر تليها سجمة طويلة يداخلها طباق بين الأول والآخر . ويوغل في إغرابه وإبداعه ، فَيَأْتِي بسجمتين تداخلها في صدرهما سجتان إذ يقول : « وبراعة لسان ، ينسجم قطارها ، وشجاعة جَنَان يضطرم نارها » . ويعمد إلى التصوير البارع في السجمتين التاليتين فشواهد أنوار الخلال أو الخصال تتوضح ، وكأنا نُوَرُّ المساعي وزهرها تتفتح . ويفزع إلى الطباق في السجمات الخمس التالية وقد تصنع أو تكلف في استخدامه للطباق بذكره المصطلحين التحويين : رفعا وخفضا ، ولكنه تصنع مقبول ، فقد استظهرهما في خفة وعذوبة .

ولعل فيما قلنا ما يصور بوضوح خصائص القاضي الفاضل في كتابته الديوانية ، وهي كتابة فيها روح مصراتي نشأ في دواوينها وصل لسانه في رسائل كتابها من أمثال ابن الصيرفي والموفق بن الخلال ، كتابة ليس فيها ثقل ولا تكلف بعيد ، بل فيها انطلاق وسهولة مع الرونق وصفاء التعبير . وتتردد في الكتب التي ترجمت للقاضي الفاضل أو عرضت لبراعته البلاغية عبارات مضيئة بحسبها البياني كقوله عن صلاح الدين وأسرته :

« أنتم - يابني أيوب - أيديكم آفة أنفس الأموال ، كما أن سيوفكم آفة أنفس الأبطال ، ولو ملكتم الدهر لامتنعتم لياليه أدامه ^(١) ، وقلدتم بيض أيامه صوارم ^(٢) ، وأنفتم شموسه وأقاربه في الهبات دناتير ودراهم ، وأوقاتكم أعراس إلا على الأموال فهي مآتم ، والجود في أيديكم خاتم ، ونفسُ حاتم ^(٣) في نقش ذلك الخاتم » .

والقطعة تمثل بالاستعارات والتشبيهات الرائعة ، مع ما يحفُّ بها من الجناسات والطباقات ، ومع ما صيغت فيه من العبارات الناصعة التي تلذ الألسنة والأفئدة . ومن هذا النسيج البديع قوله من رسالة في صفة قلعة شاهقة ، اسمها كوكب :

(١) أدامه جمع أدهم : يريد خيولا سودا معدة للحرب (٢) صوارم : جراد العرب المشهور

(٣) حاتم : جمع صادم وهو السيف .

«وهذه القلعة عُقاب في عُقاب»^(١) ، ونجم في سحاب ، وهامة لها الغامة عامة ، وأنملة إذا خضبا الأصل كان الهلال لها قلامة .

والجناس واضح بين عُقاب بضم العين وعقاب بكسرهما ، وقد استمر في تشبيهات وتصويرات بدیعة ، وقال نقاده : إن قوله : «كان الهلال لها قلامة» أخذه من قول ابن المعتز في الهلال :

ولاح ضَوْكُ هلالٍ كاد يفضحنا مثل القلامة قد قُذْتُ من الظُّفْرِ

غير أن القاضي أضاف إلى القلامة إضافة بدیعة بذكره الأنملة إذا خضبا الأصل . ولعل في ذلك ما يشير إلى قدرته على مراعاة النظر في صياغاته ، وذلك كثير في كتاباته على نحو ما نرى الآن حين ذكر القلامة ذكر معها الأنملة والخضاب . ومن أروع رسائله ورسالته ، التي كتب بها إلى الخليفة الناصر يشره فيها بانتصار صلاح الدين على حملة الصليب في حِطَيْن وضعه العظيم ليبت المقدس .

وللقاضي الفاضل كثير من الرسائل الشخصية ، وسنقف عندها قليلا في غير هذا الموضع ، ومربنا أن مخطوطة فصوص الفصول المحفوظة بدار الكتب المصرية تحمل مراسلات كثيرة بينه وبين ابن سناء الملك ، وكان يتخذها ابنا روحيا له وذكرنا في غير هذا الموضع أن بها ملاحظات ومراجعات نقدية كثيرة .

محيي الدين^(٢) بن عبد الظاهر

هو عبد الله بن عبد الظاهر المصري من بيت علم وقه وأدب ، ولد سنة ٦٢٠ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لدائه ثم اختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين وأصحاب التاريخ والسير ، وأحسن بجميل شديد إلى الأدب وجرى على لسانه الشعر ، وأنس في نفسه قدرة أدبية ، فالتحق بالدواوين لعهد الأيوبيين ، ولم يلبث أن أظله عهد المماليك ونرى نجمه يتألق في عهد الظاهر

التن في مواضع عظفة وصبح الأعشى (انظر الفهرس وخاصة ١٥٦/١ و ١٧٦/١ و ٣٥٦/٧ و ٣٦٦/٨ و ٣٠٠/٨ ، ١١٧/١٠ ، ١٦٣ ، ١٦٦ و ١٣٩/١٤ وراجع كتابه تشریف الأيام والصور في سيرة الملك للنصور قلاوون (نشر وزارة الثقافة) .

(١) عقاب بضم العين طائر جارح وبكسرهما جمع عبة وهي المرق الصب في الجبال .

(٢) انظر في محيي الدين بن عبد الظاهر وترجمته ورسالته فوات الوفيات ٤٥١/١ وتاريخ ابن كثير ٣٣٤/١٣ وشذرات الذهب ٤٢١/٥ والنجوم الزاهرة ٣٨/٨ وحسن المحاضرة للسيوطي ٤٧٠/١ و ٣٦٦/٢ ونهاية الأرب : الجزء

يبرس ، إذ أصبح رئيسا لكتاب الدُست ، ثم رئيسا لديوان الإنشاء ، وتظل له هذه الوظيفة في عهد السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل حتى يلبى نداء ربه سنة ٦٩٢ . وعنه كانت تصدر العقود والسجلات والتقايد والمنشورات والتوقيعات نحو أربعين عاما ، مما جعله يضع مصطلحات ديوان الإنشاء لزمه وبقية زمن المالك ، وكان ابنه فتح الدين على غراره مهارة يمانية ، ورق إلى وظيفة كاتب السر لعهد قلاوون وابنه الأشرف خليل . وهى أكبر وظيفة في الدولة حينئذ ، وسبق أباه إلى رضوان ربه بعام فحزن عليه حزنا شديدا .

وقد أشاد بمحمى الدين وبلاغته معاصروه إشادات رائعة ، من ذلك قول النويرى في نهاية الارب : « كان محمى الدين أجل كتاب العصر ، وفضلاء مصر ، وأكابر أعيان الدُّول ، والذي اختر بوجوده أبناء عصره على الأول ، له من النظم الفائق مارق صناعة وحسنا ، ومن النثر الراقى مافاق بلاغة ومعنى ، فقصائده مدونة مشهورة ، ورسائله بأيدي الفضلاء ودفاترهم مسطورة ، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقه في البلاغة أسهل طريق وفى الفصاحة أوضح محجة » ويقول ابن شاعر في كتابه القوات عنه : « الكاتب الناظم النائر شيخ أهل التمرس ومن سلك الطريقة الفاضلية في إنشائه » . وجمع بعض رسائل القاضي الفاضل في كتاب سماه : « الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم » .

وكان يستخدم في كتاباته السجع ، وكثيرا ما يبطل السجعة الثانية ليضمنها ما يريد من المحسنات البديعة ، وفى مقدمتها التصاوير والجناس والطباق ، وكذلك ما يريد من الاقتباسات القرآنية ومن حُلِّ بعض الأشعار ونثرها ، مع حسن الألفاظ وعلوية الكلم . وكان يرافق الظاهر يبرس وقلاوون والأشرف خليل فى غزواتهم ، ويرسل بوصفها الملك اليمن وغيره من أصحاب السلطان وللوزراء فى مصر . ومن رسائله المهمة رسالته إلى الوزير بهاء الدين بن حنا ، يصف له حروب يبرس مع التتار وبني سلجوق واقتلاعه مدينة قيسارية من أيديهما مع ما أخذ فى طريقة إليها من الحصون والبلاد ، مصورا مسيرة الجيش المصرى فى جبال شامخة مذكِّلا فيها طريقه لايحوقه عن مقصده عائق . والرسالة طويلة فى نحو خمس عشرة صحيفة مدونة فى الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ، وهى وثيقة تاريخية بحروب يبرس للتتار والسلجوقيين فى ذى القعدة من سنة ٦٧٢ وفيها يقول : « سرنا لا يستقر بنا فى شىء من المهالك قرار ، ولا يُقَدِّح من غير سنايك الخيل نار ، ولا نمرُّ

على مدينة إلا مرور الرياح على الخائل في الأصائل والأبكار . ولا نقيم إلا بمقدار ما يتزود الزائر من الأبهة ، أو يتزود الطائر من الثَّغْبَة ^(١) ، نسبق وقد الرِّيح من حيث نَسَحَى ، وتكاد مواطئ خيلنا بما تَسْجِه أذيال الصوافن ^(٢) تَسَحَى ، تحمل هُنا الخيل العناق ، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق ، وكلُّ يقول لسلطاننا نصره الله :

أين أزمعتَ أيُّهَذَا المَهِمُّ نحن نبتُ الرُّبَى وأنت الغمامُ

وبتنا هنالك ليلة نستحقر بالنسبة إلى شدتها ليلة الملسوع ، وتَسْمَى العين بها هجمة هجوع . وأخذنا في اختراق غابات أشجار تخفى الرقيقَ عن رفيقه ، وتُشغله عن اقتفاء طريقه ، يتبرى منها كل غصن يرسله المتقدم إلى وجه رفيقه ، كما يخرج السهم بقوة من منجنيقه ، حولها مغائر أحجار كأنها قبور بُضُوت ، أو جبالُ تَفَطَّرت ^(٣) ، بينها غنائض لا بل مغائض ماخر جنا منها إلا إلى جبال قد تمنطقت بالجداول وتعممت بالثلوج ، وعُمِّيت مسالكها فلا أحدٌ إلا هو قائل : فهل إلى خروج من سبيل أو إلى سبيل من خروج ، تضيق منا هجها بمشى الواحد ، وتلتف شجراتها التفاف الأكام على السواعد .

وعلى هذه الشاكلة يتدفق ابن عبد الظاهر في الرسالة دون أى عائق من لفظ غريب أو أسلوب ملتو ، بل سبولة وعدوبة مع السجع الرشيق ومع ما يشاء من الجناسات والاستعارات دون أن نشعر بالكلفة أو بشئ منها ، وفي صبح الأعشى رسائل وعهود له بديعة ، منها عهد الظاهر يبرس لابنه الملك السعيد وعهد قلاوون لابنه الملك الأشرف خليل ، وفيه ينوه ابن عبد الظاهر بالأشرف على لسان أبيه قلاوون قائلا :

هو الذى بقواعد السلطنة أدرى وبقوانينها الأعرف ، وعلى الرعايا الأعطف ، وبالرعايا الأرف ، وهو الذى ما قبل لبناء ملك هذا عليه قد وهى إلا وقيل هذا خير منه ومن أعلى بناء سعدٍ أشرف ، والذى ما برح النصر يتنسم من مهاب تأميلة الفلاح ، ويتنسم نغره فتوسم الثغور من مبسمه النجاح ، ويُقَسَم نوره على البسيطة فلا مصر من الأمصار إلا وهو يشرب إلى ملاحظة جبين عهده الواضح .. والذى كم جلا بهي جبينه من بهيم ، وكم غدا الملك بحسن روائه وبين

(٣) تفتت : تشقت .

(١) الثَّغْبَة : الجرعة .

(٢) الصوافن : جمع الصافن وهو القرس

آرائه يهيم ، وكم أبرأ مورده العذب هيم^(١) ، ولا ينكر الخليل إذا قيل عنه إبراهيم .
والسجعات في هذا العهد تتوالى في مجاميع على حرف واحد أو روى واحد ، قد يكون الفاء أو
الحاء أو الميم كما في هذه القطعة ، وقد يكون حرفاً آخر كالمدال أو التاء أو النون إلى غير ذلك من
حروف تتعاقب فيها السجعات في خفة . وقد ورى في السجعات الغائية حين ذكر فيها لفظ
« أشرف » مورياً به عن الأشرف خليل ، ولم يكتف بهذه التورية في اسمه فقد أضاف إليها تورية
أخرى في لفظ إبراهيم بآخر القطعة ، وقدم لذلك بذكر الخليل كأنه يريد إبراهيم عليه السلام ،
وهو لا يريدُه إنما يريد بالكلمة أنه أبرأها أى عطاشاً أشد العطش . ومن ذلك قوله في رسالة إلى
صاحب اليمن مبشراً بفتوح قلاوون لبعض حصون الصليبيين بالشام .

« تعطيه الملوك الجزية عن يدي وهم صاغرون ، ويصطفى كراماً أموالهم وهم صابرون
لا مصابرون ، وكم شكت منه حمة تنبئ بشكوكها عن قلة الإنصاف ، وكم خافته مرةً وما من
مرة خاف ، وما زالت أيدى الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جور جواره تلك الحصون
والعصاى^(٢) ، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصى .
وواضح في أول هذه القطعة اقتباس محبى الدين بن عبد الظاهر لآية سورة التوبة : (حتى
يعطوا الجزية عن يدي وهم صاغرون) . ويكثر الاقتباس لآى الذكر الحكيم وألفاظه في كتاباته كما
يكثر حل الشعر والاستشهاد بنصوصه وأبياته . وقد ورى في القطعة بذكره لفظ مرةً الثانية من
العار مقدماً لها بذكر حمة والمرّة وهما من مدن الشام . وورى أيضاً في قوله : « وناهيك بمدمع
العاصى » وهو إنما يريد نهر حمة المعروف باسم العاصى . ودانما نحس عنده العنوبة والسلاسة وكأنه
يستمد من نبع فياض لا يفيض أبداً ، على نحو ما نرى في قوله من رسالة يصف بها فتح قلاوون
لطرابلس :

« صرف مولانا السلطان إلى طرابلس لبنان ، وسبق جيشه إليها كل خير وليس الخبر كالمحبان ،
وجاءها بنفسه النفيسة والسعادة قد حرسته عيونها والمخاوف كلها أمان .. وفى خلعتهم جنود
لا تستبعد مفازة . وكم راحت وغدت وفى نفسها للأعداء حزازة ، فامتطوا بنحوهم من جبال
لبنان تيجاناً لها صاغتها الثلوج ، ومعارض لمرافق بها غير الرياح الموحج ، وانحطت الجنود من تلك
الجنادل انحطاط الأجادل^(٣) ، واندفعوا فى تلك الأوعار اندفاع الأوعال^(٤) ، ولم يحفل أحد

(٣) الأجادل : الصفود .

(١) هم : جمع أهم وهو العطشان عطشا شديداً .

(٤) الأوعال : جمع وعل وهو تيس الجبل

(٢) العاصى : الحصون .

منهم بطريق لاصق ، ولا جيل شائق ، فقال : هذا منخفض أوعال .

والكلمات والسجعات تنزلق عن اللسان في خفة إذ كانت ملكته الأدبية خصبة ، فهي ماتزال ترفده بما يريد من الألفاظ التي تروق في السمع لا بسجعها فحسب ، بل أيضا بجرسها وحسن انتخابها لها ، وما يوفره لها من محاسن بديعة بقدر الحاجة دون تكثر يجلبها إلى تكلف شديد . وحقا كان يصنع أحيانا لبعض مصطلحات النحو ولكنه لأنيابها إلا في الحين بعد الحين ماعدا رسالة اقترحت عليه أن تكون توقيعا لمدرس نحو استلها بقوله مداعبا : « حرس الله نعمة مولاي ، ولا زال كلم السعد من اسمه وفعله ، وحرف قلمه يأتلف ، ومنادى جوده لا يرغم وأحمد عيشه لا ينصرف » ومضى فيها على هذه الشاكلة متصنعا لمصطلحات النحو ، ولكن من الحق أنه أرادها إلى الدعابة ، وعلى نحو ما كان يبشر بالفتوح كان يبشر بوفاء النيل وله في ذلك رسائل بارعة يقول في إحداها :

« نِعْمَ اللهُ وَإِنْ كَانَتْ مُتَعَدَّة ، وَمِنَحْهُ وَإِنْ غَدَتْ بِالْبَرَكَاتِ مُتَرَدِّدَةٌ ، وَمِثَّتْهُ وَإِنْ أَصْبَحَتْ إِلَى الْقُلُوبِ مُتَوَدَّدَةٌ ، فَإِنْ أَشْمَلَهَا وَأَكْمَلَهَا ، وَأَجْمَلَهَا وَأَفْضَلَهَا ، وَأَجْرَلَهَا وَأَنْهَلَهَا ، وَأَتَمَّهَا وَأَعَمَّهَا ، وَأَضَمَّهَا وَأَلَمَّهَا ، نِعْمَةٌ أَجْزَأُتِ الْمَنْ وَالْمَنْحَ ، وَأَنْزَلَتْ فِي بَرْكِ سَفْحِ الْمُقَطَّمِ أَغْزَرَ سَفْحَ ، وَأَنْتَ بِمَا يَعْجَبُ الزَّرْعُ ، وَيَعْجِزُ الْبَرْقُ اللَّعَافُ ، وَيُبِيلُ^(١) الْقِطَاعُ ، وَيُبِيلُ^(٢) الْأَطْعَامُ ، وَيَأْنِي فِي الْغَدِّ بِأَكْثَرِ مِنَ الْيَوْمِ وَفِي الْيَوْمِ بِأَكْثَرِ مِنَ الْأَمْسِ ، وَيَرْكَبُ الطَّرِيقَ مَجْدًا فَإِنْ ظَهَرَتْ بِوَجْهِهِ حَمْرَةٌ فَهِيَ مَا يَعْزِضُ لِلْمَسَافِرِ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ .. وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْبَابِ إِذَا هُوَ فِي الطَّاقِ ، وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْإِحْتِرَاقِ^(٣) ، إِذَا هُوَ فِي الْاجْتِرَاءِ لِلْإِغْرَاقِ ، وَبَيْنَا يَكُونُ فِي الْمَجَارَى ، إِذَا هُوَ فِي السَّوَارَى^(٤) » .

والتورية واضحة في كلمة سفح الثانية ، إذ ليس معناها معنى سابقتها وهي سفح جبل المقطم إذ أراد الانصباب من قولهم سفح الماء إذا صب . واقتبس من القرآن الكريم قوله عز شأنه في سورة الفتح (يعجب الزرع) واقتباسه من الذكر الحكيم كثير في كتاباته كما أسلفنا . وتعليل ما يناظر النيل من الطمى بأنه نفس الحمرة التي تعرض للمسافر من طول سفره وتعرضه للشمس لتعليل حسن يدل على عمق تخيله وطرافته . وتصويره لفيض النيل وأنه سرعان ما يمتلأ بجري النهر وتطو أمواجه ويطفح عبابه ويتأدى طوفانه ، فيينا يدخل سدة باب إذا هو في الطاق وأعلى الشرفات ،

(١) بيل القطاع : يروى قطاع الأرض مرارا . (٣) الاحتراق : قلة الماء .

(٢) بيل الأطعام : يحمل الضياع تملط الطعة والشار . (٤) السواري : يريد الأعال .

وبينا تكون مصر قبل فيضانه في زمن الاحتراق والتمطش للماء إذا هو يخرق الآفاق فيها لإغراقها بمياهه العذبة ، وبينا يكون في أسافل الأرض ومجاريها إذا هو في السواري وأعلى الأعلى .

ولم يكن يحيى الدين بن عبد الظاهر كاتباً ديوانياً فحسب ، فله رسائل شخصية سلمٌ بإحداها ، وأيضاً كان مؤرخاً ، وعنه أخذ البرزالي وغيره من كبار المؤرخين لزمه ، واهتم في التاريخ بكتابة السير ، فكتب سيرة الظاهر بيبرس ، وهي أحد مصادر المقرئ في خططه ، وكتب سيرة قلاوون بعنوان « تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور » ، وكتب أيضاً سيرة الأشرف خليل بعنوان « الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية » وله كتاب في خطط القاهرة ينقل عنه كثيراً المقرئ وكذلك القلقشندي في صبح الأعشى . ولعل فيما قدما من رسائله الديوانية ما يدل بوضوح على قدرته البيانية والبلاغة .

ابن^(١) فضل الله العمري

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ، من سلالة أسرة مصرية تنتسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولَيْتَ أُسْرَتَهُ ديوان الإنشاء بمصر ودمشق نحو قرن من الزمان هو القرن الثامن الهجري ، وقد وُلِدَ لأبيه كاتب السر بدمشق سنة ٧٠٠ للهجرة وبها نشأ ، فحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات علمائها من أمثال ابن تيمية الفقيه الحنبلي المشهور وقاضي قضاة دمشق الشافعي شهاب الدين محمد بن المجد وشيخ الشافعية بدمشق برهان الدين بن الفركاح الفزارى وأخذ علم الأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهاني نزيل دمشق منذ سنة ٧٢٤ وبها ظل سبع سنوات وكان من أبرع علماء زمنه في العقليات ، وأذن لابن فضل الله في الإفتاء على مذهب الشافعي . وأخذ شهاب الدين العمري عن كمال الدين بن قاضي شُهْبَةَ وابن الزُّمْلَكَاني ، أما الأدب فأخذه عن أبيه ورفيقه في ديوان الإنشاء الشهاب محمود وعلاء الدين

والثلثات ١٦٠/٩ والواق ٢٥٢/٨ وتاريخ الأدب الجفراني لكراتشكوفسكي ٤١٠/١ . وطُبِعَ له الجزء الأول من موسوعة مسالك الأبصار وانظر فيها ما تقدم في حديثنا عن النشاط الجفراني بمصر وطُبِعَ له كتابه التعريف بالمصطلح الشريف .

(١) انظر في ترجمة ابن فضل الله فوات الوفيات ١٢/١ والنجوم الزاهرة ٣٣٤/١٠ والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٣٥٢/١ وصبح الأحسن وخاصة الجزء الحادى عشر والرابع عشر (انظر الفهرس) وخطط المقرئ ٣٨٩/١ وحسن المحاضرة ٣٧١/١ ، ٣٩٤ ، ٢٣٤/٢

الوداعي . ورحل إلى مصر في أثناء الطلب ، وأخذ العربية عن شيوخها وعلمائها مثل ابن الصانع الحنفي ونزيلها أبي حيان الأندلسي . وسمع الحديث على علمائها كما سمعه على حفاظ الشام . ويبدو أنه نزع إلى العمل مع أبيه مبكرا في ديوان الإنشاء بدمشق ، وتخرج فيه كاتباً بارعا . وكان إلى ذلك لا يزال يأخذ عن العلماء في زمنه بالشام ومصر ، وكان أبوه يعمل أحيانا بالديوان في دمشق وأحيانا يعطل ، فكان إذا عمل لزمه ، حتى إذا استدعى الناصر محمد بن قلاوون أباه لكتابة السر بالقاهرة سنة ٧٢٩ تقلد معه هذه الوظيفة فكان هو الذي يقرأ كتب البريد ورسائله على الناصر ، ونقلها إلى دمشق في شعبان سنة ٧٣٢ ثم أعادها ثانية إلى القاهرة مسندا إليها كتابة السر ورياسة ديوان الإنشاء سنة ٧٣٣ ويبدو أنه كان حاد الطبع ، ولم يتحاش عن إظهار هذه الحدة في مخاطبته للناصر ، فتغير عليه وصرفه ، وولى أخاه علاء الدين مكانه ، وكانت منزلة أبيه عند الناصر قد عظمت ، وطلب أن يرجع إلى دمشق فأجابه إلى طلبه ، على أن تستمر له رياسة ديوان الإنشاء في جميع ديار السلطنة وأن يكون جميع الموظفين في تلك الدواوين نوابه ، وسرعان ما لى نداء ربه . وعاد الناصر في سنة ٧٤٠ فرضى عن شهاب الدين وولاه كتابة السر بدمشق ، ودخلها في الحرم سنة ٧٤١ وظل على وظيفته بها حتى طُلب إلى القاهرة سنة ٧٤٣ لكثرة الشكايات منه وشفع فيه أخوه علاء الدين ، وقُبلت شفاعته وعاد إلى دمشق ، وبارحها في سنة ٧٤٩ لقضاء فريضة الحج ، وتوفى بمكة ونقل تابوته إلى دمشق ، ولم يكد يبلغ الخمسين من عمره .

وكان شاعرا كما كان كاتباً ، نظم كثيرا من القصائد والأراجيز والمقطعات والدوبيت ، غير أن شهرته الكتابية غطت على شهرته الشعرية ، وقد أشاد بكتابته معاصروه من ذلك قول صلاح الدين الصفدى : « هو الإمام الفاضل البليغ المفوه المحافظ حجة الكتاب ، إمام أهل الأدب ، أحد رجالات الزمان كتابة وترسلا ، وتوسلا إلى غايات المعاني وتوصلا ، بتوقد ذكاء وفطنة ويتلهب ، وينحدر سبله مذاكرة وحفظا ويتصبب ، ويتدفق بحره بالجواهر كلاما ، ويتألق إنشاؤه بالوارق المستمرة نظاما ، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتتدى عباراته انسجاما وصياغة ، وينظر إلى غرر المعاني من ستر رقيق ، ويغوص في لجأة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ، يكتب من رأس قلمه بديها ، ما يعجز تروى القاضي الفاضل أن يدانيه تشبها .. صرف الزمان أمرا ونهيا ، ودبر الممالك تنفيذا ورأيا » .

ولعل من الطريف ان ابن فضل الله جمع من كتاباته نماذج في جميع صور المكتابات الديوانية وضمنها كتابه النفيس : « التعريف بالمصطلح الشريف » وجعله في سبعة أقسام أولها في رتب

المكاتبات إلى الخليفة العباسي بالقاهرة وعنه مع رسوم الكتابة إلى أمراء البلدان وراء السلطة المصرية من الهند إلى الأندلس ، وأيضاً إلى نواب السلطة والحكم خارج مصر . والقسم الثاني في المعهود والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناسخ والمعهود إما من الخلفاء إلى السلاطين وإما من السلاطين إلى ولاية العهد . والتقاليد خاصة بكبار الموظفين والتواقيع لصغارهم والمراسيم لصغار الأمور والشئون والمناسخ خاصة بالأمراء والجنود . والقسم الثالث خاص بنسخ الأيمان على العامة والولاية وكبار الموظفين وأهل الكتاب . والقسم الرابع في الأمان والهدن مع الأعداء ونقض المعاهدات . والقسم الخامس في حدود المدن والبلاد وهو جغرافى . والقسم السادس في مراكز البريد ووسائله براً وبحراً . والقسم السابع في الآلات وخاصة آلات الحرب من سيف وغير سيف وكذلك آلات السفر وآلات الصيد وآلات الطرب وأيضاً الحيوان الأليف والوحشى والطير ، ويتسع هذا القسم للحديث عن المدن والحصون وأنواعها والأزمنة وفصولها والأنواء . وواضح أن الأقسام الأربعة الأولى هي التى دفعته لإعطاء النماذج الكتابية المتصلة بموضوعاتها . أما الأقسام الثلاثة التالية فقد رأى معرفتها ضرورة لكتاب الديوان لأنها تصل بأعمالها اتصالاً قوياً . واشتهر هذا الكتاب بعد ابن فضل الله واتخذ الكتاب إماماً لهم وجعلوه نصب أمينهم فى كتاباتهم الديوانية بما يكون نماذجها وأمثله ، واعتمد عليه القلقشندى فى بيان رسوم الكتابة الديوانية ، وما يصورها من أمثلة بليغة محكمة ، من ذلك قوله فى تقليد وزير ووصيته بما ينبغى عليه فى وزارته :

« عليه بالكفاة الأمانة ، وتجنب الحقنة وإن كانوا ذوى غناه ، وإياه والعاجز ، ومن لورأى المصلحة بين عينيه ألقى بينه وبينها ألف حاجز ، وليطهر بابه ، ويسهل حجابها ، ويفكر فيها بعد أكثر مما قرب مقدما الأهم فالأهم من المصالح ، وينظر إلى ماغاب عنه وحضر نظر الماسى والمصاحب ، ولا يستبدل إلا بمن ظهر لديه عجزه أو ثبتت عنده خيانتة ، ولا بدع من جميل نظره من صحت لديه كفايته ، أو تحققت عنده أمانته . وليصرف اهتمامه إلى استخلاص مال الله الذى نحن أماناؤه ، وبه يشغل أوقاته وتمتلى كالإناء آناؤه ، فلا يدع شيئاً يجب لبيت المال المعمور من مستحقه ، ولا يستسمح فى تخليه بشيء منه كما نوصيه أن لا يأخذ شيئاً إلا بحقه . »

وواضح أن ابن فضل الله لا يتكلف فى كتابته ، وكأنه - كما قال الصفدى - بحريته ، وفى تضاعيف تدقه ينثر جواهر المحسنات ، وهى تواتيه طيبة ، تارة يطابق وتارة يخالف فى يسر دون أن نحس عنده بتصنع أو ما يشبه التصنع . ومن طريف وصفه للسيف فى كتابه التعريف قوله :

« سَلَّ سيفاً سال السَّون من لُعابه ، وسار الموت في إهابه ^(١) ، وتاوم غِرَارُهُ ^(٢) ملء جنبه
فاجمع ، وتناوب ^(٣) اللوئب للمهج فا رجع ، وتباكى على من قتل فجرت دموعه دماء ،
ونحرق على من سلم فوقدت ضلوعه ناراً وترقرت مآقيه ماء » .

وهي كلمات قصار ولكنها مليئة بالاستعارات والتشخيصات المتلاحقة ، وفيها الجناس والطباق
وكأنها غير ملحوظين ، لما تجريان فيه من سهولة اللفظ وعذوبته . وله في وصف قدح أو كأس :
« تَكُونُ من جوهر مكنون ، ونجمد من هواء مظنون ، وأتخذ خِذْرًا لابنة العنب ^(٤) . وطاف به
الساق فأصبح منه في راحة وهو في تعب ، قَهَقَ عليه الإبريق فصدح ، وطار منه شرار المدام
قليل : قدح » .

والقطعة مثل سابقتها زاخرة بالاستعارات والصور العريفة . مع جناسات وطباقات بدیعة ومع
جمال الجرس والمهارة في انتخاب اللفظ ، وقد ختمها بكلمة قدح والتورية واضحة ، فهو لا يريد
ما يتبادر من أنه يريد القدح الذي يصفه ، إنما يريد الفعل الماضي قدح أى قدح الشرر وأذكاه من
قولهم قدح النار من الزند .

ولابن فضل الله العمري بجانب رسائله الديوانية رسائل شخصية قليلة وذكر له مترجموه نحو
عشرة كتب ، منها التعريف بالمصطلح الشريف الذى وصفناه . ومنها فواصل السمرق فضائل آل
عمر ، ومنها صُبابة المشتاق في مجلد في مدح النبی ﷺ . وأهم كتبه دون ريب كتابه « مسالك
الأبصار » وقد نشر الجزء الأول منه وهو خاص بالديارات ، وهو في أكثر من عشرين مجلداً ،
وهو مقسوم إلى قسمين كبيرين : قسم للأرض وأقاليمها وبحارها وطرقها أو مسالكها ، وقسم
للممالك في العالم الإسلامى وغيره وسكان المعمورة ، وبه فصول طويلة عن الكتاب والشراء في
العالم العربى بمختلف أقطاره ، وعادة يضع مقدمة مسجوعة لكل كاتب وشاعر ثم يبتار للكاتب
نماذج من رسائله وللشاعر نماذج من شعره ، وبه مقتبسات من كتب سقطت من يد الزمن ، ومن
خير ما احتفظ به تراجمه لشراء عقلية ، وكذلك معلوماته الجغرافية والتاريخية عنها . وبالكتاب
مفخرة طريقة بين المشرق والمغرب تمس حضارتها ومن كان بهما من أفذاذ العلماء والأدباء .

(١) إهابه : جلده .

(٢) غرار الأمر : قام به مرة بعد مرة .

(٣) تناوب : البت .

(٤) ابن العنب : الخمر .

الرسائل الشخصية

نموذج كتب الأدب والتراجم بكثير من رسائل الأدباء والكتاب المصريين الشخصية والإخوانية في التهنئة والتأدي والشكر والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية . وعادة معانيها محدودة ، ولكن أصحابها يحاولون إظهار براعتهم بإطالتها وتخيير عباراتها ونشر زخارف البليغ ومحناته عليها حتى تروق من تُرسل إليهم وتبلغ من التأثير فيهم المبلغ المنشود . ومن برعوا في تديجها وكتابتها في أيام الفاطميين عبد المجيد بن أبي الشخاء الصقلي الكاتب الديواني لزمان الخليفة المستنصر ، وسنخسه بمحدث مفرد ، وكان لا يكاد يقل عنه إحسانا في تلك الرسائل سبطه أو ابن ابنته الحسن ^(١) بن زيد الأنصاري الكاتب مثله في الدواوين الفاطمية ، وكان جده لأبيه شاعرا ، وهو على بن إسماعيل ، وكان أيضا فقيها ولى قضاء الأردن للفاطميين ، ويقول السلفي في معجمه : لم يكن له نظير في الأدب بقطره سوى ابن أبي الشخاء ، وقتلها بدر الجبالى وزير المستنصر . والحسن بن زيد بذلك سليل قتلين وكأنما كُيِّبَ عليه أن يقتل مثلها ، وتولى إثم ذلك الحسن بن الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣) في أوائل خلافة أبيه لأبيات في هجائه دسها بعض معاصريه عليه ، وكأنما أراد القدر أن يثأر له وكان الحسن قد استبدَّ بتنفيذ الأمور دون أبيه فدرس عليه السم في طعامه فأت لسنة ٥٢٨ .

وواضح أن الحسن بن زيد - كما يقول ابن سعيد - عريق النسب ، في صناعة الأدب ، يمتُّ إليها بأوفى ذمام ، ويضرب فيها بأحوال وأعام ، ويقول الهاد الأصماني : « وصفه القاضى الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله » . واحتفظ الهاد له في خريدته بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية ، من ذلك قوله في رسالة إلى صديق يهته بالبره من مرضه .

« إذا قدَّم الوداد ، وصحَّ الاعتقاد ، وصفت الضمان ، وتخلَّصت السرائر ، حلَّ الإخاء المكتسب ، محلَّ أخوة النسب ، وصار المتعاقدان على الأثر ، والمتحابان على بعد الدار ، متساهمين فيما ساء وسر ، ومتشاركين فيما نفع وضرر ، وتلك حالى وحال حضرة مولاي فاني وإياها

ومعجم السلفي ص ٤٤٨ .

(١) انظر ترجمة الحسن بن زيد الحريفة (قسم شعراء

مصر) ٦٧/٢ وما بعدها والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢٣٧

كنفس قُسمت على جسمين ، وروح قُرئت بين شخصين ، فأما ألما فقد مضى وأزعجني ، وأما برؤها فقد سرها وأبهجني .

ومهارته في صياغة أسجاعه واضحة فعباراتها تتوازن وتتبادل تعادلا دقيقا ، وكأن كل كلمة في السجعة الثانية تعانق أختها في السجعة الأولى في علوية ونصاعة وسلاسة وطلاقة . ومن كتاب له في تعزية :

« الحَظُّبُ الحادث ، قَادِحُ كَارِثٍ ^(١) ، كادت له القلوب أن تبتراً من أضالهما ، والعيون أن تتعرض بدمائها من مدامعها ، والفصحى أن يدُرُع ^(٢) جِباب الدُّجَّة ، والحوامل أن تُجَهَضَ بما في بطونها من الأجنة . وإن المنية حَوَّضُ كل الناس وارده ، ومنهل كل الخليفة قاصده ، لا يسلم منها ملك نافذ الأمر .. ولا تقير خامل الذكر » .

وتحمل القطعة نفس الصياغة السالفة بكل ما تنسم به من اكتمال الإيقاع في الألفاظ بين للجمعات وحسن الانتخاب للألفاظ والكلمات .

وكان يعاصر الحسن بن زيد الشاعر ظافر الحداد الذي مرت ترجمته بين الشعراء ، وكانت قد انعقدت صداقة بينه وبين أبي الصلت أمية بن عبد العزيز نزيل الإسكندرية ، وكان قد بارحها إلى المهديّة بتونس سنة ٥٠٦ . ولم يصله من ظافر كتاب فأرسل إليه يعاتبه ، ومن قوله يجيبه عن كتابه ^(٣) :

« فضضت الكتاب عن رسالتك التي يهيج قشيبا ^(٤) ، ويضوع ^(٥) طليبا ، ولا يترّف قليبا ^(٦) ، فخلتُ أني أختال أيّ اختيال في حلل الشباب ، وأذكر الأحباب ، وأرشف الرُضاب ^(٧) ، من الثنايا العذاب ، بعد الصدّ والاجتناب :

ذَكَرْتُ بِهِ عَهْدًا كَأَن لَّمْ أَقْزُ بِهِ
وَعَيْنًا كَأَنِّي كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَنَبَا

ثم نزهت ناظري ، وجلوت خاطري ، بيدائع مانتضئته الكتاب ، من العتاب ، حتى وددت أني أجدد كل يوم ذنبا ، يوجب منه عبا ، كي أقطف منه مثل تلك الأزهار ، وأجني مثل تلك

(٥) يضوع : يفرح

(١) كارث : محزن .

(٦) قليبا : مغيبا

(٢) يدُرُع : يلبس . الدجّة : الظلمة .

(٧) الرضاب : الرين

(٣) انظر الرسالة في ديوان ظافر

(٤) قشيب : جديد

الأثمار ، فما أخصبها رياضاً ، وأعذبها حياضاً ، وأشرفها أجساماً وأعراضاً .

وظاهر يعنى في رسالته بسجعاته ، ويوفر لها كل ما يستطيع من جمال اللفظ وحسن الجرس ، حتى تقع من نفس أمية الموقع الذى يريد من بلاغة القول وروعة البيان . وإذا مضينا إلى زمن الأيوبيين لقينا القاضى الفاضل أهم كتابهم يدبج كثيراً من الرسائل الإخوانية أو الشخصية واختلف منها على الدين بن عبد الظاهر باقات كثيرة في مختاراته من رسائله التى سماها « الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم » ومن قوله في إحداها يصف لأحد أصدقائه دمشق :

« إني وصلت إلى دمشق المحروسة حين شَرِدَ برْدُها ، وورَدَ ورْدُها ، وانضُرَّ نباتها ، وحَسَنَ نَظْمُها ، وصفا ماؤُها ، وضَفَا ^(١) رداؤُها ، وتفتت أطيارها ، وتبَسَّمت أزهارها ، وانثَر ^(٢) زهر أفرحانها فحكى ثنور غِرْزِلاتها ، ومالت قُصْبُ بانها ، فانتثت ثَنَى ولدانها . فلما قريتُ من بساتينها ، ولاح لي فَسْحُ ميادينها ، وتوسطت جَنَّةُ واديها ، ورأيت ما أودعه الله العظيم فيها ، سمعت عند ذلك حماما يغرد ، وهزاراً ^(٣) ينشد ويردد ، وقمرِياً ^(٤) ينوح ، وبلبلا بأشجانها يوح . »

وسلوب القاضى الفاضل واضح في هذه القطعة لأبسجاءه فحسب وما يبلغ فيها من اكتمال الجرس والإيقاع بين أوائلها وتواليها ، بل أيضاً بما يوشى به كلامه من الاستعارات البديعة وزخارف الجناسات ، وكان ما يزال يضيف إلى مثل ذلك طباقاته وتورياته الرشيقة وما عرف به من العناية بمراعاة النظر . وكثرت للرسائل بينه وبين ابن سناء الملك وأبيه القاضى الرشيد ، مما أتاح لابن سناء الملك أن يجمع منها كتاباً يسمى « فصوص الفصول وعقود العقول » ، وتحتفظ دار الكتب المصرية بمخطوطة منه ، وهو مقسوم قسمين : قسم لمراسلات القاضى الفاضل وابن سناء الملك وقسم لمراسلات القاضى الفاضل مع أبيه ، وفيه مراجعات كثيرة بين الفاضل وابن سناء الملك تصل بنظرات له ونقد لبعض أبيات من قصائده . وحرى بنا أن نذكر كثرة استشهاد الفاضل في رسائله الشخصية بالشعر حتى ليموى له القلقشندى في الجزء الأول من صبحه ^(٥) رسالة موزعة بين كلمات نثرية تليها أبيات شعرية ، ورسالة ثانية موزعة بين كلمات وشطور أبيات . ومن كتاب الديوان حيثئذ البارعين في تحبير الرسائل الشخصية الأسعد بن ممان ، وسترجم له عما قيل .

(١) ضفا : سجع .

(٢) انثر : تفتح .

(٣) هزأ : يتعجب .

(٤) قمرى : القمر .

(٥) القمرى : ضرب من الحمام المطوق حسن الصوت .

(٦) صبح الأضفى ٢٧٦/١ .

ونغشى في زمن المالك فنجد الأدباء من كتاب وشعراء يتبادلون رسائل شخصية كثيرة ، من ذلك رسالة بعث بها محي الدين بن عبد الظاهر سنة ٦٥٣ إلى الشاعر ابن النقيب الذي مرت ترجمته ، وقد بلغه أن شخصا عابه في مجلسه وأزرى به وبقدرته الكتابية ، وكان لا يزال شابا في نحو الثلاثين من عمره ، ويبدو أنه عرف أن ابن النقيب ردُّ على عابه ، فكذب إليه يهجو هذا العائب ويشكره على جميل رده عليه ، وهي رسالة طويلة ^(١) ، جعل عنوانها « التواضع » وقد مضى فيها يصور حملة هذا العائب عليه ثم أخذ يعثفه تعنيفا شديدا ، وأنهاها بالدعاء لابن النقيب والدعاء على عائه بالويل والثبور ، ونلم بأطراف منها ، يقول :

« إن فلانا غَضُّ منى .. وزعم أن إناء إيانى غير مُقَمِّم ^(٢) ، وبناء مجدى غير محكم ، وأن جوارح إجادنى جرمة ، وقرائع ارنجالى قرمة ^(٣) ، وأن صدور المجالس تنكر إقدام أقدامى ، ويطون الطروس لأثْلَقَ بأفلامى ، وأنى لا أَعَدُّ فى جملة الكتاب ، وإذا دخلوا من أبواب متفرقة للتكرم لا أدخل معهم فى باب ، والذي أقوله له مخاطبا ، وأومى ^(٤) به إليه مجاوبا : ماكل الأفاعى نبت بها الأنامل ، ولاكل المرامى تُنصَّبُ بها الحبال ، ولاكل زَنخار ^(٥) يُخاضُ ، ولاكل جَناح يُهاض ، ولاكل جامع يُراض ، ولاكل سابعة تُفاض ^(٦) .. ولا بَصْرُ الزناد الوارى ^(٧) قدحُ القادح ، كما أنه لا يصير النجم السارى نبعُ النابع .

والرسالة على هذه الشاكلة من السجع الموقَّع الملحن تلحينا حسنا ، مع توشيته بزخارف الاستعارات ومحاسن الجناسات ، وقد ورى في كلمة « قدح القادح » مع ذكر الزند الوارى فلم يرد بها قدح القادح للزند طلبا لإخراج النار منه ، وإنما أراد ذم الهاجى ، من قولهم : قدح فى عرض أخيه إذا عابه وتلبه .

وتكثر فى الرسائل الشخصية حيثذ تقریظات الأدباء والشعراء ، ولعل شاعرا لم يكثر تقریظ شعره ومصنفاته كما قرَّط ابن نباتة . ومُرٌّ فى ترجمته أن له كتابا سماه « سجع المطوق » ترجم فيه لكل من قرَّطوا كتابه « بجمع القوائد » . وتلميذه برهان الدين القيراطى الذى مرَّت ترجمته بين الشعراء تقریظ طريف لشعره ونثره ، ومن قوله فيه ^(٨) :

- | | |
|---|--|
| (١) انظرها فى نهاية « تمام المتن فى شرح رسالة ابن | (٥) زخار : النهر الزخار : القلى الطامى . |
| زبدون ، للصندى | (٦) فاض : تكون سابعة ضاية |
| (٢) منم : مله | (٧) الوارى : المخذ . |
| (٣) قرمة : جرمة . | (٨) خزنة الأدب للحوى ص ٥٤٧ . |
| (٤) أومى : نشير . | |

« لا غرو أن فضح بديع^(١) الزمان بلفظه البديع ، وأزهرت الأوراق بمنثور رسائله التي كل فصل منها ربيع ، وبارك الذي جعل في سماء دوحته لشمس بلاغته بروجًا ، وأعلل هممه التي لا ترضى الشهب جياذًا والأهله سُرُوجًا .. وقد زهت أمداحه المؤيدية^(٢) فأصبحت بيوته المرفوعة (ذات العاد) وراقت محاسن التي (لم يخلق مثلها في البلاد) .. وطالما سرح الناظر في بستانها نظره ، ورام^(٣) ابن سكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباي فوجدها مسكرة^(٤) ، وعلم المتنبى أن هذا خاتم الأدباء لامحاله ، والمترسل الذي نهض عنه بأعباء كل رساله .

والتقريظ زاهر بالانقباس لآي القرآن الكريم وألفاظه كقوله في مديح أبيات ابن نباتة إن بيوته المرفوعة أصبحت ذات العاد . وفي كلمة بيوت تورية إذ لا يريد بيوت الشعر من الخيام التي ترفها الأعمدة أخذًا من قوله تعالى في سورة الفجر (ألم تركب فحل ربك بعاد إرم ذات العاد) أي أنهم كانوا أهل خيام وأعمدة ، وهو لا يريد ذلك كله وإنما يريد بيوت شعر ابن نباتة أو أبياته . وأكمل في العبارة التالية وصف القرآن في السورة نفسها لعاد بقوله : (التي لم يخلق مثلها في البلاد) . وراعى النظر مراعاة دقيقة حين ذكر ابن سكرة فذكر معه القطر النباي يريد شعر ابن نباتة المحلو . وحين ذكر المتنبى أشار إلى ما قبل من تنبؤه وأنه نهض عنه بأعباء كل رسالة ومعروف أنه لم يثبت تنبؤ المتنبى تاريخيا غير أن القيراطي رأى استغلال ذلك في جلب ما يخدم غرضه من مراعاة النظر والتورية بكلمة رسالة . وربما كان أكثر من رسائل التقريظات رسائل الاستدعاءات ، إذ كان الأدباء من الكتاب والشعراء يستدعى بعضهم بعضًا للمشاركة في مجالسهم ومابها من أنس ومدام ومن رفاق وصحاب . ولبلد الدين بن الصاحب المتوفى سنة ٧٨٨ للهجرة رسالة^(٥) طويلة أرسل بها إلى فخر الدين بن مكانس يدعوه لمجلس أنس وشراب ، واصفًا له ما سيتمتع به معه من خمر معتقة ، وكأنه كان من المدمنين عليها في غير تخرج ، وله يقول : هـ هل لك - بسط الله آمالك ، وضاعف نعيمك ودلائك - في عنراء مَصُونَة ، كاللدرة المكنونة ، فثانة مفتونة ، كأن على خدها فوق ورده ياسمين .. لها من ذاتها طرب يغنى عن المزامير ، بلقيية الجمال لها (صرَّحُ مُرَّد من قَوَارِير) ليلها من حسنات نهار ، وضوء وجهها ليد لاسمها سوار ، تثلثت بالعصباح ، وتلطف حتى مازجت الأرواح ، أدمجها كلها تمتق يغلو ،

(١) بديع الزمان : صاحب المقامات والرسائل المشهور . (٤) مسكرة : منقطة .

(٢) القويدية : يريد أمداحه في القويد (انظر تهجته) . (٥) مطالع البدر للزفول ١٥٧/١ والأدب في مصر

(٣) ابن سكرة : شاعر بغدادى ماجن محاصر للسنى . الملوكى للدكتور محمد زغلول سلام ص ١١ .

ووردها كلما مرَّ بحلٍ ، أيامها أعياد ، وأوقاتها أنوار القلوب والأكياد . من « القاصرات الطرف » ، في كل قَصْر وهي على الإطلاق ذهية مصر .. لاتنزل الحوادث ساحتها ، ولا يعرف التعب من صافح راحتها ، حمراء تخلف ثوبها على النعمان ، بل تكاد تطبق عيناها على الإنسان .

وهو يثر في الرسالة كثيرا من التصاویر مع القدرة البديعة على صياغة السجع والاقباس فيه أحيانا من لفظ الذكر الحكيم كقوله « موديا عن دَن الخمر الزجاجية بما جاء في سورة النمل من وصف الصرح في قصر سليمان عليه السلام الذي شمرت بلقيس ملكة سبأ ثوبها حين دخلته إذ حسبه لُجَّة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح مُرد من قوارير) أى من زجاج شفاف لا يحجب ما وراءه . ووصف بدر الدين بن صاحب الخمر التي دعا ابن مكانس إليها بأنها من القاصرات الطرف اللاتي لم يمسهن أحد ، أخذًا للكلمة من الذكر الحكيم . ولم يلبث أن قال إنها ذهية العصر . والثورية واضحة إذ لا يريد أن عصرها ذهبي كما يقال عصر هرون الرشيد الذهبي مثلا وإنما يريد أنها صفراء اللون حين تعمر من عنبها وكرمها . وفي السجنتين التاليتين بآخر القطعة توريثان واضحتان ، فهو لا يريد . بل لفظه « راحتها » كفها كما تشهد لذلك كلمة صافح ، وإنما يريد الخمر نفسها إذ تسمى راحة . وبالمثل لا يريد في السجعة التالية بالإنسان إنسان العين وسوادها وإنما يريد الإنسان الحقيقي الذي يحسبها .

وظلت الرسائل الشخصية تتداول بين الأدياء طوال الحقبة العثمانية ، ودخلها غير قليل من التكلف والتصنع . ونسوق قطعة جيتند من رسالة محمد بن أبي الحسن البكري الذي مرت ترجمته ، أرسل بها إلى النور المَسْلَى ليشلى بمجلسه في منزله نَصْر يلتقي في شاطئ ماء النيل وقت فيضانه بنخضة الزروع الزاهية ، وفيها يقول ^(١) :

« سيدنا البر الذي يجرى بحر الفضائل من برّه ، ويمدب الورد والصُّدر بما يصدر من صدره ، ويفيض إحسانه نهرا لراحته وآمله ، ويتندر الأنام لتلقى تيار أنامله ، وتتزاحم على سيف ^(٢) زخار علومه ، تراحم رقاب أعدائه على سيفه وخصومه .. ومدينة بولاق هي مجتمع البحور ، ومدار ظلك السرور ، يفلتك الجبور ، طفحت بالنيل لا جُزَرَ عن الجزر مدّه المديد ، واستلت سيف النهر لقطع حروف الجبروف من أقصى الصعيد » .

والرسالة تجري على هذه الصورة من التكلف الشديد كما يلاحظ في السجعات الأخيرة ، وقد تصنع فيها لذكر مصطلحات الفلك والعروض والنحو . ولحمد الطيلوني من كتاب القرن الحادي

عشر المهجرى وشعرته رسالة^(١) هجا بها القاضى عمر المقرئ هجاء أراد به إلى الفكاهة والفحك من مثل قوله :

« يامن نوبة رث ، وحديث غث ، ياكثر الثباح ، ياخابا في الغدو والرواح ، ياتارك السنة والفرس ، يامن سعى بالفساد فى الأرض ، يانهط الدواهي ، وتابع التى والملاهي .. ياكثر الشكوى ، ياأثقل من رضى^(٢) ، ياموت الحبيب وطلعة الرقيب .. ياأثقل من المكب على الصبيان ، ومن كرا^(٣) الدار على السكان . »

والرسالة طويلة اقتطف منها الهجى مقتطفات فى نحو سبع صفحات أنبها بقصيدة هجاء على غرارها للشهاب الحضاى مؤلف ربحانة الألبا . وتظل الهجئات البديعة بارزة فى الرسائل ، ولكننا نشعر فى العبارات بضعف الصياغة ، وقلما نشعر بعاطفة فياضة أو إحساس مرهف أو معنى دقيق . وحري بنا أن نقف عند بعض النابهن من كتاب هذه الرسائل الشخصية على مدار العصر ومختلف أزمته .

ابن^(٤) أنى الشخاء

وقيل ابن الشخاء ، هو الحسن بن محمد بن عبد الصمد المسقلانى ، ولانعرف متى انتقل هو أو أسرته المسقلانية إلى القاهرة ، ويبدو أنه التحق مبكرا بدواوين الدولة الفاطمية لعهد الخليفة المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) وتخرج فيها على من كان يعمل بها من كبار الكتاب ، ولع اسمه فيها وتألق ، غير أننا لانمضى إلى سنة ٤٨٢ حتى نراه يُقتل بسجن مصر المسمى خزانة البنود ، وأكبر الظن أن بدرًا الجمالى وزير المستنصر هو الذى أمر بقتله كما أمر بقتل صهره القاضى إسماعيل بن على كأمراً بنا آنفاً فى الحديث عن حبيدهما الحسن بن زيد .

وكان ابن أنى الشخاء شاعرا بارعا كما كان كاتباً بارعا ، ولذلك لُقّب بالهجد ذى الفضيلتين ، وفيه يقول العماد : « الهجد مجيد كتمته ، قادر على ابتداع الكلام ونخته ، له الخطب البديعة ، والملح الصنيعة » ، ويقول ياقوت عنه : « أحد البلقاء الفصحاء والشعراء ، له رسائل مدونة مشهورة قبل أن القاضى الفاضل عبد الرحيم اليتسانى منها استمد ، وبها اعتد .. كتب فى ديوان

(٤) انظر فى ابن أنى الشخاء معجم الأدباء لياقوت

١٥٢/٩ والنسخة لابن بسام (طبع الدار العربية للكتاب

بنونس القسم الرابع - المجلد الثانى) ص ٦٢٧ وابن خلكان

. ٨٩/٢

(١) نسخة ربحانة للمحى (تحقيق عبد الفتاح المحوطبة

الخطى) ٦٠٥/٤

(٢) رضى : جبل بالمدنية

(٣) كرا : أكر

الرسائل للمستنصر صاحب مصر.. إلا أن أكثر رسائله إخوانيات وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء وأمرائه زمانه ، ويقول عنه ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة ، والرسائل المهيبة ، كان من فرسان النثر ، وله فيه اليد الطولى » . وبدون ريب كان أبرع كاتب قاهري في القرن الخامس الهجري ، كما تشهد رسائله الديوانية والشخصية ، واحتفظ ياقوت وابن بسم في الذخيرة بطفافة كبيرة منها ، وأكثرها رسائل شخصية بديعة ، من ذلك قوله في رسالة استعطاف : « المودات إذا كانت مينة العفود ، صادقة المشهود ، موضوعة على أصل عريق ، وأساس وثيق ، لم تَحَرِّمْهَا الشبهة المُرْمِضة ^(١) ، ولم تزلزله الأباطيل المعترضة ، وإن تناقضتها ألْس مختلفة ، وعَلَّتْهَا برود من اللفظ مَقْوُة ^(٢) ، ولما رأيت زيارة مولاي قد صارت مَرْمُة ، وَجَنُوب ^(٣) مودته قد عادت مروعة ، وصرت أرى قوله متناقضا ، وماء البشر من وجهه غائضا ، من بعد ما عهدته :

تَبَيَّ طَلَاةٌ وَجْهَهُ عَنْ وَجْهِهِ فَتَكَادَ تَلْقَى الشَّجَحَ قَبْلَ لِقَائِهِ
وَضِيَاءَ وَجْهِهِ لَوْ تَأَمَّلَهُ أَمْرُو صَادِي الْجَوَانِحِ ^(٤) لَا تَرَوِي مِنْ مَانِهِ

لم أنجاس على سؤاله عن العلة خوفاً أن يعيب على الارتباب بوجهه ، ويتطرق سوء الظن على عهده ، فسألت من يعلم دقائمه ، ويخبر ظاهره وباطنه ، فأخبرني أن بعض الناس - ولم يسئ - نقل إليه عني فشن الغارة على وفائه ، وزلزل أواخيه ^(٥) وده وإخائه ، قتل : عتب ، واه ولاذنب ، وشكابة ولاينكابة ^(٦) ، وأنا أحاكم مولاي إلى إنصافه ، لإسعافه ، وعذله ، لأفضله ، وما كان أجدره برفض قول الماحل ^(٧) ، وتغليب الحق على الباطل .. والآن فقد أَوْضَعْتُ وَأَوْجَعْتُ ^(٨) ، وتألقت مولاي واستعطفت ، فإن عادت ظلال وده مديدة ، وحبال كرمه محصورة ^(٩) جديدة ، فحسن بلك الشائل ، أن تجمع شمل الفضائل .

والسجمات تنزل عن القم بخفة ورشاقة ، تشهد لابن أبي الشغب بأنه كان كاتباً مجيداً حقاً ، وأن الكلم كان يطاوعه ، ليحيله درراً مختارة . وكان يزين سجعاته بمحسنات البديع من جناس

(١) المرمضة : المرجفة .

(٢) البرود للوقفة : الثياب الرقيقة المخططة .

(٣) الجنوب : ريح لينة كالسيم ، والاستنارة واضحة .

(٤) الماحل : السامي بالجمية .

(٥) أوضح : سار سيرا سريعا ، ومثلها أوجف .

(٦) محصورة : محكة مينة .

(٨) صادي الجوانح : عطشان .

(٩) أواخي : أوامر .

وطباق . وتكثر عنده الاستعارات المبتكرة الطريفة ، وكان يعرف كيف يغمس عليها ويستخرج لآلها النفيسة من أصدافها البراقة ، وطبيعي للقاضي الفاضل وللكتاب من بعده أن يضروا بحفظ كلامه ويستحضروه فيما يكتبون ويصوغون . وله من رسالة يعاتب فيها بعض القواد .

« رأيت فلاناً عند نظرنه لى بالأمس قد قُطِبَ ^(١) حاجبه ، وزعزع مناكبه ، فقلت : ماله ؟ أنزل إليه وحي ، أم عصب ^(٢) به أمر ونهى ، أم قلَّ عقله فعقَّ نفسه وظلمها ، وجهل مقادير الأشياء وقيمها ، واحتقد أن الدنيا طوع حكه ، والقطن صائب فهمه ، أم رأى الملائكة المقربين تشفع به ، والحدود العين ^(٣) تشكو لاجع حبه ، وغمار الجنة تدلت إلى يده ، ونار جهنم تفتبس من زنده ، والكوثر يمد من معينه ، والسموات مطويات يمينه »

وهو عتاب مرير لهذا القائد الذى شمع بأنفه عليه ، وتعالى واستكبر استكباراً ، فضى يهزأ به ويسخر منه سخريات متعاقبة ، فهو ليس نيباً مرسلأ . ولا أمراً ناهياً ، بل هو جاهل مغرور ، لا يعرف قيم الناس ولا أقدارها ، وكأنما ظن أنه الحاكم بأمره وأن عقله يجمع القطن ، بل لكأنما توهم أنه نبي تشفع به الملائكة ، وأن الحدود العين تشكو تباريح حبه ، وأن غمار الجنة مد يده ، ونار جهنم تفتبس من زنده الوارى المضطرم ، ومن معينه يشمد نهر الجنة ، أو أحد أنهارها : الكوثر . بل لكأنما توهم نفسه رب الكون ، ونحال السموات مطويات يمينه . وعلى هذا النحو تتوالى سخرياته ، يطن بها هذا القائد فى الصميم ، وفى آخر القطعة اقتباس واضح لآية سورة الزمر : (والسموات مطويات يمينه) . ويكثر هذا الاقتباس لآيات القرآن الكريم وألفاظه فى رسائله ، كما يكثر الاستشهاد بالشعر وإنشاده فيها مازجاً له بكلامه . وكل ذلك وما تقدم من استخدامه للمحسنات البديعية وضحه الكتاب المصريون بعده شيعاراً لهم وستتأ فى رسائلهم وله من رسالة فى هجاء مضيف ومائدته .

« ولجتُ منزلاً قد استعار من قلب العاشق حرّاً ورَحَجا ^(١) ومن أخلاق مالكة ضيقاً وحرَجاً ، كأنما زفرت فيه النار ، ونُقِط على جذرائه بالقار ، فجلست طويلاً إلى أن حضر الإخوان ، وقُدِّم

(١) قلب : حبس وضج حاجيه .

(٢) عصب به : ضم إليه .

(٣) العين : هجاء .

(٤) جمع عيناء : ولعة العينين جبلتها .

الخِوان^(١) ، فرأيت أرغفة قد أحكت في الصفر والإلطاف ، ولم تتعوذ^(٢) قط من الأضياف .. وثلاثة صحاف ، واسعة الأكتاف ، بعيدة الأوساط من الأطراف ، قد جُعل في قرارة كل منها مالا يدفع الشَّب^(٣) ، ولا تجده اليد إلا بالتعب ، فجئنا جولة وعينه تطرف علينا شهلا وبينا ، وتتفقد منا حركة وسكونا ، وقتنا ولم نقارب الكفاف ، وقد ظنُّ بنا الإسراف .

والسجع يطرد دائما عنده على هذا النحو من صفاء اللفظ ورحانته والقدرة البارة على الملازمة بين السجعات في الجرس ، مع الانطلاق والسهولة ، وكأنه يصدر عن النيل العذب وسلاسته . وهو بحق جدير بما أسبغ عليه الأسلاف من ثناء وإطراء .

ابن^(١) مَنَافِي

هو أسعد بن الخطير مذهب بن مينا بن أبي المليح زكريا بن مَنَافِي ، سليل أسرة قبطية من أسبوط ، هاجرت منها إلى القاهرة في القرن الخامس الهجري ، وكان جده مَنَافِي جوهريا واشتهر بأنه كان يصيغ البُلُورَ صبغة الباقوت فلا يعرفه إلا الخبير بالجواهر . ويقال إن الفَصَّ من عمله كان إذا نودي عليه في سوق الصاغة تشوف نحوه العيون لجودته وحسن منظره . واتصل ابنه أبو المليح بوزير المستنصر بدر الجمالي أمير الجيوش ، ووظفه بديوان الإقطاعات وشئون المال ، وكسب بعده لابنه الأفضل ، وظل هذا العمل الديواني في يته ، يتولون ديوان الإقطاعات لو ديوان الجيش أو ديوان المال ، ولعلها جميعا كانت ديوانا واحدا متداخلا . وتولَّى هذا الديوان لآخر أيام الدولة الفاطمية الخطير مذهب ، حتى إذا أسندت الوزارة في آخر أيام العاضد الفاطمي إلى أسد الدين شيركوه نراه يُسلم هو وأولاده على يده . وأقره أسد الدين على ما يده من ديوان الإقطاعات ، وقيل بل ديوان الجيش . وكاننا متداخلين كما ذكرنا . ومعروف أن أسد الدين شيركوه ولي الوزارة المصرية

القفطي ٧٣١/١ ونسخت المقرئ ٥٧٧/٢ والنجوم الزاهرة ١٧٨/٦ والديانة والنهاية لابن كثير ٥٢/١٣ وشفوات الذهب ٢٠/٥ وحسن المحاضرة ٥٦٥/١ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٤٣/٨ ولأيه الخطير ترجمة بعده في الحريدة وقيله في المغرب .

(١) الخوان : الثلاثة عليها الطعام
(٢) كتابة عن أن الأضياف لم يسرها
(٣) الشب : الجرح الشديد
(٤) انظر في ابن مَنَافِي وترجمته ورسائله الحريدة (قسم مصر) ١٠٠/١ ومجموع الأدباء ١٠٠/٦ والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢٦٩ وابن خلكان ٢١٠/١ وإنباء الرواة

سنة ٥٦٤ وكان أسعد في العشرين من عمره فأسلم وحسن إسلامه وهو لا يزال في ريعان شبابه ، وكان ساعد أبيه وعونه طوال عمله الديوانى إلى وفاته سنة ٥٧٧ .

وكان القاضى الفاضل يعجب بابن مماتى ويسميه بلبل المجلس لظرفه ، مما جعله يعينه ناظر الدواوين بمصر مع إسناده ديوانى الجيش والمال إليه ، وظل له هذا العمل بقية مدة صلاح الدين وابنه العزيز والأفضل ، حتى إذا ولي السلطان العادل بن أيوب سنة ٥٩٦ واستوزر الصنى بن شكر أخذ الجوى بكفهرينه وبين الوزير ، بسبب ما كان يصدر منه في حقه أيام عمله في الديوان معه ، فلم تخمس مدة طويلة حتى أخذ يدبر عليه المؤامرات ، وصودرت أمواله . واستر فترة نحو عام ثم احتال في الفرار إلى الشام ، وأبعد في فراره حتى نزل حلب سنة ٦٠٤ على سلطانها الظاهر بن صلاح الدين فأحسن استقباله ، وجعل له راتباً معلوما وظل يسبغ عليه عطاياه حتى توفى هناك سنة ٦٠٦ .

وصنف ابن مماتى مصنفات كثيرة عدل له ياقوت في معجمه منها أكثر من عشرين مصنفًا ، منها مؤلفات ومنها مختارات شعرية من بعض الدواوين أو من كتب الموسوعات الشعرية مثل الذخيرة لابن بسام . ومن مصنفاته « الشيء بالشيء يذكر » ويقال إن القاضى الفاضل أعجب به حين عرضه عليه وسماه سلاسل الذهب . ومن أهم مؤلفاته كتاب قوانين الدواوين الذى نشره بمصر عزيز سوريال عطية في جزء واحد ، ويبدو أنه مختصر للكتاب إذ يقول المقرئى في خطه : « كتابه قوانين الدواوين صنفه للملك العزيز فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها وما يجرى فيها ، وهو أربعة أجزاء ضخمة ، والذى يقع في أيدي الناس جزء واحد اختصره منها غير المصنف ، فإن ابن مماتى ذكر فيه أربعة آلاف ضبعة من أعمال مصر ومساحة كل ضبعة وقانون ربيها ومتحصلها من عتب (نقد) وغلة » . ومن أهم مؤلفاته تهذيب أفعال ابن طريف في اللغة ، ويقول القفطى في إنباء الرواة : « أجاده ، وأتى فيه بالحسن وزيادة » ومن أجله ترجم له بين اللغويين والنحاة . وله كتاب اختار العامية لغة له ، هو كتاب الفاشوش في حكم قراقوش ، وسنعرض له في غير هذا الموضع . وكان له ديوان شعرى سقط من يد الزمن . ونظم سيرة صلاح الدين كما نظم كتاب كليله ودمنة شعرا . وكان أبوه الخطير شاعرا كما تدل على ذلك ترجمته عند العماد فى المغرب .

وكان ابن مماتى يحسن الكتابة كما يحسن الشعر ، وفيه يقول العماد : « أحد الكتاب فى الديوان الفاضل ، ذو الفضل الجلى ، والشعر العلى ، والنظم السوى ، والخط القوى ، والسحر

المانوى ^(١) ، والروى الروى ^(٢) ، والقافية القافية ^(٣) أثر الحسن ، والقرينة المقترحة صورة الثمن ، والفكرة المستقيمة على جَدَد ^(٤) البراعة ، والفتنة المستمدة من مدد الصناعة . وبعد أن أنشد العاد طائفة من أشعاره روى فصولا من رسائله الشخصية تدل على براعته الكتابية بجانب براعته الشعرية مستهلاها بقوله : « ومن نَوَّر ^(٥) نثره البديع ، ونور فجره الصديق ^(٦) وغرر درره الثمينة ^(٧) ودرر غرره الصنية ^(٨) ، ما تُحَدِّى ^(٩) له بهائم الخاتم . وَتُحَدِّى ^(١٠) به كرام المكارم ، ويرتفعُ الحسن في روضه ، وتكرعُ الحساء من حوضه ، وتنبطُ الآداب بدابه ^(١١) ، وترتبطُ الأبواب ببابه . »

ومن طريف ما فوَّنه له العاد فصل من رسالة شخصية يصور فيها فراقه لصديق في إحدى الأمسيات قائلا :

« فصلت عنه في أخريات النهار ، وقد ظهر في أطراف الجدران لَفَرَق ^(١٢) فراق الشمس اصفرار ، فلما ذَهَبُ ذَهَبُ الأصل بنار الشفق ، ولبست المشارق السواد لما تَمَّ في المغارب على الشمس من الفرق ، وأقبلت مواكب الكواكب في طلب النار ، كدراهم النار ^(١٣) وتشابهت زواهرها - وإن اختلفت في الأسحار - بالأزهار في الأشجار ، وتكلف القمر الموافقة فظهر على وجهه الكلف ^(١٤) ، ومرت به طوالع النجوم فلم يتخبرها حسدا فأعرب عن غدر الخلف بالسلف ، وظهر الوجوم ، في وجوه النجوم ، وعجل صَبَرُ السَّريِن ^(١٥) فواحد طائر يحوم ، وآخر واقع لا يقوم . ولم تزل متلاحقة متسابقة لتقفو الأثر وتسمع الخبر ، إلى أن بدا سَوَسَنُ الفجر ولاح ، وابتم نثر الصباح عن الأفاح ^(١٦) ، وكاد ثعلبه يأكل عنقود الثريا ، وبرزت الغزاة من أَسْرِ الكِناس ^(١٧) طلقة الهباء . »

(١) المانوى نسبة إلى ماني مؤسس مذهب المانوية الفارسي

قبل الإسلام

(٢) الروى الأول : الحرف الذي ثُبِّي عليه القصيدة

والروى الثانية من الماء أى شاق الخلة .

(٣) القافية الأولى : نهاية البيت في القصيدة ، والقافية

الثانية من قفا الشيء أى نحه .

(٤) جدد : نبع مستو (٥) نور : زهر

(٦) الصديق : المنشق نورا (٧) النصبية : الناصبة

(٨) الصنية : البديعة .

(٩) تحدى : قطع . جهائم : صبيات . الخاتم : الصابون

(١٠) تحدى : تساق بالأراجيز والأشعار .

(١١) دابه : تسهيل دأبه أى غطه (١٢) فرق : جزء

(١٣) النار : ما ينزل على العروس في الزفة من الدراهم

(١٤) الكلف : ما يطو وجه القمر أحيانا من كثرة

(١٥) السريان : لجان أحدهما يسمى النسر الطائر ويسى

الثاني النسر الواقع

(١٦) أفاح : جمع أفعوان وهو نبت زهره أبيض وورده

كأشنان للشار وهو الأرولة ويشبه به الأسنان .

(١٧) الغزاة : الشمس . الكناس : بيت الغزال في

الشجر يستتر به . طلقة الهباء : بشة الوجه .

وبدل هذا الفصل على أن الهاد الأصيل كان محققا كل الحق في التنويه ببراعة ابن ممانى الكنائية ، وهى براعة تكاد تبدو في كل سجمة من سجمات هذا الفصل ، فأضواء الشمس في الأصيل تمكس بصفتها على أطراف الجدران فرقا وفرعا لهول الفراق . وتَوَارَى ذهب الأصيل وراء نار الشفق الملتاع ، ولبت المشرق السواد على الشمس الغريقة في المغارب . وأقبلت مواكب الكواكب ، وجيوشها تطالب للشمس بالتأثر ، متفرقة ومتجمعة وكأنها ينثار الدراهم في الأعراس ، أو كأنها الأزهار على الأشجار في الأحجار ، وتكلف القمر أن يظهر وحده لغياب الشمس أخته فظهر الكلف على وجهه ، ومرت به الكواكب وطولها فلم يسلها ما الخبر ، حسداً وغدراً كما يغدر الخلف بالسلف . وبدأ الوجوم في وجوه النجوم ، وكاد النيران أن يفقدا صبرها فواحد طائر بحوم وآخر واقع لا يقوم . ولم تزل النجوم متلاحقة ، إلى أن بدا سوسن الفجر وزهره الأبيض المشرق ولاح ضياؤه ، وابسم نثر الصباح عن أضواء كالأقحاح . وطالما شَبَّ الشعراء بمجموعة نجوم الثريا بالعقود . ويستغل ذلك ابن ممانى ، كما يستغل تسمية الشعراء للشمس الغزالة فجعلها تستل ليلاً وراء الأفق في كناس ككناس الغزال والظباء في الشجر . ومراعاة النظر واضحة في السجمات الأخيرة . ويشيع في الفصل كله حسن التعليل ، كتعليل ابن ممانى الرائع لصفرة الأصيل على أطراف الجدران ، وتعليله لانتشار الظلام في بواكير الليل على المشرق حزناً على غرق الشمس ، وهو حزن تبعه لبس السواد ، ومن هذا اللون أيضاً تعليله لكلف القمر لتكلفه الحزن على غرق الشمس . ويتأدى ابن ممانى مع مراعاة النظر ، فيجعل القمر لا يسل الكواكب عن مصير الشمس حسداً يستشعر فيه من تلقاء نفسه غدر الخلف المعروف بالسلف . ومن هذا اللون أيضاً ما علل به طبران أحد النسرين ووقع صاحبه لما فقد من صبرها . وتلاحق في تضاعف ذلك الاستعارات ، وما يوشى به سجمات من الجناسات والطباقات . وله من صدر مكانة :

« لم يزل العبد لما عرض من إعراض المجلس .. ذا زفراتٍ سَوَامٍ تنصَّرم^(١) ، وعبرات هوام تنصَّرم^(٢) ، وعبارات عن بسط عذره تثرُ بالكلام عِيَا فيتنمُّ^(٣) » ، بالصلت عن أن يتحرَّز ويتحرَّم^(٤) ، وأفكارٍ تنزَّه عن إساءة الظن بمودته فا يتكدر حتى يتكرم ، فكم تناول القلب جلَّده ، فجَلَّده بالقلق لما تجاوز حدَّه وحدَّه^(٥) ، وأجرى من سوابق دموعه حسكراً أجرى فشق

(١) سوام : لازمة لا تبحر . تنصرم : تشتغل

(٤) ينكرم : يجده حراما

(٢) هوام : ساقطة . تنصرم : تنقطع

(٥) حدّه : ضربه بالسياط

(٣) يتنم : يتوسل

خَدَهُ وَخَدَهُ^(١) .. إلى أن بدت صحيفة وجه صَبْرِهِ مسدودةً ، وتمنى لو كان الموت قبل إخلافه وعَدَهُ ، وإخلافه وَدُهُ^(٢) وَدُهُ^(٣) ، حتى جَنَى وَرَدَ ورود كتابه الكريم من انتظام شوك انتظاره ، ورفع ناظره بقدمه عليه على كافة أمثاله وأنظاره ، فلم أن عَلم المودة قد رُفِعَ ، وموصول حبل الجفوة قد قُطِعَ ، وكاد القلب يخرج لمصاحته لو استطاع نفاذاً ، واجتمعت فيه أمانى النفس ، فاتخذته دون جميع المَلَأْ مَلَأْ^(٤) . وتناول بيد الإجلال ، وفَضَّ يد الإدلال ، فوجده منظوماً على خط كالكثوس المرسومة لما لاح مداده مُدَاماً ونَقَطَهُ حَيّاً . وألفاظ تتيح للخواطر طرباً ، وتعريضات لو كان التصريح فضة لكانت ذهباً ، ومن ملاحات سحائبها حتى وَكَفَتْ^(٥) وأبَاد ما استكفت فواضلها حتى عَمَتْ وَكَفَتْ .

ووشى الجناسات والاستعارات واضح في هذا الفصل ، فالزفرات تتصرَّم والعبرات تتصرَّم بينا يتذم بالصمت ويحرم . ولانلبث أن تلقانا جناساته التامة . فالقلب يلوذ إزاء إغراض صاحبه عنه في مجله يجلده فيضربه بأسواط القلق ، حين تجاوز حَدَّهُ ومنهائه ، ويَعْدُهُ كما يُحَدُّ الجناة ، وتجري سوابق دموعه فتشقى خده وتخدّه أى تشقه وتؤثر فيه ، وتخلق وتنبئ مودة صاحبه فيتمنى لو كان الموت وَدُهُ وزاره . ويعود ابن ممانى إلى هذا الجناس التام بين المَلَأْ مَلَأْ ، كما يعود إليه في نهاية الفصل حين وكفت السحب أى أمطرت وعمت فواضل صاحبه وكفت من الكفاية . وتلقانا في الفصل مراعاة النظر والبطاق ، وكأنما كان ذلك شعاراً له في نثره . ومن طريف مآثر عنه من تصويره لوفاء النيل قوله .

« وأما النيل المبارك فإنه عَمَّ الْبَقَاعَ^(٦) ، وطبَّقَ^(٧) ، الْبَقَاعَ ، وانتقل من الإصبع للذراع ، حتى لم يُلَفْ بمصر قاطع طريق سواه ، ولا موهوب مرهوب إلا إياه .

وهو يصور في هذه الكلمات القليلة فيضان النيل بل طوفانه الذى لا يقاس بالإصبع وإنما بالذراع والذى علا موجه مرتفعات الوادى وجميع البقاع ، حتى قطع الطرق وأخذ بخناق الدور والسكان ، ورهبه الناس وطلبوا منه الأمان . ولعل في كل ماقلعنا ما يصور قدرة ابن ممانى البليغة

(٥) وكفت : أمطرت ، وكفت في آخر الفصل من

الكفاية

(٦) البقاع ها : مرتفعات وادى النيل

(٧) طبق : مُم

(١) خده : شقّه وأثر به

(٢) إخلاق الشبى : جعله نابياً

(٣) ودّه : زأره

(٤) ملأ : ملجأ

وأنه كان جديرا بأن نعى كتب الأدب والتراجم . بشعره ونثره ، ونحمل إلينا باقات كثيرة من رسائله .

فخر الدين ^(١) بن مكانس

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن إبراهيم بن مكانس ، من سلالة أسرة قبطية ، ولد لأبيه سنة ٧٤٥ بالقاهرة . وكان الأب مسلما كما يتضح من اسمه ، وكان من الكتاب في الدواوين ، فنشأ ابنه على غواره ، وكان ذكيا ذا ملكة خصب ، فسال الشعر مبكرا على لسانه . وصحب برهان الدين القيراطي وبدر الدين البشكى الشاعر أحد تلاميذ ابن نباتة ، وعنه روى شعره ونثره . وكان حنفي المذهب . واحتل سريعا مكانة أدبية بين أقرانه في القاهرة ودواوينها السلطانية ، ورقى بها إلى منصب ناظر الدولة ، وغيره من المناصب الرفيعة . وغضب عليه السلطان برقوق (٧٨٣-٨٠١) فلت مرة فأمر بمصادرته وتأديبه على خشبة السرايا منكسا على رأسه ، فقال :

وما تعلقتُ بالسرايا متكسا لجرمة أوجبتُ تعذيبَ ناسوتي ^(٢)
لكنني مذ نفتتُ السحر من أدنى علقتُ نطق هاروت وماروت

وبدل البيتان على ظرفه . وعفا عنه السلطان برقوق وأعادته إلى العمل ، ثم عينه وزير دمشق ، فأقام بها مدة . وفي صحبة السلطان برقوق دخل حلب ، وطارح فضلاءها كما طارح فضلاء دمشق . وطلبه السلطان برقوق بعد عودته إلى القاهرة ليل الوزارة بالديار المصرية ، غير أنه توفي قبل دخوله القاهرة ، ودفن بها سنة ٧٩٤ قبل أن يكمل ستة الخمين . وخلف ديوان شعر كبير ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطتان من إحداها بخط ابنه مجد الدين وكان شاعرا بارعا على شاكلة أبيه ، وقد أنشدنا بعض شعره البديع في غير هذا الموضع .

وأشاد بفخر الدين كل من ترجموا له ، فيقول ابن حجر في الدر الكامنة : « كان قوى الذهن حسن النوق حاد النادرة يتوقد ذكاء » ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان أدبيا فاضلا شاعرا

٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٤١١ ، ٥٤٧

(٢) لجرمة : لجرم أى الذنب . ناسوتي : جدى

(١) انظر في ابن مكانس وترجمته ونثره وشعره الفرر

الكامنة ٤٣٨/٢ والنجوم الزاهرة ١٢/١٢ وصح الأعتى

٢٦٧/١٤ وخزانة الأدب للحوى ص ١٩ ، ٢٢٤ ،

فصيحاً بليغاً .. وهو أحد فحولة الشعراء بالديار المصرية في عصره ، وشعره في غاية الحسن والرفقة والانسجام ، ودويوان شعره مشهور كثير الوقوع بأيدى الناس ، وكان كثير التورية فيه على نحو ما يتضح مما رواه له مترجموه وخاصة الحموى صاحب خزانة الأدب . وله رسائل شخصية تدل على روعته البيانية ، من ذلك رسالة احتفظ بها القلقشندي في صبحه كتب بها إلى بدر الدين البشكني في غيخته عن مصر بدمشق سنة ٧٨٤ وتصادف أن كان فيضان النيل عالياً وزاد زيادة مفرطة ، فرأى أن يصور له ذلك قائلاً :

« ربنا اجعلنا في هذا الطوفان من الآمنين ، سلاماً على نوح في العالمين . مات أخيراً مولانا بحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الماء ؟ .. فإنه قارب النيل أن يمتزج بنهر الهجرة بل وصل وامتزج ، وأرانا من عجائبه ما حقق أنه المعنى بقول القائل : حَدَّثَ عن البحر ولا حرج .. وسقى الناس من ماء حياته الممهودة كما شربوا من الموت أصعب كأس ، وسئل ابن أبي الرُّدَاد عن قياس الزيادة فقال : زاد بلا قياس ، امتلأ اليباب^(١) ، وهال العباب ، كال فطُف ، وزار لما خُف ، جمع في صموده إلى الجبال بين الحادى والملاح ، ودخل الناس إلى أسواق مصر وخصوصاً سوق الرقيق على كل جارية ذات ألواح^(٢) ، وغداً التيار ينساب في كل يَم كالأيَم^(٣) ، وأصبحت هضاب الموج في سماء البحر وكأنها قطعت القِيم ، واستحالت الأفلاك فكل بُرْج مائي ، وتغيّرت الألوان فكل مافي الأرض سمائي .. وتحلى إلى أن أقرف^(٤) الليمون الأخضر ، واحمرت^(٥) عنه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر ، ولقد صعب سلوكه وكيف لا وهو البحر المديد ، وأصبح كل جلدول منه جعفر^(٦) ويزيد .. ولكم قال الهرم للسارين ، ياسارية الجبل ، وأنشد وقد شمر ساقه للخص : أنا الغريق فما خوفي من البلل ، وكم قال أبو الهول : لاهول إلا هول هذا البحر ، وقال المسافرون : مارأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء^(٧) النهر .. ولورآه مولانا وقد هجم على مصر فجاس خلال الديار ، ودخل إلى المشوق فتركه كالعاشق المهجور لم ير منه غير الآثار ، لبكى بعيني غرورة^(٨) ، وأوى من الرصد إلى ربوة .. وكل سفينة قد علت على وجه الماء ، وارتقت لارتفاع البحر إلى أن اختلطت بالسماء ، وقد قالت لها أنزاجها عند الفراق إلا ترجى ،

(١) اليباب : القفر والخراب .

(٢) يريد السفن

(٣) اليم : البحر . الأيم : الحبة الذكر

(٤) أقرف هنا : طهر ، من الغفرة المعروفة طية الرائحة

(٥) احمرت عنه : كتابة عن الحمرة في طمس النيل

(٦) الجعفر : النهر الصغير .

(٧) ما وراء النهر : ما وراء خراسان في شمالها الشرق

(٨) عروة هو عروة بن حزام العاشق المشهور في صدر

الإسلام

وقلنا لها نحن على سبيل التفاؤل : (باسماء أقلمى ^(١)) .. ولقد طار الثَّشْرُ مبلولَ الجناح ، ودنا نهر
البحر من السُّكَّارَى بالشَّخَاتِيتِ ^(٢) إلى أن كاد يدفعه من قام بالريح ، ونرجسُ البساتين وقد
ايضت عيناه من الحزن فهو كظيم .. والورد وقيل له مالك من آس ، وغُصْنُ البان وقد قيل له
طوى لمن عانقك ولا بأس .

ونكتفي بهذه المقتطفات من الرسالة فإنها طويلة ، وهى رسالة بديعة فى وصف فيضان النيل
وسمومواجه وارتفاعها إلى أعلى الأعالي فى شواطئ النيل حتى كادت أن تمتزج بالبحر فى السماء
كما يقول ابن مكناس ، فإذا الحادى للإبل يلتقى بالملاح ، وإذا الناس يدخلون إلى أسواق مصر
والفسطاط على سفن ذات ألواح . فقد انسابت غدرانه وأمواجه إلى الطرقات والشوارع وتعال
هضاب أمواجه إلى السماء حتى لكأنها قطع السحاب . ولم تعد هناك أرض وسماء ولا أفلاك
ووهاد ، وحلا النيل وتقرف حتى عطَّر الليمون الأخضر ، واحمرت عينه إشارة إلى طمبه
الأحمر ، فأغرق الناس وأذاقهم الموت الزُّؤام . ويستمر ابن مكناس فى هذه الاستعارات ،
فيخلط بين النيل وبين وزن المديد الصعب فى الشعر وبجره وكذلك بين جدوله والجمفر أى النهر
الصغير . ويستعير الكلمة المأثورة عن عمر بن الخطاب وهو على المنبر حين هتف بقائده سارية وهو
يحارب فى الشام فقال له ياسارية الجبل أى الزمه ويقال أن الريح حملت الكلمة إلى سارية .
وما أروع تصويره لهرم الجيزة وقد شمر ساقه للفيضان حين علا إلى جدرانه فقال متمثلاً بشطر من
الشعر : أنا الغريق فما خوفى من الليل . وقد ورى بكلمة ماوراء النهر فهو لا يريد ماوراء النيل من
بلاد السودان وإنما يريد ماوراء خراسان فى أوزبكستان الحالية وكانت تسمى بلاد ماوراء النهر .
والمعشوق بستان ورباط عظيمان كانا بظاهر القاهرة . وقد اقتبس من الحديث عن الطوفان فى
القرآن الكريم : (باسماء أقلمى) . وتلقانا فى الرسالة آيات أخرى وأشعار كثيرة مثورة . وما أسرع
ما جاء باقتباس من سورة يوسف عن أبيه وقد أسف عليه : **هَـوَ اِيضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحَزَنِ فَهُوَ**
كَظِيمٍ . وورى فى كلمة آس فهى تحمل معنيين : الآس زهر وردى أو أبيض ، والآسى الطبيب
المداوى . والاستعارات بديعة هى وما تتحلَّى به من زخارف البديع وحلاه ومعساته من جناس
وطباقات ومراعاة نظير وحسن تعليل .

ووشى شخص قبروانى ضرير إلى أبى بكر بن العجمى أحد الكتاب النابهين فى ديوان الإنشاء

(١) أقلمى : أسكى عن الماء

(٢) الشخاتيت : لها القوارب .

بأن صديقه ابن مكانس يقول عنه إنه يستعين بكلام غيره ، فتأذى ابن المعجمي من ذلك .
وتأذى ابن مكانس من كذب الناقل فكذب إليه من رسالة :

« (ليس على الأعمى حرج) بلغنى - ما بلغ سيدنا ومولانا الإمام العالم العلامة الأديب الشاعر الناظم النائر المحقق الأمة الكاتب الحجة زين الدنيا والدين ، قرّة عين الكرام الكاتبين ، لازال زينة يَحُلِّي به العاقل ، وَيُظَلِّ تحت جناح أدبه القاتل ^(١) - من غيبة ذلك الضرير ، مالاخشى الله فيه بظهر الغيب ، ونقل إلى المسامح الكريمة مالا يحتاج للاعتذار عنه لما فيه من الرُيب ، ولكن لاغناء لسيف ذهن الملوك الكليل من التنصل ، ^(٢) ولابد من نهلة اعتذار على سبيل التعلل .. ولو اختلف الأدباء على إمام لأهل هذه الصناعة مطهر من الأرجاس ^(٣) ، لقال لهم لسان البلاغة مروا أبا بكر فليصل بالناس .. والمثلوث من إحسانه أمران : أحدهما الجواب فإنه يقوم عند الملوك مقام الفرج من هذه الشدة ، والآخر رد كل فاسق عن الباب العالى فن أبا بكر أول من تصلب ^(٤) فى الردة ، وبلغ الملوك أن هذا الضرير قصد بعض الأصحاب برمية كهذه فأُصِى ^(٥) ، وتردّد إليه مرة أخرى فـ (عَجَسَ وتولّى أن جاءه الأعمى) .. »

والسجمات خفيفة رشيقة مع مايزينها من الاستعارات والجناسات ، وفى كلمة « القاتل » تورية واضحة ، إذ لا يريد أن ابن المعجمي يُظَلِّ تحت جناح أدبه الأديب المتكلم القاتل ، وإنما يريد القاتل من القيلولة ووقتها الحار فى الظهيرة ، فهو غوث العائدين وملأذ المعوذتين المحتاجين . واستغل اسمه أبا بكر فى التورية باسم أبى بكر الصديق متلفعا بذكر حادث صلته بالمسلمين نزولا على أمر الرسول ﷺ له حين اشتد به المرض إذ قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » . وعاد ابن مكانس إلى التورية بأنى بكر الصديق حين طلب من ابن المعجمي أن لا يفتح بابه للواشى مقتديا فى ذلك بالصديق حين تشدد فى حروب الردة على نحو ما هو معروف . ولم يلبث أن اقتبس من الذكر الحكيم آية تصور ما ينبئ على ابن المعجمي من لقاء الواشى لقاء منجها على نحو ما تصور ذلك الآية : (عَجَسَ وتولّى أن جاءه الأعمى) . ولعل فى كل ما قدمت ما يصور خفة روح ابن مكانس وعذوبة سجمه وما يشع فيه من سلاسة .

(٤) تصلب : تشدد .

(٥) أصى السهم : أصاب إصابة نافذة

(١) القاتل : الثعب من القيلولة ومى وسط النهار

(٢) التنصل : التبرء

(٣) الأرجاس : جمع رجس وهو الإثم

المقامات

معروف أن المقامة حديث قصصى قصير يصور كيف يحتال أديب مشؤل على سامعيه بسجته وأساليه الرشقة ، فيستخرج الدراهم والدنانير من جيوبهم ، وهو جواب آفاق يظهر في بلدان كثيرة أدبيا متسولا يجلب الجماهير ببيانه وبلاغته ، وبديع الزمان الممذاني هو أول من ابتكر هذه الأحاديث القصصية ، على نحو ما هو معروف عن مقاماته ، ونسج على منواله الحريري في مقاماته المشهورة .

وأكب الناس على مقاماتها إكبابا شديدا مما دفع كثيرين من الأدباء في الأقطار العربية المختلفة إلى محاكاتها ف هذا الفن البديع ، تارة ينونه على الشحاذة الأدبية مثلها ، وتارة يستقلون عنها مكثفين فيه بضرب من الحديث القصصى الفكه . وقد يتكون القصص جانبيا ، وينون المقامة على الوعظ أو على عرض مسائل علمية ، أو على وصف الحيوانات ، أو وصف البساتين والحوار بين الأزهار ، وغير ذلك من موضوعات شتى . ولظافر الحداد الذى ترجمنا له بين الشعراء والذى توفى بعد الحريرى بنحو عشر سنوات مقامة ^(١) ، صور فيها نفسه وقد أصبح ذات يوم تانقا إلى لقاء بعض الأدباء ، ومطرته الح ، لم يلبث أن جاءته منهم رفقة ، فتلقاهم بالبشر والسرور وأخذ في الحديث معهم ، حتى دن وقت الغداء فأسر إليه غلام أن ليس عندهم للإتفاق إلا الإملاق ، وبينما هو يفكر في وسيلة لإنقاذ الموقف إذا الباب يقرع وإذا رسول شواء كان قد خلصه من حبس الشرطة يرسل إليه بإناء كبير مليء بأرز ولحم وسكر . وبعد حوار مع غلامه هل يرجعه للشواء أو يقبله ، يقنعه بقبوله . ويشبع الضيفان ، ولا يحمد عنده شيئا من فاخر الحلوى يقدمه لهم . ويقدم قصيدة يعتذر بها عن ضيق حاله ، ويستفزهم الضحك والطرب ، ويعودون إلى حديثهم العذب حتى غروب الشمس ، ويستهل ظافر مقامته على هذا النمط :

« أصبحت ذات يوم في منزل ، وقد كلّ جنانى وبَنانى ولسانى وإنسانى ^(٢) ، من الذآب في الطلب ، والإكباب على الكعب ، ومتابعة المراجعة ، في النسخ والمطالعة ، بين معنى أحكمه ، أو

(١) انظر ديوان ظافر ص ٣٤٩

(٢) إنسانى : يريد إنسان عنه

خطُّ أرقه^(١) ، فثافت النفس إلى الإحاض بمفاكهة أدب ، والارتياض بمذاكرة لبيب ، وإذا الغلام قد دخل وأسرع ، وقال : الباب يُقرع . فقلت له : ما الشأن ؟ فقال جماعة من الإخوان ، منهم فلان ، فذكر لي كل صديق صدوق ، ورفيق رفيق ، فقلت : وبحك عَجَلٌ ففتح الباب ، وأذن للأحباب ، فهم نزهة النفس ، وثمره الأنس .

ونقضى المقامة بهذا السجع الحقيق ، الذى يكاد يطير عن الأفواه طيرانا بعدونه وقصره ، وحسن الاختيار للفظه . ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية الرشيد^(٢) بن الزبير المتوفى سنة ٥٦٢ هـ وهو أخو المهذب الذى ترجمنا له بين الشعراء وكان شاعرا مثله ، ويقول ابن خلكان له ديوان شعر ، وكان من أهل الفضل والنباهة والرياسة صَنَّف كتاب جَنان الجَنان ورياض الأذهان فى شعراء عصره ، وكان تكله لكتاب النيمة للتحالى وسقط من يد الزمن ، وقال العماد الأصباني عنه : « أوجد عصره فى علم الهندسة والرياضيات والعلوم الشرعيات والآداب » ويقول ياقوت عنه : « كان كاتباً شاعراً ، فقيهاً نحويًا لغويًا عروضيًا مؤرخًا منطقيًا . مهندسًا ، عارفًا بالطب والموسيقى والتجريم مفتنًا . ومن كُتبه كتاب منية الأملى وبلغت المدعى ، وهو موسوعة علمية . وصوّر معارفه الكثيرة فى مقامة تسمى المقامة الحصيرية^(٣) ، استعرض فيها جواب من معارفه العلمية الواسعة ، وهو يدير فيها الحوار بينه وبين طائفة من العلماء بادئا بعالم نحوى موردا عليه من النحو ومسائله ما يهره . ويصنع نفس الصنيع بعالم بلاغى ، ويتوالى حواراه أو حديثه مع علماء العروض والفقه وأصوله والتفسير والتأويل والفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والرياضة وعلم الفلك والهيئة والأجرام والكواكب العلوية وعلم الطب . حتى إذا أنهى المقامة تلاها بشرح لما جاء فيها من مسائل هذه العلوم ومصطلحاتها . والمقامة تموج بالسجع ، من ذلك قوله فى مطالع مقامته ناعيا على من لا يعرفون سوى علم أو علمين ويعتمدون إلى التزيى بزي الزهاد والصوفية احتيالا على الناس ليسبقوا عليهم من أموالهم ، وهم لا يقدررون العلوم حق قدرها فضلا عن التغفل إلى مسائلها ومشاكلها :

« أحسبم بأعلام الضلال أن كل من نظر فى علم أو علمين وحفظ مسألة أو مسألتين ثم قصّر سِرِّباله^(٤) ، وقصُر سِباليه^(٥) ، مظهرًا للنسك والزهادة ، متعرضا للاستفادة فى معرض

(١) أرقه : أكبه

(٢) من هذه المقامة مخطوطة بدار الكتب المصرية

وعظوظتان بمكتبة الإسكندرية

(٣) انظر فى الرشيد وترجمته الحريدة (قسم شعراء مصر)

(٤) سرباله : ثوبه

(٥) سباله : شاربه

٢٠٠/١ وابن خلكان ١٦٠/١ والشرفات ١٩٧/٤ ، ٢٠٣

الإفادة ، يستوهب بذلك الطعام ، ويستجلب الحُطام ^(١) ، ويحبب الحرام ، ويسمى بالشيخ الإمام ، قد صلَّح لأن يفصل بين العلوم ، ويميز بين المحمود منها والمذموم .

والمقامة كسابقتها ليس فيها أديب شحاذ يروى حيله وما يحسن من الأساليب الأدبية ، فقد تحولت من بعض الوجوه إلى ما يشبه الرسائل إذ تناول موضوعا يحلُّ صاحبها فيه محل أبي الفتح الإسكندري عند بديع الزمان وأبي زيد السروجي عند الحريري .

ويعرض الأدفوى في الطالع السعيد طائفة من هذه المقامات أو الرسائل على ألسنة كتابها من أدباء الصعيد ، من ذلك مقامة ^(٢) أو رسالة لمحمد بن يوسف بن غرير المتوفى بعد سنة ٦٦٥ يمدح فيها أميراً ويصف خروجه إلى الصعيد ، من ذلك قوله فيها :

« خرج يوما مامع أناس ، وصل برهم يلبناس ، كل منهم يهتَزُّ للأكرومة ، ويأوى إلى أشرف ^(٣) أرومة ، على خيل مسومة ^(٤) ، مثقفة مقومة ، مابين جَوْن أدهم ^(٥) ، أدكى من فارسه وأفهم ، إذا زاع عن سينان ، أو انعطف لسان ، وأشهب ككرم ، له ساقفة ريم ^(٦) ، كأنما خلق من عقيق أو تردى برداء شقيق ، إن أوردته الطراد ، أوردك المراد ، وهلاج ^(٧) إن زجرته ألهب أديمه ^(٨) ، روضة بهار ^(٩) ، ينظر في ليل كالنهار ، ينساب انسياب الأيم ^(١٠) ، ويمر مرور القيم ، لا ينبه النائم إذا عُبر به ، ولا يجرى الهواء في سربه ، أخف وطأ من طيف ، وأوطأ من مهاد الصيف .. ولم يزل بنا المسير ، وكل منا في طاعة صاحبه أسير ، إلى أن قصدنا واديا ، كان لعيوننا باديا ، فا قطعنا منه عرضا ، حتى أتينا أرضا ، كأنما فُرِشَ قرارها زبرجد ، وصيفت ألوانها من كُجَيْن وعَشجد .. تُهدى للناشق ، أنفاس المشوق للعاشق » .

والمقامة على هذا النحو قطع من الوصف المسجوع البارع للخيال ولكلاب الصيد .

(١) رم : غلى أيضا . والفرس الأشهب : يخالط يياضه

سواد نوحمرة

(٢) الهلاج : الفرس في سيره بخفة .

(٣) أديمه : جلده .

(٤) بهار : زهر أيضا .

(٥) الأيم : الحبة الذكر .

(١) الحطام : متاع الحياة

(٢) الطالع السعيد للأدفوى (طبع مطبعة الجبالية) ص

٣٦٧

(٣) الأرومة : الأصل ، الأكرومة : إكرام

(٤) سومة : مطلة لأصالتها

(٥) جون أدهم : أسود

وتكثر المقامات في أيام المالك ، وتأخذ طابع المناظرات والمفاخرات ، وكأنما نسي أصلها عند المذاني والحريري ناهيا ، فلا بطلُ صاحب جيل ، ولا قصصُ ، وإنما حجاج وجدال وتوليد لا يكاد ينتهي للأدلة والبراهين ، مع السفطة والمغالطة وقلب المحاسن مساوياً بفرض الإنحام وإظهار القدرة على القهر والظبة ، ومع المبالغات والإفراط فيها بهدف الاستعلاء . ومن طريف هذه المقامات والمفاخرات المفاخرة بين السيف والقلم لابن نباتة ^(١) ، وفيها يستهل القلم مفاخرته بقوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون) وهي براعة استهلال واضحة ، وما يلبث أن يقول ابن نباتة عنه .

« إن القلم منار الدين والدنيا ، ونظام الشرف والعليا ، وزمام أمور الملك السائرة ، وقائمة ^(٢) أجنحة الطائفة ، ومطلق أرزاق عصفاته ^(٣) المتواترة ، وأنملة الهدى للشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة ، به رُقم كتابُ الله الذي لا يأتيه الباطل وسنة نبيه ﷺ التي تهذب الخواطر الخواطر ^(٤) .. إن نُظمتُ فرائد العلوم فإنما هو سلكها ، وإن علت أسرة الكتب فإنما هو ملكها .. وإن وعد أوفى يجلب النفع ، وإن أوعد أضاف كأنما يستمد من النفع ^(٥) . »

ويستمر القلم في هذه المفاخرة ، فهو الذي يأمر بالجهاد والسيف ناهم في قرابه ، وهو الذي يأمر بالعدل والإحسان ، مع المهامة عن الدين وما ينزل بالأعداء من الرعب . وكأن ابن نباتة يريد أن يُعطى فضله على السيف حتى في الحرب وجهاد الأعداء . ويستغفر القلم من الشرف وتخيلائه والخيلاء وكبرياته . وينبى السيف مداما عن حماه مستهلا كلامه بقوله تعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأساً شديداً ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورُسله بالغيب إن الله قوي عزيز) ومحمد الله الذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف . ويفخر القلم بعزيمه الثاقب وقضه ، مما جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا . ويتنفض القلم في ذواته ويضطرب على وجه القرطاس ، ويفجر قائلا للسيف حدة وعنف .

« أناخارني وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعطاء وأنت للسنح ، وأنا للصلح وأنت للضرب ، وأنا للعمارة وأنت للخراب ، وأنا للمعر ، وأنت للمعر .. وأنا ذو اللفظ المكين وأنت

(١) الخواطر : الحادثة عن الصواب

(٢) خزنة الأدب لعمري ص ١٣٠ ، ٥٤٥

(٣) النفع : غيار الحرب . والوحد يكون في الخير والإبعاد

(٤) قائمة الأجنحة : ريشات أريج كبار في مقدمة

في الشر

الجنح

(٥) صفاته : طلاب معروفة .

من دخل تحت قوله تعالى (أَوْمَنَ يَنْشَأُ فِي الْحَبَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مَبِينٍ) لقد تعدّيت حدّك ، وطلبت ما لم تبلغ به جهدك ، هيأت أنا المتصّب لمصالح الدول وأنت في الغمد طريق ، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح .. أين بطشك من حلمي ، وجهلك من علمي .. وأين نذير الأعداء من رسول الأحياء .

ويرد عليه السيف مَظِيظًا حقًّا ، ويكيل له الكيل كيلين .. ويشعر القلم أخيراً بفضل السيف ، ويميلان إلى الصلح معترفين بأنها للملك كاليدين وفي آفاقه كالقمرين . وهي مقامة أو قل مناظرة بدعية دُبِجت بأسلوب يتدفق بالسلاسة وخفة السجع ولطف مآخذه ودقة معانيه . وابن نباتة في نثره مثل شعره يمتاز بالصفاء مع الرصانة والروثق وجمال اللفظ وحسن اختياره . ولابن مكناس الذي ترجمنا له بين كتاب الرسائل الشخصية مقامة في ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية بناها على الفكاهة والمجون إذ أدارها على الشراب . وقد جعلها حواراً بين عشرات من الأشخاص يمثلون ما كان بالقاهرة لزمه من المهن والصناعات .

وتظل المقامات حية في الفترة العثمانية ، وينحدر بعضها نحو الفكاهة والمجون والدعابة أو نحو المجاء كما سترى عند الشهاب الحفاجي ، وسنخصه بكلمة ، وكثير منها يتخذ المديح موضوعاً له ، من ذلك مقامتان ^(١) لمصطفى اللقيبي اللمياطي المتوفى سنة ١١٧١ مدح بها الأمير العثماني رضوان كتحداً ، وإحداها طويلة وتكثر فيها مقطوعات الشعر ونقرأ بها قصيدتين ومزدوجة في مديح الأمير . ولحسن شمه مقامة ^(٢) في مديح الشيخ محمد بن سالم الحفناوي الشافعي الخلقوي ضمنها سائر الفنون الشعرية من النسيب والموشح والدويث والزجل والكان وكان والقوما والمواليا مع العناية بالسجع في نثرها وحشد محسنات البديع ، وجدير بنا أن نترجم لبعض أصحاب المقامات والمفاخرات .

ابن ^(٣) أبي حَبَلَة

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد أبي حجلة التلمساني الأصل . ولد بزواوية جدّه أبي حجلة بتلمسان سنة ٧٢٥ ورحل في بواكير حياته إلى الحج ودخل دمشق ، ثم

(١) تاريخ الجبفي ٢٢١/١ وماجدها

(٢) تاريخ الجبفي ٢٩٠/١

(٣) انظر في ابن أبي حجلة الدرر الكامنة لابن حجر

(نشر دار الكتب الحديثة) ٣٥٠/١ والنجم الزاهرة لابن

نفرى بردي ١٣١/١ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وشذرات

الذهب لابن العباد ٢٤٠/٦ وصبح الاعشى ٢٧٧/١٤ .

والحجلة : طائر في حجم الحمام أحمر الرجلين والظفار .

استوطن مصر ، وأولع بالأدب حتى مهر فيه ، واعتنق المذهب الحنفى مع ميله إلى المذهب الحنبلى . ولم يلبث بمصر أن أصبح شاعرا بارعا فاضلا وكاتباً ناثراً ، وولى مشيخة الصوفية بخانقاه منجك الیوسنى بظاهر القاهرة . وكان يكثر الإزراء على أهل الوحدة من الصوفية ، كما كان يحمل على ابن الفارض وأئمن بسبه . وعارض جميع قصائمه بقصائد نبوية . ومازال يتولى خانقاه منجك حتى توفى سنة ٧٧٦ للهجرة . ويقول ابن تغرى بردى : له مصنفات كثيرة تبلغ ستين مصنفًا ، وأكثرها كتب أدبية ومن أشهرها : «سكر دان السلطان» ، و«ديوان الصباة» ، و«ها مطبوعان» .

ومعنى سبكردان إثناء السكر وقد أهداه بعد سنة ٧٥٥ إلى سلطان مصر المملوكى السلطان حسن ابن محمد الناصر بن قلاوون ، وهو يدور فى معظمه حول العدد ٧ وأهميته فى تاريخ مصر وأحداثها . وقد جملة فى مقدمة وسبعة أبواب ، ويذكر فى الباب الأول خاصية العدد : ٧ . ويتحدث فى الباب الثانى عن السلطان حسن وأنه سابع السلاطين فى أسرته . ويعرض فى الباب الثالث لإقليم مصر وصلة العدد سبعة به . ويعود فى الباب الرابع إلى السلطان حسن مع أحداث قصيرة عن تقدمه من ملوك مصر . ويخص الباب الخامس بأسرة السلطان حسن وجده قلاوون ويمتد به الحديث عن الأسرة فى البابى السادس والسابع . ويتبع ابن أبى حجلة هذه الأبواب بأبواب سبعة أخرى ، يتناول فى أولها قصة يوسف وتفسير سوره . ويعمل الثانى لقصة موسى وفرعون ، والثالث للملك مصر وبعض أخبارهم ، والرابع لسيرة الحاكم الفاطمى ، والخامس لبعض الأحداث بمصر ، والسادس لأحداث القاهرة . والسابع للزهرات السبع . وما ذكره عن الحاكم الفاطمى ، أنه لبس الصوف سبع سنين وأمر بإلقاء الشمع ليلاً ونهاراً مدة سبع سنين ومنع النساء من الخروج سبع سنين وسبعة أشهر ، وكان يقرأ نسيه على المنبر كل جمعة أو كل سبعة أيام ، وقُتل وهو لبس سبع جبات بعضها فوق بعض . ولأريب فى أنه بالغ فى ربط الأحداث التاريخية بالعدد ٧ ، ومع ذلك فالكتاب يشتمل على أخبار تاريخية كثيرة ، تجعل له من حيث التاريخ لامن حيث العدد ٧ غير قليل من الأهمية .

وكتاب ديوان الصباة - كما يتضح من عنوانه - يتناول العشق وكل مايتصل به من الوصف المادى للمرأة ومن الزيارة والعتاب واللقاء والمجران والاستعطاف وإفشاء السر والكتمان والغيرة ومن أحب من أول نظرة وأشهر العشاق ، وهو فى ثلاثين باباً ويغزى بالختارات الشعرية والثرية فى الحب والصباة . ووضع بين يدى أبوابه عن العشق أسبابه وعلاماته ، ويذكر طائفة من أحداث

الأدباء والفلاسفة عنه . ويختمه بذكر من مات بسبب عشقه . والكتاب كسابقه طريف في بابه . وربما كان أهم من الكتابين السابقين لابن أبي حجلة مقاماته ، وكانت مشتهرة في زمنه ، ويقول ابن حجر : « أنشأ مقامات أجاد فيها » . ويعرض القلقشندي لإحدى مقاماته وهي المقامة الزعفرانية الخاصة بفيضان النيل ووفاته ، ويقتبس منها نحو خمس صفحات كبيرة مقدمًا لها بقوله عنه ، « الأديب الذي كان حجة العرب ، والنائر الذي كان بنسبه إلى الطيور ^(١) محرّك المناطق وإلى الشعر صُنّاجة الأدب » . ويستمر في الثناء عليه حتى يقول : من مقامته الزعفرانية عن أبي الرياش ، وكان ابن أبي حجلة سُمّي راويها أبا الرياش ، ومن قوله فيها :

« إن النيل تزايد دفعه فقد امتزج بالمعصرات تَجَاجُه ^(٢) ، وأعجى طيبَ الغيطان ^(٣) علاجه :

وشرّق حتى ليس للشرّق مشرّقٌ وغرّب حتى ليس للغرب مغربٌ

قلت : فافعل التّغَيّر ^(٤) ، بجزيرة الطّير ؟ قال : لم يبق بها هاتف يشترّ بالصباح ، ولا ساعٍ يسمّى برجلٍ (ولا طائر يطير) بجَنّاح ، إلا اتخذ (نفقا في الأرض أو سلّمًا في السماء) أو آوى (إلى جبل يغمسه من الماء) فأذاق بها الحمامَ الحمام ^(٥) في المروج ، وترك أرضها كسماء ماها من فروج ، وتلا على الحمام : (أيّما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بُروج) وكَم في سماء ماها من نَسِرٍ واقع ، وبُومَةٍ تصفّر على ديارها البلاع ^(٦) :

ومنهّل في الغرابُ مَيّتٌ سَقَبْتُ منه القومَ واستقيتُ

قلت : لِمَصْر ؟ قال : زَحَف عليها بعسكره الجرار ، ونَفَط مائه الطّيار ، قلت فالخيزة ؟ قال . طغى الماء حتى علا على قناطرها وتجرّس ، ووقع بها القصبُ من قامت حين علا عليه الماء وتكرّس ، فأصبح بعد اخضرار بُرْته ^(٧) شاحبَ الإهاب ، ناصل الخِضاب ، غارقا في قعر بحر (يشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب) وقطع طريق زاويتها على مَنْ بها من المنقطعين والفقراء ، وترك الطّالِح كالالْح يمشي على الماء (فتأخّروا مُصْبِحِينَ) : (أن لا يدخلوها اليوم عليكم مسكين)

(١) الغيطان : الحفول

(٢) التّغَيّر : طائر صغير كالصّفور

(٣) الحمام : الموت . والجناس يته وبين الحمام واضح

(٤) البلاع : الخالصة

(٥) بُرْته : شارته وثوبه .

(٦) يشير إلى كنية جده أبي حجلة كما يشير بحريك المناطق إلى كتاب له سماه منطق الطير .

(٧) المعصرات : السحاب المسطر تنصّره الرياح .

تجاجة : سبله أو سبله المتناشئة . يبالغ في عتوه حتى صافح السحب .

وأدرّكهم الفرق فأبسوا ^(١) من الخلاص (فَنَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَاغَشِيَهُمْ) (ولات حين مناص ^(٢))
و (خَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ من فوقهم) فهذّت قواهم ، واستغاثوا من كثرة الماء بالذين آمنوا وعملوا
الصالحات (وقليل ما هم) قلت : فالروضة ؟ قال : أحاط بها إحاطة الكمام ^(٣) بزهره ،
والكأس بحجاب ^(٤) خمره :

فكأنها فيه بساطٌ أخضرٌ وكأنه فيها طرازٌ مذهبٌ ^(٥)
فلم يكن لها بدفع أصابعه يدان ، وكم أنشد مرّجها حين (مرّج ^(٦) البحرين يلتقيان) :
أعني كُفّا عن فؤادي فإنه من البقي سقى اثنين في قتل واحد ^(٧)

قلت : فدار ^(٨) الثحاس ؟ قال : أنحس حالها ، وأفسد ماعليها ومالها ، فدخل من حَمَامِها
الظُهر ، وقطع الطريق بالجامع الظُهر ، فألحق مجازَ بابِه بالحقيقة ، ورفى منه على درجتين في
دقيقة .. قلت فجزيرة أروى ؟ قال : قد أفسد جُلُّ ثمارها ، وأنى على مغانيها ^(٩) فلم يدع شيئا من
رَديّها وخيارها ، أخلق ديباجة روضها الأنف ^(١٠) ، وترك قُلُقاسها في الجروف ^(١١) على شفا
جُرف ^(١٢) :

بعني رأيت الماء يوما وقد جرى على رأسه من شاهتي فتكسرا
طالما تضرّع بأصابعه إلى ربّه ، ولطم برءوسه الحيطان مما جرى من الماء على قلبه ، وغثّل بقول
الأول :

وإن سألوك عن قلبي وما قاسى قُلْ قاسى وُقْلٌ قاسى وقُلْ قاسى
لم يفده تحصنه من ورقه بالدُرُق ^(١٣) والستائر ، ولاحنّ عليه حين تضرّع بأصابعه فصح أن

(١) أبسوا : بَسُوا

(٨) حتى تكاد تلفظ أنفاسها

(٢) مناص : ملجأ ومفرّج

(٩) نسي الآن دير النحاس وهي أمام النيل بمصر القديمة

(٣) الكمام : جمع كم بكسر الكاف : غلاف الزهرة قبل

(٩) مغانيها : مازها .

أن تفتح

(١٠) الأنف : الجنب

(٤) الحجاب : القفايع على وجه الكأس

(١١) الجروف : شقوق المهرات وبجاريه

(٥) جبل لون النيل مذهبا إشارة إلى ما كان يصحبه في

(١٢) شفا جرف : شفا : حرف : جرف : المكان يجره

فيضانه من الطمي

الماء

(٦) مرّج البحرين : أرسلها في مجريها متجاودين

(١٣) الدرق : جمع درقة : الترس

(٧) يشير إلى أن البحرين بأخذان بخناق جزيرة الروضة

الماء سلطان جائره .

وهو وصف رائع لفيضان النيل وعلو أمواجه ، كأنما يريد أن يبلغ عنان السماء ، وحلقت الطير في أعلى عِلينَ فَرَقًا منه واعتصم الناس بالكثبان والجبال . ويصف ابن أبي حجلة زحفه على الفساطط أو كما يسميها مصر وطغيانه على الجيزة حتى علا قناطرها وجرد القصب من بُزته ، وطأ عليه حتى غرق في قاعه ، وقطع طريق الزاوية أو خانقاه الصوفية وأدركهم جميعا الفرق في عَجابه ، وخرَّ عليهم السُّفُفُ من فوقهم ، ولاملجأ ولا مناص ، وأحاطت بجزيرة الروضة إحاطة السوار بالمعصم ، ولم تستطع دفع أصابعه التي يقاس بها عادة طوفان فيضانه ، ولارْدَ مَجْرِيهِ أو كما يسميها ابن أبي حجلة مجريه من حولها آخذين بخناقها ، كأنما يريدان أن تصبح خاوية على عروشها . ويصف دار النحاس وما أصابها وأصاب جامعها من مياه التدفقة ، ويصف ما أنزله بجزيرة أروى ومغانيا وكيف عمَّ ماها من الخضرارات مثل « القلقاس » وقد تكسر ، وهو يتضرع بأصابعه إلى ربه إذ أصبح عاليه سافله . وتبت فوقه فروع ذات ورق عريض ، ويتصورها ابن أبي حجلة ستائر له ودرقا أو تروسا غير أنها لم تقده إزاء أمواج النيل وطوفانه .

ومضى ابن أبي حجلة فيصور ما أصاب بولاق وغير بولاق من النيل في هذه اللغة العذبة التي عرف كيف يصب فيها وصفه للنيل وفيضانه . وهو يكسوها بألوان البديع من جناس وغير جناس ، ولا نحس أى كلفة . وقدرته على بث التصاوير في لفته واضحة ، وهى تصاوير رسمها مصور ماهر . ومن تمة براعته الأدبية قدرته على اقتباس الأشعار في موضعها الملائم ، وأهم من ذلك قدرته على اقتباس الآيات والكلم القرآنية ، فتزيد لفته عذوبة ونساعة ، وهو تارة يأتي بالآيات تامة ، وتارة يأتي بكلم منها . ويكثر ذلك في المقامة ، وقد وضعنا الآيات بين قوسين هلالين تمييزاً لها . وقد تمثل في القلقاس بيت يحمل شطره الثانى جناساً طريفاً مع اسمه . وفي المقامة روح الدعابة والفكاهة المصرية ، وكأنه نشرها في استيظانه بمصر حتى الثمالة . والتورية عنده واضحة في قوله عن النيل بدار النحاس : « قطع الطريق بالجامع الظهر فألحق مجازاً به بالحقيقة » ولكلمة مجاز معنيان : معنى قريب وهو ما يخالف الحقيقة بدليل اقترانها به ، ومعنى بعيد وهو المَعْبَرُ إلى الجامع . وهو لا يريد المعنى القريب للقلب أى قلب الإنسان مما قد يفهم مع ظاهر استعارته ، وإنما يريد ما حدث للقلقاس من القلب فأصبح أسفله أعلاه ، وهى تورية بديعة . ولعل فيها قدمت ما يصور براعة ابن أبي حجلة الأدبية .

هو شهاب الدين أحمد بن علي ولد بقلقشندة بالقرب من قلوب سنة ٧٥٦ وبها يُنسب ، وهو من أصل عربي صميم إذ يتسنى إلى عاشر فزارة التي استوطنت مصر عقب الفتح الإسلامي . ويبدو أنه نشأ في القاهرة ، وأخذ فيها ينهل من حلقات علماء الشافعية وغيرهم في زمنه ، وهو مع ذلك يعني بالأدب والعلوم اللغوية . وفي نحو العشرين من عمره بارحها إلى الإسكندرية ونرى العالم الشافعي الكبير المعروف بابن الملحق يميزه فيها سنة ٧٧٨ بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي كما يميزه برواية مؤلفاته في الفقه والحديث وكل ما كان برويه من الصحاح الستة ومسند الشافعي ومسند ابن حنبل . وسرعان ما تصدر للإفادة وهو في الحادية والعشرين من عمره ، وأقبل عليه كثير من التلاميذ بأعذون عنه الفقه والأصول وعطوم العربية . وظل في ذلك نحو ثلاثة عشر عاما ، ألف في أثناءها شرحا في الفقه الشافعي على كتاب جامع المختصرات ومختصرات الجوامع سمّاه الغيوث الموامع . كما ألف في أنساب القبائل العربية كتابين هما : « نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب » و« قبائل الجبلان في التعريف بقبائل عرب الزمان » . ونراه في سنة ٧٩١ يترك مهنة التدريس للعمل بديوان الإنشاء ، وكان يرأسه بدر الدين بن علاء الدين بن يحيى بن فضل الله العمري ، وهو آخر من وليه من هذا البيت كما مر في ترجمة عمه ابن فضل الله العمري . واعتزا بفضلته أنشأ القلقشندي مقامة طويلة في تقريبه صور فيها صناعة الإنشاء وأصولها وعكف ثوا على تأليف كتابه « صبح الأعشى في صناعة الإنشاء » . وهو موسوعة ضخمة في أربعة عشر مجلدا ظل يُعنى بتأليفها في نحو ربع قرن من الزمان حتى سنة ٨١٤ وظل يراجعها ويزيد عليها حتى حين وفاته سنة ٨٢١ للهجرة .

ويتبدى القلقشندي صبح الأعشى بمقدمة تناول فضل الكتابة ومدلولها وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة وصفات الكتاب وآدابهم والتعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وقوانينه ووظائفه ، ثم تتوالى عشر مقالات أو أقسام كبيرة ، والمقالة الأولى تحدث عما يحتاج إليه كاتب

مقامات القلقشندي ومفاهيمه صبح الأعشى ١١٢/١٤ ، ٢٠٤ ، ٢٣١ . صبح الأعشى مطبوع من قديم بدار الكتب المصرية في ١٤ مجلدا .

(١) انظر في القلقشندي الضوء اللامع للسخاوي ٨/٢ وشذرات الذهب ١٤٩/٧ وللبل السائق لابن نغرى بردي ٣٣٠/١ ومقدمة الجزء الأول من صبح الأعشى وتاريخ الأدب الحفراق لكراتشكوفسكي ٤١٦/١ . وراجع في

الإنشاء من المعارف والأحداث المتعلقة بصناعته كالخط واللغة والنحو والبلاغة وغير ذلك من مختلف العلوم ، يشغل ذلك من الكتاب الجزء الأول بعد المقدمة والجزء الثاني وشرطاً غير قليل من الجزء الثالث . والمقالة الثانية تبدأ بالممالك والممالك ومعلومات تاريخية عن الخلافة الأموية والعباسية ومعلومات جغرافية وتاريخية مهمة عن مصر من أول دخولها في الإسلام إلى زمن القلقشندي ، ويرتك مصر إلى الشام وجميع الدول التي كان لها أدنى صلة بمصر من أقصى الشرق إلى السودان وأقصى الغرب والبلدان الأوربية . ويمتد حديث القلقشندي في ذلك إلى الشطر الأكبر من الجزء الخامس . والمقالة الثالثة في أنواع المكاتب وأسماء الكنى وألقاب أرباب السيوف والأقلام وأصحاب الوظائف من النصارى واليهود والخلفاء العباسيين والأمويين في الأندلس والفاطميين والموحدين بالمغرب وألقاب الملوك الأقدمين في اليمن وإيران ومصر والروم والحبشة وملوك فرغانة وأوروبا والحبشة مع التفصيل في الألقاب الإسلامية . ويعود إلى الحديث عن الورق والكتابة ويشغل ذلك كله بقية الجزء الخامس والجزء السادس . ويتحدث القلقشندي في المقالة الرابعة عن المكاتب الصادرة عن ملوك مصر وغيرهم ومصطلحات الكتابة السلطانية والإخوانية ويمتد ذلك في الكتاب إلى شطر من الجزء التاسع ، والمقالة الخامسة يوضح فيها القلقشندي الولايات ووظائف الدولة الكبرى ويقدم طائفة كبيرة من البيعات والمهود والتقاليد والمراسم والتفاوض والتوقيع وخاصة مايتصل بزمان المالك . وتحمل هذه المقالة كثيراً من الوثائق التاريخية والاجتماعية المهمة ، وهي تشغل بقية الجزء التاسع حتى نهاية الجزء الثاني عشر . والمقالة السادسة في متون من الوصايا الدينية والإطلاقات والمراسم السلطانية والإقطاعات والأيمان وعقود الصلح والأمانات والهَدَن . وتشغل هذه الوثائق الجزء الثالث عشر من الكتاب وشرطاً من الجزء الرابع عشر . وتعرض بقية هذا الجزء طرائف من المقامات والرسائل والمفاخر والإجازات والتقريظات والتقاليد ، وتلحق بالجزء خاتمة عن البريد وشئون المواصلات والاتصالات بين مصر وغيرها من البلدان الإسلامية .

ونعود إلى مقامته التي أشرنا إليها والتي وصف فيها صناعة الإنشاء وقرظ بها صاحب ديوانها بدر الدين العمري وقد سماها : « الكواكب الدرّية في المناقب البدرية » وهي محكية أومروية على لسان النائر بن نظام وبلغنا في فوائدها قوله :

« لم أزل من قبل أن يبلغ بريدُ عمرى مركزَ التكليف ، ويتفرق جَمْعُ خاطرى بالكُلف بعد التأليف ، أنْصِبْ لاقتناص العلم أشراك التحصيل ، وأنزّه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل ..

أونسُ من شوارد العقول وَحْشِيَّهَا ، وَأَشْرُدُ عن روابض المنقول حُوشِيَّهَا ، والنقطة ضالَّة الحكمة حيث وجدتها ، وأقيد نادرة العلم حيث أصبْتُها ، مقدِّمًا من العلوم أشرَفها ، ومؤثِّرًا من الفنون ألطفها ، معتمدًا من ذلك ما تألفه النفس ويقلبه الطبع ، مقبلاً منه على ما يستجلى حُسنه النظر ويستحلى ذكره السمع .. عارفاً لكل عالم حقّه ، وموقِّفاً لكل علم مستحقّه ، قد استغنيت بكتابي عن خُلَى ورفيقي ، وآثرت بيت خَلَوِي على شَفِيق وشقيق .. إلى أن أتبع لي من الفتح ما أفاضت النعمة وحصلتُ من الغنيمة على ما اقتضته القسمة .

وأكبر الظن أن قد اتضح لنا صوت القلقشندى وما يعمد إليه من حسن الجرس في انتخاب ألفاظه وقوافي أسجاعه ، بحيث لا تكاد نشر بتكلف عنده ، والجناس يرصُّع كلامه على نحو ما نرى في التكليف والكلف ، وأشراك (حبالات) الصائد ، والإشراك ، وشوارد وأشْرُد ، والوحشى والحوشى ، ويستجلى ويستحلى ، وحفه ومستحقه ، ورفيقي وشفيقي وشقيقى ، وكل ذلك يمر على اللسان والسمع دون أى إحساس بنبو أو كلفة غير مستحبة ، وبالمثل يرصُّع كلامه بطباقات كثيرة من مثل التفرق والجمع والتوحيد والتعطيل وشوارد العقول وروابض المنقول . وفى أثناء ذلك يوشى كلامه بالتورية إذ يقول : « أنزّه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل » والتعطيل رفض التوحيد والشرية ، وهو المعنى القريب لسبق التعطيل بالإشراك والتوحيد ، وهو لا يريد ، وإنما يريد التعطيل عن الاشتغال بالعلم والانصراف عنه . وبالمثل لا يريد بالإشراك الكفر الذى قد يفهم من اقترانه بالتعطيل إنما يريد الشركة أو المشاركة ، وأيضاً لا يريد بالتوحيد توحيد الله لا اقترانه بالتزيه وإنما يريد الوحدة . والتعبير لذلك كله ملئاً بتوريات متعاقبة . وبالمثل قوله فى نهاية كلامه : « الفتح » وقد تلاه بالغنيمة والقسمة مورباً بذلك عن الفتح العلمى لا كما يظن من السياق الفتح الحرفى . وبالمثل كلمة القسمة فهو لا يريد بها المعنى القريب الملائم للغنيمة وهو القسمة فى الحرب وإنما يريد بها المعنى البعيد وهو الحظ من قولهم قسمة ونصيب .

ولعل خصائص صوت القلقشندى ولغته قد اتضحت لنا تماماً فهو كمعاصريه يستخدم السجع ويوشيه بمحسنات البديع وفى مقدمتها ، الجناس والطباق والتورية ، ونحس عنده بطواعة العبارات المسجوعة ومرانه على استخدام ألوان البديع دون أن نشر بأى ثقل أو أى عبارة أو كلمة مستكرهة . وإذا مضينا فى قراءة المقامة وجدناه يذكر على لسان الناثرين نظام أنه لا بد لكل إنسان من حرفة يكتب بها معاشه وأن الكتابة هى خير الحرف ، وأفضل أنواعها الديوانية كتابة الإنشاء ، إذ لها الذروة المنيفة والرتبة الشريفة ، وأصحابها - كما يقول - أسُّ المُلْك وعماده ،

وأركان الملك وأطواره . ولسان المملكة الناطق ، وسهمها الموقر الراشق . وبحاور الناصر بن نظام في كتابة الإنشاء والخزاج أيها أفضل ؟ وبجيبه أتى لكتاب الأموال التأثير في قلّ الجيوش من غير قتال ، وفتح الحصون من غير نزاع . وكأنّ القلم في يد كاتب الإنشاء ينال من الأعادي مالا تناله السيوف والرماح . ويأخذ القلقشندي على لسان الناصر بن نظام في بيان مايلزم كاتب الإنشاء من حفظ كتاب الله وأحاديث رسوله وجوامع كلمه والعلم بالأحكام السلطانية واستظهار أشعار العرب على مر الأزمنة وأمثالهم وأقوال فصاحتهم وخطيبهم ورسائلهم مع سعة الباع في اللغة والنحو والتصريف وفي علوم المعاني والبيان والبديع ، ومع معرفة الخط وقوانينه وأصوله وقواعده ، ومع ماتم به الصناعة من الوقوف على علم الكلام وأصول الفقه والأحكام الشرعية والمنطق والجدل وأحوال الفرق والتحلّ وعلم العروض والقوافي والرياضيات والمهندسة وعلم الطب والبيطرة وعلمى الأخلاق والسياسة وعلم تدبير المنزل والفراسة . وأيضا لا بد من المعرفة بكل ما ذكره القلقشندي بعد ذلك مفصلا في صبحه من شئون الولايات وألوان المكاتبات والبيعات والعهود والتقاليد والمراسم والتواقيع والمناشير والأيمان والهذّن وطرق البلدان ومساكنها . ويتساءل القلقشندي عن هذه الرتبة الرئيسة والمنقبة الشريفة ؟ وبجيبه الناصر بن نظام إن ذلك قاصر على آل فضل الله العمري ومنحصر في سيلة البدر ، الذي تدور عليه ، فهو ابن بجّدتها الذي ترجع في علومها ورسومها وسائر أمورها إليه .

وللقلقشندي مقامة في المفاضلة بين العلوم . وهي تتزع منزع المقامة الحصيبية للرشد بن الزبير التي ألما بها فيما مر من حديثنا وفيها يعقد القلقشندي مفاخرة بين نحو سبعين علما ابتدأها بعلم اللغة واختتمها بفن التاريخ ذاكرًا فخر كل علم على ماسبقه ، محتجا عليه بفضايا موجودة فيه دون سابقه . استهلها ببيان منافع العلوم بعامة ، وذكر أنها اجتمعت يوما فتنجادت وتفاخرت ، وكل منها يتصر لنفسه بالحجج والبراهين الدامغة . وقد تلا فخر علم اللغة بفخر علم الصرف ثم بفخر علم النحو عليه قائلا :

« هل أنت إلا بَصْعَةٌ ^(١) مني ، تُسَدُّ إِلَى وَتُنْقَلُ عَنِّي ، لم يزل علمك بابا من أبوابي ، وجعلتك داخلة في حسامي ، حتى مَيَّرَكَ المازني فأفردك بالتصنيف ، وتلاه ابن جَنِّي فتبعه في التأليف .. وأنت مع ذلك كله مطوًى ضمن كفي ، نَسَبْتُكَ متصلة بنسبي ، وحَسَبْتُكَ لاحقًا بحسبي . أنا مِلْعُ الكلام ، ومِسْكُ الحَتَام ، لا يستغنى عني متكلم ، ولا يليق جهلى بعالم ولا متعلم ،

في تبيين أحوال الألفاظ المركبة في دلالتها على المقاصد ، ويرتفع اللبس عن سامعها فيرجع من فهمها بالصلة والعائد .

وهذه القطعة من مفاخرة علم النحو على علم الصرف فضلا عن تصويرها لبراعة القلقشندي البليغة ترينا جانبا من ثقافته بعلمى النحو والصرف ، وكانا مندجين بعضها ببعض في كتاب سيبويه ، وظلا على ذلك بعده حتى أفرد أبو عثمان المازني علم الصرف بالتأليف وتبعه في ذلك ابن جني . ومضى المؤلفون في الطعن تارة يجمعون بينها ، وتارة يفصلون ، مما جعل القلقشندي يصور ذلك مرارا على لسان علم النحو قائلا إن علم الصرف باب من أبوابه يُثقلُ عنه ويُستند إليه وأنه مطوي في كُتبه متصل بنسبه لاحق بحسبه . واستخدم في آخر ما اقتبسناه من تلك المفاخرة مصطلحي الصلة والعائد المعروفين في النحو وهما صلة الموصول وما تحمل من الضمير العائد في عبارتها على الموصول ، معبرا بها عن العطية وما يعود منها بالنفع . وللقلقشندي مفاخرة ثانية بين السيف والقلم ، ومن قول القلم فيها مفاخرة للسيف :

« مهلا أيها المساجل ، وعلى رسلك أيها المغالب والمناضل ، لقد أسأت مقالا ، ونمّقت محالا .. وإني - وإن صغر جرمي - فإني لكبير الفِعال ، وإن تحفّ بدني فإني لشديد البأس عند التزال . وإن عرّى جسمي فكم كسوت عاريا ، وإن جرى دمعي فكم أرويت ظاميا ، وإن ضاق ذرعي فإني بسعة المجال مشهور ، وإن قصّر باعِي فكم أطلّقت أسيرا وأنا في سجن الدواة مأسور . » ويضفي القلقشندي بمثل هذه الصياغة الموشاة بالسجع ومحسنات البديع من تصوير وغير تصوير ، ودائما نشرع عنده بالطلاقة والسلامة ونصاعة الكلم .

السيوطي^(١)

هو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد ، من سلالة شيخ صوفي أسيوطي هو همام الدين السيوطي ، وكان لأسرته وجهة ورياسة في أسبوط ، منهم من ولى الحكم فيها ،

وبروكلان (الطبعة الألمانية ١٤٣/٢) . وانظر في مقاماته مجموعة خطية بعنوان مقامات السيوطي بدار الكتب المصرية رقم ٣٢ مجاميع وطبع من مقاماته مجموعة بالآستانة . وانظر في نشاط السيوطي النحوي تأليف آراء كتابنا المدارس النحوية ص ٣٦٢ .

(١) انظر في السيوطي وترجمته حسن الهاضرة ٣٣٥/١ والفقه اللاعن للسخاوي ج ٤ رقم ٢٠٣ والكواكب السائرة للنزدي (نشر الجامعة الأمريكية ببيروت) ٢٢٦/١ وتاريخ ابن إياس في مواضع متفرقة وذيل الطبقات الكبرى للشراطي ص ٤ والبدور الطالع للثوكان ٣٢٨/١ والنور السافر للميدوسي ص ٥٤ ودائرة المعارف الإسلامية

ومهم مَنْ ولى الحسبة ، ومنهم من كان تاجرا ثريا ، وأول من خدم العلم من أسرته أبوه ، وقد هاجر من بلدته إلى القاهرة وبني شأنه بين قهواء الشافعية وأفتى ودرّس وناب في الحكم بالقاهرة ، وفي سنة ٨٤٩ ولد له عبدالرحمن ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفي الأب ، ويبدو أنه ترك له ثروة أعانته على نشأة علمية طيبة ، وقد ترجم لنفسه في كتابه : « حسن المحاضرة » ترجمة ضافية ، ذكر فيها طائفة من شيوخه في مقدمتهم الشيخان : البلقيني والمتاوي في الفقه الشافعي وتوفي الدين الشبلي في الحديث والكافيحي في التفسير والأصول والعربية وعلم المعاني وسيف الدين الحنفي في الكشف للزمخشري وفي بعض الصفات البلاغية للسكاكي والقزويني . ويقول إنه شرع في التصنيف سنة ٨٦٦ ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، كما يقول إنه أفتى في سنة ٨٧١ وعُقد له مجلس لإملاء الحديث سنة ٨٧٢ . ويذكر أن زار بلادًا كثيرة : الشام والحجاز واليمن والمند والمغرب والتكرور ، كما يذكر أنه تبحّر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبدیع ، ويقول إنه يستثنى الفقه فاستأذه كان أعلم به منه . أما العلوم الستة الباقية فلم يكن أحد يحاربه فيها ، ودونها في التعمق العلمي أصول الفقه والجدل والصرف ، ودونها هي الأخرى الإنشاء والترسل وعلم الميراث والقراءات ثم الطب . ويذكر أن مشايخه في الرواية سماعا وإجازة كثيرون إذ تبلغ عدّتهم نحو مائة وخمسين .

ويعضى السبوطي في ترجمته لنفسه ، فيذكر مؤلفاته في العلوم والفنون المختلفة ، وقد بلغت أكثر من ثلاثمائة كتاب ورسالة ، منها في الحديث النبوي نحو تسعين مصنفا وفي التفسير ومتعلقاته نحو عشرين وفي اللغة وعلوم العربية نحو خمسين وفي الأصول والبلاغة والتصوف نحو عشرين وفي الفقه نحو عشرين أيضا وفي التاريخ والأدب نحو خمسين . وعلى هذا النحو تلقانا لا مؤلفات بل سيول من المؤلفات في كل علم وفن . ويمتدّ بعد السبوطي أكثر علماء هذا العصر تأليفا وإحاطة بالعلوم العربية والشرعية الدينية . وله أكثر من كتاب طُبِعَ في العصر الحديث وطارَت شهرته ، من ذلك في الحديث النبوي كتابه « جمع الجوامع » وهو معجم واف للأحاديث النبوية ، ومن ذلك في التفسير تفسير الجلالين ، ومُرَّ حديث عنه في الفصل الثاني ، وله لباب العقول في أسباب النزول ، وأيضا الدر المنثور في التفسير بالماثور ، وهو مطبوع في ستة مجلدات . وكتابه « الإتيان في علوم القرآن » كتاب رائع . ومن مصنفاته في التاريخ والتراجم تاريخ الخلفاء وهو مطبوع مرارا في الغرب والشرق . وقد عرضنا لنشاطه في هذا الجانب في حديثنا بالفصل الثاني عن التاريخ والمؤرخين . وكان نشاطه اللغوي والنحوي خصباً إلى أبعد غاية ، وصورنا ذلك من بعض الوجوه

في حديثنا عن اللغة واللغويين والنحاة والنحويين في الفصل الثالث .

وهذا النشاط العلمي الواسع اقترن به نشاط أدبي ، فقد كان السيوطي شاعرا ، كما كان كاتباً ناثراً ، وعُني عناية واسعة بفن المقامة على الطريقة المصرية التي وصفناها ، فالمقامة لا تدور على الصلصلة كما كانت عند الممذاني والحريري ، وإنما تدور على المنافرة والمفاخرة ، وأكثر من ذلك حتى تبلغ مقاماته نحو الأربعين ، وربما كان أطرفها ما أداره منها حول مفاخرات الأزهار والفواكه والبقول والنقل والمطور ، وقد خص الأزهار بمقامته الوردية والفواكه بمقامته التفاحية والبقول الخضراء بمقامته الزمردية والثقل بمقامته الفستقية والمطور بمقامته المسكية ، وخص الأبحار الكريمة بمقامته الباقوتية . ونقف قليلا عند مقامته الوردية فمل غرارها تلك المقامات جميعا ، وهي مفاخرة أو مناظرة بين الأزهار والرياحين ، استهلها الورد ببيان محاسنه وأنه ملك الرياحين منعش للأرواح ومناخ إلى حين ، وأنه ظاهر على أزهار البساتين متصر منها بقوة الشوكة والصلوة . ووضح ما في كلمة الشوكة من نورية إذ لا يريد البأس بشهادة كلمة الصولة ، وإنما يريد الشوكة الحقيقية للورد واحدة أشواكه ، وما يلبث الورد أن يدل بفوائده الطبية ، ويرد عليه الزجر مفاخرا بمحاسنه محاولا أن يقض منه ، قائلا :

« لقد تجاوزت الحد ، يا ورد ، وزعمت أنك جمع في فرد ، إن اعتقدت أنه لك بجمرتك فخر ، فإنه منك فجر .. فاحفظ بالصمت حرمتك ، وإلا كسرت بقائم سني شوكتك . وإني القائم في الدياجي على ساق ، الساهر طول الليل في عبادة ربي فلا تطرف أحدا .. وأنا فريد الزمان في المحاسن والإحسان ، ولهذا قال في كسرى أنوشروان : الزجرس ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر .. وأنا المشبه في عيون الملاح ، والمقرون في مهات الأدوية بالصلاح . »
وللسيوطي بجانب ذلك مقامات جعل محورها الذي تدور عليه مسائل علمية ، إذ يورد فيها أسئلة تحمل ألفاظا غريبة ملفزا بها ، ثم يذكر جوابها مفسرا لها . مزيلا عنها غرابها ، محاكيا بذلك الحريري في مقامته الطيبة نسبة إلى طيبة أي المدينة وقد ضمنها مائة مسألة فقهية وأجوبتها كأن يقول فيها : « أبتاح ماء الضرير ؟ » ويجب أبو زيد السروجي بطل المقامات الحريرية : نعم ويجنب ماء البصير والضرير : حرف الوادي والبصير الكلب . ونرى السيوطي يستوحى هذه المقامة ، فيكتب على غزاوها مقامته المكية ، ويستلها على هذا النمط :

« حدثنا هاشم بن القاسم قال : ما زلت أتعلم المهامه ^(١) الخفيفة ، وأدخل في المسالك العنيفة

إلى أن نزلت بمكة الشريفة ، فحططتُ الرِّحالَ بيتَها ^(١) ، وأرحت النفس من عنائها ، وظللت أجوب في مشاهدتها وأجول في معاهدها .. وأتردد في الغدو والرواح ، وأنزود من تلك الآثار في المساء والصباح ، وأتمنى أديبا يُسَلِّى بِمِسامرتِهِ الرُّؤْيَا ، وأديبا يُبَيِّنُ بِمُحَاضَرَتِهِ الإِزْيَةَ ^(٢) ، فيينا أنا ذات ليلة في المطاف ، وقد تسمَّرتُ سحائب الألفاف ، إذا أنا بشعبة مؤتلفين ، وعصبة محتفين ، وهم بين سلام وترحيب ، وبكاء ونحيب . وفي صدر الحلقة ، شاب نحيف الحلقة ، قد تدرع بثياب البهاء . قال هاشم بن القاسم : فتساميت إلى لقائه ، وتقدمت إلى تلقائه ، لأستور بياطنه على ظاهره ، وأستظهر من كانه على باهره ، وأتخذ معاضدا ونصيرا ، ومحاضرا وسَمِرا ، فقلت : وَبَعِثْ مَامَنكَ رَأَيْتَ ، وَشِئْتُ ^(٣) ما عنك فهمت ، فانتِ على ما ادَّعيتِ ببرهان من الدلائل ، وأجب إلى ما أقترحه عليك من مسائل ، فقال : على الخبر سقطت ، ومن البحر لقطتْ ، فأوضح عن مسائلك ، وأفصح عن مقالاتك ، فقلت : ماتقول فيمن ترضاً ولم يسمح أمه ؟ فقال : لم يصحْ بِأَمَّتِهِ .

والأم الأولى الرأس والوضوء بدون مسحها باطل ، وقد ألفز السيوطي بها ، كما هو واضح . وتوالت الأسئلة على هذا النحو مثل هل يجوز بيع الحر ؟ والجواب الجواز ، لأن المراد بالحر الفرس الأصيل . ومثل هل تصح الصلاة على الفحل ؟ والجواب تصح لأن المراد بالفحل الحصير المتخذ من قُحْل النخل .

وللسيوطي مقامة ثانية سماها المقامة الأسبوطية بناها على ألغاز نحوية ، محاكاة لمقامة الحريري المسماة بالمقامة القطمية وهي المقامة الرابعة والعشرون بين مقاماته . وللسيوطي مقامة فكهة سماها « رشفة الزلال من السحر الحلال كتبها على لسان عشرين عالما بينهم المقرئ والمفسر والأصولي والفقهاء واللغوي والنحوي ، وجعل كلا منهم يصف ليلة زفافه على عروسه بلغة علمه ومصطلحاته . ومن مقاماته مقامة تسمى الجبزية جعل موضوعها لغزا شعريا . وكأنه كان يرى المقامة صالحة لأن تعرض أى موضوع حتى لزاره يتخذ نجاة أبوى الرسول ﷺ من النار موضوعا لإحدى مقاماته ، وقد سماها المقامة السندمية ، وهي مطبوعة ، ونجاة أبوى الرسول من النار لايشوبها أى شك . إذ هما الطاهران الطيبان الذكيان النيران . ولعل فيما قدمنا مايدل على الخصائص الأدبية لمقامات السيوطي وبدون ريب كانت ملكاته العلمية أنصب من ملكاته الأدبية .

(١) عتاب : جمع حبة . (٢) الإزبة : الأبنية . (٣) شام : نظر متطلعا أو مؤملا شيئا

الشهاب (١) الحفاجي

هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الحفاجي المصري ، ولد لفقيه شافعي بسرياقوس قرب القاهرة سنة ٩٧٧ ونشأ في حجر أبيه يعلمه ، ثم اختلف إلى شيوخ الأزهر في زمنه ، فأخذ النحو وعلوم العربية عن خاله أبي بكر الشعراني والفقه الشافعي عن مفتي زمنه شمس الدين الرمل . ومضى ينهل من حلقات الشيوخ المختلفين الحديث والتفسير والأدب والمنطق وعلم الأصول ، ورحل مبكراً مع أبيه إلى حج بيت الله وأخذ عن شيوخ الحرمين لأيامه . ولم يعد إلى مصر بعد الحج ، بل رحل إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية فأخذ عن شيوخها ، وفي طريقه إليها نهل من حلقات الشيوخ في بيت المقدس ودمشق . وعُرف فضله في القسطنطينية فعين قاضياً في الروملی ثم في سلانيك . وعينه السلطان مراد قاضياً للمسكر بمصر ، فظل بها مدة ، وزار القسطنطينية فلقبه مفتياً بحجى بن زكريا لقاء سيئ وأمر بعزله . وعاد إلى مصر وعين قاضياً في القاهرة وأخذ يصنف ويحاضر طلابه وأتوه من كل بلد عرى ، ومن أهمهم عبد القادر البغدادي صاحب الحزانة ، وظل على ذلك حتى وفاته سنة ١٠٦٩ للهجرة ، وكان ماحدث له في لقاء المفتي سبباً في أن يكتب رسالة في بيان فساد القضاء والحكم في القسطنطينية وأتبعها بنمى مقامات يصور فيها تقاف الأحوال بعاصمة الخلافة . وكان إلى ذلك عالماً ومؤرخاً كبيراً ، صنف حاشية على تفسير اليضاوى طبعت بمصر في ثمانية مجلدات وحاشية على شفاء القاضي عياض طبعت في أربع مجلدات وله شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل وهو كتاب نفيس طُبع مراراً . وصنف في تراجم الأدباء لزمنه في جميع البلدان العربية كتابه « ربحانة الألبا » الذى نذكره كثيراً في هوامش الفترة العثمانية ومثله خبايا الزوايا ولا يزال مخطوطاً . وكان شاعراً مجيداً ، وتحفظ المكتبة التيمورية بديوانه مخطوطاً ، وقد أنشد من شعره كثيراً في الربحانة وبالمثل أنشد منه كثيراً الهبى في ترجمته له ، وهى في أكثر من مائة صفحة .

وقد دُون الشهاب الحفاجي مقاماته التى أشرنا إليها في ترجمته التى عقدها لنفسه في نهاية كتابه الربحانة وسمى أولها المقامة الرومية وهو يستهلها بقوله : « أنبأنا النعمان بن ماء السماء عن شقيق وقد رحل من وادى العقيق في الحجاز إلى القسطنطينية ، ويصفها بأن البحر قد مدَّ لعناقها ساعديه

بينما تقبل الأمواج الأرض بين يديه ، ويصف من بها من الجوارى الحسان والفرسان الشجعان ، ثم يهاجم متصوفها وعلماءها . ولا يلبث أن يكوى المفتى دون ذكر اسمه بسياط من الهجاء المقذع من مثل قوله :

« لوقارنه الشُّعد الأكبر إلى أعلى عُلَّين ، حملته بنات نَعشٍ إلى أسفل سافلين ، أعمى البصرة والبصر ، عاراً على آدم أبى البشر ، إنما خلق اعتذاراً للإبليس في ترك السجود ، وأثنى يقبل له عذر وهو كفور جحود .. وما أحسنه في زوال النعم ، وأقبحه إذا قضى له الدهر بدولة وحكم » .

ويختم المقامة بمديح السلطان العثماني حينذاك . ويذكر بعدها مقامة الغربة راوياً لها عن الربيع ابن ريان عن شقيق بن النعمان ، وفيها بصور فساد الأمور في القسطنطينية ، ويوجه إلى المفتى المذكور فيها قصيدة هجاء لاذعة . ويتلوها بالمقامة الساسانية ، وقد استعار اسمها من الحريري في مقامته التاسعة والأربعين ، وفيها صور الفقهاء والعلماء في القسطنطينية كأنهم جميعاً أهل كُذبة . واستجداء يتقدمهم المفتى . ويقول قد تُفقد العلم لولا يقابا شرح الله بهم صدر الدين . ويدعو للدولة العثمانية بالازدهار . ويعارض بالمقامة الرابعة رسالة لرشيد الدين الطواط المترجم له في قسم إيران كتبها خيمن كان يزاحمه في أداته ودواته وعمله في ديوان الدولة الخوارزمية وفيها يزرى بصاحبه ويحط منه حظاً شديداً . ونسج الشهاب الحقاقي على منواله في صنع هذه المقامة قاصداً بها المفتى خصيصة مسيئة له باسم الوزير ، وفيها يضع منه وهجوه هجاء مرا ، وبصور قصته معه وأنه سمع قول الرشاة ونفاه ويمثّل به تمثيلاً شديداً . والمقامة الخامسة سماها المقامة المغربية ، اقترض اسمها من لدن الحريري وتسميته لمقامته السادسة عشرة بالمقامة المغربية ، والشهاب الحقاقي يكثر في مقامته تلك من بعض الأمثال والأعلام والمقتطفات من الأشعار وبعض أقوال الحكماء والألفاظ الغريبة ، ولذلك أتبعها بشرح لما استظهره في المقامة من ذلك كله .

٤

المواظع والابتهالات

فَرَضَ الإسلام الوعظ في خطب صلاة الجمعة من كل أسبوع ، وفي خطب صلاة الميدين ، وكان يتولاهما أئمة المساجد ، وأحياناً خلفاء الأمة ، واشتهر كثير من الوعاظ نسمع عنهم في كل بلدة ، غير أن المصادر قلما احتفظت بمجاميع من خطبهم إلا ما كان من خطب ابن نباتة خطيب

سيف الدولة الحمداني . وطبيعي أن يشتهر بمصر غير واعظ ، ويلقانا في مفتتح هذا العصر أبو الحسن ^(١) على بن محمد البغدادي المتوفى سنة ٣٣٨ وقد استوطن القسطنطينية ، وكان له بها مجلس وعظ عظيم . ويستولى المعز لدين الله الفاطمي على مصر ، ويؤسس بها الدولة الفاطمية التي ظلت نحو مائتي عام ، وكان خطيبا مفوها ، وكان يخطب الناس يوم الجمعة بالجامع الأزهر ، ولم تحتفظ كتب التاريخ بشيء من خطبه ومواعظه في القاهرة ، وقد احتفظت بخطبة ^(٢) خطبها عقب وفاة أبيه المنصور في بلدة المنصورة بالقرب من القيروان ، بدأها بأسجاع في بيان عظمة الله وتحميده وتمجيده . وكان ابنه العزيز يخطب مثله في الجامع الأزهر حتى إذا بنى الحاكم جامعه أخذ هو ومن جاءوا بعده يخطبون فيه ^(٣) . ويبدو أن الخطب والمواظ كانت تُعدُّ لهم - ولمن ينيونهم عنهم من الوزراء - في ديوان الإنشاء . ويذكر الرواه لابن أبي الشخاء كاتب الدواوين في زمن المستنصر مجموعة من المواظ لعلها كانت خطبا أعدّها للخليفة ووزيره بدر الجبالى ، وقد اشتهرت في أيامه ببلاغتها ، إذ كان - كما مر بنا في ترجمته - كاتباً بارعاً ، ونقّطت قطعة من إحدى خطبه ، إذ يقول ^(٤) :

«أبها الناس فكروا أنفسكم من حلقات الآمال المتعبة ، وخففوا ظهوركم من الأصار المستحقة ^(٥) ، ولا تأسموا ^(٦) أطاعكم في رياض الأمانى المنشئة ، ولا تملوا صقوكم ^(٧) إلى زيارج ^(٨) الدنيا الهية .. أين الجبايرة الماضية المتغلبة ، والملوك المعظمة المرجبة ^(٩) أولو الحفدة ^(١٠) والحجبة ، والزخارف المعجبة ، والجيوش الجائرة اللجة ^(١١) .. طرقت - واقه - خيامهم غير متبهة ، وأصبحت أظفار المنية من مهجهم قانية ^(١٢) مختضبة ، وأكلت لحومهم هوام الأرض السيئة ^(١٣) ، ثم إنهم مجموعون ليوم لا يقبل فيه عذر ولا متعنة ، ونجازى كل نفس

(١) انظر فيه حسن المحاضرة للسيوطى ٥٥١/١ والعبر

٢٤٧/٢

(٢) الصغر : الشق والحجاب

(٣) انظر سيرة الأستاذ جوفد (طبع دار الفكر العربى)

(٤) زيارج : جمع زيرج : الحيلة والزينة

ص ٧٦

(٥) المرجبة : الموقرة المظلمة

(٦) الحفدة : الأعران .

(٧) الجبايرة : الكثيفة . اللجة : ذات الجلبة والصوضاء

(٨) قانية : حمراء . مختضبة : مصبوبة بالخصاب

(٩) الحفدة : الأعران .

(١٠) الأصار : الذنوب . المستحقة : المرتبة

(١١) أسام الدابة في الرمي : خلاها نرمى فيه كما تناء

(١٢) السيئة : الخبيثة

بما كانت مكتسبة ، فلما سعيدة مقرّبة ، تجرى من تحتها الأنهار مثوبة ^(١) ، وإما شقيّة معذّبة ، في النار مُكبّكة ^(٢) .

وقد التزم ابن أبي الشخاء في موعظته الباء والماء في روى أسجاعه ، ليعطى للصوت في أول السجعة وما ورائه من الكلمات والمقاطع الفرصة كي يعلو ، ثم ينخفض فجأة آخر السجعة ، وكأنما لم تعد فيه بقية من شدة التأثير . وخصائص ابن أبي الشخاء الفنية التي عرضنا لها في حديثنا عنه واضحة أتم وضوح في هذه القطعة من الخطبة ، فهو يعنى بالتصاوير عناية شديدة ، إذ يطلب إلى الناس أن يفكوا أنفسهم من سلاسل الآمال المبهمة ومحطوا عن ظهورهم ذنوبهم المقرّفة ، ويصرفوا أطماعهم عن رياض الأمانى المشعبة ، ولا تغرنهم زينة الحياة الدنيا . ويدعو الناس إلى العظة بالألم الحالية والملوك السالفة وما كانوا فيه من نرف ونعيم . كل ذلك زال إلى غير مآب ، وذاقوا كئوس الموت دهاقا ، وأكلت هوامّ الأرض وحشراتا لحومهم . ويرفع أمام أعين الناس يوم القيامة ، يوم الجزاء الأكبر ، فلما إلى النعيم وإما إلى الجحيم .

ونمضى إلى زمن الأيوبيين ، فليقلنا إبراهيم بن منصور المتوفى سنة ٥٩٦ إمام جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وخطيبه ، وولى الخطابة بعده ابنه محمد يقول السبكي : « وله ديوان خطب مشهور ^(٣) » . وطبيعى أن الخطابة لزمن الأيوبيين وحروبهم مع الصليبيين كانت تحض بقوة على جهاد أعداء الله والإسلام وبذل المهج والأرواح في سبيل نصرة دينه الحنيف . ولم تكن خطب الجهاد تُلقَى في أيام الجمع فحسب . بل كانت تلقى كلما أريد تجميع الشعب لحمل السيف والسلاح . ويروى المقرئى ^(٤) أنه حينما علم الفرنج بموت الملك نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧ تقدموا من دباط تجاه المنصورة « فورد كتاب إلى القاهرة من الصكر أوله : (انْزِلُوا خُفَاً وَثِقَالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) وكان في الكتاب مواعظ بليغة في الحث على الجهاد ، فقرأ على منبر جامع القاهرة ، وقد جُمع الناس لسماعه ، فارتمت القاهرة والفسطاط وضواحيها وخرج الناس للقاء الصليبيين من المدينتين الكبيرتين ومن سائر الأقاليم ، فاجتمع عالم عظيم سحق الصليبيين سحقاً ذريعاً كما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

(٣) انظر ترجمة أبيه عند السبكي ٣٧/٧

(٤) الخطط ٤١٣/١

(١) مثوبة : مكافأة

(٢) مكبكة : مضمّنة .

ونلتقى في زمن المالك بابن النير ^(١) الإسكندري المتوفى سنة ٦٨٣ المتولى قضاء الإسكندرية وخطابها مرتين ، ويقول صاحب فوات الوفيات : « له ديوان خطب » . وكان يعاصره أخطب الخطباء قاطبة أيام المالك ابن دقيق ^(٢) العيد المتوفى سنة ٧٠٢ علم الأعلام وشيخ الإسلام وقاضى القضاة في جميع ديار مصر منذ سنة ٦٩٥ إلى وفاته . ويشيد مترجموه بورعه وتقواه ، ويقول السبكي : « له ديوان خطب مفرد معروف » . وكان شاعراً ، ويطلق مترجموه في ذكر أشعاره ، ولا يعرضون شيئاً من خطبه ومواظفه إلا موعظة ذكر السيوطى أنه كتب بها إلى قاضى إخميم بالصعيد ، وفيها يقول ^(٣) :

« نحمد الله الذى (يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور) ، ويمهل حتى يلتبس الإهمال بالإهمال على المفرور ، ونذكره بأيام الله (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) ونعذره صفقة مَنْ باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون ، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار . وتأخذ هذه النصائح بحُجْرته عن النار ، والمقتضى لإصدارها ما لمناه من الغفلة المستحكة على القلوب ، ومن تقاعد المصمم مما يجب للرب على المريب ، .. ووالله إن الأمر عظيم ، والخطب جسيم ، ولا أرى .. إلا رجلاً نبذ الآخرة وراءه ، واتخذ إلهه هواه ، وقصره منتهى همته على حفظ نفسه ودنياه ، فناية مطلبه حب الجاه .. فائق الله الذى يراك حين تقوم ، واقصر أملك عليه فإن المحروم من فضله غير مرحوم .. واجعل أكثر همومك الاستعداد ليوم المعاد ، والتأهب للجواب الملك الجواد فإنه يقول : (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عما كانوا يعملون) .

ولعل في هذه القطعة ما يصور وعظ ابن دقيق العيد في خطبه وأنه كان يتدفق فيه كالنبيل المذهب . مما جعل معاصريه يشيدون طويلاً برفاق وعظه وكلمه التى كان يجلب بها وبما يضمها من آى الذكر الحكيم عقول مستمعيه ، فيملأ نفوسهم بالإجابة إلى الله . وكان دائماً يرفع أمام أعينهم أهوال يوم المحشر يوم تجزى كل نفس بما كسبت وعملت وقدمت ، فإذا هم يرتجفون ويكون بدموع غزار ، وقد خشعت قلوبهم وذابت نفوسهم وهلعوا إلى دعاء الله يستغفرونه ويتوبون إليه توبة نصوحاً .

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن دقيق العيد

ص ١٤٦ .

(٣) حسن المحاضرة ١٦٨/٢

(١) انظر في ابن النير فوات الوفيات ١٣٢/١ والنجوم

الزاهرة ٣٦١/٧ وحسن المحاضرة ٣١٦/١ وشفرات الذهب

وما يزال السيوطي في حسن المحاضرة يسوق إلينا أسماء كبار الوعاظ وخاصة بين الصوفية ، ومُر بنا في الفصل الأول حديث مفصل عن التصوف بمصر وكيف أخذ يزدهر بها منذ عيت به الدولة في عهد صلاح الدين ، وإنشائه لخانقاه سعيد السعداء . واتسع بناء الخانقاهات بعده في أيام الماليك ، وكانت دورا كبيرة للنسك ودراسة العلوم الدينية على نحو ما يذكرون عن خانقاه سرياقوس التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون ، ومُر حديث مفصل عنها وعن غيرها من الخانقاهات الملوكية . وبنوا بجانبها للصوفية اثني عشر رباطا . كل ذلك عمل على ازدهار التصوف بمصر منذ القرن السادس الهجري . وكان كثير من الصوفية يتبعون الطريقتين العراقيتين : القادرية الجيلانية والرقاعية .

ولم تشع طريقة في العالم الإسلامي إلا كان لها فروع وأتباع في مصر ، وأخذت تؤسس بها طرق مشهورة في مقدمتها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى مؤسسها أبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ وسنخصه بترجمة قصيرة . وتلتها سريعا الطريقة البرهامية نسبة إلى إبراهيم ^(١) اللسوقي المتوفى سنة ٦٧٢ بلسوق بالقرب من رشيد ، وهو من ذرية علي بن أبي طالب ، والطريقة الأحمدية نسبة إلى أحمد ^(٢) البدوي المتوفى سنة ٦٧٥ بطنطا وهو أيضا سليل علي بن أبي طالب . وكان لكل طريقة ورد خاص تردده ، كله ابتهالات إلى الله ومناجيات وأدعية ، وكثرت على السنة المتصوفة هذه الأدعية والمناجيات والابتهالات والأوراد ، وسنعرض لهذا الجانب عند أبي الحسن الشاذلي في ترجمته . وسنوق قطعة من ورد أو حزب إبراهيم اللسوقي ، يقول مناجيا ربه :

« بأسمائك يارب العالمين . بالمسموات القائمة ، فهن بالقدره واقفات ، بالسبع المتطابقات ، بالحجب المترادفات ، بمواقف الأملاك (الملائكة) في مجارى الأفلاك . بالكروى البسيط ، بالعرش المحيط .. اللهم احرسني من كيد الفاسق ، ومن سطوة المارق ، ومن لدغة المنافق » .
وكان يعاصر اللسوقي والبدوي أبو العباس ^(٣) المرسى المتوفى سنة ٦٨٦ تلميذ أبي الحسن

(٣) انظر في ترجمة أبي العباس كتاب لطائف المنن في شئب أبي العباس المرسى وشيخه أبي الحسن وراجع الشرنائي ١٤/٢ والنجم الزاهرة ٣٧١/٧ وحسن المحاضرة ٥٢٣/١ والوافي ٢٦٨/٧ وشنرات الذهب ٢٧٣/٥ .

(١) انظر اللسوقي في الطبقات الكبرى للشرنائي (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) ١٨٣/١ وخطط على مبارك ٧/١١ (٢) راجع ترجمة البدوي في الشرنائي ٢٠٢/١ والنجم الزاهرة ٢٥٣/٧ وحسن المحاضرة ٥٢١/١ وشنرات الذهب

الشاذلى ، وهو أندلسى من مرسية ، ولد بها سنة ٦١٦ للهجرة ، وفى الرابعة والعشرين من سنه خرج إلى الحج ، وفى طريقه توقف بتونس ، وفيها تعرف على الصوفى الكبير أبى الحسن الشاذلى ، وأصبح أقرب أتباعه ومريدبه إليه ، حتى إذا رحل إلى الاسكندرية سنة ٦٤٢ رحل معه . وكان لا يبرح مجلسه ، وزوجه ابته ، وأعلن إلى أتباعه فى جامع المطارين بالإسكندرية أنه خليفته ، وكان يتقن العلوم الشرعية ، ويدرسها هى وبعض كتب الصوفية ، وأقبل على دروسه الطلاب . واستأذن شيخه فى السفر إلى القاهرة للتدريس بمساجدها ونشر طريقته بها ، فأذن له ، وكان يلقى دروسه فى الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص وجامع القفس ويسمى الآن جامع أولاد عنان بالقرب من محطة باب الحديد . وكانت حلقاته فى الجامعين تزدهم بالطلاب والعلماء . وتوفى أستاذه سنة ٦٥٦ فخلفه على الطريقة ، وكان أكثر مقامه بالإسكندرية ، ومن حين إلى حين يتزل القاهرة ، ناشرا منا وهناك الطريقة الشاذلية ، وتلميذه ابن عطاء الله كتاب قصره عليه وعلى أستاذه الشاذلى سماه « لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن » ويعد جامعهم اليوم أكبر جوامع الإسكندرية ، ويورد ابن عطاء الله كثيرا من أقواله ، كما يورد له وردا أو حزبا نقتطف من ابتهالاته وأدعيته قوله (١) :

« اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك ، والمحبة لك ، والشوق إليك ، والأنس بك ، والرضا منك ، والطاعة لأمرك ، على بساط مشاهدتك ، ناظرين منك إليك ، وناطقين بك عنك .. اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيننا وبين الصديق والنية والإخلاص والخشوع والهيبة والحياء والمراقبة ونور اليقين والعلم والمعرفة والحفظ والمعصية والنشاط والقوة والسر والمخفرة والفصاحة والبيان والفهم فى القرآن وخُصنا منك بالمحبة .. وآتانا العلم اللدنى والعمل الصالح والرزق المنى على بساط علم التوحيد والشرع .. وسحرنا الرزق واعصمنا من تعلق الهمة به ومن الذلل للخلق بسببه .. وهبنا لسانا لا يفتعن ذكرك وقلبا يسمع بالحق منك .. وبغض لنا الدنيا وحبيب لنا الآخرة .. اللهم لاتعذبنا بإراداتنا وحب شهواتنا فنشتغل أو نُحجب أو نفرح بوجود مرادنا أو نحزن أو نسخط .. وأنت أعلم بقلوبنا فارحمنا بالنعم الأكبر والمزيد الأفضل والنور الأكمل » .

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله على هامش كتاب لطائف

المن والأخلاق للشراف (طبع المطبعة البسيطة بمصر) ٣٧/٢

والورد طويل ويتخلله كثير من الآيات القرآنية ، وهو مناجاة روحية صافية للذات العلية . ويتضح فيه كيف تجمع الطريقة الشاذلية بين علم الشريعة وعلم الحقيقة الصوفية ، ولعل ذلك ماجعلها تشدد على أتباعها في أن لا يلبسوا المرقعات وأن لا يسألوا الناس شيئا مما في أيديهم من مال أو غذاء مع الاعتماد على النفس في كسب القوت عن طريق التجارة والزراعة وغيرها . وبذلك وصلت بين أتباعها والحياة والشريعة ، وسنخص ابن عطاء الله تلميذ أبي العباس الرسي بترجمة قصيرة . ومن متصوفة مصر المعاصرين لأبي العباس عبدالعزيز^(١) الدميي الدبريني ، ولد بقرية دميرة بالقرب من دمايط سنة ٦١٢ وتوفي بدبرين في الصعيد سنة ٩٩٤ وكان يتجول في ريف مصر شمالا وجنوبا ، وكان فقيها شافعيا ، ونظم كتاب التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي ، ونظم سيرة نبوية . وكان له تفسير في مجلدين . وكان متقشفاً مخشوشا ، وله في التصوف كتاب « طهارة القلوب في ذكر علام الغيوب » وهو يمتلئ بمناجيات إلهية بديعة من مثل قوله :

« إلهي ، عرفتنا ببريوتك ، وغرقتنا في بحار نعمتك ، ودعوتنا إلى دار قُدسك ، ونعمتنا بذكرك وأنسك .

إلهي ، إن ظلمة ظُلْمنا لأنفسنا قد عمت ، وبخار الغفلة على قلوبنا قد طمت ، فالعجز شامل ، والحصر^(٢) حاصل ، والتسليم أسلم ، وأنت بالحال أعلم .

إلهي ، ماعصيناك جهلا بعقابك ، ولانعرضا لعذابك ، ولكن سئلت^(٣) لنا نفوسنا ، وأعانتنا شِقوتنا ، وغرنا سترك علينا ، وأطمعنا في عفوك بِرُك بنا ، فالآن من عذابك من يَسْتَقِلُّنا ؟ وبِحَبْل مَنْ نَعْتَمُّ إن قطعْتَ حَبْلَكَ عنا ؟ واخْجَلِّتْنا من الوقوف غدا بين يديك ، وافضيتنا إذا غُرِضَتْ أعمالنا القيحةُ عليك .

اللهم اغفر ما علمتَ ، ولا نهتك ماسترت .

إلهي ، إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل ، حيث علمنا أن لنا رباً يغفر الذنوب ولأَيُّال .

وهي مناجاة لله بديعة صافية كل الصفاء نقية كل النقاء ، مناجاة تنبئ عن قصور العبد وتعلقه

(٢) الحصر : المي .

(١) انظر في طبقات الشافعية للسبكي ١٩٩/٨ وحسن

(٣) سئلت : أغرت . ونقال في الشرور والسوء .

الحاضرة ٤٢١/١ والشرعاني ٢٢٤/١ ومناجياته المذكورة في

بربه وطمعه في غفرانه وعفوه إذ يرى كل صلاته ونسكه وعبادته وكل ما قدم بقصر عن حق إله .
ويروى السبكي مناجاة لصوفي شاذلي من صوفية القرن الثامن هـ شمس^(١) الدين بن اللبان محمد
ابن أحمد المتوفى سنة ٧٤٩ وقد أخذ الطريقة الشاذلية عن ختله (والد زوجته) باقوت العرشي
تلميذ أبي العباس المرمي ، ويقول السبكي إنه نقل مناجاته عن كتابه « المتشابه في الربانيات »
وهي تطرد على هذا النمط .

« إلهي ! جَلَّتْ عَظَمَتُكَ أَنْ يَفْصِكَ عَاصِي ، أَوْ يَسَاكَ نَاسِي ، وَلَكِنْ أَوْحَيْتَ رُوحَ أَوَامِرِكَ
فِي أَسْرَارِ الْكَائِنَاتِ ، فَذَكَرَكَ النَّاسِي بِنِسْيَانِهِ ، وَأَطَاعَكَ الْعَاصِي بِعَصْيَانِهِ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
بِسُبْحِ مُحَمَّدٍ ، إِنْ عَصَى دَاعِيَ إِيمَانِهِ فَقَدْ أَطَاعَ دَاعِيَ سُلْطَانِهِ ، وَلَكِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّتُكَ ،
وَقَدْ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ : (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) .

ويبدو أن كتاب المتشابه في الربانيات كان شطحات كثيرة على نحو ما نرى الآن من قوله : إن
العاصي يطيع الله بعصيانته وإنه إن عصى داعي إيمانه فقد أطاع داعي سلطانه ، فكيف يُعَدُّ
العاصي لله مطيعاً له ؟ وإذن لا يكون في الدنيا عاصي ومطيع . ولذلك يقول السبكي إن هذه
المناجاة مما أخذ عليه . ويقول ابن حجر : ضُبِطَتْ عَلَيْهِ كَلِمَاتٌ عَلَى طَرِيقِ الْإِتِّحَادِيَةِ الْقَائِلِينَ
بِالْحُلُولِ ، كَمَا يَقُولُ إِنْ لَهُ كِتَابًا عَلَى لِسَانِ الصُّوفِيَّةِ ، فِيهِ مِنْ إِشَارَاتِ الصُّوفِيَّةِ الْقَائِلِينَ بِالْوَحْدَةِ ،
وَهُوَ فِي غَايَةِ الْحُلَاوَةِ لِقَظًا وَفِي الْمَعْنَى سَمِ قَاتِلٌ .

وكان بعاصره يوسف^(٢) بن عبد الله المعجمي الكردي المصري الدار المتوفى سنة ٧٦٨ وقد
دفن بزاويته بقرافة مصر . ويقول ابن حجر : « له زوايا في عدة بلاد » . ويصفه ابن تغري بردي
بقوله : « الإمام العالم المسلِّك الصوف العارف بالله تعالى المعتقد .. وقبره يقصد للزيارة ، كان
شيخاً حقيقاً ومُتَقَدِّمَ طَرِيقَةٍ ، كان إماماً المسلِّكين (آخذى اليهود على المريدین) في عصره وله
رسالة في التصوف سماها « ریحان القلوب والتوصل إلى المہجوب » . ومن هذه الرسالة مخطوطتان
بدار الكتب المصرية وقد ذكر فيها شرائط التوبة ولبس الخرق أو المرقمة الصوفية وتلقين
الذكر .. ويقول ابن تغري بردي : انتفع بصحبته جماعة من العلماء والصلحاء والفقهاء ، وكان

(٢) انظر في يوسف المعجمي النجوم الزاهرة ٩٤/١١

والدرر الكائنة لابن حجر ٢٣٨/٥ والشرافي ٧١/٢ وحسن

المحاضرة ٤٢٦/١

(١) انظر ابن اللبان في الدرر الكائنة ٤٢٠/٣ والسبكي

٩٤/٩ وحسن المحاضرة ٤٢٨/١ والوافي بالوفيات للصفدي

١٦٨/٢ ومرة الحنان ٣٣٣/٤ وشنفرات الذهب ١٦٣/٦

على قدم هائل ، كان غالب علماء عصره يقتدون به ، وكان له أورداد وأذكار هائلة ، وهذه الأذكار والأورداد سقطت من يد الزمن . وهو وأورداده رمز لمن جاء بعده من المتصوفة في أيام المالِك وما كان لهم من أورداد وأحزاب سقطت من يد الزمن .

ونغضى إلى أيام الصَّانِين وتلقَى في مطلعها بأبي السَّعُود ^(١) الجارحي المتصوف المتوفى سنة ٩٣٠ ويشيد به الشَّعْرَانِي ، وأهم منه الشَّعْرَانِي ^(٢) نفسه المتوفى سنة ٩٧٣ وقد أَلَمْنَا به في حديثنا عن الزهد والتصوف في الفصل الأول ، وفي كتابه « لطائف المنن والأخلاق » بيان بالمؤلفات التي قرأها وبأسانئذته ومراحل حياته الصوفية والأخلاق التي التزمها في حياته . ومع أنه صوفي سني نراه يدافع عن أستاذه الروحي : ابن عربي ، ومحاولا تأويل عباراته على نحو ما يَصور ذلك في كتابه « الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر » . ونظّل الطرق التي عرضنا لها في غير هذا الموضع ناشطة بمصر . ويعلمو شأن الطريقة الخلتوية المنسوبة إلى الشيخ محمد الخلتوي منذ نزل القاهرة الشيخ مصطفى ^(٣) بن كمال الدين البكري الناشئ ببيت المقدس ، وقد طُوف في بلدان الشام والعراق وتركيا وحج مرارا وسكن بأخرة القاهرة وتوفى بها سنة ١١٦٢ ويعرف به الجبِّي قائلًا : شيخ الطريقة والحقيقة ، قدوة السالكين ، ومرقى المريدين الإمام المسلَّك ، تأليفه تقارب الماشين ، وأورداده أكثر من ستين وردا . وأجلها ورد السحر ، ونقتطف من مناجياته لربه فيه وابتلائاته قوله ^(٤) :

« إلهي ، أنت المدهرُ بكل لسان ، والمقصود في كل آن .

إلهي ، أنت قلت : (ادعوني أستجب لكم) فما نحن متجهون إليك بكليتنا فلا نردُّنا ، واستجب لنا كما وعدتنا .

إلهي ، ابن القرمك وأنت الهيّط بالأكوان ؟ وكيف الهراح عنك وأنت الذي تُبدِّئنا بلطائف الإحسان .

والشَّعْرَانِي إمام الصوف في عصره لتوفيق الطويل .

(٣) انظر في ترجمة مصطفى البكري الصديق الخلتوي تاريخ الجبِّي ١/١٦٥ وسلك الدرر ٤/١٩٠ وفتاوة المعارف الإسلامية في البكري .

(٤) انظر في ورد السحر البكري مجموع الأورداد الكبير (طبع مكتبة النصر) ص ٧٨ - ١١٨

(١) راجع فيه الطبقات الكبرى للشَّعْرَانِي ١٤٣/٢
(٢) انظر في ترجمة الشَّعْرَانِي كتابه « لطائف المنن والأخلاق » في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، والكواكب السائرة ٢/٢٥٩ وطبقات للناوي الكبرى ٢/٤٩٥ والمخطوط التوفيقية ١٤/١٠٩ وكتب الشَّعْرَانِي والتصوف الإسلامي له عبد الباقي سرور ،

إلهي ، بحق جمالك الذي كُتِبَ به أكبادُ المهين ، ويحلاك الذي تحيرت في عظمت ألبابُ
العارفين .

إلهي ، بالنور المحمدي الذي رفعت على كل رفيع مقامه ، وضربت فوق خزانة أسرار ألوهيتك
أعلامه ، أفتح لنا فتحاً صمدانياً وعلماً ربانياً ، ونجلاً رحانياً ، ونبيّاً إحسانياً .

وعن هذا الشيخ أخذ الطريقة الخلوتية جمع من العلماء المصريين الأعلام في مقلتهم الشيخ
الحفي شيخ الجامع الأزهر وهو ملقب أسانيد الطريقة بعده ، ومن أخذها عنه الشيخ أحمد
الدردير . وسنخصه بترجمة قصيرة بعد أبي الحسن الشافلي وابن عطاء الله السكندري .

أبو الحسن ^(١) الشافلي

هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار ، من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب ، ولد سنة ٥٩٣
للحجرة بقرية تسمى غمارة بالقرب من سيّنة في المغرب الأقصى ، وعلى عادة لداته في النشأة بدأ
حياته بحفظ القرآن الكريم وأكسب على العلوم الإسلامية واللغوية حتى أتقنها . ولم يكد يبلغ نحو
العشرين من عمره حتى أحس برغبة شديدة للنهل من معين الصوفية ، فرحل إلى المشرق ليلقى
العلماء النساك ، ونزل تونس ، ولقى فيها وفي المدن المغربية قبلها حَمَلَة طريقة الصوفى المغربي
أبي مدين . ولم يلبث أن عزم على أداء فريضة الحج فزار مصر ودخل الحجاز ، ثم زار فلسطين
والشام والعراق ، وتعرف في بغداد على صوفى رفاعى هو أبو الفتح الواسطى ، وكانما كان باب
سلوكه الصوفى . وعاد إلى المغرب ، فكان من محاسن الصدف أن تعرف في فاس على صوفى هو
عبد السلام بن مشيش ، فلزمه ، واتخذهُ إماماً وشيخاً ، وقد دفعه دفْعاً إلى أن يعيش للتصوف
ومحبة الله ، إذ كان يكرر عليه قوله : « أدْمِن على الشرب والمجبة وكأسها مع السكر والصحو ، كلما
أقمت أو توقظت شربت ، حتى يكون سكرك به ، وحتى تغيب بجماله عن المجبة وعن الشرب
والشراب والكأس ، بما يدولك من نور جماله ، وقدس كما له وجلاله » . ولم يلبث شيخه أن أمره

الشافلي المذكور عبد الحليم محمود ، وأعلام الاسكندرية في
العصر الاسلامي للمذكور جمال الدين الشيال ص ١٦١
والأدب في التراث الصوفى للمذكور محمد عبد النعم غفاجي
ص ١٥٠ .

(١) راجع ترجمة الشافلي في كتاب « لطائف المنن في
مناقب أبي العباس الرضى وشيخه أبي الحسن » وحسن
الماضرة ٥٢٠/١ ونكت الحبيان ص ٣١٣ والشعراني في
الطبقات ٤/٢ والنجم الزاهرة ٦٩/٧ وراجع للفاخر الطبة
في آثار الشاذلية لابن عباد وهو مطبوع ، وأبو الحسن

بالمجرة إلى شاذلة بالقرب من تونس في إفريقية الوسطى ، فهاجر إليها ، وهناك أخذ ينشر في الناس الدعوة إلى التصوف ، ولصفت البلدة باسمه حتى اشتهر باسم الشاذلى وكان يتركها أحيانا إلى تونس وفيها تعرف بتلميذه أبى العباس المرسى وتوثقت الصلة بينها في الله وعجته حتى قال له الشاذلى يوما : « ماصحبك إلا لتكون أنت أنا »

وهاجر الشاذلى وتلميذه أبو العباس وجمع من مرديه إلى الاسكندرية في سنة ٦٤٢ وبها ألقى عصا تسياره ، وذاع صيته لافى الإسكندرية وحدها ، بل أيضا في القاهرة ، إذ كان يتردد عليها لنشر طريقته الصوفية ، وكان يحضر مجالسه في مدرسة الحديث الكاملية شيوخ الإسلام حينئذ وأكابر العلماء من الفقهاء والمحدثين والمفسرين .. وكان يلقى دروسه ومواعظه في الاسكندرية بجامع المطارين . وطار صيته فيها وفي القاهرة والمدن المصرية ، فانهال المصريون عليه ، يطلبون القرب من الله على يديه ، وفي هذه الأثناء أصاب عينيه رمد أقفده بصره . وكان يُعجب بأبى العباس المرسى منذ لقائه به فأعلن في أتباعه - كما مر بنا - أنه خليفته على طريقته ، وهى تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشريعة المحمدية بجانب النسك والعبادة وصدق القلب . والشعور الباطنى الصوفى .

وهاجم الشاذلى بقوة حياة الخانقاهات والتسول التى كان يعيشها الدراويش الرُحْل ، فعنده أن الصوفى الحقيقى لا يكون سائلا ولا طفيليا يمد يده للغير ، بل لابد أن يعتمد على نفسه في كسب قوته ، فتصوفه أو طريقته الصوفية كانت طريقة سنية . وكان يدعو مرديه لحمل السلاح ضد أعداء الإسلام الصليبيين ، وكان يرحل معهم إلى ميادين الحرب كما حدث في موقعة المنصورة المشهورة لعهد السلطان نجم الدين أيوب وابنه توران شاه حين اقتحم لويس التاسع ملك فرنسا دمياط وتقدم منها سنة ٦٤٧ بجيشه نحو المنصورة إذ نجده مع مرديه هناك ، ونجد معه شيوخ الدين وعلماء الكبار من مثل العزيز بن عبد السلام وابن دقيق العيد ومحمى الدين بن سراقه وغيرهم من جلة الشيوخ . وحدث أن تكلموا يوما واعظين ، وجاء الدور في الكلام والخطابة على أبى الحسن ، فتكلم - كما يقول الرواة - بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة ، وانهى الشيخ العزيز عبد السلام ، فقام هاتفا منبرها قائلا : اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله . وأنزل الجيش المصرى بالصليبيين هزيمة ساحقة ، واستلم ملكهم لويس التاسع ذليلا كسيرا ، وارتحلوا عن دمياط خاضعين مدحورين إلى البحر المتوسط وماوراءه .

وعاد أبو الحسن الشاذلي إلى الاسكندرية والعلماء والناس يَكْبُونُ عليه للاستزادة من علمه وطريقته وتعاليمه . حتى إذا كانت سنة ٦٥٦ خرج إلى الحج عن طريق القصير ومعه أبو العباس وبعض مريديه ، وفي صحراء عذاب بين قنا والقصير أحسّ بدنو أجله فأعلن إلى أتباعه استخلافه عليهم أبا العباس المرسى ، ولم يلبث أن أسلم روحه إلى بارئته . وتدل أقواله وأدعيته وإبتهالاته ومناجياته لربه في أوراده على أنه كان يملك ناصية العربية مصرفاً أزمتها كيف شاء ، وله أوراد كثيرة ، وقد ساق ابن عطاء الله منها في كتابه لطائف المتن أربعة أوراد له أو أحزاب ، لعل أهمها الحزب المسمى بالحزب الكبير وهو يستله ويتخلله بآيات قرآنية كثيرة ، ويناجي ربه فيه بمثل قوله :

« اللهم إنك تعلم أني بالجهالة معروف ، وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعت كل شيء من جهالتى بعلمك فسحّ ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك واغفرلى إنك على كل شيء قدير . يارزاق باقوى ياعزيز ! لك مقاليد السموات والأرض تبسط الرزق لمن تشاء وتقدر قابضاً لنا من الرزق ما توصلنا به إلى رحمتك ، ومن رحمتك ما تحول به بيننا وبين نعمتك ، ومن حلمك ما يسعنا به عفوك ، واختم لنا بالسعادة التي ختمت بها لأولائك ، واجعل خير أيامنا وأسعدنا يوم لقائك ، وزحزحنا عن حب الدنيا وعن نار الشهوة وأدخلنا بفضلك في ميادين الرحمة ، واكسنا من نورك جلايب العصمة ، واجعل لنا ظهيراً من عقولنا ، ومهيئاً من أرواحنا ، ومسخرًا من أنفسنا (كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا) . »

اللهم إنا نسألك إيماناً دائماً ، ونسألك قلباً خاشعاً ، ونسألك علماً نافعا ، ونسألك يقيناً صادقا ، ونسألك ديناً قبيحاً ، ونسألك العافية من كل بلية ، ونسألك الشكر على العافية ، ونسألك الغنى عن الناس . »

والتاجاة طويلة ، وهو يلم فيها - كما نرى - بطلب المغفرة والرحمة من ربه وأن يكون خير أيامه وأسعدنا يوم لقائه وأن ينفّرهُ من حب الدنيا ويعصمه من شهواتها وأن يجعل حياته نسكا وعبادة له . وما يزال في الورد يتسنى أن يبه الله رضاه وحبه وأن يدفع عه كل ضر وأذى وأن يغنيه عن السؤال وأن يتم عليه بحرّ الدنيا من الإيمان والمعرفة وبعز الآخرة من اللقاء والمشاهدة . ولم يكن يطلب إلى أصحابه أن يشقوا على أنفسهم في العبادة والتسك وأن يلبسوا الخرق والمرمّعات بل كان يطلب إليهم الرفق بأنفسهم في التقوى والعبادة ، وأن يشتركوا في الحياة مع مجتمعهم تجاراً وزراعا وأصحاب حرف ، فإن العمل نفسه يعد عبادة . وبذلك كان يدعو أتباعه أن لا يكونوا حالة على

المجتمع بل يعملوا ويحلوا مع صفاء النفس وسمو الروح ، ومع التقوى والعمل الصالح . وشاعت طريقته في الديار المصرية وفي شمال أفريقيا وخاصة في الشمال الغربي ، وتفرعت منها أكثر من عشرة طرق من أهمها الطريقتان الوفائية والخلوتية .

ابن عطاء ^(١) الله السكندري

هو تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري ، ولد بالإسكندرية في أواخر العقد السادس من القرن السابع ، واستهل حياته بحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يمكف على دراسة العلوم الدينية واللغوية حتى برع فيها ، يقول السيوطي : « كان جامعاً لأنواع العلوم من تفسير وعديث ونحو وأصول وفقه على مذهب مالك » . ويبدو أنه جمع إلى مذهب مالك دراسة مذهب الشافعي مما جعل السبكي يترجم له في طبقات الشافعية ، وله في مذهب مالك مختصر تهذيب المدونة للبرادعي . وكان في أول أمره منصرفاً عن التصوف والصوفية . بل كان ينكر عليهم طريقتهم ، حتى تصادف أن استمع إلى أبي العباس الرمسي تلميذ أبي الحسن الشاذلي ، فأعجب به ، وأخذ يقتنع بطريقة القوم ، حتى أصبح أكبر مرید لأبي العباس وآثر تلاميذه عنده ، ولما توفى سنة ٦٨٥ خلفه على رياسة الطريقة الشاذلية . وله فضل كبير في نشرها ، فقد كان فقيهاً كبيراً ، كما كان صوفياً شاذلياً لسيّاً ، فجلس مجلس أستاذه يدرّس للناس الفقه والتفسير ويعظهم ، فيبلغ كل ما يريد من التأثير فيهم .

واستوطن ابن عطاء الله القاهرة ، واتخذ له حلقة في الجامع الأزهر تارة وفي المدرسة المنصورية تارة أخرى يعظ الناس ويرشدهم ، وأكب عليه الفقهاء وفي مقدمتهم تقي الدين السبكي ، وأكبت عليه العامة ، ودخل كثيرون في طريقته لروعة وعظه وحسن بيانه ، وخاصة أنه كان يمزج مواعظه بالقرآن الكريم والحديث النبوي وأقوال السلف . فكثر أتباعه ، وأصبح لطريقته الشاذلية شأن عظيم ، وكان يكرر ويردد دائماً مبدأها الأساسي وهو أن الصوفي الحقيقي مَنْ يجمع بين علوم الشريعة وعلوم الصوفية ، وأنه لا تصوف بدون أداء الفرائض والنوافل ، وأن على المتصوف أن يكتسب قوته وما يقيم به أوده ، وأما من يسألون الناس ويتضرعون إليهم طالبين ما يسئلون به رفقهم

(١٣٥١ هـ) ص ٧٠ والواق ٥٧/٨ وشذرات الذهب ١٩/٦ وكتابا عنه للدكتور الخنازن وأعلام الإسكندرية للدكتور الشبال ص ٢١٤ .

(١) انظر في ابن عطاء الله النجوم الزاهرة ٢٨٠/٨ وطبقات الشافعية ٢٣/٩ والدرر الكامنة ٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٤٢٤/١ وطبقات الشمراني ١٤/٢ والدرر الطالع ١٠٧/١ والدياج للمذهب لابن فرحون (طبع القاهرة

فلبوا من التصوف في شيء . فالصوفي يعمل ويحني ثمرة عمله ولا يسأل سوى ربه راضيا برزقه ونصيبه من دنياه ، ويقول ابن حجر : « كان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه ، وأُف في مناقب شيخه أبي العباس المرسي وأبي الحسن الشاذلي كتابه « لطائف المنن » فأرسي به الطريقة وتعاليمها وكتب لها الذبيوع . ويقول الذهبي : « كانت له جلالة عجيبة ووقع في النفوس ومشاركة في الفضائل » ويقول السبكي : « كان إماما عارفا صاحب إشارات وكرامات وقدم راسخ في التصوف » ويقول صاحب النجوم الزاهرة في التعريف به « الشيخ القدوة العارف بالله تعالى الصوفي الواعظ المذكر المسلك ، وكان يحضر حلقة وعظه خلق كثير ، وكان لوعظه تأثير في القلوب وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق . وصُف ابن عطاء الله « لطائف المنن » في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن والتوير في إسقاط التدبير ، والمرق إلى القدس الأثني ، وتاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس ، ومفتاح^(١) الفلاح ومصباح الأرواح . وواضح من عنوانات هذه المصنفات أنها كتب صوفية . وله أقوال وكلمات بليغة فوّنها أصحابه في كتاب باسم « حكم ابن عطاء الله السكندري » وهي منشورة . وله أشعار على طريقة الصوفية . أنشدنا منها مقطوعة في غير هذا الموضع . وتوفي بالمدرسة المنصورية كهلا سنة ٧٠٩ ودفن بجبانة^(٢) آل أبي الوفا شرق جبانة الإمام الليث ، وكانت جنازته - كما يقول مترجموه - حيلة لكثرة أتباعه من الفقهاء والطماء والعامة .

وكان ابن عطاء الله إذا وعظ استرسل في وعظه ، وقد يذكر آية قرآنية أو حديثا نبوياً فتوالى سيول القول ، من ذلك ما جاء في وصفه للرسول ﷺ في كتابه « لطائف المنن » إذ يقول : « مشرق الأنوار ومعدن الأسرار ، مَنْ له الفتح والختام ، والحائز للمقامات العلية بالتمام ، رسول رب العالمين ، وسيد الأولين والآخرين ، محمد ﷺ وحلّ آله وصحبه أجمعين . فهو نور الأنوار وسر الأسرار ، إليه تنزل الأسرار الربانية ، وعنه تؤخذ المعارف الإلهية . أخذ أهل الظاهر عنه ظاهريهم ، وأخذ أهل الباطن (الصوفية) منه باطنيهم ، وقال ﷺ : العلماء ورثة الأنبياء ، وكل على قدر إرثه ، وإرثه على قدر نوره ، ونوره على قدر ضحه ، وضحه على قدر صفاء قلبه ، و صفاء قلبه على قدر معرفته بربه ، ومعرفته بربه على حسب ماسبق له من حبه » .

(٢) في الإسكندرية مسجد منسوب إليه ، ولعله كان يلق

به أحيانا بعض مواضع

(١) انظره مطبوعا مع لطائف المنن على حاشي كتاب

لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله

على الاطلاق للشعراني (طبع المطبعة الميمنية)

وتكثر عنده مثل هذه التفرعات والتوليدات في الكلام ، وكأنما يستمد من معين ذهني وروحي لا ينضب ، مع التنوع الدائم في الأفكار وتشعبها شعبا وفروعا لانكاد تقف عند حد ، وكأنما يريد أن يشيد منها طبقات ، بعضها فوق بعض ، أو كأنما يريد أن يرفع منها صروحا شاهقة . وقد يستعين بال تكرار مع تلوين الأسلوب ألوانا مختلفة على شاكلة قوله واعظا :

« كيف يتصور أن يحجب الله شيء وهو الذي أظهر كل شيء ؟ »

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي لبس معه هي ؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء ؟

يا عجا كيف يظهر الوجود في العدم ، أم كيف يثبت الحادث مع مَنْ له وصف القدم ؟ ، والعظة تدور على أن لاحجاب بين العبد ومولاه إذ هو مُظهر الكائنات جميعا وموجدتها ، وجميعها تشهد بوجوده ، وإنه لينجلي فيها جميعا . وقد ظهر لها وعرفته وسبحته ، وإن وجوده لأبدى أزلى ، وإنه لواجب الوجود وحده دون سواه ، وإنه لأقرب إلى الإنسان من كل شيء ، أقرب إليه من جبل الوريد . ويا عجا كيف يحجبه الفاني الحادث ، وهو القديم الأزلى . وهو يُسرّ في العرض وروعة بيان وبلاغة . ويروى أن السلطان لاجين طلبه ليعظه ، وسأله في أثناء وعظه عن الشكر ، فأجابته توا :

« الشكر على ثلاثة أقسام : « شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجنان . فشكر اللسان : التحدث بالنعمة ، قال تعالى : (وأما بنعمة ربك فحدث) . وشكر الأركان : العمل بطاعة الله قال تعالى : (اعملوا آل داود شكرا) . وشكر الجنان : الاعتراف بأن الله وحده هو المنعم قال تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله » . وسأله لاجين : ما الذي يصيربه الشاكر شاكرا ؟ فقال : إذا كان ذا علم فبالتيبين والإرشاد ، وإذا كان ذا غنى فبالذل والإيثار للعباد ، وإذا كان ذا جاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد . » . وبحق ما قاله الشمراني من أن لكلامه حلاوة وجلالة .

أحمد ^(١) الدردير

هو أحمد بن محمد العدوي المالكي الأزهرى الشهير بالدردير ، ولد ببني عدى سنة ١١٢٧ للهجرة وحفظ القرآن الكريم وجُوده وشُغف بطلب العلم ، فورد القاهرة ، وأكْبُ على حلقات العلماء يأخذ كل ما عندهم من حديث وفقه وتفسير وعلم كلام ولغة ونحو وبلاغة . وشغف بدروس الشيخ الحنفى شيخ الجامع الأزهر حينذاك ، وكان قد انتظم فى سلك الخلوتية - كما مر بنا - عن طريق الشيخ الخلوق الكبير مصطفى بن كمال الدين البكرى ، فأخذ الدردير عنه الطريقة فيمن أخذوها عنه من العلماء والأجلاء وكان زاهدا عفيفا تقيا ورعاسليم الباطن مهذبا كرم الخلق ، فقربه منه الشيخ الحنفى وشيوخه بعامة . وسرعان ما أذنوا له بالإفتاء فى حضرتهم ، وأجازوا له التدريس ، فكان يدرس للطلاب المذهب المالكى ، وله فيه شرح و مختصر خليل و اقتصر فيه على الراجح من أقوال أئمة المذهب المالكى . ولما توفى شيخ المالكية : الشيخ الصميدى شغل مكانه فى المشيخة والإفتاء ، وعيّن ناظرا على وقف الصاعدة وشيخا لطائفة الخلوتية الصوفية .

وعُدَّ الجليل فى تاريخه مؤلفات الدردير فى الفقه المالكى وفى علم التوحيد وفى مناشآت القرآن وفى علوم البلاغة . وذكر له بجانب ذلك مؤلفات فى التصوف منها تحفة الإخوان فى آداب أهل العرفان ، وشرح على ورد الشيخ كرم الدين الخلوق ، وشرح على صلوات السيد أحمد البدوى وهى صلوات نبوية . وما زال الدردير يتولى مشيخة المالكية بالجامع الأزهر ومشيخة الطائفة الخلوتية الصوفية حتى توفى سنة ١٢٠١ للهجرة ، وصُلِّي عليه بالأزهر فى مشهد عظيم ، ودُفن بزاويته التى بناها بجى الكمكيين . وله ورد أو حزب مشهور باسم المسبغات ^(٢) والصلوات ، والمسبغات أدعية وابتهالات عشر ، وتليها صلوات عطرة على الرسول ﷺ ، وله معها منظومة لأسماء الله الحسنى ، تشتمل فى نهايتها على صلوات وتسليمات على الرسول ﷺ وأدعية له ولشيوخه فى الطريقة الخلوتية ، وما يقول فى مسبغاته داعيا ربه متتبلا إليه .

اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك ومن الذل إلا لك ومن الخوف إلا منك ، وأعوذ بك أن أقول زورا ، أو أغشى فجورا ، أو أكون بك مغرورا . وأعوذ بك من شناعة الأعداء ،

الكبير (طبع مكتبة النصر) ص ١٣

(١) انظر فى الدردير تاريخ الجليل ١٤٧/٢

(٢) انظر فى هذه المسبغات والصلوات بمجموع الأوراد

وَحُضَالِ الدَّاءِ ، وَخِيَةِ الرَّجَاءِ ، وَزَوَالِ النِّعْمَةِ ، وَفُجَاءَةِ النِّقْمَةِ .

اللهم إني أعوذ بك من شر الخَلْقِ وهم الرِّزْقُ ، وسوء الخَلْقِ .

اللهم إني أعوذ بك من الرُّبُحِ والجَزَعِ ، وأعوذ بك من الطمع في غير مطمع .

ويظل يستعِذ من المم والحزن ومن شر ما خلق الله ومن أن يَظْلَمَ أو يُظْلَمَ أو يَبيِّنَ على إنسان أو يَبيِّنَ عليه ذو سلطان أو يَظُنِّي أو يُظَنِّي عليه . ويستعِذ من الشرك الظاهر والباطن ، ويتوسل إلى الله أن يكون دائماً في حرز منيع من جميع خلقه ، وأن يظل معافى في بدنه ودينه ودنياه .

ونتقل معه إلى الصلوات على الرسول ، وتوضح فيها نظرية الحقيقة المحمدية التي مر بنا حديث عنها عند البوصري ، إذ يقول :

« اللهم اجعلْ أفضل صلواتك أبداً ، وأتسى بركتك سرمداً ، وأزكى تحياتك فضلاً وعدداً ، على أشرف الخلائق الإنسانية ، ومجمع الحقائق الإيمانية .. شاهد أسرار الأزل ، وترجمان لسان القدم .. وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي ، روح جسد الكونين ، وعين حياة الدارين . اللهم صَلِّ على مَنْ مِنْهُ انشَقَّتْ الأسرار ، وانفَلَقَتِ الأنوار ، وفيه ارتقت الحقائق ، ونزلتْ علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه مناسيق ولا لاحق ، فرياض الملكوت يزهر جلاله موفقة ، وحياض الجبروت يفيض أنواره متدفقة .

اللهم صَلِّ على الذات المحمدية ، اللطيفة الأحدية ، شمس سماء الأسرار ، ومظهر الأنوار . ومركز مدار الجلال ، وقطب فلك الجلال . »

ونظرية الحقيقة المحمدية وما يطوى فيها من قدم الوجود المحمدي وأن وجود الكائنات مستعار منه واضحة في قول الدردير عن الرسول عليه السلام إنه ترجمان لسان القدم ، وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي وروح جسد الكونين وأن الأنوار منه انشقت ، فنوره هو المرتضى في كل نور ، ووجوده هو المشاهد في كل وجود . وكل ذلك يعني أزالة النور المحمدي أو قل أزالة الحقيقة المحمدية . ويوزع الدردير صلواته على الحروف المجانية فلكل حرف سجعاته الخاصة ، ومع الصلوات أدعية وابتالات شتى من مثل قوله في الصلوات على حرف الدال :

« اللهم صَلِّ وَسَلِّمْ وباركْ على سيدنا محمد واسئلكُ بنا طريقَ الرشاد .

وَصَلِّ وَسَلِّمْ وباركْ على سيدنا محمد واخْلَعْ علينا رُضْوَانِ الوِداد ،

وَصَلِّ وَسَلِّمْ وباركْ على سيدنا محمد وَتَوَجَّنا بتاج القبول بين العباد .

وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَارَأْفَ بِنَا رَأْفَةَ الْحَبِيبِ بِحَبِيهِ يَوْمَ الثَّنَاءِ (١) ،
وتتوالى مثل هذه الأدعية مع الصلوات على الرسول ﷺ وكأن الدردير يستمد من معين
لا ينضب ، وهو معين يسيل دائما سلامة وعلوية .

٥

كتب النوادر والسير والقصص الشعبية

(١) كتب النوادر

تطلق كلمة النوادر إطلاقين ، فهي تارة يراد بها الأقاصيص القصيرة التي تزوِّج عن النفس أو
التي يُقصِّدُ بها إلى غرض خلق نيل ، وتارة يراد بها أقاصيص فكهة قصيرة مخربة بحاكم أو معلم
أو قاض أو نجيل . وكتب الأدب العربي تمتلئ بهذين النوعين من كتب النوادر ، وهي كثيرة في
مصر على مدار هذا العصر ، ونكتفي بالحديث عن كتاب من المجموعة الأولى وكتابين من المجموعة
الثانية .

كتاب المكافأة

مؤلف هذا الكتاب أحمد (٢) بن يوسف المعروف باسم ابن الداية كانت أم أبيه يوسف بن
إبراهيم داية لإبراهيم بن المهدي عم المأمون فنسب إليها . وظل يوسف في خدمته حتى توفي ،
ويبدو أنه كان مثقفا ثقافة متنوعة ، مما جعل بعض ولاية العباسيين بمصر يستكبه في ديوانها ،
واستقر مقامه بها هو وأسرته منذ سنة ٢٢٦ للهجرة . ويروى أنه صنف كتابا في أخبار أصحاب
الطب ، مما يؤكد أنه كان على صلة بعلوم الأوائل . ورزق بابنه أحمد ، وعُني بتثقيفه ، مما أهله
ليعمل كتابا في دواوين الدولة الطولونية وليكتب سيرة أحمد بن طولون وابنه غارويه وليس ذلك
فحسب ، فإنه وصله بعلوم الأوائل وبرع فيها وخاصة في الطب والرياضة والفلك وأيضا في
الفلسفة . ويسوق له مترجموه كتابا في أخبار الأطباء وكتابا في النسبة والتناسب وكتابا في الأقواس

ولستوعب ابن سعيد في كتابه المغرب (قسم الفسطاط)

كتاب من سيرة أحمد بن طولون وابنه غارويه . وكتاب
المكافأة طبع مرارا .

(١) يوم الثناء : يوم القيامة

(٢) انظر في أحمد بن يوسف معجم الأدباء ١٥٤/٥

وتاريخ الحكماء للقفطي (مختصر الزوائد) ص ٧٨

المثالة ، كما يسوقون له كتاب مختصر المنطق وكتاب السياسة لأفلاطون ، وشرح كتاب الفرة في الفلك لبطليموس . وقد توفي سنة ٣٤٠ .

وتؤكد سيرة أحمد بن يوسف وسيرة أبيه أنها كانا من أصحاب المروءات ، وكانا بحسان تميز أموالهما في التجارة والزراعة ، فأغدقا كثيرا على كل من رأياه تلم به كارثة أو يترل به خطب من الخطوب . ولعل هذا الجانب في أحمد بن يوسف هو الذى جعله يؤلف كتابه « المكافأة » . وهو في ثلاثة أقسام : قسم يضم إحدى وثلاثين نادرة أو حكاية قصيرة تدور حول مكافأة الجميل بالجميل ليرغب في عون المنكوب ومد يد المساعدة إليه ، وحتى يكافئ الإنسان جميلا بجميل بماله . ويعرض ذلك في النوادر عرضا جذابا بما يذكر من نوادر وقعت في أيامه وغير أيامه في مصر وغير مصر . ويتلو هذا القسم بقسم ثان يضم إحدى وعشرين نادرة أو حكاية قصيرة تصور كيف أن مكافأة القبيح تستبج قيحا مثله ، حتى يردع أهل الشر والسوء ، ويكفوا عن سوتهم وشرهم لما يجترآن من أوتخم العواقب . والقسم الثالث يضم تسع عشرة نادرة أو حكاية قصيرة وهى تصور حسن العُقى وكيف أن أناسا تورطوا في شر أو بلاء ونجوا منه . والكتاب بذلك دعوة حارة إلى عمل الخير بضرب أمثلة بديعة من النوادر والحكايات القصيرة . وهو مكتوب بفصحى جزلة ناصعة ، إذ كان أحمد بن يوسف من كتّاب زمنه البارعين . ويبدو أنه قصد به إلى أن يشع في الشعب ، ولعل ذلك هو السبب في أننا نراه يقترب من لغته اليومية ، إذ تدور فيه صيغ وتعاير لاتزال تجرى على ألسنتنا في الحياة اليومية من مثل :

كاد والله يموت فرحا - كثر الله في الناس مثله - حصلنى على الباب أى لحقنى - اعتذرت إليه من تقصيرى في حق - امرأة تُطلق (أى أصابها المخاض) - ست (أى سيدة) - امرأة مقربة (أى قريت ولادتها) . واستخدم قليلا مدّ تاء المخاطبة بحيث تتولد من الكسرة ياء فقال على لسان تاجر يكافئ سيدة على جميل : « هذا جزاء ماقد متبه » كما نقول في عاميتنا المصرية . واستخدم أيضا مطابقتنا في العامية بين الفعل والفاعل في الجمع فقال : « اشتها على صياني حلواء في العبد » والفصحى أن يقال « اشتهى على صياني » . ويكثر من الاستفهام في الجمل دون ذكر أداة من أدوات الاستفهام كما نصنع أيضا في عاميتنا . وكثير من نوادر الكتاب واسع الدلالة التاريخية على زمن المؤلف وجوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بجانب دلالاته القيمة على الأسلوب الأدبى في مصر حينئذ ، وما كان يستخدم فيه من عبارات لاتزال حية إلى اليوم .

أخبار سيويه المصرى

ألف هذا الكتاب ابن^(١) زولاق الحسن بن إبراهيم المولود سنة ٣٠٦ والمتوفى سنة ٣٨٧ وقد جمع فيه نوادر رفيق له فى الدراسة هو محمد^(٢) بن موسى الكندى المعروف باسم سيويه المصرى ، ولم يكن عالما بالنحو فحسب بل كان عالما أيضا بالقراءات والفقه وعلوم الحديث ورواية الشعر ، وكان غفيا متسكبا اجتمعت فيه أدوات الأدباء والفقهاء والعباد ، وبلغ فى ذلك - كما يقول ياقوت - مبلغا جالس به حكام مصر ، وكان يقدمهم نقدا يحمله كثيرا من السموم ، ولم يكن يخفيه بل كان يعلنه فى الأسواق وعلى رهوس الأَشهاد ، وكان الناس يتبعونه يكتبون نقده ، ويروونه فى المجالس العامة والمساجد والمنزهات . ومازال هذا دأبه حتى توفى سنة ٣٥٨ مع نهاية الدولة الإخشيدية . وكان ابن زولاق مؤرخا كبيرا ، ويقول ابن خلكان له كتاب فى خطط مصر استقصى فيه ، وله كتاب أخبار قضاة مصر جعله ذبيلا على كتاب الكندى : أخبار قضاة مصر ، وكان قد انتهى فيه إلى سنة ٢٤٦ ، فكله ابن زولاق إلى سنة ٣٨٦ ، وله كتاب فى سيرة الإخشيد اعتمد عليه ابن سعيد فى قسم القساطر من كتابه « المغرب » .

ويسوق ابن زولاق فى كتابه أخبار سيويه مشاهد مختلفة لنقد سيويه للحكام وللناس فى عصره ممزوجة بشئ من التباه ، ولم يكن ينقد أو يذم بلفظ قبيح ، إنما كان يزجر وينهر بألفاظ غير قبيحة ولكنها تخر ونخر الإبر ، من ذلك أن الإخشيد كان يركب فى موكب لصلاة الجمعة ، فتصدى له يوما فى أثناء ركوبه إلى الصلاة والناس محشدون لرؤيته فقال بأعلى صوته : « ماهذه الأشباح الواقفة ، والتمائيل الماكفة ؟ سُلِّطَتْ عليهم قاصفة (يوم تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تتبعها الرَّادِقَةُ) قلوبهم (يومئذ واجفة) » فقال له رجل : « إنه الإخشيد يمر إلى الصلاة ، فلم يفرغ ولم يسكت بل قال نوا : « هذا الأصلع البطين » ، المسنن البدن ، قطع الله منه الوتين^(٣) ، ولاسلك به ذات اليمين ، أما كان يكفبه صاحب ولا صاحبان ، ولا حاجب ولا حاجبان ، ولا تابع ولا تابعان ؟ لا قَبِلَ الله له صلاة ولا قبل له زكاة ، وعمرَ يحته القلاة » .

(٢) راجع فى سيويه المصرى معجم الأدباء ٦١/١٩

(٣) الوتين : الشريان الرئيس الخارج من القلب .

(١) انظر فى ابن زولاق معجم الأدباء ٢٢٥/٧ وابن

خلكان ٩١/٢ ولسان الميزان لابن حجر ١٩١/٢ حيث يقول إنه كان يتولى المظالم للفاطمين ويظهر التشيع لهم .

وكان سيويه المصرى يستخدم السجع دائما فى نقده أو قل فى هجائه للحكام ، ويوشيه بآية أو آيات قرآنية على نحو مأمُرُ بنا آنفا أو بحديث نبوى . وكان يسوق مثل هذا الهجاء فى أثناء وعظه للناس ، إذ كان واعظا كبيرا . والناس يضحكون لتنفيسه عنهم ما كان يقع عليهم من ظلم الحكام لزمته فيضحكون ويفرقون فى الضحك . وكان بعض الحكام والوزراء يقرّبه ويحاله أملا فى أن لا يكوهم أمام الشعب بباطله . ورأى أبا الفضل جعفر بن القرات يسير فى موكب كبير وكان قد تولى الوزارة ، فقال : « ما بال أبى الفضل قد جمع كتابه ، ولقّن أصحابه ، وحشد بين يديه حجاجه ، وشمر أنفه ، وساق الصاكر خلفه ؟ أبلغه أن الإسلام طُرِق فخرج ينصره ، أو أن ركن الكعبة سُرِق فخرج لهذا الأمر ينكره ؟ » . ومع أن سيويه كان يصوغ نواته فى هذه القصص المسجوعة نجد عنده بعض ظواهر من عاميتنا أو لغتنا المتداولة ، من ذلك أنه كان يعيد الضمير لغير العاقل مع الفعل مجموعا فى مثل : « فجاءت فراريج فلقلطوا ما بين يديه » والقصيح فلقلطت ما بين يديه . وكان أسلافنا سبقونا إلى ذلك فى لغتهم اليومية منذ مئات السنين .

كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش

ألف هذا الكتاب ابن ممانى الذى مرت ترجمته ، وقد قصّ فيه طائفة من النوادر نسبها إلى قراقوش ^(١) التركى أحد قواد صلاح الدين الأيوبى . وكان قد أنابه عنه مدة بالديار المصرية وقوّض أمورها إليه ، وهو الذى بنى السور الذى كان يحيط بالقاهرة ، وبنى قلعة الجبل والقناطر فى طريق الأهرام . وكانت فيه شدة وقسوة ، كما كانت فيه غلظة وغير قليل من الحق ، فانتز ابن ممانى ذلك فيه ، وألصق به طائفة من النوادر فى أحكامه جمعها فى كتابه « الفاشوش » ^(٢) فى حكم قراقوش . ويدافع عنه ابن خلّكان قائلا : فى الكتاب أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة فإن صلاح الدين كان معتمدا فى أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما قوّضها إليه .

ويبدو أن قراقوش قصّا فى تسخير المصريين فى بناء السور والقلعة والقناطر المذكورة ، فانتقم لهم ابن ممانى منه بهذا الكتاب الذى وضعه عليه . وهو يستهله بقوله : « إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش حُرْمَة فاشوش ، قد أتلّف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غُمة ، لا يقتدى بعالم ،

(١) انظر فى قراقوش ابن خلّكان ٩١/٤ والنجوم الزاهرة (٢) راجع فى تحليل هذا الكتاب مقالا لنا فى مجلة الكتاب

ولا يعرف المظلوم من الظالم والشكبة عنده لمن سبق ، ولا يبتدى لمن صدق ، ولا يقدر أحد من عظم منزله أن يرُدُّ كلمه ويشنط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان ، صنت هذا الكتاب لصالح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين . . ويأخذ ابن ممانى فى سرد أحكام قراقوش المضحكة . من ذلك أن سيدة سوداء شكت لقراقوش جارية مملوكة لها ، فعجب أن تكون امرأة بيضاء خادمة لسيدة سوداء ، فردَّ شكواها مؤمنا بأنها ليست السيدة بل هى الجارية ، والجارية البيضاء هى السيدة ، وهمُّ بحبسها لولا أن شفت فيها جارتها فعفا عنها . ومن ذلك أن رجلين من أصحاب اللحى الطويلة جاءه يشكوان إليه رجلا أبرد كان يعبث بلحيتيهما ، ونظر قراقوش إلى الرجل فلم يجد له حجة حينئذ صرخ فى الرجلين قائلا : إنهما اللذان اعتديا عليه بتف لحيته ، وصاح فى غلمانه أن يزجوا بالرجلين فى غياهب السجون حتى ينبث الشعر فى ذفر الرجل وتطول لحيته . ومن ذلك أن الشرطة جاءته بحدادٍ له قتل نفسا محرمة بغير حق ، فأمر بشنقه فقبل له إنه حدادك الذى يتعلَّ لك القرس ، فنظر أمام بابه فرأى رجلا قفاصا فقال : « اشنقوا القفاص وسبِّبوا (اتركوا) الحداد . وعلى هذا النحو يصور ابن ممانى قراقوش متصرفا فى القضايا بحكم ما بعده حق ، ونضحك للتضاد بين المقدمات والنتائج ، تباينا يفسح فيه المنطق ، فسيدة تدخل شاكية لخادمتها ، فتخرج خادمة والخادمة تصبح سيدتها ، ورجل يدخل بدون حجة ، فيخرج وله حجة تُنتف ، أو قل يدخل جانبنا ويخرج مجنبا عليه ، وقاتل يبرأ وبرىء يقتل .

وما نظن أحدا فى مصر قديما بلغ من التشهير بحاكم ما بلغه ابن ممانى من التشهير بقراقوش وأحكامه بين الناس عن طريق هذه النوادر الشعبية التى اختار لها لغة المصريين الدارجة لزمته قاصدا بذلك أن تشيع بين العامة ، وهى فعلا شاعت أكبر شيوخ وأوسع فى مدن مصر وريفها ، فكلما اشتكوا من حاكم وظلمه قالوا : « حكم ولا حكم قراقوش » .

وأضافت الحقب التالية إلى شخصية قراقوش نوادر مضحكة بجانب ما فى كتاب الفاشوش من نوادر كثيرة ، مما جعل السيوطى يؤلف كتابا يستمر له اسم كتاب ابن ممانى ، مضافا فيه إلى قراقوش نوادر جديدة . وكأنما أصبحت شخصية قراقوش فى الأزمنة التالية شخصية خيالية لكل حاكم أحق بخلط حقه بظلمه . وأكبر الظن أن كلمة قراقوش التى تطلق فى تركيا والشام على خيال الظل وتصويره للحكام الظالمين الحقيقى ترجع فى اشتقاقها إلى اسم قراقوش لا إلى ما يقال من أنها مؤلفة من لفظتين تركيتين هما « قره » أى أسود و« قوز » أى عين وبذلك يكون معناها العين

السوداء لأن من كانوا يعرضون هذه اللعبة بتركيا كانوا من الفجر الجوالين ، غير أنا نرجح الرأي الأول . وقد دخلت الكلمة ثانية إلى مصر باسم « أراجوز » .

هز (١) القحوف

نمضى إلى زمن العثمانيين بمصر فنجد عالما واعظا يسمى يوسف الشربيني يصف حال سكان الريف المصرى وما نزل بهم لعهد العثمانيين من البؤس والفقر والفسك والجهل في قصيدة يسميها « قصيدة أبى شادوف » وشرح لها يسميه « هز القحوف » وقد ملأ الشرح بنوادر فكاهية عما كان يعانيه أهل الريف حينئذ من الأمية والجهل وبطش الكاشف أو حاكم الإقليم وظلمه وما كان يصلهم من السخرة وما كانوا يرزحون فيه من المسغبة فإن طعموا لم يطعموا إلا العدس وطعاما يتخذ من الفول يسمى اليسار واليسر العتيق ، ومعاذ الله أن يطعموا شيئا وراء ذلك من لحم وغير لحم . ويقول عن أبى شادوف الثرى الربى صاحب القصيدة إنه لم يكن يملك سوى حمار أعرج وعزنتين وحصاة في ثور الساقية ونصف بقرة وعشر دجاجات وديك وأربع كبلات من نخال الشعير . ويفيض الكتاب بنوادر لاذعة تحمل في أطوائها كثيرا من الطعنات لحكم العثمانيين الفاشم وسوآته .

(ب) كتب السير والقصص الشعبية

كثرت في مصر منذ أيام الفاطميين كتب قصص الأنبياء مجموعة أو مفردة : قصة لموسى وقصة يوسف عليها السلام أو لغيرهما من الأنبياء وخاصة إبراهيم الخليل . ومر بنا في الحديث عن كتابة التاريخ في الفصل الثانى بيان لبعض ما كُتب في السيرة النبوية ، ومنذ الحروب الصليبية كثرت الكتابة في ميلاد الرسول ﷺ وما لقنن به من خوارق وحياته وما راقها من معجزات ، وكان ذلك يكتب نثرا وتخلطه أشعار باسم « المولد النبوى » . وعادة كان هذا المولد يلقى في الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول ، وكانت تلقى معه « قصة الإسراء والمعراج » الإسراء برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى والعروج به إلى السماء . وقد أصبح من الثابت أن دانق تأثر تأثرا واضحا بهذه القصة الأخيرة في الكوميديا الإلمبية^(١) ويحارب هذا القصص الدينى الذى لا يزال كثير منه مخطوطا

(١) انظر في تحليل كتاب هز القحوف مقالا لنا في مجلة (٢) راجع تاريخ الفكر الأندلسى لبالنبا ترجمة الدكتور الكاتب المصرى عدد يناير سنة ١٩٤٧ ص ٧٢٩ .
 حسين مؤنس ص ٥٥١ - ٥٦٤ .

ومحفوظا برفوف دار الكتب المصرية قصص كثير محفوظ بتلك الرفوف عن العشاق العذريين .
ونعرض الآن طائفة من السير والقصص الشعبية التي ألقت في مصر - أو أخذت بها شكلها
النهائي - وهي سيرة عنزة والسيرة الملالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة .

سيرة ^(١) عنزة

أساس هذه السيرة أخبار عنزة في الجاهلية وما جاء فيها من أنه كان ابن أمة ومن أنباء فروسته
وحبه لعلبة ابنة عمه . ويتحول عنزة في السيرة بطلا عظيما للمحمة عرية تمتد فيها بطولاته من
العصر الجاهلي حتى نهاية القرون الخمسة الأولى للإسلام . ويقال - طبقا لرواية في أول كتاب منية
النفس في أشعار عنزة عبس - إن أول كتابة لهذه السيرة كانت في أيام العزيز الخليفة الفاطمي
(٣٦٥-٣٨٦هـ) إذ حدثت ريبة في قصره جمعت أهل القاهرة يلهجون بالحديث عنها ، فأشار
على شخص يسمى يوسف بن إسماعيل أن يشغل الناس بسيرة تلهبهم عن الكلام فيها ، فألف لهم
سيرة عنزة وشُفوا بها . غير أن هذه الرواية - إن صحت - إنما تشير إلى أول ما كان من وضع
السيرة . إذ أخذت الأجيال تزيد فيها حتى أوائل القرن السادس الهجري ، وحتى أصبحت في اثنين
وثلاثين جزءا ، وهي منشورة في أربع مجلدات . ولا تمتد فيها سيرة عنزة في الزمان فحسب ، بل
تتمتد أيضا في المكان ، إذ تشمل ساحات بطولات عنزة العالم القديم : الهند وفارس ومصر والشام
وجنوب أوروبا وشمال إفريقيا والحشة والسودان . وهي موزعة بين نثر وأشعار ، مما أتاح لرواتها من
قديم أن يشدوها الناس على الرابطة في حفلات كانت تعقد لها . وقد كتبت بلغة تدنو دنوا شديدا
من اللغة اليومية ، وصيغت صياغة قصصية جذابة بحيث يقطع الكلام في كل جزء من أجزائها
عند حادث مهم . وبذلك يشغف القارئ والسامع بمعرفة الجزء الذي يليه . وهكذا حتى نهايتها .
وتسع السيرة في عرض أخبار الجاهلية حتى نصل إلى زمن زهير ملك بني عبس قبيلة البطل ، وتعرض
السيرة مولد عنزة وبطولته في صباه وشبابه وحبه لابنة عمه وحمايته لقييلته ضد القبائل المنافسة
لها وما فرضه عليه عمه لقاء زواجه ببلبة من أعمال شديدة الخطر جسّمت الرحلة إلى العراق وملازمة

(١) انظر في سيرة عنزة وترجماتها وما وضع فيها المستشرقون

من بحوث دائرة المعارف الإسلامية

ملوك الحيرة ووفوده على إيران وتعرفه بملوكها وفي مقدمتهم كسرى وما كان من طلبهم منه العون في منازلة بطل إغريق .

وبصبح عنزة حاكما للشام ويفد على القسطنطينية ويقود مع إمبراطورها حروبا ضد الفرنجة ويبلغ إسبانيا ويخترق شمال إفريقيا إلى مصر ويستعين به ملك روما ضد بوهمند ويقتله ، وهو أحد أمراء الحروب الصليبية الأولى وكان نورمانديا إيطاليا ، وكان المؤلف الأخير للسيرة كان يعرف أصله وموطنه . ومعروف أن الحملة المذكورة نزلت آسية الصغرى سنة ٤٩٠ للهجرة ولذلك نقول إن ميادين السيرة وساحاتها البطولية تمتد حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، وليس بوهمند فقط الوحيد من أمراء الحملة الصليبية الذى بلغنا في السيرة ، إذ بلغنا فيها أيضا زواج عنزة من أميرة إفريقية وإنجابها منها الجوفران وربما كان تحريقا لجودفرى صاحب بويون دوق اللورين الأدنى الذى استولى على بيت المقدس سنة ٤٩٢ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه بلدوين . وبطولات عنزة في السيرة تسع لا تشمل ميادين الحروب الصليبية والبلاد الأوربية فحسب ، بل أيضا لتشمل الهند والسودان وبلاد النجاشي ، وعرف عنزة أنه جد أمه زيبية . وكل من يقرأ السيرة يرى أن أجيال المؤلفين التى تداولتها كانت أجيالا بصرية بتاريخ العرب في الجاهلية وما اتصل بها من قصة إبراهيم الخليل وتاريخ العرب في الإسلام وفتراتهم العظيمة وتاريخ الفرس وملوكهم وبلاطهم وآدابهم وتاريخ الحروب الصليبية وطقوس النصارى وشعائهم وأعيادهم . والسيرة ملحمة رائعة للبطولة العربية التى مثلها عنزة أروع تمثيل فى أكثر من خمسمائة عام ومثل معها فضائلها النبيلة التى نقلها الصليبيون إلى ديارهم . وقد تخللت السيرة أحلام وروى وأساطير وخوارق عجيبة .

السيرة (١) الملالية

تروى هذه السيرة حروب مستمرة بين بنى هلال ومن دخل معهم من قبائل زغبة وسلم ورياح وعدى وديعة والأبجج إلى إقليمى طرابلس وتونس وشمال إفريقيا ومن كان بهذه الأقاليم من الصنهاجين وزناتة وغيرهم من القبائل المغربية المستوطنة . وكانت القبائل العربية المذكورة قد

١- الملالية والقرناتية ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية وكتابا في السيرة الملالية لعبد الحميد بن يوسف .

(١) انظر في السيرة الملالية الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون (طبع بولاق) ص ٦٢ وكذلك الجزء السابع ص ٤٣ وأواخر مقدمة ابن خلدون حيث روى بها لشعرا

حاربت مصر لعهد المعز أول الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٠ تحت لواء الأعصم القرمطي . وكان قد استولى على دمشق والرملة ودخل مصر والتقى بالجيش الفاطمي في عين شمس بالقرب من القاهرة وكاد يُكْتَبُ له النصر لولا خروج بعض قواده عليه وانضمام القبائل سافلة الذكر إلى الجيش المصري . وبذلك دارت عليه الدوائر فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين موطنه . وأسكن المعز تلك القبائل القبية الصعيد ، لعله يمكن الانتفاع بها في المستقبل . وحانت الفرصة لذلك في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) إذ خرج عليه المعز بن باديس الصنهاجي صاحب تونس والقيروان سنة ٤٤٣ وأعلن العودة إلى المذهب المالكي السني وتبعية للخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وانفصل بذلك الجناح الغربي للدولة الفاطمية ولم تقم للمذهب الشيعي الفاطمي قائمة في تلك الأنحاء منذ هذا التاريخ . واستشاط المستنصر غضبا ، وأشار عليه وزيره اليازوري أن يسلط عليه القبائل القبية النازلة بالصعيد منذ أيام جده المعز ، فاتصل بشيوخهم ووعدهم أن تكون ديار طرابلس وتونس وكل ما تحت يد المعز إقطاعا لهم وأيضا كل ما يمتلكونه من بلاد المغرب وسرغان مآبته جمعهم ، وخرجت إلى المغرب : إلى تونس وإفريقية ، واستولت في سنة ٤٤٣ على برقة بزعامة يحيى الرياحي وتملك بنوزغة في سنة ٤٤٦ طرابلس ، وانجهدت هلال ورياح والأبيض وعدى إلى إفريقيا وأضرموها نارا بقيادة زعيمهم مؤنس بن يحيى الرياحي وحاول المعز بن باديس أن يقربه منه مجزلا له العطايا ولم يغن ذلك عنه شيئا . ونازل تلك الجموع ودحرته وأنزلت به هزائم متوالية ، مما اضطره أن يخل لهم القيروان وأن يكتفي بالمهدية وبلدان صغيرة حولها . واكتفى بها من بعده ابنه نجم الذي حكم بعده إلى نهاية القرن الخامس . وأخذت تتضخم الإمارة بينا تحول إقليم تونس والجزائر إلى إقطاعات صغيرة يحكمها هلاليون أو زياتيون إلى أن أعادت دولة للموحدين إلى شطر كبير من المغرب وحدته .

ويبدو أنه حين ارتضت هذه القبائل القبية هجرتها إلى المغرب أرسلت إلى عشايرها في الجزيرة العربية أن تقدم عليها لتشاركها في هذه الهجرة الكبيرة وأن عشاير فلاليت دعوتها ، يدل على ذلك أننا نجد القاصد للسيرة أو قصاصها استغلوا فيها قصة فتاة جميلة من بني هلال هي الجازية بنت الحسن بن سرحان عشقها فتى من عشيرتها وأراد الزواج منها وتصادف أن أمير مكة شكر بن أبي الفتح (٤٣٠-٤٥٣هـ) رآها وأعجب بها ، وطلب يدها من أبيها فأقره على عشيقها ، وزوجها منه . ثم حدث أن أغضب شكر عشيرتها ، ورأوا الانتقام منه فاحتالوا عليه لأخذ الجازية وحرمانه منها ، فادعوا أنهم يريدونها لزيارة أبيها في نجد ، حتى إذا قلمت معهم

مضوا مع أيها في الرحلة إلى إفريقيا ، وهناك زُوجوها من ابن عمها ولكن قلبها ظل معلقا بزوجها الأول حتى ماتت من شدة هيامها وحبها له . وهى قصة صحيحة في أصلها المتصل بشكر أمير مكة وزوجه الجازية ، مما يدل على أن عشائر هلالية من الجزيرة قدمت على بنى هلال بالصعيد أو بعد تركهم له مباشرة وواصلت بدورها الهجرة إلى المغرب .

والأساس في السيرة تاريخي صحيح وهو هجرة بنى هلال ومن معهم من القبائل القيسية إلى المغرب واستيلائهم على بعض مدنه ، غير أن الأحداث بعد ذلك تمضى وكأنها أضغاث أحلام لتلك الهجرة الكبيرة إذ سُمى القصاص بطلها أبا زيد الهلالي وسُموا خصمه في قبيلة زناتة : الزناني خليفة . وبذلك غابت عن السيرة قبيلة صنهاجة وأميرها المعز بن باديس الصنهاجى ، كما غاب زعيم القبائل بجى الرياحى وابنه مؤنس . وقد يرجع ذلك إلى أن القاص أو القصاص الذين وضعوها كانوا بمصر بعيدين عن ساحة الأحداث أو ساحاتها فبدت وقائعها وكأنها أخلاط أحلام ، بما في ذلك اسم بطلها العربيين الخياليين : أبى زيد الهلالي ودياب بن غانم الزغبى . وأغلب الظن أن ذلك يرجع إلى أنها تأخرت في وضعها طويلا عن زمن أحداثها ولذلك كنا نظن أنها ألُفَت في القرن السابع الهجرى أو بعده في القرن الثامن وهى مكتوبة باللغة اليومية : شعرا ونثرا ، وقد تعلق بها الشعب المصرى في ريفه وحضره ، وعادة كان يلقيها على الناس منشدا على رابية في المقاهى والحفلات ، يسمونه الشاعر . وللسيرة ثلاث مراحل : مرحلة الريادة إلى بلاد المغرب ، وفيها يرود الطريق بطلها الخيالى أبو زيد الهلالي وأبناء أخته بجى ومرعى ويونس وفى تونس يُلقَى بهم في غياهب السجون ، ويستطيع أبو زيد الفرار من السجن ويستنفر القبيلة لتخليص أبنائها الثلاثة . والمرحلة الثانية تسمى التفرية وفيها تهاجر القبيلة إلى تونس وتمكنها سعدى ابنة ملكها الزناني خليفة من دخولها وتفك القبيلة الأسرى الثلاثة . ويأخذ الحسن بن سرحان القيروان ودياب تونس وأبو زيد الأندلس ويستولون على قلاع كثيرة حتى يصلوا إلى أقصى المغرب . والمرحلة الثالثة خاصة بأبناء الأبطال ويسمون الأيتام ، وفيها يجمع زيدان بن أبى زيد الهلالي العرب من الشام والحجاز ويلتقى بهم في صعيد مصر ويرحل معهم إلى تونس ويشدد الحصار عليها وعلى أميرها دياب بن غانم الزغبى ويوافيه الهلالية من الأندلس ويفتحون جميعا المدينة ويقتلون دياب بن غانم . ويتنازل الهلالية عنها لابن الزناني خليفة ويتأثر على الهلالية ابن الحسن بن سرحان ، ويعود زيدان الهلالي إلى صعيد مصر ، كما يعود الهلالية الذين قدموا من الأندلس إليها . وبذلك تنتهى السيرة ، وهى تمتلئ بانطباعات مصرية كثيرة .

سيرة الظاهر بيبرس^(١)

كان طبيعياً أن يضع المصريون سيرة شعبية طويلة للظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التي لم تقم بعدها للتار قائمة . بل لقد ولوا الأدبار إلى الشمال في الشام وبيبرس يلاحقهم حتى انجسوا شرقاً إلى شمالي العراق . وبمجرد استيلائه على الحكم في مصر سنة ٦٥٨ أخذ يثبت حكمه باستقدامه أحد سلالة العباسيين ، وكان من أبناء الخليفة العباسي الظاهر ونجا من مذبحة المغول ببغداد ونزل دمشق ، فاستدعاه بيبرس إلى القاهرة ، وبايعه بالخلافة ، وبذلك أصبح بيبرس حامياً لها . وتبعه في حمايته سلاطين المماليك إلى أن أخذ السلطان سليم العثماني فاتح مصر الخليفة العباسي معه إلى القسطنطينية . وكان بيبرس سيواسا حازماً وقائداً ماهراً فاتسع بدولته في الجنوب ببلاد النوبة ودانت له القبائل في ليبيا ، وهزم التار على الفرات في غير معركة وأوقع بالأرمن خسائر فادحة ، وكال للصليبيين ضربات قاصمة ، واستولى على كثير من قلاعهم وحصونهم ، ودان له الحشاشون الفدائيون داخل الشام بالطاعة . وتعدّ أبامه أزهى أيام مصر زمن المماليك وأعظمها ازدهاراً ، لذلك كان من الطبيعي أن تؤلف عنه سيرة شعبية ، وهو فيها بطل عرني يسمى « محمود بيبرس » وقد مثلوا فيه القروسة العربية ومظاهرها الباسلة وخاصة في حروبه مع الصليبيين .

ولغة السيرة عامية والنثر يغلب فيها بالقياس إلى الشعر ، ولذلك لم تكن تُنشد ، بل كانت تُروى ، وتنسب إلى أربعة رواة أصليين هم ابن الديناري وكاتم السراي كاتب السروناتر الجيش والصاحب والدويداري (تحريف للدودار) وهو الأمين الخاص للسلطان . وتتداخل في السيرة قصص طويلة كقصّة إبراهيم الحوراني ورحلته إلى روما . وتتحدث السيرة عن نشأة محمود بيبرس وعلاقته بالسلطان الأيوبي نجم الدين الملقب بالملك الصالح وماعهد إليه من الأعمال ، وصلته بشجرة الدر وأبيك وقطر . ونصف جلوسه على عرش مصر وامتداد حروبه وساحات بطولته إلى أوروبا ، وتعرض أعاله وإخضاعه الفدائيين الحشاشين المشهورين بكثرة اغتيالهم منذ زعيمهم الحسن الصباح ، وتذكر من زعمائهم جمال الدين شيهه ، ولعله صاحب القبر المعروف باسمه في دمياط . ومن أبطال السيرة معروف زوج مريم الزنارية النصرانية وقد أنجبت منه ابناً حاربته قبل أن

(١) انظر هذه السيرة تحت كلمة بيبرس في دائرة المعارف الإسلامية ،

يعرفه . ويبدو أن هذه السيرة لم تكتب في عهد قريب من الظاهر ، لأن الأحداث التاريخية وأسماء الأبطال سوى الظاهر يشوبها كثير من الخيال وتخل بأساطير وأعمال خارقة للعادة ، ونرجح كتابتها بعد القرن السابع وقد تكون كتابتها تأخرت إلى القرن التاسع الهجرى .

سيرة ^(١) سيف بن ذى يزن

قصة شعبية مصرية طويلة ، تعرض بطولة سيف بن ذى يزن لسليل ملوك حمير ، وهى تصور الصراع بين العرب والأحباش في أواخر العصر الجاهلى . وكيف طردهم سيف بن ذى يزن من الجزيرة العربية بعد أن كانوا قد سيطروا على اليمن . وهى في ١٧ جزءا وتحمل كثيرا من الأساطير والعجائب ومغامرات سيف بن ذى يزن في سبيل استقلال بلاده ، وبذلك تأخذ السيرة مكانة في التاريخ القومى العربى ، إذ موضوعها حرب بين العرب وأمة الأحباش الأجنبية. وتجعل السيرة سيف بن ذى يزن حنيفا يقتحم معازل الشرك وهو يقول إنما لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله ، ويغلب أن تكون قد ألقت بمصر في القرن الثامن أو التاسع للهجرة .

ألف ^(٢) ليلة وليلة

ذكر ابن النديم في كتابه « الفهرست » : من كتب الأحمار والخرفات التى نُقلت عن الفرس كتاب هزار أفسانه أى ألف خرافة . والمعروف أنه يرجع إلى أصل هندى . ويغلب أن يكون قد نُقل إلى العربية في القرن الثالث الهجرى ، ولا يعرف بالضبط متى أضيفت إلى اسمه وهو ألف ليلة كلمة ليلة الثانية ، ويغلب أن يكون قد أريد بها أن يحوى ليالى كثيرة تزيد عن الألف . وأخذت تضاف إلى الكتاب في بغداد أقاصيص كثيرة ، وبالمثل أضافت إليه مصر بدورها أقاصيص متنوعة . ويمكن أن نميز الأقاصيص الهندية الأصل فيه بتدخلها كحكاية الصالحين الثلاثة . وتمييز الحكايات الفارسية فيه بحكايات الظرفاء وبعض الحكايات المفردة . وبه حكايات حرية خالصة كحكاية حاتم الطائي وإبراهيم المهدى . ويشج في الحكايات البغدادية ذكر هرون الرشيد وتكرهه وتدينه البالغ وجهه لمهاج الحياة وللرعية وحب الرعية له ووصف بلاطه وقصوره . وتكثر

كتاب « أصول الأدب » ودائرة المعارف الإسلامية وما ذكرت من مراجع .

(١) راجع في هذه السيرة وماها من تأثيرات مصرية مقال باريه عنها في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر في ألف ليلة وليلة مجلداً لأحمد حسن الزيات في

القصص المصرية في الكتاب وحكايات الشطار بها وما تطبع به من المروءة والفكاهة كما في حكايات علاء الدين أبي الشامات وأحمد الدنف ودليلة المختالة وزينب النصابة ومعروف الإسكافي وعلى الزينقي، ويشيع السحر في هذه الحكايات كما تشيع عادات المصريين، وتصور حياتهم في الأسواق والحمامات وما يظلب عليهم من الإيمان بالطلاسم والرق والتعاويذ. ونلتقي بجوانب من هذا كله في حكايات مصرية أخرى كحكاية أبي قير وحكاية أبي صبر ومثلها حكاية الصباح العجيب وأيضاً حكاية مريم الزنارية وحكاية الصميدى وزوجته الإفرنجية وهما تعكسان الصراع بين المسلمين وحملة الصليب. وأهم من كل ما سبق لمصر في الكتاب أنها هي التي صاغته بلفتها العامة وانتشر بها في العالم العربي منذ القرن الثامن الهجري، وبالمثل انتشرت فيه بتلك العامة السَّير الشعبية: سِير عنبرة والهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذي يزن. وكان لذلك أثر واسع في تعرف تلك البلدان على العامة المصرية من قديم. وكثيرون يظنون أن تعرف تلك البلدان على عاميتنا أو لفتنا اليومية حديث، وأن الإذاعة والسينما أتاحتا لها هذا التعرف في عصرنا، وهو - كما قلنا - تعرف قديم.

خاتمة

تحدثت في هذا الجزء عن تاريخ الأدب العربي بمصر في عصر الدول والإمارات، ورأيت أن أضُم إلى العصر ما سبقه بها منذ الفتح العربي من مختلف شئونها التاريخية والأدبية والعلمية على مر الأزمنة الإسلامية، وأوضحت كيف أن قبط مصر رحبوا بالعرب لما كفّلوا لهم من معتقداتهم الدينية وما رفعوا عنهم من ظلم الروم وضرائبهم الفادحة. وتولى أمرها فاتحها العظيم عمرو بن العاص، وتعاقب الولاة عليها في زمن الأمويين وأخذوا يفرضون على أهلها ضرائب استثنائية، وأمر الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز برفعها عن كواهلهم. وتتحول الخلافة إلى العباسيين ويرسلون إلى مصر بولاتهم حتى إذا انتصف القرن الثالث ولها أحمد بن طولون وأسس بها الدولة الطولونية، واستشعرت مصر في عهدها استقلالها، وبالمثل في عهد الدولة الإخشيدية. ومايكاد ينتصف القرن الرابع حتى تتولاها الدولة الفاطمية الإسماعيلية، وظل المصريون منصرفين عنها وعن مبادئها الشيعية المتطرفة، وتضعف دولتهم وينزل الصليبيون الشام، ويؤسسون دولة لهم في بيت المقدس. ويدور الزمن دورات وتسقط الدولة الفاطمية، ويتولى مصر صلاح الدين الأيوبي، وينازل حملة الصليب ويسحق جموعهم سحقاً في حطين وغير حطين، ويسير سيرته خلفاؤه من حكام الدولة الأيوبية في ضربهم الضربات الماحقة، ويخلفهم الماليك فيسحقون جموع المغول في عين جالوت سحقاً ذريعاً، ويطرودون حملة الصليب نهائياً من الشام إلى البحر المتوسط وما وراءه. ويستولى العثمانيون على مصر لمدة ثلاثة قرون وتصبح بعد أن كانت دولة عظيمة ولاية تابعة للدولة العثمانية.

وقد أتاحت الزروع والبساتين على ضفاف النيل رخاء واسعاً لسكان مصر من قديم. وأعطى هذا الرخاء لحكامها منذ ابن طولون الفرصة واسعة لبناء البيمارستانات والجوامع الكبيرة والقصور الفخمة. وأتاح ثراؤها الضخم للدولة الفاطمية حياة مرفقة بالغة القرف كما أتاح لصلاح الدين أن يعد جيشه بل جيوشه لضرب حملة الصليب ضربات قاصمة، وأيضاً فإنه بنى بالقاهرة قلعة المشهورة ومارستاناً كبيراً سوى ما شُيد من المدارس. وتزدهر الحياة

بصر لعهد المالك وتكاثر الأعياد بها تكاثراً واسعاً وتتسع موجات الغناء وفنون اللهر والتسليه، وارتقى حينئذ خيال الظل وأصبح مسرحاً شعبياً عاماً. وألمت بعد عرض المجتمع في مصر للدعوة الفاطمية الشيعة الإسماعيلية وانصراف المصريين عنها، كما ألمت بالزهد وما كان بمصر من جماعات النساك وكيف أسس ذو النون المصري التصوف الإسلامي ومبادئه الروحية وما يتصل به من الأحوال والمقامات، ويزدهر التصوف منذ زمن الدولة الأيوبية، ويتضح فيه اتجاهان: اتجاه فلسفي يمثل ابن الفارض واتجاه سُني شعبي تمثله الطرق الصوفية، ومن أهمها الطريقة الشاذلية التي أسسها أبو الحسن الشاذلي، وقد تعددت فروعه لعهد المالك تعدداً واسعاً، حتى بلغت أحد عشر فرعاً، ومن أهمها الطريقتان: الوفاية والخلوتية.

ومعروف أن مصر أدت دوراً عالمياً عظيماً في تاريخ الحضارة الإنسانية، ولا تزال أهراماتها الشاهقة تمثل هذا الدور تمثيلاً باهراً، ويدين لها العلم بمعناه العالمي ديناً كبيراً بما أدت له في الهندسة والعمار والطب والرياضة، وتظل جنوتها العلمية متقدمة مهما اقتحم أسوارها من الجيوش المغيرة، على نحو ما هو معروف عنها في عهد البطالمة إذ لم تلبث في أيامهم أن استعادت نشاطها وأخذت ترسل أضيائها في الفلسفة وغير الفلسفة. وما إن يمضي على دخولها في الإسلام نحو قرن ونصف حتى تعود روحها العلمية إلى النشاط وإرسال أضيائها وشررها إلى العالم العربي، على نحو ما هو معروف عن ابنها وَرْش وَحْل المغاربة والأندلسيين قراءته إلى أوطانهم، ولا تزال القراءة الشائعة في المغرب إلى اليوم، وما يلبث الأندلسيون والمغاربة أن يتعلموا لعبد الرحمن بن القاسم تلميذ مالك، ويحملون عنه المذهب المالكي في الفقه. وينزل مصر الإمام الشافعي ويعنى تلامذته المصريون بمذهبه الفقهى والمحاورة فيه، ويأخذونه عنهم تلامذة من الشام والعراق وإيران وينشرونه في بلدانهم. ويكتب مؤرخها ابن عبد الحكم - لأول مرة - تاريخ الفتح بمصر والمغرب، ويحمله عنه المغاربة وأهل الأندلس كما يكتب مؤرخها ابن هشام السيرة النبوية العطرة، ويحملها المؤرخون لها في العالم العربي جميعه مغرباً وغير مغرب.

ويعنى حكام مصر - منذ عهد ابن طولون - بالحركة العلمية وإثرائها ويؤسس فيها الفاطميون جامعة كبرى تسمى: «دار العلم» كما يبنون الجامع الأزهر ويظل جامعة إسلامية

كبرى إلى اليوم، وينشئ بها صلاح الدين الأيوبي خمس مدارس، وينتشر خلفاؤه الأيوبيون والمماليك في إنشاء المدارس بها والإكثار منها حتى ليقول ابن بطوطة الذي زار مصر سنة ٧٢٦ إن أحدا لا يستطيع أن يحيط بحصرها لكثرتها، وكانت المساجد والجوامع - وخاصة الجامع الأزهر - تنافس المدارس في هذه الحركة العلمية، وكانت مصر قد ظلت ملاذا لعلماء العالم العربي غربا وشرقا، وخاصة بعد استيلاء التورمان على صقلية والإسبان على مدن الأندلس وبعد غزو المغول لمصر وإيران والعراق، وأيضا فإنها أصبحت الحامية للثقافة الإسلامية والعربية. وفي كل مجال يلقانا علماءها في الفلسفة وعلوم الأوائل من الرياضيات والطبيعات والطب والجغرافيا، وينهض فيها العلماء باللغة والنحو منذ أوائل القرن الرابع الهجري وتصبح لها مدرسة نحوية يلمح فيها غير نحوي كبير منذ الدولة الأيوبية، ويكثر فيها علماء البلاغة والنقد منذ ابن وكيع التنيسي في القرن الرابع الهجري، ويتكاثر بها علماء القراءات والتفسير والحديث النبوي والفقه بمختلف مذاهبه الكبرى وعلم الكلام، وتؤرخ لكل علمائها الأعلام في العلوم جميعا تأريحا دقيقا. وتنشط الكتابات التاريخية نشاطا واسعا في السيرة النبوية العطرة والتاريخ العام وتاريخ مصر ودولها وتاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية وتاريخ الرجال والعلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء.

وتأخذ مصر في التعرب منذ الفتح الإسلامي، ويدخل كثير من أبنائها في الدين الحنيف، وحتى القبط أو - بمباراة أدق - جميع من بقى منهم على دينه المسيحي يأخذون في التعرب ويتم تعريبهم في القرن الثالث الهجري. ويتصل نشاط الشعر في مصر، ويظل محدودا زمن بني أمية، وزارها في أيامهم بعض الشعراء من نجد والحجاز والعراق، ويتسع نشاط الشعر بمصر في زمن ولاية العباسيين أو يأخذ في النشاط، ويصبح لها شعراء نابهون مثل المعلّ الطائي، وينزلها أبو نواس لمديح الخصب والى الخراج فيها، كما ينزلها أبو تمام لمديح ولاتها ويظل بها فترة. ومن شعرائها في النصف الأول من القرن الثالث ذوالنون المصري الإخميمي مؤسس التصوف، ويشتهر بها في بواكير أيام الدولة الطولونية الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام. ويبدو أن الشعراء تكاثروا في عهد هذه الدولة، يدل على ذلك أنها حين انتهت في أواخر القرن الثالث بكاهها منهم كثيرون حتى ليقول المقرئزي إنه رأى كتابا به اثنتا عشرة كراسة بأسماء الشعراء الذين بكوها، ويعلق على ذلك قائلا: إذا كانت أسماء الشعراء في اثنتي عشرة كراسة فما مقدار شعرهم؟ ثم يقول إنه لا يوجد لأحدهم الآن ديوان واحد،

ومما يؤكد بوضوح ما كان بمصر من حركة شعرية خصبة أن نجد الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ للهجرة يؤلف كتابا في أخبار شعراء مصر.

وينزلها قبيل منتصف القرن الرابع المتنبى ويحدث نزوله بها حركة أدبية واسعة، ويظل الشعراء ينشطون في عهد الفاطميين، ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما يروى من أنه لما توفى ابن كُلس وزير المعز وابنه العزيز رثاه مائة شاعر. وينثر الخلفاء الفاطميون ووزرائهم العطايا والأموال على الشعراء، مما جعلهم يلهبون بالثناء عليهم، ويؤلف بأخرة من العصر الفاطمى الرشيد بن الزبير كتابا في شعراء مصر سباه: «جنان الجنان ورياض الأذهان» سقط من يد الزمن، ويخص شعراءها في القرن السادس الهجرى العباد الأصهباني وزير صلاح الدين الأيوبي بمجلدين في كتابه الخريدة، ترجم فيها لنحو مائة وأربعين شاعرا، ويقد عليها في أواخر أيام الدولة الأيوبية على بن سعيد الأندلسى صاحب كتاب المغرب ويخصها هي وشعراءها وكتّابها وحكّامها ووزراءها وقضاها بستة مجلدات من كتابه ضاع أكثرها، وبقي منها القسمان الحاصان بالفسطاط والقاهرة، وحُققا ونُشرا. وتظل كتب التراجم في عصر المماليك تترجم لكثيرين من الشعراء الناهيين بمصر. وتألفت حينئذ أسماء كثيرين منهم ونُشرت دواوينهم كما نُشرت طائفة من دواوين الشعراء في المهددين الفاطمى والأيوبي. وبقيت من هذا النشاط بقية أيام العثمانيين مما جعل شهاب الدين الخفاجى في القرن الحادى عشر الهجرى يؤلف كتابا في شعراء زمانه سباه: «ريحانة الألبا» خص مصر بالقسم الثالث منه، وملتقى بتراجم كثيرين منهم بعد الخفاجى في كتب التراجم والتاريخ وخاصة تاريخ الجبرى.

ويكثر الشعر الدورى بمصر وتكثر مزدوجاته ومسّمطاته ورباعياته. وتكثر الموشحات وكان شعراء مصر قد أخذوا يتعرفون عليها في أواخر أيام الدولة الفاطمية، ويتصدى لها الشاعر ابن سناء الملك في أيام صلاح الدين والدولة الأيوبية فيضع لها عروضها كما وضع الحليل بن أحمد قديما عروض الشعر العربى على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفس: «دار الطراز». وقد ألحق بدراسته له في الكتاب أربعة وثلاثين موشحة بديعة لكبار الوشاحين الأندلسيين، وأتمها بخمس وثلاثين موشحة له، وبذلك أعد هذا الفن الأندلسى للذيع والانتشار، فأقبل عليه شعراء مصريون وغير مصريين ينظمون فيه موشحات لهم رائعة،

ونفس ابن سناء الملك مضى ينظم فيه عشرات جديدة من الموشحات حتى لنجد السخاوى فى كتابه «سجع الورق المنتخبة فى جمع الموشحات المنتخبة» ينشد له أربعا وثلاثين موشحة. وترجمت لوشاحين مصريين كبيرين هما العزازى وابن الوكيل. وشاعت الموشحات بمصر على ألسنة المتصوفة فى أذكآرهم، ولعل ابن وفاسيخ الطريقة الوفاية فى أواخر القرن الثامن الهجرى وأوائل التاسع ديوان جميعه موشحات صوفية. ويكثر القاضى الفاضل وزير صلاح الدين فى شعره من المحسنات البديعية، ويصبح له فى طريقة استخدامه لها وفى إكتآره من التورية مدرسة يتكآثر أتباعها فى أيام الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر والشام.

ويكثر شعر المديح، ويظل يجرى على ألسنة زمن الولاة أيام الدولتين الأموية والعباسية، حتى إذا أطل مصر عهد الدولة الطولونية تبارى الشعراء فى مديح أحمد بن طولون وفى مقدمتهم الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام الذى مر ذكره آنفا، ومن شعراء تلك الدولة المريمى القاسم بن يحيى شاعر خأرويه. ويشتهر بعده فى زمن الإخشيد سعيد بن فاخر شاعره، ويترجم الثعالبى فى اليتيمة لكثيرين من شعراء الدولة الإخشيدية، وخاصة من التفوا حول المتنبى حين مقامه فى القاهرة مادحا لكافور، ويكثر المديح كثرة مفرطة منذ القرن السادس الهجرى ويكثر شعراؤه النابهن، وقد ترجمت خمسة منهم عارضا روائع مدائحهم، وهم المهذب بن الزهير شاعر طلائع بن رزيك الوزير بأخرة من الدولة الفاطمية، وقد نوه طويلا ببعض انتصاراته على حملة الصليب، وابن قلافس الشاعر الاسكندرى المادح لساور الوزير الفاطمى والمهاجر بشعره إلى صقلية واليمن مادحا رجالاتها مدحا رائعا، والشاعر المبدع ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين ووزيره القاضى الفاضل، وهو أهم شعراء مصر قبل العصر الحديث ويتميز بفرائد بديعة من التصاوير الطريفة والألفاظ الحلوة العذبة، وابن نباتة شاعر المؤيد صاحب حماة والسلطان المملوكى حسن، ويتميز بلفظ سهلة رشيقة مع كثرة التوريات، والشيخ عبداقه الشبراوى شيخ الأزهر فى أيام العثمانيين وله مدائح كثيرة فى ولاتهم.

وينشط الرثاء فى مصر للحكام وكبار الكتاب وأصحاب المناصب العليا فى الدول المتعاقبة، وتكثر الشكوى من الزمن وتقلباته ونوائبه، على نحو ما نجد عند على بن النضر الشاعر الفاطمى ومراثيه وشكواه من الزمن، وعند على بن عرام شاعر أسوان، وله مرثية

بهدية بل مناحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر ناديين موتاهم، وابن النقيب الحسن بن شاور وله شكوى مرة من الظلم والخسف ومن العوز والبؤس، وعبداه الإدكاوى أيام العثانيين، وله مرثية يرثى فيها نفسه ويكيها وقد حمله النعش إلى متواه. وكان للدعوة الفاطمية الإسماعيلية شعراء غلوا في مديح خلفائهم غلوا مَقَاتًا، إذ جعلوهم فوق البشر والبشرية مسبين عليهم بعض صفات الذات العلية، وأهم شعرائهم ابن هاني الأندلسي، وتوج أشعاره في الميز الفاطمي بضلال ما بعده ضلال، وكان شاعرا فذا غير أنه سخر ملكته الشعرية في مديح الميز بصفات إلهية قدسية، بهتان ما بعده بهتان. وعلى شاكلته المؤيد في الدين الشيرازي إذ يجعل الخلفاء الفاطميين في مديحه فوق الطبيعة البشرية ويسبغ عليهم الصفات الربانية. وثالث هؤلاء الشعراء ظافر الحداد وهو مصرى من الإسكندرية، ويلتقط من ابن هاني - الذي صرح في بعض مديحه للأمر بأنه يحاول محاكاته - بعض معانيه مثل فكرة طاعة الخليفة الفاطمي وأنها فرض واجب، كما أخذ عنه فكرة أن الخليفة نور خالص، غير أنه ظل لا يسرف إسراف ابن هاني والمؤيد الشيرازي في إضفاء الصفات الإلهية على الخليفة، ومع ذلك يُعد شذوذا على المصريين في أيام الفاطميين، إذ انصرفوا انصرافا تاما عن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية المنحرفة، وظلوا مثل آبائهم سُنيّين.

ويكثر الغزل مصورا عاطفة الحب الإنسانية عند الشعراء المصريين وقد بثوا فيه حبا متقدّا لا تخبر ناره أبدا بما يصور من اللوعات والصبابة والهيام والوله، ويوج شعر كثيرين يوجد لا حدود له على نحو ما يلاحظ في غزل ابن سناء الملك، ويعم الغزل الوجداني بعض أشعار الغزلين، وكأنما يتأثرون فيه الغزل الصوفي المتنازع المعاصر لهم، ومن أهم شعرائه وأروعهم ابن النبيه، وغزله يتسامى إلى مستوى وجداني رفيع، مما دفع المغنين إلى التغنى به لا في مصر وحدها بل أيضا في كثير من ديار العرب، وتفتت السيدة أم كلثوم ببعض غزله الوجداني المكثف باللهفة واللوعة والركة واللفظ. ولا يقل عنه في الغزل الوجداني روعة البهاء زهير، وكأنما انطبع الوجد الصوفي وأشواقه في أعماق نفسه مما جعل بعض غزلياته تلبس عند الأسلاف بغزليات ابن الفارض وما تحمل من مواجد صوفية. ولابن مطروح صديقه حظ من هذا الغزل المملوء بحرارة الوجد ولوعاته والذي يقطر رقة ودمانة وظرفا. ولبرهان الدين القيراطي غزل وجداني كثير يتمثل فيه هذه الطريقة الغرامية التي يذوب

فيها الحب لوعة وهياما، وتلتقى في أيام العثانيين بالقُسَيْل وما يتميز به غزله من رهاقة الحس ودقته.

ويتكاثر الفخر بدوره : الفخر بالأخلاق النبيلة وبالبأس والشجاعة، ولا بن سناء الملك فيه منظومة رائمة جسّد فيها روحا قوية عاتية: روح بطولة صلاح الدين وجيشه المصرى الباسل وما أذاقا حملة الصليب من دمار وتكليل لا يماثله تنكيل. ومن قديم يسيل الهجاء في ألسنة الشعراء المصريين، وكثيرا ما سلطوا سهامه على الفاطميين ووزرائهم وقد ينحون به أحيانا نحو الدعاية. وتلتقى في الفخر بتميم بن المعز الفاطمي المفاخر بأسرته الفاطمية العلوية فخرا مضطربا يشرر كثير وجهه إلى ابن المعتز الشاعر العباسي وأسرته العباسية، ولطلائع بن رُزَيْك وزير الفاطميين بأخرة من أيامهم فخر كثير بانتصاراته على حملة الصليب. وكان ابن الذرؤي من كبار الهجائيين، وله أهجية في أحذب مليئة بالسخرية الموجهة، ومثله أحمد بن عبد الدائم الشرمساحي، وكان يكثر من هجائه للناس حتى القضاة وعلماء الدين، وعلى شاكلته حسن البدرى المجازي إذ لم يسلم من هجائه أحد حتى المتصوفة.

ويعتق الشعور بجمال الطبيعة على ضفاف النيل وفي وديانه ورياضه وحدائقه نفوس الشعراء منذ المرمي شاعر خاويوه، وتكثر بمجالس الأنس واللهو والفناء والطرب، ويمثل ذلك كله ابن وكيع المشغوف في أشعاره بالطبيعة والحمر، والشريف العقيلي شاعر الطبيعة المصرية غير مدافع، وابن قادوس وكان يشقف بوصف الحمر، ومثله عبد الباقي الإسحاقى أيام العثانيين. وعُرفت مصر بالزهد والنسك من قديم، ويظل شعر الزهد فيها مزدهرا على مر الأزمنة، وكان ذو النون المصرى - كما مر بنا - قد وضع أسس التصوف الإسلامى في القرن الثالث الهجرى، غير أنه لم يزدهر بمصر إلا منذ عصر صلاح الدين الأيوبي، وأخذ يتضح فيه - كما مر بنا - اتجاهان: اتجاه فلسفى مثله خير تمثيل ابن الفارض واتجاه سنى مثله أصحاب الطرق الصوفية وأتباعهم من مثل الطريقة الشاذلية، ومن أتباعها الشعراء أبو الفياض المرسى، وقد ترجمت قبله لابن الكيزانى الصوفى المعاصر لصلاح الدين وله أشعار صوفية بديعة، وفصلت القول في ابن الفارض وبجاهداته الروحية وعشقه الرباني، وفنائه وانغمائه في الذات الإلهية إنحاء كليا.

وكان الشعراء المصريون يتغنون بمدح الرسول ﷺ من قديم، وأخذ هذا المدح يزدهر في زمن الحروب الصليبية وأكبر ملاح مصرى للرسول البوصيرى ويشتهر بمدحه النبوية المسماة بالمعزية، وربما فاقتها روعة ميمته المسماة بالبردة، وظلت القصيدتان تنشدان - إلى اليوم - في حفلات الموالد وحلقات الذكر الصوفى. وولتقى في العصر العثمانى بمحمد بن أبى الحسن البكرى، وله أشعار يصور فيها بعض مواجده الصوفية، وسؤاله الرسول الشفاعة له يوم القيامة. وألمت بشعراء الفكاهة وعرضت في ترجمات ابن مكنسة والجزار والسراج الوراق طرائف من فكاهاتهم كما عرضت عند ابن دانيال مسرحياته الفكاهة وخاصة مسرحية «طيف الخيال» وهى عمل تمثيلى بديع. وألمت بهامر الأنطولى في أيام العثمانيين ومعارضته الفكاهة لألفية ابن مالك وغيرها. وعرضت جوانب من الشعر الشعبى وثلاثة من أعلامه هم: إبراهيم المعمار وتورياته المستصلحة، والفبارى وأزجاله المتنوعة وابن سودون وفكاهاته المضحكة سواء في وصفه لزوجه ليلة الدخلة أو في رثائه لأمه أو في حديثه عن عجائب الطبيعة، وفيها جميعاً يعتمد على المنطق اعتداء يجعل قارئه يستغرق في الضحك.

وينهى النثر وتزدهر الرسائل الديوانية فيه منذ أيام ابن عبدكان كاتب أحد بن طولون، ومن أعلام الكتاب الديوانيين في عهد الفاطميين ابن الصيرفى، وتتميز لغة كتابته بالسجع والسهولة والتوشيح لها بالألفاظ القرآنية والمحسنات البديعة. ولتلقى بالقاضى الفاضل أهم كتاب مصر، وهو رأس مدرسة ظلت حية في أيام الأيوبيين والمماليك، وهى تلتزم السجع مع صفاء التعبير ومع الإكثار من المحسنات البديعية والعناية بالتورية. ومن كبار الكتاب في أيام المماليك محبى الدين بن عبد الظاهر وابن فضل الله العمرى، وتطبع كتابتها الديوانية بطوابع كتابة القاضى الفاضل.

وتكثر الرسائل الشخصية من تهنئة وشكر وعتاب وتعزية واعتذار منذ أيام الفاطميين وتعمها خصائص الكتابة الديوانية لأن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين، ومن أهمهم ابن أبى الشخفاء في زمن الفاطميين، وسجعانه خفيفة رشيقة مع صفاء اللفظ ورسائله. وابن عمادى كاتب الدواوين في عهد صلاح الدين رسائل شخصية يعنى فيها بالسجع ومحسنات البديع ومراعاة النظير وحسن التعليل. ويتميز ابن مكناس في أيام المماليك بالسجع الرشيق والاستعارات والتوريثات والجناسات البديعة مع خفة الروح والعذوبة والسلاسة.

ويعنى غير كاتب بصنع مقامات منذ أواخر الدولة الفاطمية، ولا تدور على الشحادة الأدبية المعروفة في مقامات الهمذاني والحريري، بل تدور على المحاورات أو على عرض بعض مسائل علمية أو على المفاخرات أو على حديث قصصى أو على وعظ، ومن نلتقى بهم فيها ابن أبي حجلة المغربي، وله مقامة بديعة في وصف فيضان النيل، والقلقشندى وله مقامة في وصف صناعة الإنشاء وتكريظ صاحب ديوانها، وأخرى في المفاضلة بين العلوم، والسيوطى وله مقامات كثيرة، وأغلبها مفاخرات تدور بين الأزهار أو بين الفواكه أو بين البقول أو بين المطور، والشهاب الخفاجى أيام العثمانيين وله مقامات مختلفة، منها مقامة رومية في وصف القسطنطينية، وفيها يهاجم منصوفتها وعلماءها ومفتيها، ويختمها بمديح السلطان العثماني. وتتكاثر المواعظ والابتهالات وقد ترجمت في عَرْضها لأبى الحسن الشاذلى إمام الطريقة الشاذلية، وذكرت قطعة من حزبه الكبير، كما ترجمت لابن عطاء الله السكندري وذكرت بعض مواعظه، وبالمثل لأحمد الدردير أيام العثمانيين وذكرت قطعة من ورده أو حزبه المشهور. وعرضت كتب النوادر والسير الشعبية بأدنا بكتاب المكافأة لابن الداية، وتلوته بأخبار سيبويه المصري، وكان ينقد الحكام نقدا به كثير من السوم. وتحدثت عن كتاب الفاشوس في حكم قراقوش لابن محاق، وكتاب هز القحوف ليوسف الشريفي وما يحملان في نوادرهما من سخرية لازعة بالحكام، كما تحدثت عن كتب السير والقصص الشعبية: سيرة عنتره والسيرة الملالية وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة سيف بن ذى يزن وعن ألف ليلة وليلة.

الفهرس

صفحة	
١٢ - ٥	مقدمة
٦٨ - ١٣	الفصل الأول : السياسة والمجتمع
١٣	١ - فتح العرب لمصر والحقب الأولى
	(أ) فتح العرب لمصر
	(ب) زمن الولاة
	(جـ) الطولونيون
	(د) الإخشيديون
٢١	٢ - الفاطميون - الأيوبيون
	(أ) الفاطميون
	(ب) الأيوبيون (صلاح الدين)
٣٤	٣ - المماليك - العثمانيون
	(أ) المماليك
	(ب) العثمانيون
٤٤	٤ - المجتمع
٥٦	٥ - التشيع : الدعوة الفاطمية الإسماعيلية
٦٠	٦ - الزهد والتصوف
١٦٠ - ٦٩	الفصل الثاني : الثقافة
٦٩	١ - الحركة العلمية
٨٨	٢ - علوم الأوائل - علم الجغرافيا
	(أ) علوم الأوائل
	(ب) علم الجغرافيا
١٠٨	٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

صفحة

٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام	١٢٨
٥ - التاريخ	١٥١
الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء	١٦١ - ٢٥٦
١ - تعرب مصر	١٦١
٢ - كثرة الشعراء	١٦٦
٣ - شعر دوري ورباعيات وموشحات وبديعيات	١٧٢
(أ) الشعر الدوري	
(ب) الرباعيات	
(جـ) الموشحات : العزازی . ابن الوكيل	
(د) البديعيات	
٤ - شعراء المديح : المهذب بن الزبير ، ابن قلاقس ، ابن سناء	
الملك ، ابن نهابة ، عبد الله الشبراوی	١٨٥
٥ - شعراء المراثي والشكوى	٢١٩
على بن النضر . على بن عرام . ابن النقيب : الحسن بن شاور .	
عبد الله الإدكاوی	
٦ - شعراء الدعوة الإسماعيلية	٢٣٩
ابن هاني . المؤيد في الدين الشيرازی . طاهر الحداد .	
الفصل الرابع : طوائف من الشعراء	٢٥٧ - ٣٩٩
١ - شعراء الغزل	٢٥٧
ابن النبيه . البهاء زهير . ابن مطروح . برهان الدين القيراطی .	
نور الدين على المسيلي .	
٢ - شعراء الفخر والهجاء	٢٩٧
تميم بن العز . طلائع بن رزك . ابن النروی . أحمد بن	
عيد الدائم . حسن البدری الحجازی	
٣ - شعراء الطبيعة ومجالس اللهو	٣٢٢
ابن وكيع التنيسي . الشريف العقيلي . ابن قادوس . عبد الباقي	
الإسحاقی	

٤ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ٣٤٢
ابن الكيزاني . ابن الفارض . البوصيري . محمد بن أبي الحسن
البكري

٥ - شعراء الفكاهة ٣٦٧
ابن مكنسة . الجزار . السراج الوراق . ابن دانيال . عامر
الأنهوتي

٦ - شعراء شعيون ٣٨٦
إبراهيم المعمار . الفباري . ابن سودون

الفصل الخامس : النثر وكتابه ٤٠٠ - ٤٨٩

١ - الرسائل الديوانية : ابن الصيرفي . القاضي الفاضل . يحيى
الدين بن عبد الظاهر . ابن فضل الله العمري ٤٠٠

٢ - الرسائل الشخصية ٤٢٤
ابن أبي الشخباء . ابن محاق . فخر الدين بن مكناس

٣ - المقامات ٤٤٢
ابن أبي حجلة . القلقشندي . السيوطي . الشهاب الخفاجي

٤ - المواعظ والابتهالات ٤٦٠
أبو الحسن الشاذلي . ابن عطاء الله السكندري . أحمد الدردير

٥ - كتب النوادر والسير والقصص الشعبية ٤٧٧
(أ) كتب النوادر

كتاب المكافأة . أخبار سيبويه المصري . كتاب
الفاشوش في حكم قراقوش . هز القحوف .

(ب) كتب السير والقصص الشعبية

سيرة عنقرة . السيرة الملالية . سيرة الظاهر بيبرس . سيرة سيف
ابن ذي بزن . ألف ليلة وليلة

خاتمة ٤٩٠ - ٤٩٨

